

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

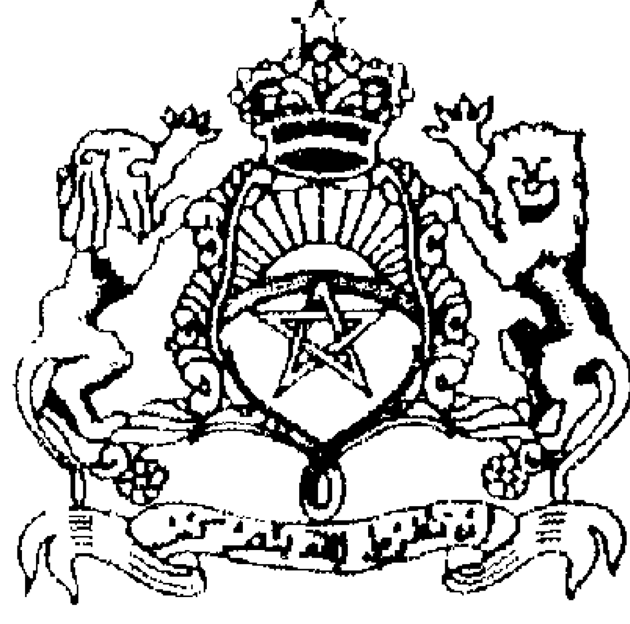
سلسلة "التراث"

ديوان ابن فركون

تقديم وتعليق

محمد ابن شريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة "التراث"

ديوان ابن فركون

تقديم وتعليق

محمد ابن شريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة "التراث"

دِيوَانُ ابْنِ فُرْكُونَ

تقديم وتعليق

مُحَمَّدْ ابْنْ شَرِيفَةْ

عضو أكاديمية المملكة المغربية

الطبعة الأولى 1407-1987

تقديـــم

تنشر أكاديمية المملكة المغربية المشمولة برعاية مؤسسها العاهل العظيم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله هذا الديوان الشعري الأندلسي الذي اكتشف أخيرا في المغرب.

ويرجع الفضل في ظهوره إلى معالي الأستاذ الجليل والأديب الكبير السيد الحاج محمد باحنيني، الذي يملك نسخته الخطية الوحيدة، وقد تكرّم سيادته بما هو معهود فيه من أريحية وسخاء، ونبل وعطاء، فأهدى مشكورا هذه التحفة الفريدة إلى خزانة الأكاديمية.

وعندما انتدبت إلى إعداد هذا الديوان للنشر وتصفَّحته أول مرة لفت نظري أن ناسخه المجهول على ما يبدو كتب في غلافه وعلى طرّة الورقة الأولى منه ما يلي :

ديوان ابن الخطيب، ورغم جمال الخط الذي كتبت به هذه العبارة فمن الواضح أن كاتبها لا يعرف شعر ابن الخطيب، وهو لو قرأ الديوان لوقف خلاله على اسم صاحبه الذي هو أبو الحسين ابن فركون.

أما نسخة الديوان فيبدو من خطّها وورقها أنها نسخة حديثة، ولعلها انتسخت في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وقد أشير في بعض طررها إلى الأصل المنتسخ منه، وتجدر الإشارة إلى أن هذه النسخة التي تفتتح الورقة الأولى منها بالبسملة والتصلية خالية من أي مقدمة أو ديباجة، كما أنها تخلو من أي إشارة تشعر بخاتمتها، وتدل بعض الإحالات فيها على أنها لا تمثل الديوان برمته، وهي مرتبة حسب الموضوعات كالعيديات والمقترحات والأخوانيات وغيرها.

وقد عارضت هذه النسخة الوحيدة بما يوجد من قصائدها في مجموع «مظهر النور الباصر»، و«ديوان ملك غرناطة» ؛ وشرحت ما رأيته يتطلب الشرح من الكلمات الغريبة، والإشارات الخفية، وعنيت بالتعليق على بعض أسماء الأعلام والأماكن، ولكني اقتصدت في الشرح والتعليق تجنبا للطول، كما صوّبت ما وقع في النسخة من خطأ، وسددت ما ترك بها من فراغ ناصّاً على ذلك أحيانا، وساكتا عنه أحيانا أخرى، وذيلت الديوان بفهارس لأسماء الأعلام والأماكن والأشعار الواردة فيه.

وإنه ليسعدني وقد أنجزت إخراج هذا الديوان أن اتقدم بوافر الشكر إلى معالي الأستاذ الحاج محمد باحنيني على جوده به، وإلى أكاديمية المملكة المغربية على مبادرتها بطبعه، سائلا المولى عز وجل أن يحفظ صاحب الجلالة راعي الأكاديمية العظيم، بما حفظ به الذكر الحكيم.

مقدمة

طالما شكا المؤرّخون من غموض الحقبة الوسطى في تاريخ مملكة غرناطة النصرية، ونعني بها تلك الحقبة التي تقع بين أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل الربع الأخير من القرن التاسع.

وإذا كانت مؤلفات ابن الخطيب، وتاريخ ابن خلدون، وأشعار ابن زمرك، وبعض ما كتبه النباهي، ونبذة العصر لمؤلف مجهول، تؤرخ للحقبتين الأولى والأخيرة من تاريخ الدولة النصرية، فإن المصادر العربية التي تتعلق بالحقبة الوسطى اعتبرت مفقودة، واعتمد المؤرخون في معرفتها على المدوّنات القشتالية، بيد أن هذه المدونات Cronicas إذا كانت وافية ودقيقة فيما يرجع إلى أخبار الممالك المسيحية وأحوالها فإنها ليست كذلك فيما يخص تاريخ مملكة غرناطة الاسلامية، وأشير على سبيل المثال إلى أن المستعرب الغرناطي الاستاذ سيكو دي لوثينا وقف حياته وجهوده على محاولة ضبط تاريخ هذه الحقبة وتصحيح أوهام المصادر المسيحية فيما يخص أسماء بعض ملوك هذه الحقبة وترتيب تولّيهم الملك، وتحديد تواريخ حكمهم، وقد مات وفي نفسه شيء من حتى، وفي ذهنه علامات استفهام شتّى.

ومن حسن حظّنا اليوم أن بعض مصادر الرواية العربية لهذه الحقبة قد أخذت تظهر شيئًا فشيئا كما أشرت إلى ذلك في مقدمة دراستي عن الشاعر البسطي آخر شعراء الأندلس، وهي وإن كانت مصادر ثقافية ككتب التراجم والبرامج، أو أدبية كبعض الدواوين والمجاميع الشعرية، أو فقهية كالوثائق والفتاوي فإنها في عمومها تلقي بعض الأضواء على الجوانب السياسية أيضا.

وإذا كنّا لم نعثر بعد على كتاب «الروض الأريض» لابن عاصم الابن فإن كتابه «جنّة الرضى» الذي ظهر بالخزانة الحسنية العامرة يشتمل على الرواية العربية المفقودة

حول فترة مضطربة هي فترة محمّد التاسع و«دُولِه» الأربع مع ما تخلّلها منْ دُوَل غيره، وهذه الرواية لم يتمكن الأستاذ سيكو دي لوثينا من استخدامها في كتابه. عن محمد التاسع : MUHAMMAD IX SULTAN DE GRANADA

وقد ظفرنا في المدة الأخيرة بمجموع شعري نفيس كان في طي العدم، وليس له ذكر في أي مصدر من المصادر الموجودة حتى الآن بين أيدينا.

وهذا المجموع عبارة عن ديوان للشاعر أبي الحسين ابن فركون الغرناطي، شاعر البلاط النصري في عهد السلطان أبي الحجّاج يوسف الثالث الملقب بالنّاصر.

أما صاحب الديوان فقد كنا نعرف اسمه فحسب من خلال مجموع شعريٍّ عُنوانُهُ : «مظهر النور الباصر، في أمداح مولانا أبي الحجاج الملك الناصر»، يوجدُ السِّفرُ الثاني منه مخطوطًا في الخزانة العامّة بالرباط بِخطِّ أبي الحسين ابن فركون المذكور، وفي مقدمة هذا السفر ما نصه : «يقول العبد الذي شرّفه مولانا الناصر لدين الله بجمع أمداحه على اختلاف فنونها...».

وقد كان هذا المجموع المخطوط في ملك أحمد المنصور الذهبي السعدي وعليه طابعه وتملُّكه، وفي ورقة منه تعليق بخطه.

وأما يوسف الثالث فهو الملك الثالث عشر في ترتيب ملوك غرناطة النصريين، وهو صاحب الديوان الذي نشره مَرَّتَيْن الأستاذ الجليل السيد عبد الله كنون عن نسخة ملوكية عثر عليها في سوس المرحوم الاستاذ المختار السوسي، ويبدو أنّها بخطّ أبي الحسين ابن فركون أيضا.

ويوسف الثالث هو أيضًا ــ كما تأكد اليوم ــ مؤلف كتاب «البقية والمُدْرَك، من كلام ابن زمرك» الذي وقف عليه المقري بتلمسان، وقال انه : «من تأليف بعض سلاطينها بني الأحمر، وهو حفيد ابن الأحمر المخلوع سلطان الأندلس» ؛ وقد أثبت في أزهار الرياض ونفح الطيب مقدمته، وأورد معظم ما اختاره الملك الشاعر من شعر ابن زمرك.

وتقدّم هذه المصادر الأربعة ــ ولا سيما ديوان ابن فركون الذي ننشره اليوم ــ مادة مهمة، تكشف عن شخصية يوسف الثالث، وأيام ملكه، وسياسته الداخلية والخارجية، وجلُّها ــ إن لم أقلْ كلّها ــ كانت مجهولة.

إن لديوان أبي الحسين ابن فركون قيمتين كبيرتين : أولاهما أدبية تشهد أن الشعر الأندلسي حافظ على فخامته التي كان يُظنّ أنها انتهت بانتهاء عصر ابن الخطيب وابن زمرك ؛ والقيمة الثانية تاريخية ووثائقية، وقد تكون أهمّ من الأولى.

وقبل أن نتناول هاتين القيمتين بالدرس والتحليل لا بد لنا من التعريف بصاحب الديوان ابن فركون، فمن هو هذا الشاعر ؟

التعريف بابن فركون :

إنه أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن هشام[1] القرشي المعروف بابن فُرْكون (بضمّ الفاء كما ضبطها هو بخط يده دائما في «مظهر النور الباصر»)[2].

وأبو الحسين هذا هو ولد أبي جعفر أحمد بن فركون[3] أحد تلاميذ ابن الخطيب، ومن خاصّته الذين انقلبوا عليه، وكادوا له، وقد كان ابن الخطيب، أثنى على أبي جعفر المذكور عندما كان راضيًا عنه، ووصفه بأنه «شعلة من شعل الذكاء والادراك»، فلما كان منه ما كان ذمّه في كتابه «الكتيبة الكامنة»، وقد اشتغل أبو جعفر هذا بالكتابة السلطانية في عهد الغني بالله بترشيح من أستاذه ابن الخطيب، وكان هذا يكلّفه بنسخ مؤلفاته، ولمّا فارق لسان الدين مخدومه الغني بالله وأوى إلى المغرب، كان أبو جعفر ابن فركون مع المحرّضين على ابن الخطيب، كابن زمرك والقاضي النّباهي «وأنكر المعروف، ونسي الظرف والمظروف» حسب تعبير ابن الخطيب ؛ ويبدو أنه بالغ في الإساءة إلى شيخه الذي رَبّاه وخَرّجه، ونلمس شدة حنق ابن الخطيب على تلميذه العاق الجاحد في قوله :«جرْوٌ مَحْقور، وفي جلده كَلْبٌ عقور، وسفيه، يقال عند ذكره : كفاك اللهُ شر من احسنت إلَيْهِ» إلى أن يقول : «وعدل الله كفيل باتّباعِه، وقَصّ باعِه، ومجازاة خَتْله، وإهداءِ كبده إلي من بعد قتله، ليُجْعل مَتْنُها على العضّة الدّامية، ويُشوى باقيها على النار الحاميّة». ولا نعلم شيئا عن حال أحمد بن فركون مع ابن زمرك الذي

(1) في سلسلة هذا النسب المرفوع بعض اختلاف بين المصادر.

(2) راجع مظهر النور الباصر، مخطوط خ.ع.ر. رقم 23ج.

(3) انظر ترجمته في الاحاطة 1 : 220 والكتيبة الكامنة : 305 ونفح الطيب 7 : 287. تحقيق د. إحسان عباس.

(4) الكتيبة الكامنة : 306.

خلف ابن الخطيب بقية عهد الغني بالله، وخلال عهد ولده يوسف الثاني، وحفيده محمد السابع، الذي بطش بابن زمرك، فكان مصرعه أشد قسوة من مصرع ابن الخطيب، ونجد لابن فركون والد صاحب هذا الديوان بيتين فيهما غمزٌ ولمز وتعريضٌ بابن زمرك[5].

وقد استطاع بذكائه أنْ ينجو من لهيب تلك الدسائس المتعاقبة، وتحوّل من الكتابة إلى القضاء، إذْ نجد في هذا الدّيوان أنّه كان عام 799 هـ قاضيا في برجه[6]، ويبدو أنه ظل في القضاء حتى آخر حياته، ففي آخر ديوان أبي الحسين هذا نراه يشير إلى سفر والده المذكور من غرناطة إلى موضع قضائه عام عشرين وثمانمائة[7]، وكان يومئذ شيخا في الثالثة والسبعين من عمره، إذ أن مولده عام سبعة وأربعين وسبعمائة.

وكان يمدح السلطان في المناسبات، وقد ذكر له والده مجموعة من القصائد التي مدح بها السلطان يوسف الثالث عام 811 هـ وما بعده. وهي موجودة في «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر».

هذا عن أحمد بن سليمان ابن فركون والد صاحب الديوان، ولا بأس من الاشارة إلى جده سليمان الذي يفهم من كلام ابن الخطيب أنه كان من أهل العلم، إذ أنه استجاز لولده أحمد شيوخ بلده، وصرّح أنه ترجم له في الاحاطة[8]، ولكننا لم نجد هذه الترجمة في النسخة المطبوعة، ولا فيما رجعنا إليه من نسخها الخطية، ولعله أسقطها كما أوصى بإسقاط ترجمة تلميذه أحمد من الاحاطة، وعلى كل حال فإن ابن الخطيب يصف سليمان جدّ صاحبنا أبي الحسين بعد أن تغير علَيْهِ بأنه «معدن الحمق الذي أعيا الراقي، والسحر المركّب العراقي»[9]، ويورد ابن الخطيب أبياتا لتلميذه أحمد بن فركون يشكو[10] فيها إليه والده «وقد سَرَق له بعض ما أحسنت به له» كما يقول.

---

(5) نفح الطيب 7 : 287.

(6) انظر ص 168 من هذا الديوان.

(7) انظر ص 259 من هذا الديوان.

(8) يقول ابن الخطيب في ترجمة تلميذه أحمد بن سليمان ابن فِركون تحت عنوان أوليته مانصّه : «قد مرّ ذلك في رَسْمِ جده قاضي الجماعة وسيأتي في رَسْمِ والده.»

(9) الكتيبة الكامنة : 305.

(10) المصدر نفسه.

و لابدّ من التذكير في الأخير بأشهر أعلام هذه الأسرة قاضي الجماعة أحمد بن فركون[11]، وهو الجد الأعلى لأبي الحسين صاحب هذا الديوان، وإليه تنصرف شهرة ابن فركون إذا أطلقت، وقد نوّه به ابن الخطيب وابن خاتمه والنباهي وغيرهم من مؤلّفي كتب الطبقات، وأصله من المرية، ولكنّه نشأ في غرناطة، ودَرَس بها، وأصبح قاضي الجماعة فيها، فهو مؤسس هذا البيت الذي سقنا أعلامه في هذا النّسق رفعًا لأيّ التباس، وحتى هذا العلم الشامخ الذي نوه به ابن الخطيب في الاحاطة عاد بعد خصومته مع حفيده، فوصفه في الكتيبة الكامنة بأنه كان «شديد القحَة والصَّلَف، مُزْريا بالخلف والسلف، يدعو المشيخة بأسمائها، فتَشْجَى بغمائها، وينبزها بالْقابِها، فَتَنْجَجِرُ بأَنْقابِها، تُلوي برِقابِها».

أما أبو الحسَيْن صاحب الديوان، فلا توجد له ترجمة في المراجع الموجودة، ولعل ابن عاصم عرف به في الروض الأريض المفقود الآن.

ولا نعرف له اسمًا إذ أنه يذكر نفسه ويذكره غيره دائما بأبي الحسين، وقد ذكر في ديوانه أخًا له صغيرا بكنية أبي العلى[12]، وقد تكون هاتان الكنيتان اسمين لهما، وذلك ككنية أبي بكر مثلا التي أصبحت من الأسماء.

وقد وجدنا في شعره ما يدل على تاريخ مولده وذلك في قصيدته التي نظمها في الجناب النبوي «وقد أطّل موسم عام ثمانية عشر وثمانمائة» وفيها يقول :

أَ مِنْ بَعْدِ ما لاحَ المشيبُ بِلِمّتي ... صباحًا هَداني ليلُه وهو مُظلِمُ
تجَهَّمَ وَجْهُ الْأُنْسِ وهْوَ بِمَفْرِقي ... أزاهِرُ في خُضْرِ الرّبى تتبسّمُ
لعمّتِهِ في الفَوْدِ فضلُ ذؤابَةٍ ... عَلَى لمّةٍ كادتْ بهِ تتلثّمُ
هوالوارِدُ المرغوبُ عنهُ فكُلّما ... ألَمَّ بفَوْدٍ وفْدُهُ، يَتألّمُ
جوادٌ ولَمْ يُسْأَلْ وَفيٌّ ولَمْ يَعِدْ ... مُرَدَّدُ وَعْظٍ وهو لا يَتَكلَّمُ
ومن بعْدِ ما مَرّت ثلاثونَ حِجّةً ... وسَبْعٌ يُرامُ الأُنْسُ أو يُتَوَهَّمُ
وقاربْتُ مِنْ مَرْمى الأشُدِّ رَمِيَّةً ... تُقَرْطِسُها مِنْ حادثِ الدّهْرِ أسْهُمُ

(11) ترجمته في الاحاطة 1 : 153 والكتيبة الكامنة : 101 وريحانة الكتاب والمرقبة العليا : 138 ودرة الحجال 1 : 41 ونيل الابتهاج : 64.

(12) انظر ص 259 من هذا الديوان.

وصوّح مرعًى للشَّبيبَةِ مُـخْصِبٌ وأيّ شبابٍ مونِقٍ ليْسَ يَهْـرَمُ[13]

ومعنى هذا أنه ولد حوالي 781 هـ.

وقد ورث عن أبيه الذكاء الحاد والنّبوغ المبكر إذ نجدهُ في عام ثمانية وتسعين وسبعمائة يقول الشعر وكان يومئذ طالبًا صغير السن كما يقول، وفي هذا التاريخ اطلع الشريف أبا العباس الحسني على قصائد من نظمه فكتب له ما نصّه :

تباركَ اللهُ من نجلٍ قد اجتمعت محاسنُ الأب فيه وهْوَ يزداد
فَلا بَرِحْتُ أرى منكَ الّذي علمَتْ عَنْ جدّه المُنْتقى مصرٌ وبَغْـدَادُ[14]

يشير إلى الأب أحمد بن فركون وجدّ هذا الأب قاضي الجماعة أحمد ابن فركون، والشريف أبو العباس المذكور هو ولد أبي القاسم الشريف السبتي شارح مقصورة حازم، يقول ابن الخطيب في ترجمته : «رسمت هذا الفتى في الكتَبَة، سني المرتبة، ثم استعملته في القضاء، خالعًا عليه ملابس الارتضاء...»[15] وقد كان أبو الحسين ابن فركون وثيق الصلة بهذا الشريف وبأخيه أبي المعالي قاضي الجماعة في عهد محمد السابع أخي يوسف الثالث، وبينه وبينهما مطارحات شعرية، جاء في الديوان :

«وكتب إلَيّ أخوه (أي أخو أبي العباس المذكور) قاضي الجماعة الشريف المعظم أبو المعالي أبقى الله حظوته وقد تقّدم في ذلك العهد للكتابة السلطانية دوني من آثره صاحبُ الخُطّة بها ما نصّه في محرم عام خمسة وثماني مائة»[16].

ومما جاء في قطعة أبي المعالي يواسي أبا الحسين ابن فركون :

اصْبِرْ فعمّا قريبٍ أنتَ واردُ مَا تَهْوَى من العِزّ غَمْرًا غيْرَ ما ثَمَدِ
وَلاَ يـهِضْكَ بتأخيرٍ تقدّمُهُـمْ إن الفَذالِكَ تَأْتي آخرَ العَـدَدِ[17]

---

(13) ص 205 من هذا الديوان.

(14) ص 171.

(15) الكتيبة الكامنة : 301 ونيل الابتهاج : 76 وورد ذكره مراراً في جنة الرِّضَى لابن عاصم وكذلك في المعيار للونشريسي ونفح الطيب.

(16) ص 173 وانظر في أبي المعالي هذا نيل الابتهاج : 76. ونفح الطيب 5 : 198.

(17) هذا من قول المتنبي : وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا. والفذلكة هي قول الحاسب إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا.

وَكَمْ جوادٍ، جيادُ الخيل تسبقُـهُ   أُولَى الرّهانِ، قد استَوْلى علَى الأَمَدِ

ومن هنا نفهم أن أبا الحسين كان يتطلّعُ ــ وهو شاب يافع ــ إلى الانخراط في ديوان الإنشاء بعد أن اكتسب الأدوات وامتلك المؤهلات كجمال الخط ــ الذي اشتهر به والده كذلك ــ وجودَةِ الإنشاء، وإحكام النظم وغير ذلك، ولهذا لمْ يلبث أن تحقق لأبي الحسين ما بشره به قاضي الجماعة الشريف أبو المعالي الحسني «فارتسم ــ كما يقول ــ في كتاب المقام العلي في اليوم الرابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وثماني مائة»[18].

وقد هنّأه الفقيه القاضي أبو عبد الله الأَلْيُري[19] بقوله :

هنيئًـا يـا سليـلَ أُولي النّجابَـهْ   بماقُلّـدتَ مـنْ سامـي الكتابَـهْ
ويَهْـنيها فقـد ظفـرَتْ بِكُـفْءٍ   حَوَى من كـلّ مَعْلُـوّة لُبابَـهْ
أراكَ اللـهُ فيها مـا تَمَنّـى   مـن النِّعَـم الـجِسام المُستطابَـهْ
وزادكَ بعدَهـا جاهًـا عظيمًـا   تنـالُ بـه الخَطابَـة والحِجابَـه[20]

ولما مات محمد السابع، وبويع يوسف الثالث، أشار الشريف أبو المعالي قاضي الجماعة على أبي الحسين أن يحتال لنفسه، ويتقدم إلى السلطان الجديد بمدائحه، قائلا له من قطعة :

فاحتَلْ لنَفْسِكَ فيما تتحِفَـنّ بـهِ   كلاّ أو استَرْفِدِ الأعْلامَ تهْـديها
الشّمسُ بالرّبْـوَة الحَمْـراءِ مُشْرِقَـةٌ   كَمْ نِعمَةٍ لِلْهُـدَى لأرَيْبَ تُسْديها

فأجابه أبو الحسين بقصيدة جاء فيها :

سِبْـطُ النبـيّ حبـاني مـنْ عَقائِلِـهِ   بِبِنْتِ فِكْرٍ يَـروقُ السَّمْـعَ شاديها
مُشيرَةٌ بالْتِماسِ الرِّفْدِ مِـنْ عَلَـمٍ   ماضَلّت الخَلْقُ قَصْدًا وَهْوَ هاديها
قَدْ لاحَ بالرُّبْوة الحمراءِ شَمْسَ هُدًى   فَلَيْسَ يَخْفى عـن الأبْصارِ بـاديها

(18) ص 180.

(19) ترجمته في نيل الابتهاج : 291.

(20) انظر الديوان ص 180.

فما قَبَضْنا اللُّهى لَوْلا مَكارِمُهــا ولاَ بَسَطْنــا يَــدًا لَوْلاأيــادِيها[21]

فرفع أبو الحسين قصائد متتابعات ولَعلّ أولها هي التي يفتتح بها هذا الديوان، ومطلعها :

إلـيكَ تباشيـرُ البشائِـرِ مُقْبِلَـهْ تَلـوحُ بآفــاقِ الهُــدَى مُتَهلّلَــهْ

وفيها يهنّىء السلطان بتولّي الملك قائلاً :

فَهُنِّئْتَ ما استقبَلْتَ يا مَلِك الهُدَى من العِزِّ لا زالتْ سُعودُك مُقْبِلَهْ

لَقَـدْ قَلَّـدَ الرّحمَنُ أمْـرَ عِبــادِهِ إمامًا لَهُ في العَـدْلِ أرْفَـعُ مَنْزِلَـهْ

ثُمَّ يقول على طريقة المتنبّي[22] :

فَعبْـدُكَ يُهْـديها إلـيْكَ وسائــلاً أبى اللهُ أن تُلْفَى بجودِكَ مُهْمَلَهْ

أَقِلْـهُ أنِلْـهُ وَفِّ مـا قَـدْ وعَدْتـهُ قديمًا وبَلِّغْـهُ الـذي مِنْكَ أمَّلَــهْ

وشفع هذه القصيدة، ليومٍ ثانٍ، بقصيدة ثانية، بدأها بالاشارة إلى خلاص السلطان من السجن وحلوله بدار الملك، قال :

هنيئًا فصُنْع اللهِ وافاكَ بالـبُشْرى وأبْـدَى مُحَيّـاهُ الطّلاقَـةَ والـبِشْرا

وهَلْ هو إلاّ الصّنْعُ أهْداكَ آيَـةً فكانتْ على نَيْلِ المُنَى آيةً كُبْرى

هُوَ القَدَرُ المحتومُ حَيّا بِهِ الهُـدى فَبُعْدًا لعُسْرٍ أُعْقِبَ اليُمْنَ واليُسْرا

حَلَلْتَ بدارِ المُلْكِ والسّعْدُ يَقْتَضي لمُلْكِكَ أنْ يَلْقَى بها العِزّ والنّصْرا

وأشْرَقَ ذاكَ الوجْـهُ بالقُبّـة الّتـي عَجائبُهـا تُـرْوَى وأنْعُمُهـا تَتْـرَى[23]

وفيها يشير إلى وفائه للملك خلال سجنه فيقول :

---

(21) الديوان ص 176.

(22) أقصد بيته المشهور :
أَقِلْ أَنِلْ اقطَعْ احمِلْ عَلّ سَلّ أعِـدْ زِدْ هشَّ بشَّ تـفضّل ادْنُ سُرَّ صِلِ

(23) الديوان ص 2.

بِحَقِّكَ يا مولايَ لا تَنْسَ عهْدَ مَنْ يُحـادثُ مَـولاهُ بأفكـارِه سِرّا
فَكَمْ باتَ في جَمْرِ الغَضا مُتقلِّبًا وذكرُك يُذْكي في جوانحِهِ جَمْرا
إلى أنْ رأى ذاكَ المُحَيّا فأصْبَحَتْ صُدورُ القَوافي تشرَحُ القَلْبَ والصَّدْرا

وكان يطمع أن ينشد قصيدته بين يدي الملك، ولكن ذلك لم يتحقق له فقال :

وقَـدْ نـذَرَ المَمْلـوكُ إنْشادَ هـذِهِ لَدَيْكَ، فما وَفَّى يَمينًا وَلا نَذْرا(24)

ثم رفع إلى السلطان في آخر شهر ذي الحجّة أي بعد حوالي شهرين من جلوسه على العرش قصيدته المحبوكة التي مطلعها :

حادِيَهـا أيْـنَ بِهـا تَـذْهَبُ إذْ لَيْس عَنْ وِرْدِ المُنَى مَذْهَبُ

وفيها يقول :

فالْهاميـانِ رحْمَـةً لِلْـوَرَى : نوالُـهُ، والمطـرُ الصيّبُ
والنيِّـرانِ في ظَـلامِ الدُّجَـى : جَبينُـهُ الـمُشْرِقُ، والكـوكَبُ
والطيّعـان لعُلَـى مُلْكِـهِ بعَدْله : الـمَشرِق، والمَغْـرِب
والماضيـانِ منـه يـوم الوَغـى : عَزْمَتُـهُ، وسَيْفُـه المُـرْهِبُ
والأشْرَفـانِ بِحُلَـى مُلْكِـهِ : مدحـي لمولاي، ومـا أكْـتُبُ
والنّاصران : مَـنْ لِمَرْوانِهـا يُنْمـى، ومـنْ لسَعْدِهـا يُـنْسَبُ
ذلكَ مَـلْكٌ أصلُـهُ مَكّـةٌ وذا إمـامٌ أصْلُـهُ يَثْـرِبُ(25)

وقدْ أتَتْ هذه الوسائل أُكْلَها إذ ما لبث السلطان أن اظهر على عبده أثر القبول، وفاتح بتبليغ الأمل والسول، كما يقول(26)، وقد عيّنهُ أوّلا في وظيفة يقول فيها : «أمَرَ لي أيّدهُ اللّه بِتَنْفيذ الغُزاة بِحَضْرته العليّة وسائِر البلادِ النّصْريّة، وأبطأ الظّهير الكريم بذلك في العَلاَمة، فقلتُ في منتصَف ربيع الآخِر عامَ أحَدَ عشَر وثماني مائَة».

(24) الديوان ص 4.
(25) الديوان ص 5 وهو يشير الى عبد الرحمن الناصر الأموي ويوسف الناصر.
(26) الديوان ص 176.

ويبدو في قصيدته شيءٌ من إلحافه وقلّة لباقته إذ يقول :

ولكـنّ يـا مـولايَ أمـرُكَ نافـذٌ فَما بالُهُ في مَطْلَبِ العبْدِ يُبْطِىءُ[27]

ومع هذا فقد لُبّي مطلبُه بعد خمسة أيام، جاء في الديوان : «ولما وجّه إليّ الظّهيرَ الكريمَ قُلْتُ أشكرُ نعمتَه في اليوم العِشرين من ربيع المذكور»[28]

وفي هذه القصيدة يقول :

أَمَوْلايَ، قدْ بلّغتَني كُلّ مطـلَب بِفَيْض نوالٍ جودُه يُخجل المُزْنـا
ولِمْ لاَ وقدْ وافَتْ علامتُك الّتي لها الحُسْنُ في شفْعِ الزِّيادةِ بالحُسْنَى[29]

أما العلامة المذكورة في هذا البيت فهي عبارة «صَحّ هذا» التي كان يوقّعُ بها ملوك بني نصر ظهائرهم، وقد ذكرها ابن زمرك في بعض شعره[30]. وأشار إليها شاعرنا في قوله :

ومَنْ أنْحَلَتْهُ «صحّ هذا» بِوَعْدِهـا فبالنّـاصِرِ المَوْلَـى يَصِحُّ ويَبْـرأ
تَخُـطُّ اليَـدُ الغَـرّاءُ مِنْهـا علامَـةً يُقَبِّلُهـا وهْـوَ الوجيـهُ المُهَنّـأُ[31]

وأما خُطّة تنفيذ الغُزاة فهي مراقبة النفقات المخصّصة لِلْغُزاة والمجاهدين المتطوعين[32].

ومن التاريخ المذكور أصبح أبو الحسين في خدمة يوسف الثالث، وغدا شاعره المختصّ به، المؤرّخ لأيامه بشعره، ثمّ ازداد منه قربًا، بعد أن اختاره لتولّي كتابة سرّه، عام أربعة عشر وثماني مائة[33] ؛ وبهذا صارَ ملازمًا له في الحضر والسفر، ينشد القصائد بين يديه في الأعياد والمناسبات، ويقول الشعر في مختلف الوقائع والأزمات، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة ممّا جرى في عهد الناصر إلاّ سجّلها.

(27) الديوان ص 20.
(28) الديوان ص 20.
(29) الديوان ص 22.
(30) الديوان ص 20.
(31) أزهار الرياض 2 : 135.
(32) انظر كلمة تنفيذ في قاموس دوزي.
(33) الديوان ص 90.

وكان الملك من جهته حفيا بكاتب سره، يسمّي له أولاده، ويمنحه الهبات، ففي الديوان أنه وهبه مرّة سرّيّة رومية ووَهبه مرة أخرى ثوبًا من حرير(34).

وقد أصبح أبو الحسين ابن فركون بفضل منصبِه وأدبِه مرموقًا في المجتمع الغرناطي، يخطب أهل العلم والأدب ودّه، ويطلبون شعره، فمنهم الشريف أبو المعالي الحسني قاضي الجماعة، وأخوه كبيره أبو العباس، وبين أبي الحسين وبينهما مجاوبات عديدة، أشرت إلى بعضها فيما سبق، وعندما ولد لأبي الحسين ابن فركون ولده أحمد ليلة السبت السابع لرجب عام عشرين وثماني مائة هنأه الشريف أبو العباس بقصيدة أتبعها بنثر يقول فيه : «وقد عجلت الكتب لسيدي تخفيفًا عليه، ثم غلبني الشوق فنهضت نحو الجنان إليه، لتعلموا أني لم أضيع واجبا في جنابكم العالي ولا شغلني شاغل عن قصد تلك المعالي، فعُرِّفت أن الوقت معمور بما شغّف الباطن من تضييع الخدّام، والتفريط في حال قرة العين عافاه الله ووقاه من جميع الآلام» ونعرف سر انشغال أبي الحسين بأمر ولده المشار إليه في هذه الرسالة من قوله : «لم يبق بقيد الحياة لِهذا العهد من إخوانه غيره، ولعلّه يبقى بفضل الله (الديوان : 262 ــ 265).

ومن إخوانه الفقيه القاضي أبو عبد الله الأُليري الذي رأيناه فيما سبق يهنئه بمنصب الكتابة.

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن حاتم المالقي الذي خاطب أبا الحسين من جبل طارق بقصيدة طويلة ذيلها برسالة في الشوق إلى لقائه فأجابه بقصيدة يتلوها شيء من النثر في آخر شعبان عام أحد عشر وثمانمائة (183 ــ 189).

ومنهم الفقيه القاضي أبو الفضل ابن أبي جماعة الذي دارت بينه وبين أبي الحسين أشعار مؤرّخة بعام 809 هـ (الديوان : 189 ــ 193). وهو من أعلام ذلك العصر.

ومنهم أبو عبد الله ابن الأكحل (الديوان : 193)، والفقيه الأستاذ أبو بكر ابن الأيسر (34 م)، والفقيه الكاتب أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم بن قطبة، وهو من الأسرة الغرناطية المشهورة، وبينه وبين أبي الحسين مجاوبة شعرية مؤرخة بعام 808 هـ (الديوان : 194 ــ 196)، وأبو زكرياء يحيى بن السراج الرُّنْدي، وأبو القاسم

(34) الديوان ص 124 و ص 127 و ص 40.

(34) م انظر في ابن الأكحل : الإحاطة 3 : 204 وفي ابن الأيسر : وثائق غرناطية : 143 ــ 144.

ابن حاتم المالقي، وسيأتي الكلام عليهما.

لا نعرف كيف عاش ابن فركون بعد وفاة يوسف الثالث، ولا ماذا كان مآله خلال الأحداث الناجمة بعد زوال دولة مخدومه، وكل ما نعرفه أنه جمع شعره بعد وفاة الملك الناصر، إذ أنّه يترحم عليه في آخر ما قاله أو جمعه.

بفضل هذا الشعر التسجيلي الجامع أصبحنا نعرف بكيفية مفصّلة تاريخ حياة الملك يوسف الثالث، والعهد الذي ملك فيه، ومدته عشر سنوات ؛ إذ ان الذين تحدثوا باختصار عن هذا الملك من قبل — مثل السيد عنان[35] والسيدة أريبه[36] — إنما اعتمدوا على مصادر قشتالية، أمّا الآن فلدينا رواية عربية كاملة معاصرة لتاريخ هذه الحقبة، تتمثّل في شعر ابن فركون، وفيما جمعه من شعر غيره، وفي شعرِ مخدومه يوسف الثالث نفسه، فقد كان هذا شاعرًا بل لعلّه أكبر شاعر ملك أنجبته الأندلس بعد المعتمد بن عباد، وديوانه المنشور أكبر من ديوان المعتمد.

وكان هذا الملك الشاعر مولعًا ولَعًا شديدًا بالشعر، فقد جمع كما أسلفنا شعر ابن زمرك[37]، كما كان مولَعًا بالمطارحات الشعرية، مقرّبًا للشعراء، يستمع إلى قصائدهم في عيدي الفطر والأضحى وغيرهما من المناسبات، وقد جمع خديمه أبو الحسين ابن فركون الأمداح التي قيلت فيه في مجموع سماه «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» يقع في عدة أسفار، ووَصل إلينا منها السفر الثاني من نسخته الأصلية بخط ابن فركون الملوكي المذهب الجميل، وقد كان هذا المجموع في ملك المنصور الذهبي، وله توقيفات وتعليقات على بعض الأبيات فيه، ثم انتهى إلى خزانة الباشا الجلاوي، ويوجد السفر الثاني ضمن المجموعة التي وصلت من هذه الخزانة إلى الخزانة العامة بالرباط، وهو يشتمل على ما قيل في مناسبات عام واحد هو عام 811 هـ، ويعلم الله عدد الأسفار الأخرى ومآلها.

إن هذه الثروة الشعرية لها — كما أسلفت — قيمة مزدوجة :

قيمة أدبية كما هو واضح، وأغلب الظن أنها كانت نموذجًا يُحتذَى لشعراء المديح في عهد الشرفاء السعديين والعلويين.

---

(35) انظر كتابه : نهاية الأندلس ص 153 وما بعدها. ط 3.

(36) انظر كتابها : إسبانيا المسلمة في عهد النصريين ص 127 وما بعدها.

(37) أدرج معظمه المقري في أزهار الرياض 2 : 11 — 176 ونفح الطيب 7 : 162 — 265.

وقيمة تاريخية تمثل — كما قلت من قبلُ — الرواية العربية المفقودة حول يوسف الثالث وعصره ؛ وسنعرض هذه الرواية حسب التخطيط الآتي :

1 — يوسف الثالث ومملكة غرناطة في عهده.

2 — شخصيته وسيرته.

3 — علاقاته بالممالك النصرانية.

4 — علاقاته بالمملكة المغربية.

1 — يوسف الثالث ومملكة غرناطة في عهده :

هو السلطان أبو الحجّاج يوسف الملقب بالناصر لدين الله ولد السلطان أبي الحجاج يوسف الملقّب بالمستغني بالله، ولد السلطان محمد الخامس الملقب بالغني بالله.

وُلد في منتصف ليلة الجمعة السابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وسبعين وسبعمائة[38] (15 يوليوز 1376)، وذلك في عهد جدّه الغني بالله، وهو عهد بلغت فيه دولة بني الأحمر ذروة مجدها، وقمّة عزها.

وكان كبير إخوته : أبي عبد الله محمد، وأبي الحسن علي، وأبي العباس أحمد، كما أن والده أبا الحجاج هو أكبر أولاد الغني بالله الخمسة.

وقد نشأ هؤلاء الأولاد والأحفاد في رعاية الغني بالله يستظلّون بوارف ظلّه، ويرفلُون في وافر فضلِه، وقد حفظ لنا يوسف الثالث في كتابه «البقيّة والمُدْرَكُ، مِنْ كلام ابنِ زَمْرَك» طائفةً من «الاعذاريات» أو القصائد العصماء التي وصف فيها هذا الشاعر الوزير تلك الاحتفالات الكبيرة التي كان الغني بالله يدعو إليها أهل الأندلس والمغرب، وتُجْرى فيها الجياد في الملاعب، ويُستدعَى إليها أصحاب الألعاب على اختلاف أصنافهم، ومنها قصيدة قيلت بمناسبة إعذار يوسف الثالث وأخيه محمد[39]، وأخرى في إعذار أخويهما أبي الحسن وأبي العباس سنة 789 هـ[40]، وأقتبس من الأولى قول ابن زمرك يصف كيف تقدّم يوسف وأخوه في غير خوف إلى العاذر الذي أجرى لهما عملية

---

(38) ورد هذا التاريخ في رخامة قبره المنشورة في كتاب لفونتي القنطرة عن النقوش العربية الغرناطية ص 41 وكذلك في كتاب لـ بروفنسال حول النقوش العربية الاندلسية ص 171.

(39) أزهار الرياض : 2 : 74.

(40) المصدر نفسه : 81 وصبح الأعشى 5 : 202.

الختان حسبما تقتضيه السنة النبوية :

وقدْ كانَ رَوْعُ الحفْلِ رَوّعَ أهلَهُ وأُشعرتِ الإشفاقَ تلكَ المحافِلُ
فأبدَتْ به أبناءُ نجلِكَ أوْجُهًا تُبينُ إلى السّارينَ مِنْها المَجاهِلُ
فلا الحفْلُ مَرْهوبٌ ولا الخطْوُ قاصرٌ ولا السِّربُ مُرْتاعٌ ولا الرَّوعُ هائلُ
ولا القلْبُ مَنخوبٌ ولا الحِلْمُ طائشٌ ولا العقْلُ معقولٌ ولا الفِكرُ ذاهِلُ(41)

لا نعرف تاريخ إعذار الأمير يوسف هذا ولكنه وقع في الغالب وهو دون العاشرة(42).

وكما دوّن يوسف الثالث قصيدة ابن زمرك التي تسجّل أشهر حدثٍ في صباه، فإنه أشار في مقدمة «البقية والمدرك» إلى بعض شيوخه، وأولهم أبو عبد الله الشّريشي وقد وصفه بقوله : «معلّمُنا الثقة المجتهد» وقال فيه في موضع آخر : «الشيخ العمدة معلّم الجُمْلة منّا كتابَ الله وسنّة رسوله ﷺ» وقد ذكر ابن الخطيب الذي ترجم للشريشي في الاحاطة والكتيبة والريحانة أنه تَرَقّى بإشارته «إلى التي لا فوقها من تعليم وَلَدالسلطان والرياسة القرآنية بباب الإمارة والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة»(43).

ومن الشيوخ الذين تثقف بهم أميرنا يوسف : أبو محمد عبد الله ابن جزي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن علاق، وأبو مهدي ابن الزيات، وهؤلاء هم الذين اقتصر على ذكرهم مضيفا قوله : «وغيرهم».

لقد تلقى الأمير يوسف ثقافة علمية وأدبية متينة كما تدل على ذلك كتاباته وتعليقاته وأشعاره.

ولما توفي الغني بالله سنة 793 هـ (1391 م) خلفه ولي عهده يوسف الثاني والد صاحبنا وكان هذا يومئذ في الخامسة عشرة من عمره تقريبا، وقد رشحه السلطان والده لولاية عهده نظرًا لأنه أكبر أولاده، ولعلمه وأدبه، وكفاءته ومروءته ؛ وغضب أخوه محمد، وهبّ مع بعض أنصاره إلى الحمراء، وتنسب الرواية المسيحية إلى سفير مغربي

(41) المصدر نفسه.

(42) انظر حكاية توسيط يوسف الثاني الوزير ابن الخطيب ليكلم والده الغنى بالله في شأن إعذاره «إذ كان قد جاوز سن الاثغار، دون إعذار» نفح الطيب 6 : 27.

(43) الاحاطة 3 : 168.

كان موجودا في القصر دورًا في تهدئة الثائرين وتفرقتهم[44]، ولم تطل مدة يوسف الثاني في الحكم، إذ توفي في 16 ذي القعدة عام 794 هـ (3 أكتوبر 1392)[45]، وأفلح ولده محمد المذكور بالاعتماد على حزبه في الاستيلاء على الملك وإبعاد أخيه إلى سجن شلوبانية حيث ظل معتقلا إلى سنة 810 هـ (1408)، وهكذا أصابته حُرْفَة الأدب الذي كان به حفيا، وبأصحابه معتنيا.

إنّ في ديوان يوسف الثالث قصائد متعددة قالها أيام السجن أو «أيام الوحشة» كما يسمّيها، منها ما هو في رثاء والده، ومنها ما هو في عتاب أخيه، وبعضها الآخر في الحنين إلى غرناطة ومعالمها كنجد والسّبيكة والمُصلّى وغيرها.

فمن النوع الأول قوله من قصيدة :

فإن دمِعَتْ عيناكَ فلتبكِ يوسُفًا   فَذاكَ بموصولِ المدامــع أجْــدَرُ
إمـامٌ لــه في الصّالحاتِ تقــدُّمٌ   ولـيس لَـهُ في المَعْلُـوات تَأخُّـرُ
تولّى فَوَلّى بعدَهُ الأُنسُ وانقَضَى   فَـلاَ أثـرٌ إلاّ الأَسَى والتفكُّـرُ[46]

وقوله أيضا :

خليلَيّ أيْنَ الصّبْرُ منّا ويـوسُفُ   وأيــنَ أياديـهِ الكريمَــةُ تُعْــرَفُ
وأيــنَ ليــالٍ بالسَّبيكَــةِ نِمْتُهــا   ولا مَنْظَرٌ للدّهـرِ نحويَ يَطْـرِفُ
علَيّ ظِـلالٌ مِنْ عنايـة يـوسُفٍ   ودوني حُسامٌ للخلافــة مُرْهَــفُ
تُباكِرُني تَتْـرَى عَوارِفُـه ضُحًــى   وَيَنْتابُنــي تَسْآلُــه والتعَــرُّفُ
فَـلا هِمَّـةٌ للقـلْبِ فيها تَهَمُّــمٌ   ولاَ كُلْفَـةٌ للنّـفسِ فيها تكلُّــفُ
وَحاجات نفسٍ لَمْ أُراقِبْ مكانَها   فكانَ لَها مِنْهُ الرّضَى والتّعَطّـفُ
لَقَلْبِـيَ أوْلى أنْ يـذوبَ تفطُّــرًا   وعَيْني بِقاني الدَّمْعِ تَهْمي وتَذْرِفُ
تَبَلّدَ فِكْري عندَ فَقْدِيَ يوسفًــا   وخامَرَ قَلْبِي مِنْهُ ما ليسَ يوصَفُ[47]

(44) نهاية الأندلس : 150.
(45) إسبانيا المسلمة في عهد النصريين : 122 ونزهة البصائر والأبصار للنّباهي.
(46) ديوان يوسف الثالث : 67.
(47) المصدر نفسه : 144.

وهو يعاتب أخاه السلطان محمد في مطولته التي مطلعها :

لَعَلَّ خيالَ العامِرِيّة يخطُرُ ... بأجفانِ عانٍ قَدْ بَراهُ التّستُّرُ

فيقول :

وقدْ يَحفَظُ المَرْءُ الكَرِيمُ إخاءَهُ ... ويَلْقَى عليْهِ الموتَ والمَوْتُ أَحْمَرُ
ويصبِرُ لِلأزْماتِ صَبْرَ محافِظٍ ... وفاءً ليَغْنَى خِدْنُه وَهْوَ مُعْسِرُ
فكَيْفَ بمَنْ أصْفاكُمُ الوُدّ كُلَّهُ ... ويَدْفَعُ عَنْ أعراضِكم حينَ تذكر
أبوكُمْ أبوهُ دونَ وُدٍّ مضاعَفٍ ... وعطْفٍ على مَرّ الزمانِ يُكَرّرُ
إذا لَيْلَةٌ بالسُّقْمِ ضاقَتْ جُفونَكمْ ... تبيتُ لها أكبادُه تتسَعّرُ
فَهَبْكُمْ تناسَيْتُمْ ذِمامي فَما الّذي ... دعاكُمْ لذاكَ القولِ وهو مُزَوّرُ
أأضْمَرْتُمُ غَدْرًا لإظْهارِيَ الْوَفا ... وأظْهَرْتُم ضدًّا لِما أنا أُضْمِرُ[48]

وهذه المطوّلَةُ تربو على الثمانين بيتا، وهي كما يقول : «من أوليات القصائد التي نظمناها» وقد نفهم من هذا أنّهُ لم يبدأ قول الشعر إلا في السجن وأنّهُ كان من العوامل في تفجير موهبته الشعرية، وعلى كلّ حال، فهو عندما سجن كان في العشرين أو دونها من عمره.

وهو في عتابه يميل إلى اللين حينًا، ويجنح إلى العنف حينا آخر كما في قصيدته :

أعاذِلُ يَكْفيكَ التطاولُ بالهَجْرَ ... ألا نَفَسٌ يَسْرِي يُنَفِّسُ من ضُرّ

وفيها يقول مشيرًا إلى الفرق بين أخلاقه وأخلاق أخيه :

وَما غرّني جهلٌ ولكنْ أُبوّةٌ ... رعَيْتُ لها حقَّ المكانَةِ والبِرّ
أطارِحُهُ شَجْوي فَيُصْبحُ لي شجًا ... تَعَرّضُ لي بينَ اللّهاةِ أو النَّحْرِ
وأوسعتُهُ حِلْمًا فظنّ بأنّني ... رَهِبْتُ وأنّ الحِلْمَ يَصْدُرُ عَنْ ذعْر
يمُنّ بما يُسْدي كأنْ لِيَ حاجَةٌ ... إلَى وُدّه المَمْقوتِ أو خُلْقِه الوَعْرِ
سيُعْلَمُ مَنْ مِنّا يُسِرّ ندامَةً ... إذا وَضَحَ الإصباحُ عَنْ صادِقِ الفَجْرِ

(48) المصدر نفسه : 68.

ومن ذا يُرى المَفْؤودَ مِنّا إذا غَدا   رَهينَ الرَّدَى يُقْتادُ بالنّاب والظُّفرِ
إذا لم يكن للمَرْءِ دينٌ مع النّهى   فَلَسْتُ إلَى ذاك الإخاءِ بِمُضْطَرِّ[49]

وله في الحنين قصائد رقيقة، ومنها قصيدته التي يقول فيها مشيرًا إلى سجنه :

فإنْ سُدّتِ الأبوابُ بَيْني وبَيْنَكُمْ   سَتَقْضي مُنَانَا شَمْأَلٌ وجَنوبُ
فَباللّهِ ياريحَ الجَنُوبِ تأمَّلي   أيُلْقَى سَلامِي مِنْ حَبيبي قَبولُ
وإن جُلْتِ بالحَمْراءِ فاقْرِيْ تَحِيّتي   دِيارًا خَلَتْ مِنّي فَهُنَّ طُلُولُ
وَهُبّي على القَصْرِ الكَبيرِ عَليلَةً   فإنّ بِهِ أهْلَ الْحَبيبِ حُلولُ
وَقُولي : غَريبٌ أَتْلَفَ الحُبُّ قلْبَهُ   لَهُ أنَّةٌ لا تَنْقضِي وَ عَويلُ[50]

ومن ذلك قوله أيضًا :

إلَى تاجِ السّبيكَةِ فالمُصَلَّى   تُغاديكَ الصّبابَةُ والهُيامُ
إلَى سُكْنَى الأُلَى حَلُّوا بنجْدٍ   سَقاهُ ـ غيْرَ مُفْسِدِه ـ الغَمامُ
رُبوعٌ عافَها قلبي بكُرْهٍ   كَما عافَتْ مواردَها الحَمامُ
تَعافُ بها مُجاورَةَ الأعادي   وشاقَتْهَا المعاهِدُ والخِيامُ
تَقَسَّم جيرتي وصحابَ وُدّي   رياضٌ في رُباها أو رِجامُ
ففي أطباقِها أطوادُ عِزٍّ   وفي آفاقِها قَمَرٌ تَمامُ
فيا هَلْ يَرْتَوي مِنْها صَدايَ   ويا هلْ يَنْطَفي هذا الأُوامُ
وهَلْ بَعْدَ القطيعةِ مِنْ وِصالٍ   وهلْ يُلْفَى لِفُرقتِنا نِظامُ

إلى أن يقول في الّذينَ لم يرعوا عهدَهُ :

رَعيْتُ عهودَهم فأُضيعَ عَهْدي   فَسِيّانِ الإضاعَةُ والذِّمامُ
كأنّي لَمْ أكُنْ فيهِمْ جَميعًا   وتُفْرِدُني التحيّةُ والسّلامُ

---

(49) المصدر نفسه : 82.
(50) المصدر نفسه : 192.

كأنّي لمْ أكُنْ فيهِمْ وسيطًا ولمْ يَكُ مَحْتدي المَلِكُ الهُمامُ
كذلك دأبُنا أحْمي وأُقْني فَلاَ مالٌ ولا عِرْضٌ يُضامُ
«أضاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» إذا حَلّتْ بعِقْوتِها الطّغامُ
«أضاعوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» لسدّ الثغْرِ ثلّتُهُ اللّئامُ
«أضاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» كَنَصْلِ السّيفِ جذّادٌ حُسامُ
«أضاعوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» ليومٍ يُرتجى فيه الجَهامُ

إن هذا الشعر الذي ضمنه الأمير الأسير همومه وشجونه، يخلو من الاشارة إلى التواريخ والوقائع، ولكننا مع ذلك نستفيد منه أنه كان يتتبّع الأحوال وهو في السجن، فقد هزته فاجعة ابن زمرك ورثاه وهو في السجن، ثم كتب فيما بعد كتابة يوضح فيها ظروف قتله وأسبابه، وممّا جاء فيها قوله : «وإن سأل سائل عن الخبر الذي ألْمَعْنا بذكره، وضمّنّا هذا البيتَ فظيع أمرِه، فذلك عندما نَسَب صاحِب الأمر (يقصد أخاه السلطان محمد السابع) إليه ما راب، وتلّه وابنيْهِ للجبين مُعَفّرينَ بالتراب، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يدَيْه يتوسّلُ بآياته، ويتشفّع بعظيم بركاته، فأخذته السّيوف، وتعاورَتْه الحُتوف، وأذْهَبه سَليبا قَتيلا، مُصَيّرًا مِصْراعَ مَنْزِلِهِ كَثيبًا مَهيلا، وكنّا على بُعْدٍ من هذه الآزِفَة التي أورثت القلوبَ شجَنًا طويلاً، وذكّرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله بجانبه أعظمَ ذِكْرى، فأغْرَيْنا برثائه خَلَدًا وفِكْرا»(51).

أما الرثاء الذي أشار إليه فهو قوله :

يَا نائم الجَفْنِ أسْعِفْ دائِمَ السّهَرِ يَبْكي دَمًا لِقتيلِ الصّارِمِ الذّكَرِ
كَمْ ذا الرّقادُ وهذا الدّهرُ يفْجَعُنا أمـا تُفيقُ لِهذا الحادِث النّكُرِ
أوْدى الزّمانُ بمَنْ كُنّا نلوذُ بِهِ في حالَتَيْه معًا في العُسْرِ واليُسرِ
فلاَ تثِقّ بِجُفونٍ بانَ ناظِرُها ولا بمُلْكٍ فقيدِ السّمْعِ والبَصَرِ
غَمِّضْ جفونَكَ لا تَنْظُرْ إلى أحدٍ فليسَ بَعْدَ أُفولِ البدر مِنْ نَظَرِ
واعْجَبْ من الدّهر والأيّام إذ طَمَسَتْ مَطالعَ الزُّهْر أو أخْفَتْ شذا الزّهَرِ

(51) أزهار الرياض 2 : 13 ونفح الطيب 7 : 164.

هل كان إلاّ حَيًا يَحْيَى العِبادُ بِهِ ... هَلْ كان إلاّ قذًى في عين ذي عَوَرِ
إن قالَ قَوْلاً تَرى الأَبْصارَ خاشِعَةً ... لِما يُحَبِّرُ مِن وَحْيٍ ومن خَبَـرِ
أوْ قامَ في مُنْتدًى أوْ حَلّ فيه حُبًى ... أراكَ حلمَ ابنِ قيسٍ في تُقى عُمَرِ
يا لَهْفَ نَفْسِيَ لَوْ قد كُنْتُ حاضِرَهُ ... غَـداةَ جَرَّعـهُ أدْهَـى مـن الصّبْر
لَمـاَ تَـرَكْـتُ لـه شِلْـوًا بمَضْيَعَــةٍ ... ولا تَوَلّى صَرِيـع النّـابِ والظُّفُـرِ
فإنْ عَدانِيَ عَنْهُ مَنْ علَيـهِ عَـدا ... فلسْتُ أيأَسُ أنْ أُدْعَى بمُنْـتصِرِ[52]

ويقول يوسف الثالث في مقدمة البقية والمدرك : «ولمّا تَبَلّج الصّبحُ لِذِي عَيْنَيْن، وتَلَقّيْنا رايَةَ الْفَرَج بالرّاحَتَين، عَطَفَتْنا على أبنائه عواطِفُ الشّفَقة، وأطلَقْنا لهُم ما عاثَت الأَيْدي عَليه صِلَةً لِرحمٍ طالَما أضاعَها مَن جَهِلَ الأذِمّة، وأَخْفَرَ عُهود تخَدُّمِهِ لِمَن سَلَفَ من الأئِمّة، وصَرَفنا للبحْث والتفتيش وجوهَ آمالِنا، وجعَلْنا ضَمّ ما نثرتْه الحوادثُ من منظوماته مِنْ أكيد أعمالِنا، وكانَ تعلّقَ مِنْهُ بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه، مشتملة على ما راقَ وحَسُنَ من نِثارِهِ ونِظامه، فأضفْنا إلى ذلكَ ما وقعَ عليه اجتهادُنا مِنْ رِقاعه الْحائِلَة المُنْتَهَبة بأَيْدي النّوائب، الداثِرَة المسْتَلَبة بتَعدّي النّواهِب»[53].

إن اعتناءَ يوسف الثالث برثاء ابن زمرك، واهتمامَهُ بجمع تراثه، وعَمَلَهُ عَلَى إرضاءِ أولاده وأودّائِه، وإرغامَهُ خصومَه وأعْداءَهُ على تأبينه ورثائِه، هُو إمّا مراعاةٌ لروابط أدبية، أو مجازاة على مواقف سياسية، ولا نستبعد أن يكون ما حدثَ لابن زمرك كان بسبب تعاطفه مع الأمير المعتقل أو دعوته إلى تحريره من السجن.

ومهما يكن الأمر فقد حضرت «العناية الإلهية» وظهرت «الالطاف الخفية» فاستقل من «الخَطْب الكبير» كما يقول، وذلك بوفاة محمّد السابع في 16 ذي الحجّة 810 (13 ماي 1408). وكان هذا قد أمر، وهو في النزع، بقتل أخيه المعتقل، ولما وصل الأمر إلى قائد القلعة صادف الحال أنه كان يلعب الشطرنج مع الأمير، فطلب هذا تأخير التنفيذ إلى إكمال اللعب، وهكذا ربح وقتًا مكّنَ أنصارَه من الإسراع إلى اخراجه من

(52) ديوان يوسف الثالث : 75 ونفح الطيب 7 : 164 وأزهار الرياض 2 : 13.
(53) نفح الطيب 7 : 164 وأزهار الرياض 2 : 13 — 14.

السجن وإحضاره إلى الحمراء، حيث «تولّى الملك يوم الأحد السادس عشر لذي حجّة عام عشرة وثمانمائة»(54).

وهكذا اعتلى عرش غرناطة يوسف الثالث الذي كان ـــ قبل أخيه ـــ أحقّ به، بعد سجن طويل، وعاد، بَعْدَ طَرْدٍ وَإِبْعاد، وهو ينشد من قطعة له :

[ثُمّ] عُدْنـا، والعـودُ أحمدُ، لَكِـنْ إنْ أساءوا فإنَّنـــا مُحْسِنونـــا

وقد ابتهج الناس بعودته، وأقبلوا على مُبايعته، يتقدّمَهُمْ علماء الحضرة الذين كانوا يهتفون به لغزير علمه، ورفيع أدبه، وشريف خلاله، ونبيل شهامته.

وتبارَى الشعراء في مدحه وتهنئته بقصائد نجدها في مخطوط «مظهر النور الباصر»، وأولهم «الوزير الرئيس أبو بكر بن عاصم» وهو الفقيد المعروف صاحب «التحفة» و«الحدائق» وغيرهما من المؤلفات، وقد سبق لَهُ أن خلَف ابن زمرك في الوزارة ليوسف الثاني، ولكنّه تخلّى عنها بعد أن اغتصب محمّد السّابع حقّ أخيه ولي العهد يوسف الثالث(55).

ومن هؤلاء الشعراء أبو يحيى ابن عاصم ولد المذكور آنفًا ومؤلف «جنّة الرِّضَى» و«الروض الأريض» و«شرح التحفة» ورجل الدولة خلال الأحداث التي وقعت بعد عهد يوسف الثالث.

ـــ ومنهم عم هذا الأخير وسميه أبو يحيى ابن عاصم شهيد أنتقيرة.

ـــ والشيخ أبو جعفر أحمد بن فركون الذي دخل في خدمة الدولة النصرية مُنْذُ أواخر عهد الغني بالله.

ـــ وولده أبو الحسين صاحب هذا الديوان، وجامع «مظهر النّور الباصر».

ـــ والشريف أبو العباس الحسني ولد قاضي الجماعة أبي القاسم شارح مقصورة حازم.

ـــ وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل مؤلف كتاب «تحفة الأنفس، وشعار سكان الأندلس» وغيره، وقد ألّفه برسم محمد السّابع، وأطنب في الدعاء له في المقدمة

---

(54) ورد هذا التاريخ في رخامة قبره؛ أما قصة الشطرنج فهي مذكورة في المصادر المسيحية.

(55) مقالة لويس سيكودي لوثينا حول أسرة بني عاصم.

والخاتمة، ومع ذلك فقد رفع أكثر من قصيدة إلى السلطان الجديد، وهو يشكو في إحدى قصائده من الإقصاء والإهمال (بسبب ما ذُكر غالبا) :

فَعبْدُكَ يا مَوْلايَ أقصاهُ دَهْرُهُ وأهملَه إذْ ظَلّ بالأرضِ يُلصقُ

وبلغ به الإملاق مبلغًا جعلَهُ يقول :

وزنْبيلِيَ المثقوبُ ما فيه مُسْكَةٌ وأنّى لَهُ الإمساكُ وهْوَ مُمَزّق

ويقول إنّهُ يقبل أي وظيفة مدنية كانت أم عسكرية :

فإنْ لمْ يكُنْ في الاشتغالِ ولايةٌ فإنّي أصيلٌ في القيادةِ مُعْرِقُ
ومازلتُ في هذا وذاكَ مُسَخّرًا ومُسْتَعْمَلاً في حيثُ أسْمو وأسْمُقُ[56]

ــ والفقيه الخطيب أبو عثمان سَعْد بن يوسف الأُلْيُري، ويبدو من شعره أن بضاعته في الأدب مُزْجاة، ولكنه كان أثيرًا لدى يوسف الثالث، خفيفًا على قلبه، وبينهما مداعبات نثرية وشعرية وردت في ديوان السلطان الشاعر[57] الذي كانت له عناية بخطباء حضرته عامة، وخطيب الحمراء أبي عثمان خاصّة، ونفهم سِرّها من قوله يخاطب «أودّاءه الخطباء وهو مخيّمٌ على جبل الفتح» (جبل طارق) :

فيا خُطباءَ المِنْبَرين بحَضْرَتي حِماكُمْ يُناجيني بمَحْضِ وِدادِهِ
دُعاؤكُمْ في اليَوْمِ ينْصُرُ عَبْدَهُ ويَجْزيهِ بالفِرْدَوْسِ يَوْمَ مَعادِهِ
وَكونوا لفَتْحِ المُبْهَماتِ وَسيلَةً لسامِعِ نَجْوى حَيِّهِ وجَمادِهِ[58]

وخاطب أبا عثمان بقصيدة مَهّد لها بقوله : «وَمِنْ عِنايتنا بخَطيب حَمْرائِنا أنْ خاطبناهُ مِنْ ظاهِرِ جَبَلِ الفَتْحِ وَقَدْ وجّهَ إلينا منظومًا فنظَمْنا ما نَصُّه» وفيها يقول :

إذا ما ارْتَقى ذِرْوَةَ المِنْبَرَيْن تَرَفَّعَ عَنْ خطإٍ أوْ خَطَلْ
وأنّى يُضاهَى يُراعُ لَهُ إذا جالَ جَوْلَةَ شَهْمٍ بَطَلْ
أفادَ الكثيرَ وأهْدَى الخَطيرَ فلم يُبْقِ لِلْغَيْرِ إلاّ الأقَلّ

---

(56) مظهر النور الباصر : 143.

(57) ديوان يوسف الثالث : 13، 41، 104 ولأبي عثمان الأليري ترجمة في برنامج المجاري : 147.

(58) نفسه : 49.

فيا مَنْ أعادَ وأبدى الجَميلَ حديثُك تَرْداده لا يُمَلّ
دُعاؤك أنْفَسُ ما يُقْتَنى لِحِزْبِ أقامَ وَرَكْبِ رَحَلْ(59)

ــ ومن هؤلاء الذين رفعوا قصائد إلى النّاصر الشاعر الكاتب الفقيه أبو عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بالشرّان صاحب المنظومة المشهورة في الفرائض(60).

ــ ومنهم أبو القاسم بن حاتم المالقي(61) الذي عيّنه السلطان قاضيا لجبل الفتح، وأبو زكرياء يحيى بن أحمد السراج الرندي، ولهما قصّة مع الدولة سنذكرها فيما بعد.

وثمة أعلام آخرون من المشاركين في هذه الأمداح لم نقف لهم على ترْجمَة، وهم أبو القاسم بن سالم المالقي، وأبو الحسن الغافقي، وأبو القاسم العرادي(61م)، وأبو عامر بن أبي منصور الحسيني.

إن مدائح هؤلاء الشعراء تُصوّر ابتهاج الأندلسيين برجوع الحق إلى نصابه، وعودة الأمر إلى مستحقه، يقول أبو زكريا يحيى بن أحمد بن السراج الرندي :

لمّا تولّى الأمْرَ وهْوَ حقيقةٌ نِعْمَ الأحَقُّ بِهِ وأكرمُ أهلِهِ
وَجَبَ الهَناءُ على العَبيدِ بمَنْ إذا بَخِلَ الغَمامُ أتى بِهِ في سَجْلِهِ
جاءَ الوفودُ مُبايعينَ إمامَهُمْ مُسْتَمْسِكين بحِلْمِهِ وبِعَدْلِهِ
وأتى العَبيدُ مُهنّئين وكُلُّهُمْ قَدْ فازَ مِنْ حظِّ السّرورِ بكُلِّهِ

(59) نفسه : 103.

(60) ترجمة الشران في نيل الابتهاج : 311 وأزهار الرياض 1 : 133 وقد أصبح رئيس الكتاب بعد عهد يوسف الثالث، ووالده «الشيخ الفاضل الماجد الأرفع الاعز الأوْجَد أبو إسحاق» كما وصفه بعضهم، وفي احدى القصائد التي مدح بها الشران يوسف الثالث نراه يشكره ويتوسط لوالده المذكور قائلا (مظهر النور : 160) :

لَقَدْ رِشتمُ في الجاهِ سَهْمِي فانبَرى لأبعَدِ نَهْجٍ مِنْ مَرامِي رامِيا
وإنّ أبي أرْجوكَ فيهِ فَطالَما وَصَلْتَ بأسْبابِ اقْتِراحِي راجِيا
يقولُ بلَغْتُ القَصْدَ يوم غَدَوت مِنْ مَقامِ ابن نَصرٍ لانْفِراجِي راجِيا

(61) نقل عنه ابن الازرق في كتابه روضة الاعلام وقال في تحليته : الشيخ الفقيه الاديب البارع أبو القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن حاتم العاملي المالقي الشهير بابن البنّا» روضة الاعلام : 395 مخطوط خ.ع.ر.

(61م) من أسرة غرناطية كان أفرادها أمناء العطارين. انظر الاحاطة 2 : 276.

حلُّــوا بساحــةِ بابِــهِ فَجَميعُهُـــمْ ما عاش يَحْمَدُ حُسْنَ عُقْبى حَلِّهِ
فلتهْنـــإِ الدّنْيـــا ويَهْنــــأْ أهلُهـــا بِحُلـولِ ميقـاتِ الظُّهــورِ وفَضْلِــهِ
صُنْعٌ مِـن اللـهِ العَظيـمِ تبلّــجَتْ صُبْحًا يَروقُ سَنّى عجائب فِعْلِهِ[62]

وهي تسهب في الثناء على الملك الجديد، وتطنب في تعداد خلاله وخصاله، وتشير إلى الآمال المعقودة عليه.

كان الملك يوسف الثالث ــ غداة مبايعته ــ في الثانية والثلاثين من عمره، وقد قضى حوالي نصفها في سجن شلوبانية، ويبدو أنّه لم يتزوج إلا بعد خروجه من السجن وتوليه الملك، وفي ديوانه أشعارٌ قالها أيام اعتقاله في الحنين والتغزل، وفيها يذكر بعض الأسماء، ومنها اسم إلينورا الأعجمي، ولكن يبدو أنها مجرد أسماء رمزية، وهو يصرح أن تغزله على سبيل المجاز لا الحقيقة، وينبغي أن يكون زواجه وقع في السنة الأولى من حكمه أي في خلال سنة 811 هـ، ولشاعر البلاط ابن فركون قصيدة فَخْمَة مهّد لها بقوله : «وأنشدتُ في إمْلاكِهِ أيّدَ اللهُ مَقامَه، معَ بِنْت الْقائِد المَرْحوم أبي يَزيد خالد مَوْلَى النِّعْمَة النَّصْرية، بالرِّياض السّعيد، وقد اسْتَدْعى أشْرافَ أهْلِ الأنْدلس لذلك، وتَضمّنَتْ كثيرًا مِنْ وَصْف الْحال»[63]. ومطلع القصيدة :

مـا لِلـرّكائبِ لاَ تُجِـلّ جِلالَهـا وتُطيلُ في تلْكَ الرُّبـوعِ سُؤالَهـا

وفيها يذكر الصّنيع الذي أقامه الملك بهذه المناسبة :

هذا وقَدْ وافَـى صَنيـعُكَ لِلْـوَرى فَمـواهبَ الصُّنـعِ الجميـلِ أنالَهـا

ويصف الاحتفالات الشعبية بهذه المناسبة، على نحو ما وصفها ابن الخطيب وابن زمرك قبله :

هذِي السَّبيكَةُ مَلْعبُ الخيلِ الّتـي أَلْـقَتْ بأفئــدةِ العُــداة خَبالَهـــا
إنْ جُرّدتْ بيضُ السّيوفِ لغـارةٍ لَبِسَتْ مِن النّقْـعِ المُثارِ جِلاَلَهـا
فإذا المواكِبُ في مَداها اسْتَشْرَفَتْ مالْلكَـواكبِ في السّمـاءِ ومالَهـا
يا حُسْنَهُ حَطَبًا ويـا عَجَبًـا إذا جالَتْ بِهِ خيْـلُ السّبـاقِ مَجالَهـا

(62) مظهر النور الباصر : 152.
(63) الديوان : 11.

وقد خصّص الشاعر قسمًا من هذه القصيدة للحديث عن وفود بني مرين الذين قدموا إلى غرناطة بهذه المناسبة، قال :

وبَنـو مَريـنٍ والتّجِلّـةُ شأنُهـا أبْدَتْ لَـديْكَ وفودُهـا إجْلالَهـا
أهْلاً بِهِـمْ مِـنْ وافِديـنَ رِكابُهُـمْ حطّت بِمَثْـواكَ الكَريـمِ رِحالَهـا
قـدْ أقْبلـوا مُتَيَمِّنِيـن بدَوْلَـةٍ أحْزابَهـا نَصَرَ الإلَـهُ وَآلَهـا

ويبدو أن يوسف الثالث احتفل بالمناسبة نفسها بإمْلاك أخيه علي، وهذا ما يفهم من قول الشاعر :

واهْنأْ بِهِ إمْلاكَ عِزٍّ لم تَـزَلْ تَبْغـي سُعـودُكَ نَحْـوَهُ إقْبالَهـا
وَلْيَهْـنِ تالِـيكَ الّـذي أوْلَيْتَـهُ مِـنْ أنْعُـمٍ مَـدَّتْ علَيْـهِ ظِلالَهـا
حَتّى تُجَرّدَ في رِضاكَ صِفاحَهـا يَـدُهُ وتـرسِلَ في الوَغـى آسالَهـا

إذ أنّ تالي السلطان هو أخوه معز الدولة كما يصرّح بذلك الشاعر في قصيدة أخرى إذ يقول (الديوان : 81) :

ورَفَعْتَ قَدْرَ أخيكَ تاليكَ الرِّضَى قُطْبِ الرَّحَى الأهْدَى أبي حَسَنٍ عَلِي

أما أبو يزيد خالد الذي تزوج السلطان بنته، وترحم عليه الشا عر، فقد خدم الغني بالله[64]، وكان وزيرًا لوالد السلطان، ثم قتله في ظروف ذكرها صاحب «الاستقصا»[65] وغيره، وهو من علوج النصارى الذين سُبوا وأسلموا، ثم أصبحوا قادة في الجيش وحجّابا، مثل القائد رضوان النصري، والقائد مفرج، والقائد بنّيغش، وغيرهم.

وفي عام 812 هـ رُزِقَ السلطان ببكر أولاده، وسمع أبو الحسين ابن فركون بالخبر، وهو بسقيفة الكتاب، فارتجل قصيدة قصيرة صدّرها بقوله : «ولمّا وُلدَ لمولانا أيّده الله بِكْرُ أولادِه الذي استأْثَر الله به ثانيَ يوْمٍ منْ عَقيقتِه، وكانَ مِنْ بنت القائد المعَظّم

---

(64) انظر قصيدة ابن زمرك التي هنا فيها الغني بالله بمناسبة عودة القائد خالد من تلمسان في أزهار الرياض 2 : 40.

(65) الاستقصا 4 : 81.

المَرحوم أبي يزيد خالِد مَوْلَى نعْمَتِهم الكَريمة في آخر مُحَرّم عامَ اثنَي عشَرَ وثماني مائة ارتجلْتُ بِسَقيفة الكُتّاب ساعةَ الإخْبارِ به :

هنيئًا بِهِ مِنْ عالَم الكَوْنِ وافِـدا وقدْ بلغَ الإسلامُ فيه المَقـاصِدا»[66]

وقد احتفل السلطان بعقيقة المولود حسب العادة المتّبَعَة وسَمّاه يوسف باسمه واسم أبيه، «وفي يوم المَوْسم المشهود، وإجْراءِ عوائِد الكرم والجود، وعقيقة هذا المولود..» قام عدد من الاعلام بإنشادِ قصائدهم في المناسبة، يتقدّمهم الوزير الرئيس أبو بكر بن عاصم، والشريف المعظم أبو العباس الحسني، والشيخ القاضي أحمد بن فركون القرشي، والفقيه الوزير أبو محمد بن مَليح، والقائد أبو يحيى ابن الوزير الرئيس أبي بكر بن عاصم والفقيه أبو الحسن بن هذيل، والكاتب أبو عبد الله الشرّان، والشاعر الكاتب أبو الحسين ابن فركون الذي قدّم لقصيدته في الديوان بقوله : «وأنشدت يومَ عقيقتِهِ السّادسَ لصَفَر عامَ اثنَي عَشَر وثماني مائة»[67] وهي موجودة أيضا في «مظهر النور الباصر» مع قصائد المذكورين، وكلها تطنب في وصف مستقبل الأمير، وتدعوه بولي العهد، وقد شاء الله أن تموت والدة هذا المولود، إثر ولادته، وأن يَلْحَق بها بعد الاحتفال بعقيقته، فتفجّع السّلطان، وأكثر من الرثاء، «ووفي لعَهْد السَّكَنِ الكريم حقَّ الوفاء»، وجاءَ من أجل مُصابه في ولده «بما لا يحصيه القولُ من الإبداع ولا يحُدّه»[68] وتوجد هذه المراثي في ديوان الملك الشاعر، وفي «مظهر النور الباصر» وفي ديوان أبي الحسين ابن فركون.

وكان السلطان الناصر قد تزوج ــ بعد زواجه من بنت أبي يزيد خالد على ما يبدو ــ ببنت قائد آخر كان له ولأولاده فيما بعد ذكر في مملكة غرناطة، وهو القائد أبو السرور مفرج[69]، وهذا ما تدلّ عليه مقدمة قصيدة لأبي الحسين ابن فركون في

---

(66) الديوان : 22.

(67) الديوان : 23.

(68) مظهر النور الباصر : 64.

(69) انظر رسماً نشره لويس سيكودي لوثينا في مجلة الاندلس 1946 يتعلق بوفاة زهر الرياض بنت أبي السرور مفرج المذكور وزوج السلطان محمد التاسع الملقب بالغالب بالله وكانت وفاتها عام 835 هـ ويفهم من الرسم أنها كانت متزوجة قبله فهل تكون هي أرملة يوسف الثالث هذه أم أنها أخت لها، وفي جنة الرضى ذكر للقائد مفرج بن فتوح الذي كان مكين الحظوه عند محمد التاسع المذكور، وفي النقوش العربية الاندلسية لليفي بروفنسال (ص 174) رخامة القائد أبي النعيم رضوان بن القائد ابي النصر فتوح بن القائد ابي النصر فتوح بن القائد أبي السرور مفرج، وانظر الاخبار التي أشار اليها سيكودي لوثينا حول أسرة مفرج في المصدر أعلاه.

المناسبة تقول : «وأنشدتُ في إمْلاكه أيّدهُ الله ونصَره، ودُخولِه ببنْتِ القائد الوَجيه أبي السُّرور مُفَرّج مَوْلى نِعْمته الكريمة، وقد اسْتدْعي وُفود أهْلِ البلاد النّصرية لحضُور هذه الوَليمة بالرّياض السّعيد»[70].

ونجد بعد القصيدة التي ذكرنا مقدمتها قصيدة أخرى هذه مقدمتها : «وقلت أهَنّيءُ مَقامه الكريم، ببنْتٍ وُلِدَتْ له، على إثْر وفاة مَوْلود، وبتاريخ يوم السبت الثامنِ لَرجَب عامَ اثنيْ عشَر وثماني مائة»[71].

ولابدّ أن بنت السلطان هذه هي من زوجه بنت القائد مفرج، أما الولد المشار إليه فأغلب الظن أنه يوسف البكر المتقدّم الذكر.

ثم وُلِد للسلطان ولدُه محمّد الذي سيصبح ولي العهد، ويخلفَ والده في الملك[72]. وعندما كان السلطان بمالقة في ربيع الأول عام 814 هـ جاءهُ البشير بميلاد ولده أبي الحسن علي الذي سُمّي باسم عمّه الأثير عند أخيه السلطان، وقد نظم الشاعر قصيدة بهذه المناسبة، قدم لها بقوله : «وقلتُ مُهنّئًا مقامَه الكريم بِولادة السيّد الأمير أبي الحسن أصْغَرِ وَلَدَيْه الآن، وصلَ الله سعادته، وفي ربيع الأول عام أربعة عشر وثماني مائة وصلَ التعريفُ به من الحَضْرة، والرّكابُ العَلِيُّ بمالَقَة»[73]. ووُلِد للسلطانِ بعد هذا ولدٌ آخر سُمّي باسم عبد الله، وقد نظم الشاعر قصيدة في التهنئة بِهِ جاء في تقديمها : «وفي الموفي ثلاثينَ لِرَجَب عامَ ثمانية عشرَ وثمانِ مائةِ المذكور، وُلِدَ لهُ وَلَدُه عبدُ الله، الذي استأثَر الله به، بعد ذلك بيسير، زمَن الوَباء، فقلت في الهَناء بذلك، مرتجلاً من غير روية»[74].

وفي هذه السنة احتفل السلطان احتفالا كبيرًا جمع فيه بين عقيقةٍ وإعذارٍ وولاية عهد، ونظم الشاعر قصيدة مطولة تشتمل على 136 بيتا، وذكر المناسبة على عادته قائلاً :

«وفي العَشْر الأُخَر لشَهْرِ شَعْبان عامَ ثمانية عشر وثمانِمائة، احْتَفلَ في عَقيقَة ولِده

(70) الديوان : 27.

(71) الديوان : 30.

(72) الديوان : 59 — 60 ولم ترد إشارة الى تاريخ ميلاده.

(73) الديوان : 61.

(74) الديوان : 214.

عبْد الله، وإعْذار أخَويْه، وعقْد البيْعة لِوَلّي عهْده، متولّي الأمرِ بعْده، أيّده اللّه، وأنْعَمَ على الخاصّة والعامّة بما قَدُمَ العَهدُ بمِثْلِه، واستدْعى لذلك أكابِرَ أهْلِ البلاد النّصْرية، وآثَرَهُمْ برَفيع الثّياب، وفاخِر الكُسا، ونَظَمَ خُدّامُ بابِه منَ الشّعراء في ذلك قَصائد، فأُنشدت بقُبّة الريّاض قصيدةٌ أُعْجِبَ بها رَحْمَةُ اللّه ورضْوانُهُ علَيْه»[75].

وفي هذه القصيدة نرى ابن فركون يصف هذه الألعاب التي وصفها قبله ابن زمرك في إعذارياته، فابن زمرك يبدأ وصفه بقوله :

وصاعدَةٍ في الجَوّ مِلْءَ عِنانِها   تُسامِتُ أعْنانَ السّما وَتَطولُ[76]

وابن فركون يفتتحه بقوله :

وصاعِدَةٍ في الجَوّ ألْقَتْ ذيولَها   فَراقَ بآفاقِ السّحابِ انْسحابُها

يذكر الشاعر أن هذا الاحتفال «قَدُمَ العَهْدُ بمثله»، ولعله يشير إلى احتفالات الغني بالله بميلاد أولاده وأحفاده، تلك الاحتفالات التي سجّلها ابن زمرك في قصائدَ جمعها يوسف الثالث، وقد كان حفيد الغني بالله هذا يتشبّه بجدّه في عوائده، ويقتدي به في سياسته الدّاخلية والخارجية كما يقول أبو جعفر ابن فركون :

تَشبّهَ بالجَدِّ الرّفيعِ مَقامُهُ   فأعْظِمْ بهِ عَزْمًا وأحْسِنْ بِهِ هَدْيا[77]

وكما احتفل يوسف في مناسبات أولاده وجدناه يحتفل أيضا في مناسبات أخَويْه، فقد احتفل بإملاك أخويه : أبي الحسن علي الملقب بمعز الدولة، وأبي العباس أحمد، وفي «مظهر النور الباصر» قطعة رفعها الفقيه القاضي أبو القاسم بن حاتم قاضي جبل طارق إلى السلطان، بمناسبة إملاك أخيه الأمير أحمد يقول فيها :

مَدَدُ البَحْرِ للْجداوِلِ فاضَا   مَلأَ الصِّنْوُ مِنْ نَداكُمْ حِياضَا
إنّ أرْضَ السُّرورِ كانتْ مَوَاتًا   فاستقامتْ بكُمْ وعادَتْ رِيَاضَا
مَلِكٌ جَدّ في مِلاَكِ أخيهِ   فتَناهى عَلاؤُهُ واسْتَفَاضَا

(75) الديوان : 216.

(76) أزهار الرياض 2 : 77 وهذه الالعاب الموصوفة نوع من الاراجيح أو النواعير التي كانت شائعة عندنا الى عهدٍ قريب.

(77) مظهر النور الباصر : 86.

إنّ يوْمًا تأسَّسَ العَقْدُ فيهِ ... مِنْهُ يَسْتَنْبِطُ النّهارُ البَياضَا

لَيْسَ بِدْعًا مِنْ يوسُفٍ أنْ تَراهُ ... قادَ لِلإخْوةِ الأماني ورَاضَا

هُوَ أجْرى لَهُمْ عيونَ التحَفّي ... بَعْدَ ما كان فيضُها قدْ غاضَا[78]

ونجد بعض الشعراء يذكرون اسميهما في المدائح السلطانية، يقول أبو جعفر ابن فركون :

وعلِيُّها السّامي العَلاءِ وأحْمَدٌ ... يَسْتقبِلانِ العِزّ من سُلْطانِها[79]

وقد كسب يوسف الثالث بهذا محبّة أخويه، وطاعتهما وإعزازهما لدولته، ولم يقع في عهده ما سيقع في العهود التالية من تناحر على الملك بين الاخوة والأقارب[80]. وكان ليوسف تعلق شديد بأخيه علي الملقب بمعزّ الدولة، فعندما توفي هذا رثاه الملك بعددٍ من المراثي التي تذوب كمدا وحسرة[81].

كان يوسف الثالث يحافظ على أبّهة الملك، ويعتني بإقامة رسومه المعهودة، ويحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى بما جرت به العادة، من استقبال رجال الدولة، وإطعامهم وإكرامهم، وتقبل البيعة المجدّدة منهم، والاستماع إلى الشعراء، ويحتوي «مظهر النور الباصر» على القصائد التي أنشدت بين يدي السلطان بمناسبة عيد الأضحى لعام 811 هـ، كما يشتمل ديوان أبي الحسين ابن فركون هذا على العيديات التي نظمها طوال عهد يوسف الثالث في أعياد السنوات الآتية :

— عيد الفطر عام 811 هـ بغرناطة[82].

— عيد الأضحى عام 811 هـ بغرناطة[83]

---

(78) الديوان : 134.

(79) الديوان : 41.

(80) في المصادر المسيحية أنه سجن ولد عمه محمد بن نصر في شلوبانية، وهذا هو الذي سيتمكن فيما بعد من الخروج من السجن وينتزع الملك من محمد ولد يوسف الثالث ويتلقّب بالغالب بالله، وهو الذي ألف في حقه ابن عاصم كتابه جنة الرضى.

(81) انظر هذه المراثي في ديوان ص 106 و ص 139 و ص 167 و ص 169.

(82) الديوان : 75.

(83) نفسه : 78.

— عيد الفطر عام 812 هـ بغرناطة[84]

— عيد الأضحى عام 812 هـ بغرناطة[85]

— عيد الفطر عام 813 هـ بمالقة[86]

— عيد الأضحى عام 813 هـ بجبل طارق[87]

— عيد الفطر عام 814 هـ بغرناطة[88]

— عيد الأضحى عام 814 هـ بجبل طارق[89]

— عيد الفطر عام 815 هـ بمالقة[90]

— عيد الأضحى عام 815 هـ بغرناطة[91]

— عيد الفطر عام 816 هـ بغرناطة[92]

— عيد الأضحى عام 816 هـ بغرناطة[93]

— عيد الفطر عام 817 هـ بغرناطة[94]

— عيد الأضحى عام 817 هـ بغرناطة[95]

— عيد الفطر عام 818 هـ بغرناطة[96]

---

(84) نفسه : 41، 80.

(85) نفسه : 82.

(86) نفسه : 84.

(87) نفسه : 87.

(88) نفسه : 90.

(89) نفسه : 93.

(90) نفسه : 96.

(91) نفسه : 99.

(92) نفسه : 102.

(93) نفسه : 206.

(94) نفسه : 110 — 112.

(95) نفسه : 113.

(96) نفسه : 238.

ــ عيد الأضحى عام 818 هـ بمالقة[97]

ــ عيد الفطر عام 819 هـ بغرناطة[98]

ــ عيد الأضحى عام 819 هـ بغرناطة[99]

وتشتمل قصائد الشاعر التي نظمها بهذه المناسبات على إشارات إلى وقائع وأحداث سنذكرها فيما بعد.

وفي هذه الأعياد، كما في مناسبات العقيقة والإعذار التي أشرنا إليها فيما سبق، كان يوسف الثالث، يعتني على الخصوص بتوجيه الدعوة إلى أعضاء المجلس العلمي بغرناطة، جاء في ديوانه ما يلي : «ووَجّهنا ارتجالاً إلى مجْلسٍ عُلماء حَضْرتِنا في وَليمَةٍ شَرْعيّة، اتخذنا صَنيعها بالرّياض منْ قُصورِنا، على مااقتَضَتْه عِنايتُنا بمَجْلِسِهِمْ، وتَحفّينا بالمزيد منْ تأنُّسِيهِمْ :

يوْمُنـــا يـــوْمُ صبـــاحٍ مُشْرِقِ ... فَأجيبُـــوا يَـــا نُجُـــومَ الأفُـــقِ
يوسُفِيًّـــا قـــدْ أقـــامَ سُنّـــةً ... نُظِـــمَتْ أشْرافُهـــــا في نَسَقِ
في رِيـــاضٍ حُسْنُهـــا مُتّجِـــدٌ ... شائِـــعٌ في مَغْـــرِبٍ أو مَشْرِق
وأنَـــا يوسُفُهـــا مِـــن دَوْلَـــةٍ ... أُطْلِـــعُ الأنْجُـــمَ مِـــلْءَ الحَـــدَقِ
بيْـــنَ أبطـــالِ جِهـــادٍ تَمْتَطِـــي ... لِلْوَغـــى غُـــرَّ الجيـــادِ السُّبّـــقِ
ووُفـودُ المُـلْكِ قـدْ حَفّـوا بِـــهِ ... دُرَرَ العِقْـــدِ وتـــاجَ المَفْـــرِقِ
بَـذَلَـتْ يُمْنـايَ مـا شاءَ النّــدَى ... وعَلَـــى اللّـــهِ جَـــزاءُ المُنْفِـــقِ
هـذه ــ يـومَ احتفـالِ المُنْتَـــدَى ... يا حُماةَ الدّينِ ــ أسنى خُلُقِي»[100]

وهذه القطعة أشبه ما تكون بلوحة تمثّل الحفل الذي دعا إليه الملك بمناسبة عقيقة أول مولود له عام 811 هـ، وكان صباح العقيقة مشرقا في ذلك «الرياض» العجيب

(97) نفسه : 242.

(98) نفسه : 245.

(99) نفسه : 249.

(100) ديوان يوسف الثالث : 148 ومظهر النور : 9.

من قصور الحمراء، وكان الملك يتوسط المدعوين، وقد حف به قادة الجيش ورجال الدولة، وهو ينثر الهبات على الحاضرين.

2 ــ شخصيته وسيرته :

يُجْمِعُ الشّعراء الذين مدحوا يوسف الثالث على وصف جمال هيئته، وبهاء طلعته، ويذكرون أن اسمه وافق مسماه، وأنه كان بدري الوجه.

وقد ارتجل الشيخ أبو جعفر ابن فركون عندما رآه :

تجلّى مُحَيّاكَ الكَريمُ بِهالَةٍ   مِنَ القُبّة الغَرّاءِ في أَبْدَعِ الحُلا
تَرفّعَ يا مَوْلايَ وجْهُكَ عِنْدَها   فما زادَكَ التّرفيعُ إلاّ تَهلُّلا
فَلَمْ ألْقَ نورَ الشّمْس إلا تَمثّلاً   ولا قَمَرَ العَلْياءِ إلاّ تَخَيّلا
ولَمْ أَمْلِكِ النّفْسَ المَشوقَةَ عِنْدَما   رَأَتْكَ رؤوفًا مُنْعِمًا مُتَفَضّلا
ولَوْلاَ حَيائي مِنْكَ أَلْقَيْتُ في الثّرى   بِوَجْهي ولَمْ أَبْرَحْ لَدَيْكَ مُقَبِّلا[101]

كما ارتجل الشريف أبو العباس الحسني في مثل هذا الموقف :

أقولُ وقد أَبصَرْتُ مَوْلايَ جالسًا   بكُرسِيِّهِ، والنُّورُ منْ حوْلِهِ ٱئتلَقْ :
تبَارَكَ رَبّي بارِىءُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ   وإنّ الذي أَبصَرْتُ أَحْسَنُ ما خَلَقْ
فَعَوَّذْتُ بالسَّبْعِ المثاني كَمالَهُ   وَزِدْتُ لَها الإِخْلاَصَ مَع سورة الفَلَقْ

وقد علّق السلطان أحمد المنصور الذهبي على هذا في النسخة الخطية التي كانت مِلْكًا له بقوله : «لاينبغي لعاقل ان يخرج من فيه، مثل هذا القولِ السفيه»[102].

وأما من حيث شخصيته وأخلاقه، فالمستفاد من شعره، ومن وصف المصادر المسيحية له أيضًا، أنه كان فارسًا نبيلا، مولَعا بركوب الخيل والقنص، وكانَ سياسيا ماهرًا، يميل إلى الرفق بالرعية، ويأخذ بالعفو والصفح، ولو أنه يقول «من باب المداعبة» حسب عبارتِهِ :

---

(101) المظهر : 89.
(102) نفسه : 145.

لايَغُـرنْكَ مِـنْ طِباعـي سُكُــونٌ ومُحَيًّــا يَجــولُ فيــه العَفَـــافُ
أنــا كالصِّلِّ إنْ لَـمَسْتَ فَلِيـــنٌ وَهْـوَ سُمٌّ مَتَـى أُهيـجَ ذُعَــافُ(103)

وكان — كما رأينا — مثلاً فريدًا في البرور بأخويه وأقاربه، حريصًا على الاعتناء بالعلماء والخطباء، وقادة الجند، ورجال الدولة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى عنايته بخطباء الحضرة، وعلى رأسهم الخطيب أبو عثمان الأُلَيْري، وذلك لما كان لهم من تأثير على الجمهور. أما التفاتاتُه إلى الجند وقادته فيشير إليها أبو جعفر ابن فركون في إحدى مدائحه قائلاً :

ولِلّـهِ في يَـوْمِ السّلامِ التفاتَـــةٌ إلى جُنْدِهِ تُنْسي رَشيدًا ومَهْدِيّـا(104)

ومن مخاطبات الاعتناء برجال دولته قوله فيمن اسمُه أبو عثمان سعيد — ولعله سفيره سعيد الأمين — :

واشْكُرْ سَعيدًا لِمَا أوْلَى ومَنْ كأبي عُثمانَ إن حَلّ عَقد الأمْرِ أوْ رَبَطَا
فَتًى سَما في سَماءِ العِزّ مَنْزِلَـةً لَوْ رامَها زُحَلٌ من عُلْوِهِ سَقَطَـا
يُصْفي الوِدادَ ويُولِي الخِلّ صَفْوتَهُ إذا الوِدادُ بِمَذْقٍ شِيبَ أوْ خُلِطَا
نِعْمَ الفَتَى إنْ تركْتُ الأمْرَ في يدِهِ أرضَى الإلَهَ ولم يَحْفِلْ بمَنْ سَخِطَا
جُزيتَ عنّي أبـا عثمانَ أفْضَلَ مــا يُجْزَى الكَريمُ وَعِشْت الدَّهْرَ مُغْتَبِطا(105)

وله في حفظ الود، ورعي العهد لرجال دولته، أشعار عديدة، منها مرثية في مملوك نعمته وصهره القائد مفرج المتوفَّى شهيدًا، وفي هذه المرثية المُخَمّسة يقول مشيرًا إليه وإلى من استُشْهِد معه من المجاهدين :

قَضَوْا فِتَةً — طَوْعَ الجِهادِ — رئيسَةً حَـوَتْ أثَـرًا مَسْموعَـةً وَمَقــيسَةً
فإنْ أصْبحوا نَهْبًا وعادوا فـريسَةً فمــا بَذلُــوا إلاّ نُفــوسًا نَفــيسَةً
وَلَمْ يقصِدوا إلا الجَنابَ المُكَرّما(106)

(103) ديوانه : 145.
(104) نفسه : 86.
(105) نفسه : 182.
(106) نفسه : 118.

ومن هذا القبيل مخاطباته للشّريف أبي العباس أحمد، ورثاؤه له، ومخاطباته السالفة لأبي عثمان الألْيُري، ولكاتبَيْهِ أبي الحسين ابن فركون، وأبي محمد ابن جزي وغيرهم.

وقد اكتسب يوسف الثالث بهذا كلّه محبة شعبه و لم تشهد مملكة غرناطة فتنًا في عهده إلا ما كان من انفصال أهلِ جَبَلِ طارق عام 813 هـ، وهرج البيازين عام 815 هـ.

وكان يوسف الثالث ملكا حازمًا ويقظًا، ومن مظاهر حزْمِهِ ويقظته، كثرة تنقلاته في مملكته، وفي ديوان ابن فركون قصائد كثيرة تسجل هذه التنقلات، وهي إما تنقّلات لتفقّد أحوال البلاد أو لمعالجة القضايا الطارئة أو للاشراف على تنفيذ خِططِه السياسية أو للنزهة والراحة والصّيد.

وله قطعةٌ ارتجلها في إحدى «حركاته» يقول فيها (ديوانه ونفح الطيب) :

فَعَوَّضتُها لَيْلَ الصّبَابَـةِ بـالسُّرى وَأُنْس التّلاقي بالحَبيبِ المُفـارِقِ

وَلَمْ يَثْنِنِي طَرْفٌ مِنَ النُّورِ ناعِسٌ ولاَ مَعْطِفٌ لِلْبانِ وَسْطَ الحدائـقِ

ولاَ مَنْهَضُ الأشبالِ في عُقْرِ غيلِهِمْ ولا مَلْعَبُ الغِزْلانِ فَوْقَ النّمـارِقِ

وعاطَيْتُها صُبْحَ الدّياجي مُدامـةً تَميـلُ بها الرُّكْبانُ فـوْقَ الأيانِـقِ

إذا مـا قَطَعْنـا بالمَطِـيِّ تَنوفَـةً دَلَجْنا لأُخـرى بالجِيادِ السَّوابِـقِ

ولعلّ أول خروج له من غرناطة بعد مُبايعته بالملك بقليل هو الذي يسجله الشاعر أبو الحسين في قصيدة صدّرها بقوله : «وَممّا قلتُهُ مُهنِّئًا مَقامَه الكريم أيّده الله عند عَودَتِه من الوِجْهة إلى قَرْيَةِ وَادَ متنَزّها.. في التاسعِ والعشرين لربيع الأوّل عامَ أحدَ عَشَرَ وثماني مائة»[107]. وَممّا جاء في القصيدة :

بِـوادٍ حَـلَّ مَوْلاَنَـا فَعَـمّتْ رَكائِبُـهُ الغَوائِـرَ والنِّجـادَا

تَـرى كُـلاًّ لَدَيْـهِ مِـنْ يَدَيـهِ يُـراوَحُ بالمَكـارِمِ أوْ يُغـادَا

لقَـدْ شَرّفْتَ مَغْنـاهُ فقُلْنـا بحقٍّ أنْ يَسُودَ ولَـنْ يُسادَا

ستُثْنـي بالّـذي أولَـيْتَ فيـهِ بَنُـو الآمـالِ مَثْنًى أوْ فُـرَادَى

(107) انظر هذا الديوان : 8.

وقَـدْ أوحَشْتَهـا خَمْــرَاءَ مُــلْكٍ فأبْدَتْـــهُ خُلُـــوصًا واعتقــــادَا
كأنَّ الرُّوحَ قَـدْ عـادَتْ لِـجِسْمٍ غَـداةَ احْتلّهـا المَوْلَـى وَعــادَا[108]

ويبدو من وصف الشاعر للطبيعة في هذا المكان أنه يقع على وادي شنيل حيث القصر السلطاني الذي كان الغني بالله يخرج إليه للنّزهة[109]

وفي عام 811 هـ زار مالقة أول مرة، يقول أبو الحسين ممهّدًا لِقصيدة له بالمناسبة «وممّا صدَرَ عَنّي وقد احتلّ رِكابُهُ العِليُّ بمالقة برَسْمِ عَرْضِ جنْدها، في شعبان منْ عام أحدَ عشر وثماني مائة، وأمر أيّده الله، بإراقة الخُمور، وتغيير المُنْكر، وإذاعة أفعال البِر»[110]، وممّا جاء في القصيدة :

أسَلْتَ دَمَ العُنْقودِ في الله مُظْهِرًا لأفعـالِ بِـرٍّ في الوُجـودِ تُذيعُهــا
لذلك جادَ الغَيْثُ منْها أباطحًــا بِها زَهْرُ أزْهارٍ جَلاَهـا رَبيعُهــا[111]

وفي مثل هذا يقول الفقيه الخطيب أبو القاسم بن سالم المالقي :

ولَقَدْ غَـدَتْ بِكَ «رَيَّةٌ» مُرْتاحَــةً مِـنْ بَعْـدِ طُـولِ تَشَوّقٍ وَغَليــلِ
أضْحَتْ بِكُمْ كالرّوضِ باكَرَه الحَيَا وهَما علَيْهـا بَعْـدَ فَـرْطِ ذُبـولِ[112]

وصنيع الملك الناصر هذا في إراقة الخمور، هو كصنيع الحكم المستنصر الذي شكا منه الرّمادي في قصيدته المشهورة[113]. وكصنيع ابن جهور الذي نوه به ابن زيدون في ديوانه[114].

ولمّا عاد السلطان إلى غرناطة، في آخر شعبان المذكور، نَظَم الشاعر قصيدة يهنئه

---

(108) نفسه : 10 — 11.
(109) أنظر أزهار الرياض 2 : 122 ويبدو أنّ قرية وادَ المذكورة هي قرية واطَ (أو حصن واطَ) الواردة في مقدمة الإحاطة وخلال ترجمة عبد الملك بن حبيب.
(110) الديوان : 16.
(111) نفسه : 16.
(112) مظهر النور : 166.
(113) جذوة المقتبس.
(114) ديوانه : 34 شرح وتحقيق كيلاني.

بالقدوم على حضرته العلية، ومنها نفهم أنّه كان يقيم في مالقة بالقصر المعروف بالمُحْدَث :

لمالَقَـةٍ حَـقُّ الـتشرُّفِ إذْ لها بناصِرِ دينِ اللّهِ فَضْلُ التقَدّمِ
وَ«مُحْدَثُها» جادَ الحَيا مَعْهدًا لَـهُ وعَهْدًا كريمًا فيهِ غَيْرَ مُذَمّـمِ[115]

وقد أشار الشاعر في هذه القصيدة إلى المنافسة بين غرناطة ومالقة في اجتذاب السلطان إليهما تلك المنافسة التي ستكون موضوع مقامة معروفة للفقيه عمر الزجّال[116].

ثم انتقل يوسف الثالث، بعد شهور من تفقد أحوال مالقة، واستعراض جيشها، إلى حصن كان له دوره في حماية مملكة غرناطة، ألا وهو حصن المتلين ــ كذا ــ يقول أبو الحسين ابن فركون : «ولّما احتلّ رِكابُه العلي، بظاهِر حِصْن المُتْلِين ــ كذا ــ، برسْم البناءِ في الزيادةِ بقصَبَتِه، أمر أيده الله، أهل الحضرة بالوصول إليها إدالة... في الثاني والعشرين لجمادَى الآخرةِ عامَ اثنيْ عَشَر وثماني مائة»[117].

ويبدو أن حصن المتلين الوارد هكذا في الديوان وكذلك في كتاب «جنّة الرّضى» هو تحريف لحصن المُكْلين المعروف الواقع شمال غربي غرناطة ؛ وقد وصف الشاعر المبنى الجديد الذي باشر السلطان أمْرَه بنفسه في قصيدتين، فمما قالَه في الأولى واصفًا عُلُوّ الحصن :

إذا ماعـدُوُّ الدّيـنِ جـاسَ خِلالَـهُ ورامَ استراقَ السّمْعِ كَفَّ مَرِيدُهُ
تَمُـرُّ بِـه هُـوجُ الرِّيـاحِ فتَنْثَنِـي وقَدْ سَدَّ مَسْرَاها الرّفيعَ صُعُـودُهُ
تَـرومُ سُمُـوًّا فَوْقَهُ وهْـيَ دونَـهُ فتَـقصُرُ عَمّـا تشتهي وَتُريـدُهُ
دعَوْتَ لَهُ أهْلَ الجِهاد فأَطْعُـوا كَما زارتِ البَيْتَ العَتيـقَ وُفـودُهُ
ودارَتْ حوالَيْـهِ الجنـودُ كَأنّهـا وِشاحٌ عَلَى خَصْرٍ يَروقُ فريدُهُ[118]

---

(115) الديوان : 17.

(116) انظرها في أزهار الرياض 1 : 125 ــ 132.

(117) الديوان : 32.

(118) نفسه : 35.

ومما قاله في الثانية ذاكِرًا معدنَ البارود الذي عُثر عليه بالموضع واتّخاذ الأنفاض المزوّدة منه :

وفي مَعْدِنِ البارودِ أعْظمُ آيَـةٍ بَدَتْ فالنُّهى فيهَا يطولُ اعتبارُها
نَصَبْتَ بها للنّفْطِ أبْرَاجَها الّتي يُضاهِي بُروجَ النيِّراتِ جِدارُها
فَكَيّفَ مِنْهُ اللّهُ لِلْحربِ عُدّةً ففي القَفْرِ مِنْهُ ما إليهِ افتقارُها[119]

وقد ظلّ هذا الحصن المنيع شجًا في حلْق القشتاليين، ويبدو أن بعض أسوار هذا المبنى قد تهدمت في السنوات التالية إذ يخبرنا مؤلف «نبذة العصر» أنه «في التاسع من شهر شعبان عام 890 هـ خرج الأمير محمد بن سعد بأهل غرناطة إلى حصن المُكْلِين لبناء بعض أسواره»[120] فكانت موقعة المكلين المشهورة.

وفي شعبان من عام 813 هـ حلّ بمالقة، ومنها انتقل إلى جبل طارق في شهر ذي القعدة من العام نفسه[121].

وفي 16 لذي القعدة عام 814 هـ، خرج من غرناطة، قاصدًا جبل طارق، ومنه إلى مالقة، حيث ألمّ به مرض كان إبْلاَلُه منه في 16 صفر من العام نفسه، ولم يعد إلى غرناطة إلا في 15 شعبان[122].

ونجده عام 815 هـ في مالقة من جديد حيث يقول أبو الحسين : «ولمّا أطلّ عيدُ الفِطْر من عام خمسةَ عشر وثماني مائة أنشدتُ مولانا، أيده الله، برياض السيّد من خارج مالقة، حرسها الله، وقد تدارك الله الوجود برحمته، واسترسلت الأمطار بعد حلول رِكابِه العلي بها، إثر قَحْطٍ أصابها، وجَهْدٍ عظيم رابَها»[123] ؛ ولمّا كان مُقيما بقصر السيّد من مالقة، وصله مكتوب طويل، من خطيب الحضرة أبي عثمان الألْيُري أكثر فيه من تكرار لفظة سيّد، فأجابه السّلطانُ نظمًا ونثرا، وممّا جاء في النظم قولُه مشيرا إلى تكرار كلمة سيّد :

(119) نفسه : 36.
(120) نبذة العصر : 14 ط. تطوان.
(121) الديوان : 50.
(122) نفسه : 55، 57.
(123) نفسه : 96.

وأعَـادَ لَفْظَـةَ سَيِّـدٍ عـنْ سَيِّـدٍ مِنْ سَيِّدٍ حتّـى لِقَصْرِ ٱلسيِّـدِ[124]

ونفهم من الديوان أن السلطان كان في قصر نُبْلُه خارجَ الحضرة غرناطة عام 815 هـ[125].

ويخبرنا يوسف الثالث نفسُه في ديوانه أنه كان بقصر الحَمّة أول رجب من عام 816هـ[126].

كما يخبرنا أيضا أنه توجه إلى مدينة المنكب أول شهرِ ربيع الأول من عام 818 هـ[127] ويؤكد هذا قولُ أبي الحسين في ديوانه : «وممّا حقُّه أن يُلْحقَ بما تقدّم من قصائد التّهاني اليوسُفية المتقدّمة قبل هذا قصيدة نظمتها في هَناء المولى المنعم السلطان أبي الحجاج الناصر لدين الله رحمة الله عليه ورضوانه وقد احتل ركابه بقصر نُبْلُه خارجَ حضرته آيبًا منْ وِجْهته الأولى إلى المنكّب وشلوبانية بتاريخ اليوم الثامن عشر لربيع الأول عام ثمانية عشر وثمان مائة[128].

وفي عام 818 قضى عيد الأضحى بمالقة ؛ يقول أبو الحسين : «وأنشَدْتُهُ بالقَصْر المُسَمّى بالمُحدث منْ مالقَة في عيد الأضحى منْ عام ثمانيةَ عشر وثمان مائة، وقد اسْتَدْعى فُقَهاءَها وجُنْدَها وأشياخَها، لإقامة ما جَرَتْ به العادةُ في حضرته من البَيْعَة والإطْعام، واحتفل في ذلك»[129].

ويقول في موضع آخر : «وَلمّا عَادَ رِكَابُه العلي منْ مالَقة المَحْروسة، اسْتَقَل بقَصْرِ نُبْلُه مُتَلَوِّمًا به أيّامًا للرّاحةِ والصّيد، في يوم الخميس الخامس عشر لشعبان عام تسعة عشر وثماني مائة، وقَدْ أمَرَ جُنْدَ حضرتِه بتلَقّي ولي عهده، وإيصالِهِ إلى حَمْرائِهِ العلية، وعرَّجَ هو إلى حيْثُ ذُكِر»[130].

وقبل هذا التاريخ في جمادى الثانية من العام نفسه نجدُه بوَلْجَر، من سفح جبل شُلّير،

---

(124) ديوان يوسف الثالث : 42.

(125) الديوان : 138.

(126) ديوان يوسف الثالث : 153.

(127) نفسه : 112.

(128) نفسه : 206.

(129) نفسه : 223 ـــ 224.

(130) نفسه : 215.

حيث نرى شاعره أبا الحسين يهنّئه بنجاته من كبوة فرسه به[131]، ويخبرنا الشاعر في موضع آخر قائلا : «ولمّا توفّي أخوه الأمير أبو الحسن علي الذي كان لقبه مُعز الدولة، بالحضرة، وركابه العلي بوَلْجَر، وكان تلك الليلة راحلاً إلى الخَرُّوبة، فَعرّج رحِمَه الله إلى الحمْراء لمُواراةِ شقِيقِه المذكور، وبعْدَ ذلك، خرجنا في العِشاءِ الآخرة إلى قرية هَمْدان، منْ قُرى الحضرة، ثمّ إلى الخَرُّوبة من قُرى مُلْتِماس بعْدَ مرحلتين، فقلت أعزّيه، على ظهر الفرس أثناءَ الطّريق إلى مرحلَة وادي النّبيل منْ أُحواز الحمّة»[132].

وفي يوم الأحد الثامن لرجب عام 820 هـ أعْمَل رِكابَه إلى قصر نُبْلُه[133].

وفي هذه النصوص أسماء أماكن وهي نُبْلُه EL NUBLO قرية في مرج غرناطة، كان فيها قصر ملكي، تردّد عليه يوسف ثلاث مرات حسبما في الديوان، وولجر : قرية من حوز غرناطة تسمّى اليوم «GUEJARSIERRA» والخروبة قرية من قرى ملتماس أو (منتماش) BENTOMIZ وهمدان قرية في مرج غرناطة وَاسمها اليوم AL HENDIN ووادي النبيل : NIVAR.

وكانت آخر سفرة ليوسف الثالث هي سفرته الثانية إلى المُنَكَّب، حيث كان على موعدٍ مع الموت، في هذا البلد المجاور لشلوبانية، التي قضى في سجنها زهرة شبابه، ويحدثنا أبو الحسين عن ظروف هذه الرحلة فيقول : «وكانَ رَضيَ الله عنه قد اشتدّ بِهِ المرضُ الّذي قَضَى عليه، وهُو قَدْ شرَع في حركة توجيه السّلطان أبي يوسُف يعْقوب أيده الله ! وتوجّه على ما بِهِ منَ الألم إلى المُنكّب ليُباشِر بنفْسِه إجازَتَهُ مِنْها، فأنفذَ الله عزّ وجلّ حُكْمه في وفاته، بعْدَ جواز السُّلطان (المَريني) بأربعَةِ أيام فجأةً، وأصْبَحَ ميّتًا يومَ الأرْبعاء التّاسِعِ والعشرينِ لرَمضان عامَ عشْرينَ وثمانِمائة بَعْدَ أن كان أمر بالتأهُّب لإقامةِ ما جَرتْ به العادةُ منْ رسْم العيدِ بالطّعام وغيره»[134].

ثم يقول : «وأسْرَيْنا بِتابُوتِه تلْك اللّيْلة، فوصَلْنا الحَضْرةَ ضُحَى يوْم العيد، ولَم يشعُرْ أحدٌ منْ أهل البلد، لاشتغالِهِمْ بصلاة العيد، حتّى استقرّ الجميعُ بالحَمْراء وعندَ ذلك شرَعْنا في بَيْعَةِ ولي العَهْد، أيّده الله، ومُواراة المولى المُنعّم، رحْمة الله ورِضْوانه علَيْه.

---

(131) نفسه : 228.

(132) نفسه : 234.

(133) نفسه : 225.

(134) نفسه : 253.

وفي أوّل يومٍ أُجْلِسَ وليّ عَهْدِه بقبّة مشْورِه، حيْثُ جَرتْ عادةُ السّلام قمتُ بين يديه منشدًا هذه القصيدة في هَنائِه بالمُلْك وَرِثاءِ والِدِه قَدّسَ الله روحَه، وبرّد ضريحَه»[135].

إن هذا المرض الذي انتهى به أجل هذا الملك الكبير، هو ثالث مرضٍ اعتراهُ خلالَ سنوات مُلْكِه العشْر حسبما في الديوان ؛ فقد ألمّ به المرض كما رأينا في عام 814 هـ على إثر توجُّهه إلى جبل الفتح، وبقي في مالقة مريضًا بضعة أشهر ؛ وفي عام 818 هـ عاقهُ المرض عن الخروج من غرناطة لمجابهة البرتغاليين الذين أقاموا بالجزيرة الخضراء أيامًا قبل أن يتوجّهوا إلى سبتة، ويصف الشاعر مرضه هذا بأنه «مرضٌ شديد، فُتِحَتْ منْ جِسْمِه فيه مَواضِعُ بالحَديد»[136].

ويبدو أن عقابيل السجن، وأعباء الدولة، وكثرة التنقلات، والتفجّع على الأهل من الزوج والأولاد والاخوة، وما شغل به أيامه من التضريب بين بني مرين، كُلّها كانت وراء هذه الأمراض التي أودت بحياته، وعجلت بوفاته، وهو لم يتجاوز الأربعين إلاّ بقليل.

لابدّ ان ابن فركون سجّل المراثي التي قيلت في الملك الناصر، ولكن هذه المراثي توجد في القسم المفقود من الديوان، وقد وصلتنا مرثية نقشت على شاهد قبره المدروس منذ القرن السادس عشر، وهي تتألف من ثلاثين بيتًا، وأغلب الظنّ أنها من نظم أبي الحسين ابن فركون، ففيها تكرار عبارة «أَمّا كَانَ»، وهذه طريقة الشاعر المذكور في عددٍ من قصائده، ولكن خاتمتها لا تخلو من إشكال، فهي تقول :

وإنّ ابنَ نصْرٍ وارثَ المُلْكِ بَعْدَهُ   لأَعْلَى مُلوكِ الأرْضِ أيّدهُ اللّهُ
هُوَ المُنْعِمُ الأرْضَى هُوَ الغالِبُ الّذي   حَمَى المُلْك منْ إتْلافِهِ وتَلاَفاهُ[137]

ومحل الاشكال عِبارة «ابن نصر» إذا كانت تعني البُنوّة المباشرة، وكلمة «الغالب» إذا كانت اختصارًا للقب «الغالب بالله».

ومهما يكن الأمر فإن قصيدة أبي الحسين التي أنشدها بمناسبة بيعة السلطان الجديد،

(135) نفسه : 256.

(136) نفسه : 209.

(137) لـ. بروفنسال في كتابه : نقوش عربية في اسبانيا : 172 ــ 173.

صريحة في أنه ولي عهده محمد الذي لقبه الغرناطيون بمحمد الصّغير، لكونه بويع بالملك، وهو ابن ثماني سنوات، وقد جاءَ في أول القصيدة :

قَضَى نَحبه مَوْلى المُلوكِ وأعْمَلَتْ ركائبُـهُ حتّـى المَعـادِ تَرحُّـلاَ
وفازَ ابنُهُ الأرضَى وحافظُ عهْدِهِ بما حازَهُ من مُلْك آبائِهِ الأُولَـى
على صِغَـرَ السّنِّ اسْتَقـلَّ بُرُتْبَـةٍ تحمّـلَ مِـنْ أعْبائِهـا مـا تحمّـلا[138]

وممّا جاءَ فيها قول الشاعر مسمّيا الملك وذاكرًا مكانته هُوَ عند والده :

وحَيُّوا منَ المَوْلى الإمامِ مُحمّـدٍ كَريمًـا حَليمًـا مُنْعِمًـا مُتَـفضِّلاَ
أمولاَيَ مَوْلاَنـا أبـوكَ أنالَنــي منَ العِزِّ ما سامَ النّجـومَ تَنَـزّلاَ
وأوْلَى مِنَ النّعماءِ ما كانَ عاقدًا عَلَيّ بـه عَقْـدَ الـوَلاءِ مُسَجّـلاَ
وجَرَّرْتُ ذَيْلَ العُجْبِ إذْ كُنْتُ عِنْدَهُ أُباهِـي بأمْداحـي جَريـرًا وأخْطَـلاَ
ولَوْ كانَ يُفْدَى بالنّفوسِ وسابَقَتْ لِتَلْقَى المَنايا دونَـهُ كُـنْتُ أوّلا[139]

وكلام ابن فركون هذا يُمَثِّل نصًّا جديدًا يُصَحح الخطأ الذي وقع فيه عدد من المؤرخين الاسبان المحدثين حول خلف يوسف الثالث، ويؤيّد ما انتهى إليه الأستاذ لويس سيكودى لوثينا من أن هذا الخلف هو ولده محمد الثامن المدعو بالصغير أو EL PEQUEÑO، وليس محمّد التاسع ابن نصر الملقب بالغالب بالله، على أن هذا قام على آبن عمّه، وأفلح في نهاية الأمر بعد أحداث مشروحة في المدوّنات المسيحية من اعتقاله في شلوبانية، والقضاء عليه وعلى أخيه أبي الحسن[140].

كان يوسف الثالث يقدّرُ مسؤوليات الملك، ومع ما رأيناه من عزمه وحزمه، ويقظته وحركته، وقيامه بالواجبات، فقد وجدناه يعبّر عن خوفه من عدم القيام بحقوق الخلائق، وتَمنّى في لحظة من اللحظات أن لو لم يكن ملكًا، قال :

مَنْ ذا يُعامِلُني الخُمـولَ بِجاهـي مَنْ يشْتَري سَرَفي بِبَعْضِ كَفـافِ

(138) الديوان : 256.

(139) نفسه : 258.

(140) انظر كتاب محمد التاسع ص 47 و ص 51 و ص 149.

مَالِي عَلَى هذِي الخَلائِقِ قُدْرةٌ إلاّ بِمَا عوّدْتَ مِنْ ألْطافِ[141]

وفي هذه القصيدة يشكو ذهاب الوفاء والأمانة والصدق والإخلاص، ويصوّر محنته مع من يعينهم في الخُطط المختلفة، قال :

ذَهبَ الوفاءُ معَ الأمانَةِ مُذْ قَضَى أخْيارُ قَوْمي السّادَةِ الأشْرافِ
هَلْ عالِمٌ أوْ شاهِدٌ أو حاكِمٌ يأْتي الّذي نَرْضاهُ دونَ خِلافِ
قَدْ أُشْرِبوا حُبّ الحياةِ فَهُمْ لِذَا يَسْعَوْنَ لـلإسْلامِ في الإتْلافِ
كَمْ أسْهَروا الجَفْنَ القَريحَ بِفِعْلِهِمْ كم أرْسلوا مِنْ دَمْعي الوَكّافِ
ما مِنْهُمُ مَن أرْتضِيهِ لِخُطَّةٍ إلاّ وقابَلَني بِفِعْلٍ جافِ
واهًا لَهُمْ تَرَكوا الانابَةَ جانِبًا وإنِ انْصِفوا يَأْبَوْا عن الإنصافِ
جاهَدْتُ جُهْدي في سَبيلِ صَلاَحِهِمْ ورَضيتُ مِنْهُمْ بالمُطيعِ الـوَافِ
لَمْ يُلْهِني عَنْهُمْ مَحاسِنُ مَنْزِلٍ وجَميلُ رَوْضٍ رائِعِ الأوْصافِ[142]

وقد قدّم ذات مَرّة في عام 816 هـ أحد هؤلاء لخُطة من الخطط فلم يصلح فعَزله، وتعصّب له أو تشفع فيه بعض العلماء، وكان قد صدر من هذا المذكور كلام أو شعر سفيه، ومع ذلك عفا عنه الملك، وأقال عثرته إرْضاءً لهؤلاء العلماء، وفي هذا يقول :

يا قَوْمُ لَوْلا حِلْمُ رَبّي لَمْ يَكُنْ في العَفْوِ مِنّي يَطْمَعُ الأقْوامُ
لا سِيّما مَنْ فاهَ بالسَّفَهِ الّذي يُدْمي كُلوم القَلْبِ وهْوَ كَلامُ
شخصٌ يَهيمُ بِكُلِّ وادٍ مِثْلَما لَعِبَتْ بمَجْنون الحِمى الأوْهامُ
جاءَتْ بِهِ أيامُ دَهْرٍ قَدْ قَضَى أنْ تَعْدِلَ الآراءُ والحُكّامُ
قَدْ كُنْتُ أعْذِر في السّفاهَة أهْلَها فاعْجَبْ لِمَا تأْتي بِهِ الأيّامُ
ولأنْتُمْ يا رافِعيها رايَةً لِلْعِلْمِ نِعْمَ الحِزْبُ والأعْلاَمُ
صُرِفَتْ إلَيّ قُلوبُكُمْ بِمَوَدّةٍ يُرْعَى بِها عَهْدٌ لَكُمْ وَذِمامُ

(141) الديوان : 143.
(142) نفسه : 143 ـ 144.

نَظَرَتْ إلَيّ عُيونُكُمْ في يقظَـةٍ   تَصِلُ الدّعـاءَ إذا العُيـونُ تَنـامُ
لَكُـمُ أُبَيّـنُ مـا قَصدتُ بَيانَـهُ   وأقـولُ حُكْمـي شأْنُـهُ الإحْكـامُ

إلى أن يقول :

فأقَلْتُ من عَثراتِهِ مَـنْ كانَ في   مَهْـواهُ قَـدْ زَلَّتْ بِـهِ الأقْـدَامُ
وأقَـمْتُ فَـرْضًا لِلْجَميـل وَسُنّـةً   فبِإذا الوجـودُ تَحِيّـةٌ وَسَلاَمُ(143)

وقد أشار ابن فركون في مقدّمة عيدية أضحي عام 815 هـ إلى «هَرْجٍ وقَعَ بالحضرة من أهل رَبَض البَيّازين وسواهم ممّن تبعهم» ويفهم من قوله في العيدية المذكورة أنهم من الفقهاء، قال :

وإنْ فِئَةٌ لِلدّيـنِ تُنْمَـى وأذْنَـبَتْ   لَدَيْـهِ غَـدَتْ مَغْفـورَةً هَفَواتُهـا
فَيَمْحُو الخَطايا حِلْمُهُ وَهْوَ قـادِرٌ   إذِ العَفْـوُ مِنْـهُ أَمَّلَتْـهُ جُناتُهـا(144)

وكان صبورًا على نوائب الدهر وصروف الزمان، فقد امتحن بوحشة السجن ومثول الموت وفقد الزوج والأولاد والاخوة ممّا جعله يقول :

خَليلَـي مـالي والزّمـان كأنّمـا   غَدا بيننا وِتْـرٌ وهـا هُـوَ طالِبُـهْ
فَما الْتَـأمَتْ إلاّ عَلَـيّ صُروفُـهُ   وَلا اشْتَمَلَتْ إلاّ عَلَيّ نوائِبُـهْ(145)

ولكنّ الأزمات لمْ تُؤثّر على ثقته بالرّب المستعان كما يقول :

إذا أزْمَـةٌ شدّتْ عَلَـيْكَ خِناقَهـا   وضِقْتَ فَلَمْ تُلْفِ لِنَفْسِكَ مَخْرَجا
فَثِقْ بِرَجـاءِ اللـهِ وارْضَ بِحُكْمِـهِ   فَكَمْ أزْمَةٍ نَجّاكَ مِنْها وَفَرّجـا(146)

وقد اكتسب من هذا كلّه معرفة بالزمان وقلّة اكتراث بصروفه :

تَغافَلْتُ عَنْ هذا الزّمـانِ وصَرْفِـهِ   فَلَسْتُ أُبـالي أيَّ حالاتِـهِ تَجْـري

(143) ديوان يوسف الثالث : 115.
(144) الديوان : 99.
(145) ديوان يوسف الثالث : 183.
(146) نفسه : 183.

فَما في اللّيالي مَا أُسَرُّ بِحُسْنِـهِ ولا في رَداهَا ما يَضيقُ بِهِ صَدْري
وَلسْتُ عَلَى شيْءٍ مَضَى مُتَلَهِّفًـا وَلَوْ كانَ عَيْني في النَفاسَةِ أوْ ثَغْري
وأوْسَعْتُ هذا الدّهْرَ عِلْمًا وِفِطْنَةً وحِلْمًا فَلَسْتُ بالغَرِيرِ وَلاَ الغِـرِّ(147)

ونختم هذه الفقرة بأبيات تبين عن عاطفته الدينية، وقد نطق بها بين الضراعة والاستغاثة، ناصبًا يديه إلى الله سبحانه، رغبةً في المطر :

يـا رَحْمَـةَ اللّـهِ ويـا عَفْـوَهُ شَكـى لَكَ الإسْلاَمُ مـنْ ضُعْفِـهِ
القَحْـطُ قَـدْ حَـلّ بأرْجائِنـا وحِلْـمُكَ المَرْجُـوُّ في صَرْفِـهِ
فـلاَ تُؤاخِذْنـا بأفعالِنـا يـا مَـنْ تَوَكّلْنـا على لُطْفِـهِ
قـدْ مَسّنـا الضرُّ ولاَ حيلَـةٌ إلاّ لُـزومَ البـابِ مِـن خَوْفِـهِ
شَفيعُنـا التّوْحيـدُ يـا مَـنْ غـدا المَنْـحُ والإعْطـاءُ في كَفِّـهِ(148)

هذا وقد كان ليوسف الثالث نصيب موفور في البناء والتشييد، وسبق أنْ رأينا عنايته ببناء حصن المكلين وترميم قلْعته، كما رأيناه يتردّد على عددٍ من القصور في نُبْلُه والحَمّة وقرية وادَ في شِنيل وغيرها، ولا بد أن له يدًا في بنائها أو الزيادة فيها.

أما الحمراء فقد يكون الملكَ الثّالثَ بعد أبي الحجاج يوسف الأول، ومحمّد الغني بالله، في العناية بها، والزيادة في مبانيها، وفي ديوانه وديوان شاعره ابن فركون أخبار وأشعار في الموضوع، ففي ديوانه قصيدة نظمها لتُكْتب في إحدى قِباب الحمراء من تشييده، أولها :

يـادارُ شُكْـرًا للخليفـة يـوسُفٍ فهْوَ الّذي والَـى الجميـلَ وأنْعَمـا
وحَباكِ مِنْ «روْضِ العريف» بنَسْمةٍ تَرْوي الجوانِحَ مِنْ تَباريحِ الظَّمَـا

وهي تقع في 13 بيتا(149).

(147) نفسه : 183.
(148) نفسه : 145.
(149) نفسه : 114.

وفيه قطعة ارتجلها لترسم في الجهة اليسرى من القُبّة التي أمر بتجديدها وتناهت العناية في تشييدها[150].

وفيه قطعة من نظمه أمر أن ترسم في مبنى جاء فيها :

وأمَامِــــــــي وقَـــــــفَتْ رَبّـــــة الثّغْـــــرِ البَـــــرودْ
خُصّةٌ مُعْجَبَـــــــــــــــــةٌ أَخَـــــذَتْ أَوْجَ الصّعَـــــودْ
كُلّمـــــــا تُـــــــبْصِرُني تَترامَـــــــى للسّجُـــــــودْ
خَجِــــــلَتْ في مَشْيِهـــــــا حِيــــنَ ريـــعَتْ بـــــالأسوَدْ
لا تُرَاعِـــــــي إنّنَــــــا في حِمَــى مَوْلَــى الوُجـــودْ[151]

وثمّة قطعة رابعة نظمت لترسم في مبنى[152].

وفي ديوان ابن فركون تفصيل وتحديد لتواريخ هذه المباني، قال «ولمّا شرَعَ أيّدهُ الله في إعْلاء المَبْنَى الماثِل الآنَ على باب الدّارِ الكبيرة، أمَرَني بنَظْمِ أبْياتٍ تُكْتبُ دائرَةً بالطّبقة الثانية، فقلتُ حَسَبَ ما اقترحَهُ مَعْنًى وقافيةً وعَروضا وعدَدَ أبيات، بتاريخ الثاني لشَعْبان عامَ خمسةَ عَشَرَ وثمانمائة»[153]

ومما جاء في هذه القصيدة التي تتألّف من 18 بيتا :

حَلَلْتُ مِنْ بابِ دارِ المُلْكِ مَنْزِلَةً مِنْ دونِها الشّهْبُ في عليائِها تَقِفُ
مَوْلايَ جَدّدَ آثـارى وأكْمَـلَ مــا قَدْ كانَ أغْفَلَهُ من قَبْلِهِ السَّلَـفُ
طِيقَاني الغُرُّ مَهْما حُلّ مظهَرُهـا لاَ قَصْرَ إلاّ وبالتقْصيرِ يَعْتَـرِفُ
قابَلْتُ بحْرًا من الصّهْريجِ لُجّتُـهُ كَأنّها مِنْ نَدَى كَفّيْـهِ تَغْتَـرِفُ[154]

ونقرأ في الديوان بعد هذا قول ابن فركون :

(150) نفسه : 104.
(151) نفسه : 53.
(152) نفسه : 54.
(153) نفسه : 155.
(154) نفسه : 156.

«وأمَرني كَذلكَ أعْلى الله مَقامه بمَنْظوم يُكتَبُ بطيقانِ الطَّبقَةِ العُلْيا مِنْ هذا المَبْنَى في الخامِسِ عَشَرَ لشعبان عامَ خمْسَةَ عشرَ المذكور، فحذَوْتُ حَذْوَ الأمْر الكريم في ذلك غَرَضًا وَعروضًا وقافيةً وعَدَدَ أبيات»[155].

ثمّ أورد ما كتب في الطاقة الكبرى منه. وهو 12 بيتا. وفي الطاقة الكبرى المشرفة على الحمراء المقابلة للكبرى، 8 أبيات. وفي الطاقة الثالثة التي ليمين الكبرى، 8 أبيات أيضا. وفي الطاقة الصغرى الخامسة 5 أبيات ورد فيها هذا البيت :

إنّمـــا «جنّـــةُ العريـــفِ» عَـــروسٌ   وأنـــا تاجُهـــا الرّفيـــعُ المُحَـــلاّ

وفي الطاقة الصغرى أيضا السادسة، 5 أبيات أيضا. «وفي الطاقة السابعة وموضع الثامنة وهو المدخل للمصنع نظم مولانا أيده الله أبياتا تكتب فيه وثبتت في غير هذا. 5 أبيات كذلك»[156].

ويتحدث عن تجديد قبتين متقابلتين بينهما بحيرة، وفيها خصة، فيقول :

«ولَمّا شرَعَ أيّدهُ الله في تَجْديد القُبّتَيْن الرّائقَتي الشّكل، خَلْفَ هذه الدّار الكبيرة، وإحياء رَسْمِهما، أمَرَني بنظْمِ أبياتٍ كُتِبَتْ دائرةً في إحْداهُما، وبتاريخ الثامنِ والعِشْرينَ لربيع الأول عامَ خمسةَ عشر وثَماني مائة فقلت» ثم أورد 16 بيتا، منها :

أنـــا قُبّـــةٌ للصّنـــعِ إذْ   أنـــا لِلصّنيعَـــةِ مَـــوْضِعُ
قابَـــلْتُ مِـــثْلي فانْثَـــنَتْ   في نَيْـــلِ وَصْفِـــي تَطْمَـــعُ
وتـــرى البُحَيْـــرَة بيْنَنَـــا   مـــرآة هِنْـــدٍ تَلْمَـــعُ
والـــخُصّةُ العُلْيـــا بِهـــا   كاسٌ بكَـــفٍّ يُرْفَـــعُ
والماءُ في جَنَبـــــــاتها   مُتَدَفّـــــقٌ مُتَدَفّـــــعُ
فكأنّهـــا القَـــلْبُ الّـــذي   شَمْـــلَ المَكـــارِمِ يَجْمَـــعُ[157]

وممّا يتصل بهذا قوله :

(155) نفسه : 156.

(156) انظر هذه الأشعار في الديوان : 156 ـــ 159.

(157) نفسه : 159 ـــ 160.

«وبتاريخ الثّاني لرَمضان عام 816 هـ أمَرَ أيّدهُ الله بنظم مقطوعات تُكْتَبُ في طيقانٍ مَحْكية بالجِصّ غير مُفتّحة فقلت» ثم أورد ما كتب في هذه الطيقان الست[158].

ولانشك في أن هذه المعلومات عن الحمراء في عهد يوسف الثالث تحمل شيئًا من الجديد حول تاريخ هذا القصر الرائع الذي ما يزال محطّ الأنظار، وقبلة الزوار.

وقد كان ليوسف الثالث الملك الشاعر ذوق حضاري رفيع تجلّى في اقتراحه أو نظمِه ما يكتب على بعض الأشياء كالقِناع والحائِطِي والقوس والسّيف وغيرها[159].

وتظهر عنايته بهذه الأشياء من هذا النص الطريف الذي يتحدث فيه ابن فركون عن بعض هوايات هذا الملك الشاعر الفنّان، قال :

«وابتدَعَ أيّده الله أقْداحًا حُمْرًا تَتخلّل بعْضًا منْها زُرْقةٌ، وبعضَها بياضٌ، وكُلُّ ذلك مِنْ نوع المُذَهّب المالَقي، فقلْتُ في ذلك، بتاريخ التاسِع لَرجَب الفرد، من عام أربعةَ عَشَرَ وثماني مائة»[160] ثم أوردَ سَبْعَةَ نماذج ممّا نظم لهذا الغرض، كل نموذج يتألف من بيتين، وفي النموذجين الأخيرين نجد اسم «المعلم» الذي كُلّف بإنجاز هذا الاختراع المَلَكي، ففي أحدهما :

بِبَدائِــــع الـــحُسْنِ الّتـــي تُحْيــي فُـــؤادَ الهائِــــمِ
حَيّـــا الخَليفَـــةَ عَبْـــدُهُ يَحْـــيَ بْــنُ عَبْــدِ الدّائِــمِ[161]

وفي هذا العصر اشتهر الانجبار الغرناطي والفخّار المالقي، وقد حدثنا الرحالة المصري عبد الباسط الذي زار غرناطة بعد هذا التاريخ عن كيزان (أقداح) غرناطة المصنوعة من «الانجبار» ووصفها بأنها «كيزان رقيقة غاية في جودة الصناعة»[162] كما حدثنا سفير خَلَفِ يوسف الثالث إلى مصر عن الفخار المالقي والانجبار الغرناطي اللذين أُهديا إلى الظاهر جقمق المملوكي[163].

ومن اختراعات هذا السلطان ــ فيما يبدو ــ أنه أمر شاعره ابن فركون بنظم

---

(158) نفسه : 163 ــ 164.

(159) انظر هذا الديوان : 151 ــ 154، 161، 167 وديوان يوسف الثالث : 104، 130.

(160) الديوان : 162.

(161) نفسه : 163.

(162) مجلة الاندلس 1933 ص 315.

أبيات تكتب في سَمَاية اتخذها لاستخراج القبلة، فنظم ثمانية نماذج، كلها تتألف من بيتين، نورد منها قوله :

طلَعْتُ نَجْمًا في سَمَاءِ اليَدِ يُهْدَى بِيَ الرّائحُ والمُغْتدِي
حتّى ابْنُ نصْرٍ وهْوَ قُطْبُ الهُدى بالنّجْمِ مِنّي لَمْ يَزَلْ يَهْتَدي[164]

وسماية هكذا وردت في الأصل المخطوط، ويبدو من وصفها في الأبيات أنها اختراع يشبه «البوصلة»، ولم أقف لهذا الاسم على ذكر فيما رجعت إليه من معاجم.

وفي سياق الحديث عن الفنون نشير إلى أن الموسيقى الأندلسية كانت شائعة في عصر يوسف الثالث، واشتهر من اعلامها شخص يدعى المريني، ونسبته تدل على أنّه مغربي ينتسب إلى بني مرين، وقد أشار إليه ابن فركون في قصيدة وصف فيها حفْلة عرس لبعض أصدقائه، وفيها يقول :

وأفادَتْ سَمْعي وَكَفّي غِناءً وَغِنًى راقَني ونَعّمَ بالي
صَوْتُ شادٍ عَلَى تَرنّم عُودٍ يَهَبُ السُّولَ مِنْهُ قَبْلَ السّؤالِ
عودُهُ ناطِقٌ بغَيْرِ لِسانٍ بِخَفيّ الضّميرِ دونَ مَقالِ
نَغَماتٌ عن «المَرينيّ» تُرْوَى وَهْيَ بالمَوْصِليّ ذاتُ اتّصالِ
ولَكَمْ راقِصٍ يَروقُ انْعِطافًا كَقَضيبٍ في دَوْحهِ مَيّالِ
طَرَبًا مالَ عِطفُهُ وَتَثَنّى كالرُّبَى في يَدِ الصَّبا والشّمالِ[165]

وهذا «المريني» هو من موسيقيي العصر المريني الذين نعرف منهم ابن الطّراحة وابن يعقوب وابن أبي ضربة[166].

أما الحركة العلمية والأدبية فقد وجدت في الملك الناصر نصيرًا لها من حيث إنه عالم وأديب وشاعر، وقد عرفنا ممّا سبق أسماء عدد من رجال الأدب والعلم في عصره،

---

(163) مجلة كلية آداب القاهرة، مايو 1954 ص 105.

(164) الديوان : 160 — 161.

(165) نفسه : 197.

(166) انظر المسند الصحيح الحسن : وجذوة الاقتباس : 224، والرسائل الكبرى لابن عباد : 251.

ويكفي أن أذكر منهم ابن عاصم صاحب التحفة، والفقيه الشرّان صاحب الأرجوزة الفرضية، وأبا يحيى ابن عاصم تلميذ الشاطبي وخلَفه في اتجاهه، وابن أبي حاتم المالقي صاحب المقامات الأدبية، وأبا الحسن ابن هذيل ذَا المؤلفات المتعدّدة، وابن فركون صاحب هذا الديوان، وولي نعمته يوسف الثالث موضوع هذه المقدمة، وله كما عرفنا كتاب «البقية والمُدْرَك، مِنْ شِعْر ابن زَمْرَك» بالاضافة إلى ديوان شعره الذي نتحدث عنه باختصار فيما يلي :

تدلُّ أشعار يوسف الثالث وارتجالاته على أنه كان ذا موهبة شعرية، صقلها محفوظ شعري متنوع، يمتد من العصر الجاهلي حتى عصر الملك الشاعر، ويبدو لنا شعره كَنَسيجٍ تشتبك فيه خيوط مختلطة مشرقية ومغربية، وهو ينسج كثيرًا على منوال غيره، ولا تتسع هذه المقدمة لدراسة شعره دراسة مفصّلة ولذلِك سنكتفي بذكر بعض العلامات البارزة في إنتاجه الشعري، وأولُ هذه العلامات : المعارضة والتضمين البارزان في شعره، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها :

خَطَرَتْ فأَزْرَتْ بالغُصون المُيّـد وَرَنَتْ فَأَوْدَتْ بالغُصونِ المُيّـدِ[167]

فقد عارض بها «طريقة النابغة» ـــ كما يقول ـــ في قصيدته الدالية، وضمّن بيتها المشهور :

بمُخَضّبٍ رَخْصٍ كَأنّ بَنانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِن اللّطافةِ يُعْقَدُ

وكذلك قصيدته التي يقول فيها :

يا خليلي لَوْ كُنْتَ تَرْثِي لِمَا بي[168]

فقد حذا فيها حذو قصيدة لعمر بن أبي ربيعة، وختمها ببيت له معروفٍ تصرّف فيه على هذا النحو :

مَنْ شَفيعي يَوْمَ الرَّسولِ فإنّـي ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِها والكِتابِ

وبنى قصيدَة في النسيب على هذا البيت وضَمّنه في الأخير :

جَنَيْتُ النّوَى لاَ عَنْ مَلاَلٍ وَلاَ قِلًى فَمِثْلي بمَوْصولِ الملام جَديـرُ[169]

(167) ديوان يوسف الثالث : 170 ـــ 171.

(168) نفسه : 10 ـــ 11.

(169) نفسه : 60.

وبنى أخرى كذلك في النسيب على هذا البيت وضمنه، وهو :

نَخَيّرتُ مِنْ نُعْمانَ عودَ أراكةٍ لِهِنْدٍ ولكن مَنْ يُبَلِّغُهُ هِنْدُ[170]

وله دالية أخرى استوحى قافيتها من هذا البيت، وضمنه :

ما أبْعَدَ الشَّيْءَ تَرْجوهُ فتحرِمُهُ قدْ كُنْتُ أحْسِبُ أنّ الصَّبْرَ طَوْعُ يَدي[171]

وفي ديوانه خَمْرِيّة دَيْرِيّة، قال إنه نظمها «على وجه المجاز على طريقة أبي نواس»[172].

وعارض قافية للمتنبي مضمّنا عجز مطلعها هكذا :

«عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلْبٌ يَخفِقُ» هذي تصوبُ وذَاكَ دَأْبًا يُحْرَقُ[173]

كما عارض داليةً له مضمنا في الختام صدر مطلعها هكذا :

واسْتَعَدْنا حَمْدَ الالَهِ وقُلْنا : «حَسَمَ الصُّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعَادي»[174]

واقتدى بعدد من شيوخ الأندلس الذين وُلعوا بمعارضة غينية تنسب إلى المعري، فعارضها على سبيل المساجلة حسب قوله[175].

كما تابع عددًا من الأندلسيين والمغاربة في معارضة بيتين لابن الجوزي في ذكرى الامام الحسين[176].

ولا تقتصر معارضاته على الشعر المشرقي، فقد عارض أيضا سينية ابن الأبار

---

(170) نفسه : 46.

(171) نفسه : 39.

(172) نفسه : 124.

(173) نفسه : 150.

(174) نفسه : 40.

(175) نفسه : 141 وقد أورد أبو الربيع الكلاعي بعض هذه المعارضات في مؤلفه : المسلسلات : 27 — 29 مخطوط ويوجد بعضها الآخر في ديوان ابن الأبار : ورحلة العبدري : 252 ونفح الطيب 3 : 474، 516، 5 : 115 والاحاطة 3 : 22. والكتيبة الكامنة : 61 وعنوان الدراية : 176 — 177.

(176) نفسه : 133 — 134 وانظر ما قيل في هذا الموضوع في السفر 8 من «الذيل والتكملة» من ص 465 إلى ص 472.

المعروفة[177]، وعارض رائية للرصافي البلنسي[178]، كما عارض أبياتًا لابن عياض صاحب المقامة الدَّوْجية[179]، وأبياتًا أخرى لحمدة الوادي آشية[180].

وقد ضمن قول زهير :

وَهَلْ يُنْبِت الخَطِّي إلاّ وَشيجهُ[181]

وضمن في قطعة له قول ابن وهبون :

وأقـولُ لا شلّت يَميـنُ القاتِـل[182]

وضمّن في أخرى قول عَمرو بن مَعْدي كَرب :

عَذيرَكَ مِنْ خَليـلِكَ مِـنْ مُـرادِ[183]

وضمّن في ثالثة قول العرْجي :

أضاعُـوني، وأيّ فَتـى أضاعـوا[184]

وضمّن في رابعة قول ابن درّاج :

وفي المَهْدِ مَبْغومُ النّـداءِ كأنـه[185]

وضمّن في خامسة قول الوادي آشية :[186]

وَقَلّت حُماتي عِنْدَ ذاكَ وَأنصاري[187]

وقد وجدنا عبد الله بن جزي — وكان من المقرّبين إلى يوسف الثالث — يقول

(177) نفسه : 154.

(178) نفسه : 72.

(179) نفسه : 160.

(180) نفسه : 61 — 92.

(181) نفسه : 93.

(182) نفسه : 99 وفي ص 140 : «وأقول لا شلّت يمين القاطع».

(183) نفسه : 110.

(184) نفسه : 109.

(185) نفسه : 16.

(186) نفسه : 62.

(187) نفسه : 62.

في بعضهم مكنّيًا عنهُ بابن فَعْل ولعلّه يعنيه :

لَقَدْ صِرْتَ في غَصْبِ القَصائِدِ ماهِرًا فَمَالَكَ حَظٌّ في قريضِكَ غَيْرُ لِي
ولَمْ تُبْقِ شِعْرًا لِامْرىءٍ مُتأخِّرٍ ولم تُبْقِ شِعْرًا يا ابْنَ فَعْلٍ لأَوّلِ
فَشِعْرَ جَريرٍ قد غَصَبْتَ ورؤبَةٍ وَشِعْرَ ابْنَ مَرْجِ الكُحلِ وابْنِ المُرَحّلِ
وإنْ دامَ هذا الأمرُ أصْبَحْتَ تَدّعي «قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ»[188]

على أن الشاعرين المفضّلين عنده، هما الشريف الرضي وتلميذه مهيار الديلمي، فقد نظم على طريقتهما في لَفّ الغزل بالفخر، وحذا حذوهما في النسيب الحجازي، وهذا التيار الشعري ظهر لدى شعراء القرن السادس وما بعده في الأندلس، وقد وجد فيه الشاعر الملك مثلَه الأعلى في الفخر والغزل، وهما الغرضان الغالبان على شعره.

وثمة تيارٌ مشرقي قريب من عهده، ظهر أثره في الأندلس مع ابن الخطيب في بعض مقطعاته، ألا وهو تيار المدرسة الشّعْرية المصْرية، ومن اعلام هذه المدرسة ابن النبيه الذي يجاريه الملك الشاعر في بعض اغراضه[189].

ويظل الشاعر مع ما ذكرناه قريبا من تراث ابن الخطيب الذي ينظر إليه في بعض معانيه[190]، كما أن له موشحاتٍ لا بد أنه تتلمذ في صناعتها على موشحات ابن زمرك التي كان له الفضل في جمعها، وفي جمع شعره على العموم.

والعلامة الثانية في شعر الملك يوسف أنه كان يتخذ الشعر لعبة للتسلية، وتبدو هذه العلامة في إقباله على تشطير شعره وتخميسه، وفي تذييل شعر غيره، كما تبدو في اقتراح مثل ذلك على شاعر بلاطه أبي الحسين ابن فركون، وثمة امثلة عديدة من هذا النمط في ديوانيهما.

والعلامة الثالثة هي توظيفه الشعر في أغراض زخرفية كالقصائد والمقطوعات التي نظمها لتنقش على جدران وطيقان مبانيه في قصر الحمراء، وما نظمه ليكتب على بعض الأدوات الحضارية.

---

(188) الكتيبة الكامنة : 98 ــ 99.
(189) ديوان يوسف الثالث : 18.
(190) نفسه : 22، 38، 14.

وله عدا هذا شعر سياسي سجل فيه الحوادث الوقتية، وهو ذو قيمة تاريخية واضحة كما رأينا.

أما من حيث الشكل فإنّ هذا الشعر يَتّسم بالسّهولة والبساطة والضّعف اللغوي أحيانًا وفي بعض أبياته شيء من الخلل العروضي قد يكن مصدرهُ منْ ناسخ الديوان، وعلى العموم فإن يوسف الثالث شاعر مطبوع ارتجل كثيرًا وأرْسلَ نفسه على سجيتها وقال ما قال غير محتفل، وكان له في أسره وشعره وفخره مثالٌ من أبي فراس كما أشار إلى ذلك في صدر ديوانه. وهو ينزَع مَنْزعه في مثل قوله :

فنَحْـنُ أُنـاسٌ لـيْسَ فينـا تَـوَسُّطٌ   فإمّـا لِهُـلْكٍ أوْ لِرِفْعَـةِ مِقْـدارِ[191]

وقد أداه إعجابه بشعره إلى أن يأمر بتدوينه في ديوان استجابة لمن طلب ذلك، قال : «وصدَرَتْ عَنّا ناَشِئاتٌ في حُجور العناية، وَسافِراتٌ عنْ وجوه الحُسْن جاءَتْ من الحُسْن بآية بَعْدَ آية، بين مُطَوّلَة في فُنونٍ تعَدّدَتْ، وبيْن مَقْطوعَةٍ رمَت الشّاكِلَةَ فَأقْصَدَتْ، وعَطَفَنا الإشْفاقُ عليْها مِنْ أن ينالَها إغفال، أو لا يكونُ لها مَحلٌّ من الاحتفاء والاحْتِفال، فَظَهَرَ لنا أن نَعْرِض منها عَلَى مَنْ مَدّ يَدَ الرّغبة إلينا، وأخذَ في حفظِ الشّيء اليَسير يَسْتَفيدُهُ بَيْنَ يَدَيْنا، وأن نُسْعِفَه كِفاءً لرَغْبته وضَراعتِه، ونتقبّلَ عمَلَه على إظْهار المسْتَحْسَن وإذاعته»[192].

ولقد ظل ديوان يوسف الثالث مختفيا زمنا طويلاً إلى أن ظهر في إقليم سوس كما ظهر مجموع «مظهر النور الباصر» الذي يحتوي على جملة من شعر يوسف الثالث الموجود في ديوانه المذكور، ولم نكن نعرف من شعر هذا الملك قبل ذلك إلاّ نماذج محدودة وردت في نفح الطيب[193].

إن شعر يوسف الثالث ــ بما تضمّنه من تضمينات وتمليحات ومعارضات ــ يدّل على ثقافته الأدبية، وتبدو هذه الثقافة أيضا في مؤلفه «البقية والمدْرَك، من شعر ابن زمْرَك»، وهي تتجلى كذلك في تعليقاته الأدبية والتاريخية، ومنها هذا التعليق الطريف الذي يكشف عن ظروف تأليف «الاحاطة» لابن الخطيب، وقد وقف عليه المقري في

---

(191) نفسه : 62.

(192) نفسه : 2.

(193) نفح الطيب 4 : 303 تحقيق د. إ.عباس.

جملة كلام لهذا السلطان، ونقله في نفح الطيب، ونثبته هنا للدلالة على ألمعية هذا السلطان واطلاعه، قال المقري :

«وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله... إلى ما يتعلق بكتاب الاحاطة في جملة كلام نصّه : «وتلقّينا ممّن نثقُ به أن الكاتِب المُجيد الأصيل حَسَبًا، البارِعَ أدبًا، أبا عبد الله ابن جزي، وفدَ على السُّلطان أبي عِنان صاحب المَغْرب، في حدود عام ثلاثةٍ وخمسين وسبْعمائة، فأكْرَمَ جَنابَه، وكَمَّل من تقريبه واصْطناعِه آرابَه، فانتدب إلى ذكْرِ وطَنه الأندلُس وصاحَ بمَنْ عذَلَه :

أَيا وَيْحَ الشَّجِيِّ مِـنَ الخَلِـيِّ

وبرع غايَةَ البراعة في التاريخ الذي جَمَعَه، ورفعَ رايةَ البلاغة لِما كَلِف بهِ ووَضَعَه، فلم يكنْ شيءٌ من الكلام إلاّ قال : الاحسانُ وأنا معَه، استوْعَب ما شاء، وأبدعَ في كلّ ما نقل سواءٌ كان شعرًا أو إنشاء، لكنّ سابقَ أجلِه، منَع من الامتناع بمُجْمَلِه ومُفَصَّله، وجاءت الحادثةُ العُظْمى من وفاةِ مَولانا والِد جَدّنا أمير المسلمين أبي الحجّاج في غرة شوال مِنْ عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فعُيّن لتعريف صاحِب المغرب بالكائِنة، خاصُّ الدولة، ورئيس الجُمْلة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب، فوقف منْ تاريخ ابن جُزي على شاطىء نَهْر فيّاض، وانتشَقَ منْ ورقاته أزاهِرَ رياض، وحمَلَه النظر في بدائعه عَلى أنْ يأخذ في جمْع كتابه المسمّى بالإحاطَة، فيما تَيسّر مِنْ تاريخ غرناطة، ووجد لذلك موجِبًا أغْراه بجمعه، وهو أنّ الشّيخ الحُجّة الشّاعر المُفْلِق أبا إسحاق ابن الحاج وفَدَ على الأندلس، بعد جَوْبه في الآفاق، وتَرَحُّله إلى ما وراءَ الشام والعراقِ، واعلامه أنّهُ يذْهب في بدأة تاريخ مذْهَبَ ابن جُزي وغيره، وكانَ وحيدًا في فنون الآداب، والمساجَلَة لأعلام الكُتّاب، وبحكْم الاتفاق على إثْر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسُّلطان أبي عنان، وجد الحاجب الخطير أبا النّعيم رِضْوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم منْ ذلك المُسَمّى، بأن أقنعَهُ دونَ طُموحِه إلى عادته من المَرْقَب الأسْمى، فأنتج الانتباذُ من تلك الرّياسة الخطيبية أن ألْغَى الخُطّة على جلالَة مِقْدارِها، وتَوَضُّح أنوارِها، في مُرْتقى إجلالِها وإكْبارِها، وأخذَ في تأليف الاحاطة مستدعِيا تصحيح الموالِد والوفيات، والأسْماء والمُسَمّيات، ومستكثِرًا مِنْ طُرف المصنّفات، ليتِمّ قَصْدَه من الإطْناب، ونقْله العيونَ الرّائقة منْ كلّ كتاب، وألْقَى جميعَ مَقاصِدِه، والمُعْظَمَ منْ تنظيم فرائِده، بيدِ الشّيخ العُمْدة مُعلّم الجُمْلَة مِنّا كتابَ الله وسُنّة رسولِه ﷺ أبي عبد الله الشّريشي، قدّسَ الله ضريحه، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز

سنّ الكُهولة في ذلك الوقت، هو الذي تولّى من المبيضات نقلَه، وأحْكَمَ جنسَه وفَصْلَه، واختَم على مجلّداتٍ ستّة، ولمّا عاد ابنُ الخطيب إلى الاندلس بعَوْدة جدّنا الغني بالله تعالى إلى مُلْكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروعُ من كِتاب الإحاطة بالأصول، وأُنجز من التبحّر فيه الوعدُ المَمطول ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتمّمة من اثني عشَرَ سفرًا»[194] .

أتينا بهذا النص على طوله لدلالته على ثقافة يوسف الثالث واطلاعه على خبايا الأمور، وفيه كذلك دلالة على أسلوبه، ولا يماثل هذا النص في طرافته إلا المقدمة التي وضعها بين يدي مجموعة «البقية والمدرك، من شعر ابن زمرك»[195]، وقد حلّل فيها أسباب محنة هذا الشاعر الوزير، وكل ذلك يضع الملك الناصر بيْن الصفوة من أهل الأدب والعلم في عصره.

3 ــ علاقات يوسف الثالث بالممالك النصرانية

تراوحت سياسة يوسف الثالث تجاه قشتالة وأرغون بين الحرب والسلم والمجاهدة والمهادنة، فقد اعتلى عرش غرناطة في أعقاب هدنة عقدها سلفه مع فرناندو عم ملك قشتالة خوان الثاني والوصي عليه والذي سيصبح ملكا على أرغون أيضًا وهوَ يُدْعى في شعر الملك يوسف وشعر شاعره ابن فركون بالإفنت AL INFANTE ومعناها الولد، وهو اصطلاح أندلسي مغربي يطلق على المرشح لوراثة الملك.

كان هذا الإفنْت قد استولى قبل الهدنة على بعض الحصون كحصن الصخرة ZAHARA في ناحية رندة. ولما بويع يوسف الثالث كان أول ما باشره هو أمر الهدنة، وتقول الرواية المسيحية إنه وجّه لهذا الغرض عبد الله الأمين سفيرًا إلى بلاط قشتالة، ووقع الاتفاق على هدنة تمتد إلى فاتح أبريل 1409م ثم زيدت إلى متم غشت من نفس السنة، ثم إلى فاتح ابريل 1410م، ولكنها كانت هدنةً على دخن، لأن المسلمين انتهزوا فرصة سانحة فزحفوا على حصن الصخرة واستباحوه وقضوا على حاميته وبهذا نقضت الهدنة[196].

---

(194) نفسه 7 : 107 ــ 108.

(195) انظرها في أزهار الرياض 2 : 11 ــ 12 ونفح الطيب 7 : 162 ــ 170.

(196) تاريخ اسبانيا المسلمة في عصر بني نصر للسيدة أريية ص 127.

وأما الرواية العربية في هذا فنجدها في هذه الأشعار التي قيلت في تهنئة السلطان بمناسبة اعتلائه العرش، وفي المناسبات التي تلتها. وهي تشير إلى قضية الهدنة وتلمّح إلى تعدّد الرأي فيها، فالفقيه الشاعر ابن السراج الرندي يعبّر عن رأي الدّاعين إلى الجهاد. فيقول في مدح السلطان :

خَفَقَتْ بِمَيْدانِ الجهادِ بنودُهُ   واسْتَرْسَلَتْ فيهِ سَوابِقُ خَيْلِهِ
رُمِيَ الضّلاَلُ بنافِذٍ منْ عَزْمِهِ   وَدَمُ العِدَى بِمُبيحِهِ ومُحِلّهِ

* * *

ولسَوْفَ يَفْتَحُ واثقًا من رَبّهِ   كُلَّ البِلادِ بِعَوْنِهِ وبِحَوْلِهِ
ويُبِتّ شَمْلَ الكُفْرِ سَيْفُ جهادِهِ   حَسْمًا لِكُثْرِ فَريقِهِ وَلِقُلِّهِ
ويُجيلُ خيلَ اللّهِ تَمْرَحُ مِثْلَما   غَرَضَ الفُتوحِ يُصيبُ صائِبُ نَبْلِهِ
فَهُبوبُ ريحِ النَّصْرِ آنَ أوانُهُ   وَوُصولُ وَقْتِ الفَتْحِ دانَ بوَصْلِهِ
حكَمَتْ ميامِنُهُ بِعِزٍّ جُنودِهِ   وقَضَتْ بهونِ عَدُوّهِ وبِذُلِّهِ
يا صُقْعَ أنْدَلُسٍ حَيِيتَ بناصِرٍ   للدّينِ والدُّنْيا مُجَرّدُ نَصْلِهِ
مَطَلَ الزّمانُ بوَعْدِ نَصْرٍ بُرْهَةً   فأتَى بِهِ مُسْتَغْفِرًا مِنْ مَطْلِهِ
لاَ غَرْوَ أنّ الشّرْكَ أُنْذِرَ حِزْبُهُ   بِمُبيدِهِ ومُبيرِهِ ومُذِلِّهِ(197)

والشيخ أبو جعفر ابن فركون يرى أن الحالة الداخلية في قشتالة يومئذ مواتية لإعلان الجهاد، ويترك الاختيار للسلطان في المبادرة أو التمهل ريثما يُجْمع أمْرَه :

قَد فَتَّ في عَضُدِ «الإِفَنْتِ» وَحِزبِهِ   فِتَنٌ تُثُلُّ عُروشَهُ وتُصَوّحُ
لاَ تُخْشَ عَزْمَتُهُ وَلا زُعَماؤُهُ   فالرَأْيُ مِنْهُمْ هادِرٌ لاَ يُلْقِحُ
ما مِلّةُ الإِسْلامِ يَسْلَمُ مُلْحِدٌ   مِنْ بأسِها كَلاّ ولا مُسْتَفْتِحُ
فالسّابقاتُ لَقَدْ أقَرّ عيونَها   مَرْمًى إلَى الفَتْحِ المبينِ ومَطْمَحُ
والسّابِحاتُ ومَنْ بها لَكَ أجْرُها   فَمُهَلِّلٌ أثْناءَها ومُسَبِّحُ
لا كَنْ إذا بادَرْتَ أوْ أمْهَلْتَها   فَلِمُلْكِكَ الرّأْيُ الأصيلُ الأرْجَحُ

(197) مظهر النور الباصر : 141.

أويَقْتضي العَقلُ الحَصيفُ قَضيّةً فبِكَ المَعاقِلُ تُستَباحُ وتُفْتَحُ

ويكرّر هذا المعنى في القصيدة نفسها إذ يقول :

لأكنْ إذا أرجأْتَ عَزْمَكَ بُرْهَةً فَظُباكَ تجمَعُ كُلَّ طاغٍ يَجْمَحُ
كالْبَحْرِ يُمْسِكُ لُجَّهُ فإذا ارْتَمَى لاَ البَرُّ يَسْتَعْصِي وَلا يتنَزّحُ
إنْ رَجّحوا يَوْمًا مُهادَنَةَ العِدى فَوزانُ رأيك في جِهادِكَ أرْجَحُ[198]

ويقول في قصيدة أخرى :

والسَّلْمُ إن جَنَحَت لَها هِمَمُ العِدَى فالحَربُ تؤذنُ باقْترابِ أوانِها
لا يَسْكُنُ الرّوعُ المُلِمّ بأرْضِهِمْ حَتّى تَرى الإسلامَ منْ سُكّانِها[199]

ويشير الوزير أبو بكر بن عاصم إلى نية السلطان في هذا الأمر فيقول :

واخلصْتَ للّه الجهادَ فأصْبَحَتْ بلادُ العِدَى مِنْ خَوْفِ بَأْسِك ترجُفُ
ورُعت قُلوبَ الرّومِ قَبْلَ قِتالِهِمْ فليْسَ لَهُمْ عَنْ مطْلَبِ السّلْمِ مَصْرِفُ
فَما نومُهُمْ بالذعْرِ إلاّ تَهَوّمٌ ولاَ شأْنُهُمْ في الدّهْرِ إلاّ تَخَوّفُ
فَكَيْفَ إذا قُدْتَ الجُيوشَ لِأرضِهِمْ تُزَلزِلُ منْها ما آطمَأنّ وتَنْسِفُ[200]

أما أبو الحسين ابن فركون ولد السابق الذكر، فهو يميل إلى سياسة المهادنة، وينصح السلطان بقبول الهدنة المعروضة عليه من قبل الروم، يقول :

تأتي وفودُ الرّوم تخْطُب سَلْمَهُ فيكُفُّ كَفَّ القادِرِ المُتَعَفِّفِ
وَوَلِيُّهُمْ يَخْشَى ــ فَيُرْدِف رُسْلَهُ ــ إرْسالَ جَيْشٍ بالمَلائِكِ مُرْدَفِ
أعِرِ الجوابَ بِها عَلَى ظَمإٍ لَها تَنْقَعْ جَوَى المُتَشَوّقِ المتشوّفِ
واجْنَحْ إلَيْها مُنْعِمًا مُتَفضّلاً لا زِلْتَ أكْرَمَ واهِبٍ مُتَعَطِّفِ[201]

(198) نفسه : 92.
(199) نفسه : 40.
(200) نفسه 75.
(201) نفسه 61.

وأخيرًا نجد السلطان يوسف الثالث نفسه يعلن رأيه في الموضوع، ويعبّر عن ميله إلى الجهاد، ولكنه يتحسّر على ما آلت إليه أحوال الثغور من إهمال، وما أصبح عليه الناس من فساد وانحلال، وبخل بالنفس والمال، فيقول :

لهْفُ نَفْسي عَلَى الثُّغورِ تَخَلَّتْ فَهْيَ صِفْرٌ مِنَ الكُماة الحُماةِ
وَأُناسٍ عَلَى المَعاصي جِهارًا قَدْ أباحُو حَريمَنا لِلْعُداة
لَسْتُ لِلصِّيدِ مِنْ خَلائِفِ نصْرٍ يَوْمَ أهْنا بِسِلْمِ تِلْكَ العُتاةِ[202]

ثم يقول من قصيدة أخرى :

وإنَّ «إفَنْتَ آلرّومِ» يَنْقادُ خاضِعًا كَما انقادَ مِنْ بَعْدِ الإباءِ جَموحُ
سَيَرْضَى بِحُكْمِ السّيْفِ مِنْهُ مُسَوِّفٌ ويَسْمَحُ بالمالِ العَريضِ شَحيحُ
وذلكَ سَهْلٌ في مَشيئَةِ قادرٍ يُنيلُ مَرامًا مُرْتَجًى ويُتيحُ
أمَا نحنُ ـــ واللّهُ العَليمُ بقَصْدِنا ـــ نُهَجِّرُ في نَصْرِ الهُدى وَنُريحُ
بأفْئِدَةٍ لا يسْتقِرُّ قَرارُها وهَلْ بمُثارِ النقْعِ تَهْدَأُ ريحُ
يُصَرِّحُ مَلكُ الرّوم جَهْدًا بصُلْحِهِ وبُرْهانُ مَقْصودي لَدَيْهِ صَريحُ
وهَلْ لي إلى غَيْرِ الحُروبِ تطلّعٌ وهَلْ لي إلى غَيْرِ الجِهادِ طُموحُ[203]

وإذا كانت المدائح تقتضي بطبيعة الحال أن يكون «الإنْفَنْتِ» هو الطالب للهدنة، كما رأينا، فإن شِعْر الملك يفهم منه أن «الإنفنت» تلكّأ في الاستجابة لطلب الهدنة أوّلاً، ثم انقاد بَعْد إباءٍ، ولكنها كانت «هدنة على دخن» كما يقول المثل، فالملك الناصر كان يطمح إلى الجهاد، ويأمل أن يسمح الناس بالمالِ العريض الضروري لإعداد العُدّة والعَدَد.

ويبدو أن عدم انقياد فرناندو لطلب الهدنة المشار إليه في شعر يوسف الثالث، كان خلال حصار أنتقيرة، فالرواية المسيحية تقول إنّه طلب بواسطة سفيره سعيد الأمين من فرنندو هدنة لمدة سنتين، وحاول شراء انسحاب المسيحيين بأي ثمن، ولكن هذا أبى

(202) ديوان يوسف الثالث : 5.
(203) نفسه : 21 ـــ 22.

أن ينقاد لذلك.(204)

وأما ما يشير إليه ابن فركون من توارد الوفود النصرانية على بلاط الناصر فلعلّه كان بعد واقعة أنتقيرة، وذلك عندما شغر عرش أرغون واحتاج فرناندو إلى بعض الوقت لِيُتِمَّ أمر الاستيلاء عليه، فأرسل دييجو فرناندث القرطبي سفيرًا إلى غرناطة لطلب الهدنة.(205)

إن ديوان ابن فركون وديوان الملك يوسف يقدمان لنا أخبارًا وأشعارًا في الموضوع نعرضها حسب تسلسل تواريخها، يقول ابن فركون :

«ولمّا دخلَ المُسْلمون منْ أهْلِ رُنْدةَ صَخْرةَ عَبّادٍ ـــ أعادَها الله ـــ واسْتأصَلُوا مَنْ وجَدوا بها قَتْلاً وَإساراً إلاّ قليلاً منهم اعْتصَموا بقَصَبتِها، وورَد البشيرُ بذلكَ، قُلْتُ أُهَنّيءُ مَقامَه الكريم لِلْحين، وهيَ من المُرْتجلات، في يوم الأربعاء الرّابع عشر لذي الحِجّة عامَ اثْنَي عَشَرَ وثماني مائة»(206).

وقد كان هذا «بكْر الفتوح» حسب تعبير كلّ من الملك يوسف في ديوانه وشاعره أبي الحسين الذي وصف «الصّخرة» الشمّاء، واجتياح «جند الله» لها ثم قال :

وإنّ «إفَنْتَ» الرّوم يجْهَدُ كُلّما ... أراهُ المَقامُ اليوسُفِيّ جِهادَهُ
وكان وَلِيُّ الشرْكِ وَافَى مُطاوِعًا ... هَوًى ساقَهُ نَحْوَ الهَوانِ وَقادَهُ
فَفازَ بِها طَوْعًا، وحَلّ بأُفْقِها ... وأَلْقَى لَدَيْها ذُخْرَهُ وَعَتادَهُ
وسارَ إلى أوْطانِهِ وَهْو ظافِرٌ ... لَها لاَ إلى الأُخرى يُرَجّي مَعادَهُ
وكانَ إليها الآن يأتي بزعْمِهِ ... يُريدُ ويأبَى اللّهُ إلاّ مُرادَهُ
غَدا جاهِدًا قَدْ شفّهُ لاَعِجُ الصّدى ... يُؤَمّلُ فيها وِردَه وَمَرادَه
يَقودُ لَها جَيْشَ الضّلالَةِ قاصِدًا ... فَحَلاّهُ المِقْدارُ عَنْها وَذَادَهُ
إلَى أنْ أتَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٌ ... فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ(207)

(204) تاريخ اسبانيا المسلمة في عصر بني نصر للسيدة أريية : 128.

(205) المرجع نفسه.

(206) الديوان : 46.

(207) نفسه : 27.

ويقول يوسف الثالث في المناسبة نفسها من قصيدة له في الموضوع :

لئِنْ فاتَ في أمْسِ فَنَاءُ «إفَنْتِهِمْ» سيَلْقَى غدًا رِجْزَ العَذابِ أليمـا
وسُحْقًا لَهُ حيْثُ آستخفّتْ حُلُومُهُ ولَمْ يَرْجُ فَيّاضَ الهِبـاتِ حَليمـا
ولمْ يتّخذْ للصُّلْحِ مِنْها وَسيلَـةً يُرَضّي مَسيحًا قَصْدُهـا وَكَلِيمـا[208]

وكان رد الفعل هو زحف النصارى بقيادة «الإنفنت» فرناندو، وقد نزلوا على ثغر «أنتقيرة»، وحاصروه من جيمع الجهات، وظل الحصار من شهر يونيو إلى شهر سبتمبر 1410م، حِينَ وجدوا ثلمة في السور دخلوا منها[209]، وقد دافع أهل البلد، والمجاهدون من أهل غرناطة، وفيهم الشهيد أبو يحيى بن عاصم، ويقصّ علينا ابن أخيه وسميُّه أبو يحيى ابن عاصم ظروف استشهادِهِ قائلاً :

«فُقِدَ يومَ المُناجَزة الكُبْرى بظاهر أنتقيرة الجاري على المُسلمين فيها التَّمْحيص العَظيم، صابرًا محتسبًا، رابط الجأش، ثابت القدَم، وفي ذلك الموقف الصّعب ــ وقد طاشت الأحلام، ودُهِشت الأعْلام ــ عَرَض عليه بعضُ منْ معه التحيّز بعدَ الوصول لِلْمحلة [التي] انكشف عنها المُسْلمون، وهو من غير تُرْس، فأبى ذلك، وقال له : لا يجوزُ لهم تجاوز محلّتهم، إذ هم الفئة المتحيز إليها، فتركه وأقبل بوجهه على الكَفَرة القاصدة له، يدافعهم بجَهْده، ورماحُهُم تَنوشُهُ، وانصرف عنهُ الحاكي، فكان آخر العَهْد به، وذلك في صدر المُحرّم عام ثلاثة عشر وثمانمائة»[210] وقد دافع أخَوَا السلطان أبو الحسن علي وأبو العباس أحمد خلال هذه المناجزة الكبرى ما وسعهم الدفاع، ولكن قضاء الله نفذ، فسقطت أنتقيرة في يد المسيحيين[211].

---

(208) نفسه : 122.

(209) تاريخ اسبانيا المسلمة في عهد النصريين للسيدة أربية ص 128.

(210) نيل الابتهاج : 285. وفي النص بعض اضطراب في الأصل، وفيه إشارة إلى آية «وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه» الآية.

(211) تاريخ إسبانيا أعلاه ص 128 ــ 129.

وفي ديوان يوسف الثالث تخميسٌ نظمه عند «نزول العدّو على ثَغْر أنتقيرة» نراهُ يتهم فيه بعضهم بالتهاون، وعدم الصدق في الدفاع، قال :

وَيَا عَجَبًا مِنْ تارِكٍ حَقّ رَبِّهِ   تُعُرِّفت البَغْضاءُ مِنْ كُنْهِ حُبِّهِ
فَلَمْ ينتشِقْ رَوْحَ الرضا منْ مَهَبِّهِ   ومهْما دَعا داعي الهُدَى لَمْ يُلَبِّهِ
فأنّى لَهُ بالفَخْرِ والفَوْزِ بالأَجْرِ

* * *

أقَمْتُ عَلى سَهْلِ الأمورِ وصَعْبِها   مُعِدًّا أوانَ السِّلْمِ أوْزارَ حَرْبِها
وكَمْ دِنْتُ بالعُتْبى وإلغاء عَتْبِها   نفوسًا توارَتْ في غَياهِبِ حُجْبِها
فأبْدَتْ خَفايا حالِها ألْسُنُ الدّهْرِ

* * *

وهَلْ يَرْتَضِي أنّ الكَفورَ مُؤيَّدُ   سِوَى مُلْحِدٍ، فَضْلَ الهِداية يَجْحَدُ
مَلائِكَةُ السّبْعِ السّمَواتِ تَشْهَدُ   عَلَى جامحٍ في غَيّهِ يَترَدّدُ
ويرْتاحُ والإسلامُ في قَبْضَة الكُفْرِ(212)

ولعلّ الفقيه الشاعر الشران يشير إلى هؤلاء المنافقين إذ يقول مخاطبا الملك الناصر :

عَدُوّكَ خوفًا منْ صِيالِكَ لَمْ يَزَلْ   عن الحَرْبِ يختارُ التوانِي وانِيا
سَيَغْشاهُ يومٌ منْ وَغاكَ يَوَدّ أنْ   يَرى منْهُ لو يُعْطَى التفادِيَ فادِيا
وويْلٌ لمَنْ أمْسَى لأكنافِهِ الّتي   بِهَا سَخِطَ الله المَساعيَ ساعِيا
ومنْ لاذَ بالكُفّارِ أصبحَ حيْثُ قَدْ   أعدّ لهُ الهُلْكُ المَهاوِيَ هاويا
وهَلْ هُو إلاّ الجَهْلُ عَمّ عُقولَهُمْ   عَمًى لمْ يَزَلْ يَغْشَى المُداجِي داجِيا
لَقَدْ طُهِّرَتْ منهُمْ مَنازِلُكَ الّتي   سَقَى ورْدُ نُعْماها المُصافِيَ صافيا

---

(212) ديوان يوسف الثالث : 71.

وما آمتسَكَتْ إلاّ بِمَنْ جَدّ عَهْدُهُ   فَلَيْسَ إذا لاَقَى الدّواهي واهِيـا[213]

أما ديوان الشاعر ابن فركون فلا نجد فيه شيئا حول واقعة أنتقيرة، ولعله عرض لها في باب المراثي من القسم المفقود.[214]

ومن أحداث هذه الحقبة الحملة التي قادها الأمير معز الدولة أبو الحسن علي إلى شقورة SEGURA في أرض أرغون، ويحدثنا عنها الشاعر قائلا :

«وقُلْتُ أهنِّئُهُ، أيدهُ الله، ونصره، بعيد الفطر عام 812 هـ، وقد وصل السيد الأمير أبو الحسن، شقيق مولانا أيده الله، بالجيش من غزْو شَقُورة»[215]

وممّا جاء في القصيدة المشار إليها :

لَمّا الْتَقى الجَمْعانِ في أرْضِ العِدَى   ورمَيْتَ جمْعَهُمُ ببَـأْسٍ مُعْجِـلِ
نادَى بأبطـالِ الجهـادِ ألا اقْدِمـوا   وأجـالَ فيهِمْ نَظْـرَةَ المُتَأمِّـلِ
فَتسارَعـوا إلَـى داعـي الهُـدى   والرّومُ عنْ سُبُلِ النّجاةِ بمَعْـزِلِ
ضاقَتْ علَيْهِـمْ أرْضُهُـمْ فَتوقّفـوا   والماءُ يجْمَـعُ نَـفْسَهُ في الجدْوَلِ
وتَجَمّعَتْ فِرَقُ العِدَا ثـمّ انْثَـنَتْ   مـا بيْنَ مُنْهَزمٍ وبيْـنَ مُجَـدّلِ
شالَتْ نَعامَتُهُـمْ سَريعًـا بَعْدَمَـا   وقَفـوا وُقـوفَ الخاضِعِ المتذلّـلِ
وتسَلّلُوا طَـوْعَ الفِـرارِ وجَمْعُهُـمْ   قَـدْ ريعَ بيْـنَ مُذلّـلٍ ومُضَلّـلِ[216]

وفي ديوان الملك يوسف قصيدة تشير إلى مجابهة مع القشتاليين حول حصن منتشاقر MONTEJICR وقد وقعت والسلطان مريض خلال سنة 814 هـ.[217]

لقد وقفت حركة الجهاد المحدودة التي دَشن بها يوسف الثالث عهده عند هذا الحد،

---

(213) مظهر النور الباصر : 159.
(214) أشار الشاعر في ص 120 إلى العتابيات وفي ص 234 الى المراثى ولا وجود لهذين البابين في هذا الديوان، ولعلهما في قسم آخر منه.
(215) الديوان : 40.
(216) نفسه 81.
(217) ديوان يوسف الثالث : 124.

واتجه بعد ذلك إلى عقد الهدنة، وطلَبِ تجديدِها إلى وفاته، وقد فعل هذا لسببين على الأقل :

أولهما التفرغ لاسترجاع جبل طارق الذي أعلن أهله الانضمام إلى بني مرين عام 813 هـ.

وثانيهما التشغيب على بني مرين والتضريب بين ملوكهم وأمرائهم.

ومع هذا نرى شاعره ابن فركون في عيدياته وغيرها لا يفتأ يذكر أن السلطان سيغزو أرض الشرك ويَسْتَرجع الحصون وما إلى هذا.

فيقول من قصيدة (107) :

سيغــزو أعاديـه بشُهْبِ كتــائِب تطاولُهـا شُهْبُ الدُّجـى فتطُولُهـا
تحُـلُّ دِيـارَ الكُفْـرِ منْهـا سوابـقٌ تَجِلّ عـنِ التشْبيـهِ حيـنَ تجولُهـا
تخوضُ إلى الأعْداءِ بحْرًا منَ الْقَنَا سِراعًا وهَوْلُ الرَّوْعِ لَيْسَ يَهُولُها
فَتَرْتاحُ خيـلُ الله لِلْمُلْتَقَى الّـذي يُجيبُ بِهِ داعـي الهدى ويُجيلُهـا

ويقول من أخرى (114) :

سَتَتْرُكُ أرضَ الشِّرْكِ وهْيَ بَلاقِعٌ وتُلْقي عَلَيْها النَّقْعَ في الجوِّ ميسَمَا
بحَيْثُ تراعُ الوحْشُ أن تصل السُّرى ببَيْدائِهــا والطَّيْــرُ أنْ تَتَرنّمــا
لَقَدْ خَـطَبَ الخطِّي فَتْـحَ بِـلاَدِهِ وخَاطَبَهُ الهِنْـدي عَـنْكَ فَأَفْهَمَـا
فَلِلّـهِ مِنْهـا إذْ تَحُـلُّ حِلاَلَـهُ صَنائعُ جلَّتْ قبْـلُ أن تُتوهّمـا

وقد تكررت هذه الجعجعة في قصائد أخرى، وهذا في الوقت الذي «سادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل، و لم تشهد غرناطة من قبل عهدًا كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمّتين الخصيمتين» كما يقول المرحوم عبد الله عنان، ومع ذلك وجدنا ابن فركون يهنىء سلطانه بوفاة فرناندو بقصيدة يقدمها بقوله :

«وفي آخر صَفَر منْ عام تِسْعَةَ عَشَرَ وثَمانِ مائَة، ورَدَ الخَبَرُ عَلَى الحَضْرةِ بِوَفاةِ طاغيَة رَغُون، المُلَقّب بالإِفَنْتِ عَمّ صاحِبِ قَشْتالَةَ وَوَصِيِّهِ، وهو المُتَغَلِّبُ قبلُ عَلَى

مَعْقَلِ أنتقيرة والصَّخْرَةِ وغَيْرِهِمَا مِنْ حُصونِ الغَرْبيّةِ أعادَها الله، فَقُلْتُ أُهَنِّئُهُ رَحْمَةُ الله عليْهِ بذلِكَ». [218]

وقد عبر الشاعر في قصيدته عن إبتهاج المسلمين بوفاة فرناندو الأول، ومما جاء فيها :

أُصيبَ «إفَنْتُ» الرّوحِ فارْتاعَ قَوْمُهُ　　وأضْحَتْ بطاحُ الرُّشْدِ وهْيَ أَوَاعِثُ
تَجَرَّعَ صابَ المَوْتِ، لاَ دَرَّ دَرّهُ،　　فأيْدِي المَنَايَا كَيْفَ شَاءَتْ عَوابِثُ
أصابَتْهُ مِنْ صَرْفِ الزَّمانِ مُصيبَةٌ　　بهَا المَوْتُ عاثٍ في حِمَاهُ وَعائِثُ
وَهَى رُكْنُ عُبّادِ الصّليبِ بِمَوْتِهِ　　فَها هُوَ مِنْ بَعْدِ العُلَى متقاعِثُ [219]

تلكم كانت نظرة سريعة على علاقات يوسف الثالث بالممالك المسيحية، ونتعرف فيما يلي على علاقاته مع بني مرين.

4 ـ علاقات يوسف الثالث بالمملكة المغربية

ـ بوفاة أبي سالم المريني، وعودة الغني بالله من منفاه في المغرب إلى الأندلس، بدأ فصل جديد في العلاقات الأندلسية المغربية، فقد تنكّر هذا الملك النصري لبني مرين الذين آووه وساعدوه على العودة إلى عرشه، واستغلّ ظروف الفوضى التي عمت المغرب بعد مقتل أبي سالم، فاستولى على جبل طارق الذي كان أبو الحسن المريني جعل منه حصنًا حصينا، وبذلك اغلق الغني بالله الباب في وجه المجاهدين المغاربة الذين كانوا يأتون للرباط في هذا الحصن، ولَطالما حضّ ابن الخطيب المرينيين في شعره ونثره على التمسُّك به، كما أن الغني بالله هذا استولى فترة على سبتة، وأبطل مشيخة الغزاة التي كانت تسند إلى المغاربة فصارت تسند إلى أمراء نَصريين، وصرفَ همّه إلى التضريب بين بني مرين، والعمل على إضعافهم، حتى أصبحوا ألعوبة في يده ؛ وهكذا انقلبت الآية، فبعد أن كانت كفة المرينيين هي الراجحة غدت شائلة، وبعد أن كانت فاس تستقبل رسل بني الأحمر أصبحت غرناطة مقصدًا لضعاف بني مرين ؛ وظل الحال هكذا في عهد خلفاء الغني بالله، ومنهم مخدوم ابن فركون يوسف الثالث. فإن هذا الملك الذي مدح بَعْضُهُم سياسته الداخلية، هادن النصارى ليتفرغ إلى التشغيب على بني

(218) الديوان : 222.

(219) نفسه.

مرين، وكان لجوء أفراد من البيت المريني إلى غرناطة يساعده على هذه السياسة التي تمسّك بها حتى آخر يوم من حياته، فقد أدركه الموت بالمنكب وهو يجهز ــ كما رأينا ــ صنيعة من هؤلاء إلى المغرب.

إن ديوان ابن فُركون يرسم لنا صورة قاتمة عن العلاقات بين الدولتين الجارتين، وبين الملكين المتعاصرين : يوسف الثالث النصرى وأبي عثمان سعيد بن أحمد بن أبي سالم المريني، فقد كان النصري يطمع ان يكون له من النفوذ في المغرب مثل ما كان لوالده وجده وقد لقبه شاعره بملك العدوتين :

مَــلِكُ العُدْوَتَيــنِ شرقًــا وغربًـــا   مَنْ يُضاهِيهِ في العُلى أو يُنافِسْ[220]

ولكنّه وجد أمامه ملكًا شابًّا صَلْبا سبقه إلى الحكم وكان له مساعدون من ذوي السياسة والحزم مثل الحاجبين : القبائلي والطريفي.

ولسنا ندري متى بدأت الخصومة والمناوشة بين الملكين، ولا من كان البادىء منهما، ولقد رأينا أن وفودًا مرينية حضرت إلى غرناطة لتهنئة يوسف الثالث بعد إعلانه ملكًا عام 810 هـ.

وفي عام 813 ثار أهل جبل طارق وأعلنوا تبعيتهم للمغرب، وفي السنة نفسها جهّز يوسف الثالث السّعيد المريني ووجهه في أسطول إلى المغرب ليطالب بالملك في محاولة لاسقاط أبي سعيد عثمان.

وأغلب الظن أن هذا الاجراء جاء ردًّا على عصيان أهل جبل طارق، وانضمامهم لبني مرين، نظرا لسمعتهم في الجهاد والدفاع عن الأندلس، ولأن الجبل كان حتى آخر عهد أبي عنان تابعًا للمغرب.

ومن هذا التاريخ يبدأ صراع لا ينتهي إلاّ بوفاة يوسف الثالث وهو صراع أضعف الدولتين معًا وتسبب للمغرب في ضياع سبتة وفي خراب كثير من المدن والمداشر[221]،

(220) نفسه : 70.

(221) تسببت حروب «السعيد» الذي حركه ابن الأحمر في خراب كثير من الجهات وخصوصا في نواحي مكناس يقول ابن غازي : «وكانت المجاشر محدقة بها من كل جهة، كلّ مجشر بمزارعه وغراساته ومراعيه، إلى أن ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز في أرض المغرب وذلك في العشرة الثانية من القرن التاسع فخلت المجاشر وانجلى عنها أهلها، فيقال خلا من مجاشرها حينئذ اثنا عشر الف مجشر والبقاء لله وحده» (الروض الهتون : 38، المطبعة الملكية ــ الرباط) وذكر الحسن الوزّان انه تخرب =

كما تسبّب للأندلس في ضياع أنتقيرة ومُنْتِشاقر وحصن الصخرة أو صخرة عَبّاد بالقرب من رُنْدَة وغيرها من الحصون كما رأينا ممّا سبق.

ولقد صرف يوسف الثالث جهْدَهُ كُلَّه في أمرين :

أولهما العمل على استرجاع جبل طارق، ولم يكن أمْرًا سهلا كما يفهم ممّا في الاستقصا نقلا عن تاريخ منويل.

فالديوان يخبرنا أن «المحلّة» الغرناطية بقيت محاصِرة للجبل من سنة 813 هـ إلى سنة 817 هـ، وقد انتقل الملك النصري مرارًا من غرناطة إلى «المحلّة» المرابطة، وكان أخوهُ أبو الحسن علي الملقب بمعز الدولة هو الذي دخل الجبل، واستردّه بعد حصارٍ بري وبحري، وصفه الشاعر في عددٍ من عيدياته وصفًا مفصلا، ونوه بشجاعة معز الدولة، وهنأ مَلكهُ بهذا الفتح، ومما جاء في إحدى هذه القصائد قوله :

صار إرْثًا مـــنَ الغَنِــيِّ لِعَلْيــا   تِلْكَ مـا شادَهُ عَلِــيٌّ وَفــارِسْ[222]

يعني أن جبل الفتح، وما شاده فيه أبو الحسن المريني، وولده أبو عنان، صارَ إرثًا ليوسف الثالث ورثه عن جده الغني بالله.

ونجد في ديوان يوسف الثالث عددًا من القصائد، يذكر فيها حصار جبل الفتح، ويفخر باسترجاعه، ويفهم من شعره أن أوّل ما استُرجِع منه هو الحصن المعروف بالقَشْتور وفي هذا يقول :

وسائِلْ بها «القَشْتورَ» إذْ عَزّ مَطْلَبٌ   فَها هُوَ مِنْ أسْرِ السّيوفِ عَتيـقُ
نَهَدْنا إلَيْهِ بَعْدَ مَا هَوّمَ الدُّجَـى   ونـادَى فَنَجّيْنـاهُ وهْـوَ غَريــقُ[223]

وقد أكثر شاعر البلاط النصري من وصف أهل جبل طارق بالمروق والخيانة مع أنهم، ومعهم طائفة من أهل التقوى والصّلاح، إنّما أقدموا على ما أقدموا عليه غيرة

= خلال حروب هذا «السعيد» مع أبي سعيد عثمان قرى ومدن وقصور عديدة في جميع انحاء المملكة وذكر منها فنزارة والمعمورة وتافلفلت (تفلت) وجامع الحمام وبني بازيل والمقرمدة ومدينة الجمعة في أزغار انظر وصف افريقيا (اسم السعيد في الفهرس).

(222) الديوان : 67.

(223) ديوان يوسف الثالث : 146 وقد ورد ذكر القشتور في الاحاطة على أنّه اسم حصن من حصون جبل طارق. ج. 2 ص 87.

على دينهم، وحمايةً لبلدهم، وهذا ما يشرحه منويل القشيلي في تاريخه إذ يقول : «لمّا كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني، كان المسلمون أهل جبل طارق، قد سئموا مُلْك ابن الأحمر صاحب غرناطة، وتحققوا بأن المريني أقوى منه شوكةً، وأقدر على تخليصهم، ممّا عسى أن ينالهم به الاصبنيول، من حصارٍ ونحوه، فبعثوا إليه يخطبون ولايته، ويعرضون عليه الدخول في طاعته، إن هو أمدّهم بما يدفعون به في نَحْر ابن الأحمر، فأعجب أبا سعيد ذلك، وللحين بعث إليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عبّو ومعه طائفة من الجيش إمدادًا لهم.» (الاستقصا 4 : 93 وجذوة الاقتباس : 417).

ثم إن المرابطين في جبل طارق يومئذ كانوا من أهل المغرب، وكان الجبل في يد المغاربة منذ استرجعهُ أبو الحسن المريني من النصارى، وقد حصنه بأبراج وأسوار، وصفها المؤرخون، وما تزال ماثلة إلى يومنا هذا، كما بنى فيه دار صناعة، وجدّد أبو عنان تحصينه وتحسينه، وكان عقلاء الأندلسيين كابن الخطيب يوصون بني مرين بالتمسّك به والمحافظة عليه، ولهذا رأينا أبا عنان يولّي عليه ولده أبا بكر السعيد «وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل، وكفاة الرجال، ودرّ عليهم الأرزاق، ووسّع لهم الإقطاع، وحرّر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الاحسان، وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحُصُونِهِ وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عُدَده وأهْرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء، فَصُنِعَ ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلا عجيبًا، أتقنه الصناع إتقانا، يعرف قدره من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوفه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهمّمه بتحصينه وإعداده، والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفّار وشتّ شمل عباد الصليب.» (رحلة ابن بطوطة 2 : 185).

فلا عجب ــ بعد هذا الكلام الذي هو لأندلسي غرناطي هو ابن جزي ــ أن يظل أهل جبل الفتح على ولائهم للمرينيين، بعد أن تمكن الغني بالله من أخذه منهم، خلال فترة من فترات الاضطراب، وما عبر عنه ابن جزي في آخر كلامه لم يكن ليعجز أبا عنان وأبا الحسن من قبله، ولكن سياستهمَا، اتجهتا إلى توحيد المغرب الإسلامي ليكون مدد الجهاد في الأندلس قويا وفعّالا، ثم إن دولة بني نصر قامت على أساس التحالف التام مع المغرب، والاستعانة الدائمة به، ونِظامُ مَشيخة الغزاة المغاربة دليل على ذلك، وقد كان أبو الحجاج وولده الغني بالله يخاطبون أبا الحسن بالوالد، ومن هنا فقد اكتفى

المرينيون بمشيخة الغزاة مع مواقع أقدامٍ في جبل طارق ورُنْدة والجزيرة الخضراء.

ولكن الاضطرابات التي وقعت في المغرب بعد أبي عنان، والنوايا السيئة لملوك بني الأحمر، وتهافت بعض شيوخ الغزاة وغيرهم من أبناء الأسرة المرينية على الملك، والعوامل الأجنبية، كل ذلك أدّى إلى ما أدى إليه من سوء الأحوال، وفساد الأوضاع، وأصبح الشغل الشاغل للغني بالله، بعد عودته من منفاه في المغرب، الذي أحسن إيواءه، وأكرم وفادته، هو التشغيب على بني مرين، والعمل على انتزاع مواقعهم في الأندلس، والتطلع إلى سبتة المغربية، والتدخل في شؤون المغرب الداخلية، وسار على هذه السياسة من جاء بعده، مستغلين فترات الاضطراب التي استشرت في المغرب، ووجودَ اللاجئين الطامعين من بني مرين في غرناطة وهكذا، أنقض النصريون الظَّهر الذي يَسْنُدهم، وأنهكوا البلد الذي كان يحميهم، ومع ذلك نراهم يرمون أهل المغرب بدائهم وينسلّون، وما أفعال هذا الملك الملقب بالناصر لدين الله إلاّ مثالٌ صارخ على ما نقول.

وفي الديوان معلومات أخرى حول قضية جبل طارق، لعلّ من أطرفها اتهام ابن فركون لشخصيات علمية أندلسية بالخيانة من أجل انحيازهم إلى جانب المغرب في مسألة جبل طارق، قال في مقدمة قصيدة كتب بها إليه أبو القاسم بن حاتم المالقي : «وهو شاعر مفلق، وقد تولّى قضاء جبل الفتح الولاية التي ظهر فيها من سوء رأيه، ما قضى لمبنى عزّةَ بِسقوطه ووهيه، وهو الآن بعد خطوب فادحة مقيم بسبتة»[224] هكذا يقول ابن فركون.

ونقرأ في غلاف مقامة هذا القاضي الأديب، المدعوة «حضرة الارتياح، المغنية عن الراح» المطبوعة في فاس وتونس، أنه كان قاضيًا بجبل الفتح، ثم إنه امتحن، وأخذ وحملَ إلى فاس، واعتقل بها مدة طويلة، فصنّف وهو في السجن كِتابَ «جمع المقال، في الاعتقال»[225].

والشخص الثاني الذي كان له دورٌ في قضية جبل طارق هذه هو أبو زكرياء السّراج

---

(224) الديوان : 183.

(225) تقع مقامة «حضرة، الارتياح» في 15 صفحة أما مؤلفها فلا نعرف عنه إلا ماورد على غلاف هذه المقامة وشعره في «مظهر النور الباصر» وما أشار إليه أبو الحسين ابن فركون وقد نقل عنه ابن الازرق في روضة الاعلام حكاية مهد لها بقوله : «رأيت بخط الشيخ الفقيه الأديب البارع أبي القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن حاتم العاملي المالقى الشهير بابن البنا..» روضة الاعلام : 395 مخطوط خ.ع.ر.

الذي يخاطبه الشاعر بقصيدة مؤرخة بعام ثمانية وثمانمائة، جاء في التمهيد لها : «وكانت بيني وبين الفقيه أبي زكرياء يحيى بن السّراج، من أهل رندة، مكاتبات أيام القراءة، إلى أن زلّت به قدمه، وخانته همَمُه، ونزع أيام فتنة الرئيس البائس الواصل إلى جبل الفتح، إليه، ثم استقر أخيرًا بفاس، وبها وافته منيته، أعاذنا الله من سوء العاقبة»(226).

أمّا هذا «الرئيس البائس» الواصل من المغرب إلى جبل الفتح لإعادته إلى السيادة المغربية فلم نتمكن من تحديد هويته، وقد وردت الاشارة إليه مرة أخرى في الديوان بما يلي : «وقلْتُ أُهنّىء مَقامَه الكريم، أسْماهُ الله، بعيد الأضْحى، منْ عام ثلاثةَ عَشَرَ وَثمانمائة، بالمَحَلّة، من ظاهِر جبل الفَتْح، عَصَمَهُ الله، عِنْدَ مُحاصَرَتِه والأخذِ بمُخَنّقِهِ بَرّا وبَحْرًا، والتّضْييقِ عَلَى المَحَلّةِ الغَرْبيّة النّازلةِ بإزائِهِ، مَعَ الرّئيسِ البائِسِ المُحَكَّم فيهِ سَيْفُه اليوسُفِي بَعْد ذلك، وقَدْ فَرَّ إليْهِ بَعْضُ الغادِرين المارِقين مُرُوق السّهْمِ عَن الدّين».(227) كما ذُكِرَ مرّةً ثالثة في التقديم الآتي لبعض القصائد :

«وقُلْتُ أمْدَحُ المَقامَ الكَريم اليُوسُفِي، أسْماهُ الله، وقَدْ وافَقَ ذلك إيصالَ الرّئيسِ البائِس الواصِلِ منَ المَغْرب مُعْتَقَلاً»(228)

ويقول الشاعر مشيرًا إلى هذا «الرئيس البائس» :

أتى وثيابُ الهونِ تَعْلو قُيودَهُ ... فَيَرْسُفُ طَوْعَ الذّلّ فيها وَيَرْفُلُ
وجَاءَ وقَدْ حَفّتْ بِهِ الشّيعَةُ التي ... لَها من ذميم الغَدْرِ ما لَيْسَ يُجْهَلُ
تَحامَى طَرِيقَ الرُّشْدِ منْ قَبْلُ فاغْتدَى ... تُذَلِّلُهُ آراؤُهُمْ وتُضَلِّلُ
ولَوْ أمَّلَ المَوْلَى الخليفَةَ يوُسُفًا ... لَما رَاعَهُ خَطْبٌ منَ الدَّهْرِ مُعْضِلُ
ولَوْ أمَّ للْبابِ الكَريمِ لأصبَحَتْ ... وجُوهُ الأمانيّ نَحْوهُ تتَهَلّلُ
ولكنّه ما جَدّ إلاّ لأنْ يُرَى ... كَما شاءَه المِقْدارُ وَهْوَ مُجَدّلُ(229)

ويقول أيضا فيه من قصيدة أخرى :

---

(226) الديوان : 197 — 180.

(227) نفسه : 87.

(228) نفسه : 59.

(229) نفسه : 30.

فيا مجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَهْوِنْ بمَنْ أتى ... يَرومُ لِشَمْلِ الدّينِ فيكَ تَفَرُّقَا
توارَى وقَدْ حَفَّتْ بِهِ شيعَةُ الهُدى ... وأضْحى بِهِ جُنْدُ العَزائِم مُحْدِقَا
وضَلَّ طريقَ الرُّشْدِ لا دَرّ دَرُّهُ ... فَلَمْ يُلْفَ إلاّ ساهِرَ الجَفْنِ مُطْرِقَا
فَمِنْ فَرَقٍ عنْ حَربِه كَفَّ إذْ رأى ... يَدَ اللهِ تَعْلو منهُ بالسَّيفِ مَفْرِقَا[230]

ولا نعرف هل هذا الرئيس من بني مرين أم من بعض بني الأحمر الذين كانوا في خدمتهم، وقد ورد وصف «الرئيس البائس» في «جنّة الرضى» لابن عاصم، في حق بعض النصريين الخارجين على محمد التاسع الغالب بالله[231]، فهل يكون هذا الرئيس البائس هو الرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر رئيس الأسطول المغربي في عهد أبي عنان ومن جاء بعده، وهو الذي أسهم بأسطوله سنة 788 هـ في استرجاع سبتة إلى الايالة المرينية[232] ؟ قد يكون ذلك، ولا سيما أنّ ابن فركون يقول فيه، مشيرا فيما يبدو إلى أعماله السابقة، وتفانيه في نصرة بني مرين على بني أسرته :

تحامَى طريق الرشد مِنْ قَبْلُ فاغْتَدَى ... تُذَلِّلُهُ آراؤهم وتُضَلِّلُ

أما وصوله من المغرب إلى غرناطة مُعْتقَلاً، فلعلّه تم على يد أنصار السعيد.

وأمّا يحيى السّراج المشار إليه فأمْره مشكلٌ كذلك، إذ يوجد عندنا الشيخ القاضي الخطيب أبو زكرياء يحيى ابن السراج الذي كان مرابطًا في جبل الفتح، حيث لقيه كلّ من ابن الخطيب وابن بطوطة سنة 751 هـ، وهذا الشيخ — كما نعته الأول — توفي في حياة ابن الخطيب، إذْ نراه يترحّم عليه في الكتيبة وريحانة الكتاب[233]، وإذن فليس هو المقصود هنا ؛ وعندنا أبو زكرياء يحيى ابن السراج النفزي الرندي الأصل، وصاحب ابن عباد الرندي الصوفي المعروف، ولكن هذا كما في فهرسته فاسي المولد[234]، وليس في الموجود من هذه الفهرسة ما يدل على أنه كان في رندة، أو دخل الأندلس[235]،

(230) نفسه : 88.

(231) هو الرئيس الأبكم من بني الأحمر. راجع الاستقصا 4 : 73 وفيض العباب وقد اشترك في استرجاع سبتة الى الايالة المرينية عام 788 هـ.

(232) جنة الرضى. مخطوط الخزانة الحسنية.

(233) الكتيبة الكامنة : 124 وريحانة الكتاب ورحلة، بن بطوطة 2 : 183.

(234) فهرسة السراج : 24 — 25 مخطوطة خ.ع.ر..

(235) راجع في هذا الموضوع أطروحة الأب نويا عن ابن عباد الرندي : 11 — 14.

هذا فضلا عن أنه — كما في ترجمته — توفي عام 804 هـ أو 805 هـ[236] أي قبل مكاتبة ابن فركون المؤرخة بعام 808 هـ، وقبل حادثة طارق التي كانت عام 813 هـ.

وأما أبو زكرياء يحيى ابن السراج الّذي ذكره ابن فركون، فكل ما نعرفه عنه أنه كانت بينه وبين ابن فركون مكاتبات ومجاوبات نثرية وشعرية، وممّا جاء في قصيدة ابن فركون المشار إليها قوله متشوقا إلى زيارة صاحبه في رندة ومادحًا أباه :

فيا لَيْتَ هذا القلْبَ تُوسَى كُلُومُهُ ... بزَوْرةِ خِلٍّ أحْرزَ المَجْدَ أوْ سِيّا

وحُبُّ أبيهِ الماجِدِ العَلَمِ الـرِّضَى ... يدينُ بهِ منْ يَقْصِدُ الدّينَ والدُّنْيا

فمَـنْ شاءَهُ لِلْعِلْـمِ أَلْفَـى إمامَـهُ ... يُجَلّي لَهُ في كُلّ مُشْكِلَةٍ هَدْيا

ومـنْ حـلّ مَثْـواهُ يجِدْهُ مَثَابَـةً ... بِهَا يَرِدُ العافُونَ مُسْتَعْذَبَ السُّقْيَـا

وأمّا إذا أُلْقِـي مِـن الذّكْـر آيَـةً ... فَدونَكَ ما تَبْغيهِ منْ غايةٍ قُصْيا

فللهِ دَرّ اللّفْظِ إن نصّ خُطْبَـةً ... وللّه بَحْرُ الحِفظِ إنْ فَسَّر الوحْيا[237]

وقد اختار له ابن فركون في مظهر النور الباصر 3 قصائد في مدح يوسف الثالث[238]، وقال في تحليته : «الفقيه الأعز أبو زكرياء يحيى بن أحمد ابن السراج من أهل رندة»[239]، وهذا الأخير يتفق في الحقيقة مع الذي قبله في الكنية والاسم واسم الأب والنسبة إلى رندة، ويتفق معه في كون والد كلٍّ منهما كان مقرئا وخطيبًا، ويتفق معه في الوفاة بفاس، فهل يكون ابن السراج صديق ابن فركون هو نفسه صاحب ابن عباد، ووقع خطأ ما في كتابة وفاته بأن سقط منها شيء كأن يكون تاريخ الوفاة 814هـ أو 815 هـ بدلاً من 804 هـ و805 هـ وقد ورد تاريخ وفاة السراج في فهرسة المنتوري هكذا : «توفي في يوم الأربعاء السابع لشعبان عام ثلاثة وثمان مائة» ونقل هذا التاريخ أحمد بابا السوداني في نيل الابتهاج فقال : «توفي السراج بفاس عام ثلاثة وثمانمائة» ومن الممكن أن يسقط عدد عشرة فيبقى التاريخ كما ورد.

---

(236) نيل الابتهاج 356 وجذوة الاقتباس : 539 وسلوة الأنفاس 2 : 143.

(237) الديوان : 199 — 200.

(238) مظهر النور الباصر : 140 — 153.

(239) المصدر نفسه.

وهذا الافتراض الأول، يدعونا إلى افتراض آخر، وهو أن هجرة أسرة السراج الرندية النفزية، وهجرة أسرة ابن عباد الرندية النفزية كذلك إلى المغرب، كانتا لسبب سياسي، هو ولاء هاتين الأسرتين لبني مرين، الذين ظلوا يحتفظون برندة إلى آخر عهد الغني بالله، وثمة خبر مُبْهَم قد يستفاد منه أن ابن عباد سجن بسجن أرباب الجرائم في الأندلس لميوله المغربية[240]، ومن المعروف أن هذا الزعيم الروحي كانت له مكانة كبرى عند السلطان أبي العباس أحمد بن سالم المريني، وأنه ولّي أكبر خطة دينية في المغرب، وهي خطبة القرويين بفاس، ولما مات شهدَ السّلطان المذكور جنازته.[241]

ومع أن افتراض لجوء ابن عباد وبعض الرنديين ــ الذين سماهم ابن بطوطة في رحلته ــ إلى المغرب، كان بسبب النفرة من بني نصر، يظل افتراضا وجيهًا، فإن افتراض أن يكون السراج الشاعر الذي ذكره ابن فركون هو صاحب ابن عباد يبقى محل نظر، ومما يقف في وجهه أن هذا المحدث الخطيب لم يشتهر بقول الشعر، وإن وجدنا له أبياتا في رسائل ابن عباد الكبرى (ص 126)، وقد ساق في فهرسته ثلاث قصائد غير منسوبة في رثاء ابن عبّاد، وعرفنا منها واحدة لعلي ولد ابن الخطيب السلماني (الفهرسة : 29 ــ 31) فلو كان يحسن قول الشعر لقاله في مربيه الروحي.

وهذا بالاضافة إلى ما يذكره في فهرسته من أن والده فاسي الولادة والوفاة، وما تنطق به من عدم دخوله الأندلس إلى تاريخ كتابة الرحلة عام 792 هـ، كما أنه يستعمل في حق بعض الأندلسيين الوافدين على فاس مثل هاتين العبارتين :

«قدم علينا رسولاً من جزيرة الأندلس» «ثم ورد علينا أيضا رسولا»، ومع ذلك فيبدو من رسائل ابن عباد أن أسرة السراج لم تكن قد آندمجت تمامًا في المجتمع الأندلسي، ولم يكن يعتبر كفاسي صميم.

ويبقى بعد هذا كله افتراض أخير، ولعلّه الأقرب، وهو أن يكون يحيى بن أحمد السراج صاحب ابن فركون الذي كان يعيش مع والده في رندة عام 808 هـ حفيدًا ليحيى بن السراج، ذلك الشيخ المسن الذي لقيه ابن الخطيب وابن بطوطة في جبل طارق عام 751 هـ، وقد جرت العادة أن يُسَمّى الحفيد باسم الجد، ولو أن ابن فركون رفع نسب صاحبه إلى جدّه لَحُلّ الاشكال، وممّا يجعل هذا الافتراض الأخير مقبولاً عامل

(240) الاحاطة 3 : 252.

(241) فهرسة السراج وجذوة الاقتباس وغيرهما.

السن، فابن فركون يتحدث عن هذا السراج وكأنه من أترابه، وقد عرفنا أن أبا الحسين من مواليد 781هـ في حين أن السراج الفاسي ولد بعيد 740 هـ.

ومهما يكن الأمر فقد وجدنا ابن فركون يذكر اسم يحيى مع أخ أو صديق له كان لهما دور في أحداث جبل طارق، وذلك إذ يقول :

وَيَحْيَى الذي قَدْ فَرّقَ اللهُ جمْعَهُ ... فَفـرّ إلى أقْصَى البـلادِ وفرّطـا
وكانَ لمولاهُ حقـوقٌ عَظيمـةٌ ... عليْهِ، وجلّتْ أن تُضاعَ وتُغْمَطا
ولكنَّ مَن تُرضيهِ أفعالُ غَـدْرِه ... إذا رامَ أن يَرى رِضَى اللّهِ أسْخطا
فلا أملٌ منْ قَبْلُ إلاّ مُخَـيَّبٌ ... ولاَ عَمَلٌ من بَعْدُ إلاّ وأُحْبِطـا
فَقَدْ غادَرَتْهُ حالُـهُ واهِيَ القُـوَى ... وفي وَحَلٍ مـن غَـدْرِهِ مُتورِّطـا
وأظْهَرَ تَقْوى اللهِ حينًا وقدْ غَدا ... لَئيمًـا ذميمًـا فائلَ الـرأي أمْعَطـا
وخـادعَ بالرُّجْعَـى إليـهِ فَعِنْدَمـا ... تـرَوّعَ في نـارِ الجحيمِ تَوَرّطـا
ونـادى على بُعْدٍ أخـاهُ فجـاءَهُ ... وحَلّ حِماهُ بَعْدَ ما كانَ أخْلَطا
لقَدْ خَبَطا عَشْواءَ إذ خطبا التي ... بِها كلُّ شرٍّ في الوجـودِ تَأبّطـا
يَرومـانِ بالغَـدْرِ آهتـداءً وإنّـهُ ... لَيقضي دُجاهُ أنْ يتيها ويَخْبِطَـا
وأذْكَيَا سِقْطَ الزَّنْدِ في الفتْنةِ الّتي ... قَضَتْ بَعْدُ فيها أن يَزِلاّ ويسْقُطا
وخَطّتْ بهُجْرِ القولِ شُلّتْ يداهُما ... وما عَرَفا خطًّا ولاَ تَركَا خَطَـا
فقال لسانُ الخَطْبِ إذْ جارَ فيهما ... ألاَ فاخطُبا إن شئْتُما اليَوْمَ واخْطُطَا[242]

وأحسب أن الابيات الاخيرة تشير الى يحيى السرّاج الذي ربمّا كان خطيباً أو طامعاً في خطة الخطابة بجبل طارق، شأن جده فيما نَفْترِضُ، كما أنها فيما نفهم تشير أيضا إلى أبي القاسم بن حاتم قاضي الجبل، وشريك السراج، في الانضمام الى بني مرين، وقد يتضح هذا حينما نُقارن قول ابن فركون فيهما هنا :

وَأَذْكَيَا سِقْطَ الزَّنْدِ في الفِتْنَةِ ٱلّتِي ... قَضَتْ بعدُ فيها أنْ يَزِلاّ ويَسّقُطَا

(242) الديوان : 74 ــ 75.

بقوله في أحدهما أيضاً فيما سبق : «ظَهَرَ فيها مِنْ سوء رأْيِه، مَا قَضَى لِمَبْنَى عِزِّهِ بِسُقُوطِهِ وَوهْيِهِ» وقوله في الآخر : «زلّتْ بِهِ قَدَمُه»؛ وقارن أيضا قوله في يحيى المذكور في القصيدة :

فَلا أَمَلٌ مِنْ قَبلُ إلاَّ مُخَيّبٌ ولا عَمَلٌ مِنْ بَعدُ إلاَّ وأُحْبطا

بقوله فيه فيما سبق : «أعاذَنَا اللهُ مِنْ سوء ٱلعاقِبة».

كثير هو الشعر الذي يؤرخ حصار يوسف الثالث جبل طارق، وتجهيزه من يشغّب على أبي سعيد عثمان المريني، سواء في ديوان يوسف، أو في ديوان شاعره ابن فركون هذا، ومن حسن الحظ أن هذا الشعر مؤرَّخٌ، ومسبوق بمقدمات تشرح مناسباتِه، وسنستعرضه حسب تاريخ صدوره، جاء في ص 50 ما يلي : «وَمِمَّا صَدَرَ عَنِّي في هَنائِه أَيَّدَهُ ٱللهُ بحُلولِ رِكابِه الْعَلي، بظاهِرِ مالَقَة، بإثْرِ مُخالَفَةِ ٱلْمارقين، من أهْلِ جبل ٱلْفَتْح، وهِيِ السَّفْرَةُ الأُولَى الّتي أجازَ فيها السُّلْطانَ ٱلسَّعيدِ إلَى الغَرْب، ودَخَل مالقَة في يوْمِ الاثْنَينِ الثّالثِ لِشعْبان عامَ ثلاثَةَ عَشَرَ وثَمَاني مائة».

والسعيد المذكور هو محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، بويع بالملك بعد موت أبيه، وهو ابن خمس سنين، ودبر أمور الدولة الوزير أبو بكر بن غازي، ثم خُلع أول 776هـ وغرّب إلى الأندلس. وها هو يعود بعد 38 سنة و 7 أشهر للمطالبة بالملك ومنازعة أبي سعيد عثمان عليه[243]، وقد دفعه الى ذلك يوسف الثالث انتقاماً من السلطان عثمان، لسعيه في استرجاع جبل طارق، وقبوله بيعة أهله.

وقد كان جواز السعيد في أجفان أندلسية أمدّه بها يوسف الثالث، ويبدو أنَّ جوازه كان من مالقة.

ويذكر ابن فركون أن الأخبار وَرَدَتْ «بحُلُولِ أَجْفانِهِ الْمُؤَيّدَة بساحِلِ ٱلْمَغْرب، و نُزول السُّلطان ٱلسعيد ببَرّ العُدْوَة، بالفُرْسانِ والرُّماة، في آخرِ رَمضان عامَ ثلاثَةَ عَشَر»، ويقول مشيراً الى هذا السعيد ٱلمُتَوَجّه لأخذ المدينة البيضاء (فاس المرينية) :

وَكَمْ مِنْ يدٍ بَيْضاءَ طَوَّقْتَها فَتًى إلى مَنْزِلِ «البَيْضَاءِ» قد أعْمَلَ ٱلرُّجْعَا
رَمَى «دَارَهُ ٱلْبَيْضَاءَ» أخذاً بِثَأرِهِ بِمَا قَدْ رَمَى سَيْفُ بْنِ ذي يَزَنٍ صَنْعَا
دَرَأْتَ بِهِ في صَدْرِ كُلِّ مُعَانِدٍ سِهَامُ ٱلْمَنَايا نَحْوه أُحْكِمَتْ وَقْعَا

(243) انظر في السعيد هذا جدوة الاقتباس : 209 والضوء اللامع 8 : 62.

ويقول في الأجفان التي حملته وأتباعَه :

وللهِ مِنْهَا مُنْشآتٌ قد ارتَمَتْ عَلَى اللُّجِّ رَفْعاً حينَ أُحْكَمْتَها وضْعَا
سَرَتْ وظلالُ آلأمْنِ واليُمْنِ فوقَها فَأَحْسِنْ بِهِ مَسْرًى وأَنْجِحْ بِهِ مَسْعا[244]

ويذكر أن توجيه هذا «السعيد» وإعانَته كان استجابة لبني مرين :

وَآلُ مَرِينٍ إذْ دَعَوْا مِنْكَ ناصِراً ولَمْ تُهْمِلِ الدَّعْوَى، ولم تُغْفِلِ المَدْعَى

وبهذه المناسبة — على ما يبدو — نظم يوسف قصيدة في مخاطبة أوليائِهِ من بني مرين، وعرب بني حسين، والأحلاف.

وقد نعت في هذه القصيدة أبا سعيد عثمان بالشؤم والتعاون مع النصارى والتفريط في الثغور، ثم دعا أولياءه المذكورين إلى تأييد مرشحه السعيد، وخصَّ بالذكر منهم محمد بن يعيش، ولد وزيره في دولته الأولى، قال :

قُومُوا إلَى نَصْرِ «السّعيدِ» حِمايَةً فالدّينُ إنْ لَمْ تَجْمَعوهُ يُبَدَّدُ
وتَمَكّنوا في فاس مِنْ «عُثْمانِهـا» واسْتَبْصِرُوا بسَنَى الْحَقيقَةِ واهْتَدوا

وهو يزعم أن القصد هو العودة الى العهد القديم، وإحياء الاتحاد بين الدولتين من أجل جهاد العدو :

إنّ النَّصارَى قَدْ تَجمّعَ شَمْلُها فَعَسَى ببأسِ سيُوفِكُمْ تَتَبَدّدُ
وتَروعُهُمْ مِنْكُمْ سُيوفُ حِمايَةٍ يَجْلو دُجَاها يُوسفٌ ومحمَّدُ
أَخَوانِ قَدْ قامَا بِنُصْرَةِ دينِهِ فالدَّهْرُ يَبْلَى والثَّنَاءُ مُخَلَّدُ[245]

وهو يعني بيوسف نفسه، أمّا محمد فهو اسم «السعيد» المريني.

ومهما يكن الأمر فقد تمكن السعيد من دخول تازة في 19 ذي القعدة عام 813 هـ وانتظمت جهاتها في طاعته[246].

---

(244) الديوان : 52.

(245) ديوان يوسف الثالث : 51.

(246) الديوان : 53.

ووصل البشير بذلك الى يوسف الثالث وهو محاصر جَبَل طارق فنظم ابن فركون قصيدةً جاء فيها

ولَقَـدْ جـاءَتِ البَشائِـرُ حَتَّـى أعْـذبَتْ مَـوْرِدَ السُّرورِ وأحْـلَتْ
بِعُـلاَك السَّعيـدُ مُـلْك أرضاً لَكَ ألْقَتْ ما عِنْدَها وتَخـلَّتْ[247]

وكان مع السعيد في هذه الحركة المشؤومة ولدان له، وقد أشار إليهما ابن فركون في قوله من قصيدة (الديوان : 88) :

نَضَيْتَ عَلَى الأعْداءِ مِنْهُ مُشَهّـراً وأرْسَلْتَ مِنْ نَجْلَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوِّقا

وهذان الولدان هما عامر والمسعود، فأما عامر فيذكر الشاعر أنه تمكن في ذي القعدة عام 813 هـ بواسطة الاجفان الأندلسية من فتح طنجة ودخول قصبتها وفي ذلك يقول :

هـذه فـاسٌ الجديـدُ تشكّتْ فأَنـلْتَ السَّعيـدَ مِنْها آختيـارَهْ
وابْنُهُ «عامرٌ» مِنَ «الرِّيفِ» يُمْسي عامِـراً رِبْعَـهُ المُنيـفَ ودارَه[248]

وأمّا المسعود فقد ذكره في قصيدة مؤرخة بربيع الأول عام أربعة عشر وثماني مائة، وذلك إذ يقول (الديوان : 62) :

وقَبْلَـهُ وافَتِ الأجْفـانُ مُهْدِيـةً بُشْرَى بِهَا فَوْقَ لُجّ البَحْرِ قَدْ سَبَحَتْ
بُشْرَى أَتَتْكَ مِن «الْمَسعود» قائلةً: هذي الصِّفاحُ دَمَ الأعْدَاءِ قَدْ سَفَحَتْ
فَمِنْ مَطالِعِ أنْـوارٍ بِهـا اتضَحَتْ ومِنْ ميادينِ آمـالٍ بها آنْـفَسَحَتْ
وقبلُ، والدُهُ الأرْضى وهَبْتَ لَـهُ مالا تَجودُ بِهِ نَفْسٌ ولاَ سَمَحَتْ
لا كِنَّ ضيّعَ بَعْض الْحَزْمِ حينَ رأى مَيْلاً إلى فئةٍ غَشّتْ وَما نَصَحَتْ
فَقُمْتَ بالأمْرِ ثَبْت الْعَزْمِ ثانيـةً حَتَّى كَأَنَّ جُيُوشَ النَّصْرِ ما بَرِحَتْ
وَفَّيْتَهُ حَقّهُ مِـنْ كُـلِّ مَكرُمَـةٍ وَإنْ نَأَتْ بِك عَنْهُ الدارُ أوْ نَزَحَتْ

وقد كان يوسف الثالث يطمع في أن يتغلب السّعيد على فاس وعَلى أبي سعيد عثمان، ويبعثه مقيداً إلى غرناطة :

(247) نفسه : 54.

(248) نفسه : 54.

عَــــنْ قَـــريبِ يَزورُنـــــا   في قُيـــــودِ الأداهِـــــم[249]

بيد أن أمله خاب، فقد جرت الهزيمة على السعيد بظاهر فاس، واختلف أتباعه، وفي ذلك يقول ابن فركون :

وَكَيفَ تُدْفَعُ عَن فاسٍ أُسودُ وَغىً   ومــا مَرابِضُهـــا إلاّ مَرابِعُهـــا
إنْ أجْفَلَتْ فِئَةُ التَّوْحِيدِ هَا هِيَ قَدْ   عادَتْ تُنـازِلُ فيهَـا مَـنْ يُنَازِعُهـا
وَقَائِعٌ مَـحّصَ اللهُ ٱلْعِبَـادَ بِهـا   حَتَّـى تَبَيَّـنَ عَـاصِيها وطائِعُهـا
إنْ كانَ ضُيِّعَ حَزْمٌ عِنْدَما ٱفْتَرقَتْ   فَـإنّ جـودَكَ حَامِيهَـا وَجامِعُهـا[250]

وأشار الى تضييع الحزم مرة ثانية في قصيدة أخرى[251].

ولمّا أعاد السّعيد الكرة تلو الكرة دون جدوى، وشكا يوسف من «مخالَفاتِ السّعيد لِما أَرْدْنَاهُ مِن الابقاءِ عَلَى رَمَقِه، وتَرْكِ الرّعايا لِما يَنْتَعِشونَ بِهِ منَ الأَمْنِ وتَمْهيدِ طُرُقِه، ونَظَرْنَا إلى ٱلأَمْرِ الَّذي أَجْهَدَنا تَشَعُّبُ خَرْقِهِ»[252]. استجاب لطلب «الصُّلْح الّذي رغِبَ السُّلْطان أبو سَعيد في عَقْده بَيْنَهُ وبَيْنَ ٱلسّلْطان ٱلسّعيد عَلى قِسْمَةِ ٱلْبِلاَدِ ٱلْغَرْبيَة بَيْنَهُمَا»[253] وفي هذا يقول شاعره بمناسبة عيد الأضحى من عام 815 هـ :

ولَمَّا توالَتْ فِتْنَةُ الْغَرْبِ واعْتَـدَتْ   عَلَى أَهْلِهِ في كُلِّ حَيٍّ طُغاتُهـا
وما ٱتّفَقَتْ إلاّ عَلَى صُحْبَةِ الرَّدى   كَمـا اخْتَلَـفَتْ آراؤهـا ولُغاتُهـا
دَعَتْكَ لِعَقْدِ السّلْمِ بَيْنَ مُلُوكِهـا   أكَـارِمُ حـيّ في يَـدَيْكَ حَياتُهـا
فـأَصْدَرْتَ للأمْـلاكِ مِنْكَ أوامِـراً   إذَا نُطِقَتْ في الحَفْلِ طالَ صُماتُها[254]

وبعد هذا التقسيم الذي ذكره الشاعر، كانت نهاية السعيد في أول محرم 816 هـ، إذ «تَقَطّر به فَرَسُه بِخَنْدَقٍ، وهُو سَكرانُ، فأُدْرِكَ بِهِ، وحُزّ رَأْسُهُ.. وجيءَ بِهِ إلى أبي

(249) ديوان يوسف الثالث : 117.
(250) الديوان : 97.
(251) نفسه : 62.
(252) ديوان يوسف الثالث : 52.
(253) الديوان : 99.
(254) نفسه : 101.

سَعيد» كما يقول السخاوي في الضوء اللامع[255]، ووقع إثر ذلك صلح بين أبي سعيد عثمان ويوسف الثالث، وعاد «الْوداد، بَعْد النُّوب الشِّداد» حسب عبارة هذا الاخير[256]، وفي ديوانِهِ قصيدة نظمها بهذه المناسبة في 27 صفر عام 816 مطلعها :

هِيَ بُشْرَى دَعَتْ جَميعَ الْعِبـادِ   للتّمـادي عَلَـى صَرِيـحِ الْـوِدادِ

وقد ختمها مضمّناً قول المتنبي :

«حَسَمَ الصُّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعادي»[257]

وهو يعود في هذه القصيدة إلى مدح بني مرين، بعد أن كان قد هجاهم[258]، ويثنى على أبي سعيد، ويذكر فضل جدّه أبي سالم على النصريين، فيقول :

هَكَـذا الفَخْـرُ يـا أَعَـزَّ قَبيـلٍ   مُحْـرِزٍ للسّبـاقِ خَصْلَ الْجيَـادِ
جَـدُّ سُلْطانِكُـمْ أفـادَ العَـوالي   فَظَفِرْتُـمْ بِذُخْـرِهِ المُسْتَفَـادِ
وَعَلَيْنـا لِسِبْطِـهِ حِفْـظُ عَهْـدٍ   مُسْتَقِـلٌّ مُصَحَّـحِ الإِسْنـادِ
إِذْ نُحَيِّـي أبـا سَعيـدٍ بأزْكَـى   مـا تُحَيَّـا بِـهِ صُدُورُ النّـوادي
فاتَحَتْنـا يَمِينُـهُ بِكتـابٍ   فأرانـا كَتيبَـةَ اسْتِعْـدَادِ[259]

ويتفاءل بأن هذا الصّلح سيمكن من الالتفات إلى العدو المشترك الذي أفاد كثيراً من الهدنة التي عقدها مع الطرفين :

حجَّـةُ السّلْـمِ أكسَبَتْـهُ عُتـوّاً   وَبَلاَيَـا مُحيطَـةً بالبِـلادِ

ولا نعلمُ مبلغ هذا الصّلح من الصدق، ولا مآله، غير أننا نجد الشاعر أبا الحسين يُنْشِد سُلطانه قصيدة في مناسبة عيد الاضحى 816هـ، «بالمَشْوَرِ السَّعيد، مِنْ حَمْرائِهِ

---

(255) 265 الضوء اللامع 8 : 62 أما الحسن الوزّان فيذكر أنّه هلك بالطاعون. وصف افريقيا 1 : 210.

(256) ديوان يوسف الثالث : 40.

(257) نفسه : 50.

(258) انظر قصيدته التي يقول فيها (109) :
فَلَيْسَ حمَامَـةٌ مِثْـلَ آبْـنِ نَصْرٍ   وَلا آباؤُهُـمْ شُمٌّ وِسامُ

(259) ديوان يوسف الثالث : 40.

العَلِيّة، وقَدْ وَرَدَ عَلَى بابِه ٱلكَرِيم جُمْلَةٌ وافرةٌ مِنْ أكابر بَنِي جَنابِه، مُتَمَسّكين بأَوْثق أسْبابِه، فأولاهم أيده الله مواهب أنعمه وآواهم، ووفّر نزلهم عندَ وِفادتهم وكرّم مثواهم، فاطْمأنَّت بِهِمُ ٱلدَّار، وقرَّ بحَضْرَتِهِ ٱلْقَرار». ويقول في القصيدة :

وَجاءَتْ مَرينٌ مِنْ أقاصي بِلاَدِهَا ... فَكَانَ لَدى مَوْلَى ٱلْمُلُوكِ حُلُولُهَا
تَحُلُّ مَطَايَاهَا بِهَا مِنْ جَنابِهِ ... مَنَازِلَ عِزٍّ ليسَ يشقَى نَزيلُهَا[261]

وقد أشار الشاعر إلى هذه الوفادة، أو وفادة أخرى قبلَها، في عيدية الفطر من العام نفسه، وذلك إذ يقول :

وقفتْ بِبَابِكَ مِنْ مَرِينٍ أسْرَةٌ ... طَوْعَ ٱلْوَفاءِ فَمَا تُضاعُ عُهُودُهَا
وافَتْكَ لاَ تَثْنِي أعِنّةَ سَيْرِهَا ... وَرَجاؤُهَا إذْ يَمَّمَتْكَ يَقُودُهَا
فأنَلْتَ ما شاءَتْ مِنَ النِّعَمِ الّتي ... يُرْجَى، وإنْ عَظُمَتْ لَدَيْكَ، مَزيدُهَا[262]

ومهما يكن الأمر فإن أسباب الخلاف بين الملك النصري والملك المريني تكون قد انتهت، أو خفّت، بعد مقتل السعيد، وعودة جبل طارق إلى مملكة غرناطة، ومع ذلك فقد رأينا سلطان غرناطة يستقبل وفود المرينيين اللاجئين إليه، كما أنه ظل يتدخل في شؤون العدوة، وهذا ما يدلّ عليه قول ابن فركون : «وقَدْ وَصَلَ العبّاسُ بن غمراسَن، وَوَلَدُ اللُّبابي مِنْ قِبَلِ السُّلْطانِ أبي سَعيد، مُسْتَنْصِراً بِهِ عَلى أخيه أبي عَلي المُتوفى أثناءَ إقامتِهما بالحضرة قتيلاً، بَعْدَ هَزيمة انجرّتْ عَلَيْهِ بظاهِرِ فاس، وقُبضَ عَلَيْه بَعْد ذلِك، وسيقَ لِمَصْرعه بَيْنَ يديْ أخيه، وكان رسوله قد ٱنْصَرَفَ صُحبة قاضي الجماعة، وجازَ ٱلْبَحْر قَبْلَ ذلِكَ بيسير»[263].

لا نعرف من هؤلاء الاشخاص المذكورين في هذا الخبر إلا اللّبابي، وهو فيما يبدو، عبد العزيز ابن أبي لُبابة حاجب السلطان أبي سعيد، وقد كان خراب المغرب، وتلف دولة بني مرين على يد هذا الحاجب الذي «غَدَر مَوْلاهُ ومَخْدومَه، وَهَتَكَ سِتْرَهُ، وَخَرّبَ

(260) الديوان : 106.
(261) الديوان : 108.
(262) نفسه : 105.
(263) نفسه : 249.

دارَه، وعَبَثَ بحَريمِه، وقَتَلَ أَوْلاده وإِخْوانَه»[264]، وذكر الوزان أنه فعل ذلك انتقاماً لشرفه[265]، واللّبابي المذكور من بيت بني لبابة من بيوتات فاس، وما يزال درب اللبابي معروفا في فاس بأسفل حومة المنية قريباً من زقاق الماء. (البيوتات 46).

وممّا يدلّ على استمراره في التدخّل في أمور المغرب، قول ابن فركون : «لَمَّا وُلِدَ ٱلْوَلَدُ أحْمَدُ، حفِظَهُ ٱللهُ، ٱلّذي لَمْ يَبْقَ بقَيْدِ الْحياة بهذا الْعَهْدِ مِن إخوانِهِ غَيْرُه، ولعلّه يبقَى بفضْل ٱللهِ، ومَوْلِدُه ليلَةَ ٱلسَّبْت السَّابعِ برجَب عام عِشْرينَ وثماني مائة، كَتَبْتُ لمَوْلانا أبي الْحَجَّاجِ، رَحِمَهُ الله، ساعَتَئِذٍ...

وأعْمَلَ رِكَابَه ثانِيَ يَوْمٍ مِنْ وِلادتِهِ إلَى قَصْرِ نُبْلُه، وأنا صُحْبَتَهُ عَلَى الْعَادةِ، ثُمّ تَشَاغَلَ يومَ عَقيقتِهِ عَنْ تَسْمِيتِه، بأمْرِ تَوْجيهِ ٱلْوزير أبي عَبْد الله ٱلْقَبَائِلِي إلَى ٱلْمَغْرِب»[266].

ولا بدّ أن هذا القبائلي، هو قريب أبي العباس القبائلي، حاجب أبي سعيد الذي أُعْدِمَ سنة اثنين أو ثلاث وثمانمائة. ويحدثنا ابن فركون عن آخر محاولات يوسف الثالث لإسقاط خصمه أبي سعيد فيقول : «وكانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَدِ ٱشتدّ بِهِ ٱلْمَرَضُ ٱلذي قَضَى عليه، وهُوَ قدْ شَرَعَ في حَرَكَةِ تَوْجيه السُّلْطان أبي يوسُف يَعْقوب، أَيَّدَهُ ٱللهُ ! وَتَوَجّه عَلَى مابِهِ مِنَ الألَم إلَى ٱلْمُنَكَّب ليباشِرَ بنَفْسِهِ إجازَتَهُ مِنْهَا فأَنْفَذَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلّ حُكْمَه في وَفاتِه، بَعْد جَواز ٱلسُّلْطانِ بأَرْبَعة أيّام فَجْأَةً وَأَصْبَحَ مَيّتاً يومَ ٱلأربعاء التاسعِ والْعِشرينَ لِرَمضان، عام تسعَةَ عَشر وثمانِي مائة، بَعْد أنْ كانَ أَمَرَ بالتأهُّب لإقامَةِ ما جَرَتْ بِهِ ٱلْعادةُ مِنْ رسْم العيد بالطّعامِ وَغَيْرِهِ»[267].

ثم يقول في قصيدته عن هذا الصّنيعة الدّعي ما يلي :

بُشرَى بوَعْدٍ لنَصْر الدّين مَرْقوبِ ... أتَى بِهِ مُلْكُ يَعْقوبَ بْنِ يَعْقوبِ
وَلّيْتَهُ العِزّ فارتاعَتْ لمَقْدِمِهِ ... فَمُلْكُه بينَ مَوْهوبٍ ومَرْهوبِ
أنلْتَهُ مِنْ نَدَى كفَّيْكَ صَيّبَةً ... تجودُه بين تَشْريقٍ وتغريب
كَثَّرْتَ سائِلَهُ إذ جدت ماحِلَهُ ... فَرَوْضُهُ بينَ مطلولٍ ومَطْلُوب

(264) نفسه : 251.

(265) وصف افريقيا : 318 ترجمة د. حجي و د. الأخضر.

(266) الديوان : 262.

(267) نفسه : 253.

إلى أن يقول :

وَلا كَيَعْقوبَ إذْ صالَتْ خلافَتُهُ ... بما آستحقتْهُ مِنْ فَرْضٍ وتَعْصيبِ
أنْهَجْتَهُ سُبْلَ آباءٍ لَهُ دَرَجوا ... حَتّى استقلّ بأمْرٍ غَيْرِ مَغْصوبِ
أرْكبتَهُ البَحْرَ قصداً ان تُبَلِّغَهُ ... مِنْ صَهْوَةِ المُلْكِ أسْنى كُلِّ مَرْكوبِ[268]

إن المصادر المغربية لم تشر مطلقاً إلى يعقوب هذا وانما وجدنا ذكره عند السخاوي الذي يقول : «وأرسل ابن الأحمر يعقوب المريني الى فاس فلم يتم له الأمر»[269] وقال في ترجمته :

«يعقوب بن عبد الله الجاناتي (أو الياباني). كان من ابناءِ البربر، وتعلّق بالأشغال.

فَلَمَّا رأى الفساد الحادث بفاس بسبب الفتنة بين السعيد وبين أبي سعيد، في سنة 817 هـ، صار يامر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكف أيدي المُفْسِدينَ، فتبعتْهُ جماعةٌ، وقويت شوْكَتُه، بحيث حاولَ ملوكُ فاس القَبْضَ عليه فأعياهُم أمره إلى أن قَتَلَهُ أبو سعيد»[270].

ويبدو من تسمية الشاعر لهذا الصنيعة النصري بيعقوب بن يعقوب، ومن سياق الضوء اللامع كذلك أنهما شخصان : يعقوب الوالد، الذي يمكن أن يكون هو المشار إليه في قول يوسف الثالث (ديوان : 126) :

لو كانَ يعقوبٌ يخافُ حِمامَهُ ... لَنَجا بِهِ مِنْهُ جوادٌ مُلْجَمُ
ولكانَ مِنْ شَرَكِ آلْحُتوفِ بحَيْثُ لا ... يَرْجو اللّحاقَ بِهِ العُقاب آلقَشْعَمُ
لكنَّهُ لما تقارَبَ يومُهُ ... لَمْ يَدْفَعِ الْحَدَثانَ عَنْهُ مُنَجِّمُ

والاخر هو يعقوب ولده، وهو هذا الذي وجهه يوسف الثالث، بعد مهلك والده، وقد ذكر السخاوي أسماء مرينيين آخرين أرسلهم من خلَف يوسف الثالث لطلب ملك فاس، وإثارة الفتنة في المغرب[271].

---

(268) نفسه : 253 — 254.
(269) الضوء اللامع 10 : 283.
(270) نفسه.
(271) نفسه.

بعد هذا نتساءل عن سبب خنق يوسف الثالث على أبي سعيد، هل كان لأن والد هذا الأخير سم والد الأول في حُلّة مسمومة أهداها إليه كما تزعم الروايات[272] ؟ أم أنه كانَ ردّ فعل على محاولة أبي سعيد استرجاع جبل طارق ؟ أم أنه كان من فعل الجيران المسيحيين الذين كانوا يطبّقون سياسة «فرّق تَسُدْ» ونجحوا بأساليب محكمة في التضريب بين النصريين والمرينيين ؟ أم أنه طموح الملكين الفارغ لِيَتَغَلَّب أحدهما على الآخر ؟ أم أنه طمع المتهافتين المرينيين على طلب الملك ؟ أم أنه كل ما ذكرنا ؟ ثم من الذي استفاد من هذا الصراع المدمّر ؟ وما هي نتائجه ؟

أما المستفيد فهم القشتاليون ـــ والبرتغاليون ـــ الذين استغلوا ظروف هذا الصراع.

وأما النتائج فمنها ما هو عام ومنها ما هو خاص، فمن النتائج العامة ضعف الدولتين معاً، فقد انقرضت الدولة المرينية في أعقاب هذه الاضطرابات الدّموية، وانحدرت الدولة النصرية نحو السقوط، وعاشت بين الحياة والموت بقية أيامها.

وتظهر النّتائج الخاصّة بغرناطة في استيلاء القشتاليين على أنتقيرة في قلب المملكة النصرية، وفي سقوط عدد من حصون الحدود.

وأمّا النتائج الخاصة بالمغرب فأخطرها استيلاء البرتغاليين على سبتة، وعلى غيرها فيما بعد.

ولقد وصلت إلينا روايات مختلفة في كيفية هذا الاستيلاء، فالقادري في نشر المثاني يروي قصة قال عنها صاحب الاستقصا إنها تشبه قصة قصير مع الزباء، وتلك هي قصة الصناديق المملوءة بأربعة آلاف رجل التي أنزلت بمرسى سبتة والناس منشغلون بصلاة الجمعة، ونجد صدى هذه الرواية في أبيات يقال إن أهل سبتة خاطبوا بها السلطان عبد الحق المريني (اختصار الاخبار : 77 والاستقصا 4 : 92).

وفي إنباء الغُمر لابن حجر رواية مفصلة نسوقها فيما يلي، قال : «وفيها (أي في سنة 816 هـ) أخذ الفرنج سبتة، وكان السبب في ذلك أنّ أحمد بن أبي سالم المريني نزل عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة، فانتقل ما كان فيها من العُدَد والأسلحة والذخائر إلى غرناطة، ثم اتفقت الفتنة المتقدّم ذكرها في سنة أربع عشرة بين السعيد وقريبه أبي سعيد إلى أن قتل السعيد، وأعقب ذلك الغلاء والوباء بمدينة فاس والغرب كلّه، فولّى

(272) الاستقصا 4 : 82.

السعيد على سبتة رجلاً سامهم سوء العذاب، ثم أرسل أبو سعيد إليها رجلاً من أقاربه يقال له صالح بن صالح فتناهى في الظلم وفشا فيهم الموت، وبلغ ذلك الفرنج فعمّروا عليهم عدّة مراكب فجمع صالح أهل الجبال وأنزلهم على البلد، فرجع الفرنج إلى جزيرة بين سبتة وجبل الفتح تسمّى طرف القنديل فأقام بها، فطال الأمر على أهل الجبال وظنّوا أن الفرنج رجعوا إلى بلادهم وقلت على أهل الجبال الأزْواد فتفرقوا، فبلغ ذلك الفرنج فنازلوا أهل سبتة فقاتلوه فغلبهم بالكثرة وملك منهم المينا فخرج المسلمون بأهلهم وأموالهم وما قدروا عليه، فدخل الفرنج البلد في سابع شعبان من هذه السنة ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية، ونقلوا ما وجدوا بها من الرخام والآلات والأمتعة حتى الأنوال، وتركوها قاعاً خراباً ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله».

كما يقدّم لنا الديوان مادة تاريخية حول احتلال سبتة، يقول ابن فركون في مقدّمة قصيدته :

«ولَمّا ظَهَرت ٱلعِمارةُ الْبُرْطُقالية ببَحْرِ الزُّقَاق، وأقامَتْ أيّاماً بِمَرْسَى ٱلْجَزيرَةِ الْخَضْراء، ثُمّ كانَ بَعْدَ ذلِكَ استيلاؤها عَلَى سَبْتَة أعادَها ٱللهُ عاقَهُ ـــ يَعْنِي السّلطان ـــ رَحِمَهُ ٱللهُ عَنِ ٱلْخُروجِ بِنَفْسِهِ، لِقَصْدِ مُدافَعَتِها، مَرَضٌ شَديد، فُتِحَتْ مِنْ جِسْمِهِ مواضِعُ بالْحَديد، بَعْدَ أيّامٍ كثيرَة، فَقُلْتُ في وسَطِ جُمادَى الثّانية، من عامِ ثمانيةَ عَشَرَ وثَماني مائة؛ وظُهُورُ الأجْفان ـــ وعَدَدُها مائتانِ ثِنْتانِ وأَرْبَعةٌ ـــ في السّادس والْعِشْرين لجمادَى الأولى مِنه»[273]

وجاء في القصيدة :

هَـذا وإنّ وَلـيّ آلكُفْـرِ أرْسَلَهـــا ... سُفْناً لنارِ الْوَغَى في مائِها وَهَـجُ
هَذَا الْعَدُوُّ آلـذي وافَتْ مواكِبُـهُ ... لِلْحَرْب يرفَعُها مِـنْ بَحْرِهـا ثَبَـجُ
أقامَ في صَدْرِ مَرْسىً لاَ حَراكَ لَهُ ... كَأَنَّهُ آلصدْرُ مِنْـهُ ضيّـقٌ حَـرِجُ
أتَـى بِقَـوْمٍ قَـد استَهْواهُـمُ أمَـلٌ ... يعتادُهُمْ هَوَسٌ، يقتادُهـم هَـوَجُ[274]

وهو يزعم أن البرتغاليين قصدوا أولا احتلال جبل طارق والسواحل الأندلسية، ولما

(273) الديوان : 209.

(274) نفسه : 210.

رُدّوا على اعقابهم، توجّهوا إلى سبتة التي لم يكن لها مُدافع، قال في مقطع من قصيدة طويلة عنونَهُ بقوله :

«ذكر رجوع الْعِمَارة البرطقالية عن جبل الفتح والبلاد الأندلسية ودخولها سبتة أعادها الله» :

وَمَنَعْتَ أندلُساً وقَدْ رامَ الْعِدَى   أنْ يوسِعُوا جَمْعَ الْهُدَى تَبْديدا
خاضُوا آلْبحَارَ لَها وعَزْمُكَ دُونَها   فثناهُمُ وَحَمَى الفَلاَ والْبِيدا
قَصُرَتْ خُطاهُمْ عَنْ منالِ قُصورِها   والنّصْرُ قَدْ مَدّ الطّوالَ الْمِيدا
أقْفَرْتَ مِنْ أهْلِ الضّلالةِ أرْضَهَا   ومَلأْتَ آفاقَ السّماءِ بُنودا
وجلَوْتَ مِنْ آياتِ عَزْمِكَ أنْجماً   فارْتَدَّ شَيْطانُ الضّلالِ مَريدا
وثَنَى عِنانَ القَصْدِ عَنْهَا بَعْدَمَا   وافَى طريقاً، حادَ عَنْهُ طريدا
واحتَلّ بالوطَنِ الذي لم يَتَّخِذْ   عُلْياكَ رُكْناً في الْخُطوبِ شَديدا
سُحْقاً لمَنْ لَمْ يَنْتَصِرْ بمُؤَيَّدٍ   لَمْ يَلْوِ طَوْعَ وَفَائِهِ مَوْعودا»[275]

وقد ردّدَ الشاعر في عددٍ من قصائده، أن سلطانه سيهب إلى غزو سبتة، وطرد البرتغاليين منها، استجابةً لنداء أهلها واستدعاء قبائلها[276]، ولكنه — فيما يبدو — مجرد كلام قاله تملقاً للسلطان، وإرضاء للعامّة أي أنه كان كلاما للاستهلاك المحلّي كما يقال اليوم، وقد أكثر الشاعر من نعت أبي سعيد خصْم مَلِكه بولي الضلال والبغي، وظهير الكافرين كقوله :

وَوَلِيُّ الضَّلال والبَغْيِ لَمّا   أنْ غَدا وهْوَ مُظْهِرٌ طُغْيانَهْ
ظاهَرَ الْكافِرينَ واعْتَزَّ حَتَّى   أظهرَ الحَقُّ والهُدَى بُرْهانَهْ
لكأنّي بِهِ وقَدْ خابَ سَعْياً   وَجَلَتْ دعوة الرّدَى بُهْتانَهْ[277]

ويقول فيه من قصيدة أخرى :

---

(275) نفسه : 240. وطريقا في البيت قبله هكذا وردت في الأصل، ولعلّها : طَريفاً أي جزيرة طريف.

(276) انظر الصفحات : 218، 224، 240، 246.

(277) نفسه : 64.

وَمَنْ أَسْلَمَ الإيمانَ للشِّرْكِ عامِـداً أَيُفْلِتُ مِـنْ قَيْـدِ الْهَـوانِ ويُفْلِـحُ
وحلَّ عُرَى الاسْلامِ فِي عَقْدِ سَلْمِهِ غداةَ انْثَنَى طوْعاً لَهَا وَهْوَ يَجْنَحُ(278)

ويقول أيضا في قصيدة اخرى :

وهذا وَلِـيُّ الكُفْـرِ أخفَـقَ سَعْيُـهُ وخـابَ وأعْـلامُ الْجِهـادِ خوافِـقُ
وأحْكَمَ عَقْدَ السِّلْم يُرضي بهَا الْعِدى فحُـلّتْ عُهـودٌ عِنْدَهَـا ومواثِـقُ
لَئِيـمٌ غَـدا بـالسُّوءِ يَبْسُطُ كَفَّـهُ لِيَقْبِضَ بَسْطَ الرِّزْقِ واللهُ رازِقُ(279)

ويقول أيضاً مخاطباً ملكه أيضاً :

ولما رايتَ الغَرْبَ قَدْ فُلّ غَرْبُـه وأقْفَـرَ مِـنْ رَبْـعِ الخلافَـةِ عامِـرُ
وقـامَ وَلـيّ الكافريـنَ بِعِبْئِهـا فَكَمْ مُسْلِمٍ قَدْ ذَلَّ واعْتَزّ كافِرُ
تَداركْتَهـا بابـنِ الْخَلائِـفِ مُنْعِمـاً وسَيْبُكَ مَبْـذُولٌ وسَيْـفُكَ قَاهِـرُ(280)

والمقصود بابن الخلائف محمد السعيد، صنيعة يوسف الثالث، كما أنّ في ديوان هذا الاخير قصيدة وجهها الى بني مرين يقولُ فيها كما سبق :

قومـوا الَـى نَصْرِ السّعيـدِ حمايـةً فالدّيـنُ إن لَـمْ تَجْمَعـوهُ يُبَـدّدُ
وتَمَكّنـوا في فـاسٍ مـن عُثْمانِهـا واستَبْصِروا بِسُنَى الْحَقِيقَةِ واهْتَـدُوا
أوَ لَيْسَ قَدْ أعْطَى الْعُداةَ بِلاَدَنـا إعطاءَ مَنْ يُرْضي الكَفورَ ويَرْفِـدُ
لم يَتّقِ الرحمنَ في الوطَنِ الـذي مِنْ أجْلِهِ قَدْ عَاثَ فيهِ المُلْحِدُ(281)

ونشير من باب الموضوعية الى أن أبا سعيد متهم بالتفريط وعدم الدفاع عن سبتة، ونجد هذا الاتهام زيادة على ما سبق عند الحسن الوزان الذي يقول : «استولى أسْطول البرتغال على سبتة عام 818 هـ وفرّ من كان بها، فدخلها النصارى دون عَناء، ومكثوا

(278) نفسه : 91.
(279) نفسه : 94.
(280) نفسه : 84.
(281) ديوان : يوسف الثالث : 51.

فيها نحو ثلاثة أسابيع، متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد الذي كان ملكاً على فاس انذاك تخاذل ولم ينهض الى استردادها بل بالعكس أتاه الخبر، وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال»[282].

ومهما يكن أمرُ هذا الاتهام فإنَّهُ شاعَ في المغرب والمشرق، ففي ديوان. «جَنَى ٱلْجَنَتَيْن» لابن حجة الحَمَوي قصيدة دالية وجّه بها صاحب الاندلس محمد ابن الاحمر، ولد يوسف الثالث، إلى تونس والقاهرة يطلب نجدة الملك أبي فارس الحفصي والملك المؤيد، فأجاب عنها من تونس أبو محمد القفصي وأجاب من مصر ابن حجة الحموي، وكلتا القصيدتين فيهما اتهام للسلطان أبي سعيد، وممّا جاء في قصيدة ابن حجة معرّضا به قولُهُ، مُخاطباً ابن الأحمر :

وإنْ كانَ ذَاكَ «ٱلْجَارُ» صادَقَ«شِرْكَهُمْ» عَلَيْها، وَعادَى بَعْدَ ذَاكَ «مُحمّدا»
فَمَصْرَعُهُ مَعَ عُصْبَةِ الشِّرْكِ قَدْ دَنا مِنَ اليَوْمِ لَكِنْ حَشْرُهُ مَعَهُمْ غَدَا[283]

ونشير إلى أن هؤلاء الذين اتهموا أبا سعيد، وخاصة الملك النصري، والملك الحفصي، كانوا من خصومه، كما أنهم هم أيضا لم يفعلوا شيئا سوى الكلام، قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في صدر أحداث سنة سبع عشرة، وثمانمائة ما نصّه :

«في سابع شعبانها دخل الفرنج مدينة سبتة من بلاد المغرب، وخرّبوها، وأخذوا ماكان بها من الأموال والذخائر حتى الكتب العلمية، وتركوها قاعاً خراباً، ومع ذلك فهي بأيديهم، فلا قوة إلا بالله، وكان أهلها وهم محاصَرون أرسلوا قصيدة طنانة يستنجدون فيها أهل الاسلام، من أهل مصر وغيرها، مطلعها :

حماةَ الهُدى سَبْقاً وإنْ بعُد المَدَى فَقَدْ سألْتكُمْ نصرَها مِلَّةُ الهُـدَى

فلم تفدهم شيئا غير أن اجيبوا بقصيدة من نظم ابن حجة وياليتها مثلُها.»[284]، ومعنى هذا أنه كان تضامنا بالكلام، وتراشُقًا بسهام الاتهام.

وتجدر الاشارة إلى أن الروايات الاسبانية والبرتغالية تفيد أن التقصير كان من والى

(282) وصف افريقيا 1 : 318.

(283) جنى الجنتين (مخطوط).

(284) شذرات الذهب 7 : 124.

سبتة صالح بن صالح اليابانيّ[285]. وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن حجر في حق هذا الوالي.

كَما ان الروايات البرتغالية تذكر أن أبا سعيد أرسل جيشاً مهمّاً لتحرير سبتة بقيادة ولد الحاجب عبد الله الطريفي، ولكنه هزم[286]، وتذكر هذه الروايات أيضاً أن صلحاً انعقد بعد ذلك بين بلاط فاس وبلاط غرناطة، وتم على إثره حصار مشترك لسبتة سنة 822 هـ ولكنه كان بدون جدوى[287].

أما وصف الشاعر ابن فركون للسلطان المريني بولي الكافرين فيشير به الى علاقته بفرناندو الأول ملك أرغون، هذه العلاقة التي أفردها الباحث الاسباني أرياس بلاو بدراسة نشرت في تطوان سنة 1956، درس فيها السفارات المتبادلة بين المَلِكين، ونشر رسائل ووثائق تتعلق بالموضوع.

ونحسب أن فرناندو الأول آستغلّ ظروف آلسياسة العدائية والعدوانية التي سلكها سلطان غرناطة مع أبي سعيد، فَعَرض على السلطان المريني مساعدته، بتوجيه قطع من أسطوله لحماية الشواطِىء المغربية، والحيلولة دون وصول إمدادات من يوسف الثالث إلى صنيعته السعيد[287] ، ولكن هذا العرض كان مشروطا بتسليم جبل طارق الى القشتاليين، وتسليم النصارى الأسرى عنده، وتحسين معاملة التجار الارغونيين في فاس، وقد يكون أبو سعيد وعد بتحقيق الشرط الاخير فقط.

ومن الغريب أن يكون ملك غرناطة الذي كان ينعت ابا سعيد بولى الكافرين ويوحي الى شاعره ابن فركون بنعته بذلك أيضا، كان يبيح لنفسه ربط علاقات هدنة وصداقة مع فرناندو الاول، بل تذكر الروايات المسيحية أنه كان يحشر في اتفاقيات الهدنة اسم سلطان المغرب، ويعتبر نفسه مفوّضاً عنه[288]، وهذه الهدنات بين غرناطة وقشتالة في عهد يوسف الثالث وفرناندو الاول ملك ارغون والوصي على مملكة قشتالة، درسها أيضا الباحث أرياس بلاو المذكور في كتاب مستقل نشر بتطوان كذلك سنة 1956.

وعندما يتحدث الشاعر ابن فركون عن هذه الهدنات يؤيدها ويحض ملكه على قبولها، جنوحاً الى السلم وركونا إلى العافية، ويقول :

(285) بحث أوغست كور في نشرة الجمعية الجغرافية بالجزائر عام 1905. وانظر ترجمة صالح المذكور في جذوة الاقتباس : 358 ودرة الحجال 2 : 330.

(286) نفسه.

(287) نفسه.

(288) تاريخ بني نصر للسيدة أربية ص 130 ج1.

أعرِ ٱلْجَوابَ بِهَا عَلَى ظماٍ لَهـا تَنْقَـعْ جَـوى المُـتَشَوِّقِ الْمُـتَشَوِّفِ
واجْنَــحْ إليها مُنْعِمــاً مُتَــفَضِّلاً لاَ زلتَ أكْرَمَ واهبٍ متَعَطِّـفِ[289]

وكرّر هذا المعنى في قصائد أخرى، وهذا عجيب، فعندما يستقبل السلطان المريني سفراء فرناندو الأول يكون وليا للكافرين، وعندما يستقبلهم السلطان النصري، ويعقد معهم روابط الهدنة والصداقة لا يكون كذلك، وهذا هو التناقض الواضح والنفاق الفاضح.

وكما عبَّر الشاعر عن غيظ ملكه وحقده على السلطان المريني أبي سعيد، نجده يصلت سيفه على حاجبه الطريفي، فيقول من قصيدة :

والطّرِيفِـيّ كانَ أصلاً لهذا الْـــ قَصْدِ لا نَالَ ما ارْتَضَى واخْتارَهْ
وهَلِ الغُصْنُ حينَ يُجْتثّ مِنْـهُ أصْلُــهُ تَجْتَنِـــي يَــدٌ أثْمــارَهْ
أخَـذَ الله مِنْــهُ خَبّــاً كَفــوراً أمِـنَ آلله كانَ يَرْجُــو فِــرارَهْ
كَمْ شَكَى آلثّغْرُ ظُلْمَهُ عِندمَا قَدْ أوْرَثَ الكُفْــرَ أرْضَهُ وديــارَهْ
أصْبَحَ الْبَغْيُ شاهِراً مِنْهُ سَيْفـاً رَيْثَما فلّت الخُطوبُ غِــرارَهْ[290]

ويقول فيه من قصيدة أخرى عقب هجاء أبي سعيد :

والطّريفــيّ عَبْــدُه عَبْــدُ سوءٍ جَمَـع اللّـؤْم والخَنــى والخِيانَــهْ
سَارَ مــن قبــلُ للْجَــحِيم بشيراً مُخْبِـــراً أنَّ بَعْــدَه إتيانَــــهْ
أخْـــذَةٌ رَوَّعَتْ وبالــــدّم رَوّتْ حين وافَتْ جَنابَــهُ وجنانَــهْ[291]

والطريفي هذا هو أبو محمّد عبد الله، ولي حجابة أبي سعيد بعدَ وفاة الحاجب فارح بن مهدي وَوصف بأنه «كان من فضلاء الحجاب»[292]، وهو باني المسجد المعروف اليوم في فاس بمسجد للاّ غريبة، وقد حبس عليه كتبا كثيرة نقلت فيما بعد الى خزانة

---

(289) الديوان : 61.
(290) نفسه : 55.
(291) نفسه : 65.
(292) الاستقصا : 4 : 90.

القرويين حيث ما تزال بقية منها وعليها تحبيساته[293]. وفي بيوتات فاس (47) أن «القائد عبد الله بن موسى العلج من نصارى مدينة طريف التي بأيدي الاصبنيول».

وفي الديوان إشارةٌ إلى علاقة يوسف الثالث بأبي فارس عبد العزيز الحفصي فقد وجّه هذا هدية الى الاول سجلها الشاعر في قصيدة مهد لها بما يلي : «وقلت أهنيء مقامه الكريم بالهدية المشتملة على الخيل المسومة وسوى ذلك من عجائب افريقية الواصلة من قبل السلطان بها أبي فارس عبد العزيز الحفصي»[294] وتذكر المصادر التاريخية التونسية أن هذا الملك «وظّف لأهل الأندلس في كل عام من الطعام وغيره إعانة لهم على جهاد أعداء الدين»[295].

وفي الديوان أيضا إشارة إلى علاقته مع بني عبد الواد، جاء في إحدى قصائده قوله :

هـذا وإنّ تِلِمسانـاً بِـهِ آنْـتَصَرَتْ   مُلوكُهـا ومَعاليـه تُراجِعُهَـا[296]

ومهما يكن الأمر فقد اتبع يوسف الثالث سياسة جده الغني بالله في تشجيع بني عبد الواد وتحريضهم على عصيان بني مرين وفي التحالف معهم ومع الحفصيين ضد بني مرين.

ورغم مناورات بني الأحمر فقد كانت تلمسان خاضعة في فترة من الفترات لنفوذ أبي سعيد كما تشير الى ذلك بعض الوثائق[297]، كما أن ابا سعيد استجاب لاستنجاد أعراب افريقية فوجّه معهم جيشاً من بني مرين وصل الى غاية بجاية، وكان هذا سببا في حدوث نزاع بين أبي سعيد وأبي فارس الحفصي[298].

من هذا العرض السريع تبدو قيمة ديوان ابن فركون، كوثيقة تاريخية نفيسة، حول فترة دقيقة وغامضة في تاريخ المغرب والأندلس، وذلك بسبب ضياع مصادرها الأصلية مثل «الروض الأريض» لابن عاصم، «وتاريخ دولة أبي سعيد» للتاورتي الذي نفهم الآن

(293) الخزانة العلمية بالمغرب للمرحوم العابد الفاسي : 30.
(294) الديوان : 37.
(295) الحلل السندسية 2 : 186 وتاريخ الدولتين : 125.
(296) الديوان : 98.
(297) بحث الاستاذ أرياس حول تبادل السفارات بين أبي سعيد وفرناندو الأول ملك أرغون ص 11.
(298) الاستقصا 4 : 90 — 91.

سرّ وضعه لهذا التاريخ، إذ كانت دولة أبي سعيد مليئة بالأحداث المؤلمة، ومن الغريب أن أبا سعيد هو ثاني سلطان مريني يُخَصُّ بالتأليف بعد جده الأعلى أبي الحسن المريني غير أن هذا يمثل الدولة في أوج عظمتها وذاك يمثلها في وهدة انحدارها.

ولقيمة هذا الديوان التاريخية آستجبتُ للترغيب في تحقيقه والتقديم له والتعريف بصاحبه الذي هو أبو الحسين ابن فركون، لا ابن الخطيب، كما كتب بعضهم في أوله، مع التعريف كذلك بمخدوم الشاعر يوسف الثالث النصري وعصره، وعلاقاته مع جيرانه؛ واعتمدتُ في ذلك على المضامين التاريخية في الديوان، وهي مضامين تعرف لأول مرة، وتكشف النّقاب عن محنة دولة مجيدة هي دولة بني مرين التي قدمت الكثير لأهل الجزيرة اليتيمة، وضحّت بالغالي والنفيس، في سبيل نصرة الاسلام بالفردوس المفقود، فلم تلق إلا نكران الجميل، وجحود الصنيعة، وحبك الدسائس والمؤامرات.

أمّا قيمة الديوان الأدبية فلا يتسع ما بقي من هذه المقدمة لإبرازها بتفصيل، ولهذا سنكتفي بالاشارة إلى أن هذا الديوان هو خامس ديوان شعري يصل إلينا من العصر الغرناطي، بعد دواوين ابن خاتمه وابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك(*)، وهؤلاء — كما هو معروف — هم فرسان الشعر الذين تسنّموا صهوات جياده، وحازوا قصبات السبق في ميدانه، خلال القرن الثامن الهجري في الأندلس، وهم يشكلون سلسلة متصلة الحلقات، فابن الخطيب لابن الجياب وابن زمرك تلميذ لابن الخطيب، وهؤلاء الشعراء الكتّاب يؤلفون مدرسة مشتركة السمات، إذ كانوا رجال دولة، وشعراء بلاط، وشيوخ علم، يجمعون بين تحرير الرسائل الديوانية، وتحبير القصائد السلطانية، وتسيير الأمور المخزنية، وقد كان أهل الأدب يظنون أن ابن زمرك هو آخر شعراء غرناطة المجيدين، وخاتمة أدبائها المحسنين، وذهب بعضهم إلى أن الشعر الوفيع انتهى بموت هذا الشاعر، ولكن اكتشاف ديوان ابن فركون هذا يطلعنا على شعر لا يقل جودة عما قبله، ويعرفنا بشاعر لاحق بطبقة أولئك الأعلام، فقد استطاع هذا الشاعر أن يرقى إلى مستواهم في إتقان البناء وإحكام الصّنعة، بل لعله أن يكون أكثر منهم افتِتانا في التصنيع وافْتِتانا

(*) ديوانه هو «البقية والمدرك» الذي نقل معظمه المقري في النفح والأزهار ويضاف إلى هذه الدواوين ديوان البسطي القيسي.

بالبديع، على أنّه إذا كان قد ترسّم خطى هؤلاء الأسلاف فإنه اقتبس في مديحه ونسيبه بعض طرائق المتنبي والرضي ومهيار ونحافي التجنيس والتورية شيئا من مناحي ابن النبيه وابن نباته والبهاء زهير، ويحتاج هذا إلى شرح وتمثيل سنقوم بهما في مناسبة أخرى إن شاء الله، أما الآن فإن جملة القول في قيمة الديوان الأدبية هي أنه يعرفنا بشاعر أنموذج لجيل من الشعراء الأندلسيين ضاعت أشعارهم وأخبارهم، كما أنه يطلعنا على حالة الشعر الأندلسي خلال العقود الأولى من القرن التاسع الهجري.

وفي الأخير فإن هذا الديوان وديوان البسطي القيسي يعتبران حلقتين ــ كانتا مفقودتين ــ من حلقات الشعر الأندلسي في العصر الغرناطي، وإن ظهورهما يبعث الأمل في ظهور غيرهما من تراث الفردوس المفقود.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

إليك تباشير البشائر مقبلة … تلوح بآفاق الهدى متهللة

وعندك أحاديث الأماني صحيحة … عليك مسرات وفيك وفي الناس مرسلة

ووجهك للشمس المنيرة مخجل … وكفك للغيث الهتون مبخلة

وحلمك بأعلام الجبال أبرّ … فسوغه مال العدى ومنعله

فهنئت ما استقبلته يا مليك الهدى … من اليمن بالنصر العزيز مقبلة

لقد فاز المرء الحظ منه عناية … أما إنها بالعز أرفع منزلة

إمام همام شرف الملك باسمه … كما شرف السبع المثاني بجملة

هو المشبه الحلم والعزم والندى … موفق منصور مشمر كله

وهل تفتش [illegible] إذا ما يبوسف … بفضل علوم الخلفاء [illegible]

وهل تخضع الأيام إلا ليوسف … إذا ما مر يوم الروع جر …

كأن بغيث الله ومن يجيلها … لفتح بلاد الكفر من أجله

ومن بدا في العداة مساقه … بمال العدى أغنى علينا وأفضله

وأنتم أخطى من كرم بها … ترفع كف الكماة فأرسله

أفاق صغاء بغور عزائم … فلله ما القراء حكما وأعدله

وما يكتا السبع الكبار تجمعه … أو إنما عز أو النصح يقرع جحفله

وكم وارد يبغي الندى أم بابه … فباز … جزوي بريده وأقبله

صورة الصفحة الأولى من مخطوط الديوان

اسمى من الزهد أولى ... تملى ما عمر أبو الثناء

هنيئا والهناء لنا جميعا ... بمولود يحوز به الهناء

بأمر كامل وافي البناء ... من الملأ الكرام كما تشاء

كأنك بالديوان الفضل منه ... لما والبيت ولك البقاء

وبين فتى تفاخر يعتز قوم ... يكون له على ذاك استواء

تغرد بالعيون وبين جنبيه ... ذوو الآمال أكحل بالرجاء

فخار سؤدد المهدي أن تلقى ... قاما ما على هذا غطاء

لقد كرمت أواصر كانت ... وعز فيها تعز انتهاء

أبوه أبو الحسين وقد كريما ... عليه المجد رقا والعلاء

بقيت لنا كما تهوى المعالي ... عظيم القدر ما طلعت ذكاء

دعونا الإله دعاء صدق ... وأن يجاب لنا الدعاء

سيدي أبقاكم الله تسمع للجناب الكريم ما تروون من الأبيات ولا يسأم، وإنه حاشوذة فيه لم ينقطع الختام، وكان لها عنه مكتتب، وعهدي بها أن لا أعود فتكتب، حمدا على الله لما اختتمته، ولداعي المجد فيما اجتنيته، وقد كلت الكتب لشيء خفيفا عليه، ثم غلبني الشوق بنشط نحو الخطار البذ تتعلموا أنهم أضيع وحيدا بحنان بكم العاجز، ولا تشغلني نشا عن غير فضل تلك المحاولة، تعرفت أن الوقت تعمرون بما تشغب البال من تضييع الخزائن، والتفرغ به حار فرق العين علمه الله، ووقاه من جميع الأولاد، ولا تبرز أن شاء الله من بابه تلك هنا لك، والسلوك اليكم على أوضح المسالك، والله عز وجل يصل اسعادكم، ويفسح في الخير والعافية أمد حكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من مكبر قدركم ومؤاخي مجدكم وشاكركم، أحمد ...

ثم أجيب به هذه المنظومة

يجل في اعتلال واعتلال ... فبات القدر للسامي العلاء

صورة الصفحة ما قبل الأخيرة من مخطوط الديوان

وقال [illegible] أبي يحيى

ابن الوزير الشهير الكبير

أبي [illegible] رحمه الله

يمدح المقام العلي المولوي

أسهرني الوجد وطول الغرام ... فما عرفت النوم إلا لماما

وأقصر العاذل لما رأى ... أن ليس يجدي في هواه الملاما

وبان بالدمع وفي الهوى ... وخان بالسهد وفي [illegible]

وصار بين الخلق [illegible] ... [illegible]

وقلبه كالغصن في غرة ... كالبدر قد توج حسن الهلالا

صفحة من مجموع «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر»
من جمع الشاعر أبي الحسين ابن فركون وبخطه عن مخطوط خ.ع.ر (رقم 23 ج)

ديوان ابن فركون

بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

إلَـيْكَ تَبَـاشِيرِ البشَائِـرِ مُقْبِلَـةْ تَلـوحُ بآفَـاقِ الهُـدَى مُتَهَلِّلَـةْ[1]
وعنْكَ أحَاديثُ الهِبـاتِ صَحيحَـةٌ عَلَيْكَ غَدَتْ وَقْفًا وفي الناسِ مُرْسَلَهْ[2]
فَوَجْهُكَ لـلشمْسِ المنيرةِ مُخْجِـلٌ وكَـفُّكَ لِلغَـيْثِ الهَتُـون مُبَخِّلَـهْ
وَخَيْـلُكَ في أعْرافِهَـا لكَ آيَـةٌ مُسَوِّغَـةٌ مَـالَ العِـدَى ومُنفِّلَـهْ
فهُنِّئْتَ ما استَقْبَلْتَ يا مَلِكَ الهدَى مِن العِزِّ لازالتْ سُعـودُكَ مُقْبلَـهْ
لقَـد قَلَّدَ الرحْمـانُ أمْرَ عبـادِهِ إماماً لَهُ في العَدْل أرْفـعُ مَنْزِلَـهْ
إمامُ هُدًى قدْ شرَّف الملكُ باسْمِهِ كما شَرَّفَ السّيفُ اليَمانيُّ مِحْمَلَهْ
غَدا مُشْبِهًا في الحِلمِ والعزْمِ والنّدَى مُؤَيّـدَهُ مَـنصُورَهُ مُتوكِّلَـهْ[3]
وَهَل تقتدِي الأملاك إلا بيُوسفٍ فقـدْ عَلِمُـوا إخْباتَـهُ وتَبتُّلَـهْ[4]
وهل تخضَعُ الابطال إلا لِيُـوسُفٍ إذا هو يَومَ الرَّوعِ جَرَّد مُنصُلَهْ
كأنّـي بخيْـل اللّهِ وهـوَ يُجيلهـا لفتـح بـلادِ الكُفْـرِ غـرًّا محجَّلَـهْ
وهِندِيـهُ قـد صحّ أنّ هُيامَـهُ بِهامِ العِدَى أنحى علـيها وأنْحلَـهْ
وأسْمَرُهُ الخَطِّيُّ مـن طـرَبٍ بِهـا تَرنَّـحَ في كـفِّ الكَمِـيِّ فأرْسَلَـهْ

(1) وردت هذه القصيدة الأولى في الديوان بدون تقديم، ويبدو أنها أوّل قصيدة رفعها الشاعر إلى الملك يوسف الثالث غداة بيعته.

(2) فيه تورية بالصحيح والمرسل المعروفين في مصطلح الحديث.

(3) المؤيد والمنصور والمتوكل ألقابٌ لخلفاء عبّاسيين وغيرهم، ولعلّه يقصد العبّاسيين، ويمكن أن تنطبق الصفات المذكورة عليهم فيكون في البيت لفّ ونشر مرتّب.

(4) في الأصل : وَهَلْ، وفوقها : فهل.

أقــامَ صَغـــاهُ في نحور عُدَاتـــــه   فللـهِ مـا أعْـداهُ حُكمًـا وأعْدَلَـــهْ[5]
مَلائِكَــةُ السبْــعِ الطِّبـاقِ تَحُفُّـــهُ   إذا ما غَدا والنَّصْر يَقْدُمُ جَحْفَلَهْ
وكمْ وَارِدٍ يَبْغي النّدَى أمَّ بابـهُ   فــأوْرَدهُ جَـدوَى يَديـه وأنْهَلَـــهْ - 1 -
هو الملِكُ المَوْلى الهمامُ الذي لـهُ   مَكـارِمُ تُـزْري بالغمَـائم مُسْبَلَـهْ
ورَأيٌ رشيـدٌ لوْ تَقـادمَ عَهْـدُهُ   لأمّلَـهُ فيــه الرَّشيــدُ وأمَّ لَـــهْ[6]
مِن النفَـرِ الغرّ الذيـنَ وُجوُهُهُــمْ   لإشراقِهــا تعْنــو البُـدورُ مُكمَّلَـهْ
لك المجْدُ في الأمْلاكِ يُروى حَديثُهُ   وقَيْسُ بنُ سعْدٍ في القَديم تأثَّلَـهْ[7]
فآبـاؤُكَ الأنصارُ جـاءت بذكْرهــمْ   لنا سُوَرٌ في مُحْكَمِ الذكر مُنزَلَهْ
هُمُ أوْضحوا نَهْجَ الهِدايةِ للـوَرى   وهمْ نصرُوا دينَ الإلاهِ ومُرسلَـهْ
سَعى نحْوَهُ السيْفُ الصقيلُ فَراعَهُ   وجَدّ لَـهُ الرمْـحُ الطويـل فَجَدّلَـهْ
بِماذَا عَسَى يُثْني آلبَليغُ وقَدْ أتَتْ   بِـذلك آيــاتُ آلكِتــابِ مُفَصَّلَــهْ
أمْولايَ لاَ ياتي بـوَصفكَ شاعـرٌ   ولوْ أنَّ قُسًّا فيه أعْملَ مِقْولَهْ
ولكــن بالامْـــداحِ آتي فإنَّهــــا   بأغـراضٍ مـن ياتِـي بها مُتكفّلَـهْ
فعبْـدُكَ يُهْديهَـا إلـيك وسائِـــلاً   أبى اللّهُ أنْ تُلفَى بجُودك مُهْمَلهْ
أقِلْهُ أنِلْهُ وفّ مـا قـدْ وعَدتَـهُ   قديمًـا وبَلِّغْهُ الـذي منكَ أمّلَـهْ
نَــداكَ غَمـامٌ والنّظــامُ حديقَـــةٌ   بـهِ قـدْ غـدتْ أدْواحُهـا مُتهَدِّلَـهْ
وهل هُوَ إلا الروْضُ باكرهُ الحَيَا   فــأوْدَعَ ريَّــاهُ صَبــاهُ وشَمْألَـــهْ
فتأْخُذُ من جَزْلِ النِّظام قلائِـدًا   وتعطِي جَزيلَ المَالِ من غَيْر مَسألَهْ
فَدُمْ ناصِرَ الدِّين الحنيفِ وكَهْفَـهُ   ومَلجَــأهُ في الحادثـــاتِ ومَوْئِلَـــهْ

---

(5) صغاه : ميله.

(6) في البيت تجنيس، والرشيد هو الخليفة هارون.

(7) قيس بن سعد بن عباده الانصاري صحابي ولد صحابي، وله أخبار في المجد والجود، ومن ذريته بنو نصْر ملوك غرناطة.

وشفعْتُها ليومٍ ثانٍ بقصيدةٍ ثانيةٍ ولَها
حِكَايَةٌ مُتقدّمَةٌ حسَبَما يظْهَرُ مِنْهَا(8)

هَنيئًا فَصُنْعُ اللّهِ وافَاكَ بالبُشرى ... وأبْدَى مُحيَّاه الطَّلاَقةَ والبِشْرَا
وهل هو إلا الصّنْعُ أهْداكَ آيةً ... فكانتْ على نَيْلِ المنَى آيَةً كُبْرَى
هُوَ القدَرُ المحْتُومُ حيًّا به الهُدَى ... فُبعْدًا لِعُسْرٍ أعقَبَ اليُمْنَ واليُسْرَا
حَلَلْتَ بدارِ المِلكِ والسّعْدُ يقتَضِي ... لِمُلْكِكَ أن يلْقَى بهَا العِزَّ والنَّصْرا
وأشرقَ ذَاكَ الوجْهُ بالقُبّةِ التِي ... عَجَائِبُهَا تُرْوَى وأنعُمُها تُتْرَى - 2 -
لِذاك لَثمْنَاها يمينًا كَريمَةً ... ولوْ لَمْ يكُنْ عَذْبًا نَدَاها غَدَتْ بحْرَا
لغرْناطَةٍ أعْمَلتَ وِجْهَةَ ناصِرٍ ... يَهُزُّ لِنَصْرِ الدّين صَعْدَتَهُ السّمْرا
مَدَدت إلى التّقبيل رَاحَةَ مُنْعِمٍ ... أطَلّنَا علَى تقبيلِهَا الحمْدَ والشكْرَا
فِللهِ أعْلامُ الجِهادِ كأنهَا ... سَحَابٌ وشمْسُ الأفق طَلْعتُكَ الغَرَّا
سَتُنْهِضُ لِلغاراتِ خَيْلاً مُغيرةً ... تُطيلُ ارْتياحًا وهْيَ ما قارَبَتْ خمْرَا
وما ذاكَ إلا حيْث أنت مُملكٌ ... قواعدَها طَوْعًا وكفّارَها قَهْرَا
تَسُلُّ عليْهِمْ في لَظى الحَرب مُرْهَفًا ... فَتُورِدُهُم منه على ظَمَإٍ نهْرَا
وتَفْتَحُ أقطارَ العَدُوِّ بعَزْمَةٍ ... فَتَقْمَعُ مغْترًّا وتُوسِعُ مُعْترًّا
فَلِلّهِ في الاسْلامِ أيَامُكَ التِي ... أقَرَّتْ له عَيْنًا كَما شَرَحتْ صَدْرَا
فكَم من ثُغور كَالعَذارَى تَبَرَّجَتْ ... وقد أضْحكَ الفَتْحُ المُبينُ لهَا ثَغْرَا
فَيا راكِبَ الوَجْناء يَطْوى بها الفَلاَ ... يرُومُ بطَيّ القَفْرِ أن يُذْهِبَ الفَقْرَا
وقدْ أُرْسِلَتْ مثل السّفينِ ملجّجًا ... وما اتَّخذت إلا السّرَابَ بها بَحْرَا
إذا كنتَ تبغِي مَوْرِدَ الجُود فاعتَصِمْ ... بِمن تَرْتَجِي الأمْلاكُ نائِلَهُ الغَمْرَا
بأعْلَى مُلوكِ الأرْضِ ذَاتًا ومَحْتِدًا ... وأرْفَعِهِمْ قدْرًا وأشهَرِهِمْ ذِكْرَا

(8) هذا التقديم يشيرُ إلى كلام سبق ذكره في سفر سابق لعلّه السفر الأول من الديوان، وقد يكون الشاعر حكى فيه كيفية تخلّص يوسف من سجنه بشلوبانية وتمكنه من الملك بعد موت أخيه محمّد.

بأكْرَمَ من يكسُو المَلابسَ قد ضَفَتْ وأشرَفَ من يمْطِي المحَجَّلَةَ الغرّا
فكَمْ آمِل قد أمَّ جُودَ يمينه فيُسِّرَ لليُسْرى وفُوتِحَ بالبُشْرَى
إذا فاض نيلُ الجُودِ من كفّ يُوسُفٍ كفَى نيْلُهُ العافين أن يَهْبِطوا مصْرًا[9]
وإن لاحَ نورُ الصبْحِ من وجْهِ يوسُفٍ رأيْتَ نجُومَ الأفْقِ قدْ رَعِشَتْ ذُعْرَا
سيُطلِعُ في ليْلِ العَجاجِ نُصولَهُ نُجُوما ويُبْدي مِنْ عزيمَتِهِ فجْرَا

منها بعْدَ أبيَاتٍ

بحقِّكَ يامَوْلايَ لا تنسَ عهدَ مَن يحَادِثُ مَوْلاهُ بأفْكارِهِ سِرًّا
فَكَمْ باتَ في جَمْرِ الغَضى مُتَقَلِّبًا وذكرُكَ يُذْكِي في جَوانحِه جَمْرَا
إلى أن رَأى ذاكَ المحَيَّا فأصبحَتْ صُدُورُ القوافِي تَشْرَحُ القلبَ والصَّدْرَا
فَدُونكهَا تهْدي الهَناءَ حَديقةً مُهَدَّلَةً دَوْحًا مُؤَرَّجَةً نشْرَا
وقد راقَ لوْنُ الحِبْرِ فوقَ بَيَاضِهَا كما راقَ لوْنُ الخالِ في وجْنَةِ العَذْرا
ومِن فكْرِ مولانا وخط يمينهِ غدَا العَبْدُ في جيدِ العُلى ينظِمُ الدُّرَّا
فَرُحْماكَ فيها بنتَ فكْرٍ كأنها أتَتْكَ على استحيَائِها تَشْتَكِي الدَّهْرَا
ومَقصَدُها منكَ القبُولُ فجُدْ بهِ لعبْدٍ محبٍّ أخلصَ السِّرَّ والجَهْرَا
بَدائعُ هَبَّتْ للثناءِ نَواسِخٌ وما اتخذتْ إلاّ حدَائقهَا مَسْرَى
فنثرٌ يُباهي نثرةَ الأُفْقِ بهْجَةً وشِعْرٌ يُضاهي في مَحاسِنِها الشِّعْرَى[10]
ولِلهِ كمْ أبدَت يداهُ يَراعَةً يَفُلُّ شبَاهَا البيضَ والأسَلَ السُّمْرَا
سَقاهَا مُدامَ الحِبْرِ حتَّى استَمالَها فهلْ سَجَدتْ شُكْرًا كما رجَحتْ سُكْرَا
وقدْ نَذَرَ المملوكُ إنشادَ هَذِهِ لَدَيْكَ فما وَفَّى يمينًا ولا نَذْرَا

(9) فيه اشارة إلى الآية الكريمة : اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ؛ وفي البيت تورية وتجنيس.
(10) النثرة والشعرى من أسماء النجوم والمنازل المعروفة.

ولكنَّ حسْبِي منْكَ أدْنَى إشارَةٍ   إليّ بلحْظِ اللحْظِ ترْفَعُ لي ذِكْرَا
بَقيت لدينِ اللّهِ تنْصرُ أهْلَهُ   مُطاعًا إذا ما تُنْفذُ النهْيَ والأمْرَا

وصَدَرَ عَنّي في مَدْح مقَامه الكَرِيم أعْلاهُ اللهُ في آخر شهْرِ ذِي الحجّة المذكُور قبْل[11]

حَاديَها أيْنَ بهَا تَذْهبُ   إذْ ليْسَ عن ورْدِ المنى مَذْهبُ
هَذا هُوَ الربْعُ بِهِ للظِّبَا   والأنْجُمِ المَرتَعُ والمَرْقبُ
إن تسْألِ الرِّفْدَ يجُدْكَ الحَيَا   أوْ تسْتَضِيء فالنُّورُ لا يُحْجَبُ
لا يُظْمِئُ الوَجد الحُمُولَ التي   سَرَتْ ومن دمْعي لها مَشرَبُ
شَامت سَنَا بَارِقِها كُلّما   يجِيءُ في الظلْمَاءِ أوْ يذْهبُ
إنْ هُزّ فهْوَ ذابِلٌ مُشْرَعٌ   أوْ سُلّ فهْوَ صارِمٌ مُذْهَبُ
وأدْهَمُ الليْلِ يُجِدُّ السُّرى   يَتْبَعُهُ مِنْ صبْحِهِ أشهَبُ
قد عُقِدَ الفجْرُ لهُ رَايَةً   عِقْدُ الدّرَارِي تحْتَهَا يُنْهَبُ - 4 -
وجيرَةُ الحَقِّ لهُمْ أوْجُهٌ   نورُ الضحَى بحسْنِها يعْجَبُ
يَشِبّ وَجْدُ القلبِ من ذِكْرِهِمْ   مهْما تبَدّى فَوْدُهُ الأشيَبُ
سَعَى بيَ الوَاشِي لهمْ عندَما   قدْ خَيَّمُوا والسَّعْيَ ما خَيَّبُوا
مالِي ولِلعذّال ما شأنُهمْ   كُلٌّ مُحِبٌّ بِهِمُ مُتْعَبُ
قدْ عَلِموا بأنَّ أهْلَ الْهَوَى   كُلُّ عَذابٍ عِنْدَهُمْ يَعْذُبُ
هَلْ أعْيُنٌ فُوّقْنَ أمْ أسْهُمٌ   تُصْمِي بِها قُلوبَنَا الرَّبْرَبُ
هذا وكَمْ للدّهْرِ من جَفْوةٍ   لاتُبْلِغُ الآمِلَ ما يَطْلُبُ

(11) لم يتقدم ذكر لشهر ذي الحجّة فيما سبق، وعليه فالإحالة على ماورد في سفر سابق على هذا السفر الذي بين أيدينا من الديوان، وهذا ما تدل عليه أيضا اشارات أخرى في هذا السفر، وقد وردت هذه القصيدة في مجموع «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» من ص 177 إلى ص 181 مخطوط خ.ع.ز. (ج 23). وعلى ضوئها أصلحنا ما وقع في الديوان من خلل ونقص.

كَـمْ قَلَّبَتْ قلبـيَ في جَمْرِهَـا ... وإنـــهُ لحُـــوَّلٌ قُـــلَّبُ
دَهْـــرٌ جَهـــامٌ سُحْبُـــهُ كُلَّمَــا ... يُرجـــى الحَيَـــا وبَرْقُــهُ خُـــلَّبُ
فأيْـنَ منــهُ يــا إمَــامَ الهُـــدَى ... إلاّ إلى عليَـــائِكَ المَهْـــرَبُ
حَدَائِـــقُ الآداب مُـــذْ أمْحَــلَتْ ... مــا هَبَّ منهَــا نَــفَسٌ طَــيبُ
ولـمْ يجُـدْ للْجـودِ غَـيْثٌ بهَــا ... فـلاَ جَنـابٌ عندَهـا مــخْصِبُ
لكِـــنَّ مؤْلانـــا لـــهُ راحَـــةٌ ... ديمَتُهـــــــا الآن بها تَسْكُبُ
لا عَـجَبٌ ممَّـا جَفـا أوجَنـى ... فكُــلُّ دَهْــرٍ شأنُـــهُ مُعْـــجِبُ
كـمْ منَـعَ المَرْغـوبَ لي مانحًــا ... مــا كُنْتُ عنـهُ دائمًـــا أرْغَبُ
كمْ صَدّني عـن مَطلبي ظَالِمًــا ... وسُدَّ لِـي دُونَ المُنَـــى المَذْهبُ
كَمْ حَمَّلَ المُغْرَمَ مَا لا يَفـي ... بِحَمْلـــهِ رَضْوَى ولا غُـــرَّبُ[12]
كـمْ ليلَـةٍ قـدْ بِتُّهـا سَاهِـرًا ... تَكـادُ فيها الشُّهْبُ لا تَغْــرُبُ
وَبَدْرُهـــــا كأنّـــــهُ بَيْنَهـــــا ... وجْـهُ ابْـنِ نصْرٍ حَفَّـهُ المَوْكِبُ
يُوسُفٌ النّـاصِرُ بحْـرُ النَّــدى[12م] ... ومَـن لـه قيْسُ بْنُ سَعْـدٍ أبُ
فَالهامِيَـــانِ رَحْمـــةً لِلْـــوَرَى ... نَوالُــــهُ والمَطَـــــرُ الصَّيِّبُ
والـــنّيرانِ في ظَـــلامِ الدُّجَـــى ... جَبينُـــهُ الـــمُشْرِقُ والكَـــوْكَبُ
والطّيعَـــانِ لِعُلَـــى مُلْكِـــهِ ... بعَدْلِـــهِ الـــمَشْرِقُ والمَغْـــرِبُ
والماضِيـــانِ منـــهُ يـــوْمَ الوَغـــى ... عَزْمَتُـــهُ وسيفُـــهُ المُـــرْهِبُ
والأشْرفـــانِ بِحُلَـــى مُلكِـــهِ ... مَدْحِـــى لمَوْلاَيَ ومـــا أكْـــتُبُ
والنـــاصِرانِ مَـــن لِمَرْوانِهـــا ... يُنْمَـى وَمَـن لِسَعدِهـا يـــنسَبُ
ذلك مَــــلْكٌ أصْلُـــهُ مكَّـــةٌ ... وذَا إمَـــامٌ أصْلُـــهُ يثـــرِبُ[13]

(12) جبل رَضْوَى معروف، أما غُرّب فهو اسم جبل في الشام، وقد ورد ذكر غُرّب في شعر لبيد وجران العود والمتنبّي وغيرهم. راجع المادة في معجم البلدان لياقوت.

(12م) بحر الندى : في المظهر : بدر الهدى، وفوقها رواية الديوان.

(13) الناصر المرواني المكي الأصل هو عبد الرحمن الثالث، والناصر السعدي المدني الأصل هو يوسف الثالث ممدوح الشاعر.

أنصَارُ دِيـــنِ اللّـــهِ آبـــاؤُهُ   لِلـــهِ مَوْلًـــى منهُـــمُ أنجَبُـــوا[13م]
مَوْلًـــى يُنيـــل الخلـــقَ إرْفَـــادَهُ   إن سألُـــوا والعَفْـــوَ إنْ أذْنَبُـــوا
مَكَـــارِمُ الأخـــلاقِ تـــقضي لَـــهُ   أن يَبْـــذُلَ العُتْبَـــى ولاَ يَعْـــتُبُ
فالحِلْـــمُ والعِلْـــمُ لَـــهُ شِيمَـــةٌ   والحزمُ والعَـــزمُ الـــذي يُـــرْهَبُ
مَآثِـــرٌ لـــيْسَتْ لمَـــلْكٍ مَضَى   هَيْهاتَ لا تـحْصَى ولا تُـحسَبُ
لَوْ أبصرتْ منْـهُ مُلـوكٌ مضتْ   مآثـــرًا عـــن ذاتِـــهِ تُعـــرِبُ
بالـنَّصرِ والهَـــدْيِ وبالـــرّشْدِ في   آرائِهِـــمْ وَالأمـــنِ مـــا لقّبُـــوا
في حَرْبِـــهِ أو سلْمـــهِ سيْفُـــهُ   وسَيْبُـــهُ المُـــرهِبُ والمُـــرْغِبُ
إنْ قَطَّبَ الخَوْفُ وُجُوهَ العِـدَى   فكُـــل ثَغْـــرٍ ثغْـــرُهُ أشْنَبُ[14]
سوْفَ يُرَى يَفْتَـحُ مِنْ أرْضِهِـم   مـــا هُـــوَ مُسْتـــغْصٍ ومُسْتَصْعَبُ
والبِيضُ قـد قـامت لديْـه عَلى   منَابـــرٍ مـــنْ هَامِهِـــمْ تخطُبُ
والسُّمْـرُ تَرْتـاحُ إذا مـا غَـدا   سِنـــانها مِـــنْ دَمِهِـــم يُـــخْضَبُ
يـا مَـلِكَ الدنْيـا الـذي عَدْلُـهُ   [به] آنجَلَـى عـن أفْقِهَـا الغَيْـهَبُ
بَلَـــغتُ آمـــالي بمَـــا نِلْتُـــهُ   لمْ يَبْقَ لي منْ بَعْدِها مَطـلَبُ
فـــلا يخيبُ اليَـــوْمَ لي مـــقْصَدٌ   ولا مَـــرَامٌ رُمتُـــــهُ يَصْعُبُ
مـــوْلايَ خذهَـــا مِدْحَـــةً فَـــذّةً   ولَفْظُهـــا عـــنْ مَـقْصَدِي مُعْـــرِبُ
قَبُـــولُكَ الـــقَصْدُ فمَـــن نالَـــهُ   فَـوْقَ السّحـــابِ ذيْلَـــهُ يَسْحبُ
وصْفُكَ لا يـاتِـــي بـــهِ شاعِـــرٌ   سِيَّـــان مَـــن يُطـــنِبُ أوْ يُسْهِبُ
فَدُمْتَ لِـلإسْلامِ مـا أصْبَـحَتْ   شمْسُ الضحَى أنوَارَهـا تصْحَبُ - 6 -

---

(13م) رواية مظهر النور : أنجبُ، وهي هكذا نعت مولى.

(14) في البيت تجنيس على طريقة قول الشاعر عبد الله بن طاهر :

وإنّـــيَ للثّغْـــر المخوف لَكالِـــئٌ   وللثّغْـــر يجْـــرِي ظَلْمُـــه لَـــرَشوفُ

ورواية المظهر في آخر البيت قبله : المرغب والمرهب.

وقلتُ في مدحهِ أيّده الله في أوّل
محرّم عام أحَدَ عَشَر وثماني مائة حسَبما يظهر منها[15]

أمِن بـارِقٍ أعْـلاَمَ نَجْـدٍ يصافـحُ ... تذكَرْتَ عهْدًا بالحِمَى وهْوَ نازحُ
يلـوحُ بآفـاقِ الثَنَايَـا كأنَّـهُ ... مُصَافِـي وِدادٍ بـالسَّلامِ مُصَافِـحُ
كَلِفْتُ على بُعْـدِ المَزَارِ بجيـرَةٍ ... جوَانِحُنـا وجـدًا إليهِمْ جوانِـحُ
لَقَـدْ قيَّـدَ الأبصارَ حسْنُ أوَانِسٍ ... لهُـنّ قلُـوبُ الهَائِـمِين مَسَارِحُ
ومَا هِمْتُ حَال البُعْدِ إلاّ لأنهَا ... قلـوبٌ تـلاَقتْ والجسُومُ نَـوَازِحُ
ومـا ارْتـاحَتِ الركْبان إلاّ لِأنّـه ... تُطارِحُنـا بَثّ الهَـوى ونُطـارِحُ
وما انعَطفَت إلاّ غُصُونٌ نَواعِـمٌ ... ومـا الْتَفَـتَتْ إلاّ ظِبـاءٌ سَوانِـحُ
وما حَلَّتِ القلبَ المَشُوق سِوَى حُلًى ... بها الجفْنُ في روْضِ المحَاسِن سَارِحُ
وما سال دَمْعُ العَيْنِ إلاّ مُصَرِّحًا ... بما أضمَرَت منْ حُبهِـن الجَوَانِـح
وَمـا ضُمِّنَتْ إلاّ أحـاديثَ خلَّـةٍ ... أُتيحَ لَها منْ صاحِبِ العَيْنِ شارِحُ[16]
وما طَابَ عَرْفُ الزّهْرِ إلاّ لأنّهُ ... تُمازِجُـهُ مـنْ ذِكْرِهِـنَّ نَوافِـحُ
وما رَاقَ نَظمُ الشّعْرِ إلا لِأن غَدَتْ ... لِناصِرِ دينِ اللهِ فيـهِ المَدائِـحُ
وما أشرَقَ الإصبَاحُ إلا لأن بَدَتْ ... عَلى الشمْسِ من وجْهِ ابْنِ نَصْرٍ مَلامِحُ
وما رَاعَ نَسْرَ الشهْبِ إلاّ جَمَالُهُ ... فَحُطَّ جَناحٌ منهُ لِلغَربِ جَانِـحُ
ومـا ارْتـاعَتِ الشهْبـانُ إلا لأنـهُ ... تعالَى لهُ قَدْرٌ على الشهبِ طَامِحُ[17]
ومـا رَعِشَتْ إلاَّ لِتَأْخُـذَ حِذرَهـا ... وقدْ راقَ صُبْحٌ من مُحيَّاهُ لائِحُ
ومـا اعْتَـزَّ دينُ اللّـهِ إلاّ لأنَّـه ... يُدافِعُ أحْـزابَ العِـدَى ويُكافِـحُ

---

(15) توجد هذه القصيدة أيضًا في مجموع «مظهر النور الباصر» من ص 181 إلى ص 185 وبين النّسختين تطابق تام.

(16) صاحب «العين» هو «الخليل» بن أحمد الفراهيدي.

(17) الشُّهْبان : الشهُب

وما سَيْفُهُ إلاّ دَمَ الكُفْرِ سافِـحٌ وما حِلمُهُ إلاَّ عن الذنْبِ صافِحُ
هُو المَلِكُ الأعْلَى الهُمامُ الذي بِهِ تجلتْ من الدَّهر الخُطوبُ الفَوادِحُ
وهَـل يـوسُفٌ إلاّ إمـام مؤيَّــدٌ لهُ تخْضَعُ الصّيد المُلوك الجحَاجِح[18] - 7 -
وهـل يُـوسفٌ إلاّ إمَـامٌ لعزمِــهِ تَلينُ صُرُّوفُ الخطبِ وهْيَ جوَامِحُ
يُعَــوَّذُ بالسّبْــعِ المَثَانِــي كمَالُـــهُ وتُتْلَى عليه المُحْكَمـاتُ الفَواتِـحُ
تــواضَعَ لِلـــهِ العَظيــمِ وقَـــدْرُهُ لـهُ فـوْقَ آفـاقِ النُجـومِ مَطامِـحُ
يَنِـمُّ مـن الأمْـداحِ طيبُ ثنائـهِ فـتَسْرِي برَيّـاهُ الرّيَـاحُ اللّواقِـــحُ
8 - يَفيضُ عَلَى العَافيـنَ جُـودُ يَمينِـهِ فَتَروي النّدَى عَنهُ السَّحَابُ الرَّوائحُ
لَقَـدْ أمَّـلَ الـقصَّاد منـهُ مَثابَــةً لهَا القَصْدُ مَبْرورٌ بها السَّعْيُ ناجِحُ
كأنّ عَطايَا يُوسفٍ وَاهِبِ النّدَى غَــوَادٍ غَــوَادٍ بالنّـــوالِ روَائِـــحُ[19]
كأنَّ سجَايَا يُوسفٍ مِلِكِ الهُـدَى كَواكِبُ في أفْـقِ السَّمـاءِ لَوائِـحُ
كأنّ مَذَاكِي يُوسفٍ يـوْمَ حرْبِـهِ سَفائنُ في بَحْرِ النَّجيعِ سَوابِـحُ[20]
كأنّ عَوالي يُوسفٍ قُضبُ دَوْحَةٍ تُظِـل وَمشبُـوبُ الهَواجِـرِ لآفِـحُ
سَتَغـزُو الأعَـادي والبُـروقُ صَوارِمٌ يَحُـفُّ بها لِلشهْـبِ رامٍ ورَامِـحُ
وتَمْلك أرْضَ اللّهِ غَرْبًا ومشرِقًـا وهَل مانِعٌ من ذاكَ واللهُ مانِـحُ
حسَامُكَ مسْلولٌ وسَهْمُكَ صائِبٌ وجُنـدُكَ منصورٌ وسعْـدُكَ فاتِـــحُ
ورِفْـدُكَ مَمْنـوحٌ وعَفْـوُكَ شامِــلٌ وبِشْرُكَ مبْــــذُول وفضْلُكَ واضِحُ
وها أنا يا مولايَ قصْدي مُبَلَّغٌ بما كُنْتُ أرْجـوهُ وتجْـرِيَ رابِـحُ
وَربْعِـــيَ مَعْمـــورٌ وأفْقِـــيَ نيِّـــرٌ ورَوْضِيَ مَمْطـورٌ وزهْـرِيَ نافِـحُ
فخذْهــا كما شاءَ البَيـانُ عَقيلَـــةً إليك بهَا طِرْفُ البَلاغَـةِ جامِـحُ

(18) الجحاجح جمع جحجاح وهو المسارع إلى المكارم.
(19) غوادٍ الأولى جمع غادية وهي السحابة الممطرة، والثانية تقابلها روائح.
(20) المذاكي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.

وما أنا في نظمي مُجيدٌ وإنَّما قَبُولُكَ زَنـدَ الفكْـرِ منِّي قـادِحُ
وهلْ طائِرُ الفكْرِ الذي أمّل النّدى إلى الورْدِ صادٍ وهْوَ بالمدحِ صادِحُ
وكيفَ تُضاهَى في النّظامِ مَكَانتي لَدَيْك ولمْ يمْدَحْكَ قبْلِي مـادِحُ

وممّا قلته مهنّئا مقامَهُ الكَريمَ أيّده اللّهُ عند عوْدته منَ الوجهة إلى قرية وادَ مَتنزّهًا وضمنتها تنبيهًا على وعد سبَق حسَبَما يظهَر منهَا في التاسع والعشرين لرَبيع الأوّل عام أحدَ عشر وثماني مائة[21]

أجِلْهـا في أباطِحِهَـا جِيَـادَا تُجِـدُّ السَّيْـرَ طَوْعًـا وانقِيـادَا
وعـرِّسْ بالـرَّكائِبِ في رُباهَـا فَتِـلْكَ حُدَاتُهـا تَبغـي ارْتيَـادَا
على أنِّـي عَميـدُ القَـلبِ شاكٍ ـ وإن قـرُبَتْ مَعاهِدُهـا ـ البِعَـادَا
ستعْلَـمُ دوْلَـةُ الـعُشّاقِ أنّـي عَميـدٌ قـدْ جُعِـلتُ لها عِمـادَا
خَبـالُ القـلْبِ يُذْهِبُـهُ خَيـالٌ إذا هـو قـدْ ألَـمَّ دُجًى وعَـادَا
ففـي الطيْـفِ المُلِـمّ لـهُ شِفـاءٌ ولكِـن جفْنُـه أِلـفَ السُّهَـادَا
حـدِيثَ الوَجْـدِ أكْتُبُـهُ فألْقِـي بصَفْـحِ الخدِّ من دَمْعي مـدَادَا
وكـمْ زمـنٍ قطَعْنا في التَّصابِـي حَسِبنـا غَيِّنـا فيـهِ رشادَا

(21) قرية وادَ الواردة في هذا التقديم من قرى غرناطة القريبة منها ولعلها هي «قرية الوطا» الواردة هكذا في مقدّمة الاحاطة، ووردت عند ابن الخطيب أيضًا في ترجمة عبد الملك بن حبيب هكذا : «حصن واط من خارج غرناطة» ومنها أصل الفقيه المذكور، ويُظن أنها المعروفة اليوم باسم Huétor Vega كما في حاشية الاحاطة أو Huétor de Santillan كما أخبرني صديقي الاستاذ الدكتور بالبيه.
راجع الاحاطة 1 :132، 3 :548. وقد ضبط اسم واد بفتح الدال في التقديم ولكن الشاعر اضطرّ إلى كسرها وتنوينها إذ يقول :
بـوادٍ حـلّ مولانـا فعَـمّت ركائِبُـه الغوائِـر والنّجـادا
أما رسمها بالطاء في الاحاطة وفي الكتابة اللاتينية فهو من باب قولهم في قنفد قنفط وقولهم في جخدب جخطب. راجع لحن العامة للزبيدي. وقد كان بواد هذه عين تسيل على نهر شنيل وفيها يقول ابن زمرك من موشح له :
شِنِيلُهـا مُـدَّ مِنْـهُ نِيـلُ والشّيـنُ ألْـفٌ لِمُسْتَنِيـلْ
وَعَيْـنُ «وَادٍ» بِـهِ تَسِيـلُ مِـنْ فَـوْقِ خـدٌّ لَـهُ أسِيـلْ

تعَاطيْنـا كـؤُوسَ الـوُدّ تُبْـدِي   لِشمْـل الأُنسِ جمْعًـا واحْـتِشادًا
أجَلْناهـا جِيـادًا قـدْ أقمْنـا   بمَيْـدانِ السرُورِ لها طِـرادًا
وسَاحِـرَةِ الجفُـونِ أرَتْ حُلاَهـا   فَلَـمْ تَتْـرُكْ بـلا وجْـدٍ فُـؤَادًا
فَواتِـرُ وَهْـيَ تمْنَحُنـا فتونًـا   نـواعسُ وهْـيَ تَمْنَعُنـا الرُّقـادًا
فَلولاهـا لَمـا هِمْنـا غرَامُـا   ولاَ مِلْنـا إلى الذّكـرَى ودَادًا
ولـوْلا نَـاصِرُ الدّيـن ابْـنُ نَصرٍ   لما نِلنَـا مـنَ الدنيَـا مُـرَادًا
ولـوْلاه لَأَوْجَفْنَـا سِرَاعًـا   رَكائِبَنَـا نَجـوبُ بهَـا البِـلاَدَا
وقـدْ كُنَّـا نسيـرُ بِـلاَ آئتنَـاءِ   ونتّخِـذُ الثّنَـاءَ عليـهِ زَادًا
إلى أنْ جاءَنَـا وعْـدٌ كَرِيـمٌ   أَفَـادَ مـنَ المَكَـارِمِ مـا أفَـادَا
فأمْـرَعَ بعْـدَهُ رَوْضُ الأمَـاني   وأخصَبَ كلَّمَـا رُمْنـا مَـرَادًا
ومَن أوْفَى بِعهْدٍ منكَ يَا مَـن   تعَاهِدُنـا بمَكَارِمُـهُ عِهَـادًا
وعبْـدُ مقامِكُـمْ نظمًـا ونثـرًا   أجـادَ وعَـن سَبيـل الجُـودِ حَـادَا
وسَائِلُـهُ لَـدَيْكَ لَهـا صُعُـودٌ   تـرُدُّ البِـيضَ والسُّمْـرَ الصِّعَـادَا
بهَا لاَقَـى خُطُوبَ الدّهْـرِ دِرْعًـا   ويـوْمَ الفَخـرِ قَلَّدَهَـا نِجـادَا
سَتكْسُونـا الملاَبِسَ ضافيَـاتٍ   وتُعْطينـا المُحَجّلَـةَ الـوِرادَا - 9 -
ومازِلنـا على عِلْـمٍ بأنّـا   لـذلِكَ لـن نُضامَ ولـن نكـادَا
فـإن جـارَ الزمَـانُ وَرَاحَ مِنَّـا   خضوعًـا كيـفَ نعْطيـهِ قِيـادَا
وكَيفَ ورَاحَةُ المَوْلَى ابْـنِ نصْرٍ   تزيـدُ من النوَالِ مَـن اسْتَـزادَا
تقولُ لِمن هَوى مِنّا خضوعـاً :   «أرى العَنقـاءَ تكبـرُ أن تُصَادَا»
إذا سُئِـلَ الملـوكُ فـآل نصْرٍ   بحُـورٌ قـدْ أمَدَّتْهـا ثِمَـادَا
ويُـوسُفُ للْملـوكِ غـدَا إمَامًـا   بمَـا مَلـكَتْ أنامِلُـهُ جَـوَادَا
ويُـوسُفُ قدْ غَـدَا بَـدرًا وبحْرًا   لديْـه لَـن نضِلَّ ولـن نـذَادَا
فبَـدْرُ هُـدَاهُ لا يَلْقـى مَحَاقًـا   وبحْـرُ نَـدَاهُ لا يـخْشَى نَفـادَا
لقَـدْ فـاقَ المُلوكَ نَـدًى وعِلْمًـا   فـلاَ مَـلكٌ يـرُومُ لـهُ عِنـادَا

لِـنُصْرةِ مُلكِـهِ الأعْلَـى تجَـلَّـتْ   مـلائِكُ تَرتقِـي السَّبْـعَ الشِّدادَا

لـِو الأُفْـقُ اقتَـدَى بحُلَـى عُــلاَهُ   هُدًى ونـدًى أنَـارَ سَنًـى وجـادَا

ولَـوْ صَدَرَتْ أوامِـرُهُ لأضحَـى   مطِيعًـا أمــرَهُ فيمـا أرَادَا

فأمْطَـى مــنْ بوارِقِـهِ جيـادًا   وَوَتّـرَ مـن كَوَاكبِـهِ مهَـادَا

ومِن عَجبٍ نـوَالُكَ حين يَهْمِـي   يَزيـدُ الفِكـرَ صَيِّبُـهُ اتِّقـادَا[22]

وكَمْ لِعلاكَ من صُنْعٍ جميـلٍ   لجسْمِ الدَّهْرِ قدْ أضحَى فُـؤَادَا

ولا كالنُّزهَـةِ الغـرَّاءِ لمّـا   لـدَيها العِـزُّ أصْبَـحَ مستَفَـادَا

بَوادي الـحُسْنِ قـدْ لاحتْ بـوَادٍ   مَنَحْنـاهُ المَحبَّـةَ والْـوِدَادَا

فأنْـوَاعُ الجَمَـالِ وإن تنَـاهَتْ   حَوَى جمعًـا لها وبهَـا انفـرَادَا

بَدَا لِـلأُنسِ ربْعًـا حِين أضحَتْ   ظِبـاءُ الإنسِ تحْسِبُـهُ مَـرَادَا

إذا جـالَ النسِيـمُ لَـدَى رُبَـاهُ   وعـادَ حَـديثَ بهْجَتِـهِ أعَـادَا

تَثَنَّـى الـغُصنُ إذْ أثْنَـى عليْـهِ   خَطيبُ الطيْرِ من طَرَبٍ وَمَـادَا

بِـوَادٍ حَـلَّ مَوْلانـا فعَـمَّتْ   رَكائِبُـهُ الغَوائـرَ والنِّجـادَا

تَـرَى كُـلاًّ لديْـه مِـنْ يَدَيْـهِ   يُـراوَحُ بالمَكـارِمِ أوْ يُغَـادَى

لقَـدْ شرَّفْتَ مغْنـاهُ فَقُلْنـا   بِحَـقٍّ أنْ يسُودَ ولـنْ يُسَادَا

سَتُثْنِـي بالـذي أوْلـيْتَ فيـهِ   بَنُـو الآمَـالِ مَثْنَـى أوْ فُـرَادَى

وقـدْ أوْحَشْتَهـا حمْـراءَ مُـلْكٍ   فأبْدَتْـهُ خلـوصًا واعْتِقـادَا

كأنَّ الرُّوحَ قدْ عـادَتْ لِـجسْمٍ   غـدَاةَ احْتَلَّهـا المَوْلَـى وَعَـادَا

فلُقِّـيتَ المَنَـى ظَعَنًـا وحَـلاًّ   وهُنِّـئْتَ الثَّنـاءَ المسْتجَـادَا

إذا نـادَى الـورَى غرْبًـا وشرْقًـا   إمـامَ مُلوكِهـا كُـنتَ المُنَـادى

بَقِيتَ لِنَصْرِ ديـنِ اللـهِ تُعْلِـي   مَعَالِمَـهُ دِفاعًـا أوْ جِهَـادَا

---

(22) في الاصل : صئبُهُ، وهو تحريف يسقط به الوزن ؛ يقال سحاب صيّب وغيث صيّب أي غزير.

وأنشَدت في إمْلاكِه أيّدَ الله مَقامَهُ معَ بنتِ القائِدِ المرْحومِ
أبي يَزيد خالد مؤلَي النّعمة النّصْرية بالرّياض السعيد وَقَد
استدعَى أشرافَ أهلِ الاندلس لذلك وتضمنتْ كثيرا من وصْف الحَالِ[23]

مَا لِلرَّكائبِ لا تحُلُّ جِلالَهـا   وتُطيل في تلكَ الرُّبُوعِ سُؤالهَا
كَلَفًا بمَن طَلَعَتْ بأفْقِ خيَامِهَا   كالشَمْسِ تتخِذُ السّحَابَ حِجَالهَا
كَمْ مُغْرمٍ تَصلَى جَوانِحُهُ الجوَى   صَالَتْ عَلَيْهِ ولـمْ تُنِلْهُ وِصَالَهـا
يُبْدِي الحنينَ إذَا سَرَى بَرْقُ الحِمَى   وإذا صَبا نجْدٍ تَهُبُّ صَبَا لَهَـا
يَهْـوَى شمَائِلَهَـا فَهــلا أوْدَعَتْ   منهَـا القَبُـول قَبولَهـا وشمَالَهَـا
ظَـنَّ النّـواسِمَ إذْ تَـهُبُّ بَلِيلَـةً   تشْفِـي النفُـوسَ فهيـجَتْ بَلْبَالَهَـا
تَهْدِي خبَالَ الوَجْـدِ نَـارُ غَرَامِـهِ   ليْـلا ومـا تهْـدِي إلَيْـه خَيالَهَـا
عجبًا لـهُ مـا بَالُـهُ لا يَهْتــدِي   بِجَوانــحٍ يُذْكِـي الغـرَامُ ذُبالَهَـا
لِلـهِ كَـمْ نَـفْسٍ شَعَـاعٍ أُتْلِـفَتْ   حتَّــى تَلافاهـا ونَعَّـمَ بَالَهــا
رِفْقًا بنـفْسِكَ يـا حَليـفَ غرَامِـهِ   فهْيَ الصبَابَة قـدْ أحَـالَتْ حَالَهـا
هَـذي مَنازِلُهَـا فَحَـيِّ رُبوعَهَـا   وأنِـخْ جِمَـالَكَ تسْتَفِـدْ إجْمالَهَـا
[وانْظُرْ] سَنَا أقمَارِها واسْتَجْلِ مِنْ   هَـالاتِ هاتيكَ القِبَـاب كَمالَهَـا
فلكَمْ لَهَا الرُّكْبانُ وَاصَلتِ السُّرى   والعـزْمُ مِنْهَـا يَقْتَضِي اسْتعجالَهَـا - 11 -
تزْجِي المَطَايَا والهَواجـرُ تَلتَظِـي   حتّــى تشكّتْ أينها وكَلالهَـا
حَنّتْ إلى كُثُبِ المَنازِل فارْتَـمَتْ   تَطْـوِي بهَـا كثبَانهَـا وَرِمَالَهَـا
لِمْ لاَ تحِنُّ لها الرّكَابُ وَطالَما   حَمِدَت على بُعْدِ المَدَى تَرْحَالَهَا
كمْ أُصْدِرَتْ عَنْها نوَاهِلَ بَعْدَمَا   قدْ أُورِدَتْ وهْيَ الظّمَاءُ زُلالَهـا
فأسِلْ دُمُوعَكَ في مَعاهِدِهـا إذا   عَهْدُ الغمائِمِ لـمْ يجُـدْ أطْلاَلَهـا

---

(23) راجع ما كتبناه في المقدمة حول أبي يزيد خالد هذا.

كـمْ مُـرْسِلٍ فيهَـا مَدامِعَـهُ اثْنَنَـى مُتَوَلِّيًـا لِلظِّـلِّ حِيـنَ سَقَـى لَهَـا[24]

ولكَـمْ تمَايَلَتِ الغُصونُ بِدَوحِهَـا لمَّـا أدَارَتْ سُحْبُهَـا جِرْيالَهَـا

مَـا لاَحَتِ الغُـدْرَانُ فيـه مَدارِعًـا حتَّـى أرَتْكَ الذَّارِيـاتُ صِقالَهَـا

شقّ النّسيـمُ جيُوبَـهُ فيها وَمِـن وشْيِ الرّبيعِ قدِ اكْتَسَتْ سِرْبالَها

فهْـيَ الربُـوعُ نَزِيلُهَـا مُتَـوَسِّدٌ أو وَارِدٌ أنهَارَهَـا وَظِلاَلَهَـا

لِلْمُجْتَنَى إن شئْتَ أوْ لِلْمُجْتَلَـى عَـرِّسْ تَنَـلْ أحْمالَهَـا وجمالَهـا

وإذا العُفَـاةُ اسْتَقْبَلَتْهـا قِبْلَـةً وفّتْ صَلاةُ صِلاتِهَـا آمَالَهَـا

هي حضْرةُ المُلْكِ التي قد أصْبَحَتْ غيْثًا وغوثًا ان حلَلْتَ حِلاَلَهَا

مَثْوَى إمَـامٍ حلَّ أُفْـقَ خِلافَـةٍ تجْلُـو عليْـهِ جَمالهَـا وجَلاَلَهَـا

هُوَ ناصِرُ الدّين الخليفةُ يـوُسُفٌ مَلِكٌ غدَا كهفَ المُلوكِ ثِمالَهَـا

مَلِكٌ كأنّ الشمسَ غُـرةُ وجْهِـهِ تهْدِي إلى سُبُلِ الهُـدَى ضُلاّلَهـا

مـلِكٌ كـأنّ الغَيْثَ جـودُ يَمينِـهِ مهْمَـا أنـالَ القَاصِدِيـن نوالَهـا

ولِـيَ الخلافَـة فاسْتقـلَّ بعبْئِهَـا فعُفَاتُـهُ لا تشتَكِـي إقلاَلَهَـا

يامَـنْ يشبِّـهُ بالغمائِـمِ كفَّـهُ ما ساجلتْ سُحُبُ الغمَامِ سِجالهَا

لوْ أُلْفِيت بالشُّهْبِ عَارِفَةُ النّـدَى لأنالهَـا كَرمًـا وقـال أنـا لَهَـا[25]

فـمشَارِقُ الأنـوارِ منـهُ قـدْ أتَتْ بِشِهـابِ هَـدْيٍ مُـوضِحٍ إكْمـالها

أضْحَـى بأوْطـان الجهَـادِ مُؤَمَّـلاً لِعُفَاتِهَـا ومُؤَمِّنًـا أعْمالهَـا

مـا جَـابَ آفاقَ البـلادِ بقُطْرِهَـا أوْ جَالَهَـا إلاّ شَفَـى أوْجالَهَـا[26] - 12 -

تُلْفِـي لديْـه عُفاتُـهُ وَعُداتُـهُ سَلْمًـا وحَرْبًـا نُزْلَهَـا ونِزَالَهـا

فالعزْمُ يفْضَحُ في المَضاءِ صِفاحَهَا والحِلْمُ يرْجحُ في الوَقـارِ جبَالَهَـا

---

(24) فيه إشارة إلى الآية الكريمة : «فسَقَى لهُما ثُمّ تولّى إلى الظلّ»

(25) لاحظ التجنيس في قوله : أنالها أي أعطاها، وقوله : أنا لها أي أنا صاحبها. ومثل هذا وغيره من ألوان البديع واضح في شعر هذا الشاعر.

(26) لاحظ التجنيس أيضا في قوله : أو جالها، أوجالها.

يرتاحُ في حرْبِ العِدَى خَطِّيُّهُ ... ليكُفَّ إن أهْوَى لَها أهْوالَها[27]
وسُيوفُهُ هامَتْ بصُحبَةِ هَامِهَا ... فَغَدَتْ لذلِكَ تشتَكي إكْمالَها
وقِسيُّهُ من غيْر رمْي طَالَمَا ... رَامَتْ لِتُثبِت في العُداةِ نِبالَها
من ذا يُضاهي في المَكارِمِ أسْرَةً ... في الذِّكرِ قد ذكر الإلاهُ خِلالَهَا
قوْمٌ إذا لبسُوا الدُّروعَ حَسِبْتَهُمْ ... أسُدًا حَمَتْ في غِيلِهَا أشبَالَهَا
وإذا نضوْهَا عنهُمُ فَأَرَاقِمٌ ... أبقَتْ على أجْسامِهِمْ أشكَالَهَا
وتهُزُّهُمْ أمْداحُهُمْ فكأنَّمَا ... جَالَ النّسيمُ بدَوْحَةٍ فأمَالَهَا
هذِي العَساكِرُ والمنابِرُ إن بدَتْ ... ألفيْتَهُمْ فُرسانها وَرجالها
أوَلَيْسَ والدُكَ المنيفُ بصوْلَةٍ ... حَمِدَ الكماةُ دِفاَعها وصيَالَهَا[28]
خضَعَتْ رِقَابُ الكَافِرينَ لمُلْكِهِ ... فاللّهُ شاءَ بِعِزِّهِ إذْلاَلَها
وكفَى بمَوْلانَا الغني بربِهِ ... أسَدًا يُجَدِّلُ في الوَغَى أبطالَهَا[29]
كمْ أُسْرَةٍ لِلكُفْرِ شَدّ وَثاقها ... ومَعاقِلٍ لِلشّرْكِ حَلَّ عِقالَهَا
كمْ شيِّدتْ من مَعْقِل حتّى أتى ... فوهَى لهَا ما قدْ بَنَتْهُ وَهَالَهَا[30]
قَسَمًا بِقَومكَ في مَعَالِمِ مَكَّةٍ ... ما رُتْبَةٌ إلاّ وجَدُّكَ نَالَهَا
قيْسُ بْن سعْدٍ مَن عَلِمْتَ خِلاَلَهُ ... بالخَيْلِ خيْل الله جَاسَ خِلاَلَهَا
كانتْ بها العُزى تُنيفُ بِعِزّةٍ ... فأذَلَّهَا دينُ الهُدَى وأزالَهَا
والنَّصْرُ لِلأَنْصارِ والخَلَفِ الذي ... لَوْ شاءَ زُهْرَ سَمَائِهَا لَسَما لَهَا
كَم من جُمُوعٍ لِلضّلاَلِ وحِزبِهِ ... جاءتْ لِأمرٍ قاطِعٍ آجَالَهَا
ما أمّلتْ لو لمْ يكنْ لكَ إرْثُهَا ... إبْقاءَهَا لِمَدّى ولاَ إمْهالَهَا

(27) تجنيس آخر في قوله : أهوى لها، أهوالها.
(28) والد الممدوح هو يوسف الثاني ولد محمد الخامس.
(29) الغني بالله هو محمد الخامس أبرز ملوك بني نصر.
(30) تجنيس في قوله : وهى لها، وهالها.

فالنّصر يقْدُمُ إن أَردت لقاءَهـا   والسّعْـدُ يرمـي إن أبَيْتَ قِتَالَهـا
لِلّهِ نِيَّتُكَ التـي قـدْ أخْـلَصَتْ   لقَبُـول رَبكَ حـالها ومَآلَهـا - 13 -
أهْدَتْ لك الدنْيا تَبَاشيرَ السّنا   لتَنَـالَ في أُفْـقِ السَّنـاءِ مَنالَهـا
حيْثُ الأهِلَّةُ مَا ارْتقتْ واسْتشْرفَتْ   إلاَّ لِتُطلِـعَ بالمُنَـى إهْلالَهـا
وَبَنـو مَريـنٍ والتّجلّـةُ شأنُهـا   أبْدَتْ لـدَيْكَ وُفُودُهـا إجْلالَهـا
تبغي الهِدايَةَ مـنْ خليفَـةِ ربِّهـا   وترى القبُولَ أجلّ ما أهْدَى لَها
لـمْ يـدْرِ كُنْـهَ صِفاتِـهِ مُتَمَثِّـلٌ   منْهـا إذا ضربَت بـهِ أمْثالَهـا
هلْ بَدْرُ مَمْساَها وشَمْسُ صَبَاحِها   أمْ وجْهُـهُ مُسْتَقبـلٌ أرْسالَهَـا
أهْلا بهمْ من وافِديـن ركَابُهُـمْ   حَـطَّتْ بمَثْـواكَ الكَريـمِ رِحَالَهـا
قـد أقبلُـوا مُتَيَمِّنيـنَ بدَوْلَـةٍ   أحْزابَهـا نصَرَ الإلاهُ وآلَهَـا
وقد اقْتَفَوْا من وُدِّكَ النَّهْجَ الذي   نالَتْ عُدَاتُكَ منْ هُـداه ضلالَهـا
هذا وقدْ وافَـى صنيعُك لِلْـوَرَى   فمواهِبَ الصُّنْـعِ الجميـلِ أنَالَهـا
واسْتَقْبَلَتْهُ أوْجُـهُ البشْرَى التـي   بالبِشْرِ أبْدَتْ والـرّضَى آسْتِقْبالَهـا
فَغَدَتْ يمينُكَ فيـهِ ديمَةَ رَحْمَـةٍ   كُـلّ الوُجُـودِ يُؤَمّـل آسْتِهلالَهـا
هَيْهَاتَ يَظْمأُ وارِدٌ من بعْدِ مـا   أوردت كُـلّ مُؤمّـلٍ سَلسَالَهـا
لكَ حِكْمَةُ الوَهَّابِ سابقُ حُكْمِها   نَادَى بخَيْلِكَ أن تجُـولَ مَجالَهَـا
أعْرافُهـا فيهَـا لِمُلْـكِكَ آيَـةٌ   مَتْلُـوَّةٌ أنْ سَوّغتْ أنفَالَهـا(31)
لِلّـهِ منهَـا والذّوابِـلُ شُرَّعٌ   خيْلٌ تُـريكَ مـنَ النّجيع نِعالَهَـا
حَمَلتْ كُماةً لوْ أزَرْتَ جَميعَهـمْ   أرْض العُـداةِ لزُلْـزِلت زِلزَالَهـا

(31) يشير إلى الآية الكريمة الواردة في سورة الأعراف في حق الأنصار وهي قوله تعالى : «فالذينَ آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى في قصائد سابقة.

مِن كُلِّ أَرْوَعَ باسِلٍ يوْمَ الوَغى ... لَبِسَ العَجاجَةَ ساحِبًا أذْيالَها
قدْ أرسَلَ الغرَّ السَّوابِقَ لِلمَدَى ... والنّصْرُ يَقْدُمُ دائِمًا إرْسالَها
ثَبَتَتْ قَوائمُها به ولقَدْ مَحَتْ ... آجال أهْلِ الشِّرْكِ حِينَ أجَالَها
سَتَخِفُّ طَوْعًا نحْوَهمْ والأرضُ من ... أنفالِهِمْ قد أخرجت أثقالَها[32]
فترى الكتائِبَ لِلعِدَى أوْ فِي النَّدى ... إنْهادَها في اللّهِ أوْ إنْهالَها
هَذِي السَّبيكَةُ مَلْعَبُ الخيْلِ التي ... ألْقَتْ بأفئِدَةِ العُداةِ خَبالَها[33] - 14 -
إن جُرِّدتْ بيض السُّيوف لِغارةٍ ... لبِسَتْ من النَّقْعِ المثارِ جِلاَلَها
فإذا المَوَاكِبُ في مَداهَا اسْتَشْرفتْ ... مَا لِلْكَواكِبِ في السَّماءِ وما لَها
يا حُسْنَهُ حَطَبًا ويَا عَجَبًا إذا ... جالتْ بِهِ خيْلُ السَّباقِ مجَالَها
يُذْكِي قُلوبَ الحاسِدين مَشاعِلاً ... والنارُ ما أبْدَتْ بِهِ إشعَالَها
للهِ كَمْ صُوَرٍ بِهِ مَجْلُوَّةٍ ... كادَتْ تُحَقِّقُ في العيُونِ مثالَها
لَوْ أفْصحتْ أشكالُها بخِطابِها ... لِلْمُبْصرينَ لأوْضَحَتْ إشكالَها
يا مَلْجَأَ القُصَّادِ كَفُّكَ كُلَّما ... وكفَتْ غمائِمُها كَفَتْ أُمَّالَها
لِلخَطِّ والخَطِّيِّ فيها آيَةٌ ... مَهْما أرَتْكَ جِلادَها وجِدالَها
ولقَدْ فَرَعْتَ من الخِلاَفَة مَرْقَبًا ... أطْلَعْتَ فيه للعُيونِ هِلالَها
فَلْيَهْنِها لمَّا حَلَلتَ بأُفْقِها ... شَمْسُ اهْتِداءٍ لا نخاف زوَالَها
واهنأْ به إمْلاكَ عِزٍّ لمْ تزَلْ ... تبْغِي سعُودُكَ نَحْوَهُ إقبالَها
وليَهْنِ تالِيَكَ الذي أوْلَيْتَهُ ... من أنعُمٍ مَدَّتْ عليْهِ ظِلالَها[34]

---

(32) فيه اقتباس من الآية الكريمة : «وأخرجت الأرضُ أثقالها».

(33) السبيكة (أو مدرج السبيكة كما في الاحاطة) بسيط كان يقع جنوب شرقي الحمراء ويدل شعر ابن الخطيب وابن زمرك وابن فركون هنا على أن السبيكة كانت ملعبا للخيل وميدانا للفروسية في الاعياد والمناسبات ؛ وقد ذكرت في أشعار عديدة في الاحاطة وغيرها.

(34) يعني بتالي السلطان الممدوح أخاه معز الدولة أبا الحسن علي، فهو تالي أخيه في الرتبة والمكانة ولعلّه تاليه أيضا في السن والولادة.

حتّى تُجرِّدَ في رِضاكَ صِفاحَها ... يدُهُ وترْسِلَ في الوَغى آسالَها
لِلعبْدِ أيُّ مَدائِحٍ تُتْلَى فما ... يخْشَى تَناسِيَها ولاَ إغْفالَها
ولمُلْكِكَ الأعلى مَواهِبُ رَحْمَةٍ ... ومَكارِمٌ لا تَقْتَضي إهْمالَها
فلقَدْ كَفَفْتُ بها زمانًا راعَني ... بزمانَةٍ شرَعَتْ إلَيَّ نِصالَها
أوْلَيْتَني مالاً أقوم بشكرِهِ ... منْ أنعُمٍ أجْمَلْتَ لي إجْزالَها
وصَف العبِيدُ وقدْ عَطَفْتَ مُوكَّدًا ... أسْبابَ رفْدِكَ مانِعًا إبْدالَها
فإليْكَ من حُسْنِ الثّناءِ عَقيلَةً ... حلّ البيانُ إلى المَديحِ عِقالَها
جاءَتْ تُريكَ من النّظامِ لآلِئًا ... جيدَ اللّيالي طَوَّقَتْ مُنثالَها
جادَتْ حَدائِقَها غمائِمُ للنّدى ... لا تشْتَكِي من بَعْدِها إمْحالَها
ودَعَتْ قَوافيهَا مَدائِحَكَ التي ... فكْري لَدَيْكَ أطاعهَا وأطالَها
ولأنت خيْرُ مُؤمَّلٍ أصْغَى لَها ... وأقامَ مَائِلَ دَوْحِها وأقالَها
أعْظِمْ بدَوْلَتِكَ التي أنا ناظِمٌ ... أوْصافَها والكلُّ قدْ أصْغَى لَها
لأزلتَ يا شَرَفَ المُلوك مُخَلَّدًا ... فبِعِزِّ نصْرِكَ بُلِّغَتْ آمالَها
سألَتْ لكَ اللهَ البَريَّةُ كُلُّها ... طُول البَقاءِ وقدْ أجابَ سُؤالَها

وممّا صَدرَ عنّي وقد احْتَلَّ رِكَابُهُ العَلي بمَالقَة برسْم عَرْضِ جُنْدهَا
في شعبان من عام أحد عشر وثماني مائة وأمرَ أيَّده الله
بإراقةِ الخمُور وتغيير المنكر وإذاعَة أفعَال البر

بُدُورٌ بأُفْق المُلْكِ راقَ طُلُوعُها ... فمالقَةٌ قد أشرَقَتْ وَرُبُوعُها
إذا ابْتَسَمَتْ فيها الأزَاهِرُ لمْ تَزلْ ... لذلِكَ سحْبُ الأُفْقِ تهْمي دُموعُها
تحُل بِوادِيها الكبيرِ وفُودُها ... فيعْذُبُ فيه وِردُها وشرُوعُها[35]

(35) يقصد وادي مالقة الذي يسمى أيضا وادي رية، وقد اشتهر باسم وادي المدينة، وهي التسمية الباقية GUADALMEDINA. والكبير في قول الشاعر : بواديها الكبير، إنما هو نعت لا غير. وراجع ماورد في وصف هذا الوادي في المغرب لابن سعيد ج 1 ص 423 ط. 3.

وكَمْ حَلتِ الركْبانُ منها مَعاهِـدًا ... لِتُصبِـحَ والآمـالُ دانٍ شسُوعُهـا
فبُلّـغَ راجِيها وأُسْعِـفَ قصْدُهُ ... وأُمِّنَ مِن رَيْبِ الزَّمانِ جَزُوعُها
ومُذْ أمَّلتْ مَوْلَى الخلائفِ يُوسُفًا ... فهَلْ حادِثَاتُ الدهْرِ يُخْشَى وُقوعُها
ووافَت إلى المَيْزِ السَّعيدِ وُفودُها ... فَراقت على تِلكَ البِطاحِ جمُوعُها
وناصِرُ دينِ الله يطْلِعُ وجْهُهُ ... كَشَمْسِ الضحَى يُغْشِي العيُونَ طُلوعُها
وهلْ يكْتُمُ الشمْسَ المنيرةَ كاتِمٌ ... وأنوارُها في الخافِقَيْنِ تُشيعُها
بناصِرِ دينِ اللّهِ عزَّ جنابُها ... فمَن طائِعُ الأمْلاكِ أوْ من مُطِيعُها
أسَلْتَ دَمَ العُنْقودِ في اللّهِ مُظهِرًا ... لأفعالِ برٍّ في الوجودِ تذيعُها
لذلِكَ جادَ الغيْثُ منها أباطحًا ... بها زهرُ أزهارٍ جَلاهَا ربيعُها
لك الحُكْمُ فيمَا شِئْتَ غيْرُ مُدافَعٍ ... إذِ الأرضُ في كِلْتَا يديْك جَميعُها
وتاتِي بما تُبغِي سُعُودُكَ في العِدَى ... وقدْ ضَلَّ عاصيهَا وفازَ مُطيعُها
وتَتْرُكُ آثارُ الجيادِ مَحاربًا ... لها في الوَغَى يُبْدي السُّجودَ صَريعُها
بحيْثُ الحُسَامُ الصّلْتُ نهْرُ حديقةٍ ... يَروقُ عَلى شطّيْهِ وِرْدًا نَجيعُها - 16 -
تَرومُ عُداةُ الدّينِ عنْهُ فرارَها ... وأيْنَ لها عن مضْربيْهِ نُزوعُها
ومن كَبني نصْرٍ إذا شهِدوا الوَغَى ... لدَيْهِم من الأبطالِ يبدو خُضوعُها
فكمْ فئةٍ منهُمْ بإفْنائها العِدَى ... وبذْلِ النّدَى لِلْمعْتَفينَ وَلُوعُها
وفي دوْحَةِ الانْصارِ طابَتْ أصولُها ... وليْسَ عَجيبًا أن حَكتْها فُروعُها
كأنْ ببلادِ الكافرينَ بأسْرِها ... لِملكِ مليكِ العُدْوتيْنِ رُجُوعُها
وكمْ سابِحٍ يُرْبي عَلَى كلّ سانحٍ ... إذا ما ظِباءُ القَفْرِ يَبْدُو مَروعُها
فتحْنو على الأبطالِ حتّى كأنهُمْ ... لديْهِ قلوبٌ ضمّنتْها ضُلوعُها
مدائِحُكَ الأزهارُ طِيبًا فإن سَرَتْ ... نَواسِمُ أفكاري عليْها تُذِيعُها
وهَا هِيَ قدْ ذاعَتْ لَديْك وسائِلاً ... وحَاشاكَ يا مَوْلَى المُلوكِ تُضيعُها
أُجيلُ بمَيْدانِ البيَانِ قِداحَها ... فيَلتاحُ في الأوْصافِ منْك بديعُها

ومن لي بوَصْفِ البعْضِ منها وإنها ... ليَقْصُرُ عنْها لوْ أتاها بَديعُها[36]
أمَوْلايَ دُم لِلْمَكْرُمَاتِ تُنِيلُها ... ندًى ولِأحداثِ الزمانِ تُرُوعُهَا
ومَمْلوكُ نُعمَاكَ الكريمةِ كُلَّمَا ... تَعَرَّضَ للشكْوَى فأنتَ سَميعُها
عبيدُكَ يا مَولايَ مِثلي حَقيقَةً ... بعزّك حَاشَى أنْ يُرامَ خُضوعُها

وقلتُ أهَنّئُهُ بالقدُوم على حَضرته العليَّة من هذه الوِجْهَة المُبَارَكةِ في آخر شعبَان المذكُور

هَناءٌ كَعَرف الزَّهْرِ للمُتَنَسِّمِ ... وبُشْرَى كنورِ الزَّهرِ للمُتَوسّمِ
فقدْ قامَت الدنيَا على قدَمِ الرّضَى ... تهنِّيءُ مَوْلانا بأسْعَدِ مَقْدَمِ
وقد لَهِجَ الإسْلامُ حتّى كأنّهُ ... يُشيرُ لعُلْياهُ بكَفٍّ مُسَلِّمِ
وَرَقّ ثناءً كُلُّ لَفْظٍ مُمَنَّعٍ ... وَراقَ آنثِناءً كُل غُصْن منعَّمِ
لذلكَ عَرْفُ الروْضِ عنْها مُتَرجمٌ ... وترْجيعٌ شَدْوِ الطائِرِ المُترنِّمِ
لِمالقةٍ حقُّ التَّشَرُّفِ إذْ لَها ... بناصِرِ دِينِ اللّهِ فضْلُ التّقدمِ
ومُحْدَثُها جادَ الحيَا معْهَدًا لهُ ... وعهْدًا كريمًا فيهِ غيْرَ مُذَمَّمِ[37] - 17 -
فللهِ منهُ منزِلٌ جاءَ أفْقُهُ ... ببَدْرٍ من الوَجْهِ الكَريم مُتَمِّمِ
ولكنّ من شأن البُدورِ انتقالُها ... وما الكرُّ إلا للجَوادِ المُطَهَّمِ[38]
وغرْناطَةٌ للهِ منها مَعاهِدٌ ... تعيرُ الخَلِيّ القَلبِ وَجْدَ المُتَيَّمِ
وغرْناطَةٌ دارُ الخِلافةِ لمْ تَزَلْ ... مجالاً لأفراسِ الخميسِ العَرمرَمِ
أيُجْهَلُ في مِصْرٍ وشامٍ حديثُها ... وشمْسُ الضحَى ما نورُها بمُكتّمِ

---

(36) يقصد بديع الزمان الهمداني.

(37) المحدث اسم قصر بمالقة شاده الغني بالله محمد الخامس ؛ ولابن زمرك موشحة في وصف المحدث ؛ راجعها في أزهار الرياض 2 : 197 — 198.

(38) جواد مطهّم : تامّ الحسن.

لقد حل بالحَمراءِ هالَةَ مُلْكِهِ ... ولاَحَ بها بَدرًا يُحَفُّ بأنجُمِ

أيُنسبُ للبَدْرِ المُتَمّمِ نورهُ ... وقدْ يختفي في جَوِّهِ المُتغيمِ

أيُرْوَى عن الرّوْضِ الانيقِ ثناؤُهُ ... ومنهُ اسْتفادَ الزهْرُ طيبَ التّنسُّمِ

أتُعْزى إلى الغَيْثِ الملثّ يَمينهُ ... ومَاسَاجَلتْها في ندًى وتكرُّمِ[39]

ندَى يدِهِ العُلْيا غمَامٌ وسَيْفُهُ ... وَميضٌ بأُفْقِ للعَجاجَةِ مُظْلِمِ

كذلك سُحْبُ الغَيْثِ تهمِي دُمُوعُها ... إذا لاَحَ نورُ البارق المُتَبسِّمِ

إذا هو في يوْمِ الوغَى جَرَّدَ الظّبا ... غَدا الدّينُ في ثَوْبٍ من العِز مُعْلَمِ

وَإن نشَرَ الأعْلامَ حُمْرا خَوَافِقًا ... طَوَى كُلَّ ربْع للْعَدُوّ ومَعْلَمِ

أمَولايَ لا يُحْصِي مآثِرَك التي ... هيَ الشهْبُ تُسْتَجْلَى بنَانِي ولا فَمِي

وماذا يَنُصُّ العبْدُ منهَا وقدْ أتى ... ثَناؤكَ في نصٍّ من الذّكْر محْكَمِ[40]

وإنّ يَراعِي كالذوَابِلِ شُرَّعًا ... ولَفْظِي يمْضِي كالحُسَامِ المُصَمِّمِ

وما رَوّعتْ قلبي ٱلْحَوادثُ بعْدَما ... تقلّبْتُ في نعْماكَ يا خيرَ مُنْعِمِ

ولكنّنِي أخْشى مقالَةَ حاسِدٍ ... رَمانِيَ من زُورِ الكلاَمِ بأسْهُمِ

فرُحْماكَ في مملوكِ نعْمتِكَ التي ... أتى قاطِعًا أسْبابَها كُلّ مُجْرِمِ

فهَا أنا أرْجو أن تكُفَّ مَنِ اعْتَدَى ... وأبْسُط كَفَّ الآمِلِ المُتظلّمِ

ودونَكها من خِدْرِ فكْرِيَ غادَةً ... تُيَمِّمُ من مثْواكَ خيْرَ مُيَمَّمِ

وأهْدَيْتُها قِدمًا إلَيْكَ مَدائحًا ... كزَهْرٍ نضِيرٍ أو كَدُرٍّ مُنظّمِ - 18 -

ولمْ أكُ ذا جَهْلٍ بأن تملِكَ ٱلْوَرَى ... فقدْ كان مَولانا بِذلِكَ مُعْلِمِي

وأوْلَيْتَني النعْمى فَيا مَلِكَ الهُدَى ... بَدأتَ به صُنْعًا جميلاً فتَمّمِ

وَأوْرَيْتَني الوجْهَ الجميلَ ولمْ تُعِدْ ... فمن لي برُؤيَا بَعْدَها أوْ تكَلُّمِ

وما يُمْنَعُ المَمْلوكُ إن مُنِعَ اللّقا ... إذا يتمنّى أوْ يَرى بالتّوهُّمِ

(39) الغيث المِلِثّ : المداوم.

(40) يشير إلى آية الأعراف في حق الأنصار سلف الممدوح. راجع ما تقدم.

وقبل ذلك أمَرَ لي أيّدَهُ الله بتنفيذ الغزَاة بحضرتِهِ العليّة وَسائِرِ البلاد النّصْرية وأبْطأ الظهير الكريمُ بذلك في العلامة فقلتُ في مُنْتصَفِ رَبيعِ الآخرِ عام أحدَ عشر وثماني مائة(41)

مقَامُكَ للقصَّادِ كَهْفٌ ومَلْجأُ ... وللآمِلِ المحْتاجِ وِرْدٌ مهَنّأُ
وَجودُكَ بَحْرٌ لِلعُفاةِ فإنْ جَرَتْ ... بِهِمْ سُفُنُ الأطْماعِ بابُكَ مَرْفأُ
وَواللهِ ما أدْري ووَجْهُكَ لائِحٌ ... أنُورُ الضحَى أمْ نورُهُ يتلألأُ
إذا اسْتَفْتحَ المُدّاحُ يوْمًا كلاَمَهُمْ ... فكلٌ بما تُبدِي سُعُودُكَ يبْدأُ
ولاَحَتْ لدين اللهِ منكَ مخَايلٌ ... تَدُلُّ على النَّصْرِ العَزيز وتُنبىءُ
كَذلكَ سُحْبُ الأُفْقِ يُرْجَى آنسِكابُها ... إذا ما آسْتَنارَ البَارِقُ المُتَلألِىءُ
إذا لَمْ يَلُحْ بَدْر الدُّجُنَّةِ مُشْرِقًا ... فوجْهُكَ أهْدَى منهُ نورًا وأضْوأُ
وإنْ بخِلَ الغيْثُ المُلِثُّ بجودِهِ ... فجودُكَ آفاقَ البسيطَةِ يمْلأُ
فَلا قُطْرَ إلاَّ وهو يبْغيكَ مالِكًا ... ولا قَطْرَ إلاَّ عن سَحابِكَ ينْشأُ
فنورُ الهُدَى للمُجْتَلِي غيْرُ آفِلٍ ... ونارُ القِرَى للمُجْتَدي لَيْسَ تخْبأُ
إذا ذُكِرَ المَوْلَى الخليفَةُ يوسُفٌ ... به يختَمُ الذّكْرُ الجَميلُ ويُبْدَأُ
وحسْبُ مُجيدِ النّظمِ والنثرِ أنّهُ ... يُقَصّرُ فيما يسْتجيدُ ويُنْشِىءُ
لأنّ أبا الحجّاجِ مَولايَ حُجّةٌ ... إذا عُدِّدَ الأعْلاَمُ فهْوَ المبدأُ
إذا احْتفَلَتْ هَالاَتُ أُفْقٍ فإنّها ... لِمَجْلسِهِ منها المِهادُ المُوَطَّأُ
ومنْ ذا يبالي بالهَواجِرِ تلتَظِي ... ونائِلهُ يرْوي إذا هِيَ تُظْمِىءُ

(41) في التقديم ذكر لخُطّة تنفيذ الغزاة، وقد شرحتها في مقدمة الديوان، وفيه ذكر لكلمة الظّهير، وما تزال مستعملة عندنا وقد شاع استعمالها منذ عهد الموحدّين ؛ أما العلامة فهي التوقيع المصطلح عليه في دولة من الدول كعلامة «الحمد لله وحده» عند الموحدين وعلامة «وكتب في التاريخ» أو «وكتب في التاريخ المؤرخ به» عند المرينيين. راجع كتاب مستودع العلامة.

(42) وردت هذه القصيدة أيضا في «مظهر النور الباصر» من ص 185 إلى ص 188 وقد مهد لها فيه بقوله : «وقلت أمدحه أيده الله وخلّد ملكه».

يُنَادِي نَداهُ والظِّلالُ مُريحَةٌ ... ألاَ أوْرِدوا ما شِئْتُمُوا وتَهَنَّأوا - 19 -
ومنْ أنْحَلتْهُ صحَّ هذا بوَعْدِها ... فبالنَّاصِرِ المْوْلَى يصِحُّ ويَبْرَأُ[43]
تخُطُّ اليَدُ الغَرّاءُ منْها عَلامَةً ... يُقَبّلُها وهوَ الوَجيهُ المُهَنّأُ
هو المَلِكُ الأرْضَى الذي عَزماتُه ... بها كُلُّ قصْدٍ ناجحٍ يَتَهيَّأُ[44]
يَصولُ ومَشْحوذُ النِّصَالِ كأنَّها ... تَذُودُ عنِ الأرْجاء مَن يتَجرَّأُ
وبالسّعْدِ قبْلَ السّيْفِ إنْ شَهِدَ الوغَى ... يكُفُّ عن الدّين الحنيفِ ويدْرأُ
فَيرتاحُ فيها الرّمْحُ والروْعُ عابِسٌ ... ويخْطُبُ فيها السَّيْفُ والخَطْبُ يفْجَأُ
بهِ في ثبات العَزْمِ والحزْمِ يُقْتَدَى ... إذا تَخْفِقُ الرَّايَاتُ حينًا وتهْدأُ
مُجاهَدةُ الانْصارِ قامَ بعِبْئِها ... هُمامٌ بأمْلاكِ العِدَى ليْسَ يَعْبأُ
رأى المصْطَفَى من سَعْدِهِمْ أنّ نجْلَهُ ... بمَكَّةَ يغْني عن كثير ويجْزِىءُ[45]
كفَى بكِتابِ اللهِ مَدحا لأُسْرةٍ ... بطَيْبَةَ منهُم طابَ أصْلُ وَمنْشأُ
وإنّ كِتابَ اللّهِ جَلّ جَلاَلُهُ ... لهُ قوْلُ صِدْق من مُحالٍ مُبَرَّأُ
إذا الخَزْرَجُ الأعْلوْن عُدّدَ فضْلُهُم ... فمَن عامِرٌ أوَ مَن سُلَيْمٌ وَطيّىءُ
أمَولاَيَ لا ياتي بوَصفكَ شاعرٌ ... ولوْ أنهُ الطَّائِيُّ والمُتَنَبِّىءُ
وكيْفَ يَرومُ الحمدَ والمَدْحَ كاتِبٌ ... وذِكرُك يتْلَى في الكِتابِ ويُقْرَأُ
ولكِنَّ يا مَولايَ أمْرُكَ نافذٌ ... فَما بالُهُ في مطْلبِ العَبْدِ يُبْطِىءُ
إذا لمْ يُؤمِّلْ منْ جَنابِكَ مَلْجَأً ... إلى أيْنَ يامَوْلَى الخلائِفِ يَلْجأُ
ولمْ يجْنِ من روْضِ المُنَى زَهْرَ رِفْدِهِ ... فأيُّ ظِلالٍ للنّدَى يتَفيَّأُ
وسَهْمُ رَجائِي صائبٌ كُلَّما رَمَى ... بِهِ المَدْحُ فاعْجَبْ كيْفَ يَرْمي ويُخْطىءُ
نَوالك عَذْبٌ للوُرُودِ وكُلُّ مَنْ ... يؤَملهُ عنْ ورْدِهِ لاَ يُحَلأُ[45م]

(43) «صحّ هذا» هي علامة ملوك بني نصر، وتوجد في عددٍ من ظهائرهم الباقية.

(44) في الأصل : العظمي، والتصويب من «مظهر النور الباصر».

(45) يشير إلى مكانة قيس بن سعد بن عبادة عند رسول الله ﷺ.

(45م) لاَ يُحَلأُ : لا يطرَد ولا يمنع.

ومَـا راقَ منّي النظْـمُ إلاّ لأنـهُ ... ببَحْـر نَـوالٍ مـن يَميـنكَ لُؤلُـؤُ
بَقيتَ لديـن اللـه تـنصُرُ أهْلَـهُ ... وتحفَظُهُم من كلّ خطبٍ وتكْـلأُ

ولمّا وجّه إلَيَّ الظّهيرَ الكريمَ قلتُ أشكر نعمَتهُ في اليَوْمِ العِشرين من ربيع المذكور[46]

- 20 -

ألا يا مَشوقًا يمّمَ الرّبْعَ وَالْمَغْنَى ... هنيئًا فوجْهُ الحسْنِ حيّاكَ بالحسْنَى
عطفْت على سَلمَى الرّكابَ مُسَلّمًا ... فأهْدَتْ جَوابًا رائقَ اللفْظِ والمعْنَى
ويا طالَما صَدَّت ولمْ تَثْنِ مَعْطِفًا ... ولَذَّتْ وقد جاذَبْتُها غُصنًا لَدْنـا[47]
وَأمَّـا وقـدْ لاحَ المحَيَّا وحُسْنُـهُ ... فمِنْ طَلْعَةٍ تجْلَى ومِنْ دَوْحَةٍ تُجْنَى
وقِدْمًا سَرَيْنـا بالـرَّكائِبِ مَوْهِنًـا ... ونجْمُ الدُّجَى بالأفْقِ لمْ يعرِفِ الوَهْنا
تخُوضُ بنا بحْرَ السَّرابِ ظَعائِـنٌ ... فَلِلّهِ عيْنًا من رأى البحرَ والسُّفْنَا
ولمْ أنْسَ بالحَيِّ الحِلالِ وُقوفَهـا ... وسُكَّانُـهُ المعْنَـى فمالِـي ولِلمَغْنَـى
وهـل شَغَفِـي بالبَـانِ إلاّ لأنَّـهُ ... بِهِ شَبَهٌ مِمَّنْ كَلِفـتُ بها معْنَـى
هِيَ الظّبْيُ جيدًا والقَضِيبُ تَـأوُّدًا ... تَنْثِنِي مِلْكًا دُونَ شَرْطٍ ولا اسْتِثْنَا
بنَيِّـرِ مَرْآهَـا وحُسْنِ قَوامِهـا ... إذا ما تَبَدَّتْ تُخْجِلُ البَدْرَ والغُصْنَا
فَيا لَيْتَ منْها الطيْفُ قد زارَ في الدُّجَى ... ومن لي بِهِ والسُّهْدُ قد ألِفَ الجَفْنَا
أطارَ فُؤادِي الشّوْقُ بعْـدَ بِعَادِهـا ... فلَمْ يتخِذْ في الصّدْرِ وكْرًا ولا وَكْنَا
عَجِـبْتُ لها إذْ أتْلَفَتْـهُ بِبُعْدِهـا ... وما اتخَذَتْ لمَّا نأتْ غَيْرَهُ سُكْنَى
لَقَدْ عَذَرَتْني ثـمَّ ضَنّتْ بوَصْلِهـا ... وأعْجَبُ شَيءٍ عاذِرٌ بالمُنَى ضَنَّا

---

(46) توجد هذه القصيدة أيضا في «مظهر النور الباصر» من ص 188 إلى ص 191 وقدمها بقوله : «وقلْتُ في مدْحِهِ ـ أيده الله ـ وشُكْر نِعَمِه، وتَقْرير ما أسْدَى مِنْ مواهب كَرَمِه»
(47) في الأصل : ولذّت، والصواب : ولذّت، كما في مظهر النور الباصر.

وقد رَجمَ الواشِي ظنُونًا كَواذبًا   فمنْ عاذِرٍ قدْ ضنَّ أو عاذِلٍ ظنّا
وأبدَعُ شيءٍ طائِرُ الدوْحِ صادِحًا   يُذَكِّرُ بالمَغنَى ويُبْدِعُ إن غَنَّى
أذِنْتُ لهُ والسمعُ بابٌ لِسَجْعِهِ   فَثابَ ولمْ يعرِفْ حِجابًا ولا إذْنا
وطوِّق بالأنداءِ جيدًا كأنَّهُ   حَبَى يُوسُفًا مَوْلاَيَ بالمَدْحِ فاستَغْنَى
هوَ المَلِكُ الأعْلَى هو النّاصِرُ الذي   مَعالِي عَوالِيهِ مُؤسّسَةُ المَبْنَى
فَحَسْبُ ملُوكِ الغربِ والشّرقِ أنّهُ   يُؤمّلُه الأقْصَى من الخلْقِ والأدْنَى
إذا ما تَبَدَّى البَدْرُ نُورًا ورِفْعَةً   أرى قَدْرَهُ أسْمَى وطلعَتَهُ أسْنَى
تُيَسِّرُ يُسْراهُ لِسائِلِهِ المُنَى   وتَبْسُط يمْنَاهُ لآمِلِهِ الأمْنا - 21 -
فَيُرْدِي أعَادِيهِ ويُحْيِي عُفاتَهُ   بِمَكْرُمَةٍ قدْ سَنّ أوْ غارَةٍ شَنّا
حَبانيَ بالآمَالِ والمَالِ رِفْدُهُ   فأغْنَى وَعَنْ تسْآلِ مَنْ دونَهُ أغنَى
مَدائِحُهُ كانَتْ وَسائِلَ لِلْغِنَى   فَلِلّهِ ما أغْنَى ولِلّهِ ما أغْنَى
أمَوْلاَيَ قدْ بَلَّغْتَني كُلَّ مطْلَبٍ   بِفَيْضِ نَوالٍ جَوْدُهُ يُخْجِلُ المُزْنا
وَلمْ لاَ وقدْ وافتْ عَلاَمَتُكَ التي   لها الحسْنُ في شفْعِ الزّيادةِ بالحُسْنَى
وجُدت بما قد أمَّلَ العَبْدُ مُنعِمًا   فشكرًا بما أوْلَيْتَ من مقْصَدٍ أسْنَى
وشرّفْتَ عبْدًا قدْ أتاكَ مُسَلِّمًا   يَرى اليُمْنَ في تَقْبيلِ راحَتِكَ اليُمْنَى
نوَالكَ كافٍ كافِلٌ كلَّ سائِلٍ   لهُ في الورَى معْنًى تَناسَوْا بِهِ مَعْنا(48)
يمينًا بمنْ حَثّ الركَائِبَ في مِنًى   ومنْ حَجَّ بيت اللّهِ والحِجْرَ والرُّكْنا
ومنْ قدْ سَرى لَيْلاً لِتَكْليمِ رَبهِ   إلَى أن تَدَلَّى قابَ قوْسَيْن أو أدْنَى
لمَا ساجَل البَدْر المُنيرُ ولاَ الحَيَا   يَلوحُ ويَهْمِي منكَ حُسْنًا ولا مَنًّا
ودُونكهَا بالحمدِ راقَ جَمالُها   وبالمَدْحِ فاقتْ كُلَّ غانِيَةٍ حَسْنا
فأثنى عَلَيْكَ العَبْدُ بَدْءًا وَعوْدَةً   إلى أنْ ثَنَى صَرْفَ الزّمانِ بما أثْنَى

(48) معنا الثانية، يعنى بها معن بن زائدة، من أجواد العرب.

ولما وُلد لمولانا أيّده الله بكرُ أولادِهِ الذي اسْتأثر الله بهِ ثاني يوْمٍ من عقيقته وكان من بنت القائد المُعَظَّمِ المرحُوم أبي يزيد خالِد مؤلَى نعْمتِهم الكريمة في آخر محرم عام اثني عشر وثماني مائة ارْتجَلتُ بسَقيفَة الكتابِ سَاعة الإخبار به[49]

هَنيئًا بهِ مِنْ عاَلم الكَوْنِ وافـدَا ... وقدْ بلغَ الإسْلامُ فيه المقـاصِدَا[50]

فما زالَ رَبُّ العَرْشِ جَل جَلالُهُ ... يريكَ منَ الصُّنْعِ الجميلِ عَوائِـدَا

لَقَدْ سُلَّ في الأعْداءِ منْهُ مُشَهَّـرٌ ... تَـراهُ بسَيْـفِ اللّـهِ فيهِمْ مجَاهِـدَا

يُجَـدِّلُ عُبَّـادَ الصّلـيبِ مُؤَيَّـدًا ... ويعْمُـرُ لِلدّيـن الحنيـفِ مسَاجِـدَا

ويُرْسِلهَـا في القاصيديـن مَواهِبًـا ... فتعْمُـرُ منهُـنّ العُهُـودُ المَعَاهِـدَا

ونحْـنُ العَبيـدُ الكاتِبُـونَ جَميعُنَـا ... يُنَظِّـمُ فيـه مِـن حُـلاهُ فَرائِـدَا - 22 -

ونبْلـغُ مِـن أوْصافِـهِ كُـلَّ غايَـةٍ ... يجُوزُ بِها المَدْحُ المَدَى المُتَباعِدَا[51]

أمَا لِوَلـيّ العَهْـدِ غـرٌّ مَخائِـلٍ ... تُؤَمِّـنُ مُرْتَاعًـا وتُسْعِـفُ رَائِـدَا

أمـا لِوَلـيّ العَهْـدِ منكَ شَمائِـلٌ ... لها صِلة في الجُودِ تُعْقِبُ عائـدَا

بَشائِرُ ظِلِّ العِزّ تُضْفيهِ سَجْسَجًـا ... وتُصْفِـي لِـقصَّادِ النّـوَالِ مَـوارِدَا

بَقـيتَ لِأمْـلاكِ الزّمـانِ مُؤَمَّـلاً ... ومُتّعْتُمَـا بالمُـلْكِ نجْـلاً وَوَالِـدَا

---

(49) سقيفة الكتاب هي المبني الخاص لجلوسهم وكان في قصور بني الأحمر وبني مرين سقائف للكتاب والحراس وغيرهم.

(50) وردت القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر : 30 ــ 31.

وذكرها فيه بآخر ما قيل في هذه المناسبة وقدم لها بقوله : «وارتجل مملوك مولانا نصره الله أبو الحسين بن فركون كاتب هذا».

(51) يحوز كما في الأصل، وفي مظهر النور : يجوز، وكتب فوقها الشاعر بخط يده : ينال.

وأنشدتُ يوْمَ عقيقتِهِ السَّادِسَ لِصَفَر عام اثنْي عَشَر وثمَاني مائة[52]

قِف بالـرَّكائِبِ سَاعَـةً واستوقِــفِ ... تحْطَ الرِّكَابُ ضُحًى بأشْرَفِ مَوْقِفِ

وارْبَعْ بها دِمَنًا أَلِفْتُ بهَا الهَوَى ... أَكْرِمْ بها من مَرْبَعٍ أوْ مأْلَـفِ

رَاقت مَحَاسِنُهــا ورقّ نسيمُهـــا ... فالرَّوْضُ بيْـنَ مُـؤرَّجٍ ومُفَــوَّفِ

تَسْرِي الصّبا بِشذاهُ حين تُميلُـهُ ... فالـقُضْبُ بَيْـنَ تَعطُّـر وتَعَطُّــفِ

وافَى عَليـلُ نسيمِهـا ثـمّ انثنَــى ... والقلْبُ من أَلَمِ الصبَابَةِ يخْتَفِــي

لــولاَ النُّحُــولُ وإنَّـــهُ لمَزِيَّـــةٌ ... لمْ تَرْهَبِ الأَبطالُ حَدَّ المُرْهَـفِ

يا أهْلَ نجْدٍ هَل لنَا في حَيِّكمْ ... أو حُبّكمْ مِن مسْعِدٍ أوْ مُسْعِفِ[53]

فإلَـى مَعاهِدِكـمْ أطَـلتُ تَشَوُّقِــي ... وعلى عُهودِكُـمُ قَصَرتُ تَشَوُّفِــي

هَامَ الفُـؤادُ بِظَبْيَـةِ البَـانِ التـــي ... منهَا استَفاد البانُ لِيـنَ المَعْطِـفِ

لـمْ يَثْنِهـا قَـوْلُ الـوُشاةِ وإنمَـــا ... ريحُ الصبَا مَالَتْ بغصْنٍ أهْيَـفِ

وتَـبَسَّمَتْ بعَقِيقِهَـا عَــن لُؤْلُــؤٍ ... شَفَةٌ شفَتْ وجْدِي وإنْ لم تُرْشَفِ

ولطالَمـا أذكَتْ جَـوًى بجَوانِحِـي ... فَطَفِـقْتُ بيْـن تَلَـهّبٍ وتَلطُّـــفِ

دَعْ ما يَريبُ فإنَّني أصْبَحْتُ مِن ... رَيْبِ الحَوادثِ تحتَ ظِلٍّ أوْرَفِ

حَكمِي ابْنُ نصْرٍ ناصرُ الدّين الرضا ... إن لمْ يَكُنْ حُكْمُ الزّمانِ بمُنْصِفِ

حَسْبِي مِـن العَليـاءِ أنّي عبْـدُهُ ... وكَفَـى بـه شَرفًا بـذلكَ أكْتَفِـي - 23 -

وبِأنَّنِــي فِي القَــوْمِ أوّل ناظِــمٍ ... فيــه المَديـحَ تَرفّعِـي وتَشَرُّفِــي

إيـهٍ أعِـدْ ذِكْـر المَعاهِـدِ جادَهَــا ... عهْدُ الحَيَا مِن دمْعِيَ المُتوكِّـفِ

---

(52) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 59 إلى ص 64 وقد مهّد لها الشاعر هناك بقوله :

«وأنشد مملوك مولانا نصره الله كاتب هذا أبو الحسين ابن فركون»

(53) نجد هنا من معالم غرناطة التي تغنّى بها الشعراء مثل السبيكة وعين الدمع وغيرها.

وإذا رَوَيْتَ بها أحاديث الهَوَى فاصْرِفْ عِنانَ القَوْل أحْسَنَ مَصْرِفِ
خذْ عن فُؤادِي حين صدَّ بِهِ الجَوَى وجدًا يصِحُّ حديثُهُ عن مُدْنَفِ
والهَدْيَ عن شُهُبِ الدجَى عَنْ بَدرِهَا عن وجْهِ مولانا الخَليفَةِ يوسُفِ
لِلّهِ آثارٌ لهُ ومآثِرٌ لِلْمُقْتَدِي إن شئْتَ أوْ لِلْمُقتَفِي
كمْ رغبَةٍ أو رَهْبَةٍ في سَيْفِهِ أو سَيْبِهِ للمُعتدي والمُعْتَفِي
لمْ أدْرِ ما عَمَّ البَسيطَةَ هَلْ نَدَى كَفَّيْهِ أمْ صَوْبُ الغَمامِ الوُكَّفِ
مِصْرُ البِلاَدِ أفَاضَ في أرْجائِهَا نِيلَ الندَى وجَلا الجَمالَ اليُوسُفِي
وقْفٌ عليْهِ الجود يُرْسِلُ جَوْدَهُ فيعُمّ بيْنَ تَوَقُّفٍ وَتَوكّفِ
ولَقدْ تَناهَى للمَكارِمِ جمْعُهُ فلذاكَ عَنْ قصَّادِهِ لمْ تُصْرَفِ
رَفَّتْ ظِلاَلُ الأمْنِ وانعَطَفَتْ عَلَى وطَنِ الجهادِ برأفَةٍ وتعَطُّفِ
بِمُبَدّدٍ في الحَرْبِ كُلَّ مُبَدّلٍ ومُحَرِّمٍ إبْقاءَ كُلّ مُحَرِّفِ
تأتِي وفودُ الرُّومِ تخْطُبُ سَلْمَهُ فيكُفُّ كَفَّ القادِرِ المُتَعَفِّفِ
وَوَلِيُّهُمْ يخشَى فيُرْدِفُ رُسْلَهُ إرْسالَ جَيْشٍ بالمَلائِكِ مُرْدَفِ[54]
أعِدِ الجَوابَ بهَا عَلى ظمَإٍ لَهَا تنْقَعْ جَوَى المُتَشوِّقِ المُتَشَوِّفِ
واجْنَحْ إليْها منعِمًا مُتفضِّلاً لازِلْتَ أكْرَمَ واهِبٍ مُتَعَطِّفِ
يا ناصرَ الإسلامِ والمَلكَ الذي نالَ العُلاَ طَوْعًا بغَيْرِ تكَلُّفِ
أنْسَيْتَ أمْلاكَ الزّمانِ مَناقِبًا والشُهْبُ يخْفِيها الصَّباحُ فتَخْتَفِي
فإذا نَهَيْتَ الدّهرَ أذْعَنَ صاغِرًا وإذا أمَرْتَ النَّصْرَ لمْ يتوَقَّفِ
وإذا أجَلْتَ الخَيْلَ خلّفَتِ العِدَى صَرْعَى ونصْرُ اللّهِ لمْ يتَخَلَّفِ
وتَشُقُّ أنهَارُ الظُّبا رَوْضَ القَنَا عَجَبًا ونارُ حُرُوبها لا تنْطَفِي
يا أيُّها الملك الذي قصَّادُهُ ونَدَاهُ بيْنَ تَفَرُّقٍ وتألُّفِ - 24 -
بُشْرَى بأكْرَمِ وافِدٍ آباؤهُ قِدْمًا تَلاَفَوْا كُلَّ خطبٍ مُتْلِفِ

(54) من قوله تعالى : «فاستجاب لكم أني مُمِدُّكمْ بألفٍ من الملائكة مردفين».

واهنأْ بأسعدِ ناجمٍ أنوارُهُ ... يُجْلَى بها جنحُ الظّلامِ المُسْدِفِ[55]
تُنبي مَخائِلُهُ الكريمةُ أنّهُ ... للجُودِ يُنْجزُ كُلّ وعْدٍ مُخْلَفِ
تقْضي مَناسِبُهُ الشّريفَةُ أنّهُ ... بِسِوَى المَكارِمِ والعُلَى لمْ يَكْلَفِ
عُقِدَتْ لهُ زُهْرُ النُجومِ تَمائِمًا ... فتَشَرَّفَتْ قبْلَ الحسَامِ المَشْرَفِي
وقَفَت تُعيذُ من العُيون كمالَهُ ... فَكأنهنَّ نَواظِرٌ لمْ تُطْرِفِ
وافى فَهنَّأْنا إمامًا مُنْعِمًا ... لوْلاَهُ عارِفَةُ النّدَى لمْ تُعْرَفِ
ولَقدْ لِثمناهـا يَمينًا أمّنَتْ ... وطنًا مُناوِيهِ رَهينُ تَخَوُّفِ
وتهلّلتْ دارُ الخِلافَةِ عِندَما ... حيًّا بِهِ وجْهُ الزّمانِ المُسْعِفِ
وخوافقُ الأعْلامِ فيها قدْ حَكَتْ ... قلبَ العَدُوّ المُلحِدِ المُتَخَوِّفِ
تهْفُو على أُفُقِ الهُدَى عَذَباتُها ... مِثل الكريمِ يجُرُّ ذيْلَ المِطْرَفِ
واسْتَشْرفَتْ أوْطانُها لِوُرُودِهِ ... ولكَمْ بها لِعُلاهُ من مستَشْرِفِ
ولِرَاحتيْهِ ارْتاحَ شَوْقًا ما بِها ... طَوْعَ العُلَى من ذابِلٍ أوْ مُرْهَفِ
وانسَابَ نهْرُ الجُودِ في رَوْضِ المُنَى ... من تحْتِ ظلٍّ للأمانِ مُسَجَّفِ[56]
ومَنابِرُ الدّينِ الحنيفِ زهتْ بهِ ... زَهْوَ الخِلافَةِ بالامِامِ الأشرفِ
وأسِرَّةُ المُلْكِ العَزيزِ سُرُورُها ... قد هَزّ للاسْلامِ أكْرمَ مَعْطِفِ
وارْتاحَتْ الخيلُ السَّوابِقُ وانثَنَتْ ... تخْتالُ بيْنَ تشوُّفٍ وتَشَرُّفِ
ولَسَوْفَ تُتْلِعُ كُلَّ جِيدٍ مُشْرِفٍ ... في الرَّوْعِ يُرْدِي كُلَّ بَاغٍ مُسْرِفِ
ولسَوْفَ يُعْلمُ أنّ نصر اللّهِ قدْ ... حيّا بوَعدٍ منهُ غيْرَ مُسَوّفِ
فاسْعَدْ بهِ لازلتَ تمنَحُهُ الرِّضا ... وتُريهِ منْ سُبُلِ الهُدَى ما يَقْتَفِي
وإذا سَلِمْتَ فما أصيبَ بحادِثٍ ... جَلَلٍ ألَمَّ ولا بِحالِ تَأسُّفِ
أوَ ما وُجودُكَ لِلخلائِقِ عِصْمَةٌ ... تَقْضي لِشملِ وجُودِهِمْ بتألُّفِ - 25 -

(55) الظلام المسدف : الكثيف.

(56) مسجّف : مُستَتر.

أَوَ ما دوَامُكَ منْ عِدَاهُمْ جُنَّةٌ تكْفيهِـمُ وبهَـا المؤمّـلُ يَكْتَفِـي
أَوَ مـا سُعُـودُك في لِقاهُـمْ آيَـةٌ تَشْفِي وصَدْرُ الدّين مِنهُمْ يَشْتَفِي
مَـوْلاَيَ سَمعًـا لِامْتِـداحِكَ إنّنـي ولئن أطَلْتُ بِبَعْضِ وَصْفِك لَمْ أَفِ
إن اسْتِمـاعَكَ للمدائـحِ طالَمـا رَقّـى عبيـدَكَ لِلمحَـلّ الأشْرَفِ
أنـا غَـرْسُ نِعْمَتِكَ الـذي آدابُـهُ روْضٌ أزاهِرُ مَدْحِهِ لـمْ تُقْطَـفِ
صَدَفُ الطُّروسِ يَضُمُّ مِنْهُ جَواهِرًا أفْكارُهُ عـن نظمِها لـمْ تَصْدِفِ
مَوْلًـى وعبْـدٌ والنّظـامُ لآلِـىءٌ تَوِّجْ وَطَوِّقْ كيْفَ شِئْتَ وشَنِّفِ
لازِلْتَ للأمـلاكِ وِجْهَـةَ قصْدِهَـا فَجميعُهُمْ يُبْدِي اعْتِرافَ المُـنْصِفِ

وكانَتْ والِدَةُ هذَا المَوْلُودِ قَد تُوُفيتْ إثْرَ ولادَتِه ولحِقَ بها في سادِسِ صَفَر عام اثْني عشَر وثماني مائة فقلتُ للحِين مرْتجلا[57]

يمِينًا لَقَدْ جازَ الأَسَى منتَهى الحَدّ فيا لَيْتَ حُسْنَ الصبْرِ في مِثْلِهَا يُجْدي
مصابٌ به بانتْ من الدّهرِ عثْرةٌ وَضَلّتْ بِهِ الأيّامُ عن سَنَنِ الرُّشْدِ
هُوَ الدّهرُ مَنْ أضحَى عميدًا بغايَةٍ تُصِبْهُ اللّيالي دونَ ذاكَ على عمْدِ
وهل كان إلاّ النجْمَ أطْلَعَ نيِّـرًا ووَجْهُكَ صبْحٌ لاَحَ في أُفُقِ المَجْدِ
فلاَ تعْجبُوا لما بَـدا مـن غرُوبِـهِ أَيلتاحُ نجْمٌ والضُّحَى نورُهُ يَهْدِي
وكان كَما تهْوَى المَكارِمُ قدْ بَدَتْ مَخايِلُ من قَيْسٍ عليْهِ ومن سَعْدِ
وكانَ كما تَبْغِي الخلافَةُ قدْ غَدَتْ على وَجهِهِ سيمًا من الأبِ والجَدّ
وقدْ كان منهُ المُلك هزّ مُهَنَّدًا وشمّرَ منهُ النّصرُ عن سَاعِدِ الجِدّ
وهَل هُوَ إلا السّيْفُ جُرِّدَ لِلعَدَى فلمّا تمادَى سَلْمُها رُدَّ في غِمْـدِ

(57) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 70 إلى ص 71 ومهّد لها فيه بقوله : «وارتجل عند ذلك مملوك مولانا نصره الله أبو الحسين بن فركون» ويستفاد من أشعار الملك يوسف في رثاء ولده أن وفاته كانت يوم خميس.

وهلْ هُوَ إلاّ الرُّمْحَ أُشْرِعَ نَصْلُهُ   فقصَّدَهُ دَهْرٌ ثَنَاهُ عنِ القَصْدِ
وهلْ هُوَ إلاّ الطّرفُ أُرْسِلَ سَابقًا   إلى أمَدِ العَلْيَاءِ فارْتَاحَ لِلرَّدِّ[58]
وهلْ هُوَ إلاّ الغيْثُ أقلعَ إذْ سَقَى   مَعاهِدَنَا من أُفْقِهِ واكِفُ العَهْدِ - 26 -
ولمّا انقضَتْ غُرُّ الولائِم وانثنَتْ   وُفودُ النّدى تُثْني عَلى صَيِّبِ الرِّفْدِ
جَرَى قَدَرٌ فاسْتأثَرَ اللهُ رَبُّهُ   بِهِ وَخَلَتْ منْ بدرِهِ هالَةُ المَهْدِ
شِهَابٌ تَوارَى في الثّرى بعدَما بَدَا   مَلاَذًا لِمُسْتَجْدٍ وَنُورًا لمسْتَهْدِ
فما غابَ إلا بعْدَما نالتِ الهُدَى   ولا غاضَ إلاّ حينَ كَفّت عن الوِرْدِ
وما ضمّهُ بَطْنُ الضّريحِ وإنّما   تضَمَّنَ منْهُ جوْهَرًا صَدَفُ اللَّحْدِ
تَعَزَّ أميرَ المُسلمين فإنّنا   نَرى كُلّ شيْءٍ في الوُجُودِ إلى حدٍّ
تَأَسَّ أمير المسْلمين فإنّما   هو القدَرُ المحْتومُ جاءَ إلىٰ وَعْدِ
بأفْعالِكَ الغُرِّ الكريمةِ يُقْتَدَى   فجمْعُ المَعالي مِنكَ في العالَم الفَرْدِ[59]
فلازِلتَ من ريْبِ الحَوادِث آمِنًا   تَنالُ المُنى فيما تُعيدُ وما تُبْدي

وأنشدت في إمْلاكِه أيّده اللّهُ ونصَره ودخُوله ببنْتِ القائد
الوجيه أبي السُّرور مفرج مؤلى نعْمتِهِ الكريمة وقد استدعَى وُفودَ
أهْلِ البلاد النَّصْريّةِ لحُضُور هذه الوليمة بالرياض السعيد[60]

نسيمُ الصّبا راعَ الصَّبابةَ وفْدُهُ   فما للجَوَى طَيّ الجوانحِ وقْدُهُ
عليلٌ سَرَى يشْفِي الغلِيلَ بوافِدٍ   قدْ ابْتَلّ منْ دَمْعِ الغَمامَةِ بُرْدُهُ
يذَكِّرُ من تلكَ المَعاهِد حَلَّةً   سَقَى عَهْدَها من دمْعِ عيْني عَهْدُهُ
وحيًّا فأهْدَى المُسْتَهامَ تحِيَّةً   سَنا بارِقٍ في السُّحْبِ يُقْدَحُ زندُهُ

(58) الطِّرف : الفرس الكريم.
(59) في مظهر النور : وجمع المعالي.
(60) راجع ما كتبناه في المقدمة عن القائد مفرّج.

يُؤَجّجُ دَمْعَ العَيْـنِ نـارَ غَرامِـهِ … متَى ودّ أنْ يلْقى خليـلاً يَـوَدُّهُ
وَتبْلَى الليالِي في الهَـوَى وفُـؤادُهُ … جديـدٌ على مـرِّ الجَديدَيْـن وُدّهُ
فـلا منجِــدٌ إلا أَسَاهُ ودَمْعُــهُ … ولا مُسْعِـدٌ إلا جَـواهُ وسُهْـدُهُ
ومائلةِ الأعْطافِ لَمْ أَنْسَ عَهْدَهـا … بمَعْهَـدِ أُنْسٍ قـد تقـادَمَ عهْـدُهُ
على حُسْنِ مرْآها وقَفْتُ مَحَبّتـي … وإنْ جَدَّ بالقلْبِ المُتَيّـمِ وجْـدُهُ
وفوْقَ مُتُونِ الْعِيسِ رَكْبٌ حَدا بِهِمْ … إلَى المُلْتقى نَصُّ المَسيرِ ووَخْدُهُ(61)
يميلـونَ للذّكْـرى كـأنّ وُرُودَهَــا … نسيمٌ بِهِ مالَتْ من الدّوحِ مُلْدُهُ - 27
يَقُولون ما بـالُ المَطَايَا ضوامِـرًا … ولوْلاَ نحُول السّيْفِ مَا رَاعَ حَدُّهُ
وما ورْدُها عذبٌ إذا لمْ يَبِنْ لها … على كـثَبٍ بـانُ العُذَيْبِ ورَنْـدُهُ
وروْضٍ ترَى الآمالَ قدْ حُلّتِ الحُبَا … لَدَيْهِ وعَهْدُ الأُنْسِ أَحْكِمَ عَقْـدُهُ
كأنّ الرُّبَى والنّوْرُ فوقَ بِطاحِهـا … لآلِـىءُ في جيـدٍ تَناثَـرَ عِقْــدُهُ
كأنّ النسيمَ اعْتلّ فيها وقدْ أتَـى … رسُولاً فلمْ يمْكِن على البُعْدِ رَدُّهُ
كأنّ وميضَ البرْقِ يبْدُو حُسامُـهُ … دُجًى فيوَاريهِ من السّحْبِ غِمْدُهُ
كأنّ ضِياءَ الفَجْرِ سيْـفٌ مُشَهَّـرٌ … مَتـى ادَّرَعَ الليْـلُ البَهيـمُ يَقُـدُّهُ
كـأنّ نجومَ الأفْقِ جَيْشٌ مُجَـلّاً … تَواريـهِ في نَهْـرِ النّهــارِ وورْدُهُ
كـأنّ طلـوعَ البَـدْرِ عِنْـدَ تمَامِـهِ … مُحَيّا ابْنُ نصْرٍ والكَواكِبَ جُنْـدُهُ
كأنّ الضحَى وَجْهُ الخليفَةِ يُوسُفٍ … وما احْمرّ فيهِ من سَنَا الفَجْرِ بَنْدُهُ(62)
كـأنّ سَنَـا الأُفْـقِ المُـوَرَّدِ سَيْفُـهُ … وقد رَاقَ مِنْ تحْتِ النجيعِ فِرِنْدُهُ(63)
فَللهِ رَوْضٌ باكَـرَ الغيْثُ زَهْـرَهُ … وذاعَ بِهبّــاتِ النّــواسِمِ نــدُّهُ
تُحَيّا بـه الآفـاقُ لكِـنْ يفُوقُـهُ … ثنــاءُ أمير المسْلــمين وحَمْـــدُهُ

(61) النص : السَّيْر بأقصى سرعة، والوخد : السير بأوسع خطوة.
(62) البند : العلم الكبير، ويستفاد من البيت أن أعلام بني نصر كانت حمر الألوان.
(63) الفرند : وشي السيف وجوهره وحليته.

وللهِ زُهْرِ الأُفْقِ إذْ لاحَ نوُرُهـا   وأشرَق غـوْرُ الجـوِّ مِنها ونجْـدُهُ

ولَكنّها تخْفَى ونورُ الهُدَى الذي   يريه آبْنُ نصْرٍ ليْسَ يُمْكِنُ جحْدُهُ

فقـدْ راقَهـا منـهُ الكَمـال وقُرْبُـهُ   وقـدْ راعَهـا منـهُ المَنَـالُ وبُعْـدُهُ

ولِلـهِ مَولانـا الخليفَـةُ يُـوسُفٌ   إمـامَ هُـدًى عـمَّ البَريَّـةَ رِفْـدُهُ

تَـؤُمُّ عُفـاةُ الجُـودِ منـهُ مؤمَّـلاً   غَدا مُسْعِفًا قصْدَ المُؤمّـلِ قَصْدُهُ

جَـوادٌ جـوادٌ إنْ تُسُوبِقَ للنَّـدَى   فَيُعْجِزُ من يَبْغي مَدَى الجُودِ شَدُّهُ

فلـوْ أمّـن المامُـونَ فـازَتْ قِداحُـهُ   وأهْدَى الرّشيدَ الهَدْيَ وافاهُ رُشْدُهُ

إذا قِيسَتِ الأمْلاكُ بالنّاصِر الرضَى   فما يَسْتَوي هَزْلُ الكَلامِ وجِـدُّهُ - 28 -

وَكيْفَ يجَارى في مَدًى ملكٌ غدَتْ   مَلائِكَـةُ السَّبـعِ الطّبـاقِ تُمِـدُّهُ

فَيَنْهَدُ قبْـل الجَيْش للفتْـحِ عزْمُـهُ   ويَضْرِبُ قبْل السّيفِ في الحَرْبِ سَعْدُه

بطيْبَـة منْـهُ طـابَ أصْلٌ ومَـنشأٌ   وفي طَيْبَةٍ أعْظِمْ بمَا حاز جـدُّهُ[64]

فَفـي هـذه للفتْـحِ قُـدِّم قَـيْسُهُ   وآوَى رسُول الله في تِلْكَ سَعْدُهُ[65]

وَمنْ كانَ لِلصّحب الكِرامِ انتِسابهُ   فكيفَ يُضاهَى في الخلائِفِ مجْدُهُ

بهِمْ عزّ ديـنُ اللهِ لمَّـا أعدَّهُـمْ   لـنصْرِ الهُـدَى عدْنانُـهُ ومَعَـدُّهُ

لقد انجبوا منهُمْ خلائِفَ فارْتَقَتْ   إلى العِزّ مرْقًى لا يجَاوَزُ حـدُّهُ

فإنْ غـرُبَتْ منهُـمْ نجُـومُ هِدايَـة   فأنتَ هوَ البَدْرُ الذي طالَ رصْدُهُ

وإن غاضَ من جَدْواهُمُ نيلُ نائِلٍ   فنائِلُكَ البحْـرُ الـذي فـاضَ مَـدُّهُ

وإنْ دَرَجوا قد خلّفُوا منكَ ناصِرًا   غَدا الدّيـن للنّصْرِ العَزيـزِ يُعِـدُّهُ

لِيَعْلَـم أهْـلُ الشّرْكِ أنّكَ فيهِـمُ   تُجاهِدُ حتّى يُوهِنَ الكُفْرَ جَهْـدُهُ

وإنّ العُلَى منْ بَعدِهِم بكَ شُيّدتْ   مَعالِمُهـا والفتْـح أُنجِـزَ وَعْـدُهُ

---

(64) وفي طيبة، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : وفي مَكّةٍ، بدليل البيت بعده.

(65) الاشارة إلى ما كان من تقديم الرسول الكريم لقيس بن سعد بن عبادة إذ كان يحمل راية الانصار ويلي أموره، وفي صحيح البخاري أنّه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير.

وإنّ نُجُومَ الأفْقِ لَمْ يَخْبُ نورُهَا ... وإنْ سحابَ الجودِ ما عزّ وجْدُهُ
وإنَّ مَدَى العَلْيَاءِ لَمْ يكْبُ طِرْفُهُ ... وإنّ لِواءَ النصْرِ ما حُلَّ عَقْدُهُ
وإنّ قَناةَ العِزّ ما رُدَّ نصْلُها ... وإنَّ حُسامَ المُلْكِ ما فُلّ حدُّهُ
خلَفْتَهُمُ عِلْمًا وحِلمًا وعزْمةً ... حليفُكَ نصرُ اللّهِ فيها وعَضدُهُ
فلاَ أمَلٌ إلاّ تُسدّدُ سهْمَهُ ... ولا خَلَلٌ في الثغْرِ إلاّ تَسُدُّهُ
وما شَيَّدَ الإشْراكُ مَعْلَمَ دينِهِ ... وأغْلاهُ إلاّ والعَوالِي تهُدُّهُ
يَرومُ عدُوُّ الدّين في الدّين فُرْصَةً ... فَتمْنَعُهُ عنْ قَصْدِهِ وتصُدُّهُ
وكمْ واردٍ قدْ أمّ بابَكَ آمِلاً ... ليَحْظَى بجَدْواكَ المُهَنّإِ وِرْدهُ
فأنجَحَ مَسْعاهُ وأمّنَ سِرْبُهُ ... وفازَ مُعَلاَّهُ وبُلِّغَ قَصْدُهُ
ولِلّهِ إمْلاكٌ سَعيدٌ أقمْتَهُ ... مُلوكُ الورَى فيه القِيامَ تَوَدُّهُ
وقد طَلَعَتْ للسَّعْدِ فيه كَواكِبٌ ... تَحُلُّ حُباها حَيْثُ أحكِمَ عَقْدُهُ - 29 -
دعَوْتَ له أهْلَ الجهادِ فأهْطَعوا ... كَما زارَ بيْتَ اللّهِ للحَجِّ وفْدُهُ
ولله من أُفْقِ السّبيكَةِ ملْعَبٌ ... تُجارِي لَدَيْهِ مُرْسَلَ الرّيحِ جُرْدُهُ(66)
تَروقُ جيَادُ النّصْرِ فيه متَى ارْتَمَتْ ... إلى لعِبٍ فيه المَسيرَ تُجِدُّهُ
تجولُ كما شاءَ الكَمِيُّ فَيُجْتَلَى ... بإقْبالِهَا عكْسُ الغوى وطَرْدُهُ
وتُصْمِتُ عُجْبًا كُلَّ ذي لجَب إذا ... أغَارَتْ وغَابُ الحَرْبِ تزأرُ أُسْدُهُ
تَرى الصبْحَ يَتْلو حُمْرَةَ الفَجْرِ كُلَّما ... يُلاعِبُ منْها الأشْهَبَ اللوْن وَرْدُهُ
فَهُنِّئْتَهُ صُنْعًا جميلاً تشوَّفَتْ ... لهُ صِينُ معْمور البلادِ وهِندُهُ
أمَولاَيَ أمّا الوَصْفُ منْكَ فَمُعْجِزٌ ... ومنْ ذا الذي يحْصِي الحَصَى أوْ يعُدُّهُ
وعبْدُكَ يُلْقِي منهُ ما يَسْتَطيعُهُ ... فإحْصاؤُهُ يُعْيِي البلَيغَ وعَدُّهُ
فخذْ منْهُ ما يُنسِي اللآلِيءَ إذْ غَدَتْ ... نَسيئَتُهُ لا نَقْدَ فيها ونَقْدُهُ
يُؤمِّلُ من موْلاَيَ عادةَ صَفْحِهِ ... إذا حادَ عَن نهجِ الهِدايَةِ عبْدُهُ

(66) الجُرْد جمع أجرد وهو الفرس السبّاق.

وما تخلِق الأيامُ ثوْبَ مَآمِلِي   ونُعْماكَ يا مَوْلَى الورَى تَسْتَجِدُّهُ[67]
فَدُمْ وعَدُوُّ الدّين إنْ أمَّ مقْصَدًا   لِملْكِكَ رُجْعَى مُلْكِهِ ومَرَدُّهُ
فأفضَلُ ما يَرْجوُهُ كل مُوحِّدٍ   بَقاءُ المَقامِ اليُوسُفِيِّ وخُلْدُهُ

وَقُلْتُ أُهَنّيءُ مَقَامَهُ الكَريمَ ببنْتٍ وُلِدَتْ لهُ عَلى إثْر وفاةِ مؤْلودٍ وبتاريخ يوْم السَّبْتِ الثامِنِ لِرجَبَ عام اثني عشر وثماني مائة

هنيئًا هنيئًا إمامَ الهُدَى   وغوْث الوُجوُدِ وغيث النّدَى
وبُشْرَى بوافدةٍ قدْ أتَتْ   لَها شَرَفٌ حازَ أقصَى المَدَى
على إثْر مَن جَدّ في سَيْرِهِ   وحادِي المَنايا بِهِ قدْ حَدَا
ولَوْ كان يُفْدَى لكانَتْ لَهُ   نفُوسُ البَرَايَا جَميعًا فِدَا
لقَد طَلَعَتْ هذه عنْدَما   رأتْ سَيْفَهُ في الثّرَى أُغْمِدَا
وكانَ سَحابًا إذا يُرْتَجَى   وكانَ شِهابًا بهِ يهْتَدَى
فإنْ غابَ بَدْرُ الدّجَى مشْرقًا   فشمْسُ الضُّحَى نُورُها قدْ بَدَا
أنارَتْ ومِنْ شأْنِها أنّها   متَى طَلَعَتْ لمْ تَدعْ فرْقَدَا[68]
فأيْمِنْ وأسْعِدْ بها طَلْعَةً   وأعْظِمْ وأكْرِمْ بِهِ مَوْلِدَا
ويا ناصِرًا جاءَ يَطْوي الْفَلاَ   يُجِدُّ السُّرى طالبًا لِلْجَدا[69]
بمثْوَى إمامِ الهُدَى يُوسُفٍ   أنِخْ رَكْبَكَ المُتْهِمَ المُنْجِدَا
ويَمِّمْ عَلى ظَمإٍ بَابَهُ   تَجِدْ عندهُ الظِّلّ والمَوْرِدَا
فَما ذَلَّ مَن بعُلاهُ اعْتَلَى   ولا ضَلَّ منْ بهُداهُ اهْتَدَى
أما ناصِرُ الدّينِ مَنْ لَمْ يَزَلْ   يُنيلُ ٱلنَّدَى وَيُجِيبُ ٱلنِّدَا

---

(67) مآمِل جمع مأمول.

(68) هذا من قول النابغة : إذا طلعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكب.

(69) ويا ناصرًا، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : ويا قاصدًا.

أمـا نـاصِرُ الدِّيـنِ مـنْ كَفُّـهُ   حَيـاةُ العُفـاةِ وحَتْـفُ العِـدَى
من القَوْمِ قامُوا بنَصْرِ الـرسُولِ   قِيامًـا ولِـيِّ العِـدَى أقْعَـدَا
فكَـمْ وافـدٍ إذْ أتَـى حَيَّهُـمْ   على المُعْتَديـنَ بهِـمْ أيِّـدَا
ويُـوسُفُ مِـنْ بعْدِهـمْ قـدْ أتَـى   فَجـادَ وعَهْدَهُـمُ جَـدَّدَا
فكـمْ خَلَـلٍ سَدَّهُ في الثُّغـورِ   وسَهْـمٍ لِحَـرْبِ العِـدَى سَدَّدَا
وكَمْ مِنْ حِمًى قدْ حَماه وَكَـمْ   جِهـادٍ بـه نَـفْسَهُ أجْهَـدَا
وكـمْ مـن بِنـاءٍ بِتَشْيِيـدِهِ   أبـانَ مَعالِـمَ ديـنِ الهُـدَى
وأنت الـذي تُرْتَجَـى مُنْعِمًـا   يُجيـرُ إذا مَـا الزّمـانُ اعتَـدَى
فمـا ذلّـلَ الدّهْـرُ إلاَّ أعَـزَّ   ولاَ ضلَّـلَ الغَـيُّ إلاّ هَـدَى
سَيُعْطِـي ولِـيُّ العِـدَى راغِمًـا   زمامًـا لمَـا شِئتَ أوْ مِقْـوَدا(70)
مَتَـى قَصدَتـهُ الجِيَـادُ التـي   تُضَمّرهـا نـالتِ المَـقْصَدَا(71)
إذا مـا أغَـارَت عَلى خِيْفِـهِ   أغَارَ بهَا الخَـوْفُ أوْ أنْجَـدَا(72)
بِذِكْـرِكَ تَعْنُـو وُجـوهٌ غَـدَتْ   إلَـى ربِّهـا رُكّعًـا سُجَّـدَا
بِحُـبّكَ دَانت قلـوبُ الْـوَرى   فهَاهِـيَ جَمْـعٌ حَـوَتْ مُفْـرَدَا
ومَـدْحُكَ هَـامَتْ بتَـرْدادِهِ   فَكـلّ لِسانٍ بـه قـدْ شَدا - 31 -
فَهُنِّئْتَهـا كيـفَ تبْغـي العُلَـى   صَنائِـعَ أرْغَـمَتِ الـحُسَّدَا
ولازِلتَ تُحْيـي رُسومَ النّـدَى   كَمـا شِئتَـهُ ووُقِـيتَ الـرَّدَى
تُشيِّـدُ لِـي معْلَمًـا لِلْقَبـولِ   فَيغْـدُو لِسانِـي بِـهِ مُـنْشِدَا
سِواكَ عَلى الدّهْرِ إذْ جارَ لَـمْ   نَجِـدْهُ مُعينًـا وَلا مُنجِـدَا
لئـن مَطّـلَتْ بكَ أيّامُـهُ   فَقَد أنجَزَتْ مِنكَ لِي المَوْعِـدَا
وَدُمْتَ تُجـيبُ نِـداءَ العُفـاةِ   بمَا تَرتجي من جَزيـلِ النَّـدَى

(70) راجع ما كتبناه في المقدمة.
(71) يضمّرها : يعلفها.
(72) الخيف : عرين الأسد.

ولمّا احْتَل رِكابُهُ العَلِيّ بظاهر حِصْنِ المُتْلِين[73] برسْمِ البناء في الزيَادةِ بقِصَبَته وأمرَ أيّدهُ الله أهْلَ الحضرة بالوُصولِ إليهَا ادَالَةً وكنتُ قَد تخلّفتُ عنهُ لِعُذْرٍ فكتَبَ إلَيّ أيّده الله بخطّ يَده الكريمة من نظْمِهِ ما نصُّهُ في الثاني والعشرينَ لجمادى الآخرة عام اثني عشر وثماني مائة

إلَيْنـا إلَيْنَـا سَقَـتْك العِهَـادْ وخصّكَ مَوْلَى الـوَرى بالمُـرادْ
فمـنْ يكُ يجْمَـعُ شَمْـلَ ٱلْعُلَـى سَيَحْظَـى بـودّيَ دونَ العبَـادْ
ومن شاءَ نظمًا ومـن شاءَ نثـرًا فـأنتَ العميـدُ وأنت العِمـادْ[73م]
ألسْتَ الصَّديـقَ ألسْتَ الَولـيَّ زمـانَ عَـدَتْ عَن لِقانا الأعَـادْ
فكـمْ مـنْ خُطـوبٍ تَجَرَّعْتَهـا وغيْـرُكَ يُهْنـا بأسْمَـى مِهـادْ
يُحـاولُ منّـيَ إبْعادَكُـمْ ويأبَـى وفَائِـي لكـمْ والـوِدادْ
فَـدُونكَ أقبِـلْ فـإنّ القَبـولَ ضميـنٌ لكُـمْ باقْتِبـالِ الـرّشادْ[74]

فرحلتُ للحِين ونظمتُ الجَوابَ أثناءَ الطَّريقِ

أ يـا رحْمـة اللـهَ فَـوْقَ العِبـادْ ومَوْلَـى المُلُـوكِ وحَامـي البِـلاَدْ
لأمّـنْتَ أرْجاءَهـا نَـاصِرًا ببِيض السُّيوف وَسُمْـرِ الصِّعـادْ
ولِلـهِ ثَغـرٌ أقـامَتْ بِـهِ جُنـودُكَ بين الربَـى والوهـادْ
وشَيَّـدتَ مظْهَـرَهُ مُظْهِـرًا لِعِـزٍّ قَضَى ذُلَّ أهْـلِ العِنـادْ

(73) حصن المتلين، كذا في الأصل، والصواب : حصن المكلين. راجع ما ذكرناه في المقدمة، وقد ورد محرفا على الصورة المذكورة أيضا في نفح الطيب 4 : 518.

(73م) يمكن أن يقصد ابن العميد والعِماد الأصفهاني.

(74) لا توجد هذه القطعة من نظم الملك يوسف الثالث في ديوانه، وهي تدلّ على طبيعة العلاقة بين ابن فركون ومخدومه وعلى أنه كان من أنصاره وأوفيائه أثناء محنته.

أقَمْتَ شَعائِرَ دينِ الهُدَى ... لديْهِ وقُمْتَ بفرْضِ الجِهادْ - 32
تمُدُّ الكتائبَ في أرْضِهِ ... مَلائِكَةٌ فوْقَ سَبْعٍ شِدَادْ
إلى أن تُعيدَ ديارَ العِدَى ... مجالاً إلى الصَّافِناتِ الجِيادْ
ولمّا نأتْ بإمامِ الهُدَى ... رَكائِبُ أدْنتْ زَمانَ البِعادْ
وخَلَّفَ من عبْدِهِ مُغْرمًا ... مَديدَ الهُيامِ طَويلَ السُّهادْ
يَوَدُّ المَسيرَ وأجْفانُهُ ... تَهيمُ من الدّمْعِ في كلِّ وَادْ
وَلا غيث إلاّ الذي بالجُفُونِ ... ولا بَرْقَ إلا الذي بالفُؤادْ
وما خَلَّفوهُ ولكنّهُمْ ... رَمَوْهُ بأسْهُمِ لَفْظِ الآعادْ
فقوْمٌ يقولونَ لمْ يتْركوهُ ... سُدًى وتَحامَوْا طَريقَ السَّدادْ
وقوْمٌ أشاعُوا بأنّي هُجِرْتُ ... فأذكَوْا هَواجِرَ ذاتَ اتِّقادْ
أما علمُوا أنّني عبْدُ مَنْ ... تُعاهِدُني من نَداهُ عِهادْ[75]
وأنَّ إمامَ الوَرى لمْ يَزلْ ... يَزيدُ من العِزِ إذْ يُسْتَزادْ
فناصِرُ دينِ الهدَى ناصِري ... على رغمِ مَن جاءَ يبْغِي العِنادْ
مَعَاذ وسائِلنا أنْ تَخيبَ ... وحَاشَا لِعَنْقائنا أنْ تُصادْ
وإنّي حُبيتُ بتشْريفِهِ ... فِللعَبْدِ كمْ نِعمةٍ قدْ أفادْ
خِطابٌ أتَى من إمامِ الوَرَى ... فكانَ المُرادَ وكانَ المَرادْ[76]
وحَيًّا عَلى ظَمَإٍ غيْثُهُ ... فَجَدّ اشْتِيَاقِي لهُ حينَ جَادْ
فمِنْهُ بكفّيَ أمْضَى حُسامٍ ... وفي عاتِقِي منهُ أبهَى نِجادْ
ومَولايَ لمْ ينْسَ مَمْلوكَهُ ... عَلى البُعْدِ حَتَّى أبانَ الوِدادْ
ويا طَالَما جادَ لي مُنعِمًا ... وما بَدَأ الفَضْلَ إلاَّ أعَادْ
وللهِ ما نلتُه عنْدَمَا ... حَلَلْتُ لَدَيْهِ وَثِيرَ المِهَادْ

---

(75) العِهاد : المطر بعد المطر.

(76) المُراد بضم الميم المقصود، والمَراد بالفتح المرعى والموضع المستراد.

فَيَـا ساعَـةً لِلتَّلاَقِـي انـقضَتْ   أمَالَكَ يوْمًـا [لَنَـا] مِـن مَعـاَدْ
ويَـا زَمنًـا لِلـرِّضَى قـدْ مَضَى   لَعَـلَّكَ مِمَّـا مَضَى ثُـمَّ عـادْ
وسَوْفَ يُعِيـدُكَ بَحْـرُ آلنَّـدَى   وهَـادِي آلْـوَرَى لِسَبِيـلِ آلـرَّشادْ - 33 -
فَرُؤيَـةُ مـوْلاَيَ أقْصَى المُنَـى   وفيها المُـرادُ ونِعْـمَ المُـرادْ
فلَـيْتَ بهَـا جـادَ لِـي دائمًـا   فكَـمْ أمَـلٍ عِنْدَهـا مُسْتَفـادْ
سَأبْلُـغُ مَـا أرْتَجِـي إنَّنـي   عَلى غيْـر مَوْلاَيَ مالِـي آعْتِمـاَدْ

وَعَلِمتُ أنهُ أيده اللّهُ يَطلبُ منْظومًا في وصْفِ الحَالِ فنَظمْتُ لحِينِ وُصُولي لِلمَحَلَّةِ مَا نَصُّهُ(77)

عَسَى الطَّيْفُ في جِنحِ الدُّجَى إذْ يعودُهُ   يجَدِّدُ عهْـدًا لِلـرِّضَى وَيُعيـدُهُ
نَـرومُ إجتِماعًا بالخَيـالِ إذَا سَرَى   لِيَدْنُـو وإنْ شَطَّ المَـزارُ بَعيـدُهُ
عجبْتُ لهُ إذ لا يُلِمُّ بِمَضْجِعِي   وجَمْرُ الجَوى يُذْكَى بقَلبي وَقُودُهُ
بنارِ فُؤادِي في الظـلاَمِ اهْتِـداؤُهُ   وفي أدْمُعِ الأجْفانِ منّـي وُرُودُهُ
دَعُوا أدْمُعِي تهْمِي متَى بَخِلَ الحَيَا   وأخْلَـفَ ربعًـا للحَبـيبِ تجُـودُهُ
ألاَ بأبِـي تِـلْكَ المعاهِـدُ إذْ بها   لنا عهْدُ أُنسٍ قدْ تقضَّى حَميدُهُ
عَلى أنّ ربْعَ الصَّبْرِ بعْدَكَ قدْ عَفَا   تَهائِمُـهُ قـد أقفَـرتْ ونُجـودُهُ
رحَلتُ عن الأوْطانِ فالدّمْعُ لم تَجُدْ   مَعَاهـدَ ذاكَ الأنسِ إلا عُهُـودهُ
رَماني زماني مِنكَ بالبُعْدِ عامـدًا   وأيُّ حَبيبٍ ليْسَ يَشْقَـى عَميـدُهُ
ومنْ عادَةِ الأيَّامِ أن تمْنَعَ المُنَى   وان تمْنَحَ الشَيْءَ الذي لا نُرِيدُهُ
ولكِـنَّ مولانـا الخَليفَـةَ يُوسُفًـا   يَزيـدُكَ عِـزًّا كُلمـا تسْتَزيـدُهُ
وَلا سِيَّمَـا مِثلِـي فَمَـوْلاَيَ كَفُّـهُ   لجـودٍ وأفْكـارِي لمَدْحٍ تُجيـدُهُ

(77) المحلة في اصطلاح الاندلسيين والمغاربة هي الجيش الذي يخرج مع السلطان أو يوجهه إلى جهة من الجهات، وهذا من تسمية الحالّ باسم المحل.

فيا ناصرَ الإِسْلامِ والمِلِكَ الـذي ... يعُـمُّ نَـداهُ القاصِديـن وَجـودُهُ
كأنْ بوَلّي الكُفْر قد خابَ سَعْيُهُ ... وقُـدّتْ هوادِيـهِ وقِيـدَ شَرُودُهُ
بكَ اسْتَنصرَ الدينُ الحَنيفُ فأصْبَحَتْ ... تُجَـدِّدُ عَهْـدًا بالجِهـادِ جنُـودهُ
ولا مثْلَ مبْنًى مُعْجِبٍ قدْ وضَعْتَهُ ... يُقَـرِّبُ آمـالَ المَـرُوعِ بعِيـدُهُ
وباشرْتَ بالنّفسِ الكَريمَةِ أمْـرَهُ ... وذلِكَ فخْرٌ ليْسَ يَبْلَى جدِيـدهُ
يَرومُ وَلِيُّ النّظمِ والنّثْرِ وصْفَـهُ ... فَيَعجِـزُ عنـهُ سجْعُـهُ وقصِيـدُهُ - 34 -
تـبَسَّمَ ثغـرُ الثَّغْـرِ عنْـهُ مسَرّةً ... بمَظهَـرِ عـزٍّ منـهُ عَـزَّ وُجـودُهُ
وَلاَحَ بأعْـلاَهُ شِهابًـا لمُهْتَـدٍ ... تُقابِل بَـدرَ الأفْـقِ منكَ سُعـودُهُ
إذا مَا عَدُوُّ الدِّينِ جاسَ خِلالَـهُ ... ورامَ استِراقَ السَّمْعِ كُفَّ مَريدُهُ
كحسْناءَ تستَجْلِي العُيُونُ جمالَهـا ... فتُبْدِيءُ معْنَـى حُسْنِهـا وتُعيـدُهُ
وقد أوْمأتْ بالكَفِّ تَدْعُو ضَراعَةً ... لِمُلكِكَ أن يُفْنِي العُـداةَ خلُـودُهُ
لدَى جَبَلٍ بالشُّهْبِ نِيطَتْ هِضابُهُ ... فصافَحَتِ الكَفَّ الخضيبَ نُجودُهُ(78)
أشمَّ بَعيـدَ الصِّيتِ بَـادٍ وقـارُهُ ... ومُرْتاحَـةٌ أعْلامُـهُ وبُنُـودُهُ
تَمُـرُّ بـهِ هُـوجَ الرِّيـاحِ فَتَنثَنِـي ... وقدْ سَدَّ مَسْراهَا الرّفيعَ صُعُـودُهُ
تَـرُومُ سُمُـوًّا فوْقَـهُ وهْيَ دُونَـهُ ... فَتَـقْصُرُ عمّـا تَشتَهـي وتُريـدُهُ
دَعوْتَ لَهُ أهْلَ الجِهـادِ فاهْطَعُـوا ... كما زارَتِ البيْتَ العَتيـقَ وُفـودُهُ
ودارَتْ حَواليْـهِ الجُنـودُ كأنّهـا ... وِشاحٌ عَلَى خَصْرٍ يَروقُ فَريـدُهُ(79)
تَحُلُّ كأسْرابِ القَطَا منهُ مـورِدًا ... يَطيبُ بِجَدْوَى راحَتَـيْكَ وُرُودُهُ
بمشْرَعـهِ ارْتـاحَتْ عوَالِيكَ شُرَّعًـا ... تَـرُدُّ العَـدُوَّ المعْتَـدي وتَـذودُهُ
فما هُوَ مَعْنًى حَلَّ مَغْناهُ أهْلُـهُ ... ولكنَّـهُ غِيـلٌ حَمتْـهُ أُسُودُهُ

---

(78) الكف الخضيب : تطلق على نجم معين.

(79) فريده : جوهرُهُ ودُرّه.

وِدُونكَ يـا مَـوْلايَ منها لآلِئًـا ... فَنظِمِي عِقْدٌ صَفْحَةُ ٱلطِّرْسِ جيدهُ
وأنتَ الذي مازِلتَ للدّين نـاصِرًا ... ومُلْـكُكَ أمْـلاكُ الزّمـانِ عَبيــدُهُ

وقبْلَ وُصُولِ هَذِهِ إلى يَده الكَرِيمَةِ وقد وجَّهتها إليْهِ وَصَلَتْنِي بَراءَةٌ بخطِّ يَدهِ الكَرِيمَةِ تأمُرُنِي فيهاَ بوَصْفِ المبْنَى وذِكْر معْدِنِ البَارودِ الذي عُثِرَ عليْهِ بالمَوْضِعِ وَوافَقَ ذلِكَ سَاعَةَ رُكُوبهِ إلَى الصَّيْدِ فتَلَقيتُه عندَ رجُوعِي بِمَا نصُّهُ[80]

هِيَ الهَضْبَةُ الشَّمَّاءُ بـادٍ وَقارُهَـا ... تَحامَـى حِماهَـا ليلُهـا ونَهارُهـا
لقَدْ أخَذَتْ مِنْ حادِثِ الدّهْرِ حِذْرَها ... إلَـى مَالـهُ يـوْمَ الجَزاءِ انتِظارُهَـا
فلمْ يَرْمِهـا مَـرُّ الجديدَيْـنِ بالبِلَـى ... ولاَ راعَها مِثْـلَ البُـدورِ سِرارُهـا - 35 -
سِوَى أن بَدَتْ منهَا الهضابُ مَفارقًا ... بِبِنْيَتِهـا البَـيْضاءِ شابَ عِذارُهـا
ومَوْلَى المُلوكِ البرُّ يوسفٌ الـذي ... لهُ راحَةٌ بالجُـودِ مـاجَتْ بحارُهـا
تَـواضَعَ لِلّـهِ العَظيـمِ بوَضْعِهـا ... تُصافِحُ عُلْـوِيَّ الـدَّرارِيّ دارُهَـا
عَلَـى البِـر والتقـوَى أقامَ بِناءَهَـا ... فقَـرَّ عَلَـى رَغْـمِ العُـداةِ قَرارُهـا
وأسَّسَ مَبْناهَـا بكَـفٍّ كَريمَــةٍ ... سَحَـابُ نَداهَـا لِلعُفـاةِ انهِمَارُهـا
وقد حَجَرَ الأعْداءَ عَن ربْعِهَا الذي ... تَناقَـلُ بالأيْـدي لدَيْـه حِجارُهـا
تروقُ عَلى الرَّاحاتِ حُسْنا كـأنها ... كُـؤوسُ مُـدَامٍ بالأكُـفِّ مَدَارُهـا
ودارَتْ بهَا دوْرَ السّوارِ كَتـائِبٌ ... بناصِرِ ديـنِ اللّـهِ فيهَـا انتصارُهَـا
كَتائِب عِزٍّ إن أغارَتْ وانجَـدَتْ ... تُغيـرُ فَيُـرْدِي بالعُـداةِ اغْتِرَارُهـا
لَقَدْ فَرَعَتْ نَحْرَ الكتائِبِ وارْتَقتْ ... وان عَـزَّ مَرْمَاهَـا وَشَطَّ مَزارُهَـا
فَعُدّتْ مِنِ الشُّهْبِ الثَّواقبِ عندَما ... أنارَتْ لَدَى جِنْحِ الدُّجُنّةِ نارُهـا

(80) في هذا التقديم كلمة البراءة ومعناها عندنا البطاقة والرسالة.

حَمَيْتَ حِمَاهَا كالضُّبارِمِ والظُّبا ... مُشَهَّرةٌ في الخافِقَيْن اشْتِهارُها[81]

وقدْ نِلْتَ بالإنْفاقِ بِرًّا وَرِفْعَةً ... فكمْ بِدَرٍ نحْوَ الأكُفِّ بِدارُها

وَجالَتْ بِهَا خدَّامُ مُلْكِكَ جَوْلَةً ... فَبانَ عَلَى الصُّنْعِ الجميلِ اقْتدارُهَا

تطوفُ بهَا لِلأمْنِ واليُمْنِ كَعْبَةً ... فِللرُّكْنِ منْها حجُّها واعْتِمارُهَا

وتَرْمِي بأعْلاَهَا الحجارةَ آخِرًا ... كأنَّ وفُودَ الحَجِّ تُرْمَى جِمارُهَا

وفي معْدِنِ البَارُودِ أعْظَمُ آيةٍ ... بدَتْ فالنُّهَى فيها يَطولُ اعْتِبارُها[82]

نَصبْتَ بِهَا لِلنَّفْطِ أبراجَها التِي ... يُضاهِي بُرُوجَ النَّيِّراتِ جِدارُهَا

فكيَّفَ منهُ اللهُ للحَرْبِ عُدَّةً ... ففي القَفْرِ منه ما إليْهِ افْتِقارُها

وقابَلَها المَبْنَى الرَّفيعُ مُجاوِرًا ... لهَا إذْ بِمَوْلَى الخَلْقِ عزّ جُوارُها

يُرِيكَ لدَى الظَّلْمَاءِ غُرَّةَ أدْهَمٍ ... بِهَا غرَّةُ الأعداءِ فُلَّ غِرارُها

عَمرْتَ به ثَغْرًا كأنْ بعُداتِهِ ... وقد أقفَرتْ أوْطانُها وَدِيارُها - 36 -

تسُلُّ عليْهَا سَيْفَ عَزْمِكَ إذْ لَهَا ... بهِ حالَتاها قَتْلُها أو إسارُهَا

أقمْتَهمَا كالفرْقدَيْن لذاك قد ... بَدَا منْ شَياطِينِ الضّلالِ نفارُها[83]

ودُونَكَ يا مَولايَ منْها عُجالَةً ... تَبيَّنَ لِلتَّقْصيرِ فيها اعْتِذارُها

عَلى أنَّ أفْكاري بوَصْفِكَ لا تَفِي ... فَسِيَّانِ فيهِ طُولُها واختِصارُها

---

(81) الضّبارم : الأسد المجتمع الخَلْق المُوَثّق التكوين.

(82) في هذا البيت، وما بعده، ما يدلّ على معرفة حقيقة البارود، واستعمال الأنفاض، وثمة بعض النصوص التي تشير إلى توصل بني مرين أيضًا إلى هذا، غير أن المسيحيين في الأندلس طوّروا هذا السلاح وكان من أسباب غلبتهم.

(83) نِفارُها كذا في المتن، وفي الطرّة : فِرارها.

وقلْتُ أُهَنِّىءُ مَقامَهُ الكَرِيمَ بالهَدِيَّة المُشْتَمِلَةِ عَلى الخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَسِوَى ذلِكَ منْ عَجائِبِ إفْرِيقْيَةَ الواصِلَةِ منْ قبَلِ السُّلْطان بها أبي فارِسَ عبْدِ العَزيز الحَفْصِي[84]

سَلْ بالغَميمِ معاهِدًا لَمْ أنسَها ... اتعيدُ أيَّامُ التَّواصُلِ أُنْسَها[85]
أبْدَتْ لديْكَ مِن المَعَاطِفِ مُلْدَها ... أهْدَتْ إليْكَ مِن المَراشِفِ لُعْسَها
عَهْدِي بهَا وزَمانُنا مُتكَفِّلٌ ... بِشَوارِدِ الآمالِ يُدنِي شُمْسَها
نامَتْ عيُون الحَادثاتِ ونحْنُ في ... دَعَةٍ وصرْفُ الدَّهْرِ عنَّا قَدْسَها
باتَتْ جوانِحُنا إليْها نُزَّعًا ... لاَ منْ جميلِ الصَّبْرِ تنزِعُ لُبْسَها
لمْ يُشْجِهَا الطَّيْفُ المُلِمُّ وإنَّمَا ... زارَ الخبالُ مع الخَيالِ فمَسَّهَا
فَقلوبُنَا لوْلاَ التعلُّلُ بالمُنَى ... لأحَلَّها طُولُ التسَوُّف رَمْسَها
ونفُوسُنا لولاَ الخَليفَةُ يُوسُفٌ ... لاَسْتَشْعَرَتْ فيمَا تُؤمِّلُ يأْسَهَا
لِلّه سابقةٌ لهَا أنِسَتْ بِهَا ... مَوْلَى الخلائِفِ يُوسُفٌ لمْ يَنْسَها
فلكَمْ جَلوْتُ لديْهِ غُرَّ فَرائِدٍ ... ضَمَّنتُ أزهَارَ الحَديقَةِ طِرسَهَا
مَلكٌ صَلاَةُ صِلاَتِهِ وَخِلالُهُ ... شمسٌ تُزيلُ عن النّواظِرِ لَبْسَها
حزْمٌ وإقْدامٌ وعزْمٌ في تُقًى ... في جود كَف قدْ أقامَتْ خمْسَها
إنَّ الخِلافَةَ إذْ رأتْهُ وَلِيَّها ... وَهَبَتْ لهُ شَرْعًا وَطبْعًا نفْسَها
كَفَّ العُداةَ فلمْ تُرَوِّعْ سِرْبَها ... وكَفَى الخُطوبَ فَلمْ تُكَوِّرْ شَمْسَهَا

---

(84) إفرقية كما رسمت في الأصل أو افريقية هي المغرب الأدنى أو تونس، وأبو فارس عبد العزيز الحفصي ولي من سنة 796 هـ إلى وفاته سنة 837 هـ انظر أخباره في الحلل السندسية 2 : 185 — 193 وقد كان بينه وبين يوسف الثالث تحالف على بني مرين، ويبدو أن الخيل التي زعم الشاعر أنهاستغير على الروم وجهت في الغالب مع المسمى بالسّعيد لإثارة الفتن في المغرب، فقد ذكر ابن حجر في إنباء الغمر أن ابا فارس المذكور كاتب ابن الأحمر بان يفرج عن «السعيد» ويوجّهه إلى المغرب لمحاربة ملكه أبي سعيد عثمان. إنباء الغمر 6 : 237.

(85) الغميم : وادٍ بين الحرمين على مرحلتين من مكة.

مَوْلاَيَ هلْ في الخافقِيْنِ كَيوسُفٍ — مَولًى يُشَرِّفُ مِصْرَها أوْ قُدْسَها - 37 -

لوْ لُحْتَ للأمْلاكِ قِدْمًا لمْ يَسُدْ — كِسْرَى وقَيْصَرُ رُومَها أوْ فُرْسَها

أيّ الخلائفِ دَوْلَةً ما فُقْتَها — أوْ أيُّ أشَرفِ حُلَّةٍ لمْ تُكْسَها

هذا ومُلْكُكَ في هَدِيَّةِ تونُسٍ — لَكَ يَوْمُها في العِزِّ يُنسي أمْسَها

هي دوْلةٌ حفصِيَّةٌ بِكَ حَقَّقَتْ — مَظنُونَها فيما رَجَتْهُ وحَدْسَها

شادَتْ مَعالِمَ قد أقمتَ على الرِّضَى — وَعلى المُوالاَتِ الجَميلةِ أُسَّها

لوْلا آنتسابُ خيولِها نُسِبَتْ إلَى — هوجِ الرِّياحِ 'ولمْ تخالِفْ جِنْسَها

تختالُ زَهْوًا في أعِنَّةِ سَيْرِها — مثْل النّدَامَى قدْ أدارت كأْسَها

لِتحُلّ حَضرةَ ناصِرِ الدِّين الذِي — بِحُلَى عُلاهُ اللّهُ شَرَّفَ قُدْسَها

أضْفَى عَلَيْها الحُسْنُ حُلّتَهُ التي — لمْ تسْتَطِعْ أيْدي التَّناوُلِ لَمْسَها

فإذا أحَسَّ الرُّومُ منها غارَةً — كادَتْ مُلوكُهُمُ تُفارِقُ حِسَّهَا

لَلْخزْرَجِيِّينَ الأُلى لكَ نِسْبَةٌ — طاوِلْ بها ذُبْيانَها أوْ عَبْسَها

وإلَيْكَها عَذْراءَ راقَ جمالُها — بالطِّرْسِ قدْ لَفّتْ حَياءً رأْسَها

وَافَتْ فَما راعَ الوَسائِلَ ردُّها — كَلاَّ ولاَ الأثْمانُ تخْشَى بَخْسَها

لَمْ تُصْمِتِ الأيَّامُ ألسُنَ فِكْرَتي — إلاَّ وأنصَفَتِ المَواهِبُ خُرْسَها

لَمَّا انثَنَتْ تُثْنِي عَلَيكَ عَقائِلي — سَحْبانُها خجَلاً ثَنَتْهُ وقُسَّها

كُلُّ المَقاصِدِ منك ها أنا أرْتَجِي — إسْعافَها ان رامَ دَهْرٌ عَكْسَها

أنا غرْسُ أنعُمِكَ التي عَمّتْ وَمن — زَهْرِ المَدائِحِ فيكَ تَجْنِي غَرْسَها

وقبْلَ هَذِهِ المَنْظوماتِ اسْتَدْعَانِي أيّدَهُ اللّهُ إلى بَيْنَ يديه وهي أوَّل مرّة شافَهَني بالحديثِ وأمَرَني بنَظم قصيدة أوَطِّىء تخلصَها عَلى البَيْتَين اللتَيْنِ ينسَبُ التَشْطيرُ منهُما لِلسُّلطان أبِي العبّاس صاحب المَغرب فقلتُها في ذلك اليَوْم وأمَر لي إذ ذاك بمَحْبَرَة رائقة الصّنْعة فَضمّنتُ وصْفَها فيها وبتاريخ الرّابعِ والعشرينَ لربيع الثاني عام اثنْي عَشَر وثماني مائة [86]

- 38 -

ما للمدامعِ فَوْقَ الخدِّ تنسَكبُ ... وما لِقَلبِي بنارِ الوَجْدِ يَلتَهبُ
فلا تَسَل عنْ فُؤادٍ حَلَّ ساحَتَهُ ... جَمْرُ الجَوَى عِنْدَما بانَتْ بها النُّجُبُ
يالَيْتَ شِعْرِيَ والأيّامُ مُسْعِدَةٌ ... والبُعْدُ يُعْقِبُها منْ حَيِّها كَثَبُ
ورُبَّ لائِمَةٍ تُلقي المَلامَ عَلَى ... حُبِّ التي وَدُّها طَبْعٌ ومُكْتَسَبُ
قالَتْ لِما هِمْتَ منْ بعْدِ السُّلوِّ بها ... فقلتُ كُلُّ فَتًى قدْ هَزَّهُ الطَّرَبُ
قالتْ تَمتَّعْ ببِدْعٍ من محاسِنها ... فقلتُ قدْ سُدِلَتْ من دونِها الحُجُبُ
قالتْ أتخفَى عنِ الأبصارِ بهْجَتُها ... فقلتُ هيْهاتَ نوُرُ الشَّمْسِ يحْتَجِبُ
قالتْ فما تتمَنَّى بعْد رُؤْيَتِها ... فقلتُ لمْ يَبْقَ لِي في غيْرِها أرَبُ
قالَتْ لما أنتَ بالأوْصافِ ذو كَلَفٍ ... فقلْتُ وَصْفُ حُلاَها للرِّضَى سَبَبُ
قالَتْ فَراسِل إذا عَزَّ اللّقاءُ وَصِفْ ... فقُلْتُ ليْسَ تَفِي الأقْلامُ والكتُبُ
قالتْ فمالَكَ إلاّ الطّيْفُ تَرْقُبُهُ ... فقلتُ مَن لي به والنّوْمُ مُسْتَلَبُ
عَهْدِي بِها وَرياضُ الأنسِ يجْمَعُنا ... والدَّهْرُ طَلْقُ المُحَيَّا شأنه عَجَبُ
واللّيْلُ يُلْحِفُنا أسْتارَهُ وَبِهِ ... من عَسْكَرِ الشهْبِ جَمْعٌ ليْسَ يُنْتَهَبُ

(86) اللتين كذا في الأصل، والصواب اللذين وأبو العبّاس صاحب المغرب هو السلطان المريني أحمد بن أبي سالم وكان شاعرًا مجيدًا. ترجمته في جذوة الاقتباس : 1 : 112 — 114 ط. دار المنصور وروضه النسرين : 34 — 38.
والاستقصا 4 : 61 — 69 — 73 —79

أقُولُ والبَرْقُ يحْكِي في مطالِعِـهِ   خفّاقَ قلْبٍ إذا جَنّ الدُّجَى يجِبُ :
يـا بارِقًـا بأعالِـي الرَّقْمَتَيْـنِ بَــدَا   في سُدْفَةِ اللّيلَةِ الظلْما لَهُ لَـهَبُ
أَرَدتَ تحكي ثغورًا راقَ مَبْسِمُهـا   لَقَدْ حَكَيْتَ ولكِنْ فاتكَ الشّنَبُ[87]
وجِئْتَ بالبشرِ من وَجه الخَليفة إذْ   يُعْطِي ولكنَّ أَيْـنَ العِلْـمُ والأدبُ
ورُمْتَ تحكي جيادَ العِـزِّ مُرْسَلَـةً   لكنَّ أين الشِّيَاتُ الغُرُّ والـنَّسَبُ
وكِدْتَ تُشْبِهُ سَيْفَ النّصرِ مُنْصَلِتًا   لكنَّ أَيْـنَ مَضاءُ الحَـدِّ والشُّطَبُ
إنْ هَزَّهُ يوسُفُ الأمْلاكِ يوْمَ وَغًى   تهابُـهُ ثُـمَّ تَرْجـوهُ إذا يَـهَبُ
فَيـوسُفٌ مَـلِكُ الدُّنْيـا وبَهْجَتُهَـا   وناصِرُ الدّين مهْمَـا راعَـهُ رَهَبُ
مَن كابْن نَصْرٍ إذا عدّ الملوكُ بها   مَوْلًى لصحْبِ رَسول اللهِ ينتَسِبُ
آبـاؤُهُ النَّفَـرُ الغُـرُّ الذيـنَ لَهُـمْ   مآثِـرٌ عَظَّمَتْهـا العجْـمُ والعَـرَبُ - 39 -
هَذِي الكتائِبُ تُزْهَى والكِتابُ بِهِمْ   في اللّهِ ما كَتَّبوا في اللهِ ما كَتَبُوا[88]
فأَيْنَ مُسْتَنْصِرُ الأمْلاكِ منْهُ نَـدًى   وسَيْفُ دولَتِهِمْ تُزْهَى بِهِ حَـلَبُ[89]
لِعَبْـدِهِ الـرّاغِبِ الرَّاجـي برُؤْيَتِـهِ   فَوْق السّحَابِ ذيُولَ الفخْر تنسَحِبُ
كلَّمتَ عبْدَكَ يَا مَوْلَى المُلوكِ فمَا   بالنَّظمِ والنَّثْر وفّى بَعضَ ما يجِبُ
إذا رأَيْتُ مُحيَّـاكَ الكَرِيـمَ فقَـدْ   بلغْتُ ما كنتُ أرْجو وانْتَهَى الطّلب

---

(87) ورد تشطير السلطان المريني في ديوان يوسف الثالث كما يلي :
(يـا بارقـا بأعـالي الرقمـتين بـدا)   للّحـظ في سدفـة الظلمـا لـه لهب
كم رمت باللمع أن تحكي الثغور سنًا   (لقد حكيت ولكـن فـاتك الشّنَبُ)
قال يوسف الثالث :
فعارضنا القصد الذي قصده، بأن ارتجلنا اصلاحًا لما أورده :
(يـا بارقـاً بأعـالي الرقمـتين بـدا)   في مفرق الليـل مـن لألائـه لهب
اردت تحكـي ثغـورًا راق مبسمهـا   (لقد حكيت ولكـن فـاتك الشّنَبُ)
ديوان ملك غرناطة : 5 (الطبعة المصرية الثانية)

(88) كتّب الكتائب : جيّش الجيوش

(89) المستنصر لقب أبي العباس المريني، وقد تطاول الشاعر على مقامه تقرّبا إلى ملكه، وفي قوله : وسيف دولتهم إلخ تورية واضحة.

وإنّ أيسَرَ لحْظٍ منكَ يُقْنِعُنـي ... دون العِنايَة عِندِي المالُ والنّشَبُ

هذا ولمْ يَكْفِ ما أوْلَيْتَ من نِعِمٍ ... ومن مَكارِمَ تأتي دُونَها السُّحُبُ

حَتَّى وهَبْتَ التي أضْحَتْ مَلابِسُها ... يُروقُ منهُ اللّجَيْنُ البحْتُ والذّهَبُ

وَهَبْتَها فَذّةً صَفْراءَ قدْ جُلِيَتْ ... كأنَها بَعْضُ ما تَرْمِي به الشُّهُبُ

لا تعْجَبوا إنْ بَدا كالنّجْمِ ظاهِرُهَا ... فإنَّ باطِنَها لِلّيْلِ يَنْتَسِبُ

دَارَ الجُمانُ بأعْلاها يَرُوقُ سَنًا ... كأنّما هي كأسٌ فوْقَها حَبَبُ

إنْ أخفَتِ ٱلحِبْرَ رَهْنَ الصَّدْرَ تَحْجُبُهُ ... لا تعْجَبُوا فَسوادُ القلْبِ محْتَجَبُ

إذا اليَرَاعَةُ جالتْ عِنْدَها فَعَلتْ ... ما ليْسَ تفْعَلُهُ الهِندِيَّةُ القُضُبُ

مَولايَ هذا الذي قدْ كنتُ آمُلُهُ ... هَذا الزّمانُ الذي مازِلْتُ أرْتَقِبُ

لازِلتَ يا مَلِكَ الإسْلامِ في دَعَةٍ ... ومن عُلاكَ جميل الصُّنْعِ مُرْتَقَبُ

ولِثاني يوْمٍ منْ هَذا وجّهَ إليّ كُسْوَةَ حَرير فقُلْتُ أشكُرُ نِعْمَتَهُ

ثَناؤُكَ ما هَبَّ للنّاسِمِ ... ضُحًى أمْ شَذَى الزّهَرِ الباسِمِ

ومَدْحُكَ ما قَدْ بَدا بالطُّرُوسِ ... أمِ الدُّرُّ في راحَةِ النّاظِمِ

وهَدْيُكَ ما قَدْ بَدا لِلوَرَى ... دُجًى أمْ سَنَا الكَوكبِ العاتِمِ

وعزْمك ما قد بدَا في الأمورِ ... لنا أم شَبا صفحَةِ الصَّارِمِ

وَجودُكَ ما قدْ هَمَى جَوْدُهُ ... أمِ السُّحْبُ في غَيْثِها السَّاجِمِ - 40 -

فإنّ أحاديثَ بذْلِ النّدى ... لمَرويَّةٌ عنْكَ عنْ حاتِمِ

كتائبُ جودِكَ أرْسَلْتَها ... لَدَى عَبْدِكَ الكاتِبِ النّاظِمِ

مَلابِسُ رِفْدِكَ لمّا أتَتْ ... كَلِفْتُ بها كَلَفَ الهائِمِ

إذا اللّوْنُ أشرَقَ منْ ثَوْبِها ... حَكَى الورْدَ في رَوْضِهِ النّاعِمِ

وفيها الذي حُسْنُ الوانِهِ ... كَزَهْرِ الربَى الرَّائقِ البَاسِمِ

قَدِمْتُ عَلى مدْحِ مَوْلَى الـوَرَى فهيِّـــأ لي تُحْفَـــةَ القَـــادِمِ
أَلَــذّ مــن المَــاءِ بَعْــدَ الصَّدَى وأحْلَـى مـنَ الطَّيْـفِ لِلْحالِـمِ
فأوْرَدتنـــي لِلمُنَـــى سَلْسَلاً يُـرَوِّي ظَمـا غُلَّـةِ الحَائِـمِ[90]
وجَـاهُكَ مـازالَ سَيْفًـا بِكَفِّـي ولـيْسَ لـهُ الدَّهْـرَ مـن ثالِـمِ
يَكُـفُّ الخُطُـوبَ وهَـل غيْـرُهُ لِجَمْـعِ الحوادِثِ مـن هـازِمِ
ألاَ يـا إمَامَ الهُـدَى هَـل يُـرَى سِواكَ عَلَى الدّهْـرِ مـنْ حاكِـمِ
إمَـامٍ مُـوالٍ لبَـذْلِ النَّـدَى وعـالٍ بديـن الهُـدَى عَالِـمِ
جَـوادٍ إذا سُئِـلَ الرِّفْـدُ منـهُ لــهُ شِيمَـةُ المُشْفِـقِ الرّاحِـمِ
ويَوْمَ الوَغَـى سَيْفُـهُ في العِـدَى لــهُ سُطْـوَةُ الظَّافِـرِ الغانِـمِ
وإنِّـي أتـيْتُ فَقَبّـلْتُ منْـهُ يَمينًـا هِـيَ اليُمْـنُ لِلاَّثِـمِ
بِمَـدْحِكَ شُرِّفْتُ بَيْـنَ الـوَرَى عَلَـى رغْـمِ كل امْـرِىءٍ راغِـمِ
أقَـرَّتْ بِـفَضْلِكَ أمْلاكُهَـا وهَـلْ لِسَنَـا الشمْسِ مـنْ كاتِـمِ
فـدُمْتَ وَدَهْـرُكَ مـا إن يُـرَى لِفِعْـلِ نَـوالِكَ بالجَـازِمِ

ولمّا أجْلَسَني أيّدهُ اللّهُ بقُبَّةِ مَشْوَرِهِ السَّعِيد بيْنَ يَدَيْهِ وأوّلُ يَوْمٍ جَلسْتُ فيِهِ يوْمُ عيدِ الفِطْرِ منْ عامِ اثْنَي عَشَر وثمانِـي مائَـة قُـلْتُ أشكـرُ نِعْمتَـهُ وأمْدَحُـهُ أدامَ اللّـهُ أيّامَـهُ[91]

ألا ليْتَ شِعْرِي أيَّ نُعْماكَ أشكُرُ وأيَّ جَزيـل مـنْ عَطاياكَ أذْكُـرُ - 41 -

(90) الحائم : العطشان.

(91) المَشْوَر : مصطلح مغربي يطلق في أصله على المكان الذي يجلس فيه الملك للشورى وتسيير أمور الدولة، وما يزال يطلق على ساحة القصر الملكي حيث يحضر رجال الدولة، ويجتمع الناس لرؤية الملك في الأعياد والمناسبات، وقبة المشور هي القاعة المخصّصة لِلا ستقبالات، وقد وردت الكلمة في نصوص أخرى من العهد المريني والنصري.

لأَوْلِيتَنِي النعْمَى التي جَلّ قدْرُهـا وأمّنتَنـي مِمّـا أخـافُ وأحْـذَرُ
ومنْ أمّلِ المَوْلَى الخليفة يُوسُفًا فـلاَ مَـقْصَدٌ يَنـأى ولاَ يَتَعَـذَّرُ
ومِثْلِي مَمْلُوكُ ابْـنِ نَصْرٍ حَقيقَـةً عَلَى كُلِّ مَن ناواهُ في الدَّهْرِ يُنْصَرُ
كَفَفْتُ بكَ الأيَّامَ عنْ أن تُضيمَني فجاهُكَ في كَفِّي حُسامٌ مُشَهَّـرُ
وَبَلَّغْتَنِي القَصْدَ الذي كُنْتُ آمِـلاً ومِثْلُكَ منْ يولي الجميـلَ ويَقْـدِرُ
وأحْللتَني منْ حَضْرَة المُلْكِ منْـزلاً بـهِ راقَ لِلدنيا ولِلدِّيـنِ مَظْهَـرُ
لَـدَى قبّـةٍ غَـرّاءَ عَـزّ مَكانُهـا بمُلـكِكَ منها راقَ خُبْرٌ ومَخْبَـرُ
يَلـوحُ سَريـرُ المُـلْكِ فيها كَهالَـةٍ بها مِـنكَ فَيّـاضُ الأشِعَّـةِ نَيِّـرُ
تحُفُّ بها من جُنْدِ نصْرِك أنجُمٌ ووَجْـهُكَ وَضّاحُ الأسِرةِ مُقْمِـرُ
وتَرتـاحُ قضبٌ لِلقـواضِبِ عِنْدهـا فهـا هـيَ رَوْضٌ بالغَمائِـمِ مُزْهِـرُ
لكَ المُلْكُ أضحى تُبّعٌ تابعًا لـهُ وقصَّرَ عنهُ في مَدَى الجُودِ قَيْصَرُ[92]
مُحَيّاكَ عنْهُ مَطلِعُ الصّبْـحِ مُشْرِقٌ وكفُّكَ فيها عارِضُ الجودِ مُمْطِـرُ
ومهْمَا أفادَ الرَّوْضُ بالعَرفِ والجَنى فمدْحُكَ أو كفّاكَ أعْطَى وأعْطَرُ
وان راقَ مَرْأى الشمْس نورًا ورفْعَةً فَمَـرْآكَ أوْ مَرقـاكَ أبْهَـى وأبْهَـرُ
بِمَولاَيَ قدْ نِلتُ المَكارِمَ والعُلَى فأصبـحْتُ في أثوابهـا أتبخـتَـرُ
هُوَ النّاصِرُ المَوْلَى الذي جُودُ كَفِّهِ منَ الغَيْثِ أندَى أوْ منَ الشمْسِ أشْهَرُ
إمـامٌ هُمـامٌ خـاشِعٌ مُتَبَتِّـلٌ أغَرُّ وَهوبٌ واضِحُ البِشْرِ أزهَـرُ
يُطاوِلُ أمْلاكَ الزّمـانِ إذا انتَمـى قَبيـلٌ إلى صَحْبِ النَّبيّ ومَـعْشَرُ
وفي حَرْبِهِ يَرْتـاحُ سَيْـفٌ وذابِـلٌ وفي سَلمِه يُزهَـى سَريـرٌ ومِنْبَـرُ[93]
ويُطْلِعُ منـهُ الوَجْـهُ أزْهَرَ باسِمًـا ولِلأُفْـقِ وجْـهٌ بالعجاجَـةِ أغْبَـرُ
سَيعْمُـرُ بالتّوحيـدِ كـلَّ ثَنِيَّـةٍ ورَبْعُ العِدَى من آهلِ الشّرْكِ مُقْفِرُ

(92) تبع لقب لملوك اليمن وقيصر لقب لملوك الروم.

(93) الذابل من القنا هو الرقيق.

أَمَولاَيَ أمّا الوَصْفُ منكَ فمُعْجزٌ   فسِيَّانِ فيهِ مُطْنِبٌ أوْ مُقَصِّرٌ
لسانِيَ عنْ شكْرِ الذي نِلْتُ قاصِرٌ   نعَمْ بَاذِلُ المَجْهودِ في الشكْرِ يُعْذَرُ - 42 -
ومالِيَ الاّ أن أرى الدّهْرَ مادِحًا   أنمِّقُ أوْصافَ العُلَى وأُحَبِّرُ
فلا زِلتَ لِلدّين الحَنيفِيِّ ناصِرًا   بلادُ العِدَى تُطْوَى وبَندُكَ يُنْشَرُ

وقلتُ وقد وجّهَ إلي أبياتًا من نظْمِهِ أيّدهُ الله علَى هذا الرّويِّ والعَروضِ وإذا وَقَعَتْ لليَد تثْبَتُ علَى وجْهِ التّشْريف إنْ شاءَ الله في عشِي يَوْم الخميس الثامن لِربيع الآخِر عام أحَدَ عَشَر وثمَاني مائة(94)

بَدْرٌ بقُبَّتِكَ الغَرّاءِ مَطْلعُهُ   تبارَكَ اللّهُ مُبْديهِ ومُطْلِعُهُ
حَمْراؤُها هالَةٌ تَبْدُو أشِعَّتُها   لأُفْقِها مُرْقَبٌ بالعِزِّ تَفْرَعُهُ
فأنتَ يا مَلكَ الاسْلامِ ناصِرُهُ   من كُلّ حادِثَة في الدهْرِ تَمْنَعُهُ
وأنتَ فوْقَ المُلوكِ الصِّيدِ منزلةً   وتحْتَ طوْعِكَ مُلكُ الأرْضِ أجْمَعُهُ
فإن دَجَا لَيْلُ رَوْعٍ أنتَ مَلجَأُهُ   وان تفاقَمَ أمْرٌ أنتَ مَفْزَعُهُ
لِلجُودِ تَمنَحُهُ لِلدّينِ تمْنَعُهُ   لِلسَّيْفِ تسرِعُهُ للرُّمْحِ تَشرعُهُ
لِلسَّعْدِ تحْرِزهُ لِلوَعْدِ تُنجِزُهُ   لِلصَّدْرِ تَشْرحُهُ للقدْرِ ترْفعُهُ
يا طالبًا معْهَدًا للرِّفْدِ يَنْزِلُهُ   ارْبعْ قليلاً فقدْ حَيَّتكَ أرْبُعُهُ
بِناصر الدّين قد لاَحَتْ مَعالمُهُ   وراقَ في أُفُقِ العَلْياءِ مَصْنَعُهُ
ويُوسُفٌ شُرّف المُلْكُ العَزيزُ بهِ   فأيْنَ قَيْصَرُهُ صِيتًا وتُبَّعُهُ
فَقيصَرٌ قاصِرٌ عنْ جودِ راحَتِهِ   وتُبَّعٌ في مَضاءِ العَزْمِ يَتْبَعُهُ
أبْدَى الجَمالَ وقدْ أوْلى الجميلَ بِهِ   فالحُسْنُ يُبْدِيه والإحْسانُ يُبْدِعُهُ

(94) لعل القصيدة المشار إليها هي التي مطلعها :
يا آل يوسفَ لي في قصْرِكُمْ قمرٌ   قد هَلَّ من فلك الأزْرار مطْلعُهُ
ديوان ملك غرناطة : 137. وهي تذكرنا بقصيدة ابن زريق المشهورة.

كَلَّمْتَ يا مَلِكَ الأَمْلاكِ من كَثَبٍ   عبْدًا يُناديكَ مـن بُعْـدٍ فتَسْمَعُـهُ
فما اعْتِذاري لمَوْلًى لَمْ يُحِطْ خجلاً   سَمْعي بلَفْظٍ لهُ في القلْب مَوْقِعُهُ
كَمْ حلَّ في كَبِدِ المَمْلوكِ من ظَمَإٍ   إذْ لَمْ يُمَتَّعْ بعَذْبِ اللَّفْظ مِسْمَعُهُ
أستغفرُ اللّهَ كَمْ راقتْ حديقتُـهُ   وكَـمْ عَلى ظَمـإٍ روّاهُ مَشْرَعُـهُ
هَذي صَلاَةُ صِلاتٍ والنّداءُ لَهـا   إن كانَ وِتْرًا فمَوْلَى الخَلْقِ يَشفَعُهُ - 43 -
وكَمْ عجـائِبَ أَبْدَاهـا النّظـامُ بها   قدْ راقَ من زَهَرِ الآداب أيْنَعُـهُ
ولا كَعَذْراءَ من مَوْلَى المُلوكِ أَتَتْ   بَابَ القَبـول أمـامَ العَبْـدِ تشرَعُـهُ
إذا بَدَا طِرْسُها لِلهِ كَمْ حِكَـمٍ   وكَـمْ بَدائِـعَ مِـلْءَ العَيْـنِ تُودِعُـهُ
بحْرُ المَكارِمِ أَبْدَى مـن بَدائِعِـهِ   دُرًّا يـرُوقُ بجيـدِ المُلْكِ أنْصَعُـهُ
فَلَفْظُهـا الـدُّرُّ والزّهْـرُ الانيـقُ إذا   مـا راقَ أضواؤُهُ أو رقَّ أَضْوَعُـهُ
مالتْ بنا طَرَبًا أوْ لَوْعَةً فَحَكَتْ   كأْسَ المُدامِ أمالَ القوْمَ مُتْرَعُـهُ
لها النَّسيبُ إذا مَـرَّ الخلِيُّ بـهِ   يَعُودُ وهْوَ شَجِيُّ القـلبِ مُولَعُـهُ
يُبْدِي الـذي قـدْ أَكَنَّتْهُ جوانِحُـهُ   وضُمِّنَتْـهُ مــن الأشواقِ أضْلُعُـهُ
مـاذا يقـولُ بَليـغٌ في محاسِنها   وأبْلَـغُ القـوْل فيها لـيسَ يُقنِعُـهُ
لكَـنَّ ياتِـي بما تُبْديـهِ فِكْرَتُـهُ   وفَضْلُ مَولاَيَ في الإغْضاءِ يُطْمِعُهُ
لا تُنْكِرُوا نَفَحاتِ الزّهْرِ منْ مِدَحي   فَرَوْضُ فِكْرِي نَدَى كَفَّيْكَ يُمْرِعُهُ
مَدْحٌ يَروقُ ذوي الأَلْبابِ ناظِمُـهُ   يُذيعُـهُ في إمـامٍ لاَ يُضَيِّعُـهُ
قـد سالَمَتْـهُ الليـالي إذْ عِنايَتُـهُ   قـدْ أَمَّنَتْـهُ فـلا دَهْـرٌ يُرَوِّعُـهُ
بَقيتَ لِلحمدِ أوْ للمَدْحِ مُنْفَـرِدًا   بهِ ودُمْتَ لِشمْلِ الدّيـن تجْمَعُـهُ

وَوَجَّه إلَيَّ أيَّدهُ اللهُ بَيْتَي شِعْرٍ أوَّلُهمَا : وَكَم عائِدٍ، وأمَرَنِي بالتَّصْديرِ لهُما والتَّذْيِيل عَلَيْهما فقلتُ بِحَسَبِ الغَرَضِ في الإنْحِطاطِ عنِ الجَزَالةِ وفي قريبٍ منَ التَّاريخِ.

أمِنْهـا سَرَى طَيـفٌ إلـيّ حَبـيـبُ — ولَيْسَ سِوَى نجْم السَّماءِ رَقـيـبُ
أتَى وَظـلاَمُ اللَّيـلِ يَسْحَبُ ذَيْلَـهُ — ولِلبَـرْقِ ثَغْـرٌ في دُجـاهُ شَنِـيـبُ
تَطَلَّـعَ خفَّـاقَ الجَنـاحِ كأنَّـهُ — فُؤادُ مُـحِبٍّ قـدْ جفاهُ حَبـيـبُ
وهَيْهاتَ يشفِي القَلْبَ طيْفُ خَيالِها — وقدْ عَلِمَتْ أنّ الخَيـالَ كَـذوبُ
إذا قـرُبَ الاصْبـاحُ غـادَرَ بَعْـدهُ — فـؤادِيَ يَصْبـو والدّمـوُعَ تَصوبُ -44-
أبانَ غرامِي يوْمَ بانَ عنِ الحِمَى — وقدْ بانَ من فوْدِ الظلامِ مَشيبُ
فأذهبَ صَبْـرِي والفـؤادَ وَسَلوَتـي — فلـمْ يَبْـقَ إلاَّ مَدْمَـعٌ وَنَحِـيبُ
ألاَ فِي سَبيلِ ٱلْحُبّ قَلْبٌ مُقَلَّبٌ — مَشُوقٌ لِتَذْكَـارِ العُهـودِ طَـرُوبُ
ألا إنّها الذِّكرى وإنْ بعُدَ الحِمَى — تُجِدُّ لَـدَيَّ الوجْـدَ حيـنَ تَثـوبُ
وإنّ التي قد هِمْتُ وجْدًا بِحُسْنِها — وبالقَـلـبِ منها لَوْعَـةٌ ووجـيـبُ
لَتُخْجِل بدْرَ الوَجْـدِ وهْـوَ مُتَمَّـمٌ — وتُزْرِي بغصْنِ البانِ وهوَ رَطيبُ
فلوْلاكِ يا أخْتَ الغزالَةِ لمْ أهِـمْ — ولا رابَ قلْبِي من هَواكِ مُريبُ
إذا أَلَّمَ المُشْتاقَ وجْدٌ عَلى النّوَى — فَلَيْسَ سِوَى ذِكْرِ الحبيبِ طبِـيبُ
«وكَمْ عائِدٍ زادَتْ عِيادَتُـهُ الأسَى — ولَوْ عُدْتِ قَـرَّتْ أعْيُـنٌ وقُلُـوبُ
فَذِكْرُكِ حَظّ النَّفْسِ في كُلِّ خَطْرةٍ — فَيا لَيْتَ حَظَّ العَيْنِ منكِ قَريبُ»[95]
عَجبتُ لِمِثْلِي كيْفَ أصبحَ بالحِمَى — يُنادي وما بالحَيِّ منكِ مُجـيبُ
عَلى أنّ لفْظِـي لؤلـؤٌ مُتنـاسِقٌ — لَدَى النّظمِ عذْبٌ لِلْوُرودِ شَرُوبُ
إذا أعمَلْتُـهُ في الطروس يَراعَتـي — يـروق مديـحٌ أوْ يَـرِقُّ نَسيبُ

(95) لا يوجد البيتان في ديوان يوسف الثالث.

نَسِيبِيَ مَمْدُودٌ ولَكِنْ قَصَرْتُهُ عَلَى مَن لَهَا البَدْرُ المُنِيرُ نَسِيبُ
ومَدْحِي عَلى منْ جادَ قَبْلَ سُؤالِهِ ومنْ أرْكَبَ الآمالَ وهْيَ رَكوبُ
هوَ المَلِكُ الأعْلَى الهُمامُ الذي غدا لدَيْهِ مَجالُ العِز وهْوَ رَحيبُ
فَيَهْمِي نَداهُ كُلّما بَخِلَ الحَيَا وإن مَطَلَ الإصْباحُ عنه يَنُوبُ
فَتُسْعَفُ قُصادٌ وتُقْضَى مَآرِبٌ ويَمْرَعُ من ربْعِ العُفاةِ جَديبُ
يَنِمُّ من الأمْداحِ طيب ثنائِهِ فتنعَمُ أسْماعٌ بِهِ وقُلوبُ
أمَوْلاَيَ عُذْرًا إنّ وصْفَكَ مُعْجِزٌ ولَوْ جاءَ بَشّارٌ بهِ وحَبيبُ
ولكنني أرْجوكَ في كُلّ حالَةٍ عَلَى أن منْ يَرْجوكَ لَيْسَ يَخيبُ
فكُلّ مَرامٍ أبْتغِيهِ مُبَلّغٌ وكُلّ بَعيدٍ أرْتجيهِ قَريبُ

ووجَّهَ أيَّدَهُ اللهُ هَذيْن البَيْتيْن بِرسْمِ الاجَازةِ

في فِتْيَةٍ مِلْءَ الزَّمانِ مَكارِمًا نالُوا العُلَى وأصالَةَ الأحْسَابِ
ما مِنْهُمُ إلاّ مُرَدَّى بالحِجى مُتَوَشّحٌ بالصَّارِمِ القِرْضابِ[96]

فارْتَجَلتُ مذيِّلاً

مِن كُل فَذٍّ ماجِدٍ ألْفاظُهُ مُسْتَمْتَعُ الأسْماعِ والألْبابِ
إنْ أحكَموا الآياتِ من آدَابِهِمْ كَمْ حِكْمَةٍ فيهَا وَفصْلِ خِطابِ
قد أحْرَزوا للسّبْقِ أقصَى غايَةٍ بمَدَى الكَتائِبِ أوْ مَدَى الكُتَّابِ
قومٌ إذا ما حَارَبُوا أوْ سالَمُوا قامُوا بِحِفْظِ كَتائِب وكِتابِ
وهَبُوا الجَزيلَ مِنَ الفَواضِلِ واثنَوْا يَرْجُونَ فَضْلَ المُنْعِمِ الوَهّابِ
نالُوا المَعالِيَ في مَعَالِمَ أُنْزِلَتْ منْهَا ركائِبُهُمْ أعَزَّ جَنابِ

(96) البيتان من قصيدة ليوسف الثالث. راجع ديوانه : 10

وتَسارَعُوا قَصْدًا إلى دَاعِي الهُدَى يُهْدُونَ لِلقُصّادِ كُلَّ عُجَابِ
بالنّاصِرِ المَوْلَى الهُمامِ قدِ اقتَدَوْا لَمَّا اهْتَدَوا من هَدْيِهِ بشِهابِ
كمْ نِعْمَةٍ أسْدَى وكَم من آيَةٍ أَبْدَى من الإحْسانِ والإحْسابِ
أمْداحُهُ وَهِباتُهُ قد أصْبَحَتْ رَوْضًا وغَيْثًا دائِمَ التّسْكَابِ
والكاتِبونَ عَبيدُ مَوْلانا الذي عَمَّ الوُجودَ بجُودِهِ المُنْسابِ
ما راقهُمْ إلا بَديهَتُهُ التي يصْبُو الرّضِيُّ لها وترضي الصّابِي(97)
رامُوا إجازَتَها وكُلٌّ لفظُهُ سَيْفٌ عنِ القَصْدِ المُؤَمَّلِ نابِ
منْ ذا يُجاري نظْمَ مَوْلًى وصْفُهُ لمْ يُحْصَ بالإسْهابِ والإطْنابِ
لَكن أجزْتُ وإن عادَةَ صَفْحِهِ لِلعَبْدِ خيْرُ مَثابَةٍ وثَوابِ

ولمَّا دخَلَ المُسْلِمون من أهْلِ رُنْدَةَ صَخْرَةَ عنادٍ أعادَها الله واسْتأْصَلوُا مَنْ وجدُوا بها قَتْلاً وإسَارًا إلا قليلاً منهُمْ اعْتَصَمُوا بَقَصَبَتِها وَوَرَدَ البَشيرُ بذلِكَ قلتُ أُهنِّىءُ مَقامَه الكَريمَ للحينِ وَهيَ منَ المُرْتَجَلاتِ في يوْمِ الأرْبعاء الرّابع لذي الحجّة عَام اثني عشر وثماني مائة(98)

- 46 -

هو النّصْرُ قدْ أجْرَى لدَيْكَ جِيادَهُ هوَ الفَتْحُ قدْ ألْقَى إليْكَ قِيادهُ
أما هذه بكْرُ الفُتوحِ التي بها أتَى الدهْرُ يدْنِي العِزّ مِنكَ بِعادَهُ(99)

(97) الرضي هو الشريف الرضي الشاعر المشهور والصابي هو المترسل المعروف.

(98) صخرة عناد كذا جاءت في الأصل بالنون المشدّدة وكذلك في نظم السلوك للمَلْزُوزي مرتين، وفي أعمال الاعلام والاستقصا : صخرة عبّاد من أحواز رندة، وفيها استقبل السلطان يعقوب بن عبد الحق الفونسو الملقب بالعالم أو الحكيم ورهن هذا عند السلطان تاجه الذي كان من ذخائر دار بني مرين (راجع حكاية هذا اللقاء في المصدرين المذكورين والاستقصا 3 : 55) ويمكن ان يكون لاسم عبّاد الذي تضاف إليه الصخرة علاقة بجد ابن عبّاد الرندي الصوفي المعروف. وراجع ماكتبناه في المقدمة.

(99) بكر الفتوح : كتب فوق بكر كلمة أولى وهي إمّا رواية أو تفسير.

أما هَذِه في الخَلْقِ دِيمَةُ رَحْمَةٍ بها اللّهُ قد حَيَّا الوُجُودَ وجَادَهُ
هي الصَّخرةُ الشمّاءُ قدْ حَلّها الهُدَى فعمَّ رُبَى مَعْمورِها وَوِهادَهُ
وَطُهِّرَ مَغْناها من الشّرْكِ وانثَنى يكيدُ بها التّوحيدُ من كان كادَهُ
وسَيْفُكَ سَيْفُ اللّهِ إذ حَلَّ رَبْعَها أباحَ به جَمْعَ العِدَى وأبادَهُ
وجُنْدُكَ جُنْدُ اللّهِ قدْ جال جوْلَةً يَسُلُّ ظُباهُ أوْ يَهُزُّ صِعادَهُ
فكُلُّ كَمِيٍّ هَزّ كُلَّ مُقَوَّمٍ يُقيمُ بمَيْدانِ الحُرُوبِ طِرادَهُ
وسَالَ نجيعُ الكُفْرِ فوْقَ بِطاحِها فلمْ يوردِ العَذْبَ الزلاَلَ وِرادَهُ
وعادَتْ جُموعُ المُسْلِمينَ بَرَبْعِها تُفَرِّقُ جمْعَ المُعْتَدِي واحْتِشادَهُ
مَعاهِدُ والإسْلامُ فيها كأنّها وقدْ حلّها جسْمٌ يَضُمُّ فُؤادَهُ
أذَلَ بها اللّهُ الصّليبَ وحِزْبَهُ وبالنّاصِرِ المَوْلَى أعَزَّ عِبادَهُ
وجرَّدَ سَيْفَ النَّصْرِ في الروع مُلْقِيًا عَلَى عاتِقِ المَوْلَى الهُمامِ نجادَهُ
فكانَ وَلِيُّ الكُفْرِ يُبْدِي تَجَلُّدًا إلى أن أراهُ حَرْبَهُ وَجِلادَهُ
وناصِرُ دين اللّهِ في اللّه مُظْهِرٌ عَلى اللهِ في كُلِّ الأمُورِ اعْتِمادَهُ
وإنّ إفَنتَ الرُّومِ يَجْهَدُ كُلَّما أراهُ المَقامُ اليُوسُفِيُّ جِهادَهُ(100)
وكانَ ولِيّ الشّرْكِ وافَى مُطاوِعًا هَوًى ساقَهُ نحْوَ الهَوانِ وقادَهُ
فَفازَ بها طوْعًا وحلّ بأفْقِها وألْقَى لدَيْها ذُخْرَهُ وعَتادَهُ
وَسارَ إلى أوْطانِهِ وهْوَ ظافِرٌ لها لا إلى الأخرى يُرَجِّي مَعادَهُ
وكانَ إليها الآن يأتي بِرَغْمِهِ يريدُ ويأبَى اللّهُ إلاّ مُرادَهُ
غَدا جاهِدًا قدْ شَفَّهُ لاعِجُ الصّدى يُؤَمِّلُ فيها وِرْدَهُ ومَرادَهُ

(100) إفَنْت هي الكلمة القشتالية Infante أي الولد، وهي مصطلح أندلسي مغربي أطلق في عهد الأمويين بالاندلس وفي عهد الموحدين على ولد الخليفة المرشّح لولاية العهد ثم استُعْمِلَ كذلك في الممالك المسيحية بالأندلس، وإفَنْت الروم هنا هو فرناندو المدعو بصاحب انتقيرة إثر تغلبه عليها والذي أصبح فيما بعد فرناندو الأول ملك أرغون وكان أيضًا وصيا على عرش قشتالة. راجع ما كتبناه في المقدمة.

يقودُ لها جَيْشَ الضّلالَة قـاصِدًا … فَحَـلَّأَهُ المِقْـدارُ عنْهـا وذادَهُ
إلَى أنْ أتَى مَوْلَى الخلائِفِ يُوسُفٌ … فَجَـدّ وأبْـدَى عَزْمَـهُ وأعـادَهُ
وقـامَ بأعْبـاء الخِلافـةِ مُظْهِـرًا … فَجَـدّ وأبْـدَى عَزْمَـهُ وأعـادَهُ(°) - 47 -
لِذاكَ عَـدُوُّ الدّيـنِ رُوِّعَ سِرْبُـهُ … بحَيْثُ حَكَى خَفْقُ البُنُودِ فُـؤادَهُ
كأن بِوَلِي الكُفْرِ قدْ خابَ سَعْيُهُ … وكـفَّ التَّلاقِـي بَغيَـهُ وَعِنـادَهُ
كأنّي بِهِ قدْ سارَ والسَّيْفُ خَلفَهُ … وخَلَّـفَ لِلفَتْـحِ المُبيـنِ بِـلادَهُ
ولـمْ يتخِـذْ إلاّ الِفـرارَ وِقايَـةً … ولـمْ يَدَّخِـرْ إلا المَذَلَّـةَ زادَهُ
فيا ناصِرَ الإسْلام والمَلكَ الـذي … أراناَ بأشْتـاتِ الكَمـالِ انْفِـرادَهُ
هَنيئًا بِهِ صُنْعًا جميلاً لديْكَ قـد … أجـالَ بـهِ النّصْرَ العزيزُ جَـوادَهُ
وهُنِّئْتَ ألفًا منـهُ فـالحالُ تقـتَضي … بِعِزِّكَ أنَّ الجمْـعَ يتْلُوُ اتِّحـادَهُ(100م)
وخذها علَى أنّ البديهَة لمْ تَزَلْ … تَـرُدُّ البَليـغَ اللّفْـظِ عمـا أرادَهُ
وأوْصافُ مَولانـا الخليفَـةِ يـوسُفٍ … تُبكِّتُ قُسًّا حيْثُ لاَقَـى إيـادَهُ
فلازالَ يا مَـوْلايَ عَهْـدُكَ سافِـرًا … يجودُ فَتَسْتَجْـدِي العُفـاةُ عِهـادَهُ

ووجَّه إلَيّ أيّده الله قطعَتيْن إحْدَاهُما وَجوَابُها يُثْبَتَانِ بعْدُ إنْ شاء الله والثّانية نصُّها وكِلاهُما من نظمِهِ نصَره الله :

لـوْ وجدْنـا إلى العَـزاءِ سَبيـلاً … لَمْ تكُنْ وجْنَتِـي لِدَمْعِـي مَسيـلاَ
أوْ رغِبْنـا حُكْـمَ الغـرَامِ اخْتِيـارًا … لَـمْ يكُـنْ يغْلِـبُ الغَـرامُ العُقـولاَ
من نَصيرِي عَلى فُؤادِي وطَرْفِـي … إنَّمـا يَشْتَكـي الخَليـلُ الخَليـلاَ
قَـدْ أعانـا حُبِّـي عَلَـيَّ فَمَـنْ ذا … في غَرامـي يُجْـدي ويُغْنِـي فَتيـلاَ
كُـلُّ خِـلٍّ أعْدَدْتُـهُ لِزمـانـي … فَزمانِـي يُحيـلُ ذاكَ الخَليــلاَ

(°) كذا في الأصل ورد هذا الشطر مكررا.

(100م) اتّحاده، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : آحاده، وفيه إشارة حِسابية.

لَـيْسَ خِـلٌّ على الزّمـانِ ببـاقٍ   هاكَ عَيْنِي وهَـاكَ قَلْبِـي دَليـلاَ(101)

فَقلْتُ فِي الرّوِي وَهْيَ مِنَ المْرْتجلاتِ وفِي الثاني والعشرين
لِجُمدى الأولى عام ثلاثة عشر وثماني مائة وهي لزوميّة.

أَصْبَـحَ الْقَـلْبُ بالْبِعَـادِ عَلِيـلاَ   إذْ نَأَيْنَـا وَمَـا شَفَيْنَـا غَلِيـلاَ - 48 -
جِيرَةَ الحَيِّ هَلْ عَلِمْتُم بأنّـي   لا أذوقُ المَنَـامَ إلاّ قَليـلاَ
دونَكُـمْ قلبِـيَ الـمَشوقَ فحُلّـوا   طَلَـلاً منْـهُ بالبِعَـادِ مُحِيـلاَ
آهِ لَـوْ لَـمْ تُضيِّعُـوهُ لكنْتُـم   قَـدْ وجَدتُـمْ مُعَـرَّسًا ومَقيـلاَ
أيُّهَـا العَاذلُـونَ كُفُّـوا فإنِّـي   لَـمْ أجِدْ لِلسُّلوِّ عنهُـمْ سَبيـلاَ
لا وَشَرْعِ الغَرامِ ما رُمْتُ يوْمًا   عن مَغانِي الجَمالِ صَبْرا جَميـلاَ
يا نَسيمَ الصَّبا أزِلْ عن فُـؤادِي   خلَـلَ الوَجْـدِ نتّخِـذْكَ خَليـلاَ
وتَحمَّـلْ رسالَـةً مِـنْ مَشُوقٍ   تُلْـفِ فيها البَيـانَ والتحْصيـلاَ(102)
إنّ وَصْفَ الجَمالَ يَعْجِزُ عنْـهُ   من يرُومُ الإجْمالَ والتّفْصيـلاَ(103)
والتي هِمْتُ في حُلاَهـا غَرامًـا   بعُـدَت مأْخَـذًا وعَـزّت قَبيـلاَ
ظَبْيَـةٌ أصْبَـحَ الفُـؤادُ رَهينًـا   عِنْدَهـا مـا ابتَغَى سِوَاها بَديـلاَ
آه يـا رَبَّـةَ الجَمـالِ أمالِـي   أَن أَرَى الدّهْرَ لِلـوِصَالِ مُنيـلاَ
إنّمـا أنتِ لِلمَحـاسِنِ رَوْضٌ   حيـنَ تُبْدِي قـدًّا وخـدًّا أسيـلاَ
وانْعِطافُ الغُصونِ يُرْجَى وما إنْ   يَمنَـعُ الـرّوْضُ غُصْنَـهُ أن يَميـلاَ

(101) وردت هذه القطعة ضمن قصيدة في ديوان ملك غرناطة ص 109 مع اختلاف في بعض الفاظها وترتيب أبياتها.
(102) قد يكون فيه تلميح إلى عنوان «البيان والتحصيل» لابن رشد.
(103) كأنه يشير إلى قول ابن الرومي في وحيد :
يَسْهُـلُ القَـوْلُ أنّهـا أحْسَن الأشْيـاءِ طُـرًّا ويَصْعُبُ التّفْصيـلُ

لَوْ أعَرْتِ القَبولَ عَرْفًا وَطيبًا   لمْ يَهُبَّ النَّسيمُ إلاّ بَليلاَ
ولوِ الوجْهُ منكِ أُطْلِعَ لَيْلاً   لاتّخَذْناهُ هادِيًا وَدليلاَ
أنتِ لولاكِ ما كَلِفنا وَلوْلاَ   ناصِرُ الدّينِ ما اهْتَدَيْنا سَبيلاَ
عَثَرَ الدّهرُ دونَ قَصْدٍ فَلوْلاَ   ناصِرُ الدّينِ ما وجَدْنا مُقيلاَ
ضَلَّ قَصْدَ الصّوابِ والرشْدِ مَن لمْ   يَتّخِذْ منْ عُلاَهُ ظِلاًّ ظَليلاَ
لِصِحَابِ النبيّ يُنْمَى فأكْرِمْ   بِهِمُ أُسْرَةً وأعْظِمْ قَبيلاَ
كُل منْ شاءَ وَصْفَهُمْ وَحُلاهُمْ   وَعُلاهُمْ فلْيَقْرإِ التّنْزيلاَ
جادَ قبْلَ السّؤال حتّى ظنَنّا   أنّنا لَيْسَ نعْرِفُ التّأميلاَ
ليْتَني دائِمًا أطَلْتُ لَدَيْهِ   حيْثُ يُلْقِي نِعالَهُ التّقْبيلاَ
لِلعِدَى قد أعدّ رُمْحًا طويلاً   وجَوادًا وَرْدًا وسَيْفًا صَقيلاَ - 49 -
وَلِقصّادِهِ جَنابًا مَريعًا   ومُحَيًّا سَمْحًا ورفدًا جَزيلاَ
وَعَدُوُّ الإسْلامِ خابَ فأمْسَى   خاسِرًا لمْ يَنَلْ مُناهُ ذَليلاَ
والتي حلّ سَوْفَ يَرْجِعُ عنْها   جيْشُهُ الأخسَرُ اللّئيمُ فَليلاَ(104)
هو فالٌ والسّعْدُ ينطِقُ عنْهُ   إنَّ ما قيلَ منْهُ أصْدقُ قيلاَ
والذي قَدَّرَ الأمُورَ كما قدْ   شاءَ في الخلقِ قادِرٌ أن يُنيلاَ
دُمْتَ لِلدّينِ والخَلائقُ تَدْعُو   لَكَ بالنّصْرِ بكْرَةً وأصيلاَ

---

(104) فليلا : مفلولا ومكسورا.

ومِمَّا صدَرَ عَنّي في هَنائِهِ أيَّده الله بِحُلولِ رِكابِهِ العَلِيِّ بِظاهِر مالَقَة بإثْرِ مُخالَفَةِ المَارِقِينَ من أهْلِ جَبَلِ الفَتْحِ وَهيَ السَّفْرَة التي أجازَ فيها السُّلْطانَ السَّعيد إلى الغَرْبِ ودخَلَ مالَقَةَ في يَوْمِ الاثْنَيْنِ الثّالث لِشَعْبانَ عام ثلاثَة عَشَر وثماني مائة(105)

هُنِّئْتَ يا مَوْلى الوَرَى مَقْدَما ... اطْلَعْتَ لِلسَّعْدِ بِهِ أنْجُما
حَلَلْتَ مِن مالَقَةٍ مَنْزِلاً ... زَاحَمَ في العَلياءِ شُهْبَ السَّما
يَسْرَحُ منهُ الطَّرْفُ في مَرْبَعٍ ... يُقَيِّدُ المُنْجِدَ والمُتْهِمَا
تَسابَقَ الاعْلامُ مِن أهْلِها ... لِيَلْبِسُوا ثَوْبَ العُلَى مُعْلَمَا
قالُوا وقَدْ وافَيْتَ لِلّهِ ما ... أشْفَقَ مولانا وما أرْحَمَا
هذا مِصْباحُ الهَدْيِ حَيَّاكُمُ ... هَيْهاتَ جَلَّ الصُّبْحُ أن يكْتَما
هَذا المَقامُ اليُوسُفِيُّ الذي ... لِلّهِ ما أعْلَى وما أعْلَمَا
تكُفُّ كَفُّ الظلمِ أحْكامُهُ ... وهَدْيُهُ يَجْلُو الدُّجَى المُظْلِمَا
مَدَدْتَ لِلتَّقْبيلِ كَفًّا وَمِن ... قَبْلُ غَمامُ الأفْقِ لَيْلاً هَمَى
فحارَتِ الأذْهانُ في شَأنِها ... لَمْ تَدرِ ما صَوْبُ الحَيا مِنْهُما
تَحْسِبُهُمْ في حينِ تَقْبِيلِهَا ... قَطًّا على مَوْرِدِها حُوَّمَا
ثُمَّ انْثَنَوْا بَعْدَ الثناءِ الذي ... تَلَوْا لَدَيْكَ ذِكْرَهُ المُحْكَمَا

---

(105) راجع ما كتبناه في المقدمة عن خروج أهل جبل طارق عن حكم بني نصر ورجوعهم إلى طاعة بني مرين، أمّا السعيد المذكور فهو محمد بن عبد العزيز بن أبي سالم المريني الذي كان بعد خلعه لاجئًا أو معتقلاً في غرناطة مع جماعة من بني مرين ممن يرشح للملك فأفرج عنه يوسف الثالث «وسلطنه في أول شعبان من سنة 813 هـ وجهّزه، فأجاز البحر حتّى نازل فاس في ذي الحجّة» إنباء الغمر 6 : 237 وقد شقي المَغرب بهذا الملقّب بالسعيد، وكان خرابه على يديه. انظر ترجمته وأخباره في جذوة الاقتباس : 208 الضوء اللامع 8 : 62 وإنباء الغمر 6 : 236 ــ 237، 7 : 28 ــ 29، والروض الهتون : 78 (المطبعة الملكية) ووصف افريقيا للوزان 1 : 209، 210، 211، 213، 216، 217، 227، 228، 292، 302.

عَـــوْدةُ مَـــولايَ لِأَوْطانِهِــــــمْ   قَدْ جَعَلـوهُ العِيـدَ والمَوْسِمَـا[106]
مـا جَبَـلُ الفَتْـحِ ومَـن أَهْلُـهُ   إذْ أصبَحُـوا قَـدْ كَفَـرُوا الأنعُمَـا
كـأن بِهِـمْ والـرَّوْعُ في أرْضِهِـمْ   يَأبَى لِشَمْـلِ الأمْـنِ أنْ يُنْظمَـا[107]
كـأنْ بِهِـمْ قـدْ عـادَ مُرْتابُهُـمْ   مُغْـرًى بِمَـا أَوْلَيْتَـهُ مُغْرَمَـا
مُؤمِّـلا مـنك لـنصْرِ الهُـدَى   مَوْلًـى هُمامًـا بـاَذِلاً مُنْعِمَـا
أَيْنَ التُّقَى والعَـدْلُ والفَضلُ مـن   قَوْمٍ غَـدا الجَـور لَهُـمْ مِيسَمَـا
وَسوْفَ يَكبُـو منهُـمُ كُـلُّ مَـنْ   أجْـرَى جيَـادَ البَغْـيِ أوْ أجْرَمَـا
كـأن بِمَـولايَ الهُمـامِ الـرِّضَى   في مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ قدْ حُكِّمَـا[108]
كـأن بمَـوْلايَ إمـامِ الهُـدَى   لِلدِّيــن يعْلِـي عِنْــدهُ مَعْلَمَـا
وَكُــلِّ كَفَّــارٍ عنيــدٍ لَــدَى   مَغنَـى الجهـادِ قـد غَـدَا مَغْنَمَـا
مَولايَ مَـدحُ العَبْـدِ قِدْمًـا إلى   نَيْـلِ مُنـاهُ لَـمْ يَـزَلْ سُلَّمَـا
يا آيَةً مـذْ أطْلِعَت قـدْ جَـلَتْ   بالعَدلِ أمْرًا لَـمْ يَـزل مُبْهَمَـا
يـا رَحْمَـةً مـن كُـلِّ ما أتَّقِـي   جَعَلتُهــا كَهْفًــا ومُسْتَعْصَمَــا
يــا نعمــةً سُمِّــيتُ مَمْلوكَهـا   قَـدْري بِهـا بيْـنَ البرايَـا سَمَـا
هـا أنـا كالْعِيـسِ وقـدْ حُمِّـلَتْ   عَذْبَ الوُرودِ وهْيَ تشكُو الظَّمَا[109]
جاهُكَ فَوْقَ العَبْـدِ ظِـلٌّ ومِـنْ   بُعْـدِكَ جمْرُ الوَجْـدِ قـدْ أُضْرِمَـا
لا زِلْتَ والنَّصْرُ كَمـا تَـرْتَضِي   يَحُـلُّ مـن بَـابِكَ أعْلَـى حِمَـى
بالنّصْرِ والعِـزِّ لكُـمْ قـدْ دَعَـا   مَـن طـافَ بالبَيْـتِ ومَـن أحْرَمَـا

---

(106) في طرة بالجانب الأيمن لهذا البيت ما نصّه : «ومنها بعد أبيات»
(107) أرضهم. كُتب فوقها : رَبْعِهم. وكأنه اختيار أو رواية أخرى.
(108) مجمع البحرين : يقصد به مضيق جبل طارق
(109) هذا من قول الشاعر :
كالعيسِ في البَيْـداءِ يقتُلها الظَّمـا   والماءُ فـوْقَ ظُهورِهـا محمـولُ

وقُلتُ وقد ورَدَتِ الأخبارُ بحُلول أجْفانِهِ المُؤيَّدَةِ بِساحِلِ المَغْرِبِ ونزُولِ السُّلْطانِ السَّعِيد بِبَرِّ العُدْوَةِ بالفرْسانِ والرُّمَاةِ في آخِر رَمضان عام ثلاثة عَشَرَ

- 51 -

أناصِرَ دينِ اللّهِ هُنِّئْتَهُ صُنْعًا ... بَشائِرُهُ تُهْديكَ ما يَمْلأُ السَّمْعَا
جمَعْتَ قُلوبَ المُسْلِمين بعَزْمَةٍ ... تَكُفُّ مَنِ اسْتَعْدَى تجيبُ مَنِ اسْتَدْعَى
رمَيْتَ عُداةَ الدّين منْها بفادِحٍ ... لَدَى مُلْتَقَى الهَيْجاءِ يترُكهُمْ صَرْعَى
وكمْ من يَد بيْضاءَ طوَّقتها فَتًى ... إلى منزِلِ البيْضاء قدْ أعْملَ الرُّجْعَى[110]
رمَى دارَهُ البَيْضاءَ أخذًا بِثارِهِ ... بما قَدْ رَمى سَيْفُ ذي يَزَنٍ صَنْعًا[111]
وقمْتَ بأعْباءِ الوَفاءِ حَقيقَةً ... وَلاَ كُلْفَةٌ فيما أتَيْتَ بِهِ طَبْعًا
ولِلهِ مِنها مُنشآتٌ قدِ ارْتَمتْ ... عَلى اللّجِّ رَفْعًا حين أحْكَمتَها وَضْعًا
سَرَتْ وظِلالُ الأمْنِ واليُمْنِ فوْقَها ... فأحْسِنْ به مَسْرًى وأنْجِحْ بِهِ مَسْعَى
دَرَأْتَ بِهِ في صَدْرِ كُلّ مُعانِدٍ ... سِهامُ المَنايَا نحْوهُ أُحْكِمَتْ وَقْعَا
أتَتْكَ بها البُشْرَى صَنيعَةَ مُنْعِمٍ ... حَباهُمْ بهَا وِتْرًا وعادَتْ لهُ شفْعَا
وشَيَّدتَ لِلدّين الحَنيفيِّ مَصْنَعًا ... وفي أوْلِياءِ اللهِ أظهرْتَهُ صُنْعًا
يُحِلُّ بمَن والَى الضّلالَ وأهْلَهُ ... حَوادِثَ جَلّتْ أنْ يُطيقَ لهَا دَفْعَا
غَوِيٌّ به التّثلِيثُ عَزَّ مكَانُهُ ... فكَمْ ضارِعٍ لِلهِ ضاقَ بِهِ ذَرْعَا
فلا آيَة تتْلَى ولاَ نعْمةٌ تُرَى ... ولاَ سُنَّةٌ تُحْيا ولاَ ذمَّةٌ تُرْعَى
عَلى الدّين ظُلمًا قدْ جَنَى وَهْوَ رَوْضَةٌ ... جَنَى زَهْرَها قَطْفًا وأغْصانَها قَطْعَا
إلى أن تَدارَكت البِلادَ وأهْلَها ... فأوْسَعْتَها منْحًا وحصّنتَها مَنْعَا

---

(110) الفتى يقصد به «السعيد» المذكور، والبيضاء هي مدينة المرينيين في فاس.

(111) يشير إلى حكاية سيف بن ذي يزن الذي لجأ إلى كسرى من أجل مساعدته على طرد الأحباش من اليمن وصنعاء فجهزه بسفائن مملوءة بالرجال، والشاعر يشبّه صنيع مليكه مع «السعيد» بصنيع كسرى مع سيف بن ذي يزن.

صَدَعْتَ بأمْرِ اللّهِ فيه مُحَكَّمًا	فما تَجْبُرُ الأيامُ بَعْدُ لهُ صَدْعَا
وأرْسَلْتَ من رُحْماكَ شامِلِ رَحْمَةٍ	تُبَدِّدُهُ شَمْلاً تُفَرِّقُهُ جَمْعَا
فبَايَنْتَهُ رُشْدًا وَضَلَّلْتَهُ هُدًى	ودافعْتَهُ حُكْمًا وجاهَدتَهُ شَرعَا
دِيارٌ خَلَتْ منهُ فقَدْ أقْفَرَ الحِمَى	وقدْ بَعُدَ المَرْمَى وقدْ صَوَّحَ المَرْعَى
وآلِ مَرينٍ إذْ دَعَوْا منكَ ناصرًا	ولمْ تُهمِلِ الدّعْوى ولمْ تُغْفِلِ المَدْعَا
أجَبْتَ ومنْ أرْسالِكَ السّيْفُ والْقَنَا	شِهابًا وبَرْقًا قدْ أثارًا به نقْعَا
أعوِّذُ بالسَّبعِ المثانَى خلائِقًا	لَدى مُفْرَد بالعزّ أحْرَزَها سَبْعَا
عفَافًا وإقدامًا وعِلْمًا وعَزْمَةً	وحِلْمًا وحَزْمًا يوجِبُ المنحَ والمَنْعَا[112] - 52 -
لهُ برْقُ سَيْفٍ في غمامَةِ راحَةٍ	يَروقُكَ لمْحًا في دُجَى الحَرْبِ أوْ لمْعَا
وَهاكَ من النظْمِ البَديعِ قَوافِيًا	فسَمْعًا إمَامَ الأكْرمين لها سَمْعَا
تُطوّقني طَوْقَ الحمامَةِ مُنْعِمًا	فبالمَدْحِ في رَوْضِ المُنَى أسْمِعُ السَّجْعَا
وقد جِئْتُ باللفْظِ البَديعِ ومَن أتَى	بوَصْفِكَ نظمًا لَيْسَ إبْداعُهُ بِدْعَا
فلازِلْتَ تُولِي النّصْرَ بَدءًا وَعَودةً	وتَعْمرُ للدّينِ الحنيفِ بهِ رَبْعَا

ومنَ المنْظومِ الصَّادِرِ عَنّي والركَابُ العَلي اليُوسُفِيّ أسْماهُ الله بظاهِرِ جَبَلِ الفَتحِ عَصَمَهُ الله في السّفْرَةِ الأولَى وقد وصَلَ البشيرُ في التّاسِعِ عَشرَ لِذي قَعْدَة عام ثلاثة عشرَ المذكورِ بدُخولِ السَّعيدِ مَدينَة تازَةَ وانتِظامِ الجِهاتِ في طاعَتِهِ[113]

سَلْ ركابَ الحِمَى غَداةَ استَقَلَّتْ	مَنْ حَوتْ في رِحالِها وأقَلَّتْ

(112) أخذ بعض العَدّ من قول المعري : عفاف وإقدام وحزم ونائل.
وقوله : وحزمًا يقتضي المنح والمنعا. لعله يقصد الصفة التي تأتي بعدها وهي : ونائلا. لأن الذي ينيل ويمنح قادر على أن يمنع كما قال طرفة :
إن تنوّلهُ فقَدْ تَمْنَعُهُ	وتُريه النّجْمَ يجْري بالظّهُرْ
وبهذا يصح للشاعر عدد الخلائق السبع.

(113) ليس ثمة نصّ على الطريق الذي سلكه السعيد إلى تازة وأغلب الظن أنه نزل بسواحل الرّيف ثم توجّه هو إلى تازة ووجّه ولده عامرًا إلى طنجة كما سيذكر ذلك الشاعر في القصيدة التالية لهذه

وثَنَتْ لِلسُّرى هوادِيَ لَوْلا   أنْ هداها بَرْقُ الثَّنايَا لضَلَّتْ
أَهِيَ السُّفْنُ في بِحارِ سَرابٍ   أمْ مَطايَا لَدَى الكَثيبِ أطَلَّتْ
غَرُبَتْ في خدورِهِنَّ بُدُورٌ   أفَلَتْ لاَ بَلْ غرْبَ صَبْري فَلَّتْ
كَمْ بُدور لها الهَوادِجُ أُفْقٌ   نورُها قدْ جَلاَ الدُّجى إذْ تَجَلَّتْ
جَدَّدَتْ حالَة الهَوَى حينَ جَدَّتْ   وتوالَى الغَرامُ حينَ تَوَلَّتْ
حالَ ما بَيْنَنَا الزّمانُ ولكنْ   لَمْ تَزَلْ طَيَّ أضْلُعِي حيْثُ حَلَّتْ
لَمْ يَهُلْنا المَغيبُ لوْ هِيَ وافَتْ   لمَواقِيتِ عوْدِها وأهَلَّتْ
أَيُحِيلُ البِعَادُ عَهْدَ فَتاةٍ   حالَةَ الوجْدِ بالفُؤادِ أحَلَّتْ
سَلْ عَنِ الأنْفُسِ الْكَريمَة هَلاّ   بَعْدَ حِفْظِ العُهُودِ عَنْهَا تَسَلَّتْ
وَعَنِ الناصرِ بْنِ نَصرٍ أجَدْوَى   راحَتَيْهِ أمِ الغُيوثُ اسْتَهَلَّتْ
هُوَ مَولَى المُلوكِ شرْقًا وغَرْبًا   فَحُلاهُ عَلى مَزايَاهُ دَلَّتْ
حَفِظَ اللّهُ مِنْهُ لِلمُلْكِ ذاتًا   بِحُلَى الفَضْلِ والكَمالِ تحَلَّتْ - 53 -
أيُّها النَّاصِرُ الإمَامُ المُرَجَّى   فِئَةُ العِزِّ لِلمُناوِي أَذَلَّتْ
جَبَلُ الفَتْحِ قدْ حَللتَ لَديْهِ   ذِرْوَةً قد علَتْ مَكانًا وجَلَّتْ
ولأهْلِيهِ في الخِلافِ نُفُوسٌ   بشياطينَ لِلضَّلالِ اسْتُزِلَّتْ
فَترامَتْ لهمْ كتائِبُ عِزٍّ   لوْ رَمَتْها يَدُ الزَّمانِ لَشُلَّتْ
لوْ تُجارِي الرِّياحُ منها جيادًا   لانْثَنَتْ عَنْ مَدَى السّباقِ وكَلَّتْ
بِهَوادٍ غُرٍّ الفتوحاتِ أهْدَتْ   إذْ أطَلَّتْ جُموعُهُمْ وأضَلَّتْ
أرِياضٌ أنْهارُهُ فيهِ سالَتْ   أمْ سُيوفٌ في مُلْتَقَى الحَرْبِ سُلَّتْ
وعَوالٍ يجْلو الظَّلامَ سَناهَا   أمْ نجومٌ منَ السَّماءِ تَدَلَّتْ
وَلقدْ جاءَتِ البَشائِرُ حتّى   أعْذَبَتْ مَوْرِدَ السُّرور واحْلَتْ
بعُلاكَ السَّعيدُ مُلّكَ أرْضًا   لَكَ ألْقَتْ ما عِنْدَها وتخلَّتْ(114)

(114) من الآية الكريمة : وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلّت.

فَتهنَّـــا صَنائِعًـــا حيــــنَ وافَتْ   شَيَّدَتْ مَصْنَـعَ القَبـوِلِ وأعْـلَتْ

وَمنَ المرْتجَلاتِ في مثْلِ ذلكَ قوْلِي وقدْ عادَتِ الأجْفانُ
المنصُورَةُ من فَتْحِ طنجَة وحُصولِ ولد السُلْطانِ السَّعيد في قَصَبتها
وذلِكَ عَشيّ السَّابعَ عَشَر لذِي قعْده عَام ثلاثَة عَشَر المذكُورِ

نـاصرَ الدّيـن خُـذ إلَـيْكَ بشارَهْ   قـدْ كَسَتْهـا الفُتـوحُ أبْـدَعَ شارَهْ
تُجْتَلَـى في البـلادِ غَرْبًا وشَرْقًـا   فَتُباهِـــي الكَـــواكِبَ السَّيَّـــارَهْ
فتهنَّـــأْ صُنُعًـــا جميـــلاً وفَتحًـــا   يَحْتَلِـي كُـلُّ مِسْمَـعٍ أخْبـارَهُ
جلَّ وصْفًا وطارَ في الخلقِ ذِكْرًا   قَصّرتْ عـن مَـداهُ كُـلُّ عِبـارَهْ
هــذِهِ فــاسٌ الجَديـــدُ تشكَّتْ   فأنـلتَ السَّعيـدَ منْهـا اخْتِيـارَهْ(115)
وابْنُـهُ عامِـرٌ من الرّيـفِ يُـمْسِي   عامِـرًا رَبعَـهُ المنِيـــعَ ودارَهْ(116)
إذا أتتْكَ الوُفـودُ كُـلٌّ يُرَجّـي   منكَ جُودًا يَحْكِي السَّحابَ انهِمارَهْ
قــاصِدًا كَعْبَــة المكــارِمِ منـــهُ   جاعِـــلاً حجَّـــهُ لها واعْتِمَـــارَهْ - 54 -
قَطـعَ البَحْـرَ والمَهامِــهَ يُبْـدِي   كيفَ تَبغِي في الطّاعةِ اسْتِبصارَهْ
قابَلتْ والقَبـولُ بـعْضُ حُلاَهَــا   بِدَرُ المَالِ مَـنْ أطـاعَ بِـدارَهْ
وأتَـتْكَ الأجْفـانُ منها بِـبُشْرَى   كُلّ وَجْهٍ يُبْدِي لها اسْتِبْشارَهْ(117)
والــذي أمَّـــل العِنــادَ ذَليـــلٌ   قدْ أبَى الدَّهْرُ أنْ يُقيلَ عِثـارَهْ
خانَهُ الدّهْـرُ فارْتَقـى الذُّعْـرُ منْـهُ   مُرْتَقًى حَطٌّ في الوَرَى مِقْـدارَهْ(118)

(115) فاس الجديد : ما يزال هذا الاسم معروفا إلى اليوم.
(116) عامر ولد «السعيد» السالف الذكر، والريف : اقليم معروف في المغرب وربعه المنيع مدينة طنجة.
(117) الأجفان : السفن.
(118) يعني بهذا البيت والذي قبله السلطان أبا سعيد عثمان

والطّريفي كان أصلاً لهذا الـ ـقَصْدِ لا نالَ ما ارْتَضَى واخْتارَهْ[119]
وهَل الغُصْنُ حينَ يُجْتَثُّ منهُ أصْلُهُ تجْتَنِي يَدٌ إثْمارَهْ
أخذَ اللهُ منهُ خَبًّا كَفورًا أ مِنَ اللهِ كانَ يَرْجو فِرارَهْ
كَمْ شَكَا الثَّغْرُ ظُلْمَهُ عندَما قدْ أوْرث الكفْرَ أرْضَهُ ودِيارَهْ
أصْبَحَ البَغْيُ شاهِرًا منْهُ سَيْفًا رَيْثَما فَلَّتِ الخُطوبُ غِرارَهْ
لا يَخيبُ السَّعيد إذْ بابْنِ نصْرٍ ناصِرِ الدّين قدْ رأيْنا انتِصارَهْ
دونَ مولايَ من نظامِيَ رَوْضًا فَرْطُ حُبِّي مُفتّحٌ أزهارَهْ
وَدُعائِي بأن تَدُومَ عُلاهُ ما أرَى الدَّهْرُ لَيْلَهُ ونَهارَهْ

وَفي الوِجْهَة الثّانية إلى حِصارِ جبَل الفَتْح عَصَمَهُ اللهُ عِنْدَ خِلافِ أهْلِهِ وكانَ الانْفِصالُ إليْهِ عِنِ الحَضْرَةِ في السّادسَ عَشَرَ لِذِي قعْدة عَامَ أرْبَعةَ عَشَر وثماني مائَةٍ صَدَرَت عَنّي منظوماتٌ كثيرةٌ منها :

إنّ التي شَغَفَ الفُؤادَ هواهَا قَضَتِ اللّيالِي أن تُطيلَ نَوَاهَا

(119) الطريفي نسبة إلى جزيرة طريف، ويقصد به الحاجب القائد عبد الله بن موسى الطريفي، وأصله كما يقول صاحب بيوتات فاس ـــ علْجٌ من نصارى مدينة طريف، ثم دخل في خدمة بني مرين وغدا صاحب السقيف (قائد المشور) في عهد أبي سعيد عثمان الأصغر وكان مزاحما الحاجب أحمد القبايلي وهو الذي تسبب في عزله ومقتله وأصبح حاجبا بعده إلى جانب الحاجب فارح بن مهدي، أما ما يشير إليه الشاعر هنا فقد بيّنه ابن حجر في إنباء الغمر إذ قال : «وفي هذه السنة (813 هـ) كانت الحادثة العظيمة بفاس من بلاد المغرب حتى خربت، وذلك أن ملكها وهو أبو سعيد عثمان بن أحمد بن ابراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق قرّر في تدبير مملكته الحاجب عبد الله بن الطريفي فأوقع بينه وبين أبي فارس صاحب إفريقية فجهّز محمّد بن أبي يحيى [الحفصي] بالعسكر ليحاصر تونس فمازال أبو فارس ينصب له أشراك المكايد حتى أوقعه وهزمه ومزّق عسكره، فلمّا تمكّن من ذلك كاتب ابن الأحمر بأن يفرج عن محمد بن عبد العزيز بن أبي سالم وكان معتقلاً عنده مع جماعة من ذرية بني مرين ممن يرشح للملك، فافرج عنه وسلطنه في أول شعبان منها وجهّزه فأجاز البحر حتى نازل فاس في ذي الحجّة، فخرج عبد الله الطريفي لقتاله فكَبا بِهِ فَرَسُه فقبض عليه محمد (السعيد) وأمر به فأحرق» إنباء الغمر 6 : 236 ـــ 237 وانظر أيضا جذوة الاقتباس : 125، 511 وبيوتات فاس : 47 (ط. دار المنصور) وراجع أيضا ما كتبناه في المقدمة.

عجَبًا لها إذْ أتْلَفَتْ ببعادِها ... قلبًا مَشوقًا لمْ يَزَلْ مَثواهَا
يا ليتَها رَحمَتْ مُعَنّى مُغْرَمًا ... لَمْ يدرِ ما مَعْنَى الهَوَى لَوْلاَها
زعَمَ العَواذِل أنّ قلبِيَ عاشِقٌ ... صَدَقُوا وَلكن لا يُريدُ سِواهَا
هَيْهاتَ يَطْمَعُ أنْ يدِينَ لِسَلْوَةٍ ... بَعْدَ الذي فَعَلتْ به عَيْناها
قالُوا تناسَتْ عَهْدَ وُدّكَ إذْ نَأتْ ... عَنْها الرّكَابُ وأنتَ لا تَنسَاها
فأجَبْتُ كُفُّوا لسْتُ أسْمَعُ عَذْلَكُمْ ... أوَ ما عَلِمْتُمْ أنّني أهْواهَا
كَمْ بتُّ أسْهَرُ قائلاً يا لَيْتَها ... لَوْ أنها سَمَحَتْ بِيَوْمِ لِقاهَا
لَوْ أنها جَادَتْ بأيْسَرِ لَحْظَةٍ ... فازَتْ يَدِي من دَهْرِها بمُناهَا
لَوْ أنها رَضِيَتْ لجُدتُ بكُلِّ ما ... مَلَكَتْ يَميني في سَبيلِ رِضاهَا
حتّى أباحَتْ لَمْحَةً من وصْلِها ... سَمَحَتْ بهَا الأيّامُ بعْدَ جفاهَا
بَخِلَتْ زمانًا بالوِصالِ وعندَما ... جادَتْ عَليَّ نَوَى الزّمانُ نَواهَا
قدْ كان طيبُ الوَصْلِ لمْحَةَ بارِقٍ ... آهًا عَلَيْها بَعْدَ ذلِكَ آهَا
عَهْدِي بهَا والسّحْرُ مِن أجْفانِها ... كُلُّ النُّهَى عن صَبْرِها يَنْهاهَا
عَهْدِي بِها والوَرْد من وجَناتِها ... باللحْظِ يُمْنَعُ مَن يَرومُ جَناهَا
عَهْدِي بِها والطِيّبُ يُذْكَى عَرْفُهُ ... مِنْها فأحْيا النّفْسَ إذْ حَيّاهَا
تحْكِي الحَدائِقَ نضْرَةً وَشمائِلاً ... فلذاكَ أصْبو إذْ تَهُبُّ صَباهَا
تحْكي الكواكبَ رفعةً وتَهلُّلاَ ... فأبيتُ مِنْ كَلَفٍ بها أرْعاهَا
للّه طَلْعَتُها التي قدْ أُطْلِعَتْ ... فجَلتْ عَلَى العُشّاقِ شمْسَ ضُحاهَا
لِلهِ ما أحْلَى محاسِنَ وجْهِها ... وأرقَّ معْناها وأعْذبَ فاهَا
لِلهِ ما أحْلَى شَمائِلَها التي ... تَرَكَتْ فُؤادِي هائِمًا بحُلاَهَا
عَجَبًا لها حَلّتْ فؤادَ مُتَيّمٍ ... كَلِفٍ بغيْرِ الفكْرِ لاَ يَلْقاهَا
ولَئنْ كَلِفْتُ بَربْعِها فَتَشوُّقي ... من أجْلِ مَعْناهَا إلى مغْناهَا
وأجيبُ من قدْ لاَمَني في ذكْرِها ... دارُ الحَبيبِ أحَقُّ أن تهْواهَا

هي حضرةُ المَوْلَى الخَليفَةِ يوسُفٍ ... شَرَفِ الملــوكِ إمامِهَــا مَولاهَــا

رَحَلتْ رَكَائِبُهُ ضحًى عن ربْعِهـا ... والــنصْرُ يَقدُمُهَــا إلى مَدْعاهَــا

تُنْضِي إلى الجَبلِ المُنيفِ عَزائِمًـا ... أَبتِ المَكـارِمُ أن تُفَـلَّ ظُباهَـا[120]

تَرْمِي إلى الغَرَضِ القَصِيِّ بأسْهُمٍ ... نَـزَعَ الوَفـاءُ بهَـا إلَـى مَرْماهَـا

لِتَحُل ذِرْوَتَهُ كَما تَبغي العُلَـى ... وتحُـلُّ من فِئَةِ الضَّلالِ عُرَاهَـا

أَوَ مـا عَزائِمُـهُ صَبـاحٌ كُلَّمَــا ... حَادَتْ عنِ النَّهْجِ القَويمِ هَداهَا - 56 -

حَـلَّ المَعاهِدَ منهُ مولًى نـاصِرٌ ... وَفَّـى حُقـوقَ المَجْدِ إذْ وافَاهَـا

تَبًّا لهمْ لمْ يَقْـدُروا قَـدْرَ الـذي ... جـادَتْ بـه يُمْناهُ مـنْ جَدْواهَـا

فهِيَ التي ما ساجَلَتْ سُحُبَ الحَيَا ... إلاَّ وَفــاقَ الغَادِيَــاتِ نَداهَـــا

أَوَ لَيْسَ مِن أَوْصافِكَ الشِّيمُ التي ... غَـدتِ المُلوكُ بذِكْرِهـا تتَباهَــى

أَوَ لَيْسَ من أوْصافكَ الهِمَمُ التي ... تبغـي النُّجُـومُ الـنيراتُ عُلاَهَـا

هَـذا ويـا لِلَّـهِ مــن غَرْناطَــةٍ ... دارٌ نُعيـدُ على النّـوى ذِكْراهَـا

لمّا نأى مَوْلايَ عنْها أصْبَـحَتْ ... وقـدِ اسْتحـالت حالُهـا وحُلاهَـا

إذْ حَيثُ حَلّ الناصِرُ المَلكُ الرِّضَى ... نلقَـى المَكـارِمَ والعُلَـى والجاهَـا

مـا رَجَّـعَتْ شَوْقًا إِلَيْـهِ حَنينَهـا ... إلاّ وَصَدَّ العَـزْمُ عــن لُقْياهَـا

ما أظْمأَ الشَّوقُ الحَثيثُ بِطاحَهـا ... إلاّ وَغيـثُ الدّمْـعِ قَـدْ رَوَّاهَـا

سُحُبُ المَدامِعِ كلّما بَخِلَ الحَيَا ... تَحْدُو بهَـا الذّكْرى إلى سُقْياهَـا

فقلــوبُ أَهْلِيهَـا يُقَلِّبُهـا الجَــوَى ... لمَّــا تحامَــى بالبِعــادِ حِماهَـــا

ونُفــوسُ أَهْلِيهَـا تَهيـمُ بذِكْــرِهِ ... كَلَفًـا بمَـا مــن رِفْـدِهِ أَوْلاهَـا

بَسَطَتْ بـنصْرِكَ للدعـاءِ أَكُفَّهـا ... واستَوْهَبتْ لَكَ في البقـاءِ اللّـهَ

(120) تنضي : تجرّد، والجبل المنيف يقصد به جبل طارق.

وقلْتُ أُهَنِّيءُ مَقامَهُ الكَريمَ بإبْلاَلِهِ منْ ألَمٍ أَلَمَّ بهِ وذَلكَ في السَّادِسَ عشرَ لِصَفَر منْ عامِ أَرْبَعَةَ عَشَر وثماني مائة وبمدينَةِ مالَقَةَ المحْروسَةِ(121)

أَلَـمَّ بمَوْلانـا الخَليفَـةِ يـوسُفٍ ... تُلْفِي القُلُوبَ بـه رِهينَ تـأسُّفِ
أَلَـمَّ يُقَلِّبُ قَلْبَ كُلِّ مُوَحِّـدٍ ... ويُغادِرُ الإسْلامَ حِلْفَ تَخَوُّفِ
ما كانَ نُورُ الصّبْحِ لمَّا أن بَدَا ... مُتَهَلِّلاً عِنْدَ الطُّلوعِ بِمُنْصِفِ
حَتَّى يُرَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٌ ... مِمَّا لَدَيْهِ من التَّألُّمِ قدْ شُفِي
أَوَ ما تخال الزّهْرَ غيْرَ مِنيرَةٍ ... في أُفْقِها والزَّهْرَ غيْرَ مُفَوَّفِ
والنّورَ لا يُبْدِي آبْتِسامَ ثُغورِهِ ... والغُصْنَ لا يَثْنِيهِ لين المَعْطِفِ
والخيْلَ ساهِمَةَ الوُجوهِ كأنها ... ما أرْسِلَتْ لِقِتالِ باغٍ مُسْرِفِ
والسّابِقاتِ كأنّهُنَّ نَواظِرٌ ... بُهِتَتْ فهُنَّ لأجْلِهِ لمْ تَطْرِفِ
والمُرْهَفاتِ تقول في أغمادِها ... يُشفَى الامَامُ وَفِي عِداهُ نَشْتَفِي
مولايَ عَبْدُكَ عِنْدَ ذلِكَ شأنُهُ ... دمْعٌ يصوبُ ولوْعَةٌ لا تَنْطَفِي
فالقلبُ قلّبَهُ عَلى جمْرِ الغَضَى ... كَلِفٌ به قدْ حَلّ دونَ تَكَلُّفِ
أمْسِي وأُصْبِحُ لا أرى مَلكَ الهُدَى ... كَلِفًا أُطيلُ تَشوّقِي وتشوّفِي
وقد اغْتَدى اليومَ البشيرُ مُبَشّري ... وبراحَةِ المَوْلَى الهُمامِ مُعَرِّفِي
فَبَذلْتُ من روحِي وما كَسَبَتْ يَدي ... ما عَزّ عِندي في الوُجُودِ ولمْ أَفِ
فَوُرُودُهُ أحْلَى لَدَيَّ على الظمَا ... من مَوْرِدٍ عَذْبٍ وظِلٍّ أوْرَفِ
قَصْدِي لَدى مَوْلايَ تقْبيل الثرى ... فبِهِ علُوُّ مَكانَتي وتَشَرُّفِي
وهَناءُ عُلْياهُ براحتِهِ التي ... هَزَّتْ لدينِ اللّهِ أشرَف معْطِفِ
قدْ كان غابَ عنِ العُيونِ فلَمْ أزَلْ ... أرْجُو مُشاهَدة المحَلِّ الأشْرَفِ

---

(121) قابل هذا بما في ديوان ملك بغرناطة (ص 96) إذ يقول :
«ومن ذلك وقد ألمّ بنا ألمٌ على إثر الوجهة إلى جبل الفتح في وسط صفر عام 814»

وأقولُ ليتَ الدَّهْرَ يُسْعِفُ مَقصدِي   بِلِقائـهِ والدّهْـرُ لـيْسَ بِمُسْعِفِــي
والشّوْقُ يُذْهِبُ سَلْوَتِي وتَصبُّـرِي   حتَّى لجأتُ لِكَتْبِ هاذِي الأَحْرُفِ
جُـدْ باللّقـاءِ فَـذاكَ أيْسَرُ مطْـلَبِ   لفَتًى يَهُبُّ [لَهُ] هُبوبَ المَشْرَفِي
لازِلْتَ يا مَولَى الملـوكِ مُصاحِبًـا   للنّصْرِ وَالتّخليـدِ وَاللُّطْـفِ الخَفِــي

وَفِي مَطْلَبٍ يَظْهَرُ مِنَ النَّظْمِ

أذَكّـرُ مَولاَنـا ولـمْ يَـنْسَ عَبْــدَهُ   عَلى مطْلَبٍ يُحْظِي بما شِئْتُ عِنْدَهُ
وأرْغَبُ مـن عُلْيـاهُ تتْميـمَ نعْمَـةٍ   تُنيلُ مُنَى الرَّاجِي وتسْعِفُ قصْدَهُ
بأن يُوقفَ المْلـوكَ يَـوْمَ سَلامِـهِ   بقبّتِـهِ في شمْـلٍ مـنْ أمَّ رِفْـــدَهُ
لِيَبْقَـى وإن عَـزَّ اللِقـاءُ بِنَظْـرَةٍ   يُجَـدِّدُ بالـذَّاتِ الكَريمَـةِ عَهْـــدَهُ - 58 -

وفيما حَقُّهُ أنْ يتَّصِلَ بالتّهانِي

قلتُ أمْدَحُ المَقامَ الكريمَ اليُوسُفِيَّ أسْماهُ الله وقد وافَقَ ذلِكَ إيصَالَ الرَّئيسِ البائِسِ الواصِلِ من المغربِ مُعْتَقَلاً وعَوْدَةَ السُّلطان السَّعيدِ إلى حِصَارِ فاس بعد هَزيمَةٍ جَرَتْ عَلَيْهِ بَظاهِرِها وميلادَ أحدَ السَّادةِ الأمراءِ حَسَبَمَا تُسْتَوْفَى هذِه الأغْراضُ منهَا وهِيَ أوَّلُ قصيدة مدحْتهُ بها بعْدَ أن وَلاَّنِي كتابةَ سرّهِ شكرَ الله نعْمَتهُ وأبْقَى حُرمَتَهُ[122]

هنـاءٌ كأزْهـارِ الرُّبَـى مُتَحَمَّـــلُ   وبُشْرَى كأنْوارِ الضّحَـى تَتَهلّــلُ
هُوَ الصُّنْعُ صُنْعُ اللهِ معْنَى وجودِهِ   سَبيلٌ لمَا شاءَتْ عُـلاكَ مُـوَصَّلُ
ولاَ كالـذي رامَ العِنـادَ سَفاهَـــةً   يَرى الدّهْرَ عنْهُ مُعْرِضًا وهْوَ مُقْبِلُ

(122) راجع ما كتبته في المقدمة عن هذا الذي ينعته الشاعر في تقديمه بالرئيس البائس، وهو المعني في القسم الأول من القصيدة.

وأمَّلَ مثوَى العِــزِّ لاَ دَرَّ دَرّهُ   ولَيسَ له عن مَرْتَعِ الذّلّ مَرْحَلُ
ألَمْ يَدْرِ أن النّاصِرَ المَلكَ الرِّضَى   إذا قالَ فالمِقْدارُ ما شاءَ يَفْعَـلُ
لَهُ شِيمٌ في الحِلْمِ والعِلْمِ والنَدَى   يَفـوقُ بها كُـلَّ المُلوكِ وَيَـفْضُلُ
فَحَزْمٌ كَلَيْثِ الغَابِ يحمِي ذِمـارَهُ   وعَزْمٌ كما قدْ هُزّ في الروْعِ مُنْصُلُ
وَجودٌ كما جادَتْ لَدى المَحْلِ ديمةٌ   وَبِشْرٌ كما حَيَّـا الضّحَـى المُتَهَلّـلُ
تـواضَعَ فاسْتعْلَـى بصِدْقِ يَقينِـــه   وَعـزّ فَـذلَّ المَاكِـرُ المُتَحَيِّــلُ
أتَـى وثيـابُ الهونِ تعْلـو قُيــودَهُ   فَيَرْسُفُ طَوْعَ الـذُّلِّ فيها وَيرْفُـلُ
وجاءَ وقدْ حَفَّتْ بهِ الشِّيعَةُ التي   لهَا من ذميمِ الغَدْرِ ما لَيْسَ يُجْهَلُ
تحَامَي طَريقَ الرُّشْدِ مِن قَبْلُ فاغْتَدَى   تُزَلِّلُـــهُ آراؤُهُـــمْ وتُضلّـــلُ
ولَوْ أمَّل المَوْلَـى الخليفَـةَ يوسُفًـا   لَما راعَهُ خَطْبٌ من الدّهْرِ مُعْضِلُ - 59 -
ولَوْ أمّ لِلبَاب الكريمِ لأصبَحَتْ   وُجـوهُ الأمانِـي نحْـوَهُ تَتَهَلّــلُ
ولَكنّـهُ ما جَـدَّ إلاّ لِأنْ يُــرَى   كما شاءَهُ المِقْـدارُ وهْـوَ مجَــدِّلُ
وقدْ عَزَّ من ولَّيْتَهُ المُلْكَ مُنْعِمًـا   وأضْحَى الذي ناواكَ وهْوَ مُذَلَّلُ[123]
حُلاَ المُلْكِ حَلْيٌ منهُ هذا مُطَوّقٌ   كَما شاءَتِ النعْمَي وذاكَ مُعَطّـلُ
صَنائِعُ جَلتْ أن يُحيطَ بوَصْفِهـا   نِظـامٌ بَليـغٌ أوْ نِثـارٌ مُـفَصَّلُ
وقدْ كان فيها الحزْمُ ضُيِعَ بُرْهَـةً   ونالَ العِدى ما أمَّلوا حينَ أُغْفِلُوا
وأمّـــن فيها خائِـــنٌ ومُخــادِعٌ   وصُدّقَ فيها مُلْحِـــدٌ وَمُعطّـــلُ
بحَيْثُ جميــعُ الغَادِريــن تَفرَّقــوا   وفَرُّوا عَنِ النّهْجِ القَويمِ وأجْفَلُوا
لقدْ كَفرُوا نُعْماكَ بَغيًا وطالَمَـا   وَهَـبْت وأنتَ المُنِعـمُ المُتَطَــوِّلُ
تحامَوْا جَنابًا عِنـدَهُ العِزُّ والعُلَـى   لهُمْ منهُ كَهْفٌ في الخُطوبِ ومَوْئِلُ
أينعَـمُ فيـهِ الغـادِرونَ تخَيُّـــلاً   وقَد كَفَرُوا النعْمَى التِي فيهِ خُوّلُوا

---

(123) يتحدث في هذا القسم عن «السعيد» صنيعة ممدوحه، وينال من السلطان أبي سعيد عثمان.

وقد عادَ للقَصْدِ الذي كانَ آمِلاً … وَلَيْسَ لهُ إلاّ عَلَيْكَ مُعَوَّلُ(124)
وحُكِّمَ سَيْفُ النّصْرِ فيهم وإنّهُ … لَحُكْمٌ بما شاءَتْ علاَكَ مُسَجَّلُ
بحَيْثُ الوَغَى تُبْدِي ظُباهَا جَدَاوِلاً … عَلَيْهـا منَ الخَطّيّ دَوْحٌ مُهَدَّلُ
وَبُشْراكَ يا مَولَى المُلُوكِ براحَةٍ … تُتَمِّمُ ما شاءَ الهُدَى وتُكَمِّلُ(125)
فلوْ أنصَفَ الخُدّامُ أضحَت نفوسُهُمْ … وأرْواحُهُمْ طوْعَ البَشائِرِ تُبْذَلُ
ومِنْ قَبْلُ هنَّأْنا عُلاكَ بوافِدٍ … مَخائِلُه يقْضِي بهَا المُتَأَمِّلُ(126)
مُحَيَّاه وضَّاحُ الأسِرة نَيِّرٌ … تَرى الشهْبَ تَسْتَهدِي سَناه وتسْأَلُ
تَلاَ صِنْوَهُ الأَرْضَى وإنَّ كِلَيْهِما … لَهادٍ رَشيدٌ مُهْتَدٍ مُتوكِّلُ
فهذا إلى بذْلِ المكارِمِ يُرتَجَى … وذاكَ لِنيْلِ المَعْلُوَاتِ يُؤَمَّلُ
لِذلكَ أزْهارُ الفتوحاتِ تجْتَلَى … وَروضُ المُنَى أدْواحُها تتَهَدَّلُ
وإنَّ عَدُوَّ الدّينِ سَوْفَ تخالُهُ … لَديْكَ وقدْ وافاهُ حَتْفٌ مُعَجَّلُ
وأوْطانُهُ تُمْسي وَكُلُّ مُوَحِّدٍ … يُكَبِّرُ في أرْجائِها وَيُهَلِّلُ
فَيا راكِبَ الوجْناءِ يَطوي بِهَا الفَلاَ … إلى طِيّبَةٍ آثارُها لَيْسَ تُجْهَلُ
إلى معْهَدِ الانسِ الذي في بطَاحِهِ … تُفَسَّرُ أوْصافُ الجمالِ وتُجمَلُ
إلَى منْزِلِ العِزِ الذِي كُل آمِلٍ … يُجِدُّ لَهُ السَّيْرَ الحثيثَ ويُعْمِلُ
أرِحْهَا فَقَدْ حَلتْ بمثوى خليفَةٍ … لهُ السَّبْقُ وهوَ الوَادِعُ المُتَمهِّلُ
إمامٌ لهُ حِلْمٌ وعلمٌ وَنائلٌ … وحَزْمٌ وإقْدامٌ ومجْدٌ مؤثَّلُ
إذا أعْمَلَ القصّادُ نحْوَ جنابِهِ … رَكائِبهُمْ أعْمالُهُمْ تُتَقَبَّلُ
يجودُ غَمامُ الجُودِ من أُفْقِ كَفّهِ … فَيفْضَحُ صَوْبَ العَادِياتِ ويُخْجِلُ
إذا ما حَلَلْنا تحْتَ ظلّ جَنابِهِ … فمَا ضَرّ أن ينْأى حَبيبٌ ومَنْزِلُ

(124) يشير في هذا البيت وما بعده إلى عودة «السعيد» إلى حصار فاس.
(125) يهنىء ممدوحه براحته من المرض الذي ألمّ به.
(126) راجع ما كتبناه عن أولاد يوسف الثالث في المقدمة.

أُعيذُ العُلَى مِن أنْ تخِيبَ عِصابَةٌ   بِـحُبِّ المَقَـامِ اليُوسُفِـيّ تَوَسَّلُــوا
فَمِثْلِي مَن رَقَّيْتَ يا مَلِكَ الهُدَى   ومثْلُكَ من يُولِي الجَميلَ وَيُجْزِلُ
وَهَبْتَ وقـدْ أمَّنْتَ مِمَّا أخافُـهُ   فلمْ يبْقَ ما يُخْشَى ولاَ ما يُؤَمَّلُ
وَأوْلَيْتَني النّعْمَى التي كنتُ آمِـلاً   فَخِلْتُ حُلاَهَا فَوْقَ ما يُتَخَيَّـلُ
وألْبَسْتَني ماشِئْتَ من خِلَعِ الرِّضَى   فأصْبَـحْتُ في أثْوابهَــا أتَسَرْبَــلُ
بماذا أوَفّي شُكْرَ نِعْمَتِكَ التــي   حَديثُ تَوَاليهَـا صَحيــحٌ مُسَلْسَلُ
فدامَت على المْلوكِ مِنها مَـلابسٌ   تَبيـدُ اللّيالِـي وهْـيَ لا تَتَبَـدّلُ
ودُمْتَ لديـن اللّـه أكْـرمَ نَــاصِرٍ   وهَدْيُكَ يُسْتَجْلَى وَجـودُكَ يُسْأَلُ

وقلْتُ مُهَنِّئًا مَقامَهُ الكريمَ بِولادةِ السّيد الأمير أبي الحسن أصغر وَلَدَيْهِ الآنَ وصَلَ اللهُ سَعادَته وفي رَبيع الأوّل عَام أرْبَعة عَشر وثماني مِائة وصَلَ التّعْريفُ به منَ الحَضْرَة والرّكابُ العليّ بمَالقة(127)

مَعالـمَ الدَّولـةِ النّصْريَّــة اتّضَحَتْ   بِيوسُفٍ ومَرامـي قصْدِهِ نَجَـحَتْ
مَوْلًى لبذْلِ النَّدَى والبأْسِ راحَتُـهُ   بالسّيْفِ كمْ سَفَحَتْ لِلسّيْبِ كمْ صَفَحَتْ - 61 -
حُسامُهُ تحتَ دوْحٍ مـن عوامِلِـه   يسيل نهْرًا ونارُ الحَرْبِ قدْ لَفَحَتْ
يحمِي ويَبذُلُ مـا تَحْـوي خَزائِنُـهُ   لِلهِ ما مَنعَتْ يُمْناهُ أوْ مَنَـحَتْ
ثَبْتٌ إذا ارْتاعَتِ الأبطالُ يَوْمَ وغًى   سَمْحٌ يُنيرُ مُحَيَّاهُ وقـدْ كَلَـحَتْ

(127) أبو الحسن علي ولد يوسف الثالث هذا سمّاه والده باسم أخيه معز الدولة أبي الحسن، وقد كان له دور في الأحداث التي عصفت بمملكة غرناطة في عهدها الأخير فقد وقف إلى جانب أخيه محمد الصغير الذي بويع بعد والده يوسف الثالث وخاض غمرات الصراع الرهيب الذي نشب بين أخيه وابن عمّه محمد التاسع، وكان أبو الحسن على رأس جيش أخيه في ذلك الصراع، وتمنحه المصادر القشتالية لقب EL INFANTE وقد تمكن محمد التاسع من التغلّب على أبي الحسن وأخيه الملك الشرعي وسجنهما في شلوبانية حيث سجن والدهما من قبل، وبقيا فيه إلى أن صدر الأمر بإعدامهما في مارس 1431 م.
راجع كتاب محمّد التاسع للأستاذ سيكودى لوثينا ص 47، 51، 75.

تراهُ بَدْرًا وليْـلُ النقْـعِ مُـنْسَدِلٌ   ومَوئلا وبحارُ الرّوْعِ قدْ طَفَحتْ
ومَوْلِـدٍ عـمّتِ الدُّنْيَـا بَشائِـرُهُ   كالشمْسِ أنوارُها في أفْقِها وَضَحَتْ
وافَى بهِ شهرُ ميلادِ الذي بِظُبا   كَفَّيْكَ مِلتُهُ الغرَّا قـدِ اتّضَحَتْ
رَاقت بهِ دَوْحَةُ الإسْلامِ وابتَهَجَتْ   واليُمْنُ فوْقَ رُباهَا طَيْرُهُ سَنَحَتْ
فارتاحَتِ السُّمْرُ والبيضُ الرّقاقُ إلَى   يُمْناهُ والخيل في ميدانِها مَـرِحَتْ
جَلا مُحيًّا يروقُ النّاظِرِينَ سَنًى   لوْ أنّ شمْسَ الضحَى جارتْهُ لافتضَحَتْ
أهْلاً بِها غرةٌ غَرَّاء لوْ لَمَحَتْ   صبْغَ الدّياجي بأنوَارِ الهُدَى لَمَحَتْ
فاهْنأْ بـهِ وبِصِنْوَيْـهِ وَقِـرَّ بهِـمْ   عَيْنًا ودُمْ ماهَدَتْ عَيْن وما سَرَحَتْ
وقبْلَـهُ وافَتِ الأجْفـانُ مُهْدِيَـةً   بُشْرَى بِها فوقَ لُجِ البحْرِ قدْ سَبَحَتْ
بُشْرَى أتَـتْكَ مِـن المسْعـودِ قائِلَـةً   هَذي الصِّفاحُ دَمَ الأعْداءِ قدْ سَفَحَتْ[128]
فَمن مطالِعِ أنْـوارٍ بها اتَّضَحَتْ   ومن ميادين آمـالٍ بها انـفَسَحَتْ
وقبْلُ والِـدُهُ الأرْضَى وهَبْتَ لـهُ   مَالاً تَجودُ به نَفْسٌ وَلا سَمَحَتْ
لكِنَّ ضَيَّعَ بَعْضَ الحَزْمِ حِينَ أرَى   مَيْلاً إلى فِئةٍ غَشّتْ وما نَصَحَتْ
فقُمتَ بالأمْرِ ثَبْت العَزمِ ثانِيـةً   حتّى كأنّ جُيوشَ النّصْرِ ما بَرِحَتْ
وفَيْتَـهُ حَقَّـهُ مِـن كـلِّ مكْرُمَـةٍ   وإن ناتَ بكَ عنهُ الدّارُ أوْ نَزَحَتْ
أدارَتِ الرُّومُ أكْواسَ السُّرورِ إلَى   أن صحَّ عزْمُكَ فارْتاعَتْ لهُ وَصحَتْ
بالأمْسِ قدْ جَمَحَتْ في غيّها ودَعَتْ   للحرْبِ واليَوْمَ نحْوَ السِّلْم قدْ جَنَحَتْ
هذا هُوَ النصْرُ وافتْ من كتائبه   جِيادُ عِزٍّ بمَيْدانِ العُلَى جَمَـحَتْ
هذا هـوَ الصُّنْـع راقتْهـا مَصانِعُـهُ   لمُرْتقَى أوْجِهـا أبْصارُها طَمَـحَتْ
سُدَّتْ عَلى المُعْتَدِي أدْنَى مذاهِبِهِ   وان أقْصَى بـلادٍ عنـدهُ فُتِـحَتْ - 62 -

(128) المسعود ولد «السعيد» وقد ورد ذكره في الضوء اللامع، ويفهم من كلام الشاعر أن المسعود بَعْدَ نهاية والده الشنيعة أصبح على رأس الجماعة الذين يعملون بأمر غرناطة. أما المصادر التاريخية فإنها لا تتحدث عنه ولا عن أخيه عامر.

فيـــا مُكَثِّــرَ حُسَّادِي بأنْعُمِـــهِ ويا مُغَرِّبَ آمالي التي نَـزَحَتْ
أوْلَيْتَني من عَميمِ الجودِ ما بَهِجَتْ بِهِ النُّفوسُ ونالَتْ كلّما اقْتَرَحتْ
لِذاكَ يا مَلِكَ الدنيَا وبَهْجتَهـا حَمائِمُ الفِكْرِ في رَوْضِ المنى صَدَحتْ
وعبْدُ نعْماكَ يُبْدِي من مَدائِحِـهِ أزاهِرًا في رياضِ الطِّرْسِ قدْ نَفَحتْ
أفكارُهُ عنْ بُلوغِ القَصْدِ قدْ وَقَفَتْ في المَدْحِ إذْ سَرَحَتْ والوَصْفَ ما شَرَحَتْ
أنّى أُوَفّي وَقَدْ أصبَحْتُ مُمْتَدِحًا ذاتًا بآيِ كِتاب اللّهِ قدْ مُدِحَتْ
تُبْدِي المَدائِحُ من أوْصافِها دُرَرًا بها إذا انتَظمتْ أجيادُها اتَّشَحَتْ
فَدُمْتَ ما أعْقَبَ الصُّبْحُ المنيرُ دُجًى في جنحِهِ الشّهْبُ نحْوَ الغَربِ قدْ جَنَحتْ

وَعِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ هذِهِ السَّفْرة لِحَضْرَتِهِ العَليّة قلتُ في الخامِس عشَرَ لشَعْبان عام أرْبَعَة عَشَر وثماني مِائة وَالدّخول في الثالِثِ عشر قبْلَهُ.

صَرَفَ الوجْدُ نحوَ قلبي عِنانَـهْ مُعْمِـلٌ فيـهِ سَيْفَـهُ وَسِنانَـهْ
والِهًا قدْ جَفاهُ دَمْعُ جُفوني حيـنَ أبْـدى غرامَـهُ وأبانَـهْ
مـا لِقَلْبـي وَجيرةَ الحَـيِّ لمَّـا أتْلَفـوهُ وأصْبَحُـوا سُكَّانَـهْ
ولمُغـرًى بحبّهـم حيـنَ أمْسَى ساهِـرَ الجَفْـنِ بَعْدهُـمْ يَقظانَـهْ
وبرَبْـعِ الحِمَـى غَـداة اسْتَقلّـوا طَلَـلٌ بَثّ عِنـدهُ أشجَانَـهْ
مَالَـهُ والوُقـوفَ طَـوْعَ هَـواهُ بِـرُسومٍ قـد أنكَـرَتْ عِرْفانَـهْ
والتـي هـامَ في صِفـات حُلاهَـا قدْ جَفا النَّوْمُ بعْدَهـا أجْفانَـهْ
ذَهَبَتْ كـلَّ مَـذْهَبٍ في هَواهـا بفُـؤادٍ لاَ يَرْتَجـي سُلوَانَـهْ
أينَ منْها بَدْرُ الدُّجى إنْ تَجلَّتْ وهـوَ يخشَى في أفْقِـهِ نقْصانَـهْ
لحْظةُ الظّبْي في شَذا الزَّهْرِ طِيبًا في سَنَا الشّمسِ في انعِطاف البَانَهْ
أيْـنَ يـا راكِبَ المَطِيَّـةِ تَبغـي دُونَكَ الحَيَّ فاتّبِـعْ رُكْبانَـهْ - 63 -

أيضِلُّ الـرّكْبُ اليَمانِـيُّ قَصْدًا وسَنَـا البَـرْق قَدْ هَـدَى أظْعانَـهْ
وَريـاضٍ جـالَ النسّيـمُ لديْـه فَثَنـى فيـهِ لِلّقَـا أغْصانَـهْ
وأدارَتْ كـأسُ السّحـابِ مُدَامًـا رَدَّد الطيْـرُ عِنْدَهـا ألْحانَـهْ
ما لِغُصْنِ النّوَى وقدْ مالَ زَهْـوًا لـوْ أقامَـتْ ريحُ الصَّبا نَشْوانَـهْ
أتُرَى السحْبُ أمْ دموعِيَ جادتْ ريَّـةً فانْثَنَـتْ بِهـا رَيَّانَـهْ(129)
لاَ ولَكِـن جـودُ الخَلِيفَـة لمّـا جادهَـا أمْسَكَ الحَيـا هَتّانَـهْ
ثُـمَّ وَافَـى أمَّ البِـلاَدِ مُعِيـداً بِنَـدَاهُ لِعَهْدِهَـا رَيْحَانَـهْ(130)
ساجَـلَ الغـيْثُ إذْ أتاهَـا نَـداهُ فثنـى حين لـمْ يُطِقْـهُ عِنانَـهْ
وتوارتْ شمْسُ الضحَى إذ تَبَدَّتْ شمْسُ مَـرْآهُ فَـذّةٌ حُسَّانَـهْ
حَسَد البَـدْرُ والغمَـامُ سنَـاءً وَسَنّـى نـورَ وجهِـه وبَنانَـهْ
قَدْ قضيْنا أوْطارَنا عِنْدَمـا قَـدْ حـلَّ مَوْلَـى مُلوكِهـا أوْطانَـهْ
واصَلَ الرَّبْعَ وهْوَ أشْوَقُ شيْءٍ لِلّقَـا بَعْـدَ أن أرَى هِجْرانَـهْ
كـمْ عُيـونٍ تشوَّفَتْ لِلِقـاهُ وقلـوبٍ مَشوقَـةٍ هَيْمانَـهْ
مَن يُضاهِي في الأرْضِ يوسُفَ مَوْلًى قَـدْ خَبَرْنـا تمْكينَـهُ وَمكانَـهْ
مَـن يُضاهِيـه يوسُفِـيَّ خِـلالٍ بيْـنَ دُنْيـا أعْظِـمْ بهَـا وَدِيَانَـهْ
يوسُفُ الصِّدْق مُعْجِبٌ بيْنَ وصْفَيْ حجّتَيْـهِ إنابَـةً وإبَانَـهْ
لِعُـلاهُ في الغَـيْبِ سِرٌّ عَجـيبٌ كُـلّ مَـلْكٍ يبْـدِي لـهُ إذْعانَـهْ
فالشقِيُّ الذي اعتَـدَى قبْلَ هَـذا قـرَّبَ الدّهْـرُ حَتفَـهُ وأحَانَـهْ(131)
ألْمَوْلَـى الملـوكِ شَرْقـا وغرْبًـا يـوسُفٍ يظهِـرُ امْـرُؤٌ عِصْيانَـهْ
كَانَ حلفَ النجاةِ لـوْ قـدْ أتـاهُ راجيًـا منْـهُ لطْفَـهُ وحَنانَـهْ

(129) ريّه : هي الاسم القديم لمالقة. ومعناها : المَلِكة.

(130) أم البلاد : يعني بها غرناطة.

(131) يعني في هذا البيت وما بعده من نعته فيما سبق بالرئيس البائس.

وَولِــيُّ الضَّلاَلِ والبغْــي لمَّـــا … أن غَـدا وَهْـوَ مُظْهِـرٌ طغْيانَــهْ[132]
ظاهَـرَ الكَافِريـن واعْتَــزَّ حَتّــى … أظهَــرَ الحَقُّ والهُــدَى بُرْهانَــهْ
لكـأني بـهِ وقـدْ خـاب سَعْيًــا … وَجَـلَتْ دَعْـوةُ الـرَّدَى بُهْتانَــهْ - 64 -
وسُيــوفُ الهُـدَى تُحَكِّـمُ فِيــهِ … قدْ أحانَتْهُ كيفَ شاءتْ مَكانَـهْ
ولسانُ الزّمــانِ يـنشِدُ لمَّـــا … أعْدَمَ اللَّهُ فِي الـورَى وِجْدانَـهْ
سُمْتَ أهْلَ الغُرورِ منهُـمْ نَكـالاً … وخَبــالاً وذِلَّـــةً وَإهانَـــهْ
لَـمْ يَزالـوا لِلغـدْرِ والمكْـرِ أهْــلاً … وهَواهُـمْ قـدْ أصبَحـوا عُبْدانَــهْ
كانَ فيهِمْ [عُثْمَانُهُمْ وَهْـ]وَ منهُمْ … فأباحُـوا حِمـاهُ بَـلْ سُكّانَــهْ[133]
والطّرِيفِــيُّ عبْــدُهُ عبْــدُ سَوْءٍ … جَمَـعَ اللُّؤْمَ والخَنَـى والخِيانَـهْ[134]
سارَ مِـنْ قبـلُ للجَحيـمِ بَشيـرًا … مُخبِــرًا أنّ بَعْــدَهُ إتْيانَـــهْ
أخْـــذَةٌ روّعَـتْ وبالـــدّمِ رَوّتْ … حين وافَتْ جَنابَـــهُ وجَنانَـــهْ
أوَ لَـمْ يَعْلَمـوا بـأنّ ابْـنَ نَصْرٍ … يُوسُفًـا كَفُّـهُ كَـفَتْ عُدْوانَـــهْ
خابَ قَصْدُ المُلوكِ إن لمْ تُؤَمِّلْ … منْـهُ إحْسابَـــهُ ولاَ إحْسَانَـــهْ
ربّمــا حَــلَّتِ السُّعــودُ حُباهَـــا … لوْ تَلقّـى [مِنَ ٱلسَّعِيـدِ] أمَانَـهْ[135]
ولأصْفَــى لَــهُ مشارِبَ نعْمَـــا … هُ وأوْلاهُ فضْلَـــهُ وامْتِنانَــــهْ
أخـذَ اللّـهُ منـهُ خَبًّـا لَئيمًـــا … تابعًـــا في ضَلالِـــهِ شَيْطانَـــهْ
وَهْـوَ يُبْـدِي عَلى مُظاهَـرة الكفْـرِ … مـعَ البَغْــيِ والخَنَــى جَرَيانَــهْ
يَتمـادَى علَى الخِـلافِ ويَـدْرِي … أنـهُ غيْـرُ مُفْلِـحٍ مَـن خانَـهْ
تَـركَ المُـلك والمَمـالِكَ والمَـا … لَ لَديْـهِ وكُـلَّ عِلْـقٍ صَانَـهْ
وكـأنْ بالسّعيـدِ وارِثَ مـا قـدْ … أظْهَــرُوهُ أوْ أضمَــرُوا كِتْمانَـهْ

---

(132) يقصد بهذا البيت والأبيات بعده السلطان أبا سعيد عثمان.

(133) ما بين معقوفين بياض في الأصل، وقد أستأنست في إكماله بما في ديوان يوسف الثالث.

(134) راجع ما تقدم ذكره.

(135) ما بين معقوفين بياض في الأصل.

وكـأن بالسّعيـدِ قــد ساعَدَتْــهُ   نِيَّــةٌ مــنكَ مَهَّــدت بُلْدانَــهْ
أسَّسَتْ مُلكَـهُ عَلى البـرِّ حَتَّـى   أصْعَدتْـــهُ وشَيَّـــدتْ أرْكانَـــهْ
حَـلَّ منـهُ السَّعيـدُ ذِرْوَةَ عــزٍّ   فهوَ عيْـنٌ وقـدْ غـدا إنسانَـهْ
بكَ أضْحَى والمُلْكُ طَوْعُ يَدَيْـهِ   حَـيْثُ رَقَّيتَـهُ لِأعْلَـى مَكانَـهْ
يُـورِدُ السَّيـفَ في دِمَـاءِ عِــداهُ   فُيــرَوِّي في بَحْـــرِه ظَمْآنَـــهْ
إنمَـا الغَــرْبُ في يَـــديْكَ مجالٌ   مَـلأَتْ شيعَـةُ الهُـدَى مَيدانَـهْ[136]
فتهَنّـأْ يـا نـاصِرَ الدّيـنِ مُلكًـا   فــاقَ مــنصورَهُ شأى مَرْوانَـــهْ
لـوْ أتـى قـيْصَرٌ لـقَصَّرَ عنْــهُ   ولألقَـــى كِسْرَى لـــهُ تيجانَـــهْ
وَهَنيئًـا بِمَقْـدَمِ العِــزِّ يـا مَــنْ   ألْـبَسَ العِــزَّ مُضْفِيًـــا أرْدانَـــهْ
وَهنيئًـــا بها سَوابـــحَ تاتِـــي   وهْــيَ بيْــن اسْتِمالَـةٍ واسْتِكانَـــهْ
وحَـكَتْ صَفْحَـةُ البِحـارِ مُحَيًّـا   فيـــه تُلْفِــي أجْفانُهـــا أجْفانَـــهْ
والــذي جــاءَ بالــبِشارَةِ مِنْهَــا   رَفَـعَ اللّـهُ في الشّوانِـيِّ شَانَـــهْ[137]
تاخُـذُ الرِّيـحُ عَنْ حُـلاهُ وتابَـى   أنْ تُبـــارِي هُبوبُهـــا جَريانَـــهْ
لـوْ بذلنـا النّفـوسَ كانَ قَليــلا   للـذِي قـدْ أتَـى بــهِ وأبانَـــهْ
وتَهنّـأْ مـنْ قَبْـلِ ذلكَ فتحًـــا   قَــرَّبَ الدّهْــرُ وقتَــه وأوانَـــهْ
لا تَسَلْ عَنْ سِواهُ إذْ سَوفَ تُلْفِي   جبَــلَ الفَتْـــحِ تابعًــا ثمانَـــهْ[138]
قَدْ عَلِمْتُمْ والشّعْرُ أصْدقُ فـالاً   ما دَعَا المُصْطَفى لـهُ حَسّانَـهْ[139]
دونَ مَـوْلايَ من نِظامِيَ خَـوْدًا   فَــذّةَ الــحُسْنِ والحُلَــى فَتّانَـــهْ
راقَ منها بالمَـدْحِ فـيكَ بيَــانٌ   أُفُــقُ الطّــرْسِ مُطْلِـعٌ شُهْبانَـــهْ
أنـا عبْـدٌ غذَتْـهُ نُعْمـاكَ حَتّـى   رفَـعَتْ قـدْرَهُ لـديْكَ وشانَـــهْ

(136) الغرب : المغرب
(137) الشواني : نوع من المراكب البحرية، وكذلك الأجفان الأولى في البيت قبله.
(138) جبل الفتح هو جبل طارق وثمانه هي Jimena القريبة منه.
(139) يشير إلى قول النبي ﷺ لحسّان بن ثابت

نِعمَةٌ مِنكَ لِي بِأَنَّ نِظامِي ... زَهَرٌ تجتَلي النُّهَى بسْتانَهْ
أَيُوَفِّي عَلَيْكَ حُسْنُ ثَنَاءٍ ... وَبِهِ اللهُ مُنزِلٌ فُرْقانَهْ
دُمْتَ والنّصْرُ عِندَ بابِكَ رَكْبٌ ... يَجْذُبُ السَّعْدُ نحْوَهُ أَرْسانَهْ

وقُلْتُ عِنْدَ وُصولِ البَشيرِ منَ السَّيِّدِ الأَمِيرِ أَبِي الحَسَنِ وَصَلَ اللهُ عزّه بدخولِهِ جَبَلَ الفَتْحِ عَصَمَهُ اللهُ في يَوْمِ السَّبتِ السَّادسَ عشَرَ لِجُمَدى الأُولَى عام سَبْعَةَ عَشر وثماني مائة ودُخولِهِ يوَمَ الجمعَةِ قَبْلَهُ قصيدة نصها[140]

تَجَلَّى صَباحُ الفَتحِ من جَبلِ الفَتحِ ... فَهنِّئْتَها بُشْرى تَجِلُّ عَنِ الشَّرحِ - 66 -
هو الصُّنْعُ صُنْعُ اللّهِ حيَّاكَ أُفْقُهُ ... بوكَّافِ غيْثٍ طالَما ضَنَّ بالنَّضحِ
كما راقَ نُورُ البَدْرِ بَعْدَ سِرارِهِ ... وعادَ لِحُسْنِ النّظْمِ مُنْتَثِرُ الوُشْحِ
وما عَاوَدتْهُ دَعْوةٌ يوسُفِيَّةٌ ... ولكِنَّها روحٌ أُعيدَتْ إلى شَبْحِ
عَقيلَةُ حُسْنٍ طارَدَتْ بِوصالِها ... لِتعْظُمَ بَعْدَ المَنعِ فائِدَةُ المَنْحِ
فَبُشْرَى بهذا الصُّنعِ يا مِلِكَ الهُدَى ... وهُنِّئْتَ هذا الفَتحَ يا جَبلَ الفَتحِ
فَلَوْلاهُ كانتْ لِلْعِدَى فيكَ أُسْرَةٌ ... تَروحُ إلى قَسٍّ وتغدو إلَى فِصْحٍ[141]
تَجلَّى مُعِزُّ الدَّوْلَةِ الأَكْرَمُ الرِّضَى ... بمَرْقَبِكَ المَشهورِ من جانِبِ السَّفْحِ
لَكَ الدوْلَةُ العُلْيا عَلِيٌّ معِزُّها ... بهدٍّ الذي أعْلَتْ يَدُ البغْي من صَرْحِ
فيا مَلِكًا يسْتَقْبِلُ النَّصرَ عَزْمُهُ ... وما الفَجْرُ إلاّ أن يدُلّ عَلى صُبْحِ
فأَجْهَدَ نفْسًا في رِضاكَ زكِيَّةً ... تجاهِدُ مَن قدْ حادَ عنْ سَنَنِ النصْحِ

---

(140) أبو الحسن هو معز الدولة علي أخو يوسف الثالث، وفي هذه القصيدة قوافٍ من الغريب، وقد اكتفينا بشرح بعضها.

(141) الفصح عيد معروف من أعياد النصارى.

بكلّ كَمِّي حينَ يدْعَى إلى الوَغَى   فَغَيْرُ جَزوعٍ في الحُرُوبِ ولاَ طِلْحِ[142]

وأتْبَعْتَهُ غُرَّ الكَتَائِبِ مُنْعِمًا   فكَمْ حَلَّ من سَفْحٍ بما هَزَّ من صَفْحِ

فمَا قَصرتْ فيه الجيادُ عن المَدَا   ولاَ نُهْنِهَتْ أسْدُ الرجالِ عن الكَفْحِ

وقدْ نشأتْ لِلنَّقْعِ فيهِمْ غمائِمٌ   وما أمْطَرَتْ إلاًّ سِهامًا إلى النضْحِ

إذا أظْمأ الرَّوْعُ الجوانِحَ خِلْتَها   تُزادُ فتستَسْقِي، تَراعُ فتَسْتَصْحِي

وأرْسَلْتَ فوْقَ البَحْرِ أجفانَكَ التي   بِها حَركاتُ الرَّفْعِ تُبْنَى عَلى الفَتْحِ

سَوابِحُ تُغْنِي حين تَجْنَحُ لِلعِدَى   بأجْنِحَةِ النّصرِ العَزيز عنِ السَّبْحِ

كأنّ ظِباء القفْرِ ضَلّتْ فأتْلَعَتْ   هوادِيَ بيْنَ الأيْكِ والبان والطّلْحِ

وقدْ كُسِيَتْ مِن دامِسِ القارِ صِبْغَةً   كما التَفَتِ الرُّهْبانُ في خَلقِ المِسْحِ

وَتَشْدو طُيورُ اليُمْنِ فيها وإن غَدَتْ   خُطوبًا عَلى الأعْداءِ رائِعَةَ الفَدْحِ

يُبَدِّدُ شَمْلَ المُعْتَدِينَ آجْتِماعُها   فذاكَ إلى صَدْعٍ وتِلْكَ إلى صَدْحِ

إذا جَمَعَتْ طوْعَ السُّبّاقِ جِيادُها   فمَا تَنْثَنِي منها الأعِنَّةُ بالكَبْحِ

وفي مجْمَعِ البَحْرَيْنِ قوْمٌ تمَنّعوا   زَمانًا ونارُ البَغْي مشبوبَةُ اللَّفْحِ - 67 -

فكَمْ مُعْتَدٍ منهُمْ وخافِرِ ذمَّةٍ   عَلى قلبِهِ غيْم من الجَهْلِ لاَ يُصْحِي

غَدا خابِطًا عشْواءَ في ظُلمِ الرّدَى   فلا جَوُّهُ يُصْحِي ولا لَيْلُهُ يُضْحِي

سَقَتْهُ صروفُ الدّهرِ صِرْفَ مُدامِها   فيا قدَحًا جَلتْ حُلاهُ عَنِ القَدْحِ

لقدْ قصَّدَتْ رُمْحَ الضّلالِ عزائِمٌ   مقاصِدُها أضْحَتْ سَبيلاً إلى النُّجْحِ

لئِنْ كَدحُوا خَفْرًا لِذمّة مُنْعِمٍ   فيا خَيْبَةَ المَسْعَى ويا ذِلَّة الكَدحِ

وطافَ من الشّيطانِ في القوْمِ طائِفٌ   لما عَزَّ منْ خَطْبٍ وما مَسَّ منْ قَرْحِ

وما حُلَّ منْ عَقدٍ وعُجِّلَ منْ أذًى   وبُدِّدَ من شمْلٍ ورُوِّعَ منْ سَرْحِ

فاطْلعْتَ فيهِمْ من جُنودِكَ أنجُمًا   تجَلَّتْ وليْلُ الرّوْعِ منْسَدِلُ الجِنحِ[143]

---

(142) طلح : ضعيف.

(143) الجِنْح : الجناح.

لِمَا شُدَّ من أزرٍ وشُيِّدَ مَن حِمًى … وما راقَ مِن صُنْعٍ وما بانَ من نُجْحِ
وما عَمَّ من أمْنٍ وما لاَحَ من هُدًى … وما اعْتَزَّ من نصْرٍ وما فاز من قِدْحِ
لقدْ طَرقَتْهُمْ في مَنازِلِ طـارِقٍ … كَتائِبُ لا تنجِي ولكنّها تُنْجِي
فألْقَوْا يَدَ التسْليمِ طَوْعًا ولم يكُنْ … لِيَنْقادَ بَاغِيهِمْ إلى السِّلْمِ والصُّلْحِ
وجادوا بمَا ضَنُّوا بهِ ولَطالَما … تعَدُّوا بمَا اعْتادُوهُ مِن عادَةِ الشُّحِّ
وهَيْهاتَ عَن طَوعٍ يجودُ بواكِفٍ … من الغَيْثِ لِلوُرَّادِ منْ ضَنَّ بالنَّشْحِ[144]
لَقَدْ كَشَفَتْ عن سَاقِها الحَربُ وانثَنَتْ … كَما صَدَرتْ بِلْقِيسُ عنْ لُجّةِ الصَّرْحِ[145]
وقَدْ وَضَعَتْ أوْزارَهَا بَعْدَ عَزْمَةٍ … ثَنَتْ مِنهُمُ الأكْبادَ دامِيَةَ الجُرْحِ
فللّهِ منهاَ حينَ تابُوا وأصْلَحُوا … صِفاحٌ ثَنَتْها عنهُم عادَة الصَّفْحِ
فما شَرِعَتْ سُمْرٌ تَرى الطّعْنَ شِرْعَةً … ولاَ أعْمِلَتْ بِيضٌ تُوَكِّلُ بالمَسْحِ
مَآثِرُ مَوْلًى جادَ حِلْمًا ورأفَةً … بِمَا لَمْ تجُدْ يوْمًا بِهِ راحَة السَّمْحِ
وأوْلاهُمُ النُّعْمَى عَلى طوُلِ فَتْرَةٍ … فمن ديمَةٍ سَحٍّ على ظماٍ بَرْحِ
وكَفٌّ تكُفُّ المُعْتَدينَ ونائِلٍ … يجودُ على القصَّادِ بالوابِلِ السّحِّ
تَرَدَّدُ بين السَّيْفِ والسَّيْبِ كَفُّهُ … لِمَا شئتَ من منْعٍ وما شئْتَ من مَنحِ
فَجودٌ كَما جادَتْكَ واكِفَةُ الحَيا … وهدْيٌ كَما حَيَّتْكَ طالِعَةَ الصبْحِ - 68 -
فَطَلْعَتُهُ تحْكي لَنا صورَةَ الضحَى … وَعزْمتُهُ تَتْلو لهُ سُورَةَ الفَتْحِ
فيا شُهُبَ الهَدْيِ اسْتَبِينِي بأفْقِهِ … ويا سُحُبَ الإنْعامِ مِن كَفّه سُحّي
وكَم منْ جهادٍ مجْهِدٍ نفْسَهُ التي … مَتاجِرُها في اللهِ نامِيَةُ الرِّبْحِ
عَواليهِ في النَّقْعِ المُثارِ تخالُها … كَواكِبَ تَبْدو لِلدُّجُنّةِ في جنْحِ
وأسْيافُهُ تُبْدِي إذَا احْتَدَمَ الوغَى … من اللّمْعِ ما يَحْكِي البَوارِقَ في اللَّمْحِ

(144) النشح : الماء القليل.

(145) يشير إلى ما ورد في سورة النمل عن بلقيس : «قيل لها ادْخلي الصّرح، فلمّا رأتهُ حَسِبَتْه لُجّةً وكَشَفتْ عنْ ساقيها».

فلاَ بَرْقَ إلاَّ ما جَلاَ الغِمْدُ مَتْنَهُ ... ولا نجْمَ إلاّ ما عَلاَ عامِلَ الرُّمْحِ
تَصولُ عَلى الأعْداءِ حيْثُ نَجيعُها ... مَوارِدُ يُذْكِي وِرْدُها لأعِجَ البَرْحِ
أمَـوْلاَيَ خُذْهَـا لِلهَنـاءِ حَديقَـةً ... مُهَدَّلَـةَ الأدْواحِ صَيِّبَـةَ النَّفْـحِ
تُريكَ من النَّظْمِ البَدِيعِ قَلائِـدًا ... من الدُّرِّ تُزْري بالقلائِدِ والفَتحِ[146]
عَلى أنّني قصَّرتُ في وَصْفِكِ الذِي ... هُوَ البَحْرُ لا يفْنى على كثْرةِ المَتْحِ
إذا اللهُ قد أثنى عليْكَ فمَا الذي ... يُوَفّيهِ عبْدٌ مـن عبيـدِكَ بالمَـدْحِ

وعِنْدَما احْتَلَّ رِكابُهُ العَلِيِّ اليوسُفِيُّ إثْرَ ذلِكَ بجَبَل الفَتْحِ
قلتُ أصِفُ الحَالَ في السَّادِسِ والعشْرينَ لِجُمدى الأولى من العام.

نَفَّـرَتْ نَـوْمَكَ الظِّبـاءُ الأوانِسْ ... ونأتْ وَهْيَ في الضلُوعِ كَوانِسْ
وانْثَـنَتْ لِلـوداعِ ثـمَّ تَـولَّتْ ... فغَدَا القـلْبُ بَيْـنَ راجٍ وَآيسْ
أيْنَ رَبْعُ الحِمَى سَقَى فيهِ عَهْدًا ... قـدْ ألِفْنـاهُ كُـل عهْـدٍ بـاجِسْ
معْهَـدُ الأنْسِ لِلصِّبـا والـتَّصابي ... باعِثُ الوَجْدِ عِندَهُ الفِكْرُ هاجِسْ
إذْ تجَلَّتْ مِن الخُـدورِ بـدورٌ ... فانجَلَتْ فيهِ من دُجاها حَنـادِسْ
وانثَـنى الظَّبْيُ فيهِ غيْـر مَـرُوعٍ ... يَتْـرك الصَّبْـرَ شارِدًا وهْـوَ آنِسْ
مُجْتَلَّـى رائِـق وطـرْفٌ كَحيـلٌ ... وقَـوامٌ لَـدْنٌ وعِطْـفٌ مـائِسْ
أوُجـوهٌ أمِ البُـدورُ تجَـلَّتْ ... وقُـدودٌ أمِ الـغُصونُ مَـوائِسْ
وخُدودٌ يُحْنَى بِهَا الوَرْدُ لَـولاَ ... أنْ علَيْهـا مـن العُيونِ حَـوارِسْ - 69 -
وعُيـونٌ تُصيبُ كُـلَّ مُعَنَّـى ... فكِلاهَـا مَـا بَيْـنَ رامٍ ورامِسْ[147]
فعْلُهـا في القُلـوبِ إن لَحَظَتْهـا ... أيْـنَ منهُ فعلُ الكَمِـيِّ المَمَـارِسْ

(146) القلائد الثانية والفتح يشير بهما إلى كتاب قلائد العقيان للفتح ابن خاقان.
(147) في الأصل : فكلا. ويبدو أنّ الناسخ نسي ها، وحقها أن تكون : فكلّها، ولكن الوزن لايقبلها، ولها وجه. ورامس من الرمس وهو الدفن أو الرمي.

قدْ هَدتْ لِلغرامِ وهْيَ حَيارَى ... وأتَتْ بالسُّهادِ وهْيَ نَواعِسْ
ولقدْ جَدَّدَتْ هَوايَ فَتاةٌ ... تَرَكَتْ أرْبُعَ السُّلُوِّ دَوارِسْ
فالذي قاسَنِي بقَيْسٍ وقدْ ها ... مَ بلَيْلاهُ مُخْطِىءٌ في المَقايِسْ
آهَ يا راكِبَ المَطِيَّةِ يَبْغِي ... مغربَ الشَّمْسِ قِفْ بها واسْتانِسْ
ولْتَسَلْ عن منازِلِ القوْمِ حَلُّوا ... بيْنَ بَحْرٍ طامٍ ورَبْعٍ طامِسْ
أصْبَحوا والقِبابُ فيها صُدورٌ ... وَهُمُ كالظُّنونِ فيها هَواجِسْ
فإذا ما الغَمامُ جادَ بمَاءٍ ... خِلتَ فيهَا الرِّمَالَ وَهْيَ مَقابِسْ
أُفُقٌ تَبْسِمُ البَوارِقُ فيه ... لِدُموعٍ من الغَمامِ بَواجِسْ
وكذا يوسُفٌ لَدَى الرَّوْعِ يُلْفَى ... بَاسِمَ الثَّغْرِ والوُجوهُ عَوابِسْ
جَبَلُ الفَتْحِ قدْ حَلَلْنا لَدَيْهِ ... طَلَلاً موحِشًا بنا مُسْتانِسْ
يعْذُبُ الورْدُ فيهِ وهْوَ عَذابٌ ... مُرْسَلٌ للغَليلِ في القَلْبِ حابِسْ
بِمجانِي الفَتحِ التي قدْ أُتيحَتْ ... لِجَوادِ المجالِ بَدْرِ المجالِسْ
مَلِكُ العُدْوَتَيْنِ شَرْقًا وغَرْبًا ... مَن يُضاهِيهِ في العُلَى أوْ يُنافِسْ
يوسُفٌ ناصِرُ الخلائِفِ حَقًّا ... مَن يُجارِي خِلالَهُ أوْ يُجانِسْ
يُنجِزُ الوَعْدَ والزَّمانُ خَؤُونٌ ... ويُوَفِّي الحُقوقَ والدَّهْرُ بَاخِسْ
إنْ طَغَى مُعْتَدٍ وصَوَّحَ مَرْعًى ... أَسَدٌ عابِسٌ وغَيْثٌ بَاجِسْ
صابَ غَيْثًا وصَالَ لَيْثًا وحَيًّا ... صَبْحَ هَدْيٍ يجْلُو الخُطوبَ الروامِسْ
لِعَوالِيهِ في المَعالِي حَديثٌ ... صَحَّ إسْنادُهُ لأيْدِي الفَوارِسْ
يتَثَنَّى الخَطِّيُّ مِنها فيَجْلو ... ظُلَمَ الرَّوْعِ منْهُ جِذْوةُ قابِسْ
وكذا سَيفُهُ نَحيلٌ ولكن ... تتجافَى عنهُ الأسُودُ العَوابِسْ
رَقَّ حَتَّى كأنَّ منْهُ بصدْرِ الـ ... ـغِمْدِ لوْ لمْ يَشِمْهُ سِرٌّ هاجِسْ
هو فجْرٌ يجْلو الدَّياجي مُنيرٌ ... ومُثيرٌ من العَجاجِ حَنادِسْ
فَيُريكَ الصَّباحَ واللَّيْلُ داجٍ ... ويُعيدُ الظَّلامَ واليَوْمُ شامِسْ

كمْ جُمـوعٍ لِلغادِريـنَ تَـلاشَتْ ... في مَجالِ الأُسودِ منْهُمْ هَجارِسْ[148]
قـدْ أفاقُـوا مـنْ غفْلَـةٍ كان فيها ... ناظِـرُ الدَّهْـرِ عنْهُـم مُتَنـاعِسْ
ما لهُمْ والكَرَى لَدى الأسْدِ الوَرْ ... دِ الـذي تتَّقِي سُطاهُ الكَـرادِسْ
دانَ بالغَـدْرِ منهُـمُ كـلُّ بَـاغٍ ... حيْثُ أمْسَى وَهْوَ الشَّقِيُّ البـائِسْ
جَـرَّ ذيْـلَ الغُـرورِ والتِّيـهِ حَتَّـى ... خَلَعَ الّدهْرُ عنـهُ تِـلكَ المَـلاَبِسْ
مَن غَدا المَكْرُ فيه طبْعًا يُنافِـي ... شِيَـمَ المَكْرُمـاتِ كَيْـفَ يُنـافِسْ
حَالِكَ الرَّأيِ تحْتَ بيضٍ مَواضٍ ... يَنثنِـي وهْـوَ بيْـنَ دامٍ ودامِسْ
فَهُدَى اللّهِ قـدْ تَحامَـىٰ حِمـاهُ ... ومَـدا الحَتْـفِ قَرَّبتْـهُ المَـداعِسْ
يوسُفٌ نَاصِرُ الهُـدَى كَـفٌّ مِنْـهُ ... كَفُّ نـاهٍ عـنِ المَكـارِمِ نَـاهِسْ
يـا إمامًـا بِذِكْـرِهِ يَتَحَلَّـى ... ما عَـلاَ مـنَ مَنابِـرٍ ومَـدارِسْ
جَبَـلُ الفَتْـحِ قـدْ أتَـيتَ يُـوالي ... جُنْـدُكَ السّيْـرَ نحْـوَهُ ويُـوالِسْ[149]
وأحَـاطَتْ بِـهِ كَتـائِبُ تُنْمَـى ... لِعُلَـى اليُوسُفِـيِّ غُـلْبٌ أشَاوِسْ
بَـذَلَتْ في رِضَى عُـلاكَ نُفـوسًا ... قدْ أبَتْ أن تَذِلّ وهْـيَ نَفـائِسْ
وجَـلَتْ أوْجُـهُ الحُـروبِ عَلَيْـهِ ... أيْنَ مِنها حُروبُ جَلوَى وداحِسْ[150]
طالَمـا كان في نعيـمٍ مُقيـمٍ ... وعَلَيْـهِ مِـن ظِـلِّ أمْنِكَ حـارِسْ
تأْلَـفُ السُّهْـدَ كَـيْ تؤمّـنَ مِنْـهُ ... في رِضَى اللّهِ كُلّ جَفْنٍ نـاعِسْ
صارَ إرْثًـا مـنَ الغَنِـيِّ لِعَلِّيـا ... ثِكَ مـا شَادَهُ عَلِـيٌّ وفـارِسْ[151]
وقَضَى اللّـهُ أن تنكّـرَ حِينًـا ... طَوْعَ حادٍ في القَوْمِ للمَكْرِ حادِسْ

(148) هجارس جمع هجرس وهو القرد والثعلب.

(149) يوالس : يخادع. وناهس في قافية سابقة مثل ناهش وزنا ومعنى.

(150) داحس فرس لقيس بن زهير قامت بسببها حرب دامت أربعين سنة بين عبس وذبيان أما جلوى فهي أم داحس.

(151) الغني هو الغني بالله محمد الخامس وهو الذي انتزع جبل طارق من يد بني مرين وعلي هو أبو الحسن المريني وفارس هو ولده أبو عنان.

كُلُّ هـذَا لأن يُرَى لكَ مِلْكًـا   برقــاقٍ فَــوارِثٍ وفَـــوارِسْ
وَتُوقِّـي الخُطـوبَ وَهْـيَ عَـوادٍ   وتوَفِّي الحُقوقَ وهْـيَ بَـواخِسْ
هَــذِهِ مِنْحَــةٌ أعَــزُّ وأَسْنَــى   كـلُّ مَـلْكٍ منها خِـلافكَ آيسْ - 71 -
كُـلُّ مَـنْ أمَّهـا ورامَ سِباقًـا   في مداهَا لِقَصْدِه الدَّهـرُ عـاكِسْ
طالَمـــا رَوَّعَ الحوادِثَ قهْـــرًا   ذو أُنــاةٍ لِلاَمَــة الصَّبْــرِ لاَبِسْ
ولكـمْ بِتَّ إذْ حَلَـلْتَ حِمــاهُ   كافِيًــا مِــن مُنافِــقٍ وَمُنــافِسْ
بِمُعــاطٍ كاسَ الحُتــوفِ عِـدَاهُ   مُرْغِمٍ بالفتُوحِ منهُـمْ مَعـاطِسْ
وخَميسٍ حَفُّوا بِهِ حيْثُ يُرْجَـى   مَوْرِدُ الأمْنِ كَالعِشار الخَـوامِسْ
وتَلقَّـــوْكَ والعُيـــون تُوالِـــي   نَظَـر الخَوْفِ والرَّجـا وتُخـالِسْ
ذنبهُـمْ يُـوحِشُ النفـوسَ ولكـنْ   مـنكَ بالحِلْمِ والرِّضَى تَسْتـانِسْ
فتَجَلَّـى صَبـاحُ عَفْـوِكَ يَمْحـــو   من دُجَى الذَّنْبِ كُلَّ لَيْلٍ دامِسْ
وهَمَى مِن نـدَاكَ صَوْبُ غمَـامٍ   أيْنَ مِنْهُ نَدَى الغُيـوثِ الهَـواجِسْ
وأخــوكَ المُعِــزُّ أيْــنَ حُـــلاَهُ   في العُلَى منْ حُلا المُعِزِّ بنِ بادِسْ[152]
جَـدَّ لِلفَتْـحِ في رِضـاكَ فكَـمْ جَـــــــــدَّدَ لِلنّصرِ منْ عُهودٍ دَوارِسْ
فَهَنيئًـــا لَكَ الحُلــولُ بأُفـــقٍ   في مَعاليــهِ مَالــهُ مِـــن مجانِسْ
غَـرَسَ الجُـودُ مِنْكَ دَوْحَـةَ عِـزٍّ   وسَتَجْنِي ما جُودُ كَفِّكَ غـارِسْ

وَقلتُ فيمَا يَظْهَرُ مِنْها في الخامِسِ والعِشرينَ لرَمضانَ
عام سَبْعَة عَشر وثمَاني مِائة

هَنيئًا بِصنْعٍ نحْوَهُ النصْرُ قدْ خَطا   تَرامَى لهُ سَبْعًا وما قَصرَ الخُطَا

(152) المعز الأول هو أبو الحسن علي معز الدولة أخو يوسف الثالث والمعز بن بادس الصنهاجي ملك افريقية ولد سنة 398 وتوفي سنة 454 انظر ترجمته في وفيات الأعيان 5 : 233 ــ 235 وتبدو صيغة المقايسة مقلوبة إذ أن الشاعر يقصد تفضيل معز الدولة على المعز بن باديس.

وأقبَلَ طَوْعَ الفَتحِ لاَ مُتوانِيًا   عنِ الغَرَضِ الأقْصَى ولاَ مُتَثَبِّطَا
بطاعَتِكَ اعْتَزَّ المُلوكُ فَبادَرُوا   سِراعًا إلَى مَا شِئْتَهُ لَيْسَ بالبِطَا
وأيُّ غَمامِ الأفْقِ لَيْسَ يُمِدُّهُ   نَدَى يَدِكَ العُلْيا بِبَحْرٍ مِنَ العَطَا
بِذِكْرِكَ حادِي الرَّكْبِ في البِيدِ قد شَدا   فَحَلَّى بهِ الأسْماعَ دُرًّا وقُرْطَا
ومَن كابْنِ نصْرٍ مُنْعِمًا مُتطَوِّلاً   يجودُ ويُجْدِي رأْفَةً وتَبَسُّطَا - 72 -
إذا عبَس الروْعُ اغتَدَى مُتَبَسِّمًا   وإنْ قُبِضَتْ أيْدِي النَّدَى مُتَبَسِّطَا
رَوى جودُهُ عَنْ كفِّهِ صِلَةَ النَّدَى   فَللهِ ما يَرْوِيهِ عَن وَاصِلٍ عَطَا[153]
وإنْ عَدَلَتْ عن مَنْهَجِ الحَقِّ أُسْرَةٌ   غَدَا حُكْمُهُ بالسَّيْفِ والسَّيْبِ مُقْسِطَا
بعَزْمَتِهِ حاطَ البِلادَ فَما يُرَى   بأعْطَفَ مِنهُ في المُلوكِ وأحْوَطَا
رؤوفٌ عَطوفٌ منعِمٌ متَفَضِّلٌ   كَريمٌ حَليمٌ يغفِرُ العَمْدَ والخَطَا
هوَ العادِلُ الأرْضَى هُوَ الحَكَمُ الذي   إذا قَسَطَ الأمْلاَكُ في الحُكْمِ أَقْسَطَا[154]
يَضِلّ مُناوِيهِ وإنَّ يَمِينَهُ   لأَهْدَى لِطُرْقِ المَكْرُماتِ من القَطَا[155]
وكَمْ قد سَرَى يسْتَقْبِلُ النصْرَ عَزمُهُ   سُرًى ليسَ يُلْفَى للعَدُوّ بِها سُطَا[156]
يَنالُ المعالِي بالعَوالِي سِوَى الذي   عَلاَ صَهْوَةَ الأخْطارِ لِلعِزِّ وَامتَطَا
ومَن خطَبَ العَلْياءَ بالسُّمْرِ والظُّبَا   ويمّمَ أقْصاهَا أيُبغِي تَوَسُّطَا
فَلاَ صارِمٌ إلاّ إلى النَّصْرِ مُنْتَضًى   وَلاَ صاهِلٌ إلاّ إلى العِزِّ مُمْتَطَا
عَزائِمُ لَوْ أعْمِلْنَ للبَدْرِ ما ارتَقَى   وللبَحْرِ مااسْتَعْصَى وللدّهْرِ ما سَطَا
تهبُّ إلَى دَاعِي الرّشادِ جيَادُهُ   بأسْرَع مِن لَمْعِ البُروقِ وأنْشَطَا
فَمِنْ أشْهَبٍ كَالصُّبْحِ إذْ تَبِعَ الدُّجَى   وَغَادَرَ مِنْهُ الْفَوْدَ بالفَجْرِ أشْمَطَا[157]

(153) واصل وعطاء من اسماء رواة الحديث، وقد ورّى بهما الشاعر عن الوصل والعطاء.

(154) قسط : جار وأقسط : عدل.

(155) أهدى من القطا : مثل معروف، وقد استعمله الشاعر في غير ما استعمله الذي يقول :
تَميمٌ بطُرْقِ اللُّؤمِ أهْدَى مِن القَطا   ولَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ الرّشادِ لَضَلَّتِ

(156) سطا : جمع سطوة.

(157) أشمط : أبيض.

وأدْهَمَ يَحْكِي والصّباحُ حُجولُـهُ ... دُجًى والثُّرَيَّا حَلْيُهُ حِينَ يُمْتَطَـا
بعُلْياهُ تاهَ الطِّرْفُ وارْتاحَ عِندَمـا ... غدَا مُفرِجًا خَطبًا من الروْعِ مُفْرِطَا
فلمْ يَرْضَ في نَهْرِ المجرَّةِ مَـوْردًا ... ولاَ بإزاءِ الانْجُمِ الزُّهْـرِ مَرْبِطَـا
ومَن كابْنِ أنصارِ الرسُولِ الذي هَدَى ... إلَى الرُّشْدِ مَنْ ضَلّ السَّبيلَ وَخَلَّطَا
ومَنْ جَعَلَ الرُّوحَ الأمِينَ مصاحِبًا ... إذا هُوَ نَاجَى والبُرَاقَ إن امْتَطَا
وَطـابَتْ إلى يوْمِ القِيامَةِ طيْبَـةٌ ... بـهِ عِندَمـا آوَى إلَيْهـا وافْرَطَـا
فأضْحَتْ حِلاَلاً طالَمَا اغْتُفِرَتْ بِهَا ... خَطايَا البَرَايَا إذْ لَها تُعْمِلُ الخُطَا
وأُفُقًا إلَى الذّكْرِ الحَكيمِ ومَطْلِعًا ... ومَرْمًى إلى الوَحْيِ الكريمِ وَمَهْبِطَا
فهمْ نصَرُوهُ حيـنَ آوَى إلَيْهـمُ ... وكَفُّوا الغَوِيَّ المسْرِفَ المتَخمِّطَا[158] - 73 -
فكُلٌّ يُرَى حيْثُ الذّوابِلُ تَنثَنِـي ... لِلقْيَـا الأعـادِي منشِطًـا ومُنَشّطَـا
وكُلٌّ يُرَى حيْثُ الصّواهِلُ تَرتَمِي ... لهَـا في رِضاهُ مُفْرطًـا لاَمُفَرِّطَـا
وقيْسُ بْن سَعْدٍ لَمْ يَدَعْ مُتَخَلِّفًا ... بكُفْرٍ عن الدّينِ الحَنيفِ مُخَلِّطَـا
إذَا حادَ عن نهْجِ الهِدايَةِ مُلْحِدٌ ... تَمادَى علَى الحَقِّ المُبينِ وَاغْبَطَـا
وإن مالَ في الرَّوْعِ المروعُ أقامَهُ ... وثَبّتَ مـن يبْغِـي الفِـرارَ وَثَبَّطَـا
وقَدْ أنْجَبُوا من ناصر الدّينِ يُوسُفٍ ... إمَامًا يفوق السُّحْبَ في البَذْلِ والعَطَا
تَرَى نـورَ مَـرْآه وَجُـودَ يمينِـهِ ... إذَا البَدْرُ حَيًّا أوْ إذَا الغيثُ أفْرَطَا
وإن قَبَضتْ يُمْناهُ سَيفًا قَضَتْ بأنْ ... يَمُدَّ ظِـلاَلَ الأمْنِ فينـا ويَبْسُطَـا
وإن أرْسَلَتْ في حَوْمَةِ الحَرْبِ ذابِلاً ... تتَبَّعَ مـن لَـمْ يَبْـغِ عنهُ تَثَبُّطَـا
يضيقُ مجالُ الفَوْزِ عنْ كُلّ مُعْتَدٍ ... إذا هُوَ لِلْخَطّيِّ قد فَسَحَ الخُطَـا
فلِلّه أعْمـالُ العَوامِـلِ في الوَغَـى ... لقَدْ أمِنَتْ من أن تُراعَ فَتَخبَطَـا
وقَدْ صُفّتِ الأبطالُ حيثُ سُطُورُها ... تُخَطُّ فَتَثْنِي الخَطَّ لِلهَامِ مَسْقِطَـا

(158) المتخمّط : الثائر.

سُطورٌ عَلاَ حَدُّ الحَسَامِ حُروفَها ... لِيَشْكُلَها والسَّمْهَرِيُّ لِيَنْقُطَا[159]

ويَحْيَى الذِي قدْ فَرَّقَ اللَّهُ جَمْعَهُ ... فَفَرَّ إلَى أقْصَى البِلادِ وَفَرَّطَا[160]

وكانَ لَمَولاهُ حُقوقٌ عَظيمَةٌ ... عليْهِ وجَلَّتْ أن تُضاعَ وتغْمَطَا

ولكنَّ مِنْ تُرْضيهِ أفْعالُ غَدْرِهِ ... إذا رامَ انْ يُرْضِيَ اللَّهُ أسْخَطَا[161]

فلاَ أمَلٌ مِن قَبْلُ إلاّ مُخَيَّبٌ ... وَلا عمَلٌ من بَعْدُ إلاّ وأُحْبِطَا

فقدْ غَادَرَتْهُ حالُهُ واهِيَ القُوَى ... وفي وَحَلٍ مِنْ غدرِهِ مُتَوَرِّطَا

وأظهَر تَقْوَى اللهِ حِينًا وقدْ غَدَا ... لَئيمًا ذَميمًا فائِلَ الرَّأيِ امْعَطَا[162]

وخَادَعَ بالرُّجْعَى إليْهِ فَعِنْدَمَا ... تَروَّعَ في نارِ الجَحيمِ تَوَرَّطَا

ونَادَى عَلى بُعْدٍ أخاهُ فجاءَهُ ... وحَلَّ حِمَاهُ بَعْدَما كانَ أخْلَطَا[163]

لَقَدْ خَبَطَا عشْواءَ إذْ خَطَبَا التي ... بها كُلُّ شَرٍّ في الوُجودِ تَأَبَّطَا

يَرومانِ بالغَدْرِ اهْتِداءً وإنَّهُ ... لَيَقْضِي دُجاهُ أن يَتيهَا ويخْبِطَا - 74 -

وأُذْكِيَ سِقْطُ الزَّنْدِ في الفِتْنَة التي ... قَضتْ بعْدُ فيهَا أنْ يَذِلاّ وَيَسْقُطَا

وخَطَّتْ بِهُجْرِ القَوْلِ شُلَّتْ يَداهُمَا ... وما عَرَفَا خَطًّا ولاَ تَرَكَا خَطَا

فقالَ لسَانُ الخَطْبِ إذْ جارَ فيهِمَا ... ألا فاخْطُبَا إن شِئْتُمَا اليَوْمَ واخْططَا

أتَى بهِمَا المِقْدارُ قَسْرًا إلى الرَّدَى ... وقدْ أُنْشِطَ المَغْرورُ مِنْ حَيْثُ أنشِطَا

فَظَنّ بأنَّ الأرْضَ تحْمِي ذِمَارَهُ ... فأصْبَحَ فيهَا نادِمًا حِينَ أهْبِطَا

فبُشْرَى بهَا أسْرار غيْبٍ تحَجَّبَتْ ... بنَيْلِ المُنَى عنْهُنَّ قدْ رُفِعَ الغِطَا

ودُونَكَ يا مَولاَيَ مِنهَا قَوافِيًا ... تُؤَمِّلُ حَظًّا مِن قبُولِكَ مُنشِطَا

فَحَظِّيَ لِلأطْماعِ أمْسَى مُقَرَّبًا ... ولفْظِيَ لِلأسْماعِ أمْسَى مُقَرَّطَا

---

(159) السَّمْهري : الرّمْحُ الصلب. وفي الأصل، والسمهدي وهو تحريف.

(160) راجع ما كتبناه في المقدّمة حول يحيى هذا.

(161) الشطر الأخير مكسور، ولعله هكذا : إذا رامَ أنْ يَرى رِضَى الله أسْخَطا.

(162) أمْعَطُ : خبيث.

(163) أخْلَطَ : تردّد.

بَقيتَ تُبيدُ الكُفْرَ ما وَضَحَ الضُّحَى   وَمَا قَطَعَ البَيْدَاءَ للمَوْرِدِ القَطَا

وَمِنَ العِيدِيَّاتِ

قُلْتُ أهَنِّيءُ الخِلافَةَ اليوسُفِيَّةَ النَّاصِرِيَّةَ أدَامَ اللهُ أيَّامَهَا بعيدِ الفِطْرِ مِنْ عامِ أحَدَ عَشر وثَمَاني مِائة وَهِيَ أوّل عِيديَّةٍ هَنَّأتُهُ بِها مِنْ غَيْرِ إنْشَادٍ[164]

أمِنْ بَارِقٍ فِي الدُّجَى أوْمَضَا   حَنَنْتَ إلى ذِكْرِ عَهْدٍ مَضَى
كَأنَّ تألُّقَهُ مَوْهِنًا   شِهابٌ إلى الرَّجْمِ قَدْ قُيِّضَا[165]
كَأنَّ الدُّجَى سَلَّ زَنْجِيُّهُ   حُسَامًا عَلَى أُفْقِهِ وانتَضَى
كَأنَّ سَنَا الزهْرِ أزهَارَ رَوْضٍ   مِنَ النَّوْرِ بالنُّورِ قَدْ عُوِّضَا
كَأنَّ طَوالِعَ شهْبانِهَا   طَلائِعُ شُهْبٍ مَلأْنَ الفَضَا[166]
كَأن بها القَلْبَ قَلْبٌ مَشوقٌ   تَقَلَّبَ في جَمَراتِ الغَضَى - 75 -
كَأنَّ بها النّسر قُصَّ الجناحُ   لَهُ عِنْدَمَا رامَ أن يَنْهَضَا
كَأنَّ أخاهُ أخُو لَوْعَةٍ   فَلا هُوَ أغْفَى ولاَ غَمَّضَا[167]
كَأنَّ السُّهَى خَبرٌ هَاجِسٌ   بصَدْرٍ أَبَى السَّمْعُ أنْ يُرْفَضَا
كَأنَّ الهِلالَ عَلى أدْهَمٍ   مِنَ اللّيْلِ سَرْجٌ وقَدْ فُضِّضَا
كَأنَّ ثُرَيَّاهُ راحَةُ خَوْدٍ   تُعَوِّذُهُ خَمْسُهَا إذْ أضَا
كَأنَّ الظَّلامَ غَدا راحِلاً   أمَامَ الضُّحَى رَحْلُهُ قُوِضَا

---

(164) وردتِ هذه العيدية أيضا في مظهر النور الباصر، وقد مهّد لها الشاعر هناك بقوله : «وقلْتُ أُهنّيءُ مَقامه الكريم بعيد الفِطر من عام أحدَ عشَر وثماني مائة» (من ص 206 إلى ص 212).

(165) موهنًا أي في نحو نصف الليل.

(166) الشهبان : النّجوم، والشهب جمع أشهب نعت للخيل.

(167) يقصد ما يعرف بالنسْر الطائر وأخيه النسر الواقع.

كأنَّ سَنَى الصُّبحِ وجْهُ ابنِ نَصْرٍ   إمَامِ الهُدَى المَلِكِ المُرْتَضَى
إمَامٌ يَكُفُّ صرُوفَ الخطوبِ   ويَقضِي الزّمانَ بما قد قَضَى
مَظاهِرُهُ في العُلَى تُجْتَلَى   مَقاصِدهُ في النَّدَى تُرْتَضَى
فأعْلَى بهِ الدّينُ دِينَ الهُدَى   وكَمْ حجَّةٍ لِلعِدَى أدْحَضَا
وإنَّ مُحَيَّاهُ مَهْمَا بَدَا   أعَادَ ظَلامَ الدُّجَى أبْيَضَا
• فيوسُفٌ شَيَّدَ مَغْنَى العُلَى   ويوسُفُ مبْنَى العِدَا قوَّضَا
أناصِرَ دِينِ الهُدَى أشْبَهَتْ   عَزائِمُ منْكَ الظُّبَا في المَضَا
فَقُمْتَ بمَا قَعَدَ الدّهْرُ عَنْهُ   وداوَيْتَ بالجُودِ ما أمْرَضَا
تجودُ إذا ضَنَّ صَوْبُ الحَيَا   وتُقْبِلُ والدّهْرُ قدْ أعْرَضَا
وتُقبِلُ عنّا دَياجِي الخُطُوبِ   بنور هُدًى مِنكَ قدْ أعْرَضا[168]
وضَلَّتْ عُداتُكَ لمَّا غَدَا   بكَفِّكَ سَيْفُ الهُدَى مُنتضَى
فَترْجوكَ لِلسِّلْمِ أمْلاكُها   وتَخْشاكَ في الرَّوْعِ أسْدُ الغَضَى
لكَ الصدْقُ فادْعُ وَلِيَّ الهُدَى   إلَى ما ابْتَغَى وإلَى ما ارْتَضَى
وأعرِضْ عنِ الكفْرِ أوْ قُلْ لَهُ   أصَرَّحَ سَعْيُكَ أمْ عَرَّضَا
صِفاحِيَ لِلصَّفْحِ إرْجاؤُها   وَعَزمِيَ لِلبأسِ قدْ قُيِّضَا
وما لِحُلومِيَ أن تُسْتَخَفَّ   وما لِقَبولِيَ أنْ يُعْرِضَا
هوَ الحَقُّ مَوْلاَيَ فاصْدَعْ بهِ   مَرامًا تَسَنَّى وَحُكْمًا مَضَى - 76
وناصِرُهَا وابنُ أنصارِها   مَقامُكَ مُسْتَنْفِرًا مُنْهِضَا
فَما فَوَّقَ السَّهْمَ إلاّ رَمَى   ولاَ قَلَّدَ السَّيْفَ إلاّ نَضَى
لكَ انعَطفَتْ جَامِحاتُ الأمَاني   كَما تعْطِفُ السّابِقَ الرّيضَا
وادْرَاعُ حَرْبِكَ عَن نقْعِها   يَروقُ اجْتِلاَءُ الوُجوهِ الوِضَا

(168) أعرض في البيت قبله ضد أقبل، أما اعرض في هذا البيت فهي بمعنى ظهر.

وَريـــحُ الصَّبـــا نُشُرًا بيْنَهـــا تُثيــــرُ جَداوِلَهـــا الفُــــيَّضَا
ستُفْضِي إلَى الهُلْكِ أعْداءُ مَــنْ إلَـــى رَبِّـــه أمْـــرَهُ فَـــوَّضَا[169]
نَبـا سَيْفُهـــمْ وَكَبـا طِرفهُـــمْ ومَـــن لِلْمُقَيَّـــدِ أنْ يَنْـــهَضَا
فَهـا أفْـقُ أنجُمِهِـمْ لانْـقِضَاضٍ وَغايَـــةُ آمادِهِـــمْ لِانْـــقِضَا
ومَـــا قَـــدٌّ ذابِلِهِـــمْ لِانْتِهـــاءٍ وَلاَ حَـــدُّ مُرْهَفِهِـــمْ لِانْـــتِضَا
لأعْجَزْتَ مِـن هُـوَ آتٍ كَمـــا بعَـدْلِكَ أنسَيْتَ مَـا قَـدْ مَضَى
وَهُنِّــئْتَ عِيـدًا أتَـى بالمُنَـــى دُيــونُ المَعالِـي بِـهِ تُقْـتَضَى
ووَدّعَ شهْـرُ الصِّيـامِ الـــذي إلـيكَ المَــوَدَّةَ قَـدْ أمْـحَضَا
ووَدَّ المُقـامَ بمَثْـوَى العُلَـــى كَمـا شاءَ إخْـلاصُهُ واقْـتَضَى[170]
ولكِنَّـــــهُ عائِـــــدٌ عيـــــدُهُ بِمُقْتَبِـلِ الـنَّصْرِ لَمَّـا انْـقَضَى
بَقِـــيتَ لِأمْثالِـــهِ سَالِمًـــا وجَفْنُ الرّدَى عنْكَ قَدْ أغْمَضَا
أمَـــوْلايَ لِـــي أدبٌ روْضَةٌ نَـداكَ مَتَـــى جـــادَهُ رَوَّضَا
مَعــاذَ قِداحِـي بِــهِ أن تَخيبَ وحــاشَى عهــودُكَ أن تُنْــقَضَا
ومَا العَهْدُ إلاّ الذي لا انْتِقَـاضَ لِمَا أحْكَمَتْ منْهُ أيْدِي الـقَضَا
ولـيْسَ جُنـاحٌ عَلى الدَّهْـرِ إذْ أبَـــى لِجَناحِـــيَ أنْ يُخْــفَضَا
فإنِّـــي مَمْلـــوكُكَ المُرْتَجِـــي نَـداكَ المُؤَمِّـلُ مِـنكَ الـرِّضَا
أأخْضَعُ يومًـــا وَمِنِّـــي لَـــدى سواكَ الوسائِـــلُ لَـــن تُعْـــرَضَا
فـدُمْ للزّمـانِ الـذِي لا يُـرَى لِأيَّـامِ مُلْـكِكَ فِيــهِ انــقِضَا - 77 -

---

(169) أعداء من، كذا في الأصل، وفي مظهر النور الباصر : أعداء من، بخط الشاعر، وكتب فوق من كلمة مَوْلى، وكأنّهُ يقترح الثانية بدلا من الأولى.

(170) في الأصل : ووَدّع، وهو سبق قلم من الناسخ، وفي مظهر النور الباصر : ووَدّ

وَقُلْتُ مُهَنِّئاً المَقامَ العَلِيَّ اليُوسُفِيَّ أَسْماهُ اللهُ بأَضْحَى عامِ أَحَدَ عَشَرَ وَثماني مائة المُتَقدّمِ الذِّكْرِ(171)

أثارَ هَواهَا نُزّعًا تَشتَكِي الوجَا ... سَنا بارِق يهْدِي الرَّكائِبَ في الدُّجَا(172)
تألقَ خَفّاق الجَناحِ كَأَنّمَا ... غدا مُزجِيًا رَكْبَ السَّحائِبِ مُزْعِجا
أنارَ وقدْ أخفى الظّلامُ سَبيلَها ... فأسْرَعَ لِلتَّأْويبِ مَنْ باتَ مُدْلِجَا(173)
تَقولُ حُداةُ العِيسِ إذْ غَالَها السُّرى ... أَلَمْ يانِ لِلإصْباحِ أنْ يَتَبَلّجا
ألاَ يا خَليلَيَّ انزِلاَهَا مَعاهِدًا ... وَمُرّا عَلَيْها بالرِّكابِ وعَرِّجَا
لَعَهْدِي بهَا والحَيُّ في عَرَصاتِها ... يُحَيّا بمَا يُهْدِي جَنًى وتأَرُّجَا
وَصَوْبُ الْحَيَا حَلّ الْحُبَا فِي بِطاحِهَا ... فَلِلّهِ مَا أبْهَى حُلاَهَا وأبْهَجَا
كأنَّ سَقيطَ الطَّلِّ منْ قُضْبِ دَوْحِها ... مُرَدَّدُ لَفْظٍ مِن لسَانٍ تَلَجْلَجَا
مَعَاهِدُ لاَ تُخْفِي الصَّبَابَةَ إذْ غَدَا ... نَسيمُ صَبَاهَا لِلْغَرامِ مهَيِّجَا
ولِلوَخْدِ طِرْفٌ ما كَفَفْنا جِماحَهُ ... فجالَ بِمَيْدانِ التّصابِي وَهَمْلَجا(174)
ومائِلَةِ الأعْطافِ لمْ نَدْرِ قَبْلَها ... بأنَّ شُموسَ الأُفْقِ يَحْلُلْنَ هَوْدَجا
هِيَ الشَمْسُ يُسْتَجْلى سَناهَا وقدْ غَدا ... لَها البَدْرُ والجَوزاءُ قُرْطًا وَدُمْلُجَا
فمَن لمْ يُشاهِدْ وجْهَهَا وقَوامَهَا ... فَما البَدْرُ مُلْتَاحًا ولاَ الغُصْنُ رَجْرَجَا
ومَن هامَ بالحَسْناءِ مِن غَيْرِ حَيِّهَا ... فما القَدُّ مُرْتاحًا ولاَ اللّحْظُ أدْعَجَا
ومَنْ أمَّ بَحْرَ الجودِ وَالعِلْمِ لاَ يُرَى ... عَلى غيْرِ مَولانا ابْن نصْرٍ معَرّجَا
هُوَ اليُوسُفِيُّ الناصِرُ المَلكُ الذي ... عَزائِمُهُ تُخْشَى وَرُحْماهُ تُرْتَجَى

---

(171) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 212 إلى ص 216. وهذا نص تقديمها هناك : «وقلت أهنّئه أيّده الله في عيد الأضحى من عام أحد عشر وثماني مائة».

(172) نزّعًا أي إبلا غريبة، والوجا : الحفا ؛ وقوله : سنا بارق هو فاعل أثار.

(173) التأويب : سير النهار كله، والإدْلاج سير الليل كله.

(174) هملجَ : سار سَيْرًا حسنًا.

هُوَ اليُوسُفِيُّ العالِمُ العَلَمُ الذي ... عوامِلُهُ شُهْبٌ مِن النَّقْعِ في دُجَى
ألاَ عَدِّ عَنْ ذِكْرِ القَياصِرَة الأُلَى ... لَدَيْهِ ودَعْ كِسْرَى المُلوكِ مُتَوَّجَا
فَهذا إِمَامٌ تابعٌ جَدَّهُ الذي ... غَدا سَيِّدَ الأَنْصار أَوْسًا وخَزْرَجَا
وهذَا الذي مازالَ في الأَرْضِ أَمْنُهُ ... عَلى الخلقِ ظِلاٌّ في الهواجِرِ سَجْسَجَا[175] - 78 -
وهذا الذي مازالَ في اللّهِ سالِكًا ... سَبيلاً إلى النّصْرِ العَزِيزِ وَمَنْهَجَا
شَمائلُهُ تحْكي الشمائِلَ رِقَّةً ... وأَمْداحُهُ زَهْرَ الرِّياضِ تَأَرُّجَا
رَجَوْنا بهِ نيْلَ المَكارِمِ والعُلَى ... فلمَّا رأَيْنا وَجْهَهُ صَدَقَ الرَّجَا
فمِنْ عزْمَةٍ تكفي العِدَى وتكُفُّها ... ومِنْ جُودِ كَفٍّ لا تُخَيِّبُ مَن رَجَا
إذا ماجَ بَحْرُ الرَّوْعِ خاضَتْ غِمارَهُ ... صَوافِنُهُ تَحْكِي السّفِينَ المُلَجِّجَا
ومَهْمَا دَجَا لَيْلُ العَجاجِ أراكَ مِنْ ... مُحَيَّاهُ صُبْحًا لِلهُدَى مُتَبَلِّجَا
وقد أسْمَعَتْ غُرُّ الجيَادِ صَهيلَها ... ورَاقَتْ حَوالَيْها العَوالِي تَوشُّجَا
فتَحْسِبُ أن الحَرْبَ أَبْدَتْ حديقَةً ... بهَا القُضْبُ مُلْدًا والحَمائِمُ هُزَّجَا
أمَوْلاَيَ إنّ اللّهَ مازالَ مُلْهِمًا ... لأَجْمَلِ صُنْعٍ جاءَ بالنّصْرِ مُلْهِجَا
تعوجُ الأَعَادِي عَن لقائِكَ كُلّمَا ... تُقَوِّمُهُ رُمْحًا وتَعْلوهُ أَعْوَجَا[176]
فأسْمَرُكَ الخَطِّيُّ يلتاحُ نَصْلُهُ ... شِهابَ هُدًى لَيْلَ العَجاجَة مُفْرِجَا
وكَفُّكَ للعَافِينَ تندَى غمامَةً ... وسَيْفُكَ يُذْكِي جَاحِمًا مُتَأَجِّجَا
كَذلِكَ مِن شَأْنِ الغَمامِ انسِكابُها ... إذا ما تُريكَ البارِقَ المُتَوَهِّجَا
كأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَفَجْرُهُ ... حُسامُكَ يَبْدو خاضِبًا مُتَضَرِّجَا
كأَنَّ ميادِينَ الطِّراد صَحيفَةٌ ... يُرِيكَ بها الخَطِّيُّ خطًّا مُثَبَّجَا[177]
ولكنّهُ معْنَى سُعودِكَ مُوضِحٌ ... وُضوحَ النّجومِ الزُّهْرِ وَاللّيْلُ قدْ سَجَا

---

(175) ظلٌّ سجسج : لاحرٌّ ولا قرٌّ.
(176) أعوج : فرس مشهور تنسب إليه الخيل الأعوجية.
(177) التّثبيج : تعمية الخط، وخطٌّ مثبّج : غير بيّن.

لَكَ العَزْمُ إنْ أمْضَيْتَ أحْكامَهُ فَفي ... نُحُورِ عُداةِ الدّينِ قَدْ أصْبَحَتْ شَجَا
لَكَ العِلْمُ يَهْدِي كُلَّ مَنْ ضَلَّ رُشدَهُ ... وعَاجَ عنِ النّهْجِ القَويمِ وَعَرَّجا
وقَدْ عادَ عِيدٌ كان مِنْ قَبْلُ مُطْلِعًا ... مُحَيَّاكَ وَضَّاحَ الأسِرَّةِ أبْلَجَا
فَلِلّهِ يَوْمٌ قَدْ أرانَا حَقيقَةً ... مِنَ الطَّلْعَةِ الغَرَّاءِ صُبْحًا تَبلَّجَا
مَددتَ لِتَقْبيلِ الخَلائِقِ راحَةً ... يفُوقُ نَدَاهَا الزّاخِرَ المُتَمَوِّجَا
وهَلْ بَعْدَ أنْ قَبَّلْتُ كَفَّكَ آمِلاً ... أكونُ إلَى شَيْءٍ مِنَ الدّهْرِ مُحْوَجا
رَددتَ سِهامَ الدَّهْرِ حَتَّى تَقصَّدَتْ ... وقَدْ كان بَابُ القَصْدِ دونِي مُرْتَجَا - 79 -
فدُونَكَ يا مَوْلَى الوَرَى مِن مَدَائِحِي ... ثَناءً كأزْهارِ الرِّياضِ مُؤَرَّجَا
أتَيْتُ بهَا كالزُّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبَى ... فَراقَتْ ورَقَّتْ بَهْجَةً وتَأرُّجَا
حَياءً مِن التَّقْصير بالطِّرْسِ حُجِّبَتْ ... عَلَى أنّها حَسْناءُ تُبْدِي التَّبَرُّجَا
فَهُنِّئْتَهُ عِيدًا كَرِيمًا وَمَوسِمًا ... جَميلَ المُحَيَّا رائِقَ الحُسْنِ مُبْهِجَا
وَبُلِّغْتَ ما تَرْجوهُ بَدْءًا وَعَودَةً ... ولاَزِلْتَ في الأمْلاكِ أكْرَمَ مُرْتَجَى

وَقُلْتُ أهنِّئُهُ أيَّدَهُ الله ونَصَرَهُ بِعيدِ الفِطْرِ عامَ اثنَي عَشَرَ وثَماني مِائَة وقَدْ وَصَلَ السَّيِّدُ الأميرُ أبُو الحَسَن شَقيقُ مَوْلانا أيَّدَهُ الله بالجَيْشِ منْ غَزْوَةِ شُقورَه[178]

مَوْلايَ بُشْرَى بالزّمانِ المُقْبِلِ ... وبِما جَلاَ مِن وجْهِهِ المُتَهَلِّلِ
زَمَنٌ لِبُشْرَاهُ وَرائِق بِشرِهِ ... يَرْتاحُ كُلُّ مُكَبِّرٍ وَمُهَلِّلِ
زَمَنٌ جَلا وَجْهَ الفُتوحِ كأنّهُ ... شَمْسُ الظّهيرَةِ قَدْ بَدَت لِلْمُجْتَلي
وافَى مِن الفَتحِ المُبينِ بكُلِّ مَا ... بَهَرَ العُقولَ ولَمْ يَدَعْ مِن مَعْقِلِ
تَرْتاحُ أعْلامُ الجِهَادِ خَوافقًا ... تَهْفُو بهَا رِيحُ الصّبا والشَّمْألِ

---

(178) شقورة Segura كانت تقع في الحدود الشمالية لمملكة غرناطة.

هَذا الجِهادُ وإنّ مِثْلَكَ يَقْتَدِي ... فيهِ بآثارِ النَّبِيِّ المُرْسَلِ
هذا الهُدَى قَدْ لاحَ نورُ صَباحِهِ ... يَهْدِي سَبيلَ الرُّشْدِ كُلَّ مُضَلَّلِ
هذِي الفُتوحُ تَجِلُّ عنْ إخْفائِهَا ... فالحالُ ناطِقَةٌ بشَرْحِ المُجْمَلِ
وَافَتْكَ خافِضَةً لَدَيْكَ جناحَها ... وعِمادُ مُلْكِكَ يَسْتقِلّ ويَعْتَلِي
فانْهَضْ لِمَا قَدْ شِئتَ غيْرَ مُدافَعٍ ... تفْتَحْ بسَعْدِكَ كُلَّ بابٍ مقْفَلِ
حلَّ العُداةُ بمَأْمَنٍ أجْهدتهُمْ ... فيهِ بِيُمْنِ جِهادِكَ المُتَقَبَّلِ
لِلّهِ منْكَ مناقِبٌ بصِفاتِها ... طَاوَلْتَ أمْلاكَ الزَّمانِ الأوَّلِ
لِلّهِ مِنْكَ مكَارِمٌ ومَآثِرٌ ... مَن للرَّشيدِ بها وَلِلْمُتَوكِّلِ(179)
وجْهٌ إذا لاَحَتْ أشِعَّةُ نُورِهِ ... يُجْلَى الدُّجَى بصباحِهَا المُتَهلِّلِ - 80 -
كَفٌّ تَعُمُّ القاصِدِينَ هِباتَها ... فتكُفُّ غائِلَةَ الزَّمانِ المُمْحَلِ
تُنْضِي حُسامَكَ في الوَغَى فَتَخالُهُ ... نهْرًا بدَوْحٍ لِلْقَنَا مُتَهَدِّلِ
وتَهُزُّ ذابِلَكَ المُقَوَّمَ وهْوَ في ... لَيْلِ العَجاجَةِ كالشِّهابِ المُشْعَلِ
فلأنتَ منْصُورٌ وسَيْفُكَ قاهِرٌ ... وحِماكَ مامُونٌ وَقَدْرُكَ مُعْتَلِي(180)
شِيَمٌ لأنْصارِ النَّبِيِّ حَدِيثُها ... يَرْوِيهِ مِنْكُمْ آخِرٌ عنْ أوَّلِ
ولأهْلِ أندلُسٍ بِكَ النَّصْرُ الذي ... وَرِدُوا بهِ لِلفَتْحِ أعْذَبَ مَنْهَلِ
من مِثْلُ مَوْلانا الخليفَةِ يُوسُفٍ ... مَلِكٌ صِفاتُ كمالِهِ لمْ تجْهَلِ
مَلِكٌ يُقَسِّمُ حَرْبَهُ أوْ سَلْمَهُ ... بيْنَ الكَتائِبِ والكِتابِ المُنزَلِ
ما جالَ في آفاقِها مُتَطَلِّعًا ... إلاّ وَحَلَّ كُلَّ خَطْبٍ مُعْضِلِ
يا ناصِرَ الدِّينِ الّذِي بوُجُودِهِ ... نادَى الهُدَى بُشْرَى لِكُلِّ مُؤَمِّلِ
أرْسَلْتَ في الآفاقِ ديمَةَ رحْمَةٍ ... نِعمَ الوجُودُ بِجَوْدِها المُسْتَرْسِلِ
ورَفَعْتَ قَدْرَ أخيكَ تاليكَ الرِّضَى ... قُطْبِ الرَّحَى الأهْدَى أبي حَسَنٍ عَلِي(181)

(179) الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس.
(180) يُوَرّي بأسماء الخلفاء المذكورين.
(181) سقطت كلمة «الرحى» من الأصل.

اتْبَعْتَهُ مِنْ جُنْدِ نَصْرِكَ ما بِهِ   أوْهَنْتَ كَيْدَ الكَافِرِ المُتَحَيِّلِ
فَرَعَتْ ثَنَايَا المُعْتَدِينَ كُماتُهُ   بِعَزائِمٍ تَمضِي مَضاءَ المُنصُلِ
وبكَ اهْتَدى في الحَرْبِ لمَّا أن بَدَا   والدِّينُ قَدْ آوَى لأمْنَعِ مَوْئِلِ
وبكَ اقْتَدَى في الرَّوْعِ لمَّا حَلَّ مِن   صَدْرِ الكَتِيبَةِ في الرَّعِيلِ الأوَّلِ
لَمَّا الْتَقَى الجَمْعان في أرْضِ العِدَى   ورمَيْتَ جمْعَهُمُ بِبأسٍ مُعْجِلِ
نادَى بأبْطالِ الجِهادِ ألاَ اقدُمُوا   وأجالَ فيهِمْ نَظرةَ المُتأمِّلِ
فتسارَعُوا إلى دَاعِي الهُدَى   والرُّومُ عن سُبُلِ النَّجاةِ بِمَعْزِلِ
ضاقَتْ عَليْهِمْ أرْضُهُمْ فَتوقَّفُوا   والمَاءُ يجْمَعُ نفسَهُ في الجَدْوَلِ
وتجَمَّعَتْ فِرَقُ العِدا ثمَّ انثَنَتْ   ما بَيْنَ مُنْهَزِمٍ وبَيْنَ مُجَدَّلِ
شالَتْ نَعامَتُهُمْ سَرِيعًا بَعْدَما   وقَفوا وُقوفَ الخاضِعِ المُتَذَلِّلِ[182]
وتَسَلَّلوا طَوْعَ الفرَارِ وَجَمْعُهُمْ   قَدْ رِيعَ بَيْنَ مُذَلَّلٍ وَمُضَلَّلِ - 81 -
وأتَى وقدْ نالَ الذي قدْ شاءَهُ   مِن مَقْصَدٍ أسْنَى وَصُنْعٍ أجْمَلِ
فاهْنأْ بمَقْدَمِهِ الرِّضَى وَحُلولِهِ   مِن دارِكَ العُلْيا بأشْرَفِ مَنزلِ
واهْنأْ بأسْعَدِ مَوْسِمٍ وانْعَمْ بِهِ   فَوُرُودُهُ يقْضِي بنَيْلِ المَأمَلِ
وإلَيْكَها يا خَيْرَ مَن وَثِقتْ يَدِي   مِنْهُ بأكْرَمِ واهِبٍ مُتَفَضِّلِ
وبِملْكِ رِقِّي أيُّها المَلِكُ الرِّضَى   لَكَ لا بمَا أُبْدِي لَدَيْكَ تَوَسُّلِي
لازِلتَ مَنْصورَ اللِّواءِ مُؤَيَّدًا   تَكْفِي العِدَى في الحالِ والمسْتَقْبَلِ

وقُلْتُ أُهَنِّئُهُ أيَّدهُ الله ونَصرَهُ وأعْلَى مُلْكَهُ
وأظْهَره بأضْحَى عَامِ اثْنَي عَشَرَ وثمَاني مِائة

هوَ الهَدْيُ يُرْوَى إذْ تَجَلَّى فَحَيَّاكَا   عنِ البدْرِ عنْ شَمْسِ الضُّحَى عَن مُحَيَّاكَا

---

(182) شالت نعامتهم : كناية عن هزيمتهم.

وهذا حَديثُ الجودِ قدْ صحَّ مسْنَـدًا عنِ البَحْرِ عَن سُحْبِ الحَيا عَن عَطاياكا[183] - 82 -

وَقُلْتُ مَهَنِّئًا بِعِيدِ الفِطْرِ عَامَ ثَلاثَةَ عَشَرَ وثمَاني مِائَةَ وَقَدْ احْتَل رِكابُهُ العَلِيُّ بمَالَقَةَ ووَجَّه السُّلْطانَ السَّعيدَ مِنْها إلى بِلادِ المغربِ في السَّابِعَ عَشَر لرَمضان قَبلَهُ بمَا نَصُّهُ

هَنيئًا فقَدْ وافَتْ إلَيْكَ البشائِرُ وعَزَّتْ لأنصارِ النَّبيِّ عَشائِرُ
عَلَتْ بكَ للدّينِ الحَنيفِ وأهْلِهِ مَراقِبُ في أفْقِ العُلى ومَظاهِرُ
لكَ الطَّلْعَةُ الغَرَّاءُ والشّيمةُ التي بهَا المُلْكُ زاهٍ رائِقُ الوَصْفِ زاهِرُ
فَجودُكَ عنْ صَوْبِ الغمامَةِ واكِفٌ ووَجْهُكَ عَن نور الهِدايةِ سَافِرُ
تَرومُ مُلوكُ الأرْضِ شَأوَكَ في العُلَى وكُلٌّ عَنِ القصْدِ المُؤَمَّلِ قاصِرُ
لَئِنْ عَظُمَتْ أقْدارُها في العُلَى فَما تُوازِيكَ في العَلْياءِ لَكن توازِرُ
ولمَّا رأيْتَ الغرْبَ قدْ فُلّ غَرْبُهُ وأقْفَرَ مِن رَبْعِ الخِلافَةِ عامِرُ[184]
وقامَ ولِيُّ الكافِرينَ بعِبْئِها فكَمْ مُسْلِمٍ قد ذَلَّ واعْتَزَّ كافِرُ[185]
تَدارَكْتَها بابْنِ الخَلائِفِ مُنْعِمًا وسَيْبُكَ مبْذولٌ وسيْفُكَ قاهِرُ[186]
ومَاهِيَ إلاّ غادَةٌ طالَما دَعَتْ إمَامًا لهُ حِلمٌ عَن البَغْيِ زاجِرُ
ثَناهُ وفاءُ العَهْدِ عَنْها فلَمْ يَزَلْ يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِها وهْوَ قادِرُ[187]
إلَى أنْ شكَتْ ما نالَها وتَظَلَّمَتْ لَديْكَ وَقَدْ دارَتْ عَليْها الدوائِرُ

---

(183) بعد هذا بياض في الأصل مقداره صفحتان، وفي الطرة كتب الناسخ ما يلي : «كذا وجدت البياض في الأصل المنتسخ منه».

(184) الغرب : المغرب

(185) يعني السلطان أبا سعيد عثمان.

(186) يعني بابن الخلائف السعيد.

(187) الشطر الثاني للمتنبي ضمّنه الشاعر

فأوْلَيْتَ من نُعْماكَ ما قَدْ تَسَحَّبَتْ … عَلَى ظَمإٍ فيه السَّحابُ المَواطِرُ
وجَهَّزْتَ لِلنَّصْرِ العَزيزِ كتائِبًا … تُسارِعُ نحْوَ المُلْتَقى وَ تُبادِرُ - 84 -
يطولُ سُجودُ المُعْتَدينَ لهَا وَلا … مَحارِبَ إلاَّ ما أرَتْهَا الحَوافِرُ
وَلِلهِ كَمْ رامٍ لَدَيْهَا نِصالُهُ … كَواكِبُ أُفْقٍ والقَتامُ دَياجِرُ
سِهامُ قِسِيٍّ كالأهِلَّةِ تَرْتَمِي … لِرَجْمِ العِدَى مِنْها نُجومٌ زَواهِرُ
وأرْسَلْتَ في البَحْرِ الأساطِيلَ نُزَّعًا … تُراوِحُ أقْطارَ العِدَى وتُباكِرُ
يُراوِغُ بعْضٌ بَعْضَها مُتَلاعِبًا … كَما لَعِبَتْ وَسْطَ الفَلاةِ جآذِرُ
وقَدْ جَلَّلُوهَا بالسَّوادِ كأنَّما … مَجادِفُها هُدْبٌ وَهُنَّ نَواظِرُ
ويَطْفو حَبابُ المَاءِ في جَنَباتِها … كَما فتحَتْ وَسْطَ الرِّياضِ الأزاهِرُ
فَلِلهِ منهَا مُنْشآتٌ إذا رَسَتْ … لهَا فَلكٌ بالسَّعْدِ واليُمْنِ دائِرُ
وانْ هِيَ سارَتْ فهْيَ وقْفٌ عَلى الهُدى … تَدافِعُ عَنْ أحْزابِهِ وَتُصادِرُ
طِوالٌ عَلَى المَبْنَى الرَّفيعِ قَصرتَهَا … فَكانتْ كَغيدٍ قَدْ حَوتَها المَقاصِرُ
إلى أنْ دَعا داعِي العزائِمِ بَعْدَما … تَعيَّنَ مَشْروعٌ وبانَتْ مَعاذِرُ
جَلوْتَ لِأهْلِ الأرْضِ مِنْها عَجائِبًا … لهَا مَثَلٌ في الغَرْبِ والشّرْقِ سَائِرُ
وقَدْ حمَلَتْ مِن كلّ أرْوَعَ باسِلٍ … نَمَتْهُ إلى العَلْيَاءِ صِيدٌ أكابِرُ
دَرِيٍّ بِغاراتِ الحُروبِ مُثاقِفٌ … عَلِيمٌ بأسْرارِ الخِلافَةِ مَاهِرُ
يَقومُ بأعْباءِ السُّرى وهْوَ قاعِدٌ … يُقِيمُ صَغَا الهَيْجاءِ وهْوَ مُسافِرُ
يُغادِي العِدَى في مُلْتَقَى الحَرْبِ بالتي … إذا دَهِمَتْ ما مِنْهُمُ مَن تُغادِرُ
ألَمْ يَعْلَموا أنَّ الخليفَةَ يُوسُفًا … مَناقِبُهُ شُهْبَ السَّماءِ تُكاثِرُ
ألَمْ يَعْلَموا أنَّ ابْنَ نصْرٍ حُسامُهُ … عن الرَّوْعِ لاَ وانٍ ولاَ مُتَقاصِرُ
إذا حارَبَ ارْتاعَتْ لِذابِلِه العِدَى … وإنْ سالَمَ ارْتاحَتْ إلَيْهِ المَنابِرُ
لِناصِرِ دينِ اللّهِ عَزَّ جَنابُهُ … تُخَلَّدُ آثارٌ وتُتْلَى مَآثِرُ
عَلى الفَوْزِ بالحسْنَى مُعينٌ ومُنْجِدٌ … وَللدِّينِ والدُّنيا وَلِيٌّ وَناصِرُ

إلا إنّ مُلْكَ الغَرْبِ لم يُلْفَ بَعْدَها   بِشاكٍ ولكِـن للِصَّنيعَـةِ شاكِـرُ
بِعِزّكَ قد أضْحَى السَّعيدُ مملَّكًا   لهُ النَّصْرُ خِدْنٌ والنَّجاحُ مُوازِرُ - 85 -
وكانتْ نفوسُ الخَلْقِ تَرْتاحُ نحْوَهُ   ولـلشّوْقِ ناهٍ في القلوبِ وآمِـرُ
ونادَتْ مَرينٌ في أقاصِي بِلادِهَا   ألاَ سارِعُوا نحْوَ المَعالِي وبادِرُوا
ألاَ إنّها أسْرارُ غَيْبٍ تحجَّبَتْ   تُقصِّرُ عَنْ إدْراكِهِنَّ الضّمائِرُ
أبى الله ألاّ أن يَكُفَّ العِدَى وَهَلْ   يُغادَرُ في المُلْكِ المُهَنَّإِ غادِرُ
وما الغَدْرُ الاّ خُطَّةٌ ذَلّ رَبُّهَا   كَفَى بأمينِ المُلْكِ أنْ عَزَّ طاهِرُ[188م]
وإنَّ وَلِيَّ الغَدْرِ في كَلّ حالَةٍ   عَنِ الرُّشْدِ ساهٍ أو منَ الرَّوْعِ ساهِرُ
هُوَ الدهْرُ أبْدَى ذُلَّهُ بَعْدَ عِزِّهِ   وأظْهَرَ ما أخْفَتْهُ مِنْهُ السَّرائِرُ
وأوْرَدَ آراءَ النَّجاحِ بِزَعْمِهِ   مَوارِدَها لوْ أمْكَنتْهُ المَصادِرُ
وَهَلْ تَنفَعُ الأبصار إن لَمْ يَبِنْ لهَا   مِنَ الرشْدِ ما تُهْدِي إلَيْها البصَائِرُ
وهَل دانَ بالتّوْحيدِ مَن كان دائِمًا   يُوالِي مُوالِي شِرْكِهِ ويُظاهِرُ
فهُنّئتَهُ صُنْعًا جميلاً خَطيرُهُ   يَرُدُّ الذي والَى العِدَى وهْوَ صاغِرُ
وهُنِّئْتَ يا مَوْلَى الخَلائِفِ مَوْسِمًا   أتَى مِنْهُ بالبُشْرَى لبابِكَ زائِرُ
تَرحَّلَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكرَمَ ظاعِنٍ   بمَا قُمْتَهُ منْ حقّهِ لكَ شاكِرُ
وأقْبَلَ عيدُ الفِطْرِ أشْرَفَ قادِمٍ   يُوالِي حَثِيثًا سَيْرَهُ ويُبادِرُ
لِمالَقَةٍ جَدَّدْتَ عَهْدًا حَميدُهُ   مَدَى الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ولاَ هُوَ داثِرُ
حَلَلْتَ بِمَغْناهَا وَسَعْدُكَ واضِحٌ   وحِزْبُكَ منْصُورٌ وجُنْدُكَ ظافِرُ
وأوْحَشْتَ من دارِ الخلافَةِ مَنْزِلاً   حَديثُ عُلاهُ شائِعٌ مُتَواتِرُ
سَتَرْجِعُ والصُّنْعُ الجَميلُ مُحالِفٌ   وَمُلْكُكَ لِلأمْلاكِ ناهٍ وَآمِرُ
وتَبْقَى عَلى مَرّ الجَديدَيْنِ ناصِرًا   وَسَعْدُكَ فيهِمْ مالَهُ الدَّهْرَ آخِرُ[189]
أمَولايَ خذْها كالحَديقَة كُلَّما   يهبُّ نسيمٌ من ثَنائِكَ عَاطِرُ

(188م) يقصد طاهر بن الحسين الذي قتل الأمين ومهّد الخلافة للمامون.
(189) وسعدك، كتب فوقه : وجَدّك، أي أنّهما روايتان.

وأَهْدِي لبَحْرِ الجُـودِ منها قلائِـدًا ... وَمِنْ عَجَبٍ للبحْرِ تُهْدَى الجَواهرُ
إذا اللّهُ قد أثنَى عَلَيْكَ فما الذي ... يقـولُ بَلِيـغٌ أَوْ يُنَظِّـمُ شَاعِـرُ

- 86 -

وقُلْتُ أُهَنِّىءُ مَقامَهُ الكَرِيمَ أسماهُ اللهُ بعِيدِ الأضْحَى مِنْ عَامِ ثَلاثَةَ عَشر وَثَماني مِائَة، بالمحَلةِ مَنَ ظاهِرِ جبَلِ الفَتحِ عَصَمهُ اللهُ عنْدَ مُحاصَرَتِهِ والأخْذِ بِمُخَنَّقِهِ برًّا وبَحْرًا والتَّضْييق عَلى المَحَلةِ الغَربيَّةِ النَّازِلَةِ بإزائِه مَعَ الرَّئيسِ البَائِسِ المُحكَّم فيه سَيْفُهُ اليُوسُفِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ وقدْ فَرَّ إليْه بَعْضُ الغَادِرينَ المَارِقينَ مُرُوقَ السَّهْمِ عَنِ الدّينِ[190]

لكَ الهَدْيُ تجْلُوهُ الْعَزائِمُ مشْرِقَا ... فتَعْنو لهُ الأملاكُ غَرْبًا وَمَشْرِقَـا
تلوحُ ومِن مَرْعاكَ شَمْسُ هِدايَـةٍ ... أنَـارَ بأُفْـقِ المَعْلُـواتِ وأشْرَقَـا
جَلَوْتَ مِنَ الآياتِ مَا كانَ مُبْهَمًا ... وفتَحْتَ لِلحاجاتِ ما كانَ مُغْلَقَا
فجودٌ كَما أخْبرْتَ عَن واكِفِ الحَيَا ... وعَزْمٌ كَما حُدِّثْتَ عنْ أسَدِ اللّقَا
ومَن مِثْلُ مَولانا الخليفَـةِ يُـوسُفٍ ... عُلًى وحُلًى يا مَا أبَرَّ وأشْفَقَـا
إمـامٌ حَبَـاهُ اللهُ بالمُـلْكِ بَعْدَمـا ... تَخَيَّرَهُ مِن دَوْحَة النَّصْرِ وانْتَقَـى
له الحَزْمُ وَالإقْدامُ والشِّيَـمُ العُلَـى ... وبَذْلُ النّدَى والحِلْمُ والعِلْمُ والتُّقَى
لَـهُ عَزْمَـةٌ تُدْنِـي القَصِيَّ وَهِمَّـةٌ ... تَناهَتْ إلى أعْلَى الكَواكِبِ مُرْتَقى
فَيَجلُو خُطوبَ الدَّهْرِ نَيِّرُ عَزْمِـهِ ... كَما صَدَعَ الظَّلْمـاءَ بَـرْقٌ تَألَّقَـا
مُحَيَّـاهُ يحْكِـي البَـدْرَ لَيْلَةَ تَمِّـهِ ... ويُمْنـاهُ تحْكِـي العـارِضَ المتَدَفِّقَـا
فإن مَطَـلَ الإصْبـاحُ حَيًّا جَبينُـهُ ... وإنْ اخْلَفَتْ سُحْبُ الحَيَا جودُهُ سَقَى
حيَاةُ من استَجْدَى وهُلْكُ مَنِ اعْتَدَى ... وأمْنُ مَنِ اسْتَعْدَى وَفوْزُ مَنِ اتّقَى
غَدا فألْقَى قَبْلَ اللّقَا صُبْحَ عزْمِهِ ... وأقْدَمَ قَبْلَ الجَيْشِ لِلرعْبِ فَيْلَقَـا

(190) المحلة الغربية : يعني بها الجيش المغربي.

وإنْ وَعَدَ الوَعْدَ الجميلَ رَأيْتَهُ ... عَلَيْنا وفينَا صادِقًا مُتَصَدِّقَا
أمَوْلَى الوَرَى لِلهِ سَيْفُكَ كُلَّما ... يُفَرِّقُ مِنْ جَمْعِ العِدَى ما بِهِ التَقَى
يَهِيمُ بِحُبِ الهَامِ والحِلْمُ عاذِلٌ ... وبالعَذْلِ لاَ يَزْدادُ إلاّ تَعَشُّقَا
وأحْلَلْتَ جُنْدَ اللّهِ مَنْزِلَ طَارِقٍ ... فطَأْطَأَ منهُ الكُفْرُ راسًا وأطْرَقَا - 87 -
وقَدْ كَفَرَتْ نعْماكَ فِيهِ عِصابَةٌ ... فأرْعَدَ شَيْطانُ الضّلالِ وأبْرَقَا
ومازِلتَ مَوْلًى مُنْعِمًا مُتَفَضِّلاً ... عَطوفًا رَحيمًا بالخَلائِقِ مُشْفِقَا
ومَازِلتَ في الأمْلاكِ أعْظَمَ قادِرٍ ... يُرَى مُعْتِبًا أهْلَ الجِناياتِ مُعْتِقَا
فَيا مَجْمَعَ البَحْرَينِ أهْوِنْ بمَنْ أتَى ... يَرومُ لِشَمْلِ الدّينِ فيكَ تَفَرُّقَا
توارَى وقدْ حَفّتْ بِهِ شيعَةُ الهُدَى ... وأضْحَى بِهِ جُنْدُ العَزائِمِ مُحْدِقَا
وَضَلَّ طَرِيقَ الرُّشْدِ لاَ دَرّ دَرُّهُ ... فلَمْ يُلْفَ إلاَّ سَاهِرَ الجفْنِ مُطْرِقَا
فَمِن فَرَقٍ عَنْ حزْبِهِ كَفَّ إذْ رأى ... يَدَ اللّهِ تَعْلو مِنهُ بالسَّيفِ مَفرِقَا
عَجِبْنا لِمَن ناواكَ يَبْغِي تَعَزُّزًا ... ولمْ يُلْفَ مِن قَيْدِ المَذَلَّةِ مُطْلَقَا
أيامُلُ يوْمًا في البِلادِ تَقلُّبًا ... وقدْ رُدَّ عَنْهَا عَانَي القَلْبِ مُوثَقا
وَهَلْ يَعْقِدُ الرَّايَاتِ لِلنّصرِ غادِرٌ ... وَقَدْ حَلَّ عَهْدًا لِلْوَفاءِ ومَوْثِقَا
كأن بِلِسانِ الدَّهْرِ يُنْشِدُ مُفصِحًا ... تَبَدَّدَ جَمْعُ المُعْتَدِي وتفرَّقَا
ألاَ مَتِّعُوا الأحداقَ في الفِئَةِ التي ... أحاطَ بها رَيْبُ المَنونِ وأحْدَقَا
أتى أوْلِياءُ المُلْكِ مِن كُلّ جانِبٍ ... يَؤُمُّونَ غَيْثًا مِن نوالِكَ مُغْدِقَا
وَجَدُّوا كمَا جَدَّ الكَمِيّ لَدَى الوَغَى ... وقَدْ هَزّ مَصْقولَ الغِرارَيْنِ أزْرَقَا
مَرِينٌ وتُجيّنٌ وكُلُّ مُجاهِدٍ ... مِن العُرْبِ إنْ يلْقَ العِدَى تُلْفِهَا لَقًا(191)
وكُل شَريفِ المُنتَمَى دَعَواتُهُ ... مِنَ اللّهِ تُدْنِي حِينَ تَبْعُدُ مُرْتَقَى
وللِهِ قُوّادٌ لديْكَ تخالُهُمْ ... لَدَى الرَّوْعِ أسْبَى لِلْعُداةِ وأسْبَقَا
وانْ خَذَلَتْ نُعْماكَ في القَوْمِ أُسْرَةٌ ... فمَا أحْقَرَ المَسْعَى وأخْفَى وأخْفَقَا

(191) تجين : بنو تجين قبيل معروف. وَلَقًى أي ملقاة ومطروحة على الأرض.

لَكَ العِزُّ لا تحْفِلْ كَما شاءَتِ العُلَى بمَنْ دَحَضَتْ رِجْلاهُ في دَرَكِ الشَّقَا
ولاَ مِثْلَ من أرْسَلْتَ والنَّصْرُ خِدْنُهُ وَرقَّيْتَـهُ أوْجَ الخِلافَـةِ فارْتَقَـى
وأحْلَلْتَهُ مِـنْ مَنْـزِلِ العِزِّ والعُلَـى جَنابًا مَريعًا مُعْجِبَ الحسْنِ رَيِّقَـا
نَضَيْتَ عَلى الأعْداءِ منْـهُ مُشَهَّـرًا وأرْسَلْتَ مِن نجْلَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوِّقَا[191م]
فَلاَ أنْجحَ الرَّحْمانُ مسْعَى مُعانِدٍ إذا أخفقَتْ أعلامُ نَصْرِكَ أخْفَقَـا - 88 -
ولا فَلَّ سَيْفًا قدْ سَلَلْتَ مُشَهَّرًا ولاَ ردّ سَهْمًا قدْ رَمَيْتَ مُفوَّفـا
تَلاَفَيْتَ مُلْكَ الغَربِ إذْ فُلَّ غَرْبُهُ وجَدَّدتَـهُ مِـن بَعْدِمَـا كانَ أخْلَقَـا
وجَرَّدتَهـا مِلْءَ العُيـونِ سَوانحًـا تُباهِي بها زُهْرَ الكَـواكِبِ سُبَّقَـا
وأرْسَلْتَها طَوْعَ الفُتـوحِ سوابحًـا كَرَكْبِ السُّرَى يُبْدِي جِيادًا وأيْنُقَا
يَفِرُّ لَدَيْها المَاءُ في حالِ جَرْيِـهِ وقَـدْ منَـعَ المِقْـدارُ أن يَتفَرَّقَـا
وتَجْذُبُ أيْدِي القَوْمِ مِنْها مَجاذِفًا كَما جَذَبَتْ رِيحُ الصَّبا غُصُنَ النَّقَا
وكَم من شِراعٍ ظَلَّلَ الأُسْدَ فانْثَنى سَحابًا وغابًا كُلما انحطَّ وارْتَقَـى
تَرى الجَفْنَ مِنها يَنْثَني بَعْدَ سَيْرِهِ كَما التَفَتَ الحادِي هَوًى وتَشَوُّقَا
فَتَحْسِبُهُ في مَهْمَـهٍ ظَبـيَ مَكْـنِسٍ تَولَّـى نُفـورًا ثـمَّ أصْغَـى مُحَدِّقَـا
وهَذا كِتابُ الفَتْحِ وافَاكَ للـذِي لَدَيْكَ مِن الصُّنْعِ الجَميلِ مُصَدِّقَا
أتَاكَ مَن البُشْرَى بأصْدَقَ حُجَّـةً وأعْـجَبَ إخبَـارًا وأعْـذَبَ مَنطِقَـا
تَحَمَّلَ مِنْها الرَّكْبُ أكْرَمَ شِيمَـةٍ فـأشْأَمَ بالذِّكْـرِ الجَميـلِ وأعْرَقَـا
وقد أقْبَلَ الأضحَى فَوَفَّيْتَ حَقَّـهُ وإن كانَ رَبْعُ المُلْكِ أبْعَدَ مُلْتَقَى
سَتَرْجِعُ مامُونًا وقدْ جِئْتَ نـاصِرًا تُواخِـذُ مـنْصورًا وتَعْفـو مُوَفّقَـا
ودُونَكَ يَـا مَـوْلاَيَ دُرًّا مُـفَصَّلاً قدِ احْتَلَّ مِنْ جَدْوَاكَ بَحْرًا تَدَفَّقَا
أغوصُ عَلَيْـهِ للمَدائِـحِ فِـيكَ لاَ لِيُنظَـمَ في مَثْنَـى العُقـودِ ويُنْسَقَـا
أُحِبُّ مِنَ الأمْداحِ ما فيكَ نَظْمُهُ وما البِرُّ إلاّ أنْ أرَى مِنْهُ مُنْفِقَا
سَقَيتَ رُبَى فِكْرِي وأذْكَيْتَ نَارَهُ فَزَنْدِي قدْ أوْرَى ورَوضِيَ أوْرَقَـا

(191م) يتحدّث في هذه الأبيات عن «السّعيد وولديه عامر والمسعود».

وَهَبْتَ وقدْ رَفَّعْتَ عبْدَكَ مُنْعِمًا   فَرُحْماكَ فينَا منْفِقًا أوْ مُنَفِّقَا
إذا أنتَ بالإِصْغاءِ قابَلْت مِدْحَتِي   فمِثْلُكَ مَن رقّى وَمِثْلِيَ مَن رَقَا
وهَيْهاتَ لِلأيَّامِ أخْضَعُ بَعْدَمَا   تَفَيَّأْتُهُ دَوْحًا مِن العِزِّ مُونِقَا
بَقيتَ لدينِ اللهِ تُعْلِي جَنابَهُ   وَهُنِّئْتَهَا بُشْرَى ودامَ لكَ البَقَا

- 89 - **وأنْشَدتُهُ أيَّدهُ الله**

بالقبَّةِ مِنَ المشْوَر السَّعيد في عيد الفِطْرِ عَام أربَعَة عَشَرَ وَثَماني مِائة وهي أوّل عِيديَّةٍ أنْشَدْتُهَا بلَفْظِي بَيْنَ يَديْهِ بَعْدَ وِلاَيَتي كِتابَةَ سِرِّهِ شَكَر الله انعَامَه، وأدامَ أيَّامَه

مُحَيّاكَ يَهْدِي فَجْرُهُ المُتَوَضِّحُ   فَمَرْآهُ لِلأَبْصارِ مَرْقًى ومَطْمَحُ
وكَفُّكَ تَسْتَجْدِي العُفاةُ سَحابَها   فتُخْجِلُ صَوْبَ الغادِياتِ وتَفْضَحُ
إذا ما غَمامٌ سارَ أوْ عَلَمٌ رَسَا   فَمِنْكَ النّدَى والحِلْمُ أرْجَى وأرْجَحُ
وإنْ صابَ غَيثٌ أوْ تَطلَّعَ نَيِّرٌ   فَقَدْرُكَ أسْمَى أوْ عَطاياكَ أسْمَحُ
خلائِقُ مَا رَوْضُ المَكارِمِ عِنْدَها   هَشيمٌ وَلا مَرْعَى الأمَاني مُصَوِّحُ
عَوالِيكَ في الهَيْجاءِ تَهْوِي كأنَّها   كَواكِبُ في لَيْلٍ من النّقْعِ جُنَّحُ
أشِعَّتُها في مُلْتَقَى الحرْبِ أنجُمٌ   بلَيْلِ عَجاجٍ عَن مُحَيّاكَ يُصْبِحُ
إذا ما انجَلَى النقْعُ المُثارُ حَسِبْتَها   أزاهِرَ في خُضْرِ الرُّبَى تَتَفَتَّحُ
تَهُبُّ رِياحُ النَّصْرِ والحَرْبُ تَلْتَظِي   فَتَنفَحُ هَاذِي حَيثُ هاتِيكَ تَلْفَحُ
تَمُرُّ بَربْعِ الشِّرْكِ غيْرَ لَواقِحٍ   فَتَسْفِي ثَراهُ والعَوامِلُ تَسْفَحُ
كأنِّي بمَغناهُ وكُلُّ مُوَحِّدٍ   يُهَلِّلُ في أرْجائِهِ وَيُسَبِّحُ
وهامُ العِدَى تَعْلُو النَّجيعَ كأنَّها   حَبابٌ بِمَتْنِ اللُّجِّ يَطفُو وَيَطفَحُ
عَنِ النّاصِرِ المَوْلَى الخَليفَةِ يُوسُفٍ   تُرَوَّى احَاديثُ العُلَى وتُصَحَّحُ

شَمائِلُهُ كالرَّوْضِ هَبَّتْ شَمالُهُ … فأزْهارُهُ غِبَّ الغَمائِمِ تَنْفَحُ
إذا جادَ أُفْقٌ فهْوَ أنْدَى سَجِيّةً … وان لاَحَ صُبْحٌ فهْوَ أجْلَى وأوْضَحُ
وتَجْمَعُ بيْنَ السّيْفِ وَالسَّيْبِ كَفُّهُ … فتَمْنَعُ عنْ أقصَى البِلادِ وتمْنَحُ
يُناجيهِ عِنْدَ المنعِ بالمَنْحِ جُودُهُ … فيسمَعُ ما تُلْقِي عُلاهُ وَيَسْمَحُ
تَرَى الخَطّ والخَطِّيَّ طَوْعَ يَمينِهِ … أزاهِرَ دَوْحٍ قُضْبُهُ تَتَرَنَّحُ
ألاَ أنهُ مَولَى الخَلائِفِ يوسُفٌ … إمَامُ الهُدَى الفَذُّ الأغَرُّ المُمَدَّحُ
إمَامٌ يفوقُ الدَّهْرَ صَرْفًا عَلَى العِدَى … ويَعْفو عَن الذنْبِ العَظيمِ وَيَصْفَحُ
أقَرَّ لهُ بالفَضلِ كُلُّ معانِدٍ … فَقَرَّتْ عُيونُ المُومِنينَ وأفْلَحُوا
نَظَرتَ لِمُلْكِ الغَرْبِ يا مَلِكَ الهُدَى … بمَا الرَّأْيُ أنْجَى فيهِ والقَصْدُ أنجَحُ
وأضْمَرْتَ طَوْعَ الحِلْمِ كامِنَ عَزْمَةٍ … إلَى أنْ تَجَلَّى فجْرُها المُتَوَضِّحُ
فخابَ شَقِيٌّ قدْ ثَنَيْتَ عَنانَهُ … غَداةَ انثَنَى في غَيِّهِ وهْوَ يجْمَحُ
رَمَيْتَ بنورِ الهَدْي لَيْلَ ضَلالِهِ … فَلاَ فجْرُهُ منْ بَعْدِها يَتَوضَّحُ
تلاَفَيْتَ دينَ اللّهِ وهْوَ عَلى شَفاً … يُعَرَّضُ بالإتْلافِ ثُمَّ يُصَرَّحُ
وأمَّلْتَ تَمْهيدَ البِلادِ وإنَّها … لَيُذْكَى زِنادُ الخَوْفِ فيهَا ويُقْدَحُ
وإنَّ الذي بالمُلكِ عَزَّ لَصاغِرٌ … أيَطمَعُ فيهِ أوْ لِمَرْقاهُ يَطْمَحُ
يَرومُ سَبيلاً لِلنّجاةِ مُمَنَّعًا … أيُنْجِدُهُ القَصْدُ الذي لَيْسَ يُنْجِحُ
نَبا في يدَيْهِ الصَّارِمُ الصَّلْتُ وانثَنى … عنِ القَصْدِ فيهِ الذَّابِلُ المُتَرَنِّحُ
ومَن أسْلَمَ الايمَانَ للشّرْكَ عامِدًا … أيُفْلِتُ منْ قَيْدِ الهَوانِ وَيُفلِحُ
وحَلَّ عُرَى الاسْلامِ في عَقْدِ سَلْمِهِ … غَداةَ انثَنَى طَوْعًا لَها وهْوَ يجْنَحُ
إلى أنْ غدا قدْ أطْفَأَ اللّهُ نارَهُ … وكانتْ لِنَصْرِ المشرِكينَ تُلَوِّحُ
صَنائِعُ جَلَّتْ أنْ يُحيطَ بِوَصْفِها … بَليغٌ ولاَ في رَوْضِها الفِكْرُ يسْرَحُ
وقدْ كانَ فيهَا الحزمُ ضَيَّعَ بُرْهَةً … وَصُدِّقَ فيها المَاكِرُ المُتَنَصِّحُ
فَدارَكْتَ مَن أوْلَيْتَهُ النّصْرَ مُنْعِمًا … بعَزْمٍ يَفوقُ الرّاسِياتِ ويَرْجَحُ

وأُسْدِ رِجالٍ مِنْ جُنودِكَ كُلّما أُزِيحُوا عَنِ الهَيْجاءِ لَمْ يتَزَحْزَحُوا
كَتَائِبُ تُلْقِي عِنْدَ بابِكَ كُتْبُها مِنَ النَّصْرِ والتَأْيِيدِ ما لَيْسَ يُشْرَحُ
كأنّ مذاكيهَا لَدى الحَرْبِ تَرتَمي ظِباءٌ على كُثْبانِ رامَةَ تَسْنَحُ
تَخِفُّ إلَى الأَعداءِ وَهْيَ ثَوابِتٌ وتَخْتالُ زهْوًا في مَداهَا وتَمْرَحُ - 91 -
إذا اسْتَشْرَفَتْ فَهْيَ الظِّباءُ وان بَدَتْ لَها غرَرٌ فَهْيَ الكَواكِبُ تُلْمَحُ
عَلى انّ هَذي حَيْثُ تسْبِقُ لِلْعِدَى وتَبْدُو بلِيْلِ النَّقْعِ أسْنَى وأسْنَحُ
وحَضْرتُكَ العَلْياءُ عَزَّ جَنابُها حَديثُ عُلاهَا مُسْنَدٌ ومُصَحَّحُ
أقَامَتْ زَمانًا لَيْسَ تُطْلِعُ مِن سَنَا مُحَيَّاكَ بَدْرًا نورُهُ يتَوَضَّحُ
إلى أنْ حَلَلْتَ الآنَ هَالَةَ أُفْقِها كَما راقَ مِن شَمْسِ الصّباحِ تَوضُّحُ
لقَدْ أبْصر القُصَّادُ مَرْآكَ عِنْدَها فَلِلْعَيْنِ والآمالِ مَرْمًى ومَلْمَحُ
فبُشْرَى لَهُمْ أنْ أبْصَرُوا بشْرَكَ الذي يُتَرْجِمُ عَن نَيْلِ الأماني وَيُفْصِحُ
وبُشْرَى بِهِ عيدًا يَعودُ بكُلِّ مَا إلى نَيْلِهِ الآمالُ تَسْمُو وتَطْمَحُ
أتاكَ وقَدْ شَفَّ الغَرامُ هِلالَهُ وأنحَلَهُ الشَّوْقُ الحَثيثُ المُبَرِّحُ
ووَدَّعَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكْرَمَ ظاعِنٍ يُرَوِّي أحاديثَ العُلَى وَيُصحِّحُ
نأى وَهْوَ يثْنِي بالذي أنتَ أهْلُهُ وعِنْدَ جَميلِ الذكْرِ يُمْسِي وَيُصْبِحُ
يُرَجِّيكَ لِلدّنْيا وَ للدّينَ عِصْمَةً لَدَيْها غَدا حُكْمَ المُقامِ يُرَجِّحُ
ومَن ألفَ الإيمانَ والعِلْمَ والتُّقَى ونَيْلَ المَعالِي والنّدَى كَيفَ يَبْرَحُ
فَهُنِّئْتَهُ يوْمًا أغَرَّ ومَوْسِمًا غَدَتْ فيهِ أبْوابُ القَبولِ تُفَتَّحُ
ودُونَكَها مِنْ بحْرِ فكري لآلِئًا بمَنْظومِهَا جيدُ العُلَى يَتَوشَّحُ[192]
تَروقُ النُّهَى وصْفًا كأنَّ حَديقَةً بِها لِلصَّبَا مَسْرًى وَلِلعَيْنِ مَسْرَحُ
إذا اللّهُ قدْ أثْنَى عَلَيْكَ كِتابُهُ بماذا عَسَى يُثْنِي البَليغُ وَيَمْدَحُ
فأيُّ بَيانٍ عن مَعاليكَ مُنْبِىءٌ وأيُّ لِسَانٍ عَن صِفاتِكَ مُفْصِحُ

(192) في الأصل : ودونها، وهو سهو من الناسخ.

عَلَى أنّ مِن نعْماكَ صُبْحَ هِدايَةٍ   يُبينُ لِيَ النّهْجَ القَويمَ وَيُوضِحُ
تُطَوِّقُنِي طَوْقَ الحمامَةِ منعِمًا   فأُصْبِحُ في رَوضِ المَدائِحِ أصْدَحُ
فَللنَّثْرِ مِنها في المعاني مَدائِحٌ   وبالدُّرِّ مِنْها للغوانِي تَوَشُّحُ
دَعا لكَ بالتَّأْييدِ كُلّ مُوَحِّدٍ   لِذلِكَ أبْوابُ السَّماءِ تَفَتَّحُ
وتَدْعو لَكَ الرُّكْبان حَيث يَضُمُّهَا   مَقامٌ ورُكْنٌ يسْتَلامُ وأبْطَحُ - 92 -
فَخُلِّدتَ ما سَارَ الحَجيجُ إلَى مِنًى   ومَا هَلَّلُوا بالذِّكْرِ فيهِ وَسَبَّحوا

وأنْشَدْتُ في عِيد الأضْحَى مِنْ عَامِ أرْبَعَة عَشَرَ المذْكورِ بالمَحَلّةِ منْ ظاهِرِ جَبَلِ الفَتْحِ عَصَمَهُ الله في السَّفْرَة الثانِيَة إلَيْهِ في مجْتَمَعٍ هائِلٍ، يَقصُر عنْ وَصْفِهِ قوْلُ القائِل

هُدًى تَتجَلّى مِنْ سَناهُ المَشارِقُ   كَما لاَحَ صُبْحٌ أوْ تَطَلَّعَ شارِقُ
وَعَزْمٌ كأنّ الروْعَ سُلَّتْ سُيُوفُهُ   ونابَتْ عَنِ الأغْمادِ فيهِ المَفارِقُ
وَجود كَأنَّ البحْرُ لَذَّ مذاقُهُ   أوِ السُّحْبُ يَهْمِي جَوْدُهَا المَتَدافِقُ
وَذِكْرٌ كأنَّ الرَّوْضَ هَبَّ بِعَرْفِهِ   نسِيمُ الصّبا فارْتاحَ لِلطّيبِ ناشِقُ
وَغُرٌّ جيادٍ في مَدَى النَّصْرِ تَرْتَمِي   إلى مِثْلِها يُعْزَى الوَجيهُ ولاَحِقُ
وَبيضُ ظُبًى مَهْمَا أثارَ جِلادُهَا   سَحابَ قَتامٍ فَهْيَ فِيهِ بَوارِقُ
وسُمْرُ قَناً لَوْلاَ الأسِنَّةُ لاخْتَفَتْ   بِلَيْلِ عَجاجٍ هُنَّ فيهِ شَوارِقُ
فَيا راكِبَ الوجْناءِ يَبْتَدِرُ السُّرى   بِهَا وَهْوَ لِلحَيِّ الحِلالِ مُفارِقُ
ولَمْ يَثْنِهِ من بارق الأفْقِ نَيِّرٌ   كَعَذْبِ الثّنايا ما العُذَيْبُ وبَارِقُ
ولاَ راقَهُ خَيْفٌ بِهِ الوَجْدُ كامِنٌ   ولاَ شاقَهُ طيْف عَلَى البُعْدِ طارِقُ
وَلكِنّهُ يَبْغِي المَحامِدَ والعُلَى   فَيُهْدَى لَها حادٍ وتُحْدَى أيانِقُ
لِيَحْيَا ذَمَا القَلْبِ المقلّبِ كُلَّما   تُحَيّيهِ مِن رَوْضِ الأماني نَواشِقُ
عَلَيْكَ بمَوْلانا الخَليفَةِ يُوسُفٍ   فَهاتِيكَ أوْصافٌ لَهُ وخَلائِقُ

إمَامٌ لَهُ عِلْمٌ وَحِلْمٌ ونائِلٌ بِهِ خَابَ لاَحٍ كلَّما فازَ لاَحِقُ
مَآثِرهُ والوَصْف يَعْجِزُ نَظْمُهُ لَئالٍ بِهَا عِقْدُ العُلَى مُتَنَاسِقُ
مَكارِمُهُ والأفْقُ يُمْسِكُ غَيْثَهُ تَسيلُ عَلى العافينَ مِنْها مَدافِقُ - 93 -
عَزائِمُهُ والخَيْلُ تَبْتَدِرُ الوَغَى تُقَصرٌ عنهُنَّ الجِيادُ السَّوابِقُ
كَتائِبُهُ مَنْ ذا إذا هِي حارَبَتْ يُساوِي وأمْلاكَ السَّمَاءِ تُساوِقُ
وَآراؤُهُ والرَّوْعُ يَذْهَبُ بالنُّهَى تُصيبُ العِدَى مِنْها سِهامٌ رَواشِقُ
حَمَى وَهَمَى غيثا فَبالبَأسِ والنَّدَى حَقائِبُ تُثْنِي دائِمًا وحَقائِقُ
وأرْسَلَها طَوْعَ الفُتوحِ سَوابِقًا إذا ما انْبَرَتْ هوج الرِيَاحِ تُسابِقُ
وَقَيَّدَتِ الأجْفَانَ أجْفَانُهُ سَناً فَلاَ قَلْبَ إلاَّ وهْوَ في الحسْنِ عاشِقُ
قَدِ انْتَظَمَ الأبطالُ في جَنَباتِها صُفوفًا كمَا قد نظم العِقْدَ ناسِقُ
فَلِلّهِ مِنهَا في مَدَى الحَرْبِ تُجْتَلَى سَوابِحُ أوْ في البَرِّ منْها سَوابِقُ
لقدْ أنجَبَ الأنْصارُ مِنهُ خَليفَةً فَوافَى أخيرًا وهْوَ في المَجْدِ سابِقُ
إلَى اللّهِ هادٍ وهْوَ في اللّهِ ناصِرٌ مِن اللهِ مَنصورٌ وباللّهِ وَاثِقُ
إذا نامَ للبيضِ الرِّقاقِ مُضاجِعٌ وانْ قامَ لِلسُّمْرِ الطّوالِ مُعانِقُ
هُوَ الدَّهْرُ يا مَوْلَى المُلوكِ مُبادِرٌ لِما تَرْتَضِي مِنكَ المَعالِي مُسابِقُ
مَقامُكَ مَحمودٌ وَسَعيُكَ ناجِحٌ وَرِفْدُكَ مَبْذولٌ وَوَعْدُكَ صَادِقُ
وَرَأْيُكَ لِلصُّنْعِ الجَميلِ مُوافِقٌ وَعَزْمُكَ لِلنَّصْرِ العَزيز مُرافِقُ
ومُلْكُكَ للدِّينِ الحَنيفِ وأهْلِهِ يُصادِرُ عَن أوْطانِهِمْ وَيُصادِقُ
تُجرِّدُ سَيْفَ اللهِ كَفُّكَ في الوَغَى كَما لاَحَ أثناءَ الغَمامَةِ بَارِقُ
ولِلنَّقْعِ سُحْبٌ فَوقَ رَوْضٍ منَ القَنَا وحُمرُ الظُّبا في جانِبَيْهِ شَقائِقُ
وهَذا وَليُّ الكُفْرِ أخفَقَ سَعْيُهُ وخابَ وأعْلامُ الجِهادِ خَوافِقُ[193]

(193) يقصد أبا سعيد عثمان وعقده السلم مع فرناندو الأول ملك أرغون. راجع المقدمة.

وأحْكَمَ عَقْدَ السِّلْمِ يُرْضِي بِهَا العِدَى فَحُـلَّتْ عُهُـودٌ عِندَهَـا ومَوَاثِـقُ
لَئِيـمٌ غَـدا بـالسُّوءِ يَبْسُطُ كَفَّـهُ لِيَقْبِضَ بَسْطَ الرِّزْقِ وَاللَّـهُ رازِقُ
صِلاتُ النَّدَى لاَ تُرْتَجَى مِنْهُ إذْ لَهُ عَوائِدُ عَن قصْدِ النَّجاحِ عَوائِـقُ
ولَمَّـا تَدَلَّـى في مَهاوِي غُـرُورِهِ وضَلَّلَهُ داجٍ مِن الغَدْرِ غـاسِقُ
خَطَبْتَ بِـلادَ العُدْوَتَيْـنِ فأهْطَـعَتْ وَمِن قبْلُ ما صَدَّتْ خُطوبٌ طَوارِقُ - 94 -
وعادَ السَّعيدُ اليَوْمَ وهْـوَ مُمَـلَّكٌ فَأُمِّـنَ مَذْعـورٌ وأُفْـرِجَ ضَائِـقُ
يَحُـلُّ مِـنَ البَـيْضاءِ دَارَ إقامَـةٍ وليْسَ عَنِ القَصْدِ المؤمَّلِ عائِـقُ(194)
وتَعْلُو المَعالِي مَعْلَمَ النَّصْرِ عِنْدَهَا وتُجْلِي مجانِي الفتْحِ فيهَا المجانِـقُ
فتَسْتَنْـزِلُ الأَرْواحَ وهْـيَ صَواعِـدٌ وتَرْفَعُ طُورَ العِزّ وهْـيَ صَواعِـقُ
وما سَجَـدَ الـخَبُّ اللَّئِيمُ وإنمَـا تَجَلَّى لهُ نُورُ الهُدَى فهْوَ صاعِقُ
وَلِلّـهِ مِنْهَـا وِجْهَـةٌ نَاصِرِيَّـةٌ مَـذاهِبُ فيها لِلْعُلَـى وَطَرَائِـقُ
إلَى جَبَلِ الْفَتْحِ ابْتَـدَرْتَ بعَزْمَـةٍ يَخـيبُ مُنـاوٍ عِنْدهَـا ومُنافِـقُ
طَرقتَ حِمَى أقصَى البِلادِ تَمَنُّعًـا بِمَا لَمْ يَحُزْ في الفَتْحِ مُوسَى وطارِقُ
وسَيْفُكَ صَلْتٌ حَيْثُ بَأسُكَ كامِنٌ وقَلبُكَ ثَبْتٌ حيْثُ بَنْدُكَ خافِـقُ
تَفوقُ بُـروجَ الأُفْـقِ أبْراجُـهُ فَمـا كَواكِبُـهُ إلاَّ خَـوافٍ خَوافِـقُ
ولَـمْ لا تُباهِـي أُفْقَـهُ ونجومَـهُ قَلائِـدُ في لَبَّاتِهَـا .وَمَناطِـقُ
ولكِـن بـهِ قَـوْمٌ أباحُـوا ذِمـارَهُ ببغْـيٍ فَنـاعٍ في ذُراهُ وناعِـقُ
لَقَدْ كَفَرُوا نعْماكَ لاَ درَّ دَرُّهُـمْ فَجَلَّتْ بِهِمْ طَوْعَ البَـوارِ البَوائِـقُ
ولـوْ قـدْ أجابُـوا دَعْـوَةً يوسُفِيَّـةً لَمُدَّ مِن السِّتْـرِ الجَميـلِ سُرادِقُ
إذا ما دَجَى لَيْلُ الخطايَا فيوسُفٌ لِصُبْحِ الرِّضَى والعَفْوِ والحِلْمِ فالِقُ
يَقـولُ لِسانُ الفَتْـحِ في عَرَصاتِـهِ ألاَ سارِعُوا لِلعِزّ طَوْعًـا وَسابِقُـوا
وقَدْ نالَ منهُمْ قصْدَهُ جُندُكَ الذِي لَهُ قائِدٌ مِـن عِزِّ نَصْرِكَ سائِـقُ

---

(194) البيضاء هي فاس الجديد.

وَيَسْتَوْقِفُ الأبصارَ رَمْيُ قِسِيِّهِ   فِراقَ النُّهَى رامٍ لَدَيْهِ ورَامِقُ
تَمَنَّعَ واسْتَعْصَى كَما كَتَمَ الهَوى   على الرَّغْمِ صَبٌّ لِلمَحاسِنِ شائِقُ
ومَا هُوَ إلاّ في يَدَيْكَ زِمامُهُ   كَما آبَ مِنْ بعْدِ القطيعَةِ آبِقُ
عَقيلَةُ حُسْنٍ طَارَدَتْ بِوِصالِهَا   لِكَيْما تُوافِي بالرِّضَى وتُوافِقُ
فَلِلْمَنْحِ بَعْدَ المَنْعِ أعْذَبُ مَوْقِعٍ   أَيَحْظَى بِمَعْنَى القُرْبِ مَن لاَ يُفارِقُ
وقدْ جاءَكَ الأضحَى فَوفَّيْتَ حَقَّهُ   بِما هوَ بالدنْيا وبالدِّينِ لاَئِقُ
لِذلِكَ تُثْنِي بالذي أنْتَ أهْلُهُ   مَغارِبُ مِن آفاقِهَا ومَشارِقُ
فهُنِّئْتَهُ يوْمًا أغرَّ ومَوْسِمًا   كَريمًا لهُ الصُّنْعُ الجَميلُ مُرافِقُ
أمَوْلاَيَ ما وَفَّى وإنْ كُنتُ مُبْدِعًا   مِنَ الوَصْفِ قصْدِي ما بِهِ أنا ناطِقُ
وَلَوْ كان مِن جِنْحِ الظلاَمِ أمِدَّةٌ   لَدَيَّ ومِن نُورِ الصَّباحِ مَهارِقُ
فَدونكَها مِن خِدْرِ فكرِيَ غادَةٌ   تُقَصِّرُ عنْهَا في الخُدورِ العَواتِقُ
فَلَوْلاكَ ماذاعَتْ نَواسِمُ فِكرَتِي   ورَقَّتْ فَراقَتْ لِلنِّظامِ حَدائِقُ
ولاَ كانَ مِنْ نَظْمِي إذا رُمْتُ مِدْحَةً   يُحَيِّيكَ رَوْضٌ رائِعُ الحُسْنِ رائِقُ
فَخُلِّدَت ما سارَ الحجيجُ إلَى مِنًى   ومَا لاَحَ في جنحِ الدُّجُنَّةِ بَارِقُ

ولمَّا أطَلَّ عِيد الفطْرِ مِنْ عَامِ خمسَةَ عَشَرَ وَثماني مائَة
أنشَدتُ مَولاَنا أيَّدَهُ اللهُ برِياضِ السَّيِّد[195] من خارِجِ مالَقَة حرَسَها
الله وقدْ تَدارَكَ اللهُ الوُجودَ بِرَحْمَتِهِ واسْتَرْسَلتِ الأمْطارُ بعْدَ
حُلولِ رِكابِهِ العَليّ بهَا إثْرَ قَحْطٍ أصابَهَا وجَهْدٍ عَظيمٍ رَابَها
وألْمَمْتُ بِذِكْرِ هَزيمَةٍ انجَرّتْ عَلَى السُّلْطانِ السَّعيدِ بِظاهِرِ فاس

هذِي سُعودُكَ قدْ حَيَّتْ طَوالِعُها   وَاسْتَشْرَفَتْ مِن ثَنايَاهَا طَلائِعُهَا
آثارُ مُلْكِكَ لا تَبْلَى نَضارَتُها   أنْوارُ أُفْقِكَ لاَ تَخْبو سَواطِعُها

(195) رياض السيد : قصر بمالقة أسسه أحد «السادة» الموحدّين.

آيـاتُ حَمْدِكَ تُسْتَجْلَى مواقِعُهَـا   إيَـاتُ هَـذيكَ تُسْتَجْلَى نَواصِعُهَـا
مـا يَمَّمَتْ بـابَكَ الـقُصَّادُ آمِلَـةً   إلاّ تَدانَـى مِـنَ الأمـالِ شَاسِعُهَـا
أبـوابُ عـزٍّ بِهَـا الأخْبـارُ وَارِدَةٌ   فالسَّيْفُ شارِحُهَا والسَّيْبُ شارِعُهَا
بيـوسُفٍ مَـلِكِ الأمْـلاكِ ناصِرهَـا   بَـانَتْ شَعائِرُهَـا قـامَتْ شرائِعُهَـا
أمَا له الهِمَّةُ العُلْيَا فَمَا وَضَحَتْ   مَـراقِبُ العِزِّ الاّ وهْـوَ فارِعُهَـا - 96 -
أما لهُ الكَرَمُ المَحْضُ الذي أخذَتْ   عَنْهُ الغَمائِمُ إذْ جـادتْ هَوامِعُهَـا
أمَا لَهُ الشِّيَمُ الغُرُّ التي جُليَـتْ   كَواكِبًا لَمْ تَزَلْ تَهْدِي طَوالِعُهَـا
أمَا لهُ العَزَماتُ المَاضِياتُ كَمـا   هُزّ الحُسامُ وخاضَ الحربَ دارِعُهَا
أمَا لَهُ المَكْرُماتُ السَّائِرَاتُ ثَنَـى   كالشَّمْسِ يُجْلَى عَلى الآفاقِ شائِعُهَا
فالشُّهْبُ مِـن نُـورِ مَـرْآهُ أشِعَّتُهَـا   والسُّحْبُ مِن جودِ كَفَيْهِ يَنابِعُهَـا
والغربُ يا طالَمَـا وَدَّتْ خِلافَتُـهُ   لَدَيْـهِ لَـوْ أنّهَـا رُدَّتْ ودَائِعُهَــا
هـذا مُناوِيـهِ قَـدْ وَلَّتْ كَتائِبُــهُ   والـرُّعْبُ يَقْدُمُها والسَّيْفُ تابِعُهَـا
كَأنَّنِـي بِـلِسَانِ الدهْـرِ يُنْشِدُهَـا   أنّـي بأسْبـابِ عِزٍّ وهْوَ قاطِعُهَـا
تَبًّالطائفـةٍ طــافَ الهَــوانُ بِهَــا   تُخـادِعُ اللهَ سِرًّا وهْـوَ خادِعُهَــا
مِنَ الفِرارِ إلى دارِ البَوارِ مَضَتْ   فَمــا مَصارِفُهَــا إلاّ مَصارِعُهَــا
ولِلعَوامِلِ في هَـامِ العِـدَى عَمَـلٌ   فالسَّيْفُ خافِضُهَا والرُّمْـحُ رافِعُهَـا
كأنَّ بيضَ الظُّبَا والنقْـعُ مُـنْسَدِلٌ   بَوارِقٌ قدْ جَلاَ الظّلْماءَ صَادِعُهَـا
وربَّمَا جالَتِ الأبطالُ حيْثُ غَـدَا   لَيْـلُ العَجاجَـةِ تَجلُـوهُ مَدارِعُهَـا
كانَتْ خِلافَتُهُ رَوْضًا فَها هِيَ قدْ   أضحَى هَشيمًا بنارِ الحَرْبِ يانِعُهَا
أيَخْـطُبُ السِّلْـمَ والبَيْضاءُ مانِحَـةٌ   حُلـولَ أرْجائِهَـا لا كانَ مانِعُهَـا
كَتائِبُ النَّصْرِ إذ حَلَّتْ بسَاحَتِهَا   كَرْهًـا تُوَدِّعُهَـا طَوْعًـا تُوادِعُهَـا
وكَيفَ تُدْفَعُ عنْ فاسٍ أُسودُ وَغًى   ومَــا مرابِضُهَــا إلاّ مَرابِعُهَــا
إنْ أجْفَلَتْ فِئَةُ التوْحيدِ ها هِيَ قدْ   عَـادَت تنـازِلُ فيها مَـنْ يُنازِعُهَـا

وقائِعٌ مـحَّصَ اللهُ العِبـادَ بِهـا ... حَتَّـى تَبيَّـنَ عَاصِيهَـا وَطائِعُهَـا

إن كان ضُيِّعَ حَزْمٌ عِندَمَا افْتَرقَتْ ... فـإنَّ جـودَكَ حامِيهَـا وجامِعُهَـا

هـذَا نـداكَ بِـهِ نيـلتْ مَطالِبُهَـا ... هذَا هُداكَ بِهِ راقتْ مَطالِعُهَـا(196)

وإنَّ مُلْكَكَ وافِيهَا وقَدْ عَـرَضَتْ ... لَها الحَوادِثُ حَتَّى خيفَ واقِعُهَا - 97 -

فاسْتَشْعَرْتَ بِجَميلِ الصُّنْعِ حينَ عَلَتْ ... بالنَّصْرِ مِنْكَ عَلَى الشِّعْرى مَصانِعُهَا

فَقَرَّ عيْنًا كَمَا شاءَ الوَلـيُّ بهَـا ... وفـازَ بالعِـزِّ رائيهَـا وسامِعُهَـا

إذْ شيَّدَ الصُّنْعُ لِلنَّصْرِ العَزيزِ بِهَا ... مَصانِعًـا يَبْهَـرُ الألْبـابَ رائِعُهَـا

مَن كابْنِ نَصْرٍ حُلاً مأْثورَةً وعُلاً ... مُضيعُهَـا قـاصِرٌ عَنْهَـا وطائِعُهَـا

هَـذا وإنّ تِلِمْسانًا بـهِ انـتَصَرَتْ ... مُلوكُهـا ومَعالِيـهِ تُراجِعُهَـا(197)

فَـحَثَّ سائِحُهَـا سَيـرًا لِسابِحِهَـا ... وَبَثَّ نجْـواهُ داعِيهَـا وَضارِعُهـا

هوَ الجهـادُ فـإن باعُـوا نُفوسَهُـمُ ... مِـن رَبِّهِـمْ فـازَ بالدَّارَيْـنِ بائِعُهـا

وحَـلَّ مالَقَـةً والنّـاسُ قـدْ يَـئِسُوا ... مِن رحْمَةٍ عَنهُمُ ماضاقَ واسِعُهَا

أضْحَتْ لَديْهَا نُفوسُ الخلْقِ خائِفَةً ... لا يَهْتَدِي لِسَبيلِ الأمْنِ جازِعُهَـا

قدْ أوْبَقَتْهُمْ خَطايَاهُمْ وليسَ سِوَى ... جِهَـادِهِ في سَبيـلِ اللهِ شافِعُهَـا

صَنائِـعُ اللّـهِ لمَّـا حَـل ساحَتَهـا ... فَضْلاً بهَا قدْ حَباهُ اللّهُ صانِعُهَا

فـأشْرَقَتْ أوْجُـهُ البُشْرَى بنَاشِئَـةٍ ... مِن الغَمامِ قـدِ انْهَـلَّتْ مَدامِعُهَـا

حَيًّا الحَيَـا وجُفـونُ الزَّهْـرِ نائِمَـةٌ ... والآن لا يالفُ الإغْفـاءَ هاجِعُهَـا

لَلّـهِ نـاضِرَةٌ مِنهَـا وناظِـرَةٌ ... تَنبَّـهَتْ بعْدَمَا أغْـفَـتْ هَواجِعُهَـا

هَـذي بَواسِمُهَـا رَقَّتْ نَواسِمُهـا ... هِـذِي مَنازِلُهَـا رَقَّتْ منازِعُهَـا

خَيْلُ النـواسِمِ لا تَثْنِـي أعِنَّتَهَـا ... عَنِ الرَّوابِي التِـي راقَتْ رَوائِعُهَـا

ومالَتِ القُضْبُ زَهْوًا كُلَّمَا نَزَعَتْ ... لَهـا فنازِلُهَـا يَثْنِيـهِ نَازِعُهـا

---

(196) يشير الشاعر إلى الأموال التي كان ممدوحه يبذرها في إثارة الفتنة.

(197) هذا يشير إلى تواطؤ الممدوح مع بني عبد الواد على بني مرين.

وربَّما قدْ تُقيمُ الرّيحُ مائِلهَا   كَما يُقيمُ صَغا الأبطالِ وَازِعُهَا
هذَا وهُنِّئْتَ عِيدَ الفطْرِ إذْ ورَدَتْ   فيهِ البَشائِرُ تُستَحْلَى مَواقِعُهَا
طَلَعْتَ فيهِ وَمِن مَرْآكَ شمْسُ ضُحًى   تُجْلَى فَيَجْلُو دُجَى الظَّلْماءِ سَاطِعُهَا
فاهْنأْ بِهِ ولنَا الهَناءُ بأنْ   مُدَّتْ لنَا يَدُكَ العُلْيَا نُبايِعُهَا
ماذا تُسَطِّرُ أقْلامُ البَليغِ إذَا   أبْدَى وأبْدَعَ باريهَا وبارِعُهَا - 98 -
شُهْبُ المَعانِي وأطْراسِي مَراقِبُهَا   ظِباءُ ألفاظِهَا فِكْرِي مَراتِعُهَا
بنَصرِ مُلْكِكَ أعْلَى اللّهُ مظْهَرَهُ   لِلهِ سَاجِدُهَا يَدْعُو وراكِعُهَا
دامَتْ خِلافَتُكَ العُلْيا التي خَضَعَتْ   لَهَا الخَلائِقُ والدُّنْيَا تُطاوِعُهَا

وأنْشَدتُ في هَنائِهِ أيَّدَهُ اللهُ ونَصَرَهُ بعيدِ الأضْحَى مِن عام
خمْسَةَ عَشَرَ وَثماني مِائة إثْرَ الهَرَجِ الواقِعِ بالحَضْرَةِ مِن أهْلِ
رَبَضِ البَيَّازينَ وسِواهُمْ مِمَّن تبِعَهُمْ وألْمَمْتُ فيهَا بذكرِ الصُّلْحِ الذي
رغبَ السُّلْطانُ أبو سَعيدٍ مِنْ مَوْلانا نَصَرَهُ اللهُ في عَقْدِهِ بَينَهُ
وبَيْنَ السُّلْطان السَّعيدِ عَلى قِسْمَةِ البِلادِ الغَربيّةِ بَيْنَهمَا.
وأجابَهُ أعْلَى اللهُ مَقامَهُ إلى ذلك[198]

لِمَنْ أوْجُهٌ غُرٌّ تَروقُ سِماتُهَا   فَتُشْرِقُ مِن نُورِ الهُدَى قَسَماتُهَا
تَلوحُ بأُفْقِ المُلْكِ حيْثُ خِلالَهَا   كَواكِبُ هَدْيٍ تُجْتَلَى نيِّراتُهَا
فآياتُهَا أجْلَى وأوْضَحُ كُلَّمَا   جَلَتْ داجِيَ الخَطْبِ المُلِمِّ إياتُهَا[199]
فَلِلهِ مِنْ أبْناءِ نَصْرٍ خلائِفٌ   إذا جَنَتِ الأيَّامُ هُمْ حَسَناتُهَا
إلَى دَوْحَةِ النّصْرِ العَزيزِ انتِسابُهُمْ   وهُمْ سِرُّهَا إنْ عُدِّدُوا وَسَرَاتُهَا

(198) راجع ما كتبناه في الموضوع في المقدمة، وليوسف قصيدة في الصلح المذكور (ديوانه : 39 — 40).
(199) إياتُها : ضوءها.

لهُمْ كَيفَ شاءَتْهُ المَكارِمُ والعُلَى ... عَزائِمُ بانتْ في العِدَى فَتكاتُها
فَما لِلعِدَى تَبغِي حِمَى مِلَّةِ الهُدَى ... وأَبْنـاءُ أنصارِ الـرَّسولِ حُماتُهـا
فَهُمْ إن دَعَا دَاعِي النِّزالِ كُماتُهَا ... وهُمْ إنْ دَجا لَيْلُ الضَّلالِ هُداتُها
غيُوثٌ ولكِنْ كُلَّمَا شَهِدوا الوَغَى ... لُيُـوثٌ ومُلْتَـفُّ القَنَـا أجماتُهـا
قُلوبٌ إلى دَاعِي الـرَّشادِ مُجيبَـةٌ ... إذا ما العِدَى ألْوَتْ بهَا غَفَلاتُهَا
فأيْـنَ مَضاءُ السَّمْهَرِيـةِ والظُّبَـا ... إذا أُبْـرِمَتْ في المُلْتَقَـى عَزماتُهَـا - 99 -
إذا ما دَجَى النَّقْعُ المُثارُ بأُفْقِـهِ ... أنـارَتْ فجَـلَّتْ جِنْحَـهُ مرْهَفاتُهَـا
وقَد أنجَبُوا مَوْلَى المُلُوكِ الذي غدتْ ... تُؤمِّـلُ جَـدْوَى راحَتَيْـهِ عُفاتُهَـا
فَمـا وجِّـهَتْ إلاّ إلَيْـهِ وُجوهَهَـا ... ولاَ خَـلصَتْ إلاّ لَـهُ دَعَواتُهَـا
إذا نُصِبَتْ شرْقًـا وغَربًـا مَنابِـرٌ ... فتَخْـطُبُ بـاسْمِ اليُوسُفِـيِّ دُعاتُهَـا
لهُ كلَّما تُتْلَى صَحائِفُ مَجْـدِهِ ... مآثِـرُ قَـدْ راقَتْ بهَـا ورَقاتُهَـا
وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ العَزائِمَ مِنْـهُ لاَ ... تَحامَـى حِمَـى أعدائِـهِ فَتكاتُهَـا
وإنْ فئةٌ لِلدِّيـنِ تُنْمَـى وأذْنَـبَتْ ... لَدَيْـهِ غَـدَتْ مغْفُـورَةً هَفَواتُهَـا
وهـل هـيَ إلاَّ هِمَّـةٌ خزْرَجِيَّـةٌ ... تلوحُ عَلَى شهْبِ السَّماءِ سِماتُهَا
وهـل هـيَ إلاَّ عَزْمـةٌ غالِبِيَّـةٌ ... إذَا خَفَّتِ الأعْـلامُ راعَ ثَباتُهَـا
وهـل هـيَ إلاَّ قُـدْرَة نَاصِرِيَّـةٌ ... ثَنَى البَطشَ مِنْهَا حِلْمُها وأناتُهَـا
وهـل هـيَ إلاَّ شيمَـةٌ يُوسُفِيَّـةٌ ... قَضَى صَفْحُهَا أنْ أغْمِدِتْ صَفحاتُهَا
فَيَمْحُو الخَطايَا حِلْمُه وهْوَ قـادِرٌ ... إذا العَفْـوُ مِنْـهُ أمَّلتْـهُ جُناتُهَـا
ويَلْقَى عَدُوّ الدِّين طَوْعَ جِهـادِهِ ... بِصَفْحَـةِ عَـزْمٍ لا تُفَلُّ شَباتُهَـا
وأُسْدِ رِجالٍ مِن ذَوي الحَزْمِ لمْ تَزَلْ ... لِحَـرْبِ العِـدَى مَأخُـوذَةً أُهُباتُهَـا
فَيورِدُهَـا للأمْـنِ أعْـذَبَ مَشْرَعٍ ... تَذودُ العِدَى عَن وِرْدِهِ مُشْرَعاتُهَا
تُقيمُ صَغَا الهَيْجاءِ راحَةُ يُـوسُفٍ ... وقدْ قُـوِّمَتْ في الدَّارِعِينَ قَناتُهَـا
فَللهِ ما أوْهَى قُوَى الصَّبْرِ كلّما ... ألَـمَّتْ بأوْهـامِ العِـدَى خَطَراتُهَـا

وقَدْ منَحُوا الأكتافَ إذْ صافَحَتْهُمُ ... سُيوفٌ تَروقُ المُجْتَلِي صَفَحاتُهَا
وتُخفقُ مَسْعَى الكافِرِينَ بُنودُهُ ... إذا خَفَقَتْ في أُفْقِهَا عذَباتُهَا
وراقَ النّهَى ما رَاعَ مِن قَطْفِ هَامِهَا ... وقَدْ أَيْنَعَتْ لِلمجْتَنِي ثَمَراتُهَا
دَعُوا فِئَةَ الإشْرَاكِ لا دَرَّ دَرُّهَا ... كَأنِّي بِهَا لا تَنْقَضِي حَسَرَاتُهَا
كأنِّي بخَيْلِ اللّهِ تَبتَدِرُ الوغَى ... وقَدْ حَمَلَتْ أُسْدَ الشَّرَى صَهَواتُهَا
سَوابِقُ تَرتدّ الرِّياحُ وتَنْثَنِي ... بِحَيْثُ تُجارِي هُوجَهَا مُرْسَلاَتُهَا
تَروعُ الأعَادِيَ في مَدَى السَّبْقِ نُزَّعًا ... تَروقُ النُّهَى ألوَانُها وشِيَاتُهَا
إذا هِيَ بالأبطالِ جالَتْ رأَيْتَهَا ... تُقَرِّبُ آجالَ العِدَى مُقْرَباتُهَا
فَيا ناصِرَ العَلْياءِ والمَلِكَ الذي ... بِهِ مِلّةُ الإسْلامِ كُفَّتْ عُداتُهَا
تَرومُ مُلوكُ الأرْضِ شَأْوَكَ في العُلَى ... وقدْ قَصُرَتْ عَن نَيْلِهِ خُطُوَاتُهَا
ولمّا تَوالَتْ فِتْنَةُ الغَربِ واعْتَدَتْ ... عَلى أهْلِهِ في كُلِّ حَيٍّ طُغاتُهَا
وما اتَّفَقَتْ إلاّ عَلى صُحْبَةِ الرَّدَى ... كَمَا اخْتَلَفَتْ آراؤُهَا وَلُغاتُهَا
دَعَتْكَ لِعَقْدِ السِّلْمِ بيْنَ مُلوكِها ... أكارِمُ حيٍّ في يدَيْكَ حَياتُهَا
فأصْدَرْتَ لِلأمْلاكِ مِنكَ أوامِرًا ... إذا نُطِقَتْ في الحَفْلِ طالَ صُماتُهَا
تَطاوَلُ أعْناقٌ وتَسْمُو نَواظِرٌ ... إلَيْهَا وَتُوليهَا امْتِثالا ولاتُهَا
دَعَا بِهِمُ داعِي الأمانِ فأصْبَحُوا ... ودُنْياهُمُ لاَ تُتَّقَى حادِثاتُهَا
وإنّ حجيجَ اللّهِ حَلُّوا بِمَكّةٍ ... ولاَحَتْ لديْهِمْ دونَنَا عَرَصاتُهَا
وما احْتَمَلُوا إلاَّ قُلُوبًا تَقَلّبَتْ ... فَما تَنقَضِي طَوْعَ النَّوَى زَفَراتُهَا
إذا رَامَتِ الحجّاجُ رَمْيَ جِمارِهَا ... فنارُ الأسَى مَشْبوبَةٌ جمَراتُهَا
فللّهِ في مغْنَى الْهِدَايَةِ أُسْرَةٌ ... يُعَرِّفُهَا مَعْنَى الرِّضَى عَرَفاتُهَا
تَطوفُ بِبَيْتِ اللهِ سَبْعًا وتَنثَنِي ... وقَدْ مُحِيَتْ أثْناءَهُ سَيِّئاتُهَا
ويُهْدَى عَلَى قُرْبِ المَزارِ سَلاَمُهَا ... بحَيْثُ النَّبِيُّ المُجْتَبَى وَصَلاتُهَا
فَأهْلاً بِهَذا اليَوْمِ في المَوْقِفِ الذِي ... إذا قصُرَتْ طالَتْ بِهِ وقفاتُهَا

كَثيرٌ بمَذْخور الثوّابِ اهْتَمامُهَا   قَليلٌ إلَى مـا خَلَّفتْهُ الْتِفاتُهَا
وباتَتْ وقَدْ فـازَتْ بأنْعَمِ لَيْلَـةٍ   قَضَى فَضْلُهَا أن لا تُذَمَّ غَداتُهَا
فَهُنّئتَهَا طَـوْعَ السُّعـودِ مَواسِمًـا   قَـدِ اتّضَحَتْ آياتُهَـا وإياتُهـا
تُحَيِّي كَما شاءتْ عُلاكَ وُفودُهَا   فتَحْيَا بجَـدْوى راحَتَيْكَ عُفاتُهـا
تُقَبِّلُ مِن مَوْلَى الخَلائِفِ يُوسُفٍ   يَمينًـا تَعُـمُّ القاصِدِيـنَ هِباتُهَـا -101-
تُرينا مَن الصُّنْعِ الجَميلِ عوائـدًا   قَـدِ اتّصلتْ بالآمِليـنَ صِلاتُهَـا
وَبشْرَى بِهِ عيدًا غَدَتْ مِلّةُ الهُدَى   كَما عُـوِّدَتْ تَعْلُو بِـهِ كَلِماتُهَـا
أمَولاَيَ هَلْ يُعْطِي الخِلافَةَ حَقّهـا   مَن المَدْحِ فِكْرٌ أعْجَزَتْهُ صِفاتُهَا
مَعَانٍ وألْفـاظٌ بمَـدْحِكَ تُجْتَلَـى   زواهِرُهَـا أَوْ تُجْتَنَـى زَهراتُهَـا
سَنَا الزُّهْرِ ما قَدْ راقَ أمْ ورَقاتُهَا   شَذَا الزَّهْرِ ما قدْ رقَّ أمْ نفحَاتُهَا
وَبِالجُموعِ فِي ذَرَى القُبّـةِ التِـي   بأوْجُهِهِـمْ رَاقَتْ لـدَيْكَ جِهاتُهَـا
يَميلـونَ عُجْبًـا بالثنـاءِ كأنّمَـا   تَـدورُ بأكْـواسِ المُـدامِ سُقَاتُهَـا
هَلِ اسْتَقْبَلوا أمْداحَهَا أمْ تَحَمَّلتْ   شَذا الزّهْـرِ أثْنـاءَ القَبُـولِ رُواتُهـا
وهَـل هـذه الأفكـارُ إلاَّ ظَعائِـنٌ   هَوتْهَا مِنَ الأمْداحِ فِيكَ حُداتُهَا
فَللَّـهِ مِنهَـا والمَحـاسِنُ تُجْتَلَـى   حدائـقُ مَـدْحٍ تُجْتَنَـى طَيِّباتُهَـا
بَقِـيتَ لِأمْـلاكِ البَسيطَـةِ آيَـةً   بِشَمْسِ ضحَاهَا تَهْتَـدِي نيِّراتُهَـا

وَقُلْتُ أُهَنّيءُ مَقامَهُ الكريمَ العَلِيّ اليُوسُفِيّ أسْماهُ اللّهُ
بعيدِ الفِطْرِ مِن عامِ سِتّةَ عَشَرَ وثمانِمائَة ولمْ أُنْشِدْهَا بَسَبَب
ثُبوتِ الشهْرِ أثناءَ اليَوْمِ لِتجَهُّمِ المرقَبِ وتكاثُفِ السَّحابِ فيهِ فاقتُصِرَ
عَلى الصَّلاةِ آخر الوَقْتِ والخُطْبَةِ مِن غَيْرِ تَطْويلٍ واخْتُصِرَتِ البَيْعَةُ
وَما سِوَى ذلِكَ مِمَّا جرَتْ بِهِ العادَةُ لِعَدَمِ الاسْتِعْدادِ والتَّأهُّبِ

هَذي الكَـواكِبُ قابَلَـتْكَ سُعودُهَـا   ولَدَيْكَ فِي أوْجِ الكَمالِ صُعودُهَا

هذِي المَآثِرُ حَيْثُ قامَ خَطيبُهَا ... يَرْتَدُّ عَنْهُ زِيادُهَا وَيَزيدُهَا[200]
هَذي محامِدُكَ التي عنْ مثلِها ... يَثْنِي العِنانَ أمينُهَا ورَشيدُهَا[201] -102-
هذي المآمِلُ ما يَطولُ نُزُوحُهَا ... إلاَّ وَيدْنو كَيْفَ شِئتَ بَعيدُهَا
هَذِي المواهِبُ كُلّمَا سُئِلَ النّدَى ... ياتِي بمُنهَلّ الغمائِمِ جودُهَا
هذي المكارِمُ كُلّمَا بَخِلَ الحَيَا ... أحْيَا الوُجودَ لَدَى عُلاكَ وُجودُهَا
هَذِي الخَلائِفُ يَمّمَتْكَ عَلى النّوَى ... أرْسالُها ورَجَتْ نَداكَ وُفودُها
مَا راعَ خَطْبٌ أوْ تفاقَمَ مُعْضِلٌ ... إلاّ وأنتَ عِمادُهَا وعَميدُهَا
ما بَدَّلَتْ كلماتِهَا إذْ قُوبِلَتْ ... بعَواطِفٍ مِن وصْفِهَا تَوْكيدُها
ما أزْهَرَتْ لِلْمَكْرُمَاتِ حدائِقٌ ... إلاَّ غَدَتْ يُمْنَى يَديكَ تَرودُهَا
ما أخْلَفَ الأرْضَ الغَمَامُ وأمْحَلَتْ ... إلاَّ وَجَدْوَى راحَتَيْكَ تَجودُهَا
قُصِرتْ عَلَيْكَ الْمَكْرُماتُ وَمِنْكَ قَدْ ... راقَ الخلائِفَ فوْقَهَا مَمْدُودُهَا
تَبْغِي ٱلْأعَادِي في جَنابِكَ مَوْرِدًا ... فتَكُفُّهَا عَنْ ورْدِهَا وتَذُودُهَا
كَمْ أخْفَقَتْ مَسْعَى عِداكَ خَوافِقٌ ... في الحَرْبِ قَدْ نُشِرَتْ عَلَيْكَ بُنُودُها
لِلّهِ دَوْلَتُكَ التِي لِجَلالِهَا ... خَضَعَتْ صَناديدُ المُلوكِ وَصيدُهَا
في حَرْبِهَا مَاضٍ لَدَيْكَ حُسامُهَا ... في سَلْمِهَا مُسْتَقْبَلٌ تَأْيِيدُهَا
هَذي خِلافَةُ ناصِرِ الدِّينِ الذِي ... يَغْزو وأمْلاكُ السَّمَاءِ جُنودُهَا
ولسَوْفَ يُبْذَلُ في جِهادِ عُداتِهَا ... طوْعَ المَكارِمِ والعُلَى مجْهودُهَا
ولسَوْفَ يُلْفَى كُل باغٍ مُسْرِفٍ ... يَصْلَى بنارِ الحَربِ وهْوَ وَقُودُهَا
لَكأنْ بهِ والحرْبُ تُوقِدُ لِلْعِدَى ... نارًا بمُنْهَلِّ النَّجيعِ خمُودُهَا
لَكأنْ بهِ يَغْزُو كتائِبَهُمْ وَقَدْ ... جَالَتْ جِيادُ النّصْرِ كيفَ يُريدُهَا

(200) زياد بن مُعاوية (ابن أبيه) ويزيد لعلّه يزيد بن المهلّب، ولهُ خطب أو يزيد بن الوليد أو يزيد ابن هبيرة وكان خطيبًا.

(201) الرشيد والأمين ولده.

لَكَـأَنْ بـهِ والـرُّومُ عَنـدَ لِقائِــهِ ... لـمْ يُغْـنِ عنْهَـا عَدُّهَـا وَعَديدُهَـا
يَرْتـاعُ خِيفَـةَ بَــأْسِهِ مُرْتاحُهَـــا ... وَيَخِفُّ في طَلَبِ النَّجَـاةِ وَئيدُهَـا
وكَتَــائِب الإِسْلامِ في أَعْقابِهِـــمْ ... يَمْحُـو معَالِـمَ شِرْكِهِـمْ تَوْحيدُهَــا
واليُوسُفِـيُّ المُـلْك لَـوْلاَ أَمْنُــهُ ... في الأَرْضِ ما أَلِفَ الجُفونَ هُجُودُهَا
مَلِكٌ تَرى الأَمْلاكَ وَهْوَ يَطولُهَـا ... سَبْقًـا لِغايـاتِ العُلَـى ويسُودُهَـا
ما شامَ في الأَقْطارِ قائِمَ سَيْفِـهِ ... إلاَّ وَقـــامَ بعَدْلِـــهِ تَمْهِيدُهَـــا -103-
فارتَـدَّ بَاغيهَــا وذُلِّــلَ خَطبُهَـــا ... وانْقادَ مِـن بعْـدِ الإِباءِ شَرُودُهَـا
بِمَكَـــارِمٍ لِلْمَعْلُـــواتِ يُنيلُهَـــا ... ومَعالِـمٍ لِلْمَكْرُمـــاتِ يُشيدُهَـــا
وسَوابِـقٍ يَحْلُلْـنَ مُشْتَجـرَ القَنَـا ... غِيـلاً فَتَـزْأَرُ بالكُمـاةِ أُسُودُهَـــا
وَصَوارِمٍ ما جُرِّدَتْ في المُلْتَقَـى ... إلاَّ وَهَـامُ الدَّارِعيـنَ غُمودُهـــا
عَجبًا لهَا بِيضًا ومَـا إن رَاعَهَـا ... خجل ويَبْدو في الوَغَى تَوْريدُهَـا
وَذوابِـلٍ خفت كـأَسْرابِ القَطَـا ... هِيمًا تحومُ وَفي النّجيـعِ وُرودُهَـا
لَوْلاَ اشتِغالُ سِنانِهَا حَيْثُ النَّـدَى ... مـن كَفِّـهِ يَهْمِـي لأَوْرَقَ عُودُهَـا
تُرْوَى المَعالِي عـنْ عَواليـهِ التـي ... مـا راعَ زُرْق عُيونِهَـا تَسْهِيدُهَـا
فَتقـودُ حَتْـفَ المُعْتَـدِي لَحَظاتُهَـا ... وتُقَدُّ في حَلَقِ الـدُّرُوعِ قُدُودُهَـا
عَجَبًا لهَـا طَـوْعَ العَزائِـمِ شُرَّعًـا ... لمْ يَثْنِهَا عَـن قصدِهَـا تَقْصِيدُهَـا
شِيَـمٌ لأَنصارِ الرّسالَـةِ تَنْتَمِـــي ... إنْ عُـدّدتْ لاَ ينـقَضِي تَعْديدُهَـا
للـــهِ آثـــارٌ لهُـــمْ وَمآثِــــرٌ ... يَبْلَى الزمانُ ولاَ يَـزولُ جَديدُهَـا
فِبهِـمْ أُبيـدَتْ في اليَمامَـةِ أُمَّــةٌ ... غَصَّتْ بِهِمْ طوْعَ الضّلاَلَةِ بِيدُهَا(202)
ولَيَـوْمِ بَـدْرٍ بـادَرُوا فاسْتأصلـوا ... فِئَةٌ تَمـادَى كُفْرُهَـا وَجُحُودُهَـا(203)
لِجدالِهَـا حُجَـجٌ تُثيـرُ جِلاَدَهَـا ... حَيْثُ الـحُسامُ مُبينُهَـا وَمُبيدُهَـا

(202) اليمامة هي موطن بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب.

(203) يشير إلى دور الأنصار في غزوة بدر.

حَتَّى قَضَوْا طوْعَ الجِهادِ وَخَلَّفوا ... خُلَفاءَ أُنْجِزَ بالعُلَى مَوْعُودُهَا
كانُوا ظِلالاً والهَواجِرُ تَلْتَظِي ... قَدْ فاءَ فَوْقَ العالَمينَ مَديدُهَا
بِهِمُ الخِلافَةُ نُظِّمَتْ أسْلاَكُهَا ... لَمَّا وهَي بيَدِ الضَّلالِ فَرِيدُهَا
وَأَتى عَدُوُّ الدّينِ يَرْجُو أن يُرَى ... عَن حَمْلِ ما قَدْ قَلّدَتْهُ يَؤُودُهَا
أعْلَوْا مَظاهِرَ قُبَّةِ الإسْلامِ إذْ ... قَامَتْ بِهِمْ أطْنابُهَا وعَمُودُهَا
فئةٌ تَمائِمُهَا السُّيُوفُ وما دَرَتْ ... لِلحَرْبِ مَعْنًى والسُّرُوجُ مُهُودُهَا
ولِحَمْلِ أعْباءِ الوَفاءِ قدِ انْبَرَى ... مِن قَبْلِ أنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ وَلِيدُهَا
تُتْلَى وتُجْلَى آيُهَا وإياتُهَا ... يُرْجَى ويُخْشَى وعْدُهَا ووَعيدُهَا[204] -104-
فلَهَا عَلى حُكْمِ المكَارِمِ وَالعُلَى ... هِمَمٌ قَضَتْ أنَّ المُلوكَ عَبيدُهَا
فمَعالِمُ الإسْلامِ بعْدَ عفائِهَا ... في أرْضِ أنْدَلُسٍ بهِمْ تَوْطيدُهَا
يا ناصِرَ الدِّينِ الذِي أمْداحُهُ ... وَيَهْدِي وَيُهْدَى قَصْدُهَا وقَصيدُهَا
وَقَفَتْ بِبابِكَ مِن مَرينٍ أُسْرَةٌ ... طَوْعَ الوَفاءِ فما تُضاعُ عُهُودُهَا
وافَتْكَ لا تَثْنِي اعِنّةَ سَيْرِهَا ... وَرجاؤُهَا إذْ يَمَّمَتْكَ يَقودُهَا
فأنَلْتَ ما شاءَتْ مِن النّعَمِ الّتي ... يُرْجَى وانْ عَظُمَتْ لديْكَ مَزيدُهَا
واهْنَأْ بعِيدٍ عائِدٍ لكَ بالمنَى ... ولْتَهْنَإِ الدّنْيا لَدَيْكَ مَزيدُهَا
قد سَارَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكْرَمَ ظاعِنٍ ... يُلْقِي أحَاديثَ العُلَى وَيُعيدُهَا
تَتَناقَلُ الرُّكْبانُ مِنْهَا كُلّمَا ... قدْ لَذَّ في أسْماعِهَا تَرْديدُهَا
هَيْهاتَ يَنْسَى مِن حِماكَ مَعاهِدًا ... ولهَا عُهودٌ ما يُذَمُّ حَميدُهَا
وأتاكَ عيدُ الفِطْرِ أشْرَفَ قادِمٍ ... راقَ المَكارِمَ عِنْدَهُ تَجْديدُهَا
قد شَفَّهُ شَوْقٌ لِحَضْرَتِكَ الّتِي ... بعَوائِدِ الصُّنْعِ الجَميلِ يَعودُهَا
فَطَلَعْتَ في أُفُقِ الخِلافَةِ آيَةً ... راقَتْ تَهائِمُهَا بِهِ ونُجودُهَا
ولَدَيْكَ مِن أمَرَاءِ مُلْكِكَ أوْجُهٌ ... غُرٌّ تَرُوقُ النَّيِّراتِ سُعودُهَا

(204) فيه لفّ ونشر مرتب، وإياة الشمس : ضوءها وشعاعها.

ومَدَدت لِلتَّقْبِيلِ كَفًّا لَمْ تَـزَلْ ... تَنْهَـلُّ فـوْقَ الآمِليـنَ عُهودُهَـا
أولَـيْتَ أحْـرارَ القَبائِـلِ أنْعُمًـا ... وبَدَأْتَهَـا ونَـدَى يَـدَيْكَ مُعيدُهَـا
فأتَتْ إلَـى تَجْديـدِ بَيْعَتِكَ الَّتِـي ... هَـاذِي مَلائِكَـةُ السَّمـاءِ شُهودُهَـا
جَعَـلَتْ يَميـنَكَ لِلْمَكـارِمِ قِبْلَـةً ... فَلِـذاكَ طـالَ رُكوعُهَـا وَسُجودُهَـا
وإلَيْكَهَا مِـنْ بَحْـرِ فكْـرِيَ لُؤْلُـؤًا ... لَوْلاَ خِلاَلُكَ لَـمْ يَـرُقْ تَنْضِيدُهَـا
حَسْنـاءُ فالزُّهْـرُ الكَـواكِبُ تَنْثَنِـي ... عنْهَا وتَقْصُرُ في المَقاصِيرِ غِيدُهَـا
أوَ لَيْسَ أفْكارِي حَدائِقَ تُجْتَلَـى ... لاَ يَشْتَكِي مَحْلاً لدَيْكَ مَجودُهَا[205]
لَـوْلاَكَ مـا راقتْ مَعانِيهَـا وَلاَ ... راقَتْ عَلَى جِيدِ الزَّمانِ عُقودُهَـا
لَكَ دَوْلَةُ العِزِّ التِي قَدْ عَزَّ مَن ... أضْحَى مُوالِيهَـا وخـابَ حَسُودُهَـا
يَدْعـو لهَـا بالـنّصْرِ كُـلّ مُوَحِّـدٍ ... دامَتْ لَهـا الدُّنْيَـا ودامَ خُلودُهَـا
فعَلَى الخلائِـقِ أنْ تُطيـلَ دُعاءَهَـا ... وعَلَى الـذِي تَدْعُـو لـهُ تخْليدُهَـا

وأنشَدتُ في عيدِ الأضْحَى منْ عام ستَّة عَشَرَ.
وثَماني مِئة بالمشوَر السَّعيدِ مِنْ حَمرَائِهِ العَلِيّةِ وَقَدْ
ورَدَ عَلى بابِهِ الكَرِيمِ جُمْلَةٌ وافِرةٌ من أكابِرِ بَني مَرين
وسِواهُمْ منَ القبائِلِ بعْدَ الحادِثَةِ عَلى السُّلطانِ السَّعيدِ
لائذين بعِزِّ جَنابِه، مُتَمَسِّكينَ بأوْثَقِ أسْبابِه، فَأوْلاَهُمْ
أيّدَهُ الله مَواهِبَ أنْعُمِهِ وَآواهُمْ، وَوَفَّرَ نُزُلَهُمْ عِنْدَ
وِفادَتِهِمْ وَكَرَّمَ مَثْواهُمْ، فاطْمَأنّتْ بِهِمُ الدّار، وقَرّ بحَضْرتِهِ القَرار[206]

كَـواكِبُ عِـزٍّ في ذَرَاكِ حُلولُهَـا ... تَلُوحُ وَلَكِن لَيْسَ يُخْشَى أُفُولُهَـا

---

(205) مَجودها : منْ جيد بمعنى عطش.

(206) تشير هذه المقدّمة إلى فشل الممدوح في قلب النظام بالمغرب وإلى نهاية «السعيد» ولجوء من كان معه إلى غرناطة، أمّا نهاية السعيد وتاريخها فتوجد فيها روايات مختلفة فالسخاوي في الضوء اللامع =

وأَنْوارُ هَذْي تُجْتَلَى حَيْثُ لِلْعِدَى   عُيونٌ تَعامَى عَنْ سَناهَا كَلِيلُهَا
وآياتُ نَصْرٍ لَيْسَ تَخْفى إيَاتُهَا   وقَدْ وَضَحَتْ لِلْمُهْتَدِينَ سَبيلُهَا
وآثارُ مُلْكٍ ما دَجَى لَيْلُ مُعْضِلٍ   مِنَ الرَّوْعِ إلاَّ والحُسامُ دَليلُهَا
مَآثِرُ مَن بالوَحْيِ قَدْ عَزَّ قَوْمُهُ   بطَيْبَةَ إذْ آوَى إلَيْهَا رَسُولُهَا
إمَامٌ لهُ القِدْحُ المُعَلَّى إذا ارْتَمَتْ   قِداحٌ وأعْلامُ المُلوكِ تُجيلُهَا
شَفَى مُعْضِلَ الأَيامِ وَهْيَ عَلى شَفًا   بجَدْواهُ إذْ أعيَا الأُساةَ عَلِيلُهَا
لهُ كيفَ شاءَتْهُ المَكارِمُ والعُلَى   مَآثِرُ في الأمْلاكِ عَزّ مَثيلُهَا
حَكَى يُوسُفٌ في الحسْنِ والمُلك يُوسُفًا   فَغَرْناطَةٌ مِصْرٌ وَجَدْواهُ نِيلُهَا
فأوْرَثَهُ المُلْكَ المُؤَثَّلَ وَالعُلَى   وأنجَبَهُ صِدّيقُهَا وَخَلِيلُهَا
فُروعٌ زَكَتْ في دَوْحَةِ النصْرِ بَعْدَما   نَمتْهَا لِأَنصَارِ الرَّسولِ أُصُولُهَا -106-
غُيوثٌ إذا مَا السُّحْبُ أَخْلَفَ جَوْدُهَا   لُيُوثٌ وَمُلْتَفُّ الذَّوابِلِ غِيلُهَا
لقَدْ أنجَبُوا مَوْلًى تَؤُمُّ جَنابَهُ   أَكارِمُ يَحْظَى بالعُلَى مُسْتَنِيلُهَا
تُرَدّدُ أثْنَاءَ التَّرَحُّلِ ذِكْرَهُ   حُداةُ المَطايَا إذ تَهُبُّ قَبولُهَا
فَما حَمَلَتْ رِيحُ الصَّبَا مِن ثَنائِهِ   نَوافِحَ إلاَّ واسْتَقَلَّتْ حُمُولُهَا

= (8 : 62) يذكر أن «السعيد» «تقطّر به فرسه في بعض الحروب بخندق وهو سكران فأُدرِكَ به فَحُزّ رأسُه في محرّم سنة 816 وجيء به إلى أبي سعيد» وهذا التاريخ يوافق المذكور هنا، وجاء في إنباء الغمر لابن حجر : «وفيها (أي في سنة 814) كان السّعيد محمد بن أبي فارس عبد العزيز بن أبي سالم ابراهيم المريني يحاصر فاس وبها أبو سعيد بن أحمد بن أبي سالم، فهزَمَه أهل فاس بعد شهرين، وذلك في صفر منها، ووقع الافساد في الزروع، وقوي القوي على الضعيف، واشتد الغلاء، وكان الأردب عندهم بربع دينار، فارتفع بعد ذلك بأضعاف مضاعفة، ثم رجع السعيد إلى حصار فاس ـــ وقد انتهبت الأعمال والنواحي ـــ في ربيع الآخر، وحصرها نحوًا من عشرين يومًا، ثم هزموه، فتوجّه إلى سلا، ثم جمع عسكرًا، ورجع في شعبان، وحصر البلاد، وبنى مقابلَها مدينة سماها المنصورة، وانقضت السنة وهو على ذلك، ثم ملك البلد، ثم قام عليه ابن أبي حمّو موسى، وفرّ السعيد إلى تونس فهلك ببلد «العُنّاب» إنباء الغمر 7 : 28 ـــ 29 أما الحسن الوزّان فيقول إن السعيد حاصر «مدينة فاس، بمساعدة بعض الجبليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام، خرّب أثناءها قرى ومدنًا وقصورًا في جميع أنحاء المملكة، ثم تفشى الطاعون في جيشه، فهلك هو وفريقٌ من جنده، وذلك عام 816 للهجرة» وصف افريقيا ج 1 ص 210.

ومَا جُرِّدَتْ أسْيافُهُ يَوْمَ غـارةٍ … وَتُغْمَـدُ إلاّ في الكُمـاةِ نُصولُهَـا
سَيَغْـزُو أعادِيـهِ بِشُهْبِ كَتَـائِبٍ … تُطاوِلُهَا شهْبُ الدُّجَـى فَتَطولُهَـا
تَحُـلُّ دِيـارَ الكُفْـرِ مِنهَـا سَوابِـقٌ … تَجِلُّ عَنِ التّشْبِيـهِ حِيـنَ تَجُولُهَـا
تَخوضُ إلَى الأعْداءِ بَحْرًا مِن الْقَنَـا … سِراعًا وهَوْلُ الرَّوْعِ لَيْسَ يَهولُهَا
فَترتاحُ خَيْلُ اللَّهِ لِلمُلْتَقَى الـذِي … يُجيبُ بِهِ دَاعِي الهُدَى ويُجيلُهَا
كأنْ بالجِيادِ الغُرّ ما أصْمَتَ العِدَى … ولاَ جَاوَبَ التَّكْبيرَ إلاّ صَهِيلُهَـا
كأنْ بالظُّبا مَا أنْطَقَ الْهامَ في الوغَى … ولاَ أخْرَسَ النَّاقـوسَ إلاّ صَليلُهَـا
كأنْ بِالْقَنَا الخَطّيِّ ما قَصرَ العِدَى … ولاَ قَصَّرَ الأعْمـارَ إلاّ طَويلُهَـا
كأنْ بالبُنُودِ الحُمْرِ تَفْتَرِعُ الرُّبَـى … كَمَا قدْ جَلا حُمْرَ السَّحابِ أصيلُهَا
كأنْ ببِلادِ الشِّرْكِ يحْتل أرْضَهَـا … فيَعْتَـزُّ بالفَتْـحِ المُبيـنِ ذَلولُهَـا
بِكُـلِّ كَمّـي في العَجاجَـةِ سَيْفُـهُ … يُجَلّـي دَياجِـي أفْقِـهِ وَيُحِيلُهَـا
خَفيفٍ عَلَى مَتْنِ الجَوادِ وَعَزْمُـهُ … لـهُ وَطْـأةٌ يَكْفِـي العَدُوَّ ثَقيلُهَـا
وَذِي قِصَرٍ تُمْسي العَوامِلُ دُونَـهُ … ويَقْصُرُ عَن مَرْماهُ في الحَرْبِ طُولُهَا
وَعَوْجـاءَ مَهْمَـا صُوِّبَتْ فَسِهامُهَـا … ظَعائِنُ سَفْرٍ لَيْسَ يُرْجَـى قُفُولُهَـا
إذا ما ظُبَا الأعْرابِ يَوْمَ حَليمَـةٍ … تَصولُ فَأَسْيَافُ الجِهَـادِ تَطُولُهـا(207)
فهاذِي التي لا عَيْبَ إلاَّ مَضاؤُهَا … وتِـلْكَ التـي لاَعَـيْبَ إلاَّ فُلُولُهَـا
لَقَدْ كَلِفَـتْ بالدَّارِعِيـنَ فَأصبَـحَتْ … يَروعُ جَواهَـا أوْ يَـرُوقُ نُحولُهَـا
وهَامَتْ بِحُبِّ الْهامِ فَهْيَ بُثَيْنَـةٌ … وَلَيْلَـى تَفَانَـى قَيْسُهَـا وَجَميلُهَـا(208)
لَئن صَدِئَتْ بالأمْنِ أفْئِدَةُ العِـدَى … فَهاذِي التِي يَجْلُو صَداهَا صَقِيلُهَا -107-
تَـرومُ عُـداةُ الدّيـنِ شَأْوًا مُمَنَّعًـا … وَقَدْ عَزّ مرْماهَـا وأخْفَـقَ سُولُهَـا
سَتُلْفِي الْقَنَا الخَطِّيَّ في كَفّ يوسُفٍ … تُقيمُ صَغَا الهَيجـاءِ حيـنَ يُميلُهَـا

(207) يوم حليمة هو الذي قيل فيه : ما يومُ حليمة بسِر.

(208) اللف والنشر معكوس.

تَرى كُتُبَ الأعْداءِ يُسْقَى لَدَى الوَغَى ... بريحٍ مِن النّصْرِ العَزيـزِ مَهيلُهَـا
يُبِينُ مَصونـاتِ العَقائِـلِ في ذَرَى ... مَعاقِـلَ أضْحَتْ لا يَبِيـنُ مُحيلُهَـا
وَيُـرْسِلُ لِلـنصْرِ العَزيـزِ كَتائِبًـا ... خِلالَ دِيارِ الكُفْرِ جاسَتْ خُيولُهَا
عَمائِمُهَـا الأزْهـارُ تحْتَـدِمُ الوَغَـى ... عَلَيْهَـا ولكِـن لاَ يُخـافُ ذُبولُهَـا
وقَدْ حَكتِ البِيضُ الرِّقاقُ جَداوِلاً ... بِدَوْحٍ مِنَ السُّمْرِ العوَالِي مَسيلُهَا
وجاءَتْ مَرينٌ مِن أقاصِي بلاَدِهَا ... فكانَ لَدَى مَوْلَى المُلوكِ حُلولُها
تحُـل مَطايَاهَـا بهَـا مـن جنابِـهِ ... منَـازِلَ عِـزٍّ لـيْسَ يشْقَـى نَزيلُهَـا
فَيا موضحًا معْنَى المَكارِمِ والعُلَى ... وقِدْمًا لَوَى دَيْن الزمـانِ مَطُولُهـا
نَدَى يَدِك العُلْيا رَجَتْ حينَ أقْبَلَتْ ... فَحيًّـا وأحْيَـا بِشْرُهَـا وقَبُولُهَـا
فَجَلى دُجاهَـا مِـن مُحَيَّـاكَ بِشْرُهُ ... وَحَيَّا حِماهَا مِن جَداكَ هَمولُهَـا
وإنَّ العُلَى والأمْنَ وَالحِلْمَ والهُدَى ... وَبذْلَ النَّدى والفضْلَ مِمَّا تُنيلُهـا
تَعِزُّ وقدْ هـانَتْ لَدَيْهَا خُطوبُهَـا ... وتَعْلُو وقدْ حُطَّتْ لدَيْكَ حُمُولُهَا
فَكمْ وارِدٍ منهُمْ عَلى بَابِكَ الذي ... مُعَرَّسُهَــا في رَبْعِــهِ ومَقيلُهَــا
فَتهْدِيـهِ آمـالٌ إلـيْكَ مآلهـا ... وتُهْديـهِ أظْعَـانٌ إلَـيْكَ رَحيلُهَـا
ولِلـهِ منهُـمْ بَعْدَ حادِثَـةِ النَّـوَى ... أماثِلِ قد أضْحَـى لَـدَيْكَ مُثُولُهَـا
لَئِـن هَاجَهَـا بُعْـدُ المَـزارِ تَشَوُّقًـا ... كَما قدْ شَجَى وُرْقَ الحَمَامِ هَديلُهَا
فَمَا لِحِمَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٍ ... عَديـلٌ ولاَ عَنْـهُ يُـرامُ عُدُولُهَـا
فَيا نَاصِرَ الدِّين الذي وَرِثَ العُلَى ... عنِ الصَّحْبِ مِنْهُ سِبْطُهَا وَسَلِيلُهَا
خِلافتكَ العُلْيَـا اسْتَقَـلَّ عِمادُهَـا ... فَـذل مُناوِيهَـا وَعَـزَّ قَبيلُهَـا
تُجـاريكَ أمْـلاكُ الزَّمـانِ فَيَنْثَنِـي ... حَليـفَ قُصُورٍ نَصُّهَـا وَذَمِيلُهَـا -108-
ومَنْ لِلدَّياجِي انْ تُنيرَ وأنْ يُرى ... يُقـاوِمُ أنـوار الضُّحَـى مُسْتَحيلُهَـا
لَقَدْ جَهِلُوا ما حُزْتَ مِنَ شيمِ العُلَى ... فَهانُـوا وأشْقَـى العَالَميـنَ جَهُولُهَـا
وهُنِّئْتَهَـا طَـوْعَ السُّعـودِ مَواسِمًـا ... هُوَ الصُّنْعُ بالنَّصْرِ العَزيزِ كَفيلُهَـا

وتَسْتَقْبِلُ الدنْيَا أوامِرَكَ التِي ... نُطيعُكَ في إصْدارِهَا وَتُطيلُهَا
وبُشْراكَ بالأضْحَى ومُتّعْتَ بَعْدَهُ ... بألْفِ لكَ الصُّنْعُ الجميلُ مُدِيلُهَا
طَلَعْتَ بأُفْقِ المُلْكِ صُبْحَ هِدايَةٍ ... يُزيحُ الدَّيَاجي نُورهُ ويُزيلُهَا
مَدَدتَ إلى التقْبيلِ كَفًّا كَريمَةً ... تُقيمُ صَغَا قُصَّادِهَا وَتُقيلُهَا
وأرْسَلْتَ مِن جَدْواكَ صوْبَ غَمامَةٍ ... يُرَوِّي عَلى حُكْمِ النَّدَى سَلْسَبيلُهَا
ووافَتْكَ أعلامُ الجِهَادِ فَراقَها ... حَدائِقَ رِفْقٍ لَيْسَ يُخْشَى مُحولُهَا
لَقَدْ يَمَّمَتْ مَثْوَى العُلَى فأفادَها ... صَنائِعَ يُرْضِي الآمِلينَ جَميلُهَا
وحَلّتْ بمَغْنَى العِزِّ أزْكَى خَميلةٍ ... مِن الجُودِ لاَ يُخْشَى لَدَيْهَا خُمولُهَا
لَدَى مَلِكٍ تَغْدُو ظِلاَلُ أمانِهِ ... وقدْ فاءَ فَوْقَ العالِمينَ ظَليلُهَا
حَبَا بالعَطايَا فاسْتَقَلَّ كَثيرَهَا ... لهَا وعَلَى الآمالِ زادَ قَليلُهَا
فَما مِنهُمُ إلاّ لِنعْماكَ شاكِرٌ ... مُطيبُ أحاديثِ الثَّناءِ مُطيلُهَا
وما مِنهُمْ إلاّ وَليُّ مَجادَةٍ ... يُطاوِلُ شهبَانَ السَّماءِ أثيلُهَا
وخُذْهَا لحُسْنِ الوصْفِ تُبْدِي شَمائِلاً ... تَروقُ فَتسْتَهْوِي العُقولَ شمُولُهَا
تُريكَ مَعانيهَا جيادَ بَلاغَةٍ ... نَداكَ بمَيْدانِ البيانِ مُجيلُهَا
تُقِرُّ لِيَ الآدابُ أنِّي زَعيمُهَا ... وتَعْجزُ عن إدْراكِ شَأْوِي فحُولُهَا
وتَقْصرُ عَن مَرْمَى حُلاهَا عقائِلٌ ... جَلَتْهَا عَلى صَفْحِ الزَّمانِ عُقولُها
ولِمْ لاَ ومِن آثارِكَ الغُرِّ أنجُمٌ ... ثَوابتُ لاَ يُخْشَى عليْهَا أُفُولُهَا
وَجَدْواكَ لِلأفكارِ مَعْنَى وُجودِهَا ... فَيَهْدِي إلى جَزْلِ النّظامِ جَزيلُهَا
وَوَصْفُكَ آتِيهَا بكُلِّ غَريبَةٍ ... وَجودُكَ إن ضَلّتْ سَبيلاً دَليلُها
فَلازِلْتَ لِلأمْلاكِ وِجْهَةَ قَصْدِهَا ... تُبَلِّغُهَا أقْصَى المُنَى وتُنيلُهَا -109-

وأنشدتُ في عِيد الفِطْر مِنْ عام سَبْعَةَ عَشَرَ وثمانِي مائة مُهَنّئًا مَقَامَهُ الكَرِيمَ أَيّدَهُ الله وَالرّكابُ العَلِيُّ قريبُ عَهْدٍ بالإيّاب مِنْ فَتحِ جَبَلِ الفتحِ أمّنَهُ الله وكُنْتُ لَمْ أنشِد الدّاليّةَ قبْلَ هَذا فَنَظَمتُ هَذِهِ عَلى أسْلوبِهَا واتّبَعْتُ في كَثيرٍ مِنَ المَعانِي طَرِيقَتَهَا

هَذي الخِلافَةُ قد مَلَكْتَ قِيادَهَـا ... واجَلْتَ في طَلَقِ السُّعُودِ جِيادَهَـا
هَـذي مَلائِكَـةُ السَّمـاءِ تَنَـزّلَتْ ... بالنّصرِ تُنْجِدُ في الوَغَى أجْنادَهـا
هَذي البَشائِرُ قدْ رَفَعْتَ لواءَهَـا ... وأقمْتَ بالصُّنْعِ الجَميـلِ عِمادَهَـا
هَـذِي العَزائِـمُ كُلّمَـا أعْمَلْتَهَـا ... أبْعَـدْتَ في شأْوِ العُلَـى آمادَهـا
هَذي الكَـواكِبُ تَسْتَقِلُّ سُعُودُهَـا ... لكَ حَيْثُ تُطْلِعُ لِلعِدَى أضْدادَهـا
هِذي الكَتائِبُ كلّمَا احْتَدَمَ الوَغَى ... أرسَلْتَ مِنْ غـابِ القَنَـا آسَادَهَـا
هَذِي الجُنودُ أطَلْتَ في سُحُبِ النَّدَى ... إنْهالَهـا وإلى العِـدَى إنهادَهـا
هَذِي العِدَى أمّتْ نَواكَ عَلى النَّوى ... لمَّـا نَـوِيْتَ جَلاءَهَـا وجِلادَهـا
هَذي الخَلائِفُ مِنكَ تَبْغِي نَصْرَهَا ... في المُعْضِلاتِ وتَرتَجي إنجَادَهَـا
هَذي الوُفودُ تَؤُمُّ حَضرَتَكَ التـي ... قدْ اوْرَدَتْ عَذْبَ المُنَى رُوّادَهَـا
هَـذِي أحـاديثُ المَكـارِمِ وَالعُلَـى ... صحّحْتَ إذْ أرْسَلْتَهَـا إسْنادَهَـا
أتَتِ الرّفاقُ عَلَـى النّـوَى فأنَلْتَهـا ... إرْفاقَهَـا وأفَدْتَهَـا إرْفادَهَـا
وَفَدَتْ تُؤَمِّلُ مِنكَ أكْـرَمَ مُنْعِـمٍ ... فأنـالَ أشْتـاتَ المُنَـى وأفادَهـا
لَمْ تَثْنِ عَـنْ أوْصافِهِ قَـوْلاً وَلاَ ... مَلَّتْ عَلى طولِ المَـدَى تَرْدادَهـا
كَـمْ رَوْضَةٍ لِلرّفْـدِ أيْنَـعَ زَهْرُهَـا ... قـدْ أظْفَـرَتْ بالمُرْتَجَـى مُرْتادَهَـا
كَـمْ سُنّـةٍ للجُـودِ قـد جَدّدتَهـا ... لَـوْلاكَ لـمْ تَـرْجُ العُفـاة مَعادَهَـا
كَمْ رَحْمةٍ نَشأتْ لدَيْكَ سَحابُهَا ... أرْسَلْتَ طَوْعَ المَكْرُمـاتِ عِهادَهـا
كَمْ حكْمَةٍ بَهَـرَ العُقـولَ خَفِيُّهَـا ... أوْرَيْتَ بالحُكْـمِ الجَلِـيِّ زِنادَهَـا
كَـمْ حجّـةٍ لِلـنّصرِ قـامَ دَليلُهَـا ... لمّـا أقمْتَ مِـن القَنَـا مُنْآدَهَـا

كَـمْ آيـةٍ لِلفَتـحِ عَـزَّ مَثيلُهَـا أطْلَعْتَ في أُفُقِ العُلَـى وَقَّادَهَـا
كَـمْ عـادَةٍ لِلعـزِّ قَـدْ عُوّدتَهَـا بالسَّيفِ تُعْجِزُ مَن يَرُومُ عِنادَهَـا
كَمْ عزمَةٍ يُنْجِي الأمينَ أمانُهَـا لوْ لَمْ يَفُتْ وَيَرى الرَّشِيدُ رَشادَهَا
كَـمْ صَوْلَـةٍ لِلمُعْتَديـنَ صِيالُهَـا أفْنَـى جُمـوعَ حُماتِهَـا وأبادَهـا
كَمْ فِتْنَةٍ أخْمَدتَها من بَعْـدِ أنْ قدْ كان أوْقَدَهَا الضّلّالُ وَقادَهَـا
هَذا الهُمَامُ العَادِلُ الأرْضى الـذي قادَ الجُيوشَ إلَى العِدَى فاقتَادَهَـا
مَـدَّتْ بَأمْـلاكِ السَّمـاءِ جُنـودُهُ ظِـلَّ الأمَـانِ فـواصَلَتْ إمْدادَهَـا
لكَأنْ بأنْصارِ الهُدَى قدْ زَلـزَلَتْ أرْضَ العُـداةِ وَضَعْضَعَتْ أطْوادَهَـا
لَكـأنّ بأحـزابِ الضّلالِ مَروعَـةٌ بكَتـائِبٍ أخـذَتْ لهَـا اسْتِعْدادَهَـا
لكأنْ بهَا لمْ تاتِ طَوْعَ مُرادِهَا إلاَّ مَنَـعْتَ مُرادَهَـا ومَرادَهَـا
لكأنْ بسَيْفِكَ قدْ كَفَى أعْدادَهَـا إذْ كفَّهَـا عَمَّـا نَوَتْـهُ وآدَهَـا
لكـأنْ بِـهِ قـدْ قَلّـلَ اسْتِقلاَلَهَـا طَـوْعَ الجِهـادِ وبَـدَّدَ اسْتِبْدادَهَـا
لَكـأنْ بـأرْضِ العُدْوَتَيْـنِ تُحِلُّهَـا جُـرْدًا تَعُـمُّ هِضابَهـا وَوِهادَهَـا
صالَتْ بإحْدَى الحسْنَيَيْنِ فَـواصَلَتْ تأْويبَهَـا في اللّـهِ أوْ إسْآدَهَـا
حيْثُ الخُيُولُ تُريكَ مِنْ خُيَلاَئِهَا مَا يُورِدُ الحَرْبَ العَوانَ وِرَادَهَـا
مَا جَنّدَتْ صِيدُ المُلوكِ جُنودَهَـا إلاَّ وقدْ جَعَلَتْ بِكَ اسْتِنْجادَهَـا
مَـا أيْنَـعَتْ لِلْمَكْرُمـاتِ حَدائِـقٌ لوْلاَ سَحابٌ مِن نَـوالِكَ جادَهَـا
والمَشْرفِيَّـةُ لَـيْسَ يُنْجِـدُ حَمْلَهَـا ان لمْ تُطِلْ شَرَفًا لدَيْكَ نِجادَهَا
بِيضٌ تَكادُ تَذوبُ طَيَّ غُمودِهَـا حِقْدًا عَلى مَنْ خانَهَا أوْ كادَهَـا
يَكْسُو النَّجيعُ مُتُونَهَا إن جُـرِّدَتْ فكأنّهَـا مَـا فـارَقَتْ أغْمادَهَـا -111-
تَحْكِي جَداوِلَ حيْثُ أوْقَدَتِ العِدَى لِلحَـرْبِ نـارًا واصَلَتْ إخْمادَهَـا
وَذوابِـلٍ صَدَرتْ نَواهِـلَ بَعْدَمَـا قدْ كانَ حَلّأهَـا الضّلالُ وذَادَهَـا
سُمْرٌ تُريكَ مِن الأسِنَّـةِ انْجُمًـا والحَرْبُ تُخْفِي في العَجاجِ صِعَادَهَا

لِلّـهِ أنـدَلُسٌ فكَـم مـن عَزْمَـةٍ   لَكَ مَهَّـدتْ أقْطارَهَـا وَبلاَدَهَـا[209]

ولَطالَمَـا أجْهَـدتَ نـفْسًا آثَـرتْ   في اللّهِ طَوْعَ المَغْلُواتِ جِهادَهَـا

وَخطبْتَ فَتْحَ العُدْوَتَيْنِ فَلَمْ تَـدَعْ   خَطْبًا يَذودُ عَنِ العُيـونِ رُقادَهَـا

وَطـرَقْتَ مَنْـزِلَ طـارِقٍ بِكَتـائِبٍ   أحْلَـلْتَ في أنجَـادِهِ أنجَادَهَـا

وَعَـدَتْ بِـهِ الأَيامُ بَعْدَ مِطالِهَـا   فَـوَفَتْ لَـدَيْكَ وأنْجَزَتْ مِيعادَهَـا

رِيعَتْ جُموعُ حُماتِهِ فاسْتَـنْصَرَتْ   بِكَ واسْتجـارَ جَميعُهَـا مِمَّادَهَـا

لَمَّـا دَعَـا دَاعِـي الـرَّشادِ تَهَيَّـأتْ   طَوْعًـا لِمَـا قَـدْ شاءَهَـا وأرادَهـا

عَادَتْ لِملكِكَ واستقـامَتْ بَعْدَمَـا   كانَتْ عَدَتْ إذْ خالَفَتْ مُعْتادَهَـا

أنجَـزْتَ بالرِّفْـدِ المُؤَمَّـلِ وَعْدَهَـا   لَمَّا صَفَحَتْ ولَـمْ تُجـزْ إيعَادَهَـا

فاتَتْ وقَـدْ جَعَلَتْ يَمينَكَ قِبْلَـةً   إذْ قابَلَ الصَّفْحُ الجَميـلُ عِنادَهَـا

وَمُعِزُّ دَوْلَـتِكَ الكَرِيمَـةِ لَـمْ يَـزَلْ   يُـرْدِي بـآسادِ العَريـنِ نِقادَهَـا[209م]

يُـرْضِي خِلافَـتَكَ الـتِي عَلْياؤُهَـا   كَبَتَتْ بسَيْـفِ عَلِيِّهَـا حُسَّادَهَـا

فَـأَذَلَّ عاصِيَهَـا بِعِـزِّكَ بَعْدَمَـا   أضْحَـى رِضاكَ مُؤَمِّنًـا مُنْقادَهَـا

واحْتَلَّ مِنْهُ المَعْقِلَ الأشِبَ الـذِي   نَـالَتْ بِرَجْعَتِـهِ النُّفـوسُ مُرادَهَـا

جَبَـلٌ سَمـا فـإذا بَـدَتْ أبراجُـهُ   خِـلْتَ البُـرُوجَ بِأُفْقِـهِ أنْدَادَهَـا

هَـذا وَيـا لِلّـهِ حَضْرَتُكَ الّتِـي   تُلْقِي لَدَيْكَ بِهَـا المُلوكُ قِيادَهَـا

سَامَتْ كمَا شاءَتْ لَهَا رُتَبُ العُلَى   شُهُبَ السَّمـاءِ فَطـاوَلَتْ أبْعادَهَـا

فَلْيَهْـنِ كُـلَّ مُتَمِّـمٍ أرْجاءَهَـا   يَرْجوكَ إنْ أَلِفَ العُلَـى واعْتَادَهَـا

واهْنَــأْ بِعيـدٍ بالـمَسَرّةِ عائِـدٍ   قدْ زارَها طَوْعَ السُّعُـودِ وعادَهَـا -112-

ولْيَهْنـإِ الأعْيـادَ مِـنْكَ مَآثِـرٌ   أضْحَتْ كَما تَبْغِي العُلَى أعْيادَهَا

اطَّلَعْتَ بَدْرًا مِن مُحَيَّاكَ الـذِي   مِنْهُ رَجَتْ شمسُ الضحَى اسْتِمْدادَهَا

---

(209) لك، كتب فوقها : قد، وكأنّها رواية.

(209م) النّقاد : صغار الغنم.

وَمَدَدْتَ لِلتَّقْبِيلِ كفًّا طَالَمَا   بَدَأَ المَكَارِمَ جُودُهُ وأعادَهَا
والعَبْدُ يُلْقِي فِي عُلاكَ مَدائِحًا   حَلَّى البَيانُ بِدُرّه أجْيادَهَا
ما أحْضَرَتْ مِنهَا البَلاغَةُ نَقْدَهَا   إلاَّ ثَنَتْ عَن قصْدِهَا نُقَّادَهَا
لَوْلاَ نَوالُكَ أيُّهَا المَلِكُ الرّضَى   وَحُلاَ خِلاَلِكَ لَمْ يُجِدْ إنْشادَهَا
لَكِنَّ رَاحَتَكَ الكَرِيمَةَ بالنَّدَى   جادَتْ غَمائِمُ جُودِهَا فَأجادَهَا
ولَدَيْكَ مِنْ حِزْبِ الهِدَايَةِ أُسْرَةٌ   تُبْدِي لِمُلْكِكَ حُبَّهَا وَوِدادَهَا
حَلَّتْ لدَى مَوْلَى المُلوكِ مَعَالِمًا   قدْ وَثَّرتْ أيْدِي العَلاءِ مِهادَهَا(210)
مَازِلْتَ تَحْرُسُهَا بعَيْنِ كَلاَءَةٍ   نامَ الأنَامُ وقدْ أطَلْتَ سُهادَهَا
فَحَمَيْتَ مِن قَصْدِ العِدَى أرْجاءَهَا   وأنَلْتَ أشتَاتَ المُنَى قُصَّادَهَا
فَلأهْلِهَا بكَ صَوْلَةٌ مَا قابَلَتْ   أعْداءَهَا إلاَّ كَفَتْ أعدَادَهَا
كُلٌّ يَقولُ مُؤمِّنًا وَمُؤَمِّلاً   دَامَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَدُمْتَ عِمادَهَا

وأنْشَدتُ في أضْحَى عامِ سَبْعَةَ عَشَر وثَمانِمائة بالحَضْرَةِ العَلِيَّة

هَنِيئًا بِهِ يا ناصِرَ الدّين مَوْسِمَا   يُغادِرُ أهْلَ الشّرْكِ نَهْبًا مُقَسَّمَا
وَبُشْراكَ طَوْعَ النَّصرِ والعِز والعُلَى   بِمَا أبْرَمَ الصُّنْعُ الجَميلُ وأحْكَمَا
حُبِيتَ بِهِ نَصْرًا عَزيزًا مُؤَبَّدًا   وفُزْتَ به صُنْعًا جَميلا مُتَمَّمَا
وفتْحًا مُبِينًا واعْتِلاءً مُخَلَّدًا   لِذِكْرِكَ في صَفْحِ الزّمان مُرَسَّمَا
سَلَكْتَ سَبِيلاً لِلمحَامِدِ لاَحِبًا   وأوْضَحْتَ مَعْنًى لِلمكارِمِ مُبْهَمَا
وَبُوِّءْتَ مِن أفْقِ الخِلافَةِ مَظْهَرًا   يُطاوِلُ لمَّا أنْ سَمَا شُهُبَ السَّما
فقَدْ جَعَلتْهُ الأنْجُمُ الزُّهْرُ مَطْلِعًا   إلَى مُرْتَقَى السّبْعِ الطِّباقِ وَسُلَّمَا -113-

(210) وثّرت : جعلته وثيرًا.

ومازِلْتَ تُرجوكَ الخَلائِفُ مانِحًا ... نَدَى يَدِكَ العُلْيا عُلاً وَتكَرُّمَا
لِمَا جُزْتَهُ مِن رُتْبةِ النَّجمِ مُعْلِيًا ... بمَا حُزْتَهُ مِن شِيمَةِ الحِلْمِ مُعْلِمَا
بِكَ استَنْصَرَ الأمْلاكُ بَدْءًا وَعودَةً ... فأنجَدَ كُلٌّ في رِضاكَ وأتْهَمَا
بأكْرَمَ مَن أهْدَى وأعْلَمَ منْ هَدَى ... وأرْحَمَ مَن آوَى وأحْزَمَ مَنْ حَمَى
دَعَتْ مِنْكَ مَوْلًى مفضِلاً مُتطَوِّلاً ... فوالَيْتَ إنْعامًا وأوْلَيْتَ أنْعُمَا
ومَا أحْجَمَتْ إلاّ تَوَقتْكَ مانِعًا ... وَلا أقْدَمَتْ إلاّ تَلَقَّتْكَ مُنْعِمَا
ولاَ استَنْشَقَتْ رُوحَ الحَياةِ وقدْ جَرتْ ... لَدَيْكَ رِياحُ النَّصْرِ إلاَّ تَنَسُّمَا
فكَمْ همَّةٍ نصْرِيَّةٍ راعَتِ العِدَى ... وكَمْ ذِمَّةٍ مرْعِيَّةٍ حاطَتِ الذِّمَا
سَتَتْرُكُ أرْضَ الشِّرْكِ وهْيَ بَلاقِعٌ ... وتُلْقِي عَلَيْهَا النَّقْعَ في الجَوّ مِيسَمَا
بحَيْثُ تُراعُ الوَحْشُ أن تَصِلَ السُّرَى ... بِبَيْدائِهَا والطَّيْرُ أن تَترَنَّمَا
لَقَدْ خَطَبَ الخَطِّيُّ فَتْحَ بِلادِهِ ... وخَاطَبَهُ الهِنديُّ عَنكَ فَأفْهَمَا
فَلِلهِ مِنْهَا إذْ تَحُلُّ حِلاَلَهُ ... صَنائِعُ جَلَّتْ قَبْلُ أنْ تُتَوَهَّمَا
بكُلِّ كَمِيٍّ إنْ سَرَى أسَرَ العِدَى ... وان حَلَّ مغنًى خِلْتَ ما فيهِ مَغْنَمَا(211)
وإن زارَ أرْضَ الشِّرْكِ عَفَّى طُلولَهَا ... وحَكَّمَ فِيهِمْ سَيْفَهُ فَتَحَكَّمَا
وإنْ خَفَّ جَيشُ النصْرِ أوْ عادَ قافِلاً ... فَيَكْلأُ في أعْقابِهِ مَن تَقَدَّمَا
ويُقْدِمُ لاَ يَثْنِي أعِنَّةَ عَزْمِهِ ... بحَيْثُ يَهابُ اللَّيْثُ أنْ يَتَقَدَّمَا
ويُحْجِمُ عَن أن يَنْثَنِي وَهْوَ مُفْرَدٌ ... بِحَيْثُ يَعافُ الجَمْعُ أنْ يَتَلَوَّمَا
فَلَمْ يَرْعَ في الأرْجاءِ إلاَّ تَأخُّرًا ... ولَمْ يَرْضَ في الهَيْجاءِ إلاّ تَقَدُّمَا
ولَوْلاَ ابْنُ نَصْرٍ ناصِرُ الدّينِ يُوسُفٌ ... لَمَا أعْلَتِ الأمْلاَكُ لِلعِزِّ مَعْلَمَا
ولاَ رَاعَ أحْزابَ الضَّلالِ جِهادُهَا ... وقَدْ راقَ ثِغْرُ الثَّغْرِ عَنْهُ تَبَسُّمَا
ولاَ ارْتاحَتِ الخَيْلُ العِتاقُ إلى المَدَى ... فَسامَتْ مَذاكيهَا البُروقَ تَلَوُّمَا
ولاَتَّنَتِ السُّمْرُ العوَالِي لَدَى الوغَى ... ذَوابِلَ في الأيْدِي تَرُوقُ تَنَعُّمَا

(211) خلْتَ، كتب فوقها في الأصل : كانَ، وهذا يحصل للشاعر أحيانًا فيقترح كلمة في موضع أخرى.

أسِنّتُهَا في مُلْتَقى الحَرْبِ أنْجُمٌ ... تَجلّتْ فَجلّت مِن دُجَى النَّقْعِ مُظْلِمَا -114-
هَوَيْنَ لِيَجْعَلْنَ النَّجيعَ مَوَارِدًا ... كأنَّ طُيورًا في ذُرَى الجَوِّ حُوّمَا
تُرى حُمْرَهَا فَجْرًا يَرُوقُ وَزُرْقَهَا ... تُحَييكَ في لَيْلِ العَجَاجَةِ أنجُمَا
وَمِن عَجَبٍ أنَّ السُّيوفَ جَداوِلٌ ... تشُبُّ أُوارَ الحَرْبِ لا تَنْقَعُ الظَّمَا
إذا هِي سالَتْ في مَدَى النَّقْعِ خِلْتَهَا ... تَشُقُّ مِنَ الخَطِّيِّ دَوْحًا مُنَعَّمَا
وَعَوْجاءَ لِلأغْراضِ يَسْبِقُ سَهْمُهَا ... ويَكْلَفُ مِنْهَا بالقَصِيِّ إذا رَمَى
فَيُبْدِي لدَى النَّزْعِ الحَنِينَ كَأنَّهُ ... يُحاوِلُ إعْرابًا وإنْ كانَ أعْجَمَا
ولِلهِ مَوْلًى أُعْمِلَتْ عَزَماتُهُ ... لِتَحْرُسَ أيْقاظًا وتُوقِظَ نُوَّمَا
فأرْسَلَهَا سُمْرًا وأعْمَلَهَا ظُبًا ... وفوَّقَهَا في مُلْتَقَى الحَرْبِ أسْهُمَا
ومَا لَقِيَ الأعْداءَ إلاَّ مُجَدّلاً ... ولاَ اقتَحَمَ الهَيْجاءَ إلاَّ مُصَمِّمَا
وَلا احْتَمَلَ الهِندِيَّ إلاَّ مُجَرَّدَا ... ولاَ اعْتَقَلَ الخَطِّيَّ إلاَّ مُقَوَّمَا
وَلاَ يُنْهِدُ الأجْنادَ إلاَّ مُمَلَّكًا ... ولاَ يُنْجِدُ الأمْلاكَ إلاَّ مُحَكَّمَا
ولاَ يَسْتَجِدُّ العَزْمَ إلاَّ مُؤَيَّدًا ... ولاَ يَسْتَجِيدُ الطِّرْفَ إلا مطَهَّمَا
يَهُبُّ هُبوبَ الرِّيحِ حَتَّى كَأنَّهُ ... تَجَسَّدَ مِن هَبَّاتِهَا وتَجَسَّمَا
إذا رامَ أمْلاكُ الزَّمانِ إلى العُلَى ... نُهُوضًا وَسَبْقًا لِلنَّدَى وتَقَدُّمَا
فناصِرُ دِينِ اللّهِ أشْرَفُ مُنتَدًى ... وأكْرَمُ في صَحْبِ الرِّسالَةِ مُنْتَمَى
يُحَيِّيكَ بالبَدْرِ المنِيرِ إذا انتَهَى ... كَمالاً ويُنْمَى لِلصِّحابِ إذا انْتَمَى
وأيْنَ مُحَيَّاهُ مِنَ الفَجْرِ إنْ بَدَا ... وجَدْواهُ مِن صَوْبِ الغَمامِ إذا هَمَى
جَوَادٌ مَتَى ضَنَّ الْمُلوكُ فَرِفْدُهُ ... جَوَادٌ لَهُ خَصْلُ السَّبَاقِ إذَا ارْتَمَى
رَأى جُودَهُ لِلقاصِدِينَ مُؤَمَّلاً ... فَأصْبَحَ مُغْرًى بِالْمَكَارِمِ مُغْرَمَا
فَيُرْوَى حَدِيثُ الجُودِ عَنْهُ مُسَلْسَلاً ... وَسَلْسَالُهُ تُرْوَى بِهِ الأنْفُسُ الظِّمَا
لَهُ شِيَمٌ أعْلَتْ معَالِمَ لِلهُدَى ... بِهَا قَدْ أتَانا مُحْكَمُ الذِّكْرِ مُعْلِمَا
لَهُ ذِمَمٌ مَن رَامَ بالغَدْرِ خَفْرَهَا ... أبَتْ أنْ يُرَى إلاَّ خَذُولاً مُذَمَّمَا -115-

يَغُضُّ جُفُوناً أَوْ يَعُضُّ أَنَامِلاً ... عَلَى حَالَتَيْهِ هَيْبَةً وتَنَدُّمَا
فَمَا يَتَوَقَّى الْخَطْبَ إلاَّ تَخَيُّلاً ... وَلاَ يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إلاَّ تَوَهُّمَا
ويُوسُفُ يُعْلِي لِلخِلاَفَةِ مَعْلماً ... ويُلْبِسُهَا ثَوْباً مِنَ الْعِزِّ مُعْلَمَا
إِذَا رَاحَتِ الأَبطَالُ وَهْيَ عَوَابِسٌ ... مِنَ الرَّوعِ لاَ يَزْدَادُ إلاَّ تَبَسُّمَا
يُقِيمُ صَغَا الدِّينِ الْحَنِيفِ حُسَامُهُ ... إذَا مَا أَمَالَ السَّمْهَرِيَّ الْمُقَوَّمَا
خلاَئِقُ لَوْ أُظْهِرْنَ لِلنَّجْمِ مَا ارْتَقَى ... وَلِلَّيْثِ مَا اسْتَشْرَى وَلِلْغَيْثِ مَا هَمَى
عَزائِمُ لَوْ أُعْمِلْنَ لِلدَّهْرِ مَا اعْتَدَى ... وللبَدْرِ مَا اسْتَعْلَى وَلِلبَحْرِ مَا طَمَا
مَلاَمِحُ لَوْ اُطْلِعْنَ لِلصُّبْحِ مَا بَدَا ... وَللَّيْلِ مَا أَهْدَاكَ بَدْراً مُتَمَّمَا
وبُشْرَى بِهِ عِيدًا لنَصْرِكَ عائِذًا ... وَهُنِّئْتَهُ يَوْمًا أَغَرَّ وَمَوْسِمَا
أَفَضْتَ مِن النَّعْمَاءِ فيهِ غَمائِمًا ... تَجودُ الذِي وافَى عُلاكَ وَيمَّمَا
فكَمْ رَحْمَةٍ نَعْتَادُ مِنْهَا تَوسُّعًا ... وَكَمْ آيَةٍ نَزْدادُ فِيهَا تَوَسُّمَا
بَسطتَ إلَى التَّقبِيلِ رَاحَتَكَ التي ... تُؤَمِّنُ مُرْتاعًا وَتوجِدُ مُعْدِمَا
لقدْ أَصْبَحَتْ طَوْعَ النَّدَى مُتَوَجِّهًا ... لِمَن قَدْ رَجَى نَيْلَ المُنَى وَمُيَمِّمَا
وعَبْدُكَ يُلفِي في حُلاَهَا مَدائِحًا ... يَفُضُّ بهَا مِسْكَ الثَّنَاءِ مُخَتَّمَا
بِمَا هُوَ لِلأَفْهَامِ أَقْرَبُ مُرْتَقًى ... وأَبْعَدُ في شَأْوِ البَلاَغَةِ مُرْتَمَى
ومَا القَصْدُ إلاَّ أن يُقبِّلَهَا وَقَدْ ... صَرَفْتَ لَهُ وَجْهَ القَبولِ تَكَرُّمَا
لِيُبْدِي لَدَيْكَ المَدْحَ رَوْضًا مُفَوَّفاً ... ووَشْيًا يَرُوقُ النَّاظِرِينَ مُنَمْنَمَا
وَزَهْرًا نَضيرًا في رِياضِ بَلاَغَةٍ ... وَدُرًّا بأَجْيادِ الطُّروسِ مُنَظَّمَا
فَيا سَامِعًا مِن وَصْفِهِ كُلَّ معْجِبٍ ... يَرُوقُ ذَوِي الأَلْبابِ فَذًّا وتَوْأَمَا
إذا أنتَ لَمْ يُقْنِعْكَ في الشِّعْرِ وَصْفُهُ ... فَخُذْ مِنْهُ مَا تَتْلُوهُ في الذِّكْرِ مُحْكَمَا
وَرُجْعَى إِلَى ذِكْرِ الحِجاز وَمَن بِهِ ... تَلا مُحْكَمَ الآياتِ حَيْثُ تَلَوَّمَا
ومَن طابَ ذِكْرًا حينَ حَلَّ بطَيْبَةٍ ... وَسارَ إلى بَطْحاءِ مَكَّةَ مُحْرِمَا
وأَضْحَى كَما تَبْغِي العُلَى مُتَوَسِّلاً ... بزَوْرَتِهِ في رَبْعِهَا مُتَوَسِّمَا - 116

وإنَّ حَجيجَ اللّهِ عَادَ إلَى مِنًى — وَطافَ ببَيْتِ اللّـهِ سَبْعًا وأحْرَمَا

وما كانَ لِلْقَصْدِ الحَميدِ مُخَيَّبًا — فَطُوبَى لِمَن أضحَى لَدَيْهِ مُخَيِّمَا

فَمِن زَفَراتٍ رَجْعُهَا يُذْهِبُ الأسَى — ومنْ جَمَراتٍ رَمْيُهَا يَنقَعُ الظَّمَا

ومِن زَوْرَةٍ فازُوا بِهَا اليَوْمَ دُونَنَا — لَدَى عَرَفاتٍ إذْ عَلَوْا مِنْهُ مَعْلَمَا

ولَمَّا سَرَى الرَّكْبُ الحِجازِيُّ لَمْ نَزَلْ — نُرَدِّدُ لَوْ تُجْدِي عَسَى ولَعَلَّمَا

لَقَدْ عَمَرُوا طَوْعَ الهُدَى أرْبُعَ التُّقَى — فَمَا صَوَّحَ المَرْعَى ولاَ أقْفَرَ الحِمَا

سَرَوْا وَظَلامُ اللَّيلِ يُضْمِرُ مِنْهُمُ — إلَى مَطْلَعِ الإصْباحِ سِرًّا مُكَتَّمَا

وَضاقَتْ صُدُورُ البِيدِ عَنهُمْ كَأنَّهُمْ — ظُنونٌ أبَى إيضاحُهَا أنْ تُرَجَّمَا

وزَمُّوا مَطايَا العَزْمِ تَبْتَدِرُ السُّرَى — وتَسْتَقْبِلُ البَيْتَ العَتِيقَ وَزَمْزَمَا

إذا سَمِعُوا ذِكْرَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ — يَميلُونَ سَبْقًا نحْوَهُ وتَقَدُّمَا

فَيا لَيْتَ شِعْرِي مَن لِسَمْعِي بِسَمْعِهِ — وقَدْ هَيْنَمَ الحَادِي بِهِ وتَرَنَّمَا

هَنيئًا لِمَن آوَى لِعِز جَنابِهِ — وَبُشْرَى لِمَن صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَا

ومَنْ خَلَّفُوا لِلْقَلْبِ أضْحَى مُسَلِّيًا — بِهِمْ ولأحْكامِ القَضاءِ مُسَلِّمَا

قَضَوْا حَجَّهُمْ لَمَّا أقَمْنَا نُقيمُ مِنْ — جِهادِ العِدَى فَرْضًا عَلَيْنَا مُحَتَّمَا

لَدَى مَلِكٍ إنْ ساجَلَ البَدْرَ وَالحَيَا — تَجِدْ هَدْيَهُ أجْلَى وَيُمْنَاهُ أكْرَمَا

تُؤَمِّلُ أمْلاكُ الزَّمانِ عَلَى النَّوَى — مَواهِبَ نُعْماهُ فَلازالَ مُنعِمَا

إلى هَذهِ القَصيدَةِ انتَهَى تَقْييدُ العِيديَّات
المُهَنَّإِ بهَا مَوْلانَا أيَّدَهُ اللهُ وَنَصرَهُ عَلى نَسَقٍ وهَي أقْرَبُ
مَنظُوم صَدَر عَنّي لتاريخ كَتْبِ هَذا ونُقَيِّدُ بَعْدَمَا يَقَعُ
لِليَدِ مِن مُبَيّضاتِ الشّعْرِ الصَّادِرِ عَنِّي إنْ شاءَ اللهُ

وَمِمَّا وَجَّهَهُ إلَيَّ أَيَّدَهُ اللهُ فِي بَعْضِ أَيَّامِ الصَّنِيعِ
أَبْياتًا فِي العَرُوضِ الدُّوبِيتِي وَأَمَرَنِي بِنَظْمٍ فِيهِ عَلَى
حُرُوفِ المُعْجَمِ فَلَمْ أَرْفَعْ قَلَمًا عَنْهُ حَتى أَتْمَمْتُه
مِنْ قُبَيْلِ الظُّهْرِ إلَى صَلاةِ العَصْرِ والمُوَجَّهُ مِن قِبَلِ
مَوْلانَا أَيَّدَهُ اللهُ مَا يَخْتَصُّ مِنْهُ بِحَرْفَي الفاءِ والقافِ
حَسْبَمَا يأتِي بَعْدُ[212]

قَلبِي كَلِفٌ بظَبْيَةٍ حَسْنَاءِ — يأتِي وصْفُهَا بالرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ
كَمْ قد أطْلَعَتْ مِن غُرَّةٍ غَرَّاءِ — يَلْتاحُ جَمالُهَا لِعَيْنِ الرَّائِي
يا مَن لجُفونِ دَمْعِهَا يَنسَكِبُ — ومَن لِضُلوعٍ جَمْرُها يَلْتَهِبُ
عُذَّالِي إذْ بُحْتُ بِوَجْدِي عَتَبُوا — والشَّمْسُ عَنِ العُيونِ لاَ تَحْتَجِبُ
جِسْمِي خافٍ والقَلْبُ وَجْدًا خافِتْ — لِعَهْدِ وِصالٍ قَدْ تَقضَّى فَآئِتْ
يَا لَيْتَ أُرَى فِي الحُسْنِ يَوْمًا بَاهِتْ — مِمَّنْ حُسْنُهَا يُعْجِزُ وَصْفَ النَّاعِتْ
ما كُنْتُ أُطيقُ عَنْ حِماهَا لُبْثَا — حَتَّى أُلْقِي الرِّكابَ فِيهِ حَثَّا
لَوْلاَ أنْ جَادَلِي النَّوالُ غيْثَا — مِمَّنْ تُلْفِيهِ فِي التَّلاقِي لَيْثَا
مِن غيثِ النَّدَى جُودًا وَغوثِ الرّاجي — وَمُسْعِفِ قَصْدِ الآمِلِ المُحْتَاجِ
وَمُجْلِي الدُّجَى بنُورِهِ الوَهَّاجِ — ومَوْلَى مُلوكِهَا أبِي الحَجَّاجِ
مَرآهُ يَلُوحُ لِلعُيُونِ صُبْحَا — ثَنَاهُ كأَزْهارِ الرِّياضِ نفحَا
حَمائِمُ فِكْرِي رَدَّدتهُ صَدْحَا — غَرانِي الطُّروسِ قَلَّدَتْهُ وُشْحَا
أنصارَ الدِّينِ لِعُلاَهُ سِنْخُ — عِقْبانُ وَغًى يوْمَ التّلاَقِي فُتْخُ
ويُمْنَاهُ إذْ لِلقاصِدِينَ يَسْخُو — شَرِيعَةُ جُودٍ لَمْ يَرُعْهَا النَّسْخُ

---

(212) الدوبيت : نوع من النظم مولّد، والكلمة فارسية معناها : البيتان.

هَـذا لَكِـنْ جَفَـا فُـؤادِي البُعْـدُ فَلَيْسَ بِـهِ إِلاَّ جـوًى أَوْ وَجْـدُ
أَيُنْجِـزُ يوْمًـا لِلتلاقِـي وَعْـدُ وَيُغْمَـرُ غَـوْرٌ لِلـرِّضَا أو نَجْـدُ
رَمَـى قَلْبِي لِلبَيْـنِ سَهْـمٌ مُنْفِـذُ فالوَجْـدُ عَلى جَميعِـهِ مُسْتَحْـوذُ -118-
فَلَيْسَ لَـهُ غَيْـرُ الـوِصالِ مُنْقِـذُ ولا سِوَى مَوْلَـى الـوَرَى تَعَـوُّذُ
قَدْ فاقَ الوَرَى فِي منظَرٍ أَوْ مَخْبَرِ مَوْلًى هَدْيُهُ يَرُوقُ عَيْـنَ المُـبْصِرِ
يَلـوحُ سَنَـاهُ كالصَّبَـاحِ المُسْفِـرِ فَتَخفَى نجومُ الأُفْقِ حوْلَ المَظْهَرِ
أنسَى مَن مَضَى وكُلِّ آتٍ أعْجَزا وَعْدًا وَوعيدًا مُخْلِفًا أَوْ مُنْجِـزَا
ما زَالَ لأوْصافِ الكَمالِ مُحْـرِزًا وَمِـنْ رِفْـدِهِ لِكُـلِّ مُحْسِنٍ جَـزَا
مَوْلًى كالدَّهْرِ بالأعَادِي قدْ سَطَـا أضْحَى مُنْعِمًا بالعَدْلِ فِينَا مُقسِطًا
يُفِيضُ عَلَى قصَّادِهِ سُحْبَ العَطَـا فَتُلْفِيهِـمْ وِرْدًا كـأَسْرابِ القَطَـا
مهْمَا نَظَـرتْ عيْـنُكَ لِي باللَّحْـظِ أَوْ فاتحْتَنِـي بالكَتْـبِ أَوْ باللَّفْـظِ
فكَـم حُظْـوَةٍ تُفيدُهَـا أَوْ لحْـظِ لِلفَـوْزِ مِـنَ الدّنيَا بأوفَـى حَـظِّ
أيا يُوسُفًا فِي الحسْنِ أَوْ فِي المُلْكِ نظامِـي كَـدُرٍّ رائِـقٍ فِي السِّلْكِ
أُزيلُ بِهِ صَرْفَ الْخُطوبِ الْحُلْكِ إذْ قلتَ أبو الحسَيْنِ عَبْدِي مِلْكي
أنَـا المَمْلُـوكُ يَـا إِمَـامَ العَـدْلِ وَيَـا خَزْرَجِـيَّ المُنْتَمَـى والأَصْلِ
ويَا جامِعًا مَا للنّدى مِنْ شمْـلِ إِذا لَمْ تكُنْ لِي فِي الزمانِ مَن لِي
دَمْعِـي وفُـؤادِي هائِـمٌ أَوْ هَـامِ يَهْفـو وَجْـدًا كَخافِـقِ الأَعْـلامِ
جَفْنِـي وغَرامِـي دائِـمٌ أَوْ دَامِ كمِثْـلِ حُسامِ نَـاصِرِ الإِسْلامِ
وَجْـدِي مـا أنْ يأخُـذُهُ الإِمْكـانُ هَلاَّ يُحْصِي شُهْبَ الدُّجَى حُسْبانُ
وَالـحُبُّ أبانُـوا عِنِدَمَـا قـدْ بَانُـوا فآلَيْـتُ تَعـودُ بالـرِّضَى الأَزْمـانُ
بالقلْـبِ مِنَ الغَرامِ مَـالاً يُـحْصَى فكَـمْ أمَـدٍ بَلَـغْتُ منـهُ الأقصَى
أُبديـهِ جَـوًى يَكِـلُّ عَنْـهُ الإِحْصَا مَعْنًى كَيْفَ شَاءهُ الهَوَى أَوْ نَصًّا

ظَبْيٌ لاَ رِضًى إلاَّ بِمَا يَقْضِيهِ وَلا قَصْدَ إلاَّ الذي يُرْضِيهِ
لِلصَّبْرِ حُسامٌ كلَّمَا أُنضِيهِ يَفُلُّ الهَوَى مَا عَزْمُهُ يُمْضِيهِ
يا لَيْتَ زَمانًا قدْ مَضَى يَرْتَجِعُ والأُنسُ لهُ شَمْلٌ بِهِ مُجْتَمِعُ
طَمِعْتُ وَهَلْ في الحُبِّ يُجْدِي الطمعُ أَوْ يُغْنِي الأَسَى منْ بعَدِهِ أوْ ينفَعُ -119-
هذَا قَلْبِي صَبا إلَيْهِ وَصَغَا لَقَدْ بَلَغَ الغَرامُ مِنّي مَبْلَغَا
هَذا طَمَعِي لوْ نالَ مِنْهُ ما ابْتغَى فالدَّمْعُ طَمَا وَجَمْرُ وَجْدِي قدْ طَغا
هَذا قَلْبِي وَخَصرُهُ مُخْتَطَفُ هَذَا شَوْقِي وَصُدْغهُ مُنْعَطِفُ
شَمْلِي هَمِّي مُفْتَرِقٌ مُؤْتَلِفٌ مِن مُعْتَدِلٍ وَحُكْمُهُ مُخْتَلِفُ
عَيْنِي تَرْجو خَيالَكُمْ يُطرِقُهَا مُنُّوا بِزَوالِ سَهَرٍ يُقْلِقُهَا
مازالَ حَشيتُ شَوْقِكُمْ يُحْرِقُهَا حَتَّى طَفِقَتْ دُمُوعُهَا تُغْرِقُهَا
جادَتْ فَحَكَتْ صَوْبَ الحَيا المُنْبَجِسِ من كَفٍّ إمَامِ الغَرْبِ والأنْدَلُسِ
يُبْدِي نُورَ الصَّباحِ لِلْمُقْتَبِسِ يَبْدُو أسَدَ السَّرْجِ وبَدْرَ المَجْلِسِ
يجلُو هَدْيُهُ جِنْحَ الدُّجَى إذْ يَغْشَى تُرْجَى كفُّهُ سَلْمًا وحَرْبًا تُخْشَى
قَدْ أعْيَا جَرِيرًا وَصفُهُ وَالأَعْشَى فَكَيفَ يَفي نَظْمٌ بِهِ أَوْ إنْشا
خُلْقُهُ أدَبًا كالرَّوْضِ في رَيَّاهُ أَحْيَاهُ بِغَيْثِ الجُودِ إذْ حَيَّاهُ
نَظْمًا شَرَّفَ العَبْدَ بِهِ مَوْلاهُ بالصُّنْعِ الجَميلِ قدْ حَباهُ اللّهُ
لهُ الرَّكْبُ يُحْدَى والفَيافِي تُطْوَى عَنْ يُمْناهُ أخبَارُ العَطايَا تُرْوَى
مِن جَدْوَى يديْهِ كُلُّ ظامٍ يَرْوَى يُلْقِي حَمدَهُ في السِّرِّ أوْ في النَّجْوَى
مَوْلًى بالجَميلِ يَشفَعُ الإجْمالاَ ويُوضِحُ منْ كافِي النَّدَى الإِكْمالاَ
بِهِ عَبْدُهُ قد بَلَغَ الآمالاَ فالجاهَ يُفيدُ لَحظُهُ وَالمالاَ
مَوْلاَيَ الذِي يُهْدِي الوُجودَ الهَدْيَا وَمَنْ وَصفُهُ كُلَّ الوَرَى قدْ أعْيَا
لَمَّا نِلتَ رُتْبَةَ الكَمالِ العُلْيَا نالَ العَبْدُ ما أمَّلَهُ في الدُّنيَا

وَقُلتُ مُخَمِّسًا أبياتًا منْ قَصيدَة للشيخ الوَزير أبي عبْد اللّه ابْنِ الخطيبِ رَحِمَهُ الله في غَرَضٍ يَظْهَرُ مِنهَا وَحَقُّهَا أن تكونَ مَعَ العِتابِيَّاتِ وبِتاريخ اليَوْمَ الخَامِس لرَجَب الفَرْدِ المبارك مِن عام أحَدَ عشرَ وثماني مائة بِمَا نصُّه[213]

-120-

لَئِن رَحَلوا عَنّي صَباحًا وَودَّعُوا — فنارُ الجَوَى طَيَّ الجَوانِحِ أوْدَعوا
فَقلتُ ومَالِي في التَّصَبُّرِ مَطْمَعُ — نَوَوْا سَفَرًا عَنّي الغدَاة وأزْمَعُوا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَهُمْ كيفَ أصْنَعُ

لِذِكْرِهِمُ عُدْ والحَديثَ بهِمْ أعِدْ — فَلوْمُ وُشاتِي في الصّبابَةِ لمْ يُفِدْ
فَيا عاذِلِي مَنْ جَدَّ في العَتْبِ لمْ يُجِدْ — ويَا لائِمِي أكْثرتَ في اللَّوْمِ فاتَّئِدْ
فَهاذِي رُقًى في عِلَّتِي لَيْسَ تَنْفَعُ

مِن الشَّوْقِ أُهْدِيهَا إلَيْهِمْ رَسائِلاَ — وأُبْدِي لَدَيهِمْ مِنْ غَرامِي وَسائلاَ
ودَمْعِي لَمْ يَبْرَحْ عَلَى الخَدِّ سائِلاَ — لِغَيْرِ جُفُونِي كُنْ إذَا كُنْتَ قَائِلاَ
سَحابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَريبٍ تَقَشَّعُ

سَرَوْا بِركابٍ لِلظَّلاَلِ مُريحَةِ — وكَمْ من نُصوصٍ في هَواهُمْ صَريحَةِ
وألْسُنِ دَمْعٍ مِن جُفُوني فَصيحَةِ — ومَالِيَ لاَ أبْكِي بِعَيْنٍ قَريحَةِ
عَلى فُرْقَةِ الأحْبابِ تَهْمِي وَتَهْمَعُ

أيَا عاذِلِي كُنْ في المَحاسِنِ عَاذِرِي — فَقَلبِيَ مِنْهَا بَيْنَ ناهٍ وآمِرِ
فَها أنا صابٍ في الهَوَى غَيْرُ صَابِرِ — فُؤادِيَ أعْيا صَدْعُهُ كُلَّ جَابِرِ
وَهَلْ جُبِرَتْ يَاقُوتَةٌ تَتَصَدَّعُ

(213) يوجد هذا التخميس أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 192 إلى ص 198.

ذَكَرْتُ رُبُوعًا بالحِمَى وَمَعاهِـدَا وأَتْلَفْتُ قَلْبًا بالصَّبابَةِ جاهِـدَا
فأَصْبَحَ عَن نَهْجِ التَّصَبُّرِ حَائِـدَا لَضَيَّعْتُ قَلْبِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ نـاشِدَا
وَقَد قِيلَ أَوْلَى بالخَسَارِ المُضَيِّـعُ
لَعَلَّ هُيامِـي لِلأَحِبَّـةِ شَافِعِـي فَما كنتُ لَمَّا فيهِ خانَتْ مَطامِعِي
لِأَكْتُمَ وَجْـدًا أَظْهَرَتْـهُ مَدامِعِـي أبوحُ بِمَـا أُخْفِي ولَيْسَ بِنافِعِـي
ولكنَّها شَكْوَى إِلَى اللَّهِ تُرْفَـعُ
لَقَدْ أَتْلَفَتْ قَلبِي المَشُوقَ يَدُ النَّوَى فأَصْبَحَ يُذْكَى في جَوانِحِهِ الجَوَى
هَواكَ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ بِهِ ثَـوَى أَمالِكَ رِقِّي كَمْ أَرانِي في الهَوَى -121-
أَذِلُّ كَمَـا شاءَ الغَـرامُ وَأَخْضَعُ
لِقَلْبِيَ في أَيْـدِي الغرامِ تَقَـلُّبُ يُذادُ عَنِ العُتْبَى وانْ كانَ يُعْتَبُ
فهَا أنا ذَا أَرْجو رِضَاكَ وأَطْـلُبُ وهَبْ أَنَّنِي أَذْنَبْتُ والعَبْدُ مُـذْنِبُ
فَلِي حَسَنَاتٌ في ذُنوبِيَ تَشْفَـعُ
عَلى البُعْدِ كَمْ أَهْدَيْتُهَا لَكَ مِدْحَةً عَساكَ تُسَنِّـي بالتَّقَـرُّبِ مِنْحَـةً
وإنِّي مَتَى أَذْكَـى بعَـادُكَ لَفْحَـةً وَدَادِي كَمِثْلِ العَنْبَرِ الوَرْدِ نَفْحَـةً
إِذا أَحْرَقَتْـهُ جَفْـوَةٌ يَـتَضَرَّعُ
بقُـرْبِكَ ظِـلُّ العِـز فَوْقِـيَ وَارِفُ وَبُعْدُكَ فِيهِ دَمْـعُ عَيْنـيَ واكِـفُ
فَهَا أنا راجٍ في هَواكَ وَخائِـفُ وَرأْيُكَ بَيْنَ الحِلمِ والحُكْمِ واقِفُ
عَلَى أَنَّ بَابَ الحِلمِ عِندَكَ أَوْسعُ
أَبيتُ عَلَى حُكْمِ الصَّبابَةِ مُغْرَمًـا وأَقْطَـعُ دَهْـرِي في عَسَى ولَعَلَّمَـا
مَشُوقًـا مُعَنًّـى مستَهامًـا متَيَّمَـا أُعاتِبُ حَظّي أَمْ أَكُـفُّ فإِنَّمَـا
هُوَ اللَّهُ يُعْطِي مَـا يَشاءُ وَيمْنَـعُ
مُنِعتُ المُنَى حَتَّى الخَيالَ لِحالِمِ ونَيْلُ المعـالي بيْـنَ تِـلكَ المَعالِـمِ
فإِن لَمْ يكُنْ صَرْفُ الزَّمانِ مُسالِمِي أُسَلِّمُ أَمْـرِي في الوُجـودِ لِعالِـمِ
أَحاطَ بأَمْرِي مِنْهُ مَرْءًى وَمَسْمَـعُ

إذا لَمْ يَكُنْ في حُكْمِهِ الدَّهْرُ مُنصِفِي   ولَمْ أُلْفِهِ فيمَا رَجَوْتُ بِمُسْعِفِ
ولَمْ يُدْنِ أَيَّامَ الرِّضَى والتَّعَطُّفِ   سَأَرْفَعُ أَمْرِي لِلخَليفَةِ يُوسُفِ
فَيَحْكُمُ بالحَقِّ المُبِينِ وَيَصْدَعُ

هُو الظِّل ظِلُّ اللّهِ تَضْفو سُتُورُهُ   وَيغنِي عَنِ الصُّبْحِ المُبين ظهورُهُ
سَحابُ نَدًى بالجُودِ مَاجَتْ بحُورُهُ   شِهابُ نَدًى يَجْلُو الدُّجُنَّةَ نُورُهُ
ولجَّةُ جُودٍ مَوْجُهَا يَتدفَّعُ

هوَ البَدْرُ في أُفْقِ الخِلاَفَةِ مُعْتَلِ   هُوَ الرَّوْضُ كَم مِن مُجْتَنٍ إثْر مُجْتَلِ -122-
فَللّهِ مِن بحْرٍ وبَدْرٍ مُكَمَّلِ   ولِلهِ مِن غيْثٍ ولَيْثٍ ومَعْقِلِ
لمَنْ يَجْتَدِي أَوْ يَعْتَدِي أَوْ يُرَوَّعُ

صَفا فَوْقَ أمْلاكِ البَسيطَةِ ظِلُّهُ   وأُفْقُ النُّجومِ النَّيِّراتِ مَحَلُّهُ
فها هُوَ غيثٌ قد تتَابَعَ وبْلُهُ   ودِيوانُ مَجْدٍ قد تَواتَرَ نقْلُهُ
حَديثُ المَعالِي عنْهُ يُرْوَى ويُسْمَعُ

هُوَ المُلْكُ بالمَوْلَى ابن نَصْرٍ شُفوفُهُ   هُوَ الدَّوْحُ يَدْنُو لِلعُفاةِ قُطوفُهُ
هُوَ الدَّهْرُ تَقضِي في العُداة صُرُوفُهُ   إذا انتُضِيتْ آراؤُهُ وسُيُوفُهُ
لِحَرْبٍ فَقُلْ أي الحسَامَيْنِ أَقْطَعُ

إمَامٌ تَعُمُّ القاصِدِينَ هِباتُهُ   بِهِ الخَطُّ والخَطِّيُّ راقَتْ صِفاتُهُ
فَقَدْ أَبْدَعَتْ يُمْنَاهُ أَوْ كَلِماتُهُ   وان وَقَفَتْ في حادِثٍ عَزَمَاتُهُ
فَقَدْ أمِنَ الاسْلامُ مَا يُتَوَقَّعُ

أ ناصِرَ دِينَ اللّهِ دُمْتَ مُؤَيَّدَا   لِعَهْدِ الصِّحابِ الأكْرَمينَ مُجَدِّدَا
فَمَن ذا يُضاهِي مِنْكَ ذاتًا ومَحْتِدَا   سَبَقْتَ كَما اسْتَوْلَى الجَوادُ عَلَى المَدَى
فَلاَ سَابِقٌ في شَأْوِ مَجْدِكَ يَطْمَعُ

رَمَيْتُ بِسَهْمٍ لِلْبَلاغَةِ مُنْفِذِ   فَرَوْضُ نِظامِي مِن سَحابِكَ قَدْ غُذِي
أنا بِكَ من رَيْبِ الزمانِ تَعَوُّذِي   وأَنْتَ حُسامُ الدّينِ ناصِرُهُ الذي
تَذودُ العِدَى عن جانِبَيْهِ وتَمْنَعُ

أرَى الدَّهْرَ يا مَوْلاَيَ عَنِّي مُعْرِضَا   وَسيْفُ نِظامِي في يَمينِـي مُنْـتَضَا
ولفظِيَ تَشْرِيفِي بمَدْحِكَ قدْ قَضَا   وَمِثْلُكَ يُرْجَـى لِلقَبُـولِ وَلِلــرِّضَا
وعَبْـدُكَ أيضًا لِلصَّنِيعَـةِ مَـــوْضِعُ

وكَتبتُ لمَولاَنا أيَّدهُ اللَّهُ ونَصَرهُ وأعْلَى ملكَهُ وأظْهَرهُ، أبْياتًا
-123- معَ قصِيدةٍ وَلَها حِكايةٌ تفهَمُ مِن معْناهَا

إنَّمَــا الشّعْــرُ رغبَـــةٌ وسُؤالُ   ورَجــاءٌ تَدْنُــو بــهِ الآمَــالُ
فـإذا كـنتَ مُسْعِفًـا كُـلَّ قَصْدٍ   ومُنيـلاً في الدّهْـرِ مـا لاَ يُنـالُ
فلِـمَ النّظْـمُ يـا إمـامَ البَرايـا   أصْمَتَ النُّطْقَ مِنْ يَدَيْكَ النَّـوالُ
فكـلاَمُ العبيـدِ حَمْـدٌ وَشكــرٌ   ودُعـــاءٌ لربِّهِــــمْ وابْتِهــــالُ
أنْ يُديـمَ الإلاَهُ مِـنكَ إمَامًــا   راقَ مِنــهُ الجَمــالُ وَالإجْمــالُ
دُمْتَ لِلدّيـن ناصِرًا مـنْ عِــداهُ   تَــرْتجيكَ الــقُصَّادُ والأُمَّـــالُ

ووَجَّهَ لي أيَّدَهُ اللهُ وشكَرَ نعْمتَهُ رُوميَّةً سُرِّيَّة
وَرِكابُهُ العَلِيُّ بمَالَقَة في اليَوْمِ العَاشِرِ لِرَمضانَ العظيم
عَامَ خمسَةَ عشرِ وثمَاني مِائة وكتَبَ إلَيَّ قبْلَ وُصُولِهَا
بسَاعَةٍ ما نصُّه وَمِن نَظمِهِ

يــا طالِبًــا غُــرَّ الجيَـاد السُّبَّـــقِ   شَمِّرْ لَها عن ساقِ جدِّكَ والحَقِ
فإلَيْكَهَــا نَجْــلاءَ رائِقَــةَ الحُلَـــى   وَالـحُسْنُ بيْـنَ مُدَمْلَـجٍ ومُمَنْطَــقِ
مَهِّـدْ لَهَــا أكْنَــافَ بِـرِّكَ إنّنــي   آثَرْتُكُــمْ مِنْهَــا بِــرَوْضٍ مُونِــقِ
والوَعْــدُ مِنَّـــا عاجِــلاً فَتأهَّبَـــنْ   بعْدَ العِشاءَ تَحُلُّ دارَكَ فالْتَـقِ(214)

(214) لم ترد في ديوان ملك غرناطة.

ونوَّعَ القِطعَةَ بِمَقْلُوب هَذه عَلَى سَبيلِ المُداعَبَةِ والتَّأنِيسِ وكَتَبَ بِخطّ يَدِهِ الكَريمَةِ

يا طالِبًا فِعْلَ الجعالِ المُونِـقِ ... شَمِّرْ لَهُ عَن راسٍ فَعْلِكَ وَارْتَقِ
وإلَيْكَهَـا لِقَّـاءَ رَبَّـةَ قَعْـنَبِ ... معْتـادَةً طَعْـنَ الكُلَـى بِالمَفْـرِقِ
فأقِـمْ لهَـا حَيثُ الذّوابِلُ تَنثَنِي ... عَجْراءَ لاَ تخْشَى احْتِدَامَ المَأْرِقِ
والوَعْـدُ مِنَّـا عاجِـلٌ فَتَأَهَّبَـنْ ... وذَرِ السَّراوِلَ خَلْفَ بابِكَ وَالْتَقِ[215] -124-

وَطَلَبَ جَوابَهَا فارْتَجَلتُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلاَ تَوقُّفٍ

مَوْلَى المُلوكِ بِمَغرِبٍ وَبِـمَشْرِقِ ... عَن شُكْرِ ما أولاَهُ أعْجَزَ مَنْطِقِي
أهْدَى إلى المُلوكِ مِن مَنظُومِـهِ ... دُرًّا ولكِـن مِثْلُـهُ لَـمْ يَـنْسَقِ
وَافَـى لِيُعْلِمَنِـي بِـأَفْضَلِ مِنحَـةٍ ... جادَتْ بِهَا كَفُّ الكَرِيمِ المُشْفِقِ
وأتَـى يُبَشِّرُنِـي بِرَائِقَـةِ الحُلَـى ... فَطَفِـقْتُ بَيْـنَ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ
مَيَّادَةَ الأعْطافِ سَاحِـرُ لَحْظِهَـا ... يَرْمِـي بِسَهْـمٍ لِلقُلـوبِ مُفَـوَّقِ
لِمْ لاَ يَفوقُ الشُّهْبَ نَيِّرُ وَجْهِهَا ... وَسَناهُ عَن بَـدرِ الكَمـالِ المشْرِقِ
لمْ لاَ يَرُوقُ الآنَ رَوْضُ مَحاسِنٍ ... مِنهَا بِجُودِ نَدَى يَمِينِكَ قدْ سُقِي
جاءَتْ بِهَا البُشْرَى فأيُّ صَبَابَـةٍ ... تَخْفَى وأيُّ جَوانِحٍ لَـمْ تَخْفِـقِ
قَدْ كِدتُ أذْهَبُ لَوْعَةً لوْ لمْ تَجُدْ ... بالوَعْـدِ أنَّـا عَـن قَـرِيبٍ نَلْتَقِـي
أنا في العَشِيَّةِ بَيْنَ قَلبٍ مُولَـعٍ ... فيهَـا وَجَفْـنٍ لِلطَّرِيـقِ مُحَـدِّقِ
والعبْدُ يـمْسِي بيْـنَ فعْلٍ مُـرْسَلٍ ... فِيهَـا وَقَـلبٍ بالصَبَابَـةِ مُوثَـقِ
فاعْجَبْ لهُ يَرْتاحُ تحْتَ ضُلوعِـهِ ... أوْ فوْقَهـا بِمقَيَّـدٍ وَبِمُطْلَـقِ
فَتَخالُهُ مِثْلَ الجَوادِ لَـدَى الوَغَـى ... حينًـا وَحينًـا يَرْتَمِـي أوْ يَرْتَقِـي

(215) لم ترد في ديوانه كذلك.

مَوْلاَيَ أبدَى مِن بديعِ جَمالِهَـا وَصْفًا ثَنى قَلبِي رَهينَ تَـعَشُّقِ
لاَ شَيْءَ أشرفُ في الوُجودِ من التِي يَتَخَيَّـر المَوْلَـى الهُمـامُ ويَنْتَقِـي
وُفِّقْتَ لِلشكْرِ الجَميلِ وقـد أَتَتْ مِـن عِنـدِ مَوْلَـى نَـاصِرٍ لِمُوَفَّـقِ
لأزالَ مَوْلانَـــا يجودُ لعَبْـــدِهِ مِن قصْدِهِ الأرْضَى بما هُوَ مُنتَقٍ(216)

وقلتُ فيما يظْهَر منهَا وَقَصَدتُ المداعَبَةَ وَالانبسَاط
في الثاني عشر لمحَرم عَام ثلاثة عشر وثمانمائة

يـا إمامًا أَبْـدَى الهِدايَـة شَمْسا تَتَدانَـى نُـورًا وتبْعُـدُ لَـمْسَا -125-
مِلْكُ نعْماكَ يَرتجِي مِنكَ جُـودًا ظَـلَّ يُدْنِي مِـن الْمآمِـلِ شُمْسَا
يَـا جَـوادَ المُلـوكِ إنّ جَـوادِي لَـيْسَ قلبِـي لبُعْـدِه يَتَـأَسَّى
وَلِتعْــويضهِ بـــأحْسَنَ مِنْـــهُ أصْبَـحَ العَبْـدُ يَرْتَجِـيكَ وَأَمْسَى
وَجوادٌ مَن حضرَةِ المُلْكِ يُهْـدَى حَيْثُمَا حَـلَّ حُلةُ الجَاهِ تُـكْسَى
مَقْصَدي أنْ يعَرِّسَ اليوْمَ عِنـدِي رائِقَ الوَصْفِ لَسْتُ أطْلُبُ عِرسَا
مِثْل قاضِي القضَاة إذْ جَدَّ حَتّى فـازَ بالمَرْكوبَيْـنِ مَعْنًـى وَحِسًّا
صَحَّ قَصْدِي لَدَيْكَ مَولاَيَ حَقًّـا لَمْ يَدَعْ فِيهِ جُودُ كَفِّكَ لَـبْسَا
لاَ تُخيّبْ مِن الجَدَى رَوْضَ فكْرٍ طَالَمَا قَـد زَكَـا بنُعْمـاكَ غَـرسَا
أنتَ أعْلَـى قَـدْرًا وأعْلَـمُ لكِـن ذَكِّرِ العَبْدُ مِنْكَ مَنْ لَيْسَ يَنْسَى

واتَّصَلَ بِي وأنا صُحْبَة الرّكابِ العَلِيِّ بِظاهر جَبَل الفَتْحِ
فِي السَّفْرَةِ الثَّانِيَّة خَبَرُ ولاَدَةِ يُوسُف وَلَدِي أسْعَدَه الله
وَولاَدَتُهُ في الثّاني والعَشرينَ لِذِي قعْدَة عام خمسَةَ عَشَر وَثمانِمائة

(216) للشطر الأخير رواية أخرى كتبت في الطرّة وهي : بمَواهـبٍ مِنْ جوده المتدَفّق.

فقلْتُ أُعلِمُ مَوْلانَا أَيَّدهُ الله بذَلِك فَسمَّاهُ باسْمِهِ الشَّرِيف
ووَهَبَ ما يقْصُر عنْهُ لِسان الإعْلامِ والتّعْريف، وذلك[217]

-126- وكذلك كَتبتُ لمقامِهِ الكَريمِ بالحَضْرةِ مُعْلمًا بوِلادَةِ ولدي
أبِي الطّاهر هَداهُ الله وذلِكَ في يَوْمِ الأحَدِ قبيْلَ صَلاَةِ الظهْرِ الثاني
لِصفر منْ عامِ سَبْعَةَ عَشر وثمانِي مِائة وبمُوافَقَةِ مايُهُ الأعْجَمِي فَسَماهُ
أَيَّدهُ الله ووَهَبَهُ مِثْلَ أخيهِ شكَر الله نِعْمتَه، وأبْقَى عِنايَتَهُ وحُرْمَتَه

أَمَوْلاَيَ انّ العَبْدَ قدْ زادَ عنـدَهُ ... خَديـمٌ لما شاءَتْ عُـلاكَ أَعَـدَّهُ
أَتى وافِدًا مِن عَالَمِ الكَوْنِ راجِيًا ... نداكَ الذي تسْتَمْطِرُ السُّحْبُ عهْدَهُ
مُشِيرًا إلَى تَقْبيـلِ كَفّكَ ضارِعًـا ... لِمُلْكِكَ في أنْ يُنْجِزَ النَّصْرُ وَعْدَهُ
يُثيـرُ سُرورًا في النفـوسِ بِكَوْنِـهِ ... يُوَثِّـرُ مِنْكَ الجَاهُ والعِزُّ مَهْـدَهُ
بِتَسْمِيَةٍ يبْقَى مَدَى الدهْرِ ذِكْرُهَا ... يُشَرِّفُ مَوْلاَنَـا بـذلِكَ عَبْـدَهُ

وَفي يَوْمِ سَابِعِه وجّهتُ الوَلَدَ علَى العَادة إلى بيْن يَدَيْهِ وَكَتَبتُ مَعَهُ

مَمْلـوكُ نعْمـتِكَ التِـي ... رَقَّتْ أبـاهُ وَجَـدَّهُ
وافَـى جنـابَكَ آمِـلاً ... وَعُـلاكَ تُنْجِـزُ وَعْـدَهُ
ورَجَـا مَقـامَكَ آمِـلاً ... في اسْمٍ يشرفُ عبْـدَهُ

وَبَيَّضْتُ لِمَن طَلَبَ ذَلِكَ

يَا ناصِرَ الإسلاَمِ يا مَلِكَ الهُدَى ... لاَزِلْتَ مَـنْصورَ اللِـواءِ مُؤَيَّـدَا
فُقْتَ المُلـوكَ الأكْرَميـنَ مَآثِـرًا ... فَبَلغتَ في شَأْوِ العُلَى أقصَى المَدَى

(217) بعد هذا بياض في الأصل، وكتب الناسخ في الطرة ما يلي :
«كذا وجدت البياض».

فـلأنتَ أسْماهُــمْ وأسْناهُــمْ إذا   طَالُوا وأنْجَزُ في المَكارِمِ مَوْعِـدَا
وأجَلُّهُـمْ قَـدْرًا وأشْرَفُهُـمْ حُـلاً   وأعَمُّهُـمْ رِفْـدًا وأنْدَاهُـمْ يَـدَا
إنّ السَّحـابَ وان تَتَابَعَ جَوْدُهَـا   لـمْ تَتّخِـذ إلاّ نَـوالَكَ مَـوْرِدَا
أوَ لَيْسَ جودُكَ فوقَ عَبْدِكَ إذْ هَمَىَ   أضْحَى لأثْوابِ القَبُولِ مُجَـدّدَا -127-
أوْلَيتنِـي مَـا لاَ أقـومُ بشُكْـرِهِ   منْ أنْعُم جَلَّتْ فَأرْغَمَتِ العِـدَى
وثَنَيْتَ بِي وَجْـهَ القَبـولِ تَكَرُّمًـا   فَطَفِـقتُ أهْـديكَ الثّنـاءَ مُـرَدّدَا
ورَأيْتُ عبْدَكَ «مُخْـلِصًا» فَحَسِبْتُـهُ   فَالاً لِأوصافِ الخُلوصِ مُؤَكِّدًا(217م)
شَرَّفتَنِـي وَرفَعْتَ ذِكْـرِي مُنْعِمًـا   لاَزِلْتَ يا شَرَفَ المُلوكِ مُخلّـدَا

وفي مِثْـــلِ ذلِـــك

مَوْلاَيَ يَـا أعْلَـى الـوَرَى منزِلَـهْ   عَبْـدُكَ يَرْجُـو نعْمـةً مـنكَ لَـهْ
مِثْـلَ رَفيقَيْـهِ وَقَـدْ بُلّغَـا   مـا أسْعَـفَ القَصْدَ وَما كَمَّلَـهْ
كِلاهُمَـا فـازَ بمَـا شاءَهُ   ولـمْ يَنَـلْ عبْـدُكَ مَـا أمَّلَـهْ
وإنَّ مَـوْلاَيَ الامَـامَ الـرِّضَا   يحْكُـمُ في ذلِكَ بالمَعْدِلَـهْ
وَرِفْـدُ مـوْلاَيَ يَعُـمُّ الـوَرَى   سَحـائِبُ الجُـودِ بـهِ مُرْسَلَـهْ
فَـلا تُخـيِّبْ راجيًـا لـمْ يَـزَلْ   في كُـلِّ حـالٍ وَارِدًا مَنْهَلَـهْ
وقـدْ تـوَسَّلْت بهَـادِي الـوَرَى   وَمُحْكَـمِ الذّكْـرِ ومَـن أنْزَلَـهْ
لاَزِلْتَ تُبْدِي نَصْرَ دينِ الهُـدَى   في الحالِ والأزْمِنَـةِ المُقْبِلَـهْ(218)

(217م) هذا العبد «مخلص» لعلّه من أسرة «بنّيغش» وقد ورد في وثائق غرناطية اسم أبي الوِداد مخلص بن أبي القاسم بن رضوان بنيغش، ويبدو أن هذا الأخير حفيد الأول، وعلى كل حال فقد كان رضوان بنيغش هو القائم بأمر دولة محمّد الصغير ولد يوسف الثالث. راجع كتاب محمد التاسع.

(218) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره نحو 5 أبيات، وفي الطرة : كذا في الأصل.

أبياتٌ لِمَوْلانَا أيَّدَهُ اللهُ ونصَرهُ أثْبَتُّهَا هُنَا عَلى وجْهِ التَّشْرِيفِ بِمَا يَصْدُر عنْ ذاتِهِ الكَرِيمَةَ

-128- قِفَا نَفَسًا عَلى نَفْسٍ شَجيَّهْ ... يُعيدُ حَياتَهَا رَجْعُ التَّحِيَّهْ[219]
عَلى إثْرِ الرَّكائِبِ يوْمَ بانُوا ... يِحينُ الحَيْنُ أوْ تَدْنُو المَنِيَّهْ
فَوا أسَفًا لِنفْسٍ مِنْهُ ضَاعَتْ ... يَقِلُّ فِدًى لهَا كُلُّ البَرِيَّهْ
صَرِيعٌ بيْنَ أخفافِ المَطايَا ... بعيدُ الرُّشْدِ لاَ يَخشَى تَقِيَّهْ
يُرَدِّدُ زَفرَةً كَالجَمْرِ وَقْدًا ... ويُرْسِلُ عَبْرَةً تَحْكِي رَكِيَّهْ
فَداعِي اليَأسِ لِلدَّعْوَى قَرِيبٌ ... وآمالُ الرَّجاءِ غَدَتْ قَصِيَّهْ
ويا طِرْفَ الصُّدُودِ ألا كُبُوٌّ ... ويا سَيْفَ الفِراقِ ألاَ بَقِيَّهْ
ويا مَغْنَى السُّرورِ وَكُلِّ أُنْسٍ ... عُهودُكَ عِنْدَنَا أبدًا وَفِيَّهْ
رَمانِي الدَّهْرُ عَنْ كَثَبٍ فأصْمَى ... فُؤادًا مالَهُ بِسِواكَ نِيَّهْ
فُؤادًا غَرَّهُ مِنْكَ التّمَنّي ... ونفْسًا فيكَ إنْ عُذِلَتْ أبِيَّهْ
وكَمْ وَعْدٍ نَقَضْتَ وكَمْ وَعِيدٍ ... تَقاضَتْهُ الجُفونُ البَابِليَّهْ
وأظْهِرُ رَغْبَةً وَتَزيدُ صَدًّا ... فيا لَلّهِ مِنْ هَذِي القَضِيّهْ
كأنّي لمْ أكُنْ وَالدَّهْرُ سَاطٍ ... مَهيبَ الأمْرِ مَحْمودَ السَّجِيَّهْ
أقَابِلُ عُسْرَهُ أبدًا بيُسْرِي ... وآسُو جُرْحَهُ باليَزَنِيَّهْ
وكانَتْ فلْتَةً فالتْ بِرأْيِي ... غَداةَ النَّفْسُ بالعَلْيا حَرِيَّهْ
فَراعَيْتُ الأذِمَّةَ حِينَ ضاعَتْ ... وآثَرْتُ الوَفاءَ عَلى الدَّنِيَّهْ
مُصابًا لمْ أُعِرْهُ الدَّهْرَ سَمْعًا ... ولمْ أقْرَعْ لهُ أسَفًا ثَنِيَّهْ
إلَى أنْ عادَنِي مِنْ غيْرِ وَعْدٍ ... خَيالٌ قدْ سَرَى لِلْعامِرِيَّهْ

---

(219) وردت القصيدة وتخميسها في ديوان ملك غرناطة : 162 — 165.

تَخمِيسُهَــــا

بعَيْشِكُمَــا دَعَــا ذِكْــرَ العَشِيَّـــهْ وحُثَّـــا في رُبوعِهــــمُ المَطِيَّـــهْ
وإن لــمْ تَنــزلاَ تِــلْكَ الثَّنِيَّـــهْ قِفَــا نَـفَسًا عَلى نَـفْسٍ شَجِيَّــهْ
يُعِيـدُ حَياتَهــا. رَجْـعُ التَّحِيَّـــهْ -129-

أَبْعْــدًا والفُــؤادُ لهُــمْ مَكـــانُ أَرَاهُمْ نَصْبَ عَيْنِي حَيْثُ كَانُـوا
فَمُذْ بانُـوا الصَّبابَــةَ قـدْ أبانُـــوا عَلى اثَـر الـرَّكائِبِ يَـوْمَ بَانُــوا
يَحِينُ الحَيْـنُ أوْ تَدْنُـو المَنِيَّــهْ

أحــاديثُ الصَّبابَــةِ عَنـــهُ شاعَتْ وبَعْدَ الكَتْمِ في الآفـاقِ ذاعَتْ
وآمِـــنُ قلبِـــهِ بالخَفْــــقِ رَاعَتْ فَواأسَفًـــا لِنَــفْسٍ مِنْــــهُ ضَاعَتْ
يَقِل لهَا فِدًى لهَـا كُـل البَرِيَّــهْ

مَشوقٌ دَمْعُــهُ يُبْــدِي الخَفايَـــا تَنـــاهُ لِلْهَـــوَى حُسْنُ الثَّنايَـــا
فها هُـوَ لـمْ يَـدَعْ مِنْـهُ بَقايَــا صَرِيـعٌ بيْـنَ أَخْفــافِ المَطَايَــا
بَعيـدُ الـرُّشْدِ لاَ يَــخْشَى تَقِيَّــهْ

يَهِيـــمُ بحُسْنِهِـــمْ كَلَفًــــا وَوُدًّا فَيَنْثُــرُ جَفْنُــهُ لِلدَّمْـــعِ عَقْـــدَا
مُــحِبٌّ لاَ يَــزالُ يَهِيــمُ وَجْــدَا يُــرَدِّدُ زَفْــرَةً كالجَمْــرِ وَقْـــدَا
وَيُـرْسِلُ عَبْـرَةً تَحْكِــي رَكِيَّـــهْ

لِقَلْبِـي عِنْدَمَــا رَحَلُـوا وَجِــيبُ أُنادِيهِـــمْ ومَــا مِنْهُــمْ مُجِـــيبُ
أَرَى دَهْــرِي لــهُ شانٌ عَجِــيبُ فَدَاعِي اليَـأْسِ لِلدَّعْـوَى قَــرِيبُ
وَآمــالُ الرَّجــاءِ غَــدَتْ قَصِيَّـــهْ

فَمَـــا لِلقَـــلْبِ بَعْدَهُـــمُ سُلُــــوٌّ ولَـيْسَ مِـنَ الغَـرامِ لَــهُ خُلُــوٌّ
فَيَـــا بُعْــدَ المَـــزارِ ألاَ دُنُــــوٌّ وَيـا طِـرْفَ الصُّدودِ ألاَ كُبُـــوٌّ
وَيَـا سَيْـفَ الفِـراقِ ألاَ بَقِيَّـــهْ

ألاَ يَـــا مَكْـــنِسًا لِظِبَـــاءِ إنْسٍ حَوِيتَ مِن المَحاسِنِ كُلَّ جِنْسٍ

وَيـا أُفْقًـا لبَهْجَـةِ كُـلِّ شَمْسٍ   ويا مَغْنَـى السُّرورِ وَكُـلِّ أُنْسِ
عُهـودُكَ عِنْدَنـا أَبَـدًا وَفِيَّـهْ
لَقَـدْ أَبْدَيْتُهـا حِكَمًـا وَحُكْمَـا   بِـوَصْفِكَ دائِمًـا نَثْـرًا ونظْمَـا
أطَـلْتُ وَلَـمْ أقصِّرْ فيـهِ لَمَّـا   رَماني الدَّهْرُ عَن كَثَبٍ فأَصْمَا -130-
فُـؤادًا مَـا لَـهُ بِسواكَ نِيَّـهْ.
أَيُبْعَـدُ شَخْصُهَـا والفِكْـرُ يُدْنِـي   وَتَبرأُ ساحَتِـي وَالْوَجْـدُ يُضْنِـي
وكُنْتُ أظُنُّ أنَّ الصَّبْـرَ يُغْنِـي   فُـؤادًا غَـرَّهُ مِـنْكَ التَّمَنِّـي
وَنَـفْسًا فِـيكَ إنْ عُـذِلَتْ أَبِيَّـهْ
فكَـمْ لِلدَّمْـعِ مِـن دُرٍّ نَضِيـدِ   عَلَى ما مَرَّ مِنْ عَهْدٍ حَمِيـدِ
وَكَـمْ بهَـواكَ مـن قلبٍ عَميـدِ   وَكَمْ وَعْدٍ نَقَضْتَ وكِـمْ وَعيـدِ
تَقاضَتْـهُ العُيُـونُ البَابِلِيَّـهْ
فيـا بَـدرَ الدُّجَى حُسْنًا وحَـدًّا   وَيـا غُصْنَ النقَـى لِينًـا وَقَـدًّا
أأقْـرُبُ لَوْعَـةً فَتُرِيـدُ بُعْـدَا   وأُظْهِـرُ رَغبَـةً وَتَزيـدُ صَدًّا
فَيـا لِلـهِ مِـنْ هَـذي القَضِيَّـةِ
بَنُـو الأمْـلاكِ مـا بَلَغُـوا مَناطِـي   لَهُـمْ فَخْـرٌ إذا لَثِمُـوا بِساطِـي
فمـالَكَ كاسَ وَصْلِكَ لاَ تُعاطِـي   كَأنِّي لَـمْ أكُـنْ والدَّهْـرُ سَاطِ
مَهيبَ الأمْـرِ مَحْمـودَ السَّجِيَّـهْ
إذا أَبْـدَى العَبُـوسَ أراهُ بِشْرِي   صَباحًـا لِلـرَّكائِبِ حِيـنَ تَسْرِي
وإنّـي مُـذْ أطاعَ الدَّهْـرُ أمْـرِي   أُقابِـلُ عُسْرَهُ أبَـدًا بِـيُسْرِي
وآسُو جُرْحَـهُ باليَزَنِيَّـهْ
لَئِـنْ كان الزَّمـانُ أطـالَ نأيِـي   فَهـا هُوَ مُظْهِـرٌ نَصْرِي وَهَدْيِـي
مُطيعًـا مُنْفِـذًا أمْـرِي ونَهْيِـي   وكانَتْ فَلْتَـةً فَـالَتْ بِرأيِـي
غَـداةَ النَّـفْسُ بالعَلْيـا حَرِيَّـهْ

هـيَ الأيَّامُ أمْـرِي قـدْ أطـاعَتْ	قدِ انقادَتْ إلَى مُلْكِـي وَطـاعَتْ
مَعَالِمَـهُ أقَـمْتُ وقَـدْ تَـداعَتْ	فَراعَـيْتُ الأذِمَّـةَ حَـيْثُ ضَاعتْ
وَآثَـرْتُ الوَفـاءَ عَلَـى الدَّنِيَّـهْ

لَقَـدْ نِلتُ العُلَى وتُـرًا وَشَفْعَـا	وكانَ الخَـفْضُ لِلأقْـدارِ رَفْعَـا -131-
أزاحَ وقـدْ قَضَى لِلشَّمْلِ جَمْعَـا	مُصابًا لم أعِـرْهُ الدهْـرَ سَمْعَـا
ولَـمْ أقْـرَعْ لَـهُ أسَفًـا ثَنِيَّـهْ

فَكَـمْ قَـدْ بتُّ رَهِيـنَ وَجْـدِ	أُطِيـلُ الفِكْـرَ ذا قَلَـقٍ وَسُهْـدِ
أُراقِبُ خافِقًـا مِـن ظِـلِّ بَنْـدِ	إلَى أنْ عَادَنِي مِن غَيْرِ وَعْـدِ
خَيـالٌ قَـدْ سَرَى لِلعَامِرِيَّـهْ

وَوصَلني منهُ أيَّد الله مَقامَهُ أبْياتٌ ثَلاثَةٌ
في الثانّي والعِشْرينَ لجُمَدَى الأولَى عَام اثْنَي عَشَر وثمانِمائة
نَصُّهَـا

وتَزْعُـمُ أنّـي لاَ أبالِـي بِهَجْرِهَـا	وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لَهَا يَجْرِي
فَلِمْ ذا يَصوبُ الدَّمْعُ والطَّرفُ شاخِصٌ	وأطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلَى لَهَبِ الجَمْرِ
مَنَعْتُ إذًا وَفْرِي وَخُنْتُ أذِمَّتِـي	وسَالَمْتُ أعْدائِي وَلَمْ أكُ ذا أمْرِ[220]

تَخْميسُ هَذِهِ الأبْياتِ المشرَّفـهْ
وَحَديقَةِ الزَّهْرِ المُفَوّفَـهْ

إذا الأُفْقُ لَمْ يَسْمَحْ بِرائِقِ بَدْرِهَا	أُعَلِّـلُ قلبـي الـمُسْتهامَ بِذِكْرِهَـا
وَمِن عَـجَبٍ أنّي مُطيـعٌ لأمْرِهَـا	وتَزْعُـمُ أنّي لاَ أُبالِـي بهَجْرِهَـا
وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لَهَا يَجْرِي

(220) لا توجد في ديوان ملك غرناطة.

وِدادِي عَلَى مَرّ الجَدِيدَيْنِ خالِصُ لِـذلِكَ أعْنـاقُ الـوُشاةِ نَـواكِصُ
وإنْ قيـلَ إنَّ الـوُدَّ مِنّـي نـاقِصُ فلِمْ ذا يَصوبُ الدّمْعُ والطَّرفُ شاخِصُ
واطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلى لَهبِ الجَمْرِ
سأمضِي وأبْدِي فيهِ حُكْمِي وحِكْمَتِي وَأُظْهِـرُ في الأَمَّالِ آثـارَ نِعْمَتِــي -132-
وإن لَمْ أُنِلْ عَبْدِي مُناهُ بِخِدْمَتِي مَنَعْتُ إذًا وَفْرِي وَخُـنْتُ أذِمَّتِــي
وَسَالَمْتُ أعْدائِي ولَمْ أكُ ذا أمْرِ

وَمِنَ التَّذْيِيلِ عَلَى الأبياتِ الرَّائِقَةْ وَعِقْدِ الدرَرِ المُتَنَاسِقَــةْ

وَظَبْيَةِ إنْسٍ لَيسَ يُرْجَى وِصالُهَـا مَدَى الدَّهْرِ إلاَّ بالتَّوَهُّمِ والفِكْـرِ
كَلِفْتُ بِهَا كالزُّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبَى لِمَا راقَ مِنْ بِشْرٍ ومَا رَقَّ مِنْ نَشْرِ
عَجِبْتُ لَهَـا والـوُدُّ مِنْهَـا سَجِيَّــةٌ وَعَنْ خَبَرِي يُغْنِيكَ فِي حُبِّهَا خُبْرِي
تَقولُ بأنّي قَدْ سَلَوْتُ عَنِ الهَوَى ولاَ عُذْرَ فِي تَرْكِ اتّبَاعِ الهَوى العُذْرِي
وتُخْبِرُ أنّي ناظِـمٌ وصْفَ غَيْرِهَـا وَمَا شَعُرَتْ إنْ قلتُ فِي غَيْرِهَا شِعْرِي
وتَزْعـمُ أنّـي لاَ أبالِـي بِهَجْرِهَـا وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لَهَا يَجْرِي
فلِمْ ذا يَصوبُ الدَّمْعُ والطرفُ شاخِصٌ وأطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلَى لَهَبِ الجَمْرِ
مَنَعْتُ إذًا وفْرِي وَخُنْتُ أذمتِــي وسالَمْتُ أعْدائِي ولَمْ أكُ ذَا أمْرِ
ألَسْتُ المَسمَّى باسْمِ صِدّيقِ رِبِّهِ وَناصِرَ دين اللّهِ في الحادِثِ النُّكْرِ
ألسْتُ الذِي تَعْنُـو المُلـوكُ لِعِـزِّهِ وتَرْهَبُـهُ في حَالَـيِ النَّهْـيِ والأمْـرِ
ألَسْتُ الذي تخشَى الكُماةُ نِزالَـهُ وترْهَبُ مِنْهُ البَطشَ بالبيضِ والسُّمْرِ
ألَسْتُ الذي تَرْجـو العُفـاةُ نَوالَـهُ وقد جادَهَا مِنْـهُ بِمُنْهَمِـلِ القَطْـرِ
فَلِمْ لاَ أُوَفّي العَهْدَ والفَضْلُ شِيمَتِي وانَّ وفائِــي لاَ يُـرَوَّعُ بالغَــدْرِ
وَعِزَّةُ مُلْكِي طَوعُهَـا كُـلُّ مـالِك وأيْنَ عُلاَ الشهْبانِ مِن رِفْعَةِ البَدْرِ

فَلا حُكْمَ إلاَّ كُنْتُ فيهِ مُحَكَّمًا   ولاَ أَمْرَ إلاَّ وهْوَ يَصْدُرُ عَنْ أَمْرِي -133-

(221)

زَمانُ الرِّضَى أَنْسَى القَطيعَةَ والجَفا   وأَصْبَحَ لِلقصْدِ المؤمَّلِ مُسْعِفَا
وقَدْ راقَ شَمْسُ الأُنْسِ فيهِ تَأَلُّفَا   فَمالَكَ والقلْبُ المَشوقُ قدِ اشْتَفى
تَذَّكَرْتَ طَوْعَ الوَجْدِ لِلْبَيْنِ مَوْقِفا
نَعَمْ أَنفسُ العشَّاقِ تَدْعُو لِرَبِّهَا   وتَسْأَلُ أنفاسَ الصَّبَا مِن مَهَبِّهَا
وقَدْ رَوَّعَ الهِجْرانُ آمِنَ سِرْبِهَا   وما كُنْتُ لَوْلاَ مَن كَلِفْتُ بِحُبِّهَا
لأَذْكُرُ رَبْعًا لِلتَّصابِي وَمأْلَفَا
أُهيمُ وانْ شَطّ المَزارُ تَعَشُّقَا   وأَسْأَلُ عَهْدًا لِلوَفاءِ وَمَوْثِقَا
وَأُصْغِي إلى ذِكْرِ التّواصُلِ وَاللِّقَا   وبالفِكْرِ لاَ أَزْدادُ إلاَّ تَشوُّقَا
ولِلذِّكْرِ لاَ أَرْتاحُ إلاَّ تَشَوُّفَا
تأمّلْتُ رَبْعًا للحَبيبِ وَمَعْلَمَا   فَبُحْتُ وَهَل كانَ الغَرامُ لِيُكْتَمَا
وَهَلْ يألَفُ الصَّبْرُ الفُؤادَ المُتَيَّمَا   وَساجِمُ دَمْعِي مِن جُفونِيَ قَدْ هَمَا
وَبارِقُ قَلبِي فِي ضُلوعِيَ قدْ هَفَا
ومِمَّا أَهاجَتْ عِنِدِيَ الشوْقَ والجوى   طُلولٌ تُناجِينِي عَلَى البُعْدِ والنَّوَى
فَأَهْذِي بِذِكْرِ الحَيِّ مِنْ جانِبِ اللِّوَى   لِأَنْ جَدَّدَتْ عَهْدَ الصَّبابَةِ والهَوَى
لَدَى مَرْبَعٍ لِلصَّبْرِ وَالأُنْسِ قدْ عَفَا
وَبِي ظَبْيُ إِنْسٍ تَيَّمَ القَلْبَ لَوْعَةً   إذا رُمْتُهُ يحْكِي الكَواكِبَ مَنْعَةً
وَيحْسِبُ تَشبيهِي بذِلِكَ بِدْعَةً   فَيُزْرِي بِنورِ البَدْرِ حُسْنًا وَرِفْعَةً
ويُخجِلُ غُصْنَ البَانِ لِينًا وَمَعْطِفَا

---

(221) بياض في الأصل لم ينبّه عليه الناسخ، ومقداره سطران، ولابدّ أنه يتعلق بتقديم للتذييل بعده وهو تذييل للشاعر على قطعة لمخدومه يوسف الثالث فيما يبدو.

أقـــولُ إذا أبصَرْتُـــهُ مُتَمَايِـــلاً مُنعَّمَ قـدٌّ يَتْـرُك الـجِسْمَ ناحِـلاَ
مُحَيَّاكَ مَن أبْدَى بِهِ البَدْرَ كاملاً ومَـن هَـزَّ لِلعُـذّالِ قـدَّكَ ذابِـلاَ
وَجـرَّدَ لِلـعُشّاقِ جَفْـنَكَ مُرْهَفَـا

ألاَ بِابِـي وَجْـهٌ يَـروقُ كَمالُـهُ تطلّـعَ في أُفْقِ الضُّلُـوعِ هِلاَلُـهُ
وإنَّ مَشُوقًا قَـد سَبـاهُ جَمالُـهُ لَقَـدْ رَقَّ وجْـدًا قَلْبُـهُ فتخالُـهُ -134-
فَتًى رامَ انْ يُخْفِي الصَّبابَةَ فاخْتَفَى

ألاَ إنَّ في يُمْناَيَ لِلبأْسِ والرَّجا مجالاً بِهِ القُصادُ لاَ تَشْتَكِي الوَجَى
وَإنَّ الذِي في حُبِّهِ أَتْرُكُ الحِجَى حَكَى الزَّهْرَ والزُّهْرَ المُنيرَةَ في الدُّجَى
وَغُصْنَ النَّقَى لِينًا وَخَدًّا وَمَرْشَفَا

أصرّفُ في الهَيْجاءِ سيْفًا ولَهْذَمَـا وأبْذُلُ ما تَهْوَى النُفـوسُ تَكَرُّمَـا
فمالِي أنادِي الظبْيَ واللّحْظُ قدْ رَمَى أيا ساحِرَ الأجفانِ قلْ لِيَ مُنْعِمَا
أيُشفَى فُؤادٌ منْ هَواكَ عَلَى شَفَا

أهيمُ غرامًا شَاءَهُ المُلْكُ أوْ أبى وأتْبَعُ فيـهِ مِـن خُضوعِيَ مَذْهَبـا
فَيا عَجَبًا لِلْقَلْبِ منّـي أنْ صَبـا وَهاذِي مُلوكُ الأرْضِ شرْقًا ومَغْرِبَا
تُطَاوِعُ مِنّي ناصِرَ الدّيـنِ يُوسُفَـا

كَتَمتُ ولَكِن مَا عَلَى الشمْسِ كاتِمُ وداءُ الجَوَى طَيَّ الجَوانِحِ دائِـمُ
وإنّي وفي مِلْكِي المُلـوكُ الأكارِمُ إذا لاَمَنِي في حُبِّـهِ اليَـوْمَ لاَئِـمُ
أقولُ لهُ مَهْلاً فقَدْ بَـرِحَ الخَفَـا

(222)

(222) بياض أيضًا في الأصل مقداره سطران، ولا بدّ أنّ الكلام فيه كان تقديما للأبيات المذكورة بعده، ويبدو من نَفسها ولَفظها، ومن السّياق كذلك أنها ليوسف الثالث، ولكنّها لم ترد في ديوانه ؛ وهي والقطعتان بعدها في استهداء العسل من الشريف أبي العباس، والغالب أنّهُ أبو العباس ولد أبي القاسم الشريف السبتي المعروف. وكان من حاشية يوسف الثالث وخُدّام دولته.

أيــا شَريــفَ المُنْتَمَــى وَالّــذِي   أضْحَـى إلَـى الغَايـاتِ سَبَّاقَـا
أيْـنَ الـذِي كُنَّـا عَهِدْنَـاهُ قَـدْ   أشْبَهْتَـهُ وُدًّا وأخْلاقَـا
يَا أبيَضَ الـودِّ وَحُلْـوَ الجَنَـى   وأكْـرَمَ الخُـدَّامِ أعْراقَـا
ومِثْلُكُـمْ يأتِـي بِمَـا شاءَهُ   مَقامُنَـا أخْـذًا وإطْلاقَـا
ولَـنْ تنـالَ البِـرَّ حَتَّـى تَـرَى   لَـدَيْكَ مِمَّـا شِئتَ إنفاقَـا[223] -135-

[224]

أيــا شَريفًـا قَـدْ نـأتْ دارُهُ   وخُبْـرُهُ طـابَ وأخْبـارُهُ
أفِضْ عَلى خُدَّامِنَـا مـا جَـرَتْ   في جَنّـةِ الفَـرْدَوْسِ أنْهـارُهُ[225]

[226]

لَكَ في المَكارِمِ يا أبا العبَّـاسِ   آثـارُ بِـرٍّ لَمْ تَـدَعْ مِن بـاسِ
وأبَرُّ طَعْمًا ما حَـلاَ ذَوْقًا وَمَـا   أضْحَى شِفـاءً دائمًـا للنَّـاسِ[227]
وَلَدَيْكُـمُ مِنْـهُ كَثيـرٌ فَابْعَثُـوا   بالرَّائِـقِ الألْـوانِ والأجْنـاسِ
ولْتَتْرُكُـوا مَقْلوبَـهُ لغَريـرَةٍ   ألِفَتْكُمُ مِنْ بعْدِ طولِ شِمـاسِ[228]

(223) اقتباس من الآية الكريمة : «لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون».
(224) بياض في الأصل مقداره سطران، وكان ـــ كما نقدر ـــ في التقديم للبيتين بعده.
(225) إشارة إلى قوله تعالى : وأنهارٌ من عسَلٍ مُصَفّى.
(226) بياض في الأصل، مقداره سطران، وهو فراغٌ تُرِكَ لما تقتضيه الأبيات بعده من تقديم.
(227) يعني العسل، جَاء في سورة النحل : «يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس».
(228) مقلوب عسل هو لسع، والمقصود هنا معنى القرص، والغريرة المشارُ إليها لعلّها الجارية الرّومية التي أهداها السلطان يوسف الثالث إلى قاضي قضاة دولته الشريف أبي العباس، وهذا ما يُسْتفاد من شعر ابن فركون المتقدّم.

يُعْـزَى أَبوهَـا لِلَّـذِي أشْبَهْتَـهُ وَصْفًا بِـلاَ شَكٍّ ولاَ إلْبَـاسِ[229]
فَأَلِـفْتَ أنْـواعَ الحَـلاوَةِ دائِمًـا في الحَالَتَيْـنِ الأَكْـلِ والإعْـراسِ
هَذا وَمُوجِبُهُ إلَيْكُم مَـا ارْتَضَتْ عُلْيـاكَ مِـنْ بِـرٍّ وَمِـنْ إينـاسِ

ووَجَّهَ إليَّ أيَّدَهُ اللهُ وَنَصَرهُ أبياتًا خمسَةً
دونَ قافِيَةٍ وَ أمَرَني بتَرْكيب قافِيَةٍ عَلَيْهَا
فأمْكَنَ فِيهَا مَا يُكْتَبُ بَعْدُ[230]

ومِمّا يُهيجُ الشَّوْقَ مِنِّي والبُكَا وَميضٌ بأعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ مُذَهَّبُ /يُـرَدِّدُ /يَلُـوحُ
تعرَّضَ مِن دُونِ المُصَلّى وَدونَهُ مجالٌ لِأيْدِي المُرْسَلاتِ ومَلْعَبُ /ومَعْهَدُ /فَسيحُ
بلَيْلٍ كأنَّ الشُّهْب فيه فَوارِسٌ يُسَلُّ عليهَا لِلبُروقِ مُـذَرَّبُ /مُقَلَّـدُ /صفيحُ
فَما بَيْنَ ثاوٍ قدْ تَكَدَّرَ واخْتَفَى وآخَرُ خَفَّاقُ الفُؤادِ مُلَـهَّبُ /مُسَهَّـدُ /جَريحُ
فإنْ يَكُ لَيْلُ الهَجْرِ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ فَلِلْوَصْلِ وَجْهٌ بالصَّباحِ مُحَجَّبُ /مُـوَرَّدُ /صَبيحُ

تَـمَـامُـهَـــــا

يُرِيكَ التَّباشِيرَ التـي قَـد تألَّـقَتْ فَراقَ مِـن الوَجْـهِ الأغَـرِّ وضوحُ -136-
فَيَحْسبُهَـا مَـنْ يهْتَـدِي بِسنائِهَـا عَزائِمَ تَغْدو في العِـدَى وَتَـرُوحُ
وإنَّ افَنت الـرّومِ ينقـادُ خاضِعًـا كَما انقادَ مِنْ بَعْدِ الإباءِ جَموحُ
سَيَرْضَى بحُكْمِ السيْفِ مِنْهُ مسوِّفٌ وَيسْمَـحُ بالمَـالِ العَـريضِ شَحيـحُ
وذَلِكَ سَهْـلٌ في مَشيئَـةِ قَـادِرٍ يُنيـلُ مَرامًـا مُرْتَجًـى وَيُبيـحُ

(229) أي أن والد الجارية المذكورة من بني الأصفر، ويُسْتفاد منه أن لون الشريف كان أصفر.
(230) وردت الأبيات التالية للتقديم وكذلك تمامُها في ديوان ملك غرناطَة وقال في مقدّمتها : «ويحتمل أن تنظم على عدة قوافٍ تخيَّرنا منها هذه». ديوان ملك غرناطة : 21 ــ 22 وتوجد القصيدة أيضا منسوبة ليوسف الثالث في مظهر النور الباصر من ص 3 إلى ص 5.

أمَا نحنُ واللّهُ العَظيمُ بقصْدنَا نُهَجِّرُ في نَصْرِ الهُدَى وَنُرِيحُ
بأفْئِدَةٍ لاَ يَسْتَقِرُّ قَرارُهَا وهَل بمُثِيرِ النَّقْعِ تهْدأُ رِيحُ
أنا اليُوسُفِيُّ النّاجِحُ القَصْدِ كُلَّمَا تُذُوكِرَ قَصْدٌ لِلملُوكِ نَجيحُ
أنا اليُوسُفِيُّ النَّاصِرُ اللّقَبِ الذِي أُبيدُ ذَرارِيَّ العِدَى وَأُبيحُ
يُصَرِّحُ مَلْكُ الرُّومِ جَهْرًا بصُلْحِهِ وَبُرْهانُ مَقْصودِي لدَيْهِ صَريحُ
وهَل لِي إلَى غَيْرِ الحُروبِ تَطَلُّعٌ وَهَلْ لِي إلَى غَيْرِ الجِهادِ طُمُوحُ
وإنّ مَقامِي لاَ مَقَامَ يَرُوقُهُ فلَيْسَ فُتُورٌ أن تَقِلَّ فتُوحُ -137-

(231)

(231) بياض في الأصل مقداره نحو 12 سطرًا ولا بدّ أنه مخصص لتركيب القوافي المذكورة، وكان حق الناسخ أن يثبت القوافي الأولى على النحو الآتي :

وممّا يهيج الشوق منّي والبكا وميض بأعلى الرقمتين مذهب
تُعَرِّض............................... .... وملعب
بِلَيْل............................... .... مدرّبُ
فَمَا............................... .... ملهّب
فإنْ............................... .... محجّب

والقوافي الثانية على النحو الثاني :

وممّا يهيج الشوق منّي والبكا وميض بأعلى الرقمتين يَلُوحُ
تُعَرِّضَ............................... .... فَسِيحُ
بِلَيْل............................... .... صَفِيحُ
فَمَا............................... .... جَرِيحُ
فَإِنْ............................... .... صَبِيحُ

وَمِنَ النَّسيبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِه
وَالغَزَل المتَبع قَويمُ مَذْهَبه
قُلْتُ بالمَنْزِلِ مِنْ نُبْلُه خارِجَ الحَضْرةِ
فِي الثّانِي لِجُمَدَى الثّانيَة مِن عَامِ خَمْسَة
عَشَرَ وَثَمانِي مِائة في وَصْفِ عَشِيَّةٍ(232)

شمسُ العَشِيَّـــةِ آذَنتْ بغُروبِهَـــا كَالكَأسِ راقَ بهَا سَنَا مَشْرُوبِهَا
مُصْفَـرّة تُبْـدِي النُّحـولَ عَلِيلَـــةً فكَأنَّهَـا تَشكُـو فِـراقَ حَبيبِهَـا
فكَأنمَا هِـيَ في العَشيّ مُسافِـرٌ أبقَتْ عَلَى مَرْآهُ بعْضَ شُحوبِهَا
وكأنّهَا عَـذْراءُ رِيـعَت فانثَـنَتْ وتَستَّرتْ في الحَيّ خَوْفَ رقيبِهَا
أَلْقَتْ عَلَى هَذِي البِطاحِ شُعاعَهَا فَطِرازُ خُضرَتهِـنَّ مَـن تَذْهِيبِهَـا
قابِـلْ مُحَيَّاهَـا بِنـورِ مُدامَـــةٍ حَمرَاءَ تُبْدِي النّارَ مِن تشبيبِهَا
مَا اعْتَلَّتِ الأجْسامُ إلاَّ قبْـلَ أنْ مَصَحَتْ عَلى الأرْواحِ كَفُّ طَبيبِهَا
إنْ غابَتِ الشمْسُ المُنيرَةُ أطْلعَتْ بَدْرًا يَنوبُ سَنَاهُ عَـن مَحْجوبِهَـا
خُذْهَا مُعَتّقةً على الرَّوْضِ الـذِي تُهـدِي أزَاهِـرُهُ نَـوَاسِمَ طِيبِهَـا
مِنْ كَفِّ ميّادِ المَعَاطِفِ سَاحِـرٍ هُـوَ لِلنَّواظِـرِ منتَهَـى مَطْلوبِهَـا
يَشْفِي نُفوسَ العاشقينَ مِن الجَوَى فَيُزيـلُ مَـا تَلْقَـاهُ مِـنْ تَعْذِيبِهَـا
وَالعـودُ يُسْمِـعُ صَوْتُـهُ في كَفِّـهِ مَا شاءَتِ العُشّاقُ مِن مَرْغُوبِهَا
بـاحَتْ بِمَكْنُـونِ الهَـوَى أوْتَـارُهُ فَشَفَتْ فُـؤَادَ غَرِيمِهَـا بِغَرِيبِهَـا
بأنامِـلٍ لَـمْ تَرْقَ مِنبَـرَ عُودِهَـا إلاَّ أباحَ الشَّرْبَ وعْظُ خَطيبِهَـا

---

(232) نُبْلُه : Nublo قرية من قرى غرناطة وكانت معدودة في عهد ابن الخطيب من قرى «مستخلص السلطان» وبها «الدار المعروفة بنبله» ولعل هذه الدار السلطانية هي التي سميت هنا بالمنزل، وسيذكر الشاعر «قصر نبْله» الذي كان يخرج إليه مخدومه يوسف الثالث للراحة والاستجمام، وفي الوثائق الغرناطية التي نشرها الاستاذ سيكو دي لوثينا تردّدَ ذكر «منهل نبله خارج الحضرة» انظر الاحاطة 1 : 125 ووثائق غرناطية : 71، 87، 88، 89.

وكـأنَّ يُمْناهُ تَخُطُّ لِكُـلِّ مَـنْ   تَرَكَ الخَلاعَةَ آن وَقْتُ وُجوبِهَـا

فاعْجَبْ لآياتِ السُّرورِ وَجُدْ فِي   تَرْتيلِهَـا وانْظُـرْ إلَـى تَرْتيبِهَـا -138-

نَطَقَتْ فَأهْلاً بِالـذِي أبْدَتْـهُ مِـن   مَكْتُومِهَا المَشْروحِ أوْ مَكْتُوبِهَـا

لاَ تَنسَهَـا فبِـواجِبٍ أنْ يقْتَـدَى   بأبِي نُواسٍ فِي مَحَلِّ خَصيبِهَـا[233]

لاَ تَصْحُ عَنْهَا إنّ رَبَّكَ قَد قَضَى   كَرَمًـا وإنْعامًـا بِمحْـوِ ذُنوبِهَـا

وَفي أوَّل شَوالٍ عَام تسْعَةٍ وَثماني مائَة
وَقَد سُئِلتُ ذلِكَ فَقلتُ ارْتجالاً لُزومِيَّةً

دعِ المِصْباحَ وانظُر يَا نَديِمـي   لِشمسِ الكاسِ في اللّيْلِ البَهيـمِ

وَلاَ تَـنْسَ الصَّبُـوحَ إذَا تجَلَّـى   لكَ الإصْباحُ عَن وَجْهٍ وَسِيمِ

وَحَيَّتْكَ الأزاهِـرُ مِـن رُباهَــا   بمَــا تُهْديـهِ في طَـيِّ النَّسيــمِ

فَتُلْفِــي كُلَّمَــا حَيَّــا صَباحُــا   صَحيحَ الوَجْدِ يُرْوَى عَنْ سَقيمِ

تَنَعَّمْ كَيْفَ شِئْتَ بِهَا وَقُـلْ لِي   هَـلِ الجَنَّـاتُ جَنَّـاتُ النَّعِيــمِ

وَغانِيــةٍ تُــريكَ السِّحْـرَ حَقًّــا   حَـلالاً لَـيْسَ بالسِّحْـرِ الذَّمِيـمِ

فَكَمْ فِي الرَّوْضِ مِن زَهْرٍ نَثِيـرٍ   وكَمْ في اللَّفْظِ مِـن دُرٍّ نَظيـمِ

خَلِيلِـيَ دَعْ تَذَكُّـرَ مَـا تَـقضّى   وما قَدْ مَرَّ مِنْ عَهْدٍ كَريـمِ

وَلاَ تُرْسِلْ عُهُـودَ الدَّمْعِ مَهْمَـا   تَذَكَّــرْتَ المَعاهِــدَ بِالغَمِيــــمِ

وَلاَ تُطِــلِ التَّفَكُّــرَ وَاجْتَنِبْــهُ   وَهاتِ الكَأْسَ مِن كَـفِّ النَّديـمِ

وَعَلّـلْ قَلْبَكَ المُضْنَـى وشَفِّــعْ   جَدِيـدَ هَـواكَ بالخَمْـرِ القَديـمِ

فَكَـمْ فِينَـا لِـذلِكَ مِـن مُدِيـرٍ   لهَـا ولِشُرْبِهَـا كَـم مِـن مُدِيـمِ

وَلاَ تَيْـأسْ مـنَ العَفْـوِ المُرَجَّـى   فَـربُّكَ غافِـرُ الـذَّنْبِ العَظيـمِ

---

(233) الخصيب والي مصر، وهو الذي مدحه أبو نواس بقوله .

أنت الخصيبُ وهــــذه مصرٌ   فتدفّقــا فكلاكُمَــا بَحْــرُ

ولَكِـنّ اعْتَمِـدْ فِي كُـلّ أمْـرِ عَلى ما جاءَ في الذّكْرِ الحَكِيمِ

ومِنَ المرْتجلاَتِ المقْترحاتِ عَرُوضًا وَقافِيَةً -139-

في ذي قِعْدَة عَام أَرْبَعةٍ وثماني مائة

أصَوْبُ الحَيا جَادَ أمْ دَمْعُ عَيْني فَحَيَّـا المَعاهِـدَ بالرَّقْمَتَيْـنِ
غَرامًا بِمَـنْ سارَ وصفُ حُلاَهَـا مَسيـرَ الكَـواكِبِ في الخافِقَيْـنِ
وَذَكّرَنِـي عَهْدَهَـا بالحِمَـى سَنَـا بـارِقٍ لاَحَ بالأبْرَقيْـنِ
وأنْ أطْلَـعَتْ وَجْهَهَـا مُشرِقًـا طُلوعَ الصَّباحِ مِـن المَشْرِقَيْـنِ
نَعِمْتُ بِهَا تَحْتَ خَفْقِ الظّـلاَلِ نَعِيـمَ المُهَنّـإِ بالْجَنّتَيْـنِ
وَمَـا خَمْـرَةُ الكَـأسِ مَـا بَيْنَنَـا بأعْـذَبَ مِـن خَمْـرةِ المَرْشفَيْـنِ
وَكنَّـا كمَـا شاءَ حُكْمُ الهَـوَى خَليلَيْـنِ في القُـرْبِ كَالفَرْقَدَيْـنِ
وأمّـا وقَـدْ بَعُـدَ المُلْتَقَـى فَيا بُعْدَ مَا بيْـنَ صَبْـرِي وَبَيْنِـي
إلَـى أيّ جَـنبٍ أرِيـحُ الفُـؤادَ ونَـارُ الصَّبَابَـةِ في الجَانَبَيْـنِ
ولَـمْ أنسَهَـا يَـوْمَ سارُوا بهَـا نَشيـدَةَ قَـلبٍ وإنسَانَ عَيْـنِ
وبُعْـدُ الدّيـارِ وشمْسُ النَّهـارِ يُذيبـانِ قلبِـيَ بِالجَمْرَتَيْـنِ
أشارَتْ بِرَاحَتِهَـا إذْ أراحُـوا فَمَـا أشْوَقَ القَـلْبَ للرَّاحَتَيْـنِ
ألاَ عَـاذِرٌ لِـيَ في مَطْلَبِـي إلَى كَمْ أرَى العَذْلَ يَلْوِي بِدَيْنِ
صِفـاتُ الكَمـالِ وَسِرُّ الجَمـالِ أتَـى مِنهُمَـا الدّهْـرُ بالمُعْجِبَيْـنِ
تُـريكَ الـقَساوَةَ في قَلْبِهَـا وتُبْـدِي لكَ اللِّيـنَ في المَعْطِفَيْـنِ
فَفِـي القَـدِّ ثانيَـةٌ للْـقَضيبِ وَفي الوَجْـهِ ثَالِثَـةُ النّيِّرَيْـنِ
إذا شِئْتَ زَهْرًا فَفِي الثّغْرِ مِنْهَـا وَإِن شِئْـتَ وَرْدًا فَفـي الوَجْنَتَيْـنِ
يَـرُومُ جَناهَـا حَليـفُ الهَـوَى فَتَحْرُسُهَـا أسْهُـمُ المُقْلَتَيْـنِ
تُصيبُ القُلـوبَ إذَا مـا رَمَتْ بِهَـا عَـن قِسِيٍّ مِـنَ الحاجِبَيْـنِ

وَفي مِثْـــلِ ذلِكَ
وقدْ سُئِلْتُ نظْمَ مُقاوَلَةٍ وَفي التّاريخِ(*)

مَا لقَلبِي يَصْبُو وَدَمْعِي يَصوبُ   عِنْدَمَا بَانَ مَنزِلٌ وَحَبِيبُ
تَركَ الوَجْدُ فِي فُؤادِي بَقايَا -   عنْدَ ذكْرَاكَ في الدُّموعِ تَذُوبُ
ليْتَ شعْرِي مَتَى يَعُودُ زَمانٌ   قَدْ تَقَضَّى بوَصْلِنَا وَيَؤُوبُ
أيْنَ لَيْلٌ نعِمْتُ فيهِ بلَيْلَى   وعَلَيْنَا مِنَ النجُومِ رَقِيبُ
وَسْطَ رَوْضٍ حَكَى الشّمائِلَ مِنْهَا   إنْ هَفَتْ شَمْألٌ وَهَبَّتْ جَنُوبُ
فَهْيَ تحْكيهِ إذْ يَرُوقُ جَمالاً   زَهْرُهُ أوْ يَميلُ مِنهُ قَضيبُ
إذْ لَهَا بَهجَةٌ وَحُسْنٌ عَجيبٌ   وَجَمالٌ بادٍ وعَرْفٌ وَطِيبُ
مَنْطِقٌ لَيِّنٌ وَعَيْنٌ كَحِيلٌ   وَقَوامٌ لَدْنٌ وثغْرٌ شَنِيبُ
وَعَذولٍ جَفَا وَللقَلبِ وَجْدٌ   جَمْرُهُ في جَوَانِحِي مَشْبُوبُ
قالَ لِي أيَّ مَطْلَبٍ تَبْتَغِيهِ   قلْتُ مَالِي مِنْ بَعْدِهَا مَطْلُوبُ
قال دَعْهَا وَسَلِّ قَلبَكَ عَنْهَا   قلْتُ هَلاً لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
قالَ نقِّلْهُ سَاعَةً عَنْ هَوَاهَا   قلْتُ مَا فِيهِ لِلْوُجودِ نَصِيبُ
قال قَدْ عَذّبَتْكَ هَجْرًا وَصَدًّا   قلْتُ فيهَا يُسْتَعْذَبُ التعْذِيبُ
قال لِي قد تَمَنَّعَ العَطْفُ مِنْهَا   قلتُ مَهْلاً فالعِطْفُ مِنهَا رَطِيبُ
قال هَلْ يُقْنِعُ المشُوقَ خَيالٌ   قلْتُ لوْلاَ أنَّ الخَيالَ كَذُوبُ
قال ماذا جَفَا فُؤادَكَ مِنهَا   قلتُ سَهْمُ اللّحَاظِ وَهْوَ مُصيبُ
قال هَلْ طابَ بَعْدَهَا لَكَ عَيْشٌ   قلتُ دونَ الوِصالِ كيفَ يَطيبُ
قَال هَل حاَلَ مِنْكَ بالبُعْدِ حَالٌ   قلتُ حَالِي مَدَامِعٌ وَنحِيبُ
قال هَل تَنقَعُ الدُّمُوعُ غَلِيلاً   قلتُ طَيَّ الضُّلُوعِ مِنْهَا لَهِيبُ

(*) المقاولة هي ضرب من الشعر الذي يستعمل فيه الحوار ومن اقدم أمثلته ما نجده في شعر وضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة.

قالَ ما رَقَّ مِنْكَ بعْدَ نَوَاهَا ... قلتُ جِسْمٌ وأدْمُعٌ ونَسِيبُ
أصْبَحَ القلبُ عاشِقًا في حُلاَهَا ... فَلَهُ طَيُّ أضْلُعِي تَقْلِيبُ -141-
كُلَّمَا رَوَّعتْهُ شَمْسُ ضُحاهَا ... بِغُروبٍ لِلدَّمْعِ منّي غُروبُ

وَارْتَجَلتُ بأمْرِ مَولاَنَا الناصِرِ لدين الله أعْلَى الله مَقامَهُ
والبيْتُ الأوَّل من نظْمه في السَّادسِ عشر لجمدى الأولى عام 816

أمَا تُبْصِرُ الظَّلْماءَ قَدْ فَغَرتْ فَمَا ... وصَارَتْ نجُومُ الأفْقِ تخَبَطُ في عَمَى
تَمِيلُ إلَى نَهْرِ النَّهَارِ وتَنْثَنِي ... كأنَّ طُيورًا تَقْصِدُ الوِرْدَ حُوَّمَا
إذا أشرَقَتْ في جِنحِهِ خِلتَ وَارِدًا ... مِنَ الزَّنجِ يُبْدِي ثَغْرَهُ مُتَبَسِّمَا
وَقَدْ سَدَلَ الليْلُ البَهيمُ سُتورَهُ ... عَلَيْنَا فكُنَّا فيهِ سِرًّا مكتَّمَا
كأنَّ الدُّجى يُلْقَى لدَيْهِ مِنَ الضُّحَى ... حَديثٌ إذا أوْضَحْتَهُ عَادَ مُبْهَمَا
عَجبْتُ لهُ يُخْفِي حِمَى الأنْسِ عامِدًا ... ونَيِّرَةُ الصَّهْبَاءِ تُعْليهِ مَعْلَمَا
وهَذِي كُؤوسُ الرَّاحِ يَبْدُو شُعَاعُهَا ... وَلَوْلاَهُ لمْ نُهْد السَّبِيلَ إلَى الحِمَى
حَبابٌ يُريكَ الزَّهْرَ فَوْقَ غُصُونِهِ ... أو الدُّرَّ في مَثْنَى العُقودِ مُنَظَّمَا
أنَرْعَى عَلَى البُعْدِ النجُومَ وَبَيْنَنَا ... كؤوسٌ تُحيِّينَا عَلَى القُرْبِ أنجُمَا
أنَسْتَقْبِلُ البَدْرَ المُنيرَ وَفارِسٌ ... إذا مَا تَبَدَّى خِلْتَ بَدرًا مُتَمَّمَا[234]
جَميلٌ قدِ انقادَ الجَمالُ لأمْرِهِ ... وَحَكَّمَهُ في نَفْسِهِ فَتَحَكَّمَا
حَكَى السِّحْرَ لَحْظًا وَالغزالَ تمنُّعًا ... كَما أشْبَهَ الغُصْنَ النَّضيرَ تَنعُّمَا
يُديرُ مِنَ الأكْواسِ خمْرًا وَثَغْرُهُ ... يُديرُ كؤُوسَ الحُبِّ مَهْمَا تَبَسَّمَا
إذَا ما تَثَنَّى أوْ تَغَنَّى بِعُودِهِ ... أعاذَ الخَلِيَّ القَلْبِ صَبًّا مُتَيَّمَا
فَيَا غُصْنًا في رَوْضِهِ متمايِلاً ... ويَا طائِرًا في دَوْحِهِ متَرَنِّمَا

---

(234) لمخدوم الشاعر وممدوحه يوسف الثالث أشعارٌ في فارسٍ هذا، والمفهوم أنه كان من غلمان القصر.
راجع ديوان يوسف الثالث : 108، 135، 154، 156، 157.

تَلاعَبَ زَهْوًا بالعُقول وكيفَ لاَ ... ومَا السّحْرُ إلاَّ ما بِهِ قدْ تَكَلَّمَا

-142- وَكَتَبْتُ مِنَ المحَلَّةِ بِظاهِرِ جَبَل الفَتحِ في الحادِي
والعشرين لصفر من عام خمسة عشر وثماني مائة
في السفرة الثانية

هَل بَعْدَ طول تغرُّبِي وفِراقِي ... أَرْجُو اللِّقاءَ ولاَتَ حينَ تَلاَقِ
لَمَّا رَحَلْتُ عَنِ المَنازِلِ لمْ يزَلْ ... سُكْنى الغَرامِ بقلبِيَ الخَفَّاقِ
يا حادِيَ الأظْعَانِ مالَكَ والسرَى ... اللّهَ في الرَّمَقِ الذِي هُوَ باقِ
هِيَ دارُ أحْبابِي وَمَوْضِعُ صَبْوَتِي ... ومحَلُّ جيرانِي ورَبْعُ رِفاقِي
جارَ الزَّمانُ بِبُعْدِهِمْ ولَعَلَّهُ ... يَوْمًا يَجودُ بِعادةِ الإشْفاقِ
مَا لِي ولِلشمْسِ المنِيرَةِ كُلَّمَا ... تُبْدِي وَتُبْدِعُ بهْجَةَ الإشْراقِ
مَا راقَ عَيْنِيَ دُونَهُمْ حُسْنٌ وَلاَ ... دَمْعِي عَلى حُكْمِ الصَّبابَةِ رَاقِ
بَخلُوا برَدّ جَوابِ مَا راقَ النُّهَى ... مِمَّا وشَتْ يمْنايَ في الأَوْراقِ
مَا بَالُهُمْ مَنَعُوا نَجائِبَ كُتْبِهِمْ ... أن تَسْتَقِلَّ بأرْبُعِ العُشَّاقِ
ما بالهُمْ مِن بَعْدِ حادِثَةَ النّوَى ... لَمْ يحْفَظُوا عَهْدِي وَلاَ مِيثاقِي
يَا سائِلِي عَن شَرْحِ حالِيَ لَيْتَنِي ... لوْ كُنْتُ أُلْقِي بَعْضَ مَا أنا لاَقِ
مَاذَا أقولُ وَطُولُ كتْبِيَ لاَ يَفِي ... بحَديثِ مَا عِنْدِي مِن الأشواقِ
وَكَتَمتُ ما أهْلُ الهَوَى نَطَقُوا بِهِ ... إلاّ قَليلاً ضاقَ عَنْهُ نِطاقِي

وَفي مِثْلِ ذَلِكَ

أحْبابَنَا هَلْ لَنَا بَعْدَ النَّوى طَمَعُ ... فِي القُرْبِ أوْ هَل زَمانُ الأُنْسِ يَرْتَجِعُ
إذا تَذَكَّرتُ ما بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ ... يَكادُ قَلبِيَ مِن ذِكْراهُ يَنْصَدِعُ
وَلَّتْ صباحًا رِكابُ القوْمِ مُسْرِعَةً ... وَالدَّمْعُ ينزِلُ وَالأنْفاسُ تَرْتَفِعُ

مَا أمَّلُوا لِلحِمَى رُجْعَى فَلَيْتَهُمُ ... لَوْ أنَّهُمْ لجمِيلِ الصبْرِ قَدْ رَجَعُوا
مَا لِي ولِلصبْرِ أسْتَجْدِي عَوارِفَهُ ... لَكِنَّهُ سَنَنٌ في الحُبِّ مُتَّبَعُ -143-
كُنَّا كَما شاءَتِ الآمالُ في دَعَةٍ ... وَالوَصْلُ متَّصِلٌ والشَّمْلُ مُجْتَمِعُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ ظُلْمًا بَيْنَنا وَغَدَا ... مَا كانَ طَوْعَ يَدَيْنَا وَهْوَ مُمتَنِعُ
مَا كانَ ظَنِّي أنّ القُرْبَ يُعْقِبُهُ ... بُعْدٌ ولاَ انَّ طولَ الوَصْلِ يَنقَطِعُ
ما كُنْتُ أحْسِبُ أنّ الوَجْدَ يُذْهِلُنِي ... كَمْ عاشِقٍ غَرّهُ مِن قبْلِيَ الطّمَعُ
يا مَنْ تمَلَّكَنِي حُبًّا أيَجْملُ بِي ... صَبْرٌ وعَيْنِي عَلى مَرْآكَ لاَ تَقَعُ
تَضيقُ في عَينَيِ الدُّنْيَا إذا أنا لاَ ... أراكَ فيهَا ورَحْبُ الأرْضِ مُتَّسِعُ
مَن لِي بطَيْفِ خَيالٍ مِنْكَ يَطْرُقُنِي ... إنِّي بأيْسَرِ حَظٍّ مِنْهُ أقْتَنِعُ
رامُوا سُلُوِّي عَن رَبْعٍ حَلَلْتَ بِهِ ... هَيْهَاتَ ما دونهُ في العَيْشِ مُنتَفَعُ
مَن باتَ يَلْقَى الذِي ألْقاهُ منْ ألَمٍ ... فَلَيْسَ يَعْلَمُ ما يَاتِي ومَا يَدَعُ

وَمنَ المامُور به في السَّفْرَة الأولَى ونحْنُ بِظاهِرِ جبل الفتح في محرم عَامَ أرْبَعَة عشر وثماني مائَة

فَيا عَذُولَ صَباباتِي ألاَ زَمَنٌ ... يكْفِي زَمانَةَ قلْبِي أوْ يُداوِيهَا
قَدْ يُجْتَلَى حُسْنُهَا لَوْلاَ تَقَنُّعُهَا ... وَيجْتَنَى زَهْرُهَا لَوْلاَ تَجَنِّيهَا
أنا الذي حِينَ تُقْصِينِي أقَرِّبُهَا ... وَإن أساءَتْ بِإحْسانٍ أُجَازِيهَا
إنْ كان يُمْنَعُ طَرْفِي أن يُشاهِدَهَا ... فَلَيْسَ يُمْنَعُ قَلبِي مِن تَمَنِّيهَا
ألْقَى هَواجِرَ لاَ تَلْقَى ظَهِيرَتُهَا ... أرْعَى نجُومَ لَيالٍ لاَ تُراعِيهَا
تَتِيهُ مائِلَةً عَنِّي وَقائِلَةً ... أنتَ الذِي قدْ ألِفْتَ الهَجْرَ وَالتِّيهَا
فقُلْتُ عَلَّ خَيالاً منك يَطْرُقُنِي ... قالَتْ أتَطْلُعُ شَمسٌ في دَيَاجِيهَا
عَنَّيْتِ قَلْبِي بأشْجانٍ أكابِدُهَا ... فَهَلْ يَصِيرُ طَلِيقًا مَن يُعانِيهَا
وَكَيْفَ يَصْحُو الفَتَى مِن سُكْرِ خمْرَتِها ... وقَدْ سَقَتْهُ غَوانيهَا أوَانِيهَا

-144- وَمِنْ ذلِكَ وَهِيَ وَمَا ثبتَ مِنْ أمثَالِهَا مِن
العَاطِلِ والمحَالِ لِصِغَر السِّنِّ عِند نَظْمهَا وَفِي رَمَضانَ مِن
عَامِ ثمَانيةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَة.

وَما كنتُ أهْوَى رَبْعَ سَلْمَى وَإنّمَا ... أحِبُّ الحِمَى مِن أجْلِ مَن سَكَن الحِمَى
وما كُنْتُ أدْرِي أنّ سَهْمَ لحَاظِهَا ... يُصيبُ فُؤادَ المُسْتَهامِ إذَا رَمَى
وقدْ كانَ قَلبِي يَحْذَرُ الحبَّ جُهْدَهُ ... وَ مَا كان ذاكَ الحِذْرُ إلاَّ لِيَسْلَمَا
إلَى أنْ بَدَا لِلقَلبِ لمَّا بَدَا لَهُ ... مُحيًّا يفُوقُ الشَّمْسَ في أُفُقِ السَّمَا
وَللهِ دُرٌّ راقَ مِنْ ثَغْرِهَا الذِي ... سَقانِي كُؤُوسَ الحُبِّ حِينَ تَبَسَّمَا
فَمَهْمَا رَنَتْ تَحْكِي غَزَالاً مُمَتَّعًا ... وَمَهْمَا انثَنَتْ تَحْكِي قَضِيبًا مُنَعَّمَا
ويا لِغَرامٍ قد ثَوَى بجَوانِحِي ... فَأنْجَدَ ما بَيْنَ الضُّلُوعِ وَأتْهَمَا
غَزَتْ قَلْبِيَ المُضْنَى المَشوقَ جُنُودُهُ ... فأصْبَحَ في أيْدِي الصَّبابَةِ مَغْنَمَا
فَيا لَيْتَ سَلمَى تَبعَثُ الطَّيْفَ فِي الكَرَى ... لِتُرْوِي قُلوبًا بالصَّبابَةِ حُوَّمَا
ويَا لَيتَهَا تُهْدِي سَلامًا مَعَ الصبَّا ... لِيَنقَعَ قَلْبًا جَمرُهُ قَدْ تَضَرَّمَا
تَهُبُّ عَلَى جسْمِي صَبَاهَا عَلِيلَةً ... فَيَبْرأُ مَا قَدْ كانَ مِنهُ تَألَّمَا
وَمَهْمَا هَمَى دَمْعِي وَصَوْبُ غَمامَةٍ ... فَواللَّهِ مَا أدْرِي مَنِ الغَيثُ مِنْهُمَا
فَما بجُفُونِي غَيْرُ صَيِّبِ أدْمُعٍ ... ومَا بفُؤادِي غَيْرُ خَبْلٍ تَحَكَّمَا
وأظْهَرَ دَمْعِي ما بِقَلْبِي مِن الهَوَى ... وقدْ كان سِرًّا في ضُلوعِي مُكَتَّمَا
فإن لُمتُهُ أن باحَ بالحُبِّ لِلوَرَى ... فَيُنشِدُ هَلْ كانَ الغَرامُ لِيُكتَمَا
وَيا أيّهَا القَلبُ المَشوقُ إلى مَتَى ... تَبِيتُ كَما شاءَ الغَرامُ مُتَيَّمَا
لَئِن مُنِعَ الوَصْلُ الذي فِيهِ راحَتِي ... فَمَا يُمْنَعُ المشتاقُ أن يَتَوَهَّمَا
سأطْمَعُ فِي وَصْلٍ وإنْ طالَ هجْرُهَا ... وأقْطَعُ دَهْرِي في عَسَى ولعَلَّمَا
وقدْ زَعَمَ الْواشُونَ أنّيَ تارِكٌ ... هَواهَا ومَرْآهَا وأصْبِرُ عَنْهُمَا
فَظَنّتْ بأنّي قدْ سَلوْتُ عَنِ الهَوَى ... وأنّي إذًا لاَ أسْهَرُ الليْلَ مُغْرَمَا -145-

وهَيْهاتَ يمْحُو الدَّهْرَ أوْ ينسَخُ العِدَى   لَهَا في حَصَاةِ القَلْبِ ما قَد تَرَسَّمَا

وَمِن ذلِكَ حَسَبَما كُلِّفْتُهُ فِي أوَّل صَفَر مِن عَام تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعُمِائَة

عُهُودُ غَرامِي لاَ تَزالُ جَدِيدَةً   وأرْبُعُ جِسْمِي عَافِيَاتٌ دَوارِسُ
فَمَن قاسَنِي فيمَا أُقَاسُ مِنَ الهَوَى   بِقَيْسٍ وَلَيْلَى أخطَأتْهُ المَقَايِسُ
إذَا جَنَّ لَيْلِي فالسُّهَادُ مُلازِمٌ   لجَفْنِيَ والشوْقُ الحَثِيثُ مُوانِسُ
كَلِفْتُ بظَبْيٍ رائِعِ الحسْنِ لمْ يَزَلْ   يُرَوِّعُ قلبِي بالنَّوَى وَهْوَ آنِسُ
إذَا هُوَ أبْدَى لِلعُيُونِ جَمالَهُ   أراكَ مُحيًّا الشمْسِ والليْلُ دامِسُ
وَمَهْمَا بَدتْ يَوْمًا ذَوائِبُ شَعْرِهِ   أرَتْكَ ظَلامَ اللّيْلِ واليَوْمُ شامِسُ
وَطَلْعَتُهُ بَدْرٌ يَروقُ كَمالُهُ   وَقامَتُهُ غُصْنٌ من البانِ مَائِسُ
فَبَدْرٌ ولَكِن في فُؤادِيَ طالِعٌ   وَظَبْيٌ ولَكن في ضُلوعِيَ كانِسُ
فَيُخْجِلُ شَمْسَ الأُفْقِ وَهْيَ مِنيرَةٌ   وَيُزْرِي بأسْدِ الغَابِ وَهْيَ عَوابِسُ
أأطْمَعُ يَوْمًا في جَنَى وَرْدِ خدِّهِ   ومِن فَوقِهِ حُورُ العُيُونِ حَوارِسُ
أأطْمَعُ ان أسْلُو عَنِ الحُبِّ سَاعَةً   وَبَيْنَ ضلُوعِي مِن هَواهُ وَساوِسُ
فإن رُمْتُ يَوْمًا عَن هَواهُ تَصَبُّرًا   تُخَادِعُنِي ألْحاظُهُ وَتُخالِسُ
مُحَمّدُ يا مَنْ هامَ قَلْبِي بِحُبِّهِ   ومَن في فؤادِي مِنْ هَواهُ مَقابِسُ(234م)
لَئِنْ غِبْتَ عَن عيْنِي وَطَيْفُكَ زائِرٌ   فَلاَ الوَصْلُ مَمْنوعٌ ولاَ القَلْبُ آيِسُ
ومَهْمَا هَمَى صَوْبُ الغمَامِ تَشابَهَتْ   دُمُوعُ جُفونِي والغيوثُ البَواجِسُ
فَجِسْمِيَ ذو سُقْمٍ وَجِسْمُكَ نَاعِمٌ   وَجَفْنِيَ ذُو سُهْدٍ وَجَفْنُكَ ناعِسُ
فإن سَهِرَتْ عَيْنايَ نادَيْتُ في الدُّجَى   الاَ بأبِي تِلْكَ العيُون النّواعِسُ

(234م) في ديوان يوسف الثالث : 34 ـــ 35 قصيدتان في التغزّل بمحمّد هذا، ويبدو أن يوسف هو الذي كلّف الشاعر بهذه القصيدة.

وَفي مِثْـلِ ذلِك

أتُـرَى الخِـلُّ إذْ نَـأى أوْصَابِـي كَيفَ شاءَ الهَوَى إلَى أوْصابِـي[235]
طالَمَا بِتُّ أشتَكِي نَارَ شَوْقِـي وَهْيَ شَكْوَى جَوًى بغَيْرِ جَوابِ
وتذَكَّـرْتُ عَهْـدَ أنسٍ تَـقَضَّى لَمْ يَكن فيهِ زَنـدُ أُنسِيَ كَـابِ
ثم نَـادَيْتُ في الظَّـلامِ ودَمْعِـي بيْـنَ جَفْنَـيَّ دائِـمُ التَّسْكَـابِ
هَلْ مُباحٌ بعْـدَ الصُّدودِ وِصالِـي أوْ مُتَـاحٌ بعْـدَ البعَـادِ اقتِرابِـي
لِـيَ قَـلبٌ صادٍ إذَا رامَ وِرْدًا ذِيدَ عَـن مَـوْرِدِ الثغُـورِ العِـذابِ
لِي دَمْعٌ يُغْنِي عَن الغَيْثِ مَهْمَا أخْلَفَ الغَـيْثُ مَعْهَـدَ الأحْبَـابِ
وأنَـا الآن في نَعيـمٍ مُقيـمٍ بَعْدَ نُصْبٍ قد مَسَّنِي وَ عَـذابِ
هُوَ شمْسِي وَطالَمَـا قَـدْ تـوارَتْ عَن جفونِي يوْمَ النَّوَى بالحِجابِ
غَرَّنِـي مِـن وصَالِـهِ بخيَـالٍ كَغُـرورِ الصَّادِي بِلمْـعِ سَرابِ
جَنَّـةٌ في عِـذارِهِ لِـيَ فيهَـا إنْ أبيحَتْ طُوبَى وَحُسْنُ مـآبِ
فـإذا مـا العَـذُول رَامَ سُلُـوِّي كانَ سَمْعِي عَنِ النصيحَةِ نـابِ
يا هِلاَلَ الجَمالِ يا ابْـنَ هِـلاَلٍ يا هِلالاً يُزْرِي بأُسْدِ الغَـابِ[236]
عُذِّبَ القلْبُ إذْ نَـأيْتَ وأضْحَـى ذَا نَعيـمٍ إذْ أبْتَ خَيْـرَ إيَـابِ
كَمْ سَقَتْنِي كُؤوسُ لحْظِكَ حَتَّى مِلْتُ وَجْدًا مَيْلَ الغُصونِ الرِّطابِ
دُمْتَ مَا لاَحَتِ الكَواكِبُ أوْ ما ضَحِكَ الرَّوْضُ مِنْ بكَاءِ السّحابِ

---

(235) فيه جناس بين قوله أوصى بي، وأوصابي جمع وصب وهو التعب.

(236) للممدوح الشاعر يوسف الثالث قصيدة مطلعها :

يـا هِـلال الجمـالِ يابـنَ هِـلالِ لكَ روحـي كَمـا تشاءُ ومـالي

وقد مهّد لها بقوله : «واقتضت الدّعابةُ الّتي لا حَقيقةَ لَها أنْ نظَمْنا في بعْضِ الأوقات» وقد ورد في وثائق غرناطة ذكر «القائد الأجل الأغرّ الأسنى المرفّع غالب ابن هلال» من أعيان غرناطة في هذا العصر، والغالب أنه هو المتغزّل به في شبابه. راجع ديوان يوسف الثالث : 97 ـــ 98 ووثائق غرناطية : 28 ـــ 29.

وَفِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَقَدْ سُئِلْتُهُ فِي التَّارِيخِ

ما لِي إذا هَبَّ عَليلُ الرِّياحْ   يَرْوِي أحاديث غَرامِي صِحاحْ
وَمَا لِدَمْعِي إذْ كَتَمتُ الهَوَى   بَاحَ بأَسْرارِ غَرامِي صُرَاحْ
وأرَّقَ الأجْفانَ يَوْمَ النَّوَى   سَنَا وَمِيضٍ بالحِمَى قَدْ ألاَحْ -147-
وصرَّحَ الدمْعُ بسِرّ الهَوَى   فكلَّمَا أُخْفيهِ زادَ اتِّضاحْ
فَدَمْعُ جفْنِي لمْ يَزَلْ صَيِّبًا   وزَنْدُ شَوْقِي لَيسَ يُلْفَى شَحاحْ
أأَسْتَطِيعُ الآنَ كَتْمَ الهَوَى   وقَدْ غَدا سِرُّ غَرامِي مُباحْ
هِمْتُ بظَبْيٍ لمْ يَزَلْ جَفْنُهُ   ذَا مَرَضٍ يُمْرِضُ مِنَّا الصِّحَاحْ
مِن قَدّهِ ولحْظِهِ لمْ يَزَلْ   يَفْتُكُ بالسُّمْرِ وَبيضِ الصِّفَاحْ
فلحْظُهُ يُزْرِي ببيضِ الظُّبَا   وَقَدُّهُ يُزْرِي بِسُمْرِ الرِّماحْ
يَبْسِمُ عَن ثَغْرٍ شنِيبٍ كَمَا   تَبسِمُ في الرَّوْضِ ثُغورُ الأَقَاحْ
وقَدْ غَدَا لناشِقٍ عرْفُهُ   يَحْكِي شَذا الزَّهْرِ إذَا الزَّهْرُ فاحْ
خَلَعْتُ في الحُبِّ عِذارِي فَهَلْ   عَلَيَّ في خَلْعِ عِذارِي جُناحْ
لاَ يُعْذَلُ المُشْتاقُ في حُبِّهِ   فالصَّبُّ لاَ يُصْغِي إلَى قوْلِ لاحْ[237]
يا قاتَلَ اللّهُ عَذُولاً جَفَا   لمَّا غَدَا في العَذْلِ ظُلمًا ورَاحْ[238]
كَيْفَ أطِيقُ الصبْرَ عَنْ حُبِّهِ   ورَبْعُ صَبْرِي قَدْ غَدا مُسْتَباحْ
لَيْسَ عَلَى الصَّبّ جُناحٌ إذَا   يَخفِضُ في الحبِّ إلَيْهِ الجَنَاحْ
حَكِّمتُهُ يقضِي بمَا يَرْتَضِي   فَحُكْمُهُ انْ جارَ عِندِي صَلاَحْ
ظَبْيٌ إذا مَا عادَنِي ذِكْرُهُ   أميلُ كالغُصْنِ إلَيْهِ ارْتِياحْ
يفْعَلُ في أهْلِ الهَوَى لَحْظُهُ   فِعْلَ الحُسامِ الصَّلْتِ يوْمَ الكِفاحْ
يَحْكِي قضِيبَ البانِ مَهْمَا انثَنَى   ويُخْجِلُ البَدْرَ إذا البَدْرُ لاَحْ

---

(237) يشير إلى قول الشاعر : لا تعذل المشتاق في أشواقه.

(238) ياقاتل : رسمت في الأصل بدون قاف.

فالوَصْلُ لِي مِنهُ بُلُوغُ المُنَى والهَجْرُ لِي مِنْهُ حِمامٌ مُتاحْ
سَأرْتَجِي بعْدَ النَّوَى قُرْبَهُ فَقَدْ يَلينُ الصَّعْبُ بعْدَ الجِماحْ
جَلَوْتُ أبياتِيَ فِي وَصْفِهِ كَما جَلَتْ زَهْرَ الرِّياضِ البِطاحْ
لعَلَّهُ يُطْفِيءُ نارَ الجَوَى بريقِهِ العَذْبِ البَرودِ القَراحْ
فالقَلْبُ يَصبُو نحْوَهُ كُلَّمَا هَبَّتْ نُسَيْماتُ الصَّبا بِالصَّباحْ

وَمِنَ المُقْتَرَحاتِ فِي ذَلِكَ العَهْدِ فِي مُحرَّم عَام تسعَة وتِسْعِينَ وسَبْعمِائة -148-

خَليلَيَّ هَلْ أبصَرْتُمَا عاشِقًا مِثْلِي يَحِنُّ كَمَا حَنَّ الغَرِيبُ إِلَى الأَهْلِ
خَلِيلَيَّ كُفّا عن مَلاَمَةِ هائِمٍ مَسامِعُهُ لَمْ تصْغِ يوْمًا إلى العَذْلِ
أَلَمْ تَعْلَمَا أنّي تمَلّكَنِي الهَوَى فواللّهِ ما أمْسَى بغيْرِ الهَوَى شُغْلِي
كَلِفْتُ بِظَبْيٍ سَاحِرِ الجَفْنِ لَمْ يَزَلْ يَصُولُ عَلَى أكْبادِنَا مِنهُ بالنّبْلِ (*)
ومَا السّحْرُ عَن هارُوتَ يُرْوَى حَقيقَةً ولَكِنَّهُ يُرْوَى عنِ الأعْيُنِ النّجْلِ
فَكَمْ ذا تَلومانِي علَى كَلَفِي بهِ كأن لَمْ يذُقْ طَعْمَ الهَوَى عاشِقٌ قبْلِي
سَقَى عَهْدَ مَنْ أهْواهُ عَهْدُ مَدامِعٍ فَكَثرتُهَا تُغْنيهِ عَنْ صَيِّبِ الوَبْلِ
وإنّ جفونِي كُلَّمَا بَخِلَ الحَيا تُحَيِّي بوَكّافٍ من الدَّمْعِ مُنْهَلِّ
أنادِي عَلَى حُكْمِ الصَّبابَةِ في الدُّجا ترفّقْ عَسَى بَعْدَ القطيعَةِ مِن وَصْلِ (*)
ألاَ عَطْفَةٌ بعْدَ التَّباعُدِ والنَّوَى إلا عدَة بالوَصْلِ يوْمًا بِلاَ مَطْلِ (*)
اذا لَمْ تَكُنْ لِي أنتَ عَوْنًا عَلى الذي أُقاسِيهِ مِن حُبّي ووَجْدِي فَقُلْ مَنْ لِي

وفي مِثْلِ ذلِكَ وَهي ممّا يجبُ إلغاؤهُ لحداثةِ السّن عِنْدَ نَظْمِهَا في صفر سنة 799

هَلاَّ غَدا وَصْلُهُ مُباحَا كَمَا غَدا هَجْرُهُ مُتاحَا

(*..) بالنبل، وصل، مطل : قوافٍ ناقصة في الأصل، وأمامها علامة الاستشكال هكذا.

أبْـدِي دُجَـى هَجْـرِهِ فَهَـلاً   يُطْلِـعُ مِـن وَصْلِـهِ صَباحَـا
هـامَ فُـؤادِي بظَبْـيِ إنْسٍ   ألْحاظُـهُ تُشْبِـهُ الصِّفاحَـا
ظَبْـيٌ لـهُ أعْيُـنٌ مـراضٌ   لَكنَّهـا تُمْـرِضُ الصِّحاحَـا
قـدْ سَلَّ مِـن لَحْظِـهِ سُيوفًـا   وهـزَّ مِـنْ قـدِّهِ رِماحَـا
كَـمْ رَصَدَتْـهُ العُيـونُ مِنَّـا   وكَـمْ أطـالَتْ لـهُ الْتِماحَـا
يمْنَحُنَـا ظُلْمَـهُ وَيَغْـدُو   يَمْنَعُنَـا ظَلْمَـهُ القَراحَـا
مَـن لِـي بِـهِ كُلَّمَـا تَبَـدَّى   طَـارَ فـؤادِي لـهُ ارْتِياحَـا
لقَـدْ أَلِـفْتُ الهَـوَى فَعَنّـي   تُـرْوَى أحادِيثُـهُ صِحَاحَـا -149-
وَخُضتُ بَحْرَ الهَـوَى ولَكِـنْ   مَن رَامَ خَوْضَ البحَـارِ طاحَـا
وَهِـمْتُ فِي حُسْنِهِ فَلِـمْ لاَ.   أخْـفِضُ فِي حُبِّـهِ الجَناحَـا
وَان تَذَكَّـرتُ مِـلْتُ وَجْـدًا   كأَنَّنِـي قَـد شَرِبْتُ رَاحَـا
وَكُـلُّ وَاشٍ يَـرُومُ صَبْـرِي   جَنَّـبتُ أقْوالَـهُ اطِّرَاحَـا
مَـن لِـي بصَبْـرٍ وَفِي هَـواهُ   غَـدَا حِمَـى الصَّبْـرِ مُسْتَباحَـا
كَتَـمْتُ حُبِّـي ودَمْـعُ عَيْنِـي   لَـمْ يَسْتَطِـعْ كَتْمَـهُ فَباحَـا
فَلَـيْتَ قَلْبِـي يَنـالُ يَوْمًـا   بوَصْلِـهِ فِي الهَـوَى مستراحَـا

وَمِنَ المُقْتَرَحَاتِ قَرِيبًا مِنْ تارِيخِ مَا تقدَّمَ

فؤادِي عَلى حُكْمِ الغَرامِ خَفوقُ   إذا هَمَّ انْ يَسْلُوَ فلَيْسَ يُطِيقُ
وَمهْمَا هَمَى دَمْعِي لِيَنقَعَ غلّتِي   تأَجَّجَ ما بَيْنَ الضُّلُوعِ حَرِيقُ
خَلِيلَيَّ هَلْ أسْلُو عَن الحُبّ ساعَةً   وقَدْ صَدَّ خِلٌّ لِلفُؤادِ صَدِيقُ
سَقانِي كُؤُوسَ الحُبّ حَتَّى أمالَنِي   وشارِبُ كاسِ الحبِّ كَيْفَ يُفيقُ
قَسا قَلْبُهُ لَكِن عَلى كُلّ عاشِقٍ   فَواعَجَبًا والخَصْرُ مِنْهُ رَقيقُ
وقَلْبِي عَلَيْهِ كَيفَ شاءَ جَمالُهُ   وان قَلَّبَتْهُ الحَادِثاتُ شَفيقُ

فَيـا لَيْتَـهُ يوْمًـا يجودُ بوَصْلِـهِ ... فإنّـيَ في بحْـرِ الغـرامِ غَريـقُ
وَلاَ عَجَبٌ فَالرّوْضُ بعْـدَ ذُبولِـهِ ... إذا جـادَهُ الغَيْثُ الهَتُونُ يَـرُوقُ
أنادِي إذا جَـنَّ الظَّلامُ بـهِ أمَـا ... لِشَمْسِ الرِّضَى بعْدَ الغُروبِ شرُوقُ
وإن لمْ تَجُدْ بالوَصْلِ صَبْرِيَ ذاهِبٌ ... وَصَدْرِيَ عَنْ حَمْلِ الغرَامِ يَضيقُ
تَرَفّق فَما لِي غيْرَ دَمْعِيَ مُنجِـدٌ ... وَسُهْدِي أنـيسٌ والظـلامُ رَفيـقُ
أُسَامِرُ نجْمَ الأُفْقِ والأُفْـقُ رَوْضَةٌ ... تَفَتَّـحَ فيهَـا نَـرْجِسٌ وَشقِيـقُ
مُنَى القَلْبِ هَـلاّ لِلقَطيعَةِ آخِـرٌ ... ولِلقُربِ مـنْ بَعْـدِ البِعَـادِ طَريـقُ
ولَكِن إذا لَمْ تَدْرِ مَا بِي ولَمْ تَذُقْ ... غَرامِي ومَا ألقَـى فَسَوْفَ تَـذُوقُ
وأُنشِدُ لاَ أثنِـي العِنَـانَ تَشَفِّيًـا ... كِلاَنَا عَلى حُكْمِ الغَرامِ مَشُوقُ

ومِنَ المُقْترحاتِ مِنَ المَقامِ الكَريمِ أسْماهُ الله
في ألْواعِ شَتَّى، حَسَبَمَا يَتَهَيَّأُ في الارْتجالِ ويَتَأَتَّى
أمَرنِي مولاَنا أيَّدهُ اللَّهُ بنَظْمِ أبْياتٍ تُرْسَمُ
في حَاشِيَةِ قِناعٍ بِتاريخ 17 صَفَر عَام 811 فَقُلْتُ

يــا مُعْجَبًــا بصِفاتِـي ... لِلَّــهِ مِنِّــي قِنَــاعُ
كَهالَــةٍ حَــوْلَ بَــدْرٍ ... يَــروقُ مِنْــهُ شُعَــاعُ
شَمْـلُ المحاسِنِ طَــرًّا ... لَــهُ لَــديَّ اجْتِمَــاعُ
ومَــا جَمَالِــي بِبِــدْعٍ ... إذْ راقَ مِنــهُ ابْتِــدَاعُ
بنَــاصِرِ الدِّيــنِ أضْحَــى ... فِيــهِ حَدِيثــي يُــذَاعُ
لاَ زالَ لِلقَــدْرِ مِنْــهُ ... فَــوْقَ النجُــومِ ارْتِفــاعُ

وَقُلْـــتُ

أَحْسِنْ بِــهِ مِــن قِنَــاعٍ ... راقَ العُيُــونَ جَمَــالاَ

حَـوَى مِـنَ الوَجْـهِ بَـدْرًا فَـاقَ البُـدُورَ كَمَـالاَ
أبْـدَى عَلَـى كُـلِّ نَـوْعٍ تَهْـوَى القُلُـوبُ اشْتِمَـالاَ
فَصَيَّرتـهُ اخْتيَـالاً خَيْـلُ الجَمَـالِ مَجَـالاَ -151-
مِـن خَـالِصِ التِّبْـرِ جَـلَّتْ صِفاتُـهُ أنْ تُنَـالاَ
شَمْسُ الأصِيـلِ حَكَتْـهُ لَوْنًـا وَحُسْنًـا وَحَـالاَ
مِـن نَـاصِرِ الدِّيـنِ يَحْكِـي مَناقِبًـا وَخِـلاَلاَ
فَالجُـودُ قَـدْ مَـدَّ مِنْـهُ عَلَـى الوُجُـودِ ظِـلاَلاَ

وَقُلْتُ وَهْوَ عَرُوضٌ منْ أعَارِيضِ التَّوْشِيحِ

أنَـا قِنَـاعٌ لِـي بِحُسْنِـيَ السَّبَـقُ
فَالكَـتْبُ عَـنْ وَصْفِـي يَعْجِـزُ والنُّطْـقُ
رامَ اشْتِباهًـا بِـي فِـي شُهْبِـهِ الأُفُـقُ
ففَاقَـهُ ثَوْبِـي إنْ حُقِّـقَ الحَـقُّ
غَمامَـةٌ أبْـدُو طِـرازِيَ البَـرْقُ
وَالوَجْـهُ لِـي شَمْسٌ أطْلَعَهَـا الشَّرْقُ

ثمّ اسْتَدعَانِي أعْلَى اللهُ مَقامَهُ إلَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَأمَرَنِي بِنظمِ أبْياتٍ فِي القِنَاعِ المسَمَّى وَبِتاريخِ السَّادِسِ عَشَرَمِن رَجَبٍ مِن عَامِ اثْنَيْ عَشَرَ وَثمَانِي مِائة وان تكون عشرة أبْيَاتٍ مُختَتَمَةً بعجُزِ البيت المشهورِ : وَساقَ الثريَّا فِي مُلاءَتِهِ الفَجْر (239)، فَقُلْتُ

هَلِ الأفْقُ تَبْدُو فِي مَطالِعِهِ الزُّهْرُ أمِ الرَّوْضُ فِي أدْواحِهِ فُتِّحَ الزَّهْرُ
أمِ الوَصْفُ مِنّي حَيثُ لاَحَتْ مَحاسِنِي تُنظِّمُ عِقدًا مِثلَمَا يُنْظَمُ الـدُّرُّ

(239) لم أهتد الآن إلى صدر هذا البيت وصاحبه.

فَلاَ حُسْنَ إلاَّ مَا لِوَصْفِي يَنْتَمِي   وَلاَ وَصْفَ إلاَّ مَا بِحُسْنِي لَهُ ذِكْرُ
ومَا السِّحْرُ عنْ هَارُوتَ يُرْوَى حَقِيقَةً   فَحُسْنِي الذِي يُعْزَى لِبَابلِهِ السِّحْرُ
إذَا أنتَ قَد شاهَدتَنِي واخْتَبَرتَنِي   وَحَقَّقتَ وَصفِي صَدَّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ -152-
لأنَّ الجَمَالَ اليُوسُفِيَّ حَقِيقَةً   بِغَرْناطَةٍ دَعْ ما حَوَتْ قَبلَهُ مِصْرُ
وَمُبْدِعُ شَكلِي ناصِرُ الدِّينِ يُوسُفٌ   فدَامَ لَهُ التَّأيِيدُ وَالعِزُّ والنَّصْرُ
قِناعٌ كأنَّ الأُفقَ أبدَى سَحَابَهُ   جَهَامًا فَحَلاَّهَا بِبَارِقِهِ التِّبرُ
يَرُوقُ شُعَاعٌ مِنهُ فَوْقَ بَيَاضِهِ   فَمِن سُحْبِهِ ثَوْبٌ وَمِن تِبْرِهِ زُهْرُ
كَمَا لاَحَ نورُ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى   وسَاقَ الثرَيَّا فِي مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

وقُلْتُ كَذلِكَ

لِلَّهِ مِنِّي ثَوْبٌ عَجِيبٌ   أَبْدَى الجَمَالَ وأَبْدَعَهْ
حَلَلْتُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ أُفْقًا   قَدْ أَخَذَ البَدْرُ مَطْلِعَهْ
أَحُفُّ بالوَجْهِ مِنهُ حَتَّى   تَحْسِبُنِي هَالَةً مَعَهْ
إن كنتُ أُفْقًا فَالتِّبْرُ مِنِّي   كَمْ بَارِقٍ فِيهِ أَطْلَعَهْ
فَالزُّهْرَ أشبهْتُهَا اجْتِلاَءً   وَالزَّهْرَ أَحْكِي تَضَرُّعَهْ
يُوسُفُ النَّاصِرُ المُرَجَّى   شَرَّفَ قَدْرِي وَرَفَعَهْ
أَبْدِي جَمَالاً لَدَى إمَامٍ   وَالَى الجَمِيلَ وَأَتْبَعَهْ
فدامَ وَالدِّينُ ذُو انتِظَارٍ   بِهِ وَلازالَ فِي دَعَهْ

وفي مثلِ ذلِكَ قوْلِي

هِيَ الأَشْيَاءُ مُبْدِعُهَا   أَبُو الحجَّاجِ مَوْلاَنَا
تَزِيدُ حُلَى مَكَارِمِهِ   لِحُسْنِ الوَصْفِ إحْسَانَا

صَنائِعُ رَبِّنَا فيهَا ‏ جَميلَ الصُّنْعِ أوْلاَنَا
كِتاب الحُسْنِ رَاق وَقَدْ ‏ جُعِلتُ عَليْهِ عُنْوَانَا
وَصِرْتُ لِجِسْمِهِ رُوحًا ‏ وَفي عَيْنَيْهِ إنسَانَا -153-
يَروقُ التِّبْرُ في أُفُقي ‏ وأطْلِعُ مِنْهُ شُهبَانَا

وفي مِثلِ ذلك

للهِ منّيَ ثَوْبٌ ‏ تَرومُ فيهِ رُقومِي
كأنّمَا أنَا أُفْقٌ ‏ مُكَلّلٌ بالنُّجُومِ
وَقُضْبُ التّبْرِ تَحْكي ‏ فِيهِ بَقايَا الرُّجُومِ
مَنْ هامَ في حُسْنِ وَصْفِي ‏ وَجْدًا فَغَيْرُ مَلُومِ
مَوْلاَيَ مُبْدِعُ شَكْلِي ‏ ومُثْبِتٌ لِرُسُومِي
فَمُلكُهُ دامَ مُرْقًى ‏ إلَى العُلَى وَالعُلُومِ

وفي مِثْلِ ذلِك أيْضًا

أنَا زَهْرٌ إذْ تُشْرِفُ ‏ أنَا رَوْضٌ مُفَوَّفُ
كُلُّ عيْنٍ لِبَهْجَتِي ‏ بِحُلَى الحُسْنِ تَكْلَفُ
وَصِفاتِي كُلُّ الوَرَى ‏ أعْجَزَتْ حِينَ تُوصَفُ
لَجمَالِي تَشَوَّقُوا ‏ وَلِحُسْنِي تَشَوَّفُوا
مُبْدِعِي مِن مُلُوكِهَا ‏ ناصِرُ الدِّينِ يُوسُفُ
مَلِكٌ دامَ حَمْدُهُ ‏ كُلَّ مَلْكٍ يُشَرِّفُ

وفي مثل ذلِك أيْضًا

أنا ثوبٌ أُجْتَلى ‏ كَجَهَامِ السُّحُبِ

أُفُقِــــي سَمـــــاؤُهُ كُلِّـــــلَتْ بــــالشُّهُبِ
وَمِــــن التِّبْـــرِ سَنَـــا بَرْقِـــهِ المُلْتَـــهِبِ
وَرُقُومِـــــي زَهَــــرٌ إثْـــرَ غَـــيْثٍ صَيِّبِ -154-
إنما حَاشِيَتِــــــي فَــــوْقَ قُضْبِ الــــذَّهَبِ
نَــوْرُ رَوْضٍ قَــدْ بَــدَا بأَعَالِــي الــــقُضُبِ
يُـــوسُفٌ أَبْــدَعَ لِــي كُـــلَّ وَصْفٍ مُعْـــجِبِ
نَــاصِرُ الدِّيــنِ الـــذِي لَــمْ يَــدعْ مِــنْ مَطْــلَبِ

وَلمَّا شَرعَ أَيَّدَهُ اللهُ في إعْلاءِ المَبْنَى المَاثِل الآنَ عَلَى بابِ الدار الكبيرَةِ أمَرنِي بنَظمِ أبياتٍ تُكْتَبُ دائِرةً بالطَّبقة الثَّانيةِ فقُلْتُ حَسَبَمَا اقْتَرحَهُ مَعْنًى وَقافيةً وَعَرُوضًا وَعَدَدَ أبياتٍ بِتاريخ الثَّاني لِشَعْبانِ عَام خمسَة وثمَانمائة(240)

بناصِرِ الدِّين مَولَى الخَلْقِ لِي شَرفٌ فَلَيْسَ عَنِّـيَ لِــلأبصارِ مُــنْصَرَفُ
للهِ مِنِّـي مَبْنًـى حُسْنُ بَهْجَتِــهِ لِكُلِّ قَلبٍ إذَا حَيَّا بِـهِ شَغَــفُ
وَمَصْنَـعٌ معْـجِبٌ بالصُّنْعِ مُـتَّصِلٌ بالعِـزِّ مُنْفَـرِدٌ بالـحُسْنِ مُـتَّصِفُ
كأنَّ مِنْ جَنَّةِ الفـرْدَوْسِ مَـنشَأَهُ فهَـذِهِ غُـرَفٌ مِـن فَوقِهَا غُـرَفُ
كَالرَّوْضِ لَوْ لمْ يَكُنْ تَذْوَى أزَاهِرُهُ والبَدْرِ لَوْ لَمْ يَلُحْ فِيْ وَجْهِهِ كَلَفُ

(240) في هذا وما بعدّه مادّة جديدة حول مباني الحمراء بغرناطة، ويمكن الاستعانة في تحديد موقع هذا المبنى بمثل هذا البيت :

قابلتُ بَحْـرا مـن الصّهـريج لُجَّتُــه كأنّهــا مِـنْ نَـدَى كَفّيـه تُغْتَــرِفُ

وبمثل هذين البيتين :

لَـدَى ارتفاعـي مَعْنَـى الـحُسْنِ مُتّفِـقٌ لَكِــنْ بِسَاحَتِــيَ الأنْظَــارُ تَختَلِــفُ
أستَقبِـلُ الرَّوْضَ إنْ هَـبَّتْ نَواسِمُــهُ والقُضْبُ حَوْلِـيَ بالأزْهَـارِ تنْعَطِــفُ
وأستَقِـلُّ وفي أُفقِـي نُجُـومُ هُــدَى فَهَــذِه تُجْتَلَـى أوْ تِــلْكَ تُقْتَطَــفُ

ولعلّ هذ كلّه ينطبق على ما يعرف ببهو قمارش المعروف ببرجه الشاهق وفيه البركة المسماة هنا بالصهريج وفيه فناء الريحان، وفيه القبة التي زخارفها على شكل النجوم.

لَدَى ارْتِفاعِيَ مَعْنَى الحسْنِ متَفِقٌ   لِكِن بسَاحَتِيَ الأنظـارُ تَخْتَلِـفُ
أسْتَقْبِلُ الرَّوْضَ إنْ هبّت نواسِمُهُ   والقُضْبُ حَوْلِيَ بالأزْهارِ تَنْعَطِـفُ
وأسْتَقِلُّ وَفِي أُفُقِـي نُجُـومُ هُـدًى   فهـذِهِ تُجْتَلَـى أوْ تِـلْكَ تُقْتَطَـفُ
تَحارُ في وصْفِـيَ الأوْهـامُ ذاهِبَـةً   لاَ تَسْتَقِل وَلاَ الأبصارُ تَـنْصَرِفُ
يا مُبْصِرًا مِن جَمالِي ما يَرُوقُ حُلًى   أقْصِرْ فَحُسْنُ صَفاتِي فَوْقَ مَا تَصِفُ -155-
حَلَلْتُ مِنْ بابِ دَارِ المُلْكِ مَنزِلَةً   مِن دُونِهَا الشُّهْبُ في عَلْيائِهَا تَقِفُ
مَوْلاَيَ جَدَّدَ آثاَرِي وأكمَلَ مَـا   قَدْ كانَ أغْفَلَهُ مِن قَبْلِهِ السَّلَـفُ
هَـذا وناصِرُ دِينِ اللهِ أبْدَعَنِـي   كَما عَلِمْتَ وذاكَ العِزُّ والشَّرَفُ
مَوْلَى الوُجودِ عَميدُ المُلْكِ يُوسُفُهُ   ومَـن تلاَفـاهُ لمَّـا راعَـهُ التّلَـفُ
طِيقانِيَ الغرُّ مهْمَا حَـلَّ مَظهَرُهَـا   لاَ قَصْرَ إلاَّ وَبالتَّقْصِيرِ يَعْتَـرِفُ
كأنَّـهُ البَـدرُ مِـن مَغْنـايَ هَالَتُـهُ   ولَفْظُهُ الدُّرُّ مَوْضوعِي لَـهُ صَدَفُ
قابلْتُ بَحْرًا منَ الصَّهْريجِ لجَّتُهُ   كأنّهَـا مِـن نـدَى كفَّيْهِ تَغْتَـرِفُ
لازالَ في غِبْطَةٍ مَوْصُولَـةٍ أبَـدًا   مُخَلَّدًا فيهِ حتَّى تنشَرَ الصُّحُـفُ

وأمَرَنِي كَذالِكَ أعْلَى اللهُ مَقامَهُ بِمَنْظُومٍ يُكْتَبُ بِطيقانِ
الطَّبقَة العلْيَا مِنْ هَذا المَبْنَى في الخامِس عَشَر لِشَعبان عَام خَمسَةَ
عَشَر المذْكُور فَحَذوْتُ حَذْوَ الأمْرِ الكَرِيمِ في ذلك غَرضًا وَعَروضًا
وَقافِية وَعَددَ أبْياتٍ
في الطاقَةِ الكبْرَى مِنْهُ

أحْرَزْتُ كُلَّ وَصْفٍ رائقٍ حَسَنٍ   ما لَمْ يُنَلْ مِثْلُه في سالِفِ الزَّمَنِ
انْ حَلَّ مِن مَظهَرِي مَوْلاَيَ أُفْقَ عُلاً   فأيْنَ صَنْعاءُ أوْ سَيْفُ بنُ ذِي يَزَنِ
هذَا هُوَ المصْنَعُ الأعْلى فَحُلَّ بِـهِ   طَوْعَ السُّعُودِ ودَعْ غُمْدانَ لِلْيَمَنِ
أوْ حَلَّ في مَظْهَرِي عِنْدَ العَشِيِّ فمَا   لِلشمْسِ دُونِيَ انْ تَهْدِي إلى سَنَنِ

وإنْ تَحَدَّثَ عَن وَصْفِ كَرُمْتُ بِهِ رَأَيْتَهُ مالِكًا يَرْوي عَنِ الحَسَنِ[241]
أصْبَحْتُ لِلزُّهْرِ وَالأزْهارِ مُجْتَمَعًا كَما غَدَتْ كَفُّهُ لِلْجُودِ والمِنَنِ
هُوَ الإمامُ الذي إحْسانُهُ أبَدًا وَحُسْنُهُ سَنَنٌ هَادٍ إلَى السُّنَنِ
فإنَّ شُهْبَ الهُدَى لَوْلاَهُ مَا وَضَحَتْ وإنَّ سُبْلَ النَّدى لَوْلاه لَمْ تَبِنِ -156-
لَوْ كانَ فيمَا مَضَى وَضَّاحُ طَلْعَتِهِ ما كانَ يُنْسَبُ وَضَّاحٌ إلَى يَمَنِ[242]
هَذَا هُوَ الناصِرُ المَوْلَى الهُمامُ فَدَعْ ذِكْرَى أمِينٍ وَمامُونٍ وَمُؤْتَمَنٍ[243]
لأزالَ والنَّصْرُ من عُلْياهُ مُلْتَمَسٌ مُبَلِّغَ الوَطَرِ المَرجُوّ في الوَطَنِ

وَفي الطَّاقَةِ المشْرِفَةِ عَلَى الحَمراءِ المَقَابِلَةِ لِلكُبْرَى

هِيَ العُلَى دُونِيَ مِنْهَاجُهَا والزَّهْرُ مِنْ ذِكْرِيَ آراجُهَا
ورَحْمَةُ اللهِ أنَا كُلَّمَا مَدَّ يَدَ الآمِلِ مُحْتاجُهَا (*)
وكعْبةُ الجُودِ أنا اليَومَ إذْ تَقْصِدُ مَوْلَى الخلقِ أفْواجُهَا
وَحَضْرَةُ الملكِ وَحَمْرَاؤهُ حَكَتْ بُرُوجَ الأُفْقِ أبْراجُهَا
لَئِنْ عَلَتْ في أفْقِهَا مَصْنَعِي إكْلِيلُهَا الرَّائِقُ أوْ تاجُهَا
أو قَد سَمَتْ شُهْبُ سَمائِي التِي مِن فَوْقِ بابِ القَصْرِ مِعْراجُهَا
فكُلُّ مَنْ ضَلَّ سَبِيلَ الهُدَى يَهديهِ نحْوَ القَصْدِ وَهَّاجُهَا
وَكُل مَن أمَّلَ سُحْبَ النَّدَى مِن كَفِّهِ يُرْوِيهِ ثجَّاجُهَا

(241) يورّى بمالك بن أنس والحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب من رجال الموطأ.
(242) وضَّاح اليمن : هو عبد الله بن اسماعيل أحد شعراء الدولة الأموية واشتهر بالتشبيب، ولُقّب بالوضاح لجماله.
(243) الأمين والمامون والمؤتمن ألقاب خلفاء عبَّاسيين معروفين.
(*) مَدَّ يَدَ : في الأصل : مؤيّد، وهو تحريف.

وَفِي الطَّاقَةِ الثالِثةِ التِي ليَمينِ الكُبْرَى

لِلّـــهِ مِنّـــي مَصْنَـــعٌ يُجْتَلـــَى ... كأنَّـــهُ الشمْسُ بِأُفْـــقِ العُـــلاَ
طِيقانِـــيَ الغُـــرُّ إذا فُتِـــحَتْ ... نـــالَ بِهَـــا المُـبْصِرُ مَـــا أمَّـــلاَ
أبْدَعَنِـي مَوْلَـى الـورَى يـوسُفٌ ... فَعَـــزَّ مِقْـــدَارِي بـــهِ واعْتَـــلاَ
مُجَـــدِّدًا لِلسَّلَـــفِ المُـــرْتَضَى ... مِن قَبْلِهِ مَا كانَ قَـدْ أغْفَـلاَ
فَمَصْنَعِـي وَالـرَّوضُ مِـن تحتِـهِ ... لِلـهِ مَـا أعْلَـى ومَـا أجْمَـلاَ
لاَ عَجَبٌ أن راقَ زَهْرُ الرُّبَـى ... فَجُـودُه الغَـيث مَتَـى أمْحَـلاَ
لـذاكَ قُضْبُ الـدّوْحِ مِن تحتِـهِ ... لِسَجْـدَةِ الشّكْـرِ تُـرَى مُيَّـلاَ
وإن سَرَى فيـهِ نَسيـمُ الصَّبَـا ... مِنْ حَمْـدِهِ أهْـدَى الـذِي حُمِّـلاَ

-157-

وَفِي الطاقة الكبرى الرابعة التِي تشرف على الصّهريج

يـُوسُفٍ نَـاصِرِ دِيـنِ الهُـدَى ... أحْرَزْتُ فِي العَلياءِ أقصَى المَـدَى
لـمْ أعْـلُ دُونَ الأفْـقِ لَكِنَّنِـي ... أبْغِـي إلَـى أنجُمِـهِ مَصْعَـدَا
أُقابِـــلُ الصَّهْرِيـــجَ لَكِنَّـــهُ ... مِن كَفِّـهِ قـدِ اسْتَمَـدَّ الجَـدَا
وَحَوْلِـــيَ النّهْـــرُ وَلِكنَّـــهُ ... لَـوْلاَ نـداهُ لـمْ يَـطِبْ مَـوْرِدَا
وَدُونِـــيَ الـــرَّوْضُ ولَكنَّـــهُ ... لَـوْلاَ شَذاهُ لـمْ يَجِـدْ مُنْجِـدَا
ألْقَـى سَنَـا الأنجُمِ مِـن وَجْهِـهِ ... بِطلعَـةِ الصُّبْـحِ إذَا مـا بَـدَا
وَسائِـلَ النَّهْـرِ إذَا مَـا جَـرَى ... مِـنْ جـودِ كَفَّيْـهِ بِبَحْـرِ النَّـدَى
لازالَ فِي نَصْرٍ وَفِي عِـــــزّةٍ ... مُبَلّـغَ الـقَصْدِ بِرَغْـمِ العِـدَى

وَفِي الطاقَةِ الصّغْرَى الخَامِسَةِ

أنا أسْمَى فِي الحُسْنِ قَدْرًا وأعْلاَ ... حَيْثُ أصْبَحْتُ لابْنِ نَصْرٍ مَحَـلاًّ

إنمَــا جَنّــةُ العَريــفِ عَــرُوسٌ وأنــا تاجُهَــا الرَّفيــعُ المُحَـــلاًّ(244)
يُوسُفٌ مُبْدِعِــي فَرائِــقُ وَصفِــي بِحُلَــى العِــزّ والكَمــالِ تَحَلَّــى
وَجْهُــهُ إنْ بَــدَا بأُفْقِــيَ صُبْــحٌ لاَ يُضاهَــى سَنــاهُ إذْ يَتَجَلَّــى
دامَ فِي غِبْطَــةٍ وَطُــول سُرُورِ يَقْدُم النّصْرُ جُنـدَهُ حَيْثُ حَـلاًّ

وفي الطّاقَةِ الصّغْرَى أيْضًا السّادسَة

أنـا لِلْـحُسْنِ مَــرْقَبٌ مَشهــورُ لاَحَ فِيــهِ المُؤَيَّـــدُ المَنْصُورُ
هُــوَ بَدْرٌ لَـدَى المَحاسِنِ مِنّــي وَلَدَى الحَرْبِ فهْو لَـيْثٌ هَصُورُ
وقضَى لِـي إبْداعُـهُ انَّ وَصفِــي قَصّرتْ عَن مَدَى حُلاَهُ القُصُورُ
أجهَاتِـــي وَدُرُّ مَدْحِـــيَ فيهَـــا أَمْ نحُـورٌ قَـدْ حُلّـيتْ وَخُصُورُ
حَيْثُ باهَتْ غُرَّ النجُومِ خِلاَلِي وعَلَيْهَــا حُسْن الحُلَــى مَــقْصُورُ

وَفِي الطَّاقة السَّابعَة ــ وَمَوضِعُ الثَّامِنَةِ وَهُوَ المَدْخَلُ للمَصْنَعِ

-158- **نَظَمَ مَولاَنَا أيّدَهُ الله أبيَاتًا كُتِبَتْ فِيهِ وَثُبّتَتْ فِي غَيْرِ هَذا ــ**

فُقْتُ حُسْنًا وَبهجَةً وَجمالاًوعُلُــوًّا ان طَـــاوَلَ الشُّهْبَ طَـــالاَ
تُبْصِرُ العَيْـنُ مِـن جَنابِـيَ رَوْضًا تخِذَتْـهُ خَيْـلُ الجَمَـالِ مَجَـالاَ
فَتَأَمَّـلْ مِنّــي مَكانًـــا مَكِينًـــا وَجِـلاَلاً راقتْ حُـلاً وخِـلاَلاَ
وَبمَوْلَــى المُلـوكِ غَرْبًـا وَشَرْقًـا أبْهَــرُ الشُّهْبَ رِفْعَــةً وَمَنـــالاَ
أخَــذتْ حِذْرَهَـا لَـدَيَّ اخْتِفــاءً بِجَنَابِــي لَمَّــا عَلَــوْتُ احْتِفـالاَ

---

(244) جنة العريف أو جنان العريف ما تزال قائمة، وقد حُرّفت في اللسان الاسباني إلى Généralife.

وَلمَّا شَرَعَ أيَّدَهُ اللهُ فِي تَجْدِيدِ القُبَّتَيْنِ الرَّائقَتَيِ
الشكْلِ خلْفَ هَذِهِ الدَّارِ الكُبْرَى وَإحْياءِ رَسْمِهِمَا أمَرَنِي
بِنَظْمِ أبْيات كُتِبَتْ دَائِرةً فِي إحْداهُمَا وبتَارِيخ الثَّامِنِ وَالعِشْرِينَ
لِرَبيعِ الأوَّلِ عَام خَمْسَةَ عَشَر وَثمَانِي مِائَة فَقُلْتُ

لِلَّهِ مِنِّيَ مَصْنَعُ ... يُبْدِي الجَمالَ وَيُبْدِعُ
مَوْلَى الخلاَئِفِ يُوسُفٌ ... بَدْرٌ وأُفْقِيَ مَطْلَعُ
رَوْضُ المَحاسِنِ جَانِبِي ... أزْهارُهُ تَتَضَوَّعُ
وَالزُّهْرُ إن ناجَيْتُهَا ... ألْقِي الحَدِيثَ فَتَسْمَعُ
أنا قُبَّةٌ للصُّنْعِ إذْ ... أنا لِلصُّنَيْعَةِ مَوْضِعُ
قابَلْتُ مِثْلِيَ فانْثَنَتْ ... في نَيْلِ وَصْفِيَ تَطْمَعُ
وتَرى البُحَيْرَةَ بَيْنَنَا ... مِرْآةَ هِنْدٍ تلْمَعُ(245)
وبجودِ راحَةِ يُوسُفٍ ... هِيَ لِلظِّماءِ المَشْرَعُ
وَالخَصَّةُ العُلْيا بهَا ... كَأسٌ بكَفٍّ يُرْفَعُ(246)
والماءُ في جَنْباتِهَا ... مُتَدَفِّقٌ مُتَدَفِّعُ -159-
فكأنَّهَا القَلْبُ الذِي ... شَمْلَ المَكارِمِ يَجْمَعُ
يَا نَاصِرَ الدينِ الذِي ... تحْنُو عليْهِ الأضْلُعُ
أطْلَعْتَ شَمْسِيَ بَعْدَمَا ... غَرُبَتْ كَأنَّكَ يُوشَعُ
جَدَّدتَ رَسْمِيَ إذْ عَفَا ... فأمِنتُ مَا يُتَوَقَّعُ
ليَعُودَ بعْدَ ذَهابِهِ ... عَهْدُ الشَّبابِ وَيَرْجِعُ
لاَزِلْتَ تَفْتَحُ لِلْوَرَى ... بَابَ القَبُولِ وَتَشْرَعُ

(245) مرآة هند : هي ما يعرف في لساننا الدّارج بمراية الهند.

(246) الخَصّة : ضُبطت في الأصل بفتح الخاء، وهكذا ضبطت أيضا في رحلة ابن بطوطة، وهي النافورة وترسم الخصه بالسين أيضا وكأنها سمّيت هكذا لشبهها في الشكل بواحدة الخس المعروف.

وأمَرَنِي أعْلا الله مَقامَهُ بأبْياتٍ تكْتَبُ
في سَمَايَةٍ اتخذَهَا لإسْتِخْراج القِبْلَة فَقُلْتُ[247]

بحُـلاَ يُـوسُفِ وَغُـرّ صِفاتِـي ... يُهْتَـدَى لـلِصِّلات أوْ لـلِصَّلاَةِ
فَلِهَاذِي سَيْرُ النَّدَى في النَّـوادِي ... وَلِهَـاذِي سِرّ الهُـدَى في الفـلاَةِ

وقلْـــتُ

أنَـا والمَوْلَى ابْنُ نَصْرٍ يـوسُفٌ ... قِبْلَـةُ الجُـودِ وَقِبْلَـةُ السُّجُـودْ
فَكلاَنَــا لِلهُـــدَى لَكِنَّـــهُ ... يَـهَبُ النَّائِـل دونِـي لِلوجُـودْ

وقلْـــتُ

يَـا عجبًـا لِيُـوسُفٍ يَهْتَـدِي ... بالنجْمِ منّي وَهْوَ شَمْسُ الضُّحَى
أبْدَى كِلاَنَا الهَـدْيَ لَكِـنْ قَضَى ... أنْ أمْنَـعَ الجُـودَ وأنْ يَمْنَحَـا

وقلْـــتُ

طَلَعْتُ نَجْمًـا في سَمـاءِ اليَـدِ ... يُهْـدَى بِـيَ الرَّائِـحُ والمُغْتَـدِي
حَتَّى ابْنُ نَصْرٍ وهْوَ قُطْبُ الهُدَى ... بالنّجْـمِ منّـي لـمْ يَـزل يَهْتَـدِي

وقلْـــتُ

وَمَـا أنَـا أهْـدِي إمَـامَ الهُـدَى ... ولَكِـنْ أشِيـرُ لِمَعْنَـى الصَّوابْ -160-

(247) لم أقف على كلمة سماية فيما رجعت إليه من مراجع ويبدو أنّها مخترع يشبه البوصلة أو أنّها نوع من الأسطرلاب.

فهَــا أنــا ذا صِلَــةٌ لِــلصَّلاَةِ وَلِي عائِـدٌ مِـنْ جَزيـلِ الثَّـوابْ

وقلْــــتُ

يَــا عَجَبًــا لِمَــنْ غَــدَا يَهْــدِي أَئِمَّــةَ الهُــدَى
هَــذا ابْــنُ نَصْرٍ يُــوسُفٌ بِقِبْلَتِــي قَــدِ اقْتَــدَى

وقلْــــتُ

كَفُّ مَـوْلاَي سَحابُ المعْتَفِـي فأنـا نَجْـمُ هُـدًى لِلمُقْتَفِـي
لاَ يُرى النَّجْمُ لَدَى سُحْبِ الحَيَا غَيْرَ في كَفِّ ابْن نَصْرٍ يُـوسُفِ

وأمَرَنِي أيَّدهُ اللهُ بِنظْمِ قِطْعاتٍ تكتَبُ في قَوْسٍ اتخِذَت لمَقامِهِ الكَريمِ أسْماهُ اللهُ فَقلتُ بتَاريخِ 3 ذِي قعدة عام 814

أشْبَـهْتُ قَـوْسَ السَّمـاءِ حُسْنـا وأنجُــمُ الأفْــقِ أسْهُمِــي
وَحُــزْتُ أقْصَى العُلَــى بأنِّــي لِنــاصِرِ الدِّيــنِ أنْتَمِــي

وقلْــــتُ

حَكَيْتُ سَنَا الأفْقِ في بَهْجَتِـي وَصُغْتُ كَوَاكِبَــهُ لِــي نِصَالاَ
وَمِن عَجَبٍ أنَّ وَجْهَ ابْـنِ نَصْرٍ صَبَــاحٌ وَيُطْلِــعُ مِنِّــي هِــلاَلاَ

وقلْــــتُ

رَأْيُ الخَلِيفَــةِ يُــوسُفٍ يَاتِــي وَنَافِــذُ أسْهُمِــي

مِـــن فِكْــــرِهِ أَوْ كَفّــــهِ   لِـــيُصِيبَ شَاكِلَــةَ الرَّمِـــــي

وقلْـــتُ

تُصيبُ سِهَامِـي نحُـور العِـدَى   وَتُدْنِـي سَرِيعًـا بَعيـدَ المَـدَى
وَلِـمْ لاَ تُصيبُ وَقـدْ فَوَّقَتْهَـا   يَـدُ اليُوسُفِـيّ إمَـامِ الهُـدَى

-161- وقلْـــتُ

لَئِن أصْبَحَتْ كفٌّ مَوْلاَيَ أفقًـا   فإنِّـي أطْلِـعْتُ فيـهِ هِـلاَلاَ
وتَنْـقَضُّ فيـهِ سِهَامِـي نجُومًـا   لِرجْمِ العِدَى حَيثُ حَلُّوا حِلاَلاَ

وابْتَدَعَ أيَّدهُ الله أقْداحًا حُمْرًا تَتخَلَّلُ بَعْضًا مِنهَا زُرْقَةٌ وَبعْضَهَا بَياضٌ وكُل ذلِكَ مِن نَوْعِ المَذْهَبِ المَالِقِي فَقلتُ في ذلِكَ بِتاريخِ التاسعِ لرجَبِ الفَرْدِ من عامِ أرْبَعَةَ عَشَرَ وَثمَانِي مائة

يُـوسُفُ الأمْـلاك قَـدْ أبْدَعَنِـي   حُمْـــرَةً مُعْجِبَـــةً في زَرَقِ
فَتَخـــالُ كُلَّمَـــا أبْصَرْتَنِـــي   شَفَـقَ الفَجْـرِ بَـدَا في الأفُـقِ

وفي مثل ذلك

زُرْقَـــةُ لَونِـــي قَـــدْ بَـــدَتْ   تُشْبِـــهُ مَـــاءً في نَهَـــرْ
حَـــفَّتْ بـــه الـــوَرْدُ وَقَـــدْ   طَفَـــا بأعْـــلاهُ الزَّهَـــرْ

وفي ذلِـــكَ

يُـــوسُفٌ أبْدَعَنِـــي   بالَّــــذِي أوْدَعَنِــــي

فَكَأَنِّي قَمَرٌ   فِكْرُهُ أَطْلَعَنِي

وفي ذلك

أَبْدَعَنِي النَّاصِرُ ابْنُ نَصْرٍ   فَجِئتُ وَفْقَ اقتِرَاحِهِ
فَحُمْرَتِي فِي البَيَاضِ وَرْدٌ   أَوْ زَهَرٌ فِي بِطَاحِهِ

وفي ذلك

أَبْدَعَ حُسْنِي يُوسُفٌ   لَمَّا تَجَلَّى وَظَهَرْ
فحُمْرَتِي فِي ذَهَبِي   وَرْدٌ بِهِ حَفَّ الزَّهَرْ

وفي ذلك

جُودُ ابْنِ نَصْرٍ يُوسُفٍ   لِكُلِّ وَعْدٍ مُنجِزِ -162-
إِذْ جَاءَ يَحْيَى عَبْدُهُ   بِمُعْجِبٍ بَلْ مُعْجِزِ

وفي ذلك

بِبَدائِعِ الحُسْنِ التِي   يَحْيَا فُؤادُ الْهَائِمِ
حَيَّا الخَلِيفَةَ عَبْدُهُ   يَحيَى بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ

وبتاريخ الثّاني لِرمَضان عَام سِتَّةَ عَشَر وَثمَانِي مائَة
أمَرَ أيَّدهُ الله بِنظْمِ مَقطُوعَاتٍ تكْتَبُ في طِيقانٍ
مَحْكِيَّةٍ بالجَصّ غَيْرَ مُفتحَةٍ فَقلتُ (*)

الــورْدُ مِــن شَأنِــي ولَكِنَّنِـــي أمْسَكْتُ عَن ذاكَ لِحَــقٍّ وَجَبْ
إذا هَـمَتْ راحَـةُ مَوْلَـى الــوَرَى وَلِلــوِرْدِ أقْصَرتُ بِـــحُسْنِ الأدَبْ

ثَانِيَــة

مالِـي وَلِلــوِرْدِ وبَحْــرُ النَّــدَى لِكَـفٍّ مَــوْلاَيَ انتَمَـى وانـتسَبْ
والغَـيْثُ مَــا أخْلَـفَ إلاّ هَمَـــا فــوقَ البَرَايَــا جُـــودُهُ وانسَكَبْ

ثَالِثَــة

أنَا مَوْرِدٌ ما سُدَّ بَابِي دُونَ مَنْ قَـدْ شاءهُ بُخْــلاً عَلَـــى وُرَّادِهِ
لكِنْ تُـرِكْتُ لأنّ راحَـةَ يُـوسُفٍ غَيْثٌ يَعُمُّ الخَلْقَ صَوْبَ عِهَــادِهِ

رَابِعَــة

لَوْلاَ الحَياءُ مِن ابْنِ نَصْرٍ لَمْ أجِزْ مَنْـعَ النّوال الغَمْـرِ عَــنِ قُصّادِهِ
فَكأنّنِي فَـمٌ صَامِتٍ عَـن نطْقِــهِ أوْ جَفْـنُ عَيْـنٍ هائِـمٌ بِرُقــادِهِ

خَامِسَــة

ان غُلّـقَتْ طِيقَــانُ قُبّتِــي التــي تُبْدِي سَنَا وَجْهِ الصَّبـاحِ المشْرِقِ -163-

(*) يسمى هذا الضرب من الطيقان بالعربية : المشكاة. ومن وظائف الطاقات المفتوحة أن توضع فيها أواني الماء وأما في هذه المحكية فلا. انظر تحليلا ممتعا للطاقات في : أشعار عربية على جدران ونافورات الحمراء للأستاذ الكبير اميليو غرسية غومز ص 50 وما بعدها.

فالزَّهْـرُ أَبْدَعُـهُ الـذِي بِكِمامِـــهِ والـمِسْكُ أَعْبَقُـهُ الـذِي لم يُفْتَــقِ

سَادِسَـةٌ

عَجَبًا أَيْبِدِعُنِـي الخَليفَـةُ يــوسُفٌ مَوْلَـى المُلُـوكِ بِمغْـرِبٍ وَبِــمَشْرِقِ
وَأَرِيهِ رَاحَةَ مانِعٍ أَوْ جَفْنَ مَــنْ هُوَ نائِمٌ وَفَـمَ الـذِي لـمْ يَنْطِــقِ

وَلمَّا حَصَلَ جَبل الفَتْحِ في الإِيَالَة النَّاصِرِيَّة رحَلَ مَوْلاَنَا أَيَّدَهُ اللهُ إِلَيْهِ وأنَا صُحْبَةَ رِكابِهِ العَلِي ومَعي بَعْضٌ مِن الكُتَّابِ فَلَمَّا كُنَّا نَسيرُ في المَرْحَلةِ بَيْنَ سُهَيْل وَمَرْبَلَّةٍ لَيْلَةَ الجمعَةِ الرّابعِ وَالعِشرِينَ لجُمَدَى الأُولى عَام سبعَة عَشَرَ وثمَانِي مِائة وقد ألقَتِ النجُومُ عَلَى البَحْرِ أشعَّةَ ألوارِهَا وأبْقَتْ قِطَعُ السُّحْبِ حَوالَيْهَا تَخْييلاً مِن آثارِهَا وَسَأَلُوا مِنِّي وَصْفَ ذَلِكَ فَارْتَجَلْتُ مُقَطَّعَاتٍ حَفِظَهَا عَنِّي الفَقيهُ الكاتِبُ أبُو عَلي عُمَر بْنُ عُمَرَ وَمِنْهُ قَيّدتُها هُنا بَعْدَ ذلِكَ وَكُلُّهَا مِن غيْر رُؤْيَةٍ وَلا رَوِيَّةٍ[248] الأُولى منْ ذلك.

خَلِيلَـيَّ هَــذِي نجُــومُ الدُّجَـــى جَــوارٍ جَــوَارٍ بَعُـــدْنَ مَنَـــالاَ
وقَـدْ أَشْبَــهَ البَحْــرُ مِــرْآةَ هِنْــدٍ تُـريكَ عَلَـى البُعْـدِ مِنْهَـا مِثَــالاَ

الثَّانِيَـة

أَأَبَا عَلِيٍّ صِفْ لَنَا الشُّهُبَ الّتِـي مَــازِلْتَ تَرْصُدُهَــا بِكُــلِّ طَرِيـــقِ
إِنْ قُلْتَ هُنَّ خَواتِـمٌ قُلْنَـا نَعَــمْ لَكِــن بِأَعْلاَهَـــا فَصُوصُ عَقِيـــقِ

(248) مربلة الواردة في هذه المقدمة ماتزال معروفة بهذا الاسم : MARBILLA وسهيل هي التي ينسب إليها الامام السّهيلي دفين مراكش واسمها اليوم Fuengirola.
ومن المفيد أن الطريق الذي ذكره الشاعر بين غرناطة وجبل طارق هو الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في رحلته. أما الفقيه الكاتب أبو علي بن عمر فلم أجد له ذكرًا فيما وقفت عليه.

الثالثـة

وَقالُوا صِفْ لَنَا شهُبُ الدَّياجِـي لَـدَى أُفْقٍ أطَـلْتُ لـهُ وُقُوفِـي
فَقلْتُ هِـيَ العُيـونُ فَقِيـلَ لكِـن عُيُونُ الزَّنْجِ مِن خِلَلِ السُّجُوفِ(249)

-164-

الرابعَـة

وَشُهْبٍ أشْبَـهَتْ حَلَقَـاتِ دِرْعٍ عَلَـى جَنَبَاتِهَـا أثَـرُ النَّجِيـعِ
وَقَدْ أَلْقَتْ بِمتْـنِ البَحْـرِ لَيْـلاً زَوَاهِرُهَـا أَزَاهِـرَ فِي رَبِيـعِ

الخامِسَـة

مَـا بَـالُ شُهْب الظَّلاَمِ حَاكِيَـةً شُهْبَ جِيـادٍ ثَـنَتْ أعِنَّتَهَـا
فَهْـيَ وإنْ أَخْفِـيَتْ فَوَارِسُهَـا تَشْرَعُ فِي نَقْعِهَـا أسِنَّتَهَـا

السَّادِسَـة

أيُّهَا النَّاظِمُ صِفْ شهْبَ الدُّجَـى إنمَـا أسْبابُهَـا مِـن سَبَـبِكْ
فَحُلاَهَـا فِي سَنَـاءٍ وَسَنَـى وَعُلَـى أو شُهْـرَةٍ مِـن أدَبِكْ

السَّابِعَـة

كَـأنَّ الزُّهْـرَ فِي أُفْـقِ الدَّياجِـي أَزَاهِـرُ لُحْـنَ فِي خُضْرِ البِطَـاحِ
تَأمَّـلْ إنّهَـا أسْرَارُ غَـيْـبٍ تَضَمَّـنَ كَتْمَهَـا صَدْرُ الصَّبَـاحِ

(249) خَلَل : كتب فوقها في الأصل : خلف.

الثامِنَــة

لِلّـهِ أسْفَارُنَـا مَــازِلْتُ أحْسِبُهَــا ... حِينًا فَحِينًا وَحُسْنُ الصبّرِ مِن عُدَدِي

وَالشُّهْبُ فِي أُفْقِهَا طِرْسٌ تَخطُّ بِهِ ... صُفْرُ اليَرَاعَةِ أصْفَارًا مِـنَ العَـدَدِ

التَّاسِعَـة

مَجَــرَّةُ الأفْـــقِ نَهْـــرٌ ... وَالشُّهْبُ فِيهَـــا حَبَـــابُ

وَمَـــا تَجَـــزَّأ مِنْهَـــا ... هَـــــوَادِجٌ وَقِبَـــــابُ

العَاشِرَة

سِرْنَا إلَى الغَرْبِ حَيْثُ الشُّهْبُ مَائِلَةٌ ... كَمِثْلِ مَن يَـرْتَجي اللُّقيَـا ويَنتَظِـرُ

وَبيْنَنَـا نِسْبَـةٌ في السَّيـرِ وَاضِحَــةٌ ... كَادَتْ تجمّعُنَـا لـوْ سَاعَدَ القَــدَرُ

وَسُئِلْتُ قَدِيمًا النَّظْمَ فِي شَمعَةٍ فَقُلْتُ مُرْتَجِلاً

ألاَ بأبِـي شَمْعَـةٌ قَـدْ حَـكَتْ ... سَنَـــا الشمْسِ لاَحَتْ بأفْكِهَـــا -165-

كَخَـوْدٍ تَناثَـرَ مِـنْ عِقْدِهَـــا ... لآلِـــىءُ في جِنْـــحِ أحْلاَكِهَـــا

وقَـــدْ رَفَـــعَتْ فَضْلَ أذْيالِهَـــا ... لِتَلْقُـــطَ جَوْهَـــرَ أسْلاَكِهَـــا

وَقلـــــتُ

ألاَ بأبِـــي شَمعَـــةٌ تُزْهِـــرُ ... لَهَـا نُقَـطٌ في الثَّـرَى تَقْطُـرُ

بِسُوسَنَـةٍ قَدْ حَـكَتْ سُوسَنًـا(250) ... غَـدَا فَوْقَهَـا لِلنَّـدَى جَوْهَـرُ

(250) في الأصل : بسوسنة، وكتبت فوقها الطرّة الآتية : «هي التي تعمل من الكاغد».

وَقلـــــتُ

وللِهِ منّــي شَمْعَــةٌ لاَحَ نُورُهَـــا فأَخْجَلَ في جِنْحِ الدُّجَى الأَنْجُمَ الزُّهْرَا
حَكَيت قَضيبًا قَدْ تَساقَـطَ زَهْـرُهُ وَلاَ عَجَبٌ أن تسقِطَ القُضُبُ الزَّهْرَا

وَحَضَرْتُ الوَليمَةَ المسَمَّاةَ بالثَّالثِ لبَعْضِ الأَوِدَّاءِ في يَوْمِ ثَلْج أَرْسَلَهُ الأُفُقُ وَسُئِلْتُ وَصْفَ ذَلِكَ ارْتِجَالاً فَقُلْتُ وَهْيَ مِنَ النَّظْمِ القَدِيمِ(251)

وَمَجلِس أنسٍ راق خُبْرًا ومَخْبَـرًا كَرَوْضِ الرُّبَى جادَتْهُ سُحْبُ الغمائِمِ
بِهِ كُـلٌّ محْمودِ الخِلال ممجَّـدٍ يُبَخِّلُ في بَذل النَّدَى كفَّ حَاتِمِ
فأَظْهَـرَ منهُـمْ كُـلَّ بَـدْرٍ مُتَمَّـمٍ وأضْحَى إلَى شَمْسِ الضحَى أيَّ كَاتِمِ
مَتَى أَرْسَلَتْ سُحْبُ الغَمَائِمِ دَمْعَهَا لَدَيْهِـمْ أراهُـمْ بَرْقُـهُ ثَغْـرَ بَـاسِمِ
تَسَاقَطَ فيهِ الثَّلْجُ لِـلأَرْضِ مِثْلَمَــا تَنَاثَرَ عِقدُ الدُّرِ مِن كَفِّ نَاظِـمِ
تَخَالُ ثِمَارَ الأَرْضِ فِيهِ فَـوَارِسًا بِخُضْرِ ثِيابٍ تحْتَ بِيضٍ عَمَائِمِ
فَتَحسِبُ أنَّ الأُفْقَ دَوْحٌ تَلاَعَبَتْ بِأزْهَارِهِ في الجَوّ أَيْدِي النَّـواسِمِ
وَشادٍ لَهُ في الحُسْنِ أَرْفَعُ رُتْبَـةٍ تَرَى دُونَهَا أُفْقَ السُّهَا والنَّعَائِمِ(252)
فَغَنَّى وَقَدْ أغْنَى عَنِ السحْرِ صَوْتُهُ وَمَال بِهِمْ مَيْلَ الغُصونِ النَّواعِـمِ
أَتَــوْهُ بمَــا أرْضاهُ بــذْأ وَعَــوْدَةً فأَبْصَرَ مِنهُمْ كَيْفَ بَذْلُ المَكارِمِ -166-
وكانَ عَلى قَـدْرِ المَحـاسِنِ طَالِبًـا فأَلْقَى عَلَيْهِ الجَوُّ بِيضَ الدَّرَاهِـمِ

(251) الثالث : ثالث يوم العروس.

(252) السّها : كوكب من بنات نعش الصّغرى، والنّعائم من منازل القمر.

وَعُودٍ لَـهُ مَهْمَـا تَرَنَّـمَ سَاجِعًـا فَتَلْقَى الخَلِيَّ القَلْبِ حَالَةُ هَائِـمِ
يُميـلُ قلـوبَ العَاشِقِيـنَ صَبَابَـةً فَمِـن بَيْـن مُبْـدٍ لِلغَـرامِ وَكَاتِـمِ
وَمِن قبْلِ أن غَنّى عَلَيْهِ مُهَفْهَفٌ عَلَيْهِ شَدَتْ في الرَّوْضِ وُرْقُ الحَمائِمِ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى مَا تَقَدَّمَ مِن المقْتَرحاتِ قَوْلِي لِتُكْتَبَ في حائِطِيٍّ حَرِيرٍ وهْيَ مِن مُرْتَجَلاَتِ النَّظْمِ القَديم وَالأبيَاتُ كَثيرَةٌ وَجَدتُ مِنْهَا ما ثَبَتَ بَعْدُ وَأكْثَر المنظُومَاتِ مِنْ هَذا وَمَا تَقَدَّمَ من أمْثالِهِ دُونَ مُبَيَّضَةٍ(253)

حَلَلْتُ كَمَا أبْغِي بأسْعَدِ مَنْـزِلِ فمَا أنا عَن شُهْبِ السَّماءِ بمَعْزِلِ
تفتَـحتِ الألْـوانُ منّـي أزَاهِـرًا تُلاعِبُهَـا أيْـدِي جَنـوبٍ وَشمْـألِ
فَلُحْتُ كَمِثْلِ الزّهْرِ والزَّهْرُ في الرُّبَى فَمِنْ مُجْتنٍ يأتِي عَلَى إثْرِ مُجْتَلِ
تَكَامَلْتُ إحْسانًا وحُسْنًا فَمُـبْصِري بِرَغْمِ الأعَادِي في سُرُورٍ مُكَمَّـلِ
فَيا مُبْصِرًا منّي المَحَاسِنَ وَالحُلَى أعِـدْ في جَمَالِي نَظْـرَةَ المتأمِّـلِ
فَيَا طَالَمَا أزْرَتْ صِفاتُ بَدَائِعِـي بِنُـورِ الضُّحَى في أفْقِـهِ المُتَهَلِّـلِ
إذا احْتفَلَ النّادِي وَرَاقَتْ صُدورهُ فَلِي رُتْبَةُ التَّصْدِيرِ في كُلِّ مَحْفِلِ
[إذَا] سُدِلَتْ حَوْلِي السُّتُورُ بِمَنْزِلٍ نَظَرْتُ لَهَا وَالشُّهْبُ دُونِيَ مِنْ عَلِ

(253) الحائطي أو الحيطي كما يقال اليوم، وهو في اصطلاح الأندلسيين والمغاربة عبارة عن الاستار التي تكون على الحيطان الداخلية للقبّة أو الغرفة.

وَمِنَ الإِخْوَانِيَّــاتِ

وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ المَنْظُومَاتِ

والذِي خوطِبْتُ بِهِ مِن النّظمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا -167-

لاَ أحْصِيهِ كَثْرَةً ولكِن لا أُثْبِتُ هُنَا نظْمًا لِسوَايَ

إلاَّ مَا صَدَرَ مِنّي جَوابٌ عَلَيْهِ

فَمِن ذلِكَ مَا كَتَبَ إلَيّ لأوّل انتحَالِي هَذِه الطَّرِيقَةِ الفَقِيهُ

الاسْتاذُ أبُو بَكْرِ بْنُ الأيْسَرِ أبْقاهُ الله عَلَى جِهَةِ الاختبار لأجْلِ صِغَرِ

السّنّ وقدْ سَافَرَ مَولاَيَ الوَالِد وَصَلَ الله عِزَّتَهُ لِمَوضِعِ قَضائِهِ مِنْ بَرجَةَ

في ذَلِكَ العَهْدِ وَبتَاريخِ أوّل رَبيعِ الأوَّلِ عَام تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وسبْعِمِائَةَ

بِمَا نَصُّهُ

أبُو الحسين سَلِيلُ السَّادَةِ البُلَغَا ... بَذَّ السَّوابِقَ في الشَّأوِ الذِي بَلَغَا

السّحْرُ ذَلِكَ أمْ شِعْرٌ بَلَغْتَ بِهِ ... فَفُقْتَ مَن قَدْ عَشَا في السّحْرِ أمْ نَبَغَا(254)

أعْجِبْ بِهِ يَافِعًا في السّنّ مُكْتهِلاً ... في شِعْرِهِ صِبْغَةَ اللهِ التي صَبَغَا

أجِبْ بشَيْءٍ مِن المَنْظُومِ تَبْعَثُهُ ... في اليَوْمِ جَزْل كمَا أنَّ الفَنِيقَ رَغَا(255)

البَدْءُ والوَزْنُ مِنهُ والرَّوِيُّ كَذَا ... فكُل مُصْغٍ لهُ نحْوَ الجَوابِ صَغَا

الشَّمْسُ أنتَ ومَن جَارَاكَ نَجْمُ دُجًى ... يَخْفَى إذا نُورُهَا مِن أفْقِهِ بَزَغَا

فَصابَحْتُهُ بِرسَالَةٍ تَبَتْ في غَيْرِ هذَا التَّقْيِيدِ

إذِ القَصْدُ الاتْيانُ بالنَّظْمِ دُونَ النَّثْرِ إلاَّ مَا

لاَ بُدَّ مِنْ إثْبَاتِهِ وَصَدَّرْتها بِمَا نَصُّهُ

أهْلاً بِقِطْعَةِ شِعْرٍ راقَ مَنظَرهَا ... فكُلُّ قَلْبٍ إلَيْهَا قَدْ صَبَا وَصَغَا

---

(254) أي فقت المُسَمَّيْنْ بالأعشى والنابغة.

(255) الفنيق : الفحل المكرم من الابل.

عَقِيلَةٍ ذَهَبَتْ بالعَقْلِ حِينَ غَـدَتْ يُزْرِي سَنَاهَا بنُور الشَّمْسِ إنْ بَزَغَا
أنَّى بِهَـا أُوحَـدٌ أضْحَتْ فَضائِلُـهُ تَكِـلُّ عَـن مُنتَهَاهَـا ألْسُنُ البُلَغَـا
فَـلاَ بَنَانِيَ يَابَى حَصْرَهَـا أبَـدًا وَلاَ لِسَانِـي إذَا أثنـى عَلَيْهِ لَغَـا
لَوْ أنَّ سَحْبَانَ قد جَارَى بَلاَغَتَهُ أمْ رامَ مِنْهَا بُلوغَ البعْضِ ما بَلَغَا -168-
لاَزالَ مَادَامَتِ الأيَّامُ صُبْحَ هُـدًى يَنالُ مَا يَبْتَغِي فيمَـنْ عَلَيْـهِ بَغَـا

وَخَتَمْتُ الرّسَالَةَ بأبْيَاتٍ نَصُّهَا

الاَ حَيِّهَا فِي حَيِّهَا أوْجُهًـا غُـرًّا فَإنِّي لاَ أنْسَى اغْتِرَارِي بِهَا غِرًّا
وَقُلْ لِي هَلْ تُوسى زَمَانَةُ عَاشِقٍ بِعَـودَةِ أيَّامِ الزمَـانِ الـذي مَـرًّا
تَقَضَّى كَمِثْلِ الطَّيْفِ ان زَارَ فِي الدُّجَى يُرَى عِندَمَا لاَحَ الصَّبَاحُ قدِ ازْوَرَّا
وَهلْ مَا زَجَتْ أنفَاسُ أحْبَابِنَا الصَّبَا وَإلاَّ فَلِمْ رَقَّتْ وَلِمْ عبقَتْ نَشْرَا
أيَا مَنْ لَصَبٍّ قَدْ غَدَا دُرُّ دَمْعِهِ عَلى خَدِّهِ نَظْمًا وَفِي نَحْرِهِ نَثْـرَا
فَمُذْ خَالَهُمْ دُرًّا وَصارَتْ قِبَابُهُـمْ لَهُمْ صَدَفًا أجْرَى مَدامِعَـهُ بَحْـرَا
ومِمَّا أجَـدَّ الوَجْـدَ حُسْنُ عَقِيلَـةٍ تَفُـوقُ جَمَـالاً كُـلَّ غَانيَةٍ عَـذْرَا
فيَـا حُسْنَهَـا مِـن روْضَةٍ أدَبيَّـةٍ غَدَا عَرْفُهَا شِحْرًا وَمَنْظَرُهَا سِحْرَا
لَقَـدْ رَاقَنِـي إجْمَالُهـا وجَمالُهَـا فأصْبَحْتُ مَشْغُوفًا بغُرتهَا الغَـرَّا
فَأبْدَى مُحَيَّاهَا لِيَ البِشْرَ والرِّضَى وَوافَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بالبُشْرَى
وقَدْ راقَ لَوْن الحِبْرِ فَوقَ بَيَاضِهَا كَمَا رَاقَ لَوْنُ الخَالِ فِي وَجْنَةِ العَذْرَا
حَبَانِي بهَا ذُو الفَضْلِ والمَجْدِ والتُّقَى فَطاوَلتُ بالشُّهْبَانِ مِن أُفْقِهَا البَدْرَا
لَئِنْ كَانَ فِينَا شخْصُهُ يَطأُ الثَّرى فَفَوْقَ الثُّرَيَّا مَجْدُهُ قَدْ عَلاَ قَدْرَا
يَـرُوعُ أعَادِيـهِ بـغُصْنِ يَرَاعِـهِ فَتَحْسِبُهَا فِي كَفِّـهِ صَعْدَةً سَمْـرَا
سَقاهَا مُدَامَ الحِبْرِ حَتَّى اسْتَمَالَهَـا فَهَلْ سَجَدَتْ شُكْرًا كَمَا رَجَحَتْ سُكْرَا
لَكَ الفِقَرُ الغُرُّ التِي قَدْ حَبَيْتَنِـي بِهَا فأنَا لاَ أشْتَكِي بَعْدَها فَقْـرَا

وقُدْت قَوافِي الشِّعْرِ طَوْعًا وحُكْتَهَا   فأَبْدَيْتَهَا زَهْرًا وأطْلَعْتَهَا زُهْرَا
أتَتْ والنُّهَى تَصْبُو إليهَا فإنَّهَا   تُطِيعُكَ مَهْمَا تُنفذُ النَّهْيَ وَالأَمْرَا
وَدُونَكَهَا مِنْ صَوْنِ عَقْلِي عَقِيلَةً   مِنَ النَّظمِ فَلْتَبْذُلْ لَهَا السَّمْحَ والبِشْرَا -169-

وَأطْلَعَ عَلَيْهَا جملةً مَنَ الطَّلَبَة حينَ وَصَلَتْهُ فكَتَبَ إلَيَّ أحَدُهُمْ وَيتْلُوهَا شَيْءٌ مَن نثْرِهِ ثركْتُ إثْبَاتَهُ مَعَ النَّثْرِ الذِي رَاجَعْتُهُ بهِ إثْرَ النَّظمِ

نِظامُكَ سَيِّدِي في الحُسْنِ فَرْدٌ   وَلاَ عَجَبٌ فأنت إذًا فَرِيدُ
هُوَ السِّحْرُ الحَلاَلُ وإنَّ قَوْلِي   مِنَ الأَخْبَارِ يَعْضُدُهُ شَهِيدُ
هُوَ البحْرَ الزُّلاَلُ فمَن يَرِدْهُ   يَرِدْ بحْرًا بِهِ نُظِمَتْ عُقُودُ
بِحَظِّكُمُ وَلفْظِكُمُ اعْتِبَارٌ   فكَمْ سَمْعٍ وَكَمْ بَصَرٍ تَقُودُ
طَلاَئِعُهَا بسَبْقِكَ مُوذِنَاتٌ   فَيَا لِلَّهِ مَطْلِعُكَ السَّعِيدُ
وَكَمْ أمَلٍ سَتَبْلُغُهُ قَرِيبًا   وَيخْدُمُكُمْ عَلى الرَّغْمِ الحَسُودُ

فَأَجَبْتُهُ مُرْتَجِلاً

زَمَانُ وِصالِهِ هَلاَّ يَعُودُ   وكَيْفَ وَطَيْفُهُ مَا إنْ يَعُودُ
هو الظبْيُ الذي أمْسَتْ جُفُونِي   تُسَهِّدُهَا لَوَاحَظُهُ الرُّقُودُ
ألاَ بأبِي عُهُودٌ قَدْ تَقَضَّتْ   فَهَلْ دَهْرٌ بعَوْدَتِهَا يَجُودُ
سَقَى عَهْدَ الأحِبَّةِ عَهْدُ دَمْعٍ   إذا مَا الغَيثُ أخْلَفَهُ يَجُودُ
فَفِي تِلْكَ المَعَاهِدِ سَانِحَاتٌ   ظِبَاءٌ تُرْهِبُ الآسَادَ غِيدُ
ومِن تِلكَ البُدورِ بهَا وُجُوهٌ   وَمِن تِلكَ الغُصُونُ بِهَا قُدُودٌ
وَرُبَّ عَقِيلَةٍ مَلَكَتْ فُؤَادِي   لَهَا في حُسْنِهَا شَأْوٌ بَعِيدُ
لَقَدْ عَذُبَتْ مَوَارِدُهَا وَساغَتْ   فأضحَى لِلظِّمَاءِ بهَا وُرُودُ

لَقَدْ نَقعَتْ غَلِيلَ الشَّوْقِ لمَّا   غَدا بَينَ الضُّلُوعِ لهُ وُقُودُ
عَلَى حُكْمِ الوِدَادِ بهَا حَبَانِي   صَدِيقٌ في فَضائِلِهِ وَحِيدُ -170-
أَقرَّ لهُ العِدَى بالفَضْلِ طُرًّا   وَهَلْ لِلشَّمْسِ إن لأَحَتْ جُحُودُ
لَقَدْ زَانَ النِّظَامَ وَلمْ يَزِنْهُ   وَرُبَّتَمَا يَزِينُ السِّلْكَ جِيدُ
فدَامَ مَدَى اللّيَالِي في سُعُودٍ   عَلَى رَغمِ الحَوَاسِدِ لاَ تَبِيدُ

وَأطلَعْتُ الشَّرِيفَ المعَظَّمَ أبَا العَبَّاسِ الحسَنِي وَصَلَ اللهُ رِفْعَتَهُ عَلى قَصائِدَ مِن نظْمِي فكتَبَ لِي مَا نَصُّهُ[256]

تَبَارَكَ اللَّهُ مِن نجْلٍ قَدِ اجْتَمَعَتْ   مَحَاسِنُ الأبِ فِيهِ وَهْوَ يَزْدَادُ
فَلاَ بَرِحْتُ أرَى مِنكَ الذِي عَلِمتْ   عَنْ جَدّه المُنتَقَى مِصْرٌ وَبَغْدَادُ[257]

المُرَاجَعَةُ عَلى ذَلِكَ لُزُومِيَّة فِي آخِرِ رَجَب الفَرْدِ مِنْ عَامِ تسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمائة

سَمْعًا فإنْ عُدّدَتْ أوْصَاف مَجْدِكُمُ   لاَ يأخُذُ الشُّهْبَ إحْصاءٌ وَتَعدَادُ
مِنَّا الصَّلاَةُ عليْكُمْ وَالسَّلاَمُ إذَا   مَا كَان لِلذِّكْرِ في الأفْوَاهِ تَرْدَادُ
وَالحَقُّ مرْتَقى السَّبْعِ الطِّبَاقِ لكُمْ   لاَ زُخْرُفٌ شَادَهُ عَادٌ وَشَدَّادُ

(256) الشريف أبو العباس الحسني هو ولد أبي القاسم الشريف السبتي وترجمته وأخبارُه في الكتيبة الكامنة ونيل الابتهاج ونفح الطيب وجنّة الرضى، ووقع النقل عنه في المعيار للونشريسي، وفي مظهر النور الباصر جملة من شعره الذي قاله في المناسبات، وقد ولي خطّتي الكتابة والقضاء من عهد الغني بالله فمن بعده.

(257) يشير الشريف إلى شهرة جدّ والد الشاعر قاضي الجماعة أحمد ابن فركون.

تُزْهَى بجَدَّيْكُمْ السِّبْطيْن في مَـلإٍ ... مِـن الرّسالـةِ آبـاءٌ وَأجْـدَادُ(258)
وتَجْتَلِي النُّورَ نُورَ اللهِ أوْجُهُكُـمْ ... وَيحرمُ الفَـوْزَ كُفَّـارٌ وَأضْدَادُ
إنَّ الرَّضِيَّ لكُـمْ وَالمرْتَضَى نَسَبٌ ... يَزْدَانُ مَظْهَرُهُ نُـورًا وَيَـزْدَادُ(258 م)
فَمَن يجَاري مَداكُمْ والسَّبَاقُ بكُمْ ... لَهُ مِنَ العَالَمِ العُلْوِيّ إمْـدَادُ
مَالِي يَدانِ بشُكْرِي مِن نَدَى يَدِكُمْ ... رُحْمَى لهَا السُّحْبُ أكْفاءٌ وأنْدَادُ
لأزَالَ إجْمَالكُمْ لِي عُدَّةً أبـدًا ... تَتْـرَى بغَيْـرِ ثَنَـاهِ منْـهُ أعْـدَادُ -171-

وَكَتَبْتُ إليْهِ أبْقَاهُ اللهُ وقَدْ وُلِدَ
لهُ مَوْلُودٌ في التَّاسِعِ لِرَجَبٍ مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وثَماني مائَة

سَمعًا فقَدْ نَطَقَ اللّسَانُ المفْصِحُ ... بِبَشائِـرٍ غَايَاتُهَـا لاَ تُشرَحُ
فَالكَوْنُ مـن طَرَبٍ بهَا مُتَهَلِّلٌ ... وَمَلاَمِـحُ الدنْيَـا بهَـا تُتَلَقَّـحُ
وَالأفْـقُ أبْـدَاهُ الظَّـلاَمُ حَديقَـةً ... فَالزُّهْـرُ أزْهَـارٌ بِـهِ تَتَفتَّـحُ
وَالرَّوْضُ يَرْفُلُ في غَلاَئِلِ سُنْدُسٍ ... غُصْنُ النَّقَـا مَـا بَيْنَهَـا يتَرَنَّـحُ
يا مَن لهُ البَيْتُ العَتيقُ وَزَمْـزَمٌ ... وَمِنًـى ومَكَّـةُ دَارُهُ وَالأبطَـحُ
أهِيَ المَآثِرُ حَيْثُ قَامَ خَطيبُهَـا ... أمْ طِيبُ هَبَّاتِ الخَمائِل يَنْفَـحُ
وَهِيَ المَفاخِرُ في النَّدَى أوْ فِي الهُدَى ... مُتَفَجِّـرٌ لكَ فَجْرُهَـا المتَـوَضِّحُ
لَـوْ مَثَّلوهَـا لِلوُفـودِ لآلِئًـا ... لَتَخَتَّمُـوا بنَظِيمِهَـا وَتَوَشَّحُـوا
حَيْثُ البُدُورُ تَـوَدُّ في آفَاقِهَـا ... لَـوْ أنَّهَـا بسَنَائِهَـا تَسْتَصْبِـحُ
يَا وَافِدًا من عَالم الأكْوانِ هَـلْ ... رَوْضُ الوُجُودِ وَقَدْ أتيتَ مُصَوَّحُ

---

(258) تزهى، وردت في الأصل ناقصة هكذا : هَى، والجدّان السبطان هما الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد ذكر الرّاعي الغرناطي أن أمّ السيد أبي المعالي كانت حُسَينية فكان شريفًا من الجهتين كما نصّ على أن أبا العباس هو شقيق لأبي المعالي ؛ وإذن فأمّهما معًا حسينية.

(258م) يشير إلى الشريف الرّضِي وأخيه الشريف المُرْتَضَى.

يَا صُبْحَ هَدْيٍ سَاحِبًا ذَيْلَ العُلَى ... تَشْدُو الرِّفَاقُ بِذِكْرِهِ وَتُسَبِّحُ
يا ابْنَ الذِي تَسْرِي الرِّكَابُ وَجَاهُهُ ... ظِلٌّ ظَلِيلٌ وَالهَوَاجِرُ تَلْفَحُ
يَا سِبْطَ مَنْ حَازَ النُّبوءَةَ والهُدَى ... وَبِنُورِه غَصَّ الفَضَاءُ الأَفْيَحُ
هَلْ فِي مَكَانَتِهِ التِي قَدْ نَالَهَا ... جِبْرِيلُ يَطْمَعُ أَوْ إِلَيْهَا يَطْمَحُ
إِنْ كُنْتَ مَبْغُومَ الجَوابِ فَإِنَّنِي ... أَبَدًا أُنَادِي مُثْنِيًّا وَأُصَرِّحُ
لِلّهِ مِنْكَ مَنَاقِبٌ أَحْرَزْتَهَا ... كَالشُّهْبِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ تُلَوِّحُ
أَوَ لَيْسَ وَالدُكَ الَّذِي آثَارُهُ ... أَحْلَى مِن الصُّبْحِ المُنِيرِ وأَوْضَحُ
هَيْهَاتَ لِلشَّمْسِ المُنِيرَةِ هَدْيُهُ ... والشَّمْسُ تَحجُبُهَا السَّحَابُ وَتُوضِحُ
أَوْ هَلْ تُجَارِي كَفَّهُ سُحُبُ الحَيَا ... وَالطَّبْعُ أَكْرَمُ والسَّجِيَّةُ أَسْمَحُ
وَأبو المَعَالِي عمُّكَ العَلَمُ الَّذِي ... لِمحَلِّهِ مَا لِلكَواكِبِ مَطْمَحُ(259) -172-
لَوْلاَ مَآثِرُهُ الكَرِيمَةُ لَمْ تَكُنْ ... خَيْلُ اليَرَاعَةِ فِي مدَاهَا تَجْمَحُ
هَذا وَجَدُّك أَوْحَدُ الدَّهْرِ الذي ... عَن جُودِهِ تُرْوى السَّحابُ الدُّلحُ(259م)
عَلَمٌ بِحَمْلِ العِلْمِ زَادَ تَوَاضُعًا ... ووَقَارُهُ أَعْلاَمَ رَضْوَى يَرْجَحُ
فَالحِلْمُ مِنْهُ سجِيَّةٌ مَعْهُودَةٌ ... والعِلْمُ مِنْهُ دِيمَةٌ تُسْتَمْنَحُ
فَاهْنَأْ بِهِ ولَكَ البَقَاءُ مُخَلَّدًا ... وَالسَّعْدُ يخْفقُ وَالمَقَاصِدُ تَنْجَحُ
فَلِحُبِّكُمْ يَا آل بَيْتِ محمد ... بَيْنَ الجَوَانِحِ كُلّ قَلْبٍ يَجْنَحُ
أَوَ مَا بِذاكَ اللّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ ... يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ العَظِيمِ وَيَصْفَحُ
وَإِلَيْكَهَا غَرَّاءَ رَاقَ جَمَالُهَا ... فَالعَيْنُ مِنهَا فِي رِيَاضٍ تَسْرَحُ
أَلْفَاظُهَا وُرْقٌ لَدَى أَوْرَاقِهَا ... بالحَقِّ تَصْدَعُ أَوْ بِحَمْدِكَ تَصْدَحُ
لاَزِلْتَ يا مَعْنَى الفَضائِلِ آمِنًا ... وَاللّهِ يُعْطِي مَا تَشاءُ وَيَمْنَحُ

---

(259) أبو المعالي هو أخو أبي العباس أحمد، وسيذكر أيضًا بعد قليل.

(259م) الدلّح جمع دالح، وهو السحاب الكثير الماء، وجدّ المولود هو الشريف أبو القاسم السبتي المشهور.

وَكَتَبَ إلَيَّ أخوهُ قَاضِي الجَمَاعَةِ الشَّرِيفُ المعظَّمُ أبو المعالي أبْقَى اللهُ حُظْوتَهُ وقَدْ تَقدّمَ في ذلِكَ العَهْد لِلكِتابَةِ السُّلْطَانيّة دُونِي مَن آثَرَهُ صَاحِبُ الخطَّةِ في الوَقتِ بهَا مَا نصُّهُ في مُحَرّم عَام خمسةٍ وثماني مِائة(260)

أَبَا الحُسَيْنِ الَّذِي أَضْحَتْ مَحَبَّتُهُ ... لَـدَيَّ خَالِـدَةً في جَنَّـةِ الخَلَـدِ

اسْمَــحْ بِقَافِيَــةٍ رَقَّتْ سَلاَفَتُهَــا ... تَسْرِي مِنَ الرُّوحِ مسْرَى الرُّوحِ في الجَسَدِ

أَلَـيْسَ قَلبِـيَ ظَمْـآنٌ لِمَشْرَعِهَـا ... فإنَّـهُ شَبِـمٌ يَنْـدَى عَلَـى كَبِـدِ

واصْبِرْ فعمَّا قَرِيبٍ أنتَ وَارِدُ مَا ... تَهْوَى مِنَ العزّ غَمْرًا غَيْرَ مَا ثَمَدِ

وَلاَ يَـهِضْكَ بتَـاخِير تَقَدُّمُهُـمْ ... إنَّ الفَـذَالِكَ تَاتِـي آخِـرَ العَـدَدِ

وَكَمْ جَـواد جَيَـادُ الخَيْـلِ تسْبِقُـهُ ... أولَى الرِّهَانِ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى الأمَدِ

وَاللّهِ يَهْدِيَكَ هَدْيَ الصَّالِحينَ لِمَا ... فيهِ فَلاَحُكَ مِن تَقْوَى ومِن رَشَدِ -173-

(260) هو الشريف الحسني أبو المعالي محمد ولد الشريف السبتي، ذكر في ترجمة أخيه الواردة في نيل الابتهاج : 76 نقلا عن الكوكب الوقاد للحضرمي، ونقل المقري في النفح عن كتاب الفتح المنير للرّاعي حكايةً تتعلّق بهذا الشريف، وهي «أنَّهُ كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات، وتجرّد للعبادة، ولبس المرقّعة، وسلك طريق القوم، وكان من رجال الدين والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا والآخرة على جانب عظيم، يشار إليه بالأصابع» قال الراعي : «وكان اخوه شيخي وأستاذي أبو العباس أحمد قاضيًا.. فكان أخوه أبو المعالي لا يأكل في بيت شقيقه شيئا لأجل ذلك ولعيشه من خِدَم السلطان، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهمًا من عنده أشتري له به ما يأكل، وأقام على هذه الحالة سنين كثيرة» ثم انه مَرَّ ذات يوم بباب أحَدِ أصحاب الأشغال المخزنية وكان مطلوبا للمصادرة ومختفيا فنادى الشريفَ من شقة الباب مستنجدًا ببركته فقال له اذكر الذكر الفلاني، ومن ذلك اليوم فقد الشريف نوره الباطني فشكى إلى فقراء زاوية المحروق بغرناطة وحكى لهم ما وقع منه فأجابه أحدهم بأنه لقّن ذكْرًا لم يكن له إذن في تلقينه فلا يعود إليه نوره أبدًا، «فكان كما قال، فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة وعزل عن سخط وخدم الملوك وأكل طعامَهم وحالته أوّلاً وآخرًا مَعروفة بغرناطة» (نفح الطيب 5 : 198 ـــ 199) ومهما يكن أمر هذه الحكاية فإنها تكشف عن أطوار حياة أبي المعالي وطبيعة ذلك المجتمع المضطرب وأثر أهل الزوايا فيه.

الجَـــوابُ على ذلِكَ

أهَلَّ بالرَّوْضِ سِرْبُ الطَّائِرِ الغَـرِدِ بمَا انتَضَى نَهْرُهُ مِن سَيْفِهِ الفَرْدِ
فَهَـزَّ مثنَـــى جَناحَيْـــهِ وَحَثَّهُمَـــا حَثَّ المُسَابِقِ لِلأَقْصَى مِن الأَمَـدِ
عَهْدِي بِـهِ وَارِدًا أكْـوَاسَ غَادِيَـةٍ تُقَسِّمُ الرَّاحِ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ
وَلَحْظُهُ يرْتَعِي المَرْعَى المَجُودَ بهَا وَجِيـدُهُ يَزْدَهِـي بالحَلْـي وَالغَيَـــدِ
خَيَّلْتُهُ حِيـنَ أبْـدَى لِي بَدَائِهَـــهُ أنِّـي زُهِيتُ بعِقْـدٍ مِنهُ منـــتَضِدِ
أوْ أنَّ عَارِفَةً وَافَى الشَّرِيفُ بهَـا فأَحْـبَسَتْ أمَلِـي بالعَـدِّ والعُــدَدِ
مَالِـي وَلِلـرَّوْضِ أسْتَهْـدِي أزَاهِـرَهُ وَالزُّهْرُ في أُفُقِ العَلْيَاءِ طَوْعُ يَدِي
حَسْبِي هَدِيَّةُ سِبْطِ المصْطَفَى شَرَفًا تَهْدِي وَتَنقُلُ مِن زَيغٍ إلَى رَشَدِ
ألا أجِيدُ قَرِيضِي وَهْوَ لِي عَضُدٌ لاَ يُنْهِضُ الرُّمْح إلاَّ شِدَّةُ العَضُدِ
ألاَ أرُدُّ خَصِيمَ القَوْمِ إذْ حَسَدوا وَقَدْ مَضَى عذْلُهُ بالبغْي وَالـحَسَدِ
وَسَلَّ في حَرْبِ مَن عَادَى مَوَاضِيَهُ وهَـزَّ كُـلَّ قَوِيـمِ القَـدِّ مُطَّــرِدِ
بصَالِحٍ من دُعـاءٍ يَرْتقِـي صُعُـدًا عَليـهِ في طَـلَبِ العَلْيَـاءِ مُعْتَــدِي
أقُولُ يَـا نَـاشِدَ الدُّنْيَـا وَزُخْرُفِهَــا لقَدْ كَفَـتْكَ يَـدَاهُ جُهْـدَ مُجْتَهِـدِ
أبُــو المَعَالِــي مَعالِيــهِ مُقَــدَّسَةٌ في جَنَّةِ الخُلْدِ مِنْهُ فِكْرَةُ الخَلَـدِ
قَصْدًا فَمَعْلَمُـــهُ لِلبِـــهِ عَالِمُـــهُ بكُـلٍّ مَـا لَـمْ يَنَلْـهُ نَقْـدُ مُنْتَقِـدِ
يَدْعُو بنَا مَعْشَرَ الأبناءِ إنَّ لكُـمْ لوَالِـدًا مُشْفِقًـا لِلأهْـلِ وَالوَلَـــدِ
وَحَـيْـثُ يُهْدِيكُـمُ أبْيَاتَـهُ مِدَحـا فالشُّكْرُ ما بَيْنَ مَشْفُوعٍ وَمُتَّحِدِ
فَيَا عَمِيدَ بَنِي البَيْتِ الكَرِيمِ لَقَدْ أصْمَتَّ بالفَخْرِ رَغْمًا ألْسُنَ اللُّدَدِ[261]
وجِئْتَ بالشِّعْرِ فالشِّعْرَى بسَاحَتِـهِ في جَمْعِ مُحْتَشِدٍ يَعْنُو لِمُنْفَـرِدِ
مُمتَـدَّةٌ في العُلَـى أطْنَابُـهُ فَأنَـا أدْعُو لِرَافِعِ عُلْيَاهَـا عَلَى عَمَـدِ

---

(261) عميد البيت أو الأسرة أو الأخوة يكون عادة هو الأكبر سنا، ولكنّ صاحب الكوكب الوقاد يقول أن أبا العباس أحمد هو أكبر الأخوين. نيل الابتهاج : 76

وأسْأَلُ اللهَ في طُولِ البَقـاءِ لَـهُ ... سُؤَالَ عَبْدٍ على مَـولاهُ مُعْتَمِـدِ -174-

ثُمَّ زادَ أبْقَاهُ اللهُ أبْيَاتًا عَلى أبْياته المُتَقَدِّمة وأعادَهَا إليّ قاصِدًا التَّأنيسَ

أبَا الحُسَيْن الذِي أضْحَتْ مَودَّتُـهُ ... لَـدَيَّ خالِـدَةً في جَنَّـةِ الخَلَـدِ

باكِـرْ بِقافِيـةٍ زهْـراءَ صَافِيَـةٍ ... تسْرِي مِنَ الرُّوحِ مَسْرَى الرُّوحِ في الجَسَدِ

أقولُ ان كَرَعَتْ نَفْسِي بِمَشْرِعِهَا ... للِهِ مِن شَبِمٍ يَنْدَى عَلى كَبِـدِ

تَغدو بِهِ المُزْنَـةُ الوَطْفَـاءُ مُغْدِقَـةً ... كَأنّما الرّسْلُ مِنْهَـا شِيبَ بالبَـرَدِ

أرْوَى السُّراةَ أخُو الحَيّ الحِلاَلِ بِهِ ... دأْبًا فَمَـا بَالُـهُ مِمَّـا اقتنَـوْهُ صَدِ

ألاَ أُنادِي بنـادِي القَـوْمِ وَاحَربَّـا ... يَا لَلرّجَالِ أمَا بالرَّبْعِ مِن أحَـدِ

اللّه في حُرْمَةٍ دانَتْ قَرَيْشُ بهَـا ... وَمَـا جُوَارُهُـم فِيكُـمْ مُضْطَهَـدِ(262)

مُدُّوا يَدًا نحْوَهُمْ بالبَحْرِ طَافحَـةً ... لاَ يَنثَنِي مَدُّهَا بالجَزْرِ عَنْ مَـدَدِ

أبَا الحُسَيْن رُوَيْدًا سَوْفَ تَنْهَلُ مِن ... وِرْدِ الأمَانِي غمْرًا غَيْرَمَـا ثَمَـدِ(263)

وَتبلُغُ الغايَةَ القُصْوَى عَلَى مَهَـلٍ ... إلَـى ذُرَى رُتَـبِ العَلْيـاءِ فَاتَّئِـدِ

فَـلاَ يَـهِضْكَ بتَـاخِير تَقَدُّمُهُـمْ ... إنَّ الفَذَالِكَ تَاتِـي آخِـرَ العَـدَدِ(264)

وكَمْ جَوادٍ جِيَـادُ السَّبْقِ تَقْدُمُـهُ ... أولَى الرّهَانِ قَدِ اسْتَولَى على الأمدِ(265)

هَـذا عَلَـى أنّهَـا الأقْـدَارُ رُبَّتَمَـا ... تَاتِيكَ عَنْ كَثَبٍ طَوْرًا وعن بُعُدِ

فَحَسْبُكَ اللّهُ فِيمَا أنتَ نَاشِدُهُـمْ ... فَاسْتَوْثِقَـنَّ بحَبْـلِ الوَاحِـدِ الأحَـدِ

---

(262) يشير الشريف إلى انتساب ابن فركون إلى قريش.

(263) الغمر : الكثير، والثمد : القليل.

(264) الفذالك جمع فذلكة، وهي قول الحاسب في آخر الحساب : فذلك كذا وكذا.

(265) أمد السباق : غايته، واستولى على الأمد : غلب على منتهاه وهذا من قول النابغة : سَبْقَ الْجَوادِ إذا اسْتَولَى عَلى الأمَدِ.

وَخُصَّ بالدُّرِّ مَدْحَ المُصْطَفى وَكَفَى   بهِ عَتَادًا لِما تَرْجُوهُ مِنْ صَفَدِ[266]

وَكُنْ بِهِ فِي المَنالِ الصَّعْبِ مُعْتَضِدًا   فَجاهُهُ المَوْئِلُ الأَحْمَى لِمعْتَضِدِ

واجْعَلْ شَفاعَتَهُ دُنْيا وَآخِرَةً   عِمَادَ مُسْتَمْسِكٍ في كُلِّ مُعْتَمَدِ

فإنَّهَا عُمْدَةُ اللّهِ الَّتِي فَزِعَتْ   يَوْمَ المَعادِ إلَيْهَا جُمْلَةُ العُمَدِ

مَنْ يَسْتَنِرْ بِمَنارٍ من شَرِيعَتِهِ   في مُدْلَهِمٍّ دُجَى لَيْلِ الضَّلاَلِ هُدِي

وَفَازَ بالأمْنِ في دَارِ السَّلاَمِ غَدًا   مَن أَمَّ مَنْهَجَهُ الأَهْدَى ولَمْ يَحِدِ -175-

فَصِلْ صَلاَتَكَ تَرْدَادًا علَيْهِ تَنَلْ   رُحْمَى الإلاَهِ وَمَهْمَا تَسْتَزِدْ تُزَدِ

وَاللّهُ يَهْدِيكَ هَدْيَ الصَّالِحِينَ لِمَا   فِيهِ فَلاحُكَ مِنْ تَقْوًى وَمِن رَشَدِ

وَكَتَبَ إليَّ أَبْقاهُ اللهُ إثْرما وَلِي مَولاَنا النّاصِرُ لدينِ اللهِ الخِلافَةَ واظهَر عَلى عَبْدِهِ أثَرَ القبول وَفاتَحَ بتَبْلِيغِ الأَمَلِ وَالسُّول

أبا الحسيْن الذي أُخْفِي مَحَبَّتَهُ   في طَيِّ قَلْبِيَ أحْيانًا وَأُبْدِيهَا

تُهْدِي إلَيْكَ مَعَ الأَرْوَاحِ إذْ نَسَمَتْ   مِسْكَ السَّلامِ فَماذَا أنتَ تُهْدِيهَا

ان قُلْتَ دُرًّا وَياقُوتًا فَمَعْدِنُهُ   كَمَا عَلِمتَ مَحُوزٌ تحْتَ أيْدِيهَا

فاحْتَلْ لنفسِكَ فِيمَا تُتْحِفَنَّ بِهِ   كَلاًّ أَوِ اسْتَرْشِدِ الأَعْلاَمَ تَهْدِيهَا[267]

الشَّمْسُ بالرُّبْوَةِ الحَمْراءِ مُشْرِقَةٌ   كَمْ نِعْمَةٍ لِلْهُدَى لاَرَيْبَ تُسْدِيهَا[268]

---

(266) صَفَد : عطاء.

(267) استرشد، قد تكون : استرقد، كما يستفاد من قول أبي الحسين الآتي في جوابه : مشيرةٌ بالْتِماسِ الرِّفد من علمٍ. واسترفد : طلب الرفد والعطاء.

(268) الربوة الحمراء : يقصد بها قصر الحمراء، والشمس المشرقة عليها : الملك.

فَراجَعْتُــه بقَصيدةٍ لزُوميَّةٍ

مِثْل أبْيَاتِي المُتَقَدِّمَةِ

هِيَ الدِّيَارُ فَمَـا تَبْدو بَوَادِيهَـا ... إلاَّ اهْتَـدَى كُـلُّ هَيْمَـانٍ بِوَادِيهَـا

مَعَاهِدٌ قُدِّسَتْ أَرْضًا فَقَدْ ضَمِنَتْ ... رِفْـدًا لِقَاصِدِهَـا وِرِدًا لصَادِيهَـا

كَمْ قَدْ دَعَتنا إلَى السُّقْيَا مَوَارِدُهَا ... وإنْ عَدَتْنَا عَنِ اللُّقْيَا عَوَادِيهَـا

أهْدَتْ بِطيِّ صَبَاهَا مِن صَبَابَتِنَـا ... أمَانةً لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُوَدِّيهَـا

كَمْ قُلِّبَتْ مِن قُلُوبٍ فِي أَبَاطِحِهَا ... وكَـمْ تَشَكَّتْ نَواهَـا فِي نَوادِيهَـا

فالوَجْدُ جَدَّ بهَا لَوْ كَان يُنْجِدُهَا ... وَالصَّبْرُ لأذَتْ بِهِ لَوْ كانَ يُجْدِيهَا -176-

هَذَا وَإنَّا إلَى عَذْرَاءَ قَدْ وَفَـدَتْ ... تُرْتَـاحُ شَوْقًـا وَبـالأرْواحِ نَفْدِيهَـا

عَقيلَةٍ قَـدْ تَجَلَّـى حُسْنُهَـا فَجَـلاَ ... مِرآةَ فِكْرِي فَلَيْسَ الدَّهْرُ يُصْدِيهَا

تَخْتَـالُ مَوْشِيَّـةَ الأبْـرَادِ رُبَّتَمَـا ... وَشَى بهَـا وَشْيُهَـا لَـوْلاَ تَهَادِيهَـا

نَادَيْتُهَـــا جُـــودِي وَمُبْتَـــذَلٌ ... فِينَا نَداهَا كَمَا قَـدْ عَزَّ نادِيهَـا

إنَّ المُنَادَى هوَ المَطْـولُ واعجَبًـا ... مَابَال هَاتِـيكَ مَمْطـولٌ مُنَادِيهَـا

لِلِهِ هَادٍ إلى قَصْدِ السَّبِيلِ هَـدَى ... أفْكَارَ فكْـرِي بمَـا مِنهَـا يُهَادِيهَـا

أرْواحُنَـا جَعَـلَتْ ذُخْـرًا مَحَبَّتَهَـا ... تُرِيحُهَـا يَـوْمَ يبْديهَـا تُنادِيهَـا

شَرِيفَةُ المنتَمَى فِي الآخريـنَ أَتَتْ ... وأُحْـرَزَتْ منتَهـى العَلْيَـا مَباديهَـا

صَدَّتْ طَويلاً ولكِن عِنْدَمَا رَضِيَتْ ... أضحَى إلى مُرْتَضَى اللُّقْيَا تَصَدِّيهَا

سِبْطُ النبـيِّ حَبانِـي مِـن عَقائِلِـهِ ... بِبِنْتِ فِكْرٍ يَرُوقُ السمْعَ شادِيهَـا

مُشيرَةٌ بالْتِمَاسِ الرِّفْدِ مِـنْ عَلَـمٍ ... مَا ضَلَّتِ الخَلْقُ قَصْدًا وَهْوَ هَاديهَا

قَدْ لاَحَ بالرُّبْوَةِ الحمراء شَمسَ هُدًى ... فَلَيْسَ يَخْفَى عَنِ الأبصَارِ بَاديهَـا

فَمَا قَبضْنَا اللُّهَـى لـوْلاَ مَكارِمُهَـا ... ولاَ بَسَطْنَـا يَـدًا لـوْلاَ أيَادِيهَـا

هذِه الخِلاَفَةُ قَـد أعْلَـى مَعالِمَهَـا ... فأيْـنَ مَهْدِيُّهَـا منـهُ وهَادَيهَـا

هذِي البَلاَغَـةُ انْ وافَتْ كَتائِبُهَـا ... يكُـفُّ قُسُّ إيَـادٍ بَـطْشَ أيْدِيهَـا

هذِي السَّماحَةُ إنْ جَفّتْ مَوارِدُهَا من كَفٍّ حاتِمِهَا تَندَى غَوادِيهَا
هذِي المَعارِفُ انْ ضَلّتْ كَواكِبُهَا أشِعَّةُ الصُّبحِ تَهْديهَا وَتُهْدِيهَا
هذِي العُفاةُ إذا تَغْدُو مُؤَمّلَةً هذِي العُداةُ إذا يَبْدُو تَعَدّيهَا
يَجُودُهَا سَيْبُهُ طَوْعًا وَيُرفِدُهَا يَرُدُّهَا سَيْفُهُ قهْرًا وَيُرْدِيهَا
سنَا تَهَلُّلِهِ بَادٍ لِسائِلِهِ إنَّ البُروقَ غَوَادِيهَا تُعَادِيهَا
فكلُّ بَارقَةٍ للْجُودِ يُبْدِعُهَا وكُلّ شارِقَةٍ لِلبَشْرِ يُبْدِيهَا
هَل نِعْمَةٌ أوْ يَدٌ تَاتِي وقَدْ سَلَفَتْ إلاَّ ونَاصِرُ دينِ اللهِ مُسْدِيهَا
المُنْعِمُ المَلِكُ الأعْلَى الذِي وكَفَتْ كَفَّاهُ جُودًا وَقَدْ كُفَّتْ أعَادِيهَا
ثَنَى لبَذْلِ النَّدَى في الخَلْقِ راحَتَهُ فَظَلّ رائِحُهَا يُثْنِي وَغَادِيهَا(268م)
لأزالَ مَوْلأيَ يُبْدِي مِن مَكارِمِهِ ما يُبْهِجُ الدِّينَ والدنيَا تَمادِيهَا
حَمائِمُ الفكْرِ في رَوْضِ النِّظامِ غَدَتْ صَوادِحًا بالنَّدَى تَرْوِي صَوادِيهَا

وكَتَبَ إليّ أيَّام إقامَتِنا جَميعًا بمَالَقَةَ صُحْبَةَ الرّكابِ العَلِيّ أسمَاهُ اللّهُ في شأنِ الزّيارَةِ وَتجْدِيدِ المَوَدَّةِ وَبِتاريخ اليَوْمِ الثّانِي عَشَرَ لِشَعْبان من عَامِ ثلاَثة عَشَر وثمانمائة(269)

حَيَّا حِمَى الرَّوْضِ البَلِيلْ نَفَسٌ أبَلَّ بِهِ العَلِيلْ
فَتشَوَّقت بِكليْهِمَا نَفْسُ الخَلِيلِ إلَى الخَلِيلْ
يا لَيْتَ شِعْرِيَ هَلْ إلى لُقْيَا الأحِبَّةِ مِن سَبِيلْ
وَطَنٌ وحَيٌّ جَامِعٌ وَنَوًى تَشَعَّبَ بِالقَلِيلْ
مَا هَكَذا عَهْدُ الأُلَى عَهْدِي بِهِمْ في كُلِّ جِيلْ

(268م) انظر قوله هذا مع أنّ أبا تمّام يقول :
تعَوّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتّى لَوْ أنّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أنامِلُهْ
(269) راجع ما تقدم في موضوع مقام السلطان بغرناطة في التاريخ المذكور.

مَـــاذا عَـــدَا عَمَّـــا بَـــدَا مِـــن زَوْرَة تَشْفِـــي الغَلِيـــلْ
تَعْتَـادُ خَيْـمَ أُولِـي الحِمَـى في بُكْـــرَةٍ أَوْ في أَصيـــلْ
فَقِـفِ المَطِـيَّ عَلَـى الحِمَـى تُحْـي بهَـا الـرَّسْمَ المُحِيـلْ

فَراجَعْتُهُ عَلَى ذَلك مِن غيْر رَويَّةٍ وهْي لزُومِيَّةْ

حَـدِّثْ عـن الطَّلَـلِ المُحِيـلْ مِـن بَعْـدِ حَادِثَـةِ الرَّحِيـلْ
حَـيْثُ الـرَّكَائِبُ نُـزَّعٌ لِلـــوِرْدِ وَالظِّـــلِّ الظَّلِيـــلْ
وَالجُـــودُ أنقَـــهُ لِلعَلِيـــلِ بـــهِ وأَنْقَـــعُ لِلْخَلِيـــلْ(269م)
كَـم مِـن نُفُـوسٍ عِنـدَهُ تَرْتَــاحُ لِلنَّــفَسِ البَلِيـــلْ -178-
هَـذا وَ لِلوَطَـنِ الـذِي فِيـهِ المُعَـرَّسُ وَالمَقِيـلْ
شَرَفٌ سَمَـا فَـوْقَ السُّهَـا بالنَّــاصِرِ الكَافِــي الكَفيـــلْ
وَبيـــوسُفٍ غَرْناطَــــةٌ مِصرٌ وَمِـن جَـدْواهُ نِيـلْ
وَالوَجْـدُ نَحْـوَ بطاحِهَـا كُـلُّ القُلُـوبِ غَـدا مُمِيـلْ
لَـوْلاَ الجَـوَى طَـيَّ الجَـوَا نِـحِ مَـا غَـدَا دَمْـعٌ يَسِيـلْ
لَــوْلاَ التعَلُّـلُ بِاللِّقَـا ءِ لَمَـا اشْتَفَـى القَـلْبُ العَلِيـلْ
لَــوْلاَ فَتَـاةٌ أعجَـزَتْ لَفْـظَ المُطِـيبِ أوِ المُطِيـلْ
لَـمْ أَدْرِ مَـا مَعْنَـى السُّلُـوِّ إِذًا عَـنِ الـرَّسْمِ المُحِيـلْ
تُهْـدِي وتَهْـدِي إذْ أَتَتْ غَـرَّاءَ وَاضِحَـةَ الدَّليـلْ
لِلَّـهِ مَـا جَـاءَتْ بِـهِ مِـن مَنْطِـقِ العَـرَبِ الأَصِيـلْ
لِلَّـهِ مَـا حَازَتْـهُ في الـعلْيَـاءِ مِـن شَرَفِ القَبِيـلْ
تَجْلُـو كَتَـائِبَ كُتْبِهَـا بمَـدَى البَلاَغَـةِ أَوْ تُجِيـلْ.

(269م) كذا في الأصل، ولعلّها : الجَوُ.

وَلَهَا الهَوادِي اسْتَشْرَفَتْ   فَهَدَتْ إلَى قَصْدِ السَّبِيلْ
فِهِيَ العَقِيلَةُ تَنتَمِي   لِعُلاَ عَلِيٍّ أَوْ عَقِيلْ[270]
ولأَوْحَدِ الدَّهْرِ الشرِيـ   ـفِ المَاجِدِ العَلَمِ الجَليلْ
لِلِهِ مِنْهُ مُحْرِزٌ   وَصْفَيْ مُنِيبٍ أَوْ مُنِيلْ
أَهْدِي لَهُ جَزْلَ النّظَا   مِ وَقَدْ حَبانِيَ بالجَزِيلْ
أَلْفَاظُهُ كَمْ مِن   كَتيبٍ للعُصَاةِ بهَا مَهِيلْ
ولَكَمْ يَرُدُّ بعَدلِهِ   لِلْبَغْيِ مِنْ جَيْشٍ فَلِيلْ
وَمِنَ القُلوبِ بِوَعْظِهِ   يُدْنِي القَصيَّ وَيَسْتَمِيلْ
ويَراعُهُ كَالصَّعْدَةِ السَّمْـ   ـراءِ والسَّيْفِ الصَّقِيلْ
يَا آبْنَ الذِي بِخِلاَلِهِ   قَدْ بشَّرَتْ صُحُفُ الخَليلْ[271] -179-
قُلْ مُنْعِمًا مَا شِئْتَهُ   فَلأَنْتَ لِي نِعْمَ المُقِيلْ
عُذْرًا بِمِثْلِكَ يَهْتَدِي   مَن حَادَ عَن أَهْدَى سَبيلْ
قَصْدِي المُثُولُ لَدَيْكَ يَا   مَنْ جَلَّ فِينَا عَن مَثيلْ
مَا بَيْنَ شارِقَةِ الصَّبَا   حِ وبيْنَ جَانِحَةِ الأصيلْ
في حُبِّ آلِ مُحمدٍ   لِيَ حالَةٌ لاَ تَسْتَحيلْ
فمِنَ الزِّيَارَةِ بَعْدَهَا   هَيْهَاتَ أَطْلُبُ مِن بَديلْ
أُزْجِي المَطِيَّ لِحَيِّكُمْ   بِالوَخْدِ مِنْهَا وَالذَّمِيلْ
يَا مَنْ يُقِيمُ صَغَا الفَضَا   ئِلِ وَالفَواضِلِ أنْ تَمِيلْ
لَوْلاَ القَوَافِي لَمْ أَكُنْ   في الوَصْفِ أَقْنَعُ بِالْقَليلْ
فَلْتُبْدِ مَا عَوَّدْتَنِي   مِنْ عَادَةِ الصَّفْحِ الجَمِيلْ

(270) فيه جناس، وعلي هو ابن أبي طالب وعقيل أخوه.
(271) يشير إلى الآية الكريمة : «إنّ هذا لَفي الصُّحُفِ الأولَى صُحُفِ إبراهِيمَ».

وَعِندَمَا ارْتَسَمتُ فِي كُتَّابِ المَقَامِ العَلِي فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ وَالعِشْرِين لِصِفَر مِن عَام ثَمانِيَةٍ وثَمَانِي مِائَة كَتَبَ إلَيَّ مُهَنِّئًا بذلك الفَقيهُ القاضِي أبو عَبْدِ الله الأُلْيُري[272]

هَنيئًا يَا سَلِيلَ أُولِي النَّجابَهْ بمَا قُلّدتَ مِن سَامِي الكِتَابَهْ
ويَهْنيهَا فقَدْ ظَفِرَتْ بِكُفْءٍ حَوَى مِن كُلِّ مَعْلُوَةٍ لُبَابَهْ
أَرَاكَ اللَّهُ فيهَا ما تَمَنَّى مِنَ النِّعَمِ الجِسَامِ المسْتَطَابَهْ
وَزَادَكَ بَعْدَهَا جاهًا عَظيمًا تَنَالُ بِهِ الخِطَابَةَ وَالحِجابَهْ

فَأَجَبْتُهُ بقَصيدَةٍ نَصُّهَا

بمَا أُثْنِي عَلَى تِلكَ المَثابَهْ فَأَرْضَى بالإِنَالَةِ والإِنَابَهْ
ونَظْمُكَ مَا وَفَيْتُ لَهُ بحَقٍّ سِوَى رُوحِي مُقابِلَةً ثَوَابَهْ
أَتَى بعَقيلَةٍ راقَتْ جَمَالاً فَقَدْ هَامَ الفُؤادُ بِهَا صَبابَهْ
كَلِفْتُ بهَا فَرَكْبُ الوَجْدِ لَمَّا رَأى كَلَفِي أَنَاخَ بِهِ رِكَابَهْ
فَهَا حُبِّي وَهَذا فَرْطُ شَوْقِي وَلاَ شَوْقَ اليَزيدِ إلَى حَبَابَهْ[272م]

---

(272) يبدو أن هذا «الفقيه أبا عبد الله الأُلْيري» هو المترجم به في نيل الابتهاج هكذا : «محمد بن علي بن عبد الملك الأُلْيُري الغرناطي، شُهِرَ بابن مليح، قاضي غرناطة، وقع النقل عنه في شرح التحفة لابن عاصم» وكان حيًّا عام اثنين وثلاثين [وثمانمائة]» وهو الوارد ذكره في المغيار كما يلي : «كان القاضي أبو عبد الله الأليري أيام استخلافه قضاء الجماعة بحضرة غرناطة يُغْلِظُ على من فهم منه اللّدَدَ من اليهود» ولعلّه هو نفسه الذي خاطبه الشاعر البسطي بعَددٍ من قصائده. راجع كتابنا : البسطي آخر شعراء الأندلس : 110 ــ 114 وفي برنامج المنتوري نقرأ هذه الترجمة : «ومنهم الشيخ المفتي المقرىء الحاج الأصلح أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن مالك بن أحمد الرعيني الأُلْيُري. مولده في ليلة الخميس لسبع مضين من شهر ربيع الأول عام تسعة وعشرين وسبعمائة وتوفي في ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام اثنين وثمانين وسبعمائة» وهذا متقدم في التاريخ، ولعلَّهُ هو صاحب شرح البردة المخطوط، وثمّة أُلْيُري آخر معاصر لشاعرنا هو أبو عثمان سعد الأُليري المترجم في برنامج المجاري والوارد ذكره مرارًا في ديوان يوسف الثالث. راجع أيضًا ما كتبناه في المقدمة.

(272م) اليزيد : في الأصل المخطوط : المزيد، وهو تحريفٌ لهُ نظائر في نسختنا الوحيدة، والإشارة هنا إلى هيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بالجارية المغنية حبابة حتى مات كمدًا بعد موتها. راجع الأغاني.

فَيا لِلَّهِ مِنْهَا بِنتُ فِكْرٍ   تُبَلِّغُ كُلَّ ذِي أَمَلٍ طِلابَهْ

وَيا لِلَّهِ مَنْ أَبْدَى حُلاَهَا   تُشِيرُ إلى هَنائِيَ بالكِتَابَهْ -181-

(273)

قَرَّتْ بِكَ الدُّنْيَا وَعَيْنُ العُلَى   وَكُلُّ عَيْنٍ عَائِنٍ عَانِيَهْ

فَارْتَجلتُ جوابَهَا مَعَ مُوَصِّلِهَا -182-
وَلَزِمْتُ فِي الرّوي حَرفًا غَيْرَ الذِي التَزَمَهْ

مَرَّتْ بِرَبْعِي لِلنَّدَى غَادِيَهْ   رَائِحَةً بِأُفْقِهِ غَادِيَهْ

فَأَشْبَهَتْ زَهْرَ الرُّبَى نَفْحَةً   وأَخْجَلَتْ زُهْرَ العُلَى بَادِيَهْ

حسْنَاءُ أَبْدَاهَا وَلِيُّ الهُدَى   فأَصْبَحَتْ لِنَهجِهِ هَادِيَهْ

حَمائِمُ الفِكْرِ لَدَى رَوْضِهَا   بِمَدْحِهِ أَوْ حَمْدِهِ شادِيَهْ

صادِحَةٌ بِهِ وإنْ لَمْ تَزَلْ   لِلوِرْدِ فِي مَشْرَعِهَا صَادِيَهْ

يَقْفُو بَنُو الآدَابِ آثارَهَا   مَا الرَّكْبُ إلاَّ تابِعٌ حَادِيَهْ

هذَا هُوَ النَّظْمُ الذِي قَصَّرُوا   عنهُ وَلمَّا يَقطعوا وَادِيَهْ

حَسُودُهَا التقْصِيرُ نَادَى بِهِ   وَلَوْ غَدَا يَدْعُو لَهَا نَادِيَهْ

أَوْدَتْ بِهِ وأَظْهَرَتْ وُدَّنَا   عَادِلَةً فِي حُكْمِهَا عَادِيَهْ

أَتَى بها الشَّيْخُ المُفِيدُ الذِي   نُفُوسُنَا لِنَفْسِهِ فَادِيَهْ(274)

---

(273) بياض في الأصل، وفي الطرة ما نصه : «بياض هنا قدر ورقة وجدتها مفقودة في الأصل المنتسخ منه» ويبدو أن هذه الورقة المفقودة تشتمل على القطعة أو القصيدة التي لم يبق إلا البيت الأخير منها.

(274) ليس في القطعة ما يستفاد منه معرفة هذا الشيخ المفيد الذي هنأ الشاعر بمنصبه فأجابه بهذه القصيدة.

ضَمّنَهَا مَعنَى هَنائِي بمَا   بهِ أقَامَ الدَّهْرُ مُنْآدِيَهْ
ومَا بهِ النَّاصِرُ مَوْلاَيَ قدْ   أبْدَى عَلى الأيّامِ إنْجَادِيَهْ

وكتَبَ إلَيَّ الفَقيه أبُو القَاسِمِ بْنُ حاتِم المَالَقِي ويُعْرَفُ أيضًا بابْنِ البَنَّاءِ وَهُوَ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَقَدْ تولَّى قَضاءَ جَبل الفَتْحِ الوِلاَيَةَ التي ظَهَرَ فِيهَا منْ سوْءِ رأيِه، مَا قَضَى لِمبْنَى عِزِّهِ بِسُقُوطِهِ ووَهْيِهِ

وَهُوَ الآنَ بَعْدَ خُطوبٍ فادِحَةٍ مُقيمٌ بَسبتة[275]

أدارُهُمْ هَذِهِ المِسْكِيُّ رَيَّاهَا   حَيَّاهُمُ اللّهُ مِن قَوْمٍ وَحَيَّاهَا
لَمْ تَدْرِ طِيَّةَ نَفْسٍ هَاجَهَا قَلَقٌ   حَتَّى إذا سَكَنَتْ فيهَا عَرَفْنَاهَا
وَهْيَ القُلوبُ إذا حَلَّ الغَرامُ بِهَا   تَخْفَى وتَظْهَرُ أطْوارًا سَجايَاهَا -183-
يَا صَاحِبَيّ وَمَا سِرِّي لِغَيْرِكُمَا   والْحُرُّ إنْ أُودِعَ الأَسْرَارَ أخْفَاهَا
إن تَبْرَحَا أوْ تُقيمَا لَسْتُ مُنتَقِلاً   إيَّايَ كانَ السُّرَى يَعْنِي وَإيَّاهَا
ألْقَتْ عَصاهَا بِبُسْتَان الجَمَالِ يَدي   فَما عَصاها مِن الآمَالِ أقْصَاهَا
لاَ تَلْحَيَاني فَما في سَلْوتي طَمَعٌ   وَلاَ فؤادِي مَعَاذَ اللّه يَرْضَاهَا
مَتَى رأى غَيْرَهَا مُسْتَحْسَنًا بَصَري   حَتَّى تَظُنَّا بأنَّ الغَيْرَ أنسَاهَا
أوْفاهَ لِي بعُهُودِ الغَادِرِينَ فَمٌ   أنَّى وَلِي مِنْ عُهودِ الحُبِّ أوْفَاهَا
وإنَّ منْ أنَا مَعْرُوفُ الغَرامِ بِهَا   لَمطْمِعٌ حُسْنُهَا في نَيْلِ حُسْنَاهَا
لمْ أنسَ لَيْلَتَنَا بالجزْعِ إذْ غَفَلَتْ   مِن الوُشاةِ عيُونٌ كُنتُ أخشَاهَا
أردتُ أُوقِدُ مِصْباحًا فَبَادَرَنِي   حَطُّ اللِّثَامِ فَأغْنَانِي مُحَيَّاهَا
ورُمْتُ أُهْدِي لَهَا صِنْفَيْنِ مِن دُرَرٍي   فأخجَلتْنِي ثَنَايَاهَا ونجْواهَا
وكنتُ أعْدَدتُ ألْفاظَ العِتَابِ لَهَا   فَأدْهَشَتْنِي فَلَمْ أظْفَرْ بإحْيَاهَا

(275) راجع ما كتبناه في المقدمة عن هذه الشخصية الأدبية.

رُحْمَى لِمُنْتَجِلِي الآدابِ مِنْ دَهَشٍ ... يُعيدُ أعْتَى حُمَاةِ القَوْمِ أعْيَاهَا
قالَتْ أظُنُّكَ مَسْحُورًا فقلتُ لَهَا ... أفعَالُ مَنْ كُحِلَتْ بالسِّحْرِ عَيْنَاهَا
قالَتْ وأعْوَزَكَ الرَّاقِي فقلتُ لهَا ... شَكْوَى يُعالِجُهَا مَن قَدْ تَجنَّاهَا
قالَتْ وَهلْ تَعْرِفُ الجانِي فَقلتُ لَهَا ... رامٍ إذَا قَصَدَ الأكْبَادَ أصْمَاهَا
قالتْ أتَيْتَ بِألْغَازٍ فَقلْتُ لَهَا ... لَعَلَّ أُخْتَ المَهَا فَكُّتْ مُعَمَّاهَا
فاسْتُضحِكَتْ ثُمَّ قَالَتْ خَلِّ عَنْكَ وَقلْ ... عن صُورَةٍ نَسْتَلِذُّ العَيْنُ مَرْآهَا
فَقلتُ في الشَّمْسِ مَا نبغِي مَتى طلَعَتْ ... قالَتْ فإنْ هِيَ غابَتْ غَابَ مَعْنَاهَا
فقُلتُ والبَدْرُ أيْضًا فهْوَ يخْلُفُهَا ... قالَتْ وَلَوْ دامَ بَدْرًا رُبَّمَا ضاهَاهَا
فَقلتُ وَالرَّوْضُ ما تَخفَى نَضارَتُهُ ... قالَتْ علَى أنَّهَا تَشْرِينُ يَنْعَاهَا
فقُلْتُ والظبْيُ لاَ تُنْسَى مَحاسِنُهُ ... قالَتْ حَكَيتَ ولَكِن مَن حَكَى تَاهَا
فقُلْتُ إيَّاكِ أعنِي لاَ سِوَاكِ بمَا ... [قَدْ قُلْتُ] قالتْ لَقَدْ أُنسِيتَ أسْمَاهَا :
أَبَا الحسَيْن بنَ فُرْكُونٍ، فَقُلْتُ لَهَا ... جَوْفُ الفَرَا جَعَلَتْهُ الصَّيْدُ مَأْواهَا(275م) -184-
فَتًى أجازَ لَهُ التَّقْديمَ وَالِدُهُ ... إنَّ الأسُودَ تَرَى الأشْبَالَ أشْبَاهَا
شارَكْتُ بالعَيْنِ غيْرِي في مَحَاسِنِهِ ... واخْتَصَّ قَلْبِي بأرْقَاهَا وأبْقَاهَا
تَبْلَى اللَّيالِي ومَا قَدْ حاكَ مِنْ حُلَلٍ ... مَا حاكَ في الصَّدْرِ أنَّ الدَّهْرَ أبلاهَا
أبْكَارُ أفْكَارِهِ في حَلْيِ راحَتِهِ ... عرائسٌ وَكَراسِي الطِّرْسِ مَجْلاَهَا
المِسْكُ في طَيِّ كافُورٍ بَطَائِقُهُ ... فَيُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا قَبْلَ مَرْآهَا
سَفائِنٌ في بُحُورِ العِلْمِ جَارِيَةٌ ... باسْمِ المُهَيْمِنِ مُجْرَاهَا ومُرْساهَا
«تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ مِن لَبَنٍ» ... بهَا يُباهِي عُقُودَ الدُّرِّ مَنْ بَاهَى(276)
لَوْ كانَ إكْلِيلُهَا إحْدَى المَنازِلِ لَمْ ... يكنْ عَلَى البُعْدِ مِن مَرْقَى ثُرَيَّاهَا(276م)

(275م) إشارة إلى المثل : كل الصّيد في جوف الفرا.

(276) الشطر الأول مضمّن، وتمامه :

تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لبَنٍ ... شيبا بماءٍ فَعادا بعْدُ أبْوالا

(276م) الإكليل منزلة من منازل القمر وكذلك الثريا.

وَقائِلٍ قالَ لِي كَيفَ اهْتَدَيْتَ لَهَا   أظُنُّ مُنجِبَهَا إيَّاكَ أهْدَاهَا
فَقُلْتُ مَا الشرْطُ أنْ يَحْظَى بمُتَّصِفٍ   مَنْ عَرَّفَتْهُ صِفاتُ الحُسْنِ أحْظاهَا
وَرُبَّ عَبْدٍ يُرَجِّي أنْ يُكاتِبَهُ   مَوْلاَهُ نَالَ مِنَ الآمَالِ أرْجَاهَا
أبَا الحُسَيْنِ وَقَدْ نَادَيْتُ مِنْ كَثَبِ   لأنّ ذَاتَكَ رَبْعُ القَلْبِ مَثْواهَا
أبَا الحُسَيْن ومَالِي في المَدِيحِ يَدٌ   لأنَّ عُلْيَاكَ أعْيَتْنِي قُصَارَاهَا
مَا كفُّ عَامِلَةٍ فِي الطِّرْسِ عَامِلَةٌ   مَا تَرْتَضِيهِ قُرَيْشٌ حَلْيَ مَوْلاَهَا
وإنَّمَا هِيَ بالذِّكْرَى مُفَاتَحَةٌ   مَوَدَّةٌ لَكَ أُولاَهَا وَأُخْرَاهَا
وخِطْبَةٌ بِنتَ فكْرٍ لوْ طلَبْتَ لَهَا   كُفْؤًا لأعْيَاكَ مَوْجودًا وأعْيَاهَا
فَلَنْ تُجِيبَ إلَى وَصْلٍ مُنَادِيَهَا   مِنْ حَيْثُ تَهْوَاهُ بَل مِن حَيثُ يَهْواهَا
يَفْنَى الزَّمانُ وَلِي نَفْسٌ مُحَلَّأَةٌ   عَنِ المَوارِدِ أصْفَاهَا وأحْلاَهَا
نَضْحًا إذا لَمْ يكُنْ غَمْرٌ وَلاَ ثَمَدٌ   تَحْيَى الزرُوعُ إذَا مَا الطَّلُّ غَذَّاهَا
أبَا الحُسَيْن أَبوكَ النَدْب جَرَّأَنِي   عَلَى العُلَى بَأيادٍ منهُ أوْلاَهَا[277]
لَوْلاَهُ لَمْ أدْرِ مَا مِقْدارُ قَافِيَةٍ   لَمْ تُحْقرِ الدّرُّ واليَاقُوتُ لوْلاَهَا
لَكِنْ هَدَتْنِي هَدَاياهُ إلَى نَظَرٍ   مُمَيِّزٍ بَيْنَ دُنْيَاهَا وَقُصْوَاهَا
وَمَا بِقاعُ المَهَا إلاَّ رِقَاعُكُمُ   لَوْ قدْ تَقضَّتْ لُبَانَاتِي بِلُبْنَاهَا -185-
أمسَيْتُ قَيسًا وَطَاوَلْتُ الدُّجى سَهَرًا   فَهَلْ يُرى مُصْبِحًا لَيْلِي بِلَيْلاَهَا

• قَد تكُونُ أبْقَى اللهُ سَيدي لبَعْضِ الحَوادِث أسْبَابْ • والمَنَازِلُ مِن مُقْتَضَيَاتِهَا الأبوابْ • واني لمْ أزَلْ مِن يَوْم فَصلْتُ عَن الحَضْرَهْ • مطَالعًا بالخَيَالِ مِن ذلِكَ الجَلاَلِ الحَسَنِ الخِلاَلِ روْضًا ذَا نَضْرَهْ • والعَيْنُ تشْتَاقُ للحَقيقَهْ • وقاضِي الكَلَفِ بذلك الخَلَفِ الطاهِر السَّلفِ قد سجَّلَ ثُبوت الوَثيقَهْ • وَالقَلبُ رهْنُ الوِدادْ • وبعْدُ الشُّقَّةِ لمْ

(277) والد شاعرنا أبي الحسين هو أحمد بن فركون الشاعر الكاتب القاضي المعروف، ويفهم من كلام هذا الأديب أنه تخرج في الأدب بوالد أبي الحسين.

يُبْق حِيلةً إلاَّ حيلَةَ القَلمِ والمِدَادْ • لِكنّي كلمّا أردت الطوَافَ مَنَعَتْنِي هيبَةَ الحَرَمْ • فإن أعرضْتُ تعرَّضَ لي منشِدُ« بأَبِهِ اقتَدَى عَدِيٌّ في الكَرَمْ» • وانْ جَيَّشَ اليَاسُ قابَلتُهُ مِن كَتائِب مَكْتُوبَاتِ أبيكَ بالخَمِيسِ الهَازِمْ • وأقمْتُ علَى بُطْلانِ حُجّةِ القُنُوطِ البُرْهَانَ اللاَّزِمْ • وَانْ أطلَّ الطّمَع من ثَنِيّة الهَلَعِ قال الرَّأْيُ الحازِمْ • أوَ كنتَ مِثْلَ حَازِمْ • فَلَوْ رَأيتَنِي وأنا بَيْنَ صَفَّيْ هَاذَيْنِ الوَصْفَيْن المَتضادَيْن واقِف • وَكأنّي لدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفْ • لبَادَرْتَ لِنُصْرَتِي بِدَارَ المنجِدِ المثاقِفْ • ورُبَّمَا نَابَ الأَثَرُ عَنِ العيان في المعْرفَهْ • ومِن ثمَّ جازَ البيْعُ عَلَى الصِّفَهْ • وقَدْ تبيَّنَ فيمَا سَبقْ • سَبَب الطمَعِ في شِرَائِيَ التَّمْرِ بالنَّبَقْ • فإن رأى سَيِّدِي ان يشْرعَ لِحَاسِدِي مِن تَنفُّقِ كَلامِهِ نَصْلاَ • وَيصل على البِعَادِ حَبْلَ الوَارِدِ وَصْلا • ويتّبعَ في المُراجعَةِ سَلَفًا كَرِيمًا وأصْلاَ • وياخُذَ بضَبْعِ هَذا الوَارِدِ البَاقِلي فَيَرْفَعَهُ إلَى ثُرَيَّا القَبُولِ مِنَ الثَّرى • ويَقْرِيَهُ بمَا تيسَّرَ مَن الْجَوابِ «فَما الخِصْبُ للأَضيَافِ انْ يَكْثُرَ القِرَى» • [فَعَلَ]إن شَاء الله.
والسلاَمُ على الأصْلِ والفرع • سلاَمَ الوُجُوب والطبْعِ • مِن فلاَنٍ.

عُـنْـوَانُـــهَا

إلَـــى عِمَـــادِ الأَدَبِ الأوْفَـــرِ   أبِـي الحسيْنِ بْـنِ أبِـي جَعْفَـرِ
بِبَـيْتِ كُتَّـاب الرَّئـيسِ الـذِي   مَحَلُّهُ [أسْمَـى مِـ]ـنَ الجَعْفَـرِي
بـحِضْرَةِ ابْـنِ الأحْمَـر المقـتَضِي   بِعِـــزِّهِ ذُلَّ بنِـــي الأصْفَـــرِ -186-
لأزالَ وَالأمْـــــداحُ تنْتابُـــــهُ   مُنْتَشِقًــا مِــن مسْكِهَــا الأذْفَــرِ
ومُسْتمِـــدًّا عِلْمَـــهُ مِـــن أبٍ   لَـمْ يُغْمَـطِ الفَضل ولَـمْ يُكْفَـرِ

فأجَبْتُهُ بِقصيدةٍ يتْلُوها شيءٌ مِنَ النَّثرِ
لمْ يَقعْ لِلْيَدِ الآنَ وَفي آخر شعبَان أحَد عشر وثمَانمِائة

جَادَ الغَمَـامُ رُبَـى نَجْـدٍ وحيَّاهَـا   فَالـرَّكْبُ لاَ يَهْتَـدِي إلاَّ بِرَيَّاهَــا

مَا ضَلَّ حَادِيهِمُ إلاَّ هَدَتْهُ لَهَا ... نَواسِمٌ عَطَّرَ الأَرْجَاءَ مَسْرَاهَا
هَبَّتْ صِبَاهَا بِلُقْيَاهَا مُبَشِّرَةً ... فكُلُّ قَلْبٍ صَبَا وَجْدًا لِذِكْرَاهَا
ذِكْرَى لَهَا انْعَطَفُوا فوْقَ الرِّحَالِ فَمَا ... مَالَتْ بأعْطافِهِمْ إلاَّ مُحَيَّاهَا
لِلهِ أفْئِدَة فِي القُرْبِ رَاحَتُهَا ... لِلوَجْدِ طَاعَتُهَا بِالبُعْدِ شَكْواهَا
ورُبَّ سَاحِرَةِ الأَلْحَاظِ فَاتِنَةٍ ... ما كُنتُ أعْرِفُ مَعْنَى الحُبِّ لَوْلاَهَا
لمَّا انْثَنَتْ وَثَنَتْ عَنَّا مَحَاسِنَهَا ... ما كَانَ أعْدَلَهَا قَدًّا وَأعْدَاهَا
مَنْ هامَ فيهَا بعَيْنِ الفِكْرِ أبْصَرَهَا ... وَفِي الكَرَى زَارَهَا والوَهْم نَاجَاهَا
هَذِي مَعاهِدُ مَنْ هَامَ الفُؤادُ بِهَا ... لِلهِ فيهَا عُهُودٌ قَدْ أَلِفْنَاهَا
انَّا لنُلْقِي حَدِيثًا مِنَ صَبَابَتِنَا ... فيَا نَسِيمَ الصَّبَا بلِّغْهُ إيَّاهَا
وَلاَ تُجِبْ بكَلاَمٍ فالنَّواسِمُ مَا ... هَبَّتْ عَلى رَبْعِهَا إلاَّ عَرَفْنَاهَا
مَا راقَ إلاَّ بِمَرْءاهَا [الصَّبَاحُ] وَلاَ ... رَقَّتْ نَواسِمُهُ إلاَّ بِرَياهَا
لِلزُّهْرِ بَهْجَتُهَا للزَّهْرِ نفْحَتُهَا ... لِلبَدْرِ طَلعَتُهَا لِلسِّحْرِ مَرْآهَا
لِلدُّرِّ أَلْفَاظُهَا لِلبَرْقِ مَبْسِمُهَا ... لِلْغُصْنِ مَعْطِفُهَا لِلظَّبْيِ عَيْنَاهَا
لَمْ يُرْقَبِ البَدْرُ إلاَّ مِن مَطالِعِهَا ... لَمْ يُعْرَفِ الفَجْرُ إلاَّ مِن مُحَيَّاهَا
فَلَيْتَهَا حِينَ تُبْدِي صُبْحَ غُرَّتِهَا ... تَهْدِي فَتَاهَا فَفِي لَيْلِ الهَوَى تَاهَا
وعاذِلٍ رَاعَنِي أنْ بثُّ ذا قَلَقٍ ... أُسائِلُ الشُّهْبَ عَن لَيْلَى وَأَرْعاهَا -187-
فقَالَ مَالَكَ والشُّهْبَانُ تَرْقُبُهَا ... فقلتُ فِيهِنَّ مِنهَا خِلتُ أشبَاهَا
فقالَ قدْ أتلَفَتْ مَنكَ الفؤادَ أسًى ... فَقلتُ ان أتْلَفَتْهُ فهْو مَثْوَاهَا
فقَالَ مَالَكَ وَالأَطْلاَلَ تَنْشُدُهَا ... فقُلْتُ هِمتُ بمغْنَاهَا لِمَعْنَاهَا
فَقالَ قَدْ هِمْتَ مِنْ بعْد السُّلُوِّ بِهَا ... فقلت لَمْ تَثْنِنِي إلاَّ ثَنَايَاهَا
فقالَ هَلْ لَكَ في أحْلَى سَنًى وَحُلاً ... فقلتُ دَعْ غَايَةً أبْعَدتَ مَرْمَاهَا
فقالَ لِي غَادَةٌ تُنْسِيكَ بَهْجَتَهَا ... فَقلتُ مَهْلاً فإنِّي لَسْتُ أنسَاهَا
فَقالَ غادِيَةٌ لِلْفِكْرِ قَدْ نَشَأَتْ ... فَقلْتُ مَا أحْوجَ الظَّامِي لِسُقْيَاهَا

فَقالَ اهْدَاكَهَا مَن عَزَّ مُشْبِهُهُ ... فقلْتُ لِلَّهِ هَادٍ مِنْهُ أَهْدَاهَا
فَقالَ مِنْ بَحْرِهِ أَلْقَى بِهَا دُرَرًا ... فقلْتُ أَبْدَعَهَا نَظْمًا وَأَبْدَاهَا
فقال عهْدِيَ بالآدابِ قدْ تَلِفَتْ ... قُلْتُ ابْنُ حاتِمٍ الأَرْضَى تَلاَفَاهَا
فقالَ قدْ كانَتِ الآدابُ عاطِلَةً ... فقلْتُ هَذا الذِي بالسِّحْرِ حَلاَّهَا
كذاكَ جِنْحُ الدُّجَى كَمْ فيهِ مِن سُدَفٍ ... ومَا أَتَى ابْنُ جَلاَ إِلاَّ وَجَلاَّهَا(*)
هَذِي قَوافٍ عَلَى اسٍّ النَّسِيبِ إلَى ... خِطاب عُلْياك قدْ شَيَّدْتُ مَبْنَاهَا
أَقُول يَاراكِبَ الوَجْناءِ أَيْنَ بِهَا ... تَخُبُّ تبغِي مِن آلامَالِ أقصَاها
إنْ كَنتَ تَهْوَى مِنَ الآدابِ أَرْفَعَهَا ... قَدْرًا وأَحْفَلَهَا حالاً وأحْفاهَا
يَمِّمْ عَلَى ظَمإٍ مَثْوَى ابْن حاتِمِهَا ... تَفُزْ بأَعْذَبِهَا وِرْدًا وَأَحْلاَهَا
مَن يعْشُ لِلزُّهْرِ مِنْهَا حِينَ يُطْلِعُهَا ... يجِدْ زُهَيْرَ قَوافيهَا وأعْشَاهَا
واسْئَلْ عُلاَهَا تُنِلْ كَفَّيْكَ نائِلَهَا ... إنَّ المكَارِمَ بَعْضٌ مَن سَجَايَاهَا
هَذِي القَوافلُ تَاتِيهَا لِتَظْفَرَ مِنْ ... تِلْكَ القَوافِي بأَحْلاَهَا وأَجْلاَهَا
رِكَابُهُمْ صَدَرتْ عَنْهَا وقدْ وَرَدَتْ ... مَوارِدًا مِنْ عَطَايَاهَا مَطايَاهَا
تُبْدِي الجَمَالَ وَتُولِينَا الجَميلَ فَمَا ... أحقَّهَا بالعُلَى حَقًّا وأَوْلاَهَا
خُذْهَا أَبَا قاسِمٍ حَسْنَاءَ لَيْسَ لَهَا ... كُفْؤٌ سِوَى مَن أَرَتْ كَفَّاهُ حُسْنَاهَا
تُبْدِي الجَوَابَ وقدْ كِدنَا نَذوبُ جَوًى ... لَوْلاَ مَوارِدُ آدابٍ وَرَدْنَاهَا -188-
ولْتَصْفَحَن كَرَمًا فالعُذْرُ أَوْضَحُ مِنْ ... نَارِ القِرَى يهْتدِي السَّارِي لِمَغْنَاهَا
إنَّ المحَامِدَ أَلْفاظٌ ومَا وَرَدتْ ... عَلَى المَسامِعِ إلاَّ كُنْتَ مَعْنَاهَا
وإنَّ أَمْداحَ مَولاَنَا وَخِدْمَتَهُ ... قد تشْغَل الفِكْرَ إلاَّ إن تَعاطَاهَا
وكيفَ لاَ يَتعاطَى كُلَّ آونَةٍ ... مَا يُكْسِبُ المُنْجِدَيْنِ المَالَ والجَاهَا
فَناصِرُ الدِّينِ تسْتجْلَى مَناقِبُه ... ولَيْسَ يُفْرَعُ في العَلْياءِ مَرْقاهَا
أَحْلَى مُلُوكِ الوَرَى هَدْيًا وأَكْثَرُهَا ... نَدًى وأَرْفَعُهَا قَدْرًا وأَعْلاَهَا
لِذاكَ قَصَّرْتُ عَن ردِّ الجوابِ عَلَى ... شِعْرٍ سَنَاهُ سَنَى الشِّعْرَى بِهِ باهَى

(*) السُّدَف : الظُّلَم، وابنُ جَلا : الصَّباح.

للحُسْنِ منهُ ولِلإِحْسَانِ كَمْ مِنَحٍ   مُسْتَحْسَنٍ قَصْدُهَا الأَرْضَى وَمَنْحَاهَا
لأَزالَ نَاظِمُهُ حَتَّى يُبَلَّغَ مِن   مَرَاتِبِ العِزِّ أسمَاهَا وأسْنَاهَا
ودامَ يَهدِي بمَا يُهْدِي الأَنَامَ فَفِي   طُولِ البَقَاءِ لهُ نَسْتَوْهِبُ اللَّهَ

وكَتَب إلَيَّ الفَقيهُ القاضِي أبُو الفَضْل ابْنُ جَماعَةَ حفِظَهُ اللَّهُ أبياتًا فِيمَا يَظهَرُ مِنْهَا(278)

أَبُعْدًا ومَا أَزْمَعْتُ سَيْرًا ولاَ شَحْطَا   ونَأْيًا ولَمْ يَنْأَ المَزارُ ولاَ شَطَّا
وَصَوْبَ بَيَانٍ وانثِيالَ بَلاَغةٍ   ورَوْضُ ودَادِي يَشْتَكِي المحْلَ والقَحطَا
وَكَمْ رمْتُ بَثَّ الوُدِّ ثُمَّتَ عَاقنِي   قُصُورِي فَما أَعْمَلْتُ في بَثِّهِ خَطًّا
ولمَّا تَناهَى الوُد بِي واستَفَزَّنِي   وَأَوْرَى زِنَادُ الشَّوْقِ فِي مُهْجَتِي سقْطًا(278م)
خَطَبْتُ بِهَدْيِي منكَ بِكْرًا فَرِيدَةً   جَعَلْتُ لهَا حِفْظِي وتَكْرِمَتِي شَرْطَا
فَيَا حُسْنَهَا لَوْ آثَرتْ بوصالِهَا   ونِلْتُ نَفِيسَ الدُّر مِن لَفْظِهَا لَقْطَا
فأنت الذي فُقتَ الأَنَامَ بَراعَةً   وأضْحَى إِيَاسٌ عنْ ذَكائِكَ مُنْحَطًّا
فَنَظْمٌ تَوَدُّ الزُّهْرُ نَاصِعَ دُرِّهِ   عَلَى نَحْرِهَا سِمْطًا وفي أُذْنِهَا قُرْطَا
ونَثْرٌ يَوَدُّ الزَّهْرُ رَوْنَقَ حُسْنِهِ   إذَا لَقِيتَ مِن وابِلٍ هَاطِلٍ قِسْطَا -189-
وخَطٌّ يُباهِي الرَّوْضَ غِبَّ حَيَائِهِ   فإِنْ خَطَّ فَالوَشْيُ اليَمَانِيُّ قدْ خَطَّا(279)

---

(278) ورد ذكر الفقيه القاضي أبي الفضل ابن جماعة في نيل الابتهاج وأزهار الرياض خلال ترجمة الفقيه الشران، وفي المصدرين المذكورين نقرأ الحكاية الآتية : «ذُكِرَ أنّه لَمَّا صُرِفَ الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن رياسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة بها، وولي مكانه صاحب الترجمة أبو عبد الله الشرّان، لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يومًا، فقال له : إن السر الذي عهدناه في الحضرة غاب عنها بغيبتك، فقال له : وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرّر» نيل الابتهاج : 312 وأزهار الرياض : 134.

(278م) الود : كُتِب فَوقها : الحب، وكأنّها اقتراح حتى لا تتكرّر كلمة الود.

(279) يشير إلى جمال خط أبي الحسين ابن فركون، ونتأكّد من هذا الوصف بمشاهدة مخطوط مظهر النور الباصر الذي كتبه كلّه بخطّه.

فأنتَ فَرِيدُ العصْرِ غيْرَ مُنَازَعٍ ومُنْكِرُ ذَا عيْنَ الحقِيقَةِ قدْ غَطَّا

فكتبتُ عَلى ظَهْرِ بطاقتِهِ مُرتجلا في التاسِعَ عشرَ
لِجُمدى الآخرة عام تسعَةٍ وثمَاني مائة

فتاةٌ بِرَبْعِي رَحْلُهَا سَحَرًا حُطَّا وللَّيْلِ فَوْدٌ بالصَّباحِ قدِ اشْمَطَّا
فَلوْ جِئْتُهَا بالبَدْرِ تاجًا مُكَلَّلاً بِدُرِّ الدَّرَارِي أوْ بِجَوْزائِهِ قُرْطَا
وأهْدَيْتُهَا وُشْحًا منَ البَرْقِ مُذْهَبًا ونَظَّمْتُ مِن زُهْرِ النُّجومِ لَهَا سِمْطَا
لَمَا كنتُ قَدْ وفِّيتُ بَعْضَ حُقُوقِهَا ولاَ كانَ عَدْلاً مَا وَهَبْتُ وَلاَ قِسْطَا
وإنَّ أبَاهَا في ذَوِي النَّظمِ أوْحَدٌ فَلوْ نُظِمُوا عِقْدًا لَكانَ لهُ وُسْطَى
ولوْ أنصَفَ الدَّهْرُ الأبِيُّ قِيَادُهُ وَعَوَّضَتِ الأيَّامُ مِن قَبضِهَا بَسْطَا
ورَامَتْ بالاسْتِحْقَاقِ إعْلاءَ قَدْرِهِ لمَا كانَ عن أعْلَى المراتِبِ مُنْحَطَّا
أمَا هذِهِ أبْكَارُ أفكَارِهِ التي تَجَلَّتْ فَلَمْ تَرْضَ النجُومَ لَهَا رَهْطَا
تَرامَتْ بدُرِّ اللَّفْظِ أبْحُرُ فِكْرِهِ وحَلَّتْ لَدَيْهِ الطِّرْسَ تحسِبُهُ شَطَّا
فَدونَكَ زُهْرَ الأُفْقِ فَاسْتَجْلِ نُورَهَا وَدونَكَ زَهْرَ الرَوْضِ فلتجنِهِ لَقْطَا
أبَا الفَضْلِ لا تَسْتَبْطِ حَظًّا من العُلَى سَتَبْلُغُ مَا أمَّلتَ مِنهُ وإن أبْطَا
فَفي حُكْمِكَ الآدابُ مُلِّكْتَ رِقَّهَا وهَلْ مانِعٌ من ذاكَ واللّهُ قدْ أعْطَى
ودونَكَهَا مِن خالص الوُدّ قَلبُهُ لميثَاقِهِ قدْ أحْكَمَ العَقْدَ والرَّبْطَا

وكتَبْتُ إليْهِ أسْتَدْعِي مِنْهُ جَوابًا اخْتِبارًا لِقريحَتِهِ
بتَاريخ السَّادِسِ والعِشْرِينَ لجُمَدى الآخِرَة عام 809 -190-

جُفونٌ بهَا ما إنْ يُلِمُّ رُقادُهَا لَهَا أمَلٌ في الطَّيْفِ لَوْلاَ سُهَادُهَا

مَدامِعُهَا تُذْكِي جَوَى القلبِ كُلَّمَا تُعاهِدُهُ الذّكْرى تَجُودُ عِهَادُهـا
وإنَّ التي قَدْ هِمْتُ فيهَا صَبابةً جَديدٌ إذا يَبْلَى الزّمانُ وِدادُهَا
هِيَ الشَّمْسُ في أفْقِ الفُؤادِ طُلُوعُهَا هِيَ الظَّبْيُ مَا بَيْنَ الضُّلوعِ مرادُها
لقَدْ جُمِعَتْ فيهَا المَحاسِنُ كُلُّهَا فَصَحَّ بأشْتَاتِ الجَمَالِ انفِرَادُهَا
لقدْ رقَّ جسْمِي مِن هَواهَا فَلَيْتَهَا يَرِقُّ لِحالِ المسْتَهَامِ فُؤادُهَا
رسائِلُ وجْدِي صَفْحَةُ الخَدِّ طِرْسُهَا ودَمْعِي كَما شَاءَ الغَرامُ مِدادُهَا
متَى بَعُدَتْ عنّي أثيرٌ مَحَلُّهَا لَدَيَّ وَفي قلْبِي وَثيرٌ مِهَادُهَا
فَيا أيُّهَا القَلبُ المقلَّبُ في الجَوَى بمَثْواكَ سُكْنَاهَا فكيفَ بعَادُهَا
ويَا مَعْشَرَ العذَّالِ كُفُّوا فإنَّهَا نُفوسٌ تَساوَى غَيُّهَا وَرَشَادُهَا
دَعُوهَا تَهِمْ وجْدًا بِسَلْمَى فإنَّهَا إذا خُيِّرتْ في الدَّهْرِ فهْيَ مُرادُها
تَميلُ بهَا الذّكْرى إلَى زَمَنٍ مَضَى عَلَى اللهِ في الرُّجْعَى إليْهِ اعتِمَادُهَا
نَعَمْ دَوْلَةُ العُشَاقِ هاذِي وإنّنِي كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ رُكْنُهَا وَعِمَادُهَا
ألاَ بأبِي تِلكَ العُهُودُ التِي انقضَتْ أيُرْجَى وَقَدْ مرَّتْ إلَيْنَا مَعادُهَا
ولَكنَّهَا الأيَامُ تبْخَلُ بالمُنَى عَزِيزٌ علَيْهَا أن يُنالَ قِيادُهَا
فكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا بوَجْهِ نَديمِنَا وَشَمْسِ حُمَيَّا الكاسِ يُجْلَى سَوادُهَا
ونحنُ عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ نُدِيرُهَا مُشَعْشعةً في الكَاسِ يَبْدو اتِّقَادُهَا
وجالتْ جِيادٌ لِلكُؤوسِ سَوابِقٌ أقيمَ بمَيْدَانِ السُّرورِ طِرادُهَا
فَفي أفْقِ الحَالاَتِ لاَحتْ بدُورُهَا وفي طَلَقِ اللّذَّاتِ جالَتْ جِيادُهَا
فَيا ليتَهَا يَوْمًا تَجودُ بعَوْدَةٍ وَيُمْكِنُ مِن بَعدِ النّفَارِ انقِيَادُهَا
وَلوْلاَ ابنَةُ الفِكْرِ التي ورَدَتْ ضُحَى عَلَيَّ وفي رَوْضِ البيَانِ ارْتِيادُهَا
لمَا رامَتِ السُّلْوَانَ نَفْسٌ مُتَيَّمٍ فَغَيْرُ التَّسَلِّي دِينُهَا واعْتِقادُهَا
ومِنْ شأنِهَا بذْلُ المودةِ دائِمًا ومَا الوُدُّ إلاَّ ذُخْرُهَا وعَتادُهَا -191-
أبَا الفَضْلِ بَادِرْ بالجَوابِ ضحَى غَدٍ فـإنَّ بكَ آلاَدابَ وَارِ زِنَادُهَا

وَوَجْهُ بهَا مِن خِدْرِ فِكْرِكَ غَادَةٌ تَـرُوقُ جَمَـالاً لاَيَـرامُ عِنَادُهَـا
فإنّ المَعَانِـي كُلَّمَا رُمْتَ نَظْمَهَـا لِيَسْبُقَ في شَأوِ المَعَالِي جوَادُهَـا
أزَاهِـرُ نَثْرٍ أيْـنَ مِنهَـا زُهَيْرُهَـا جَواهِرُ نظمٍ أَيْنَ مِنها زِيادُهَـا[279م]
فَمـا هـذِهِ إلاَّ سِهَـامُ بَلاَغَـةٍ إذا سُدِّدَت للرَّمْيِ بَانَ سَدادُهَـا
ومَـا هـذِهِ إلاَّ غُصُونُ يَراعَـةٍ إذا ثُقِّفَتْ بالكَتْبِ خِيفَتْ صِعَادُهَا
ومَـا هَـذِهِ إلاَّ سُيُـوفُ بَراعَـةٍ بعَاتِقِ مَن يُهْدِي جَوابِي نِجادُهَـا

وَكَتَبَ إليَّ بعْدَ ذلِكَ مَعَ نَثْرٍ في معْنًى أجَبْته عَلَيْهِ

يـا أوْحَـدًا فـاقَ الأنـامَ ذَكـاءَ وَعـلاَ السُّهَـا مِقْـدَارُهُ وذُكَـاءَ
أحْيَـيْتَ لِـلآدابِ أيَّ مَعَاهِـدٍ فَغَدَتْ بكُمْ ما ان تَخَافُ عَفاءَ
أطْلَعْتَ مِن شُهُبِ النِّظامِ زوَاهِرًا أضْحَتْ لَها وَرَقُ الطُّرُوسِ سَماءَ
للـهِ مـنْكَ بِطاقَـةٌ بَـلْ رَوْضَةٌ غَيْنـاءُ تُـنْسِي الـرَّوْضَةَ الغَنَّـاءَ
كالـدُّرِ لَفْظًـا والمُدامَـةِ فَعْلَـةً والشَّمْسِ تُشْرِقُ بهجَـةً وَضِيَـاءَ
جَرَّرْتُ حِينَ فَهِمْتُ فَحْوَى نَظْمِهَا ذَيْلِي بِهَـا مِـن حُسْنِهَا خُيَـلاَءَ
لِلـهِ مـنْكَ جَلاَلَـةٌ قُرَشِيَّـةٌ أرْبَتْ عَلَى شُهُبِ السَّماءِ عَـلاَءَ
نَسَبٌ شَرِيفٌ قَـد تَصَحَّحَ مَتْنُـهُ فالفَجْـرُ مَـنشُورٌ عَلَيْـهِ لِـواءَ
أأبَـا الحُسَيْنِ انْعَـمْ بمَـا أُوتِيتَـهُ مِـن أنْعُـمٍ بَهَـرَت سَنًـا وسَنـاء
وبَقيـت تصْعـدُ والزّمـانُ مسَاعِـدٌ حتَّـى تسامي الطَّرْفَ والجَـوْزَاءَ(*)

فأجَبْتُهُ وفِي الثالِث لرجَب عَامِ تسعَة وثماني مائة

أهْـلاً بهَـا بكْـرًا أتَتْ عَـذْراءَ تَجْلُـو عَلَيْنَـا غُـرَّةً غَـرَّاءَ -192-

(*) الطَّرْفُ : كوكبان يقْدُمانِ الجبهة، سُمّيا بذلك لِأنّهما عينا الأسد، ينزلهما القمر. (القاموس).
(279م) زياد هنا هو النابغة الذبياني.

أَلْفاظُهَا تُنسِي الجِيادَ تَسابُقًا ... لِمَدَى الإجادَةِ والسُّيُوفَ مَضاءَ
أَبصَرْتُهَا سَحَرًا وكانتْ قَدْ أَتَتْ ... رَبْعِي كَما شَاءَ الوِدادُ مَساءَ
مَا كنتُ أدْرِي أنَّ لَيْلاً مُطْلِعٌ ... من قَبْلِ انْ ورَدَتْ عَلَيَّ ذُكَاءَ
لَكِنَّنِي ما نِلتُ مَنحَ وَصالِهَا ... حَتَّى بدَا نُورُ الضُّحَى وأضاءَ
وَافَتْ لِبَسْطِ العُذْرِ فِي النظمِ الذِي ... فَاقَتْ حُلاَهُ الغَادَةَ الحَسْنَاءَ
مَهْلاً أَبَا الفَضْلِ الذي في فَضلِهِ ... وَوِدَادِهِ تَـرَكَ الأَنَامَ وَرَاءَ
مَا شِيمَتِي ذَمُّ الصَّدِيقِ وإنَّمَا ... أَهْدِيهِ شُكْرًا دائِمًا وَثناءَ
وإذَا جفَانِي مَن وَثِقتُ بِوُدِّهِ ... كان الجزاءُ السَّمْحَ والإغْضَاءَ
مَا إنْ يُعَامِلَنِي بسُوءِ قَطِيعَةٍ ... إلاَّ بَذَلْتُ مَوَدَّةً وَوَفَاءَ
هَذا فَكَيْفَ بِمَن أنالَ وِدَادَهُ ... مَحْضًا ومَدَّ خُلُوصَهُ أفْيَاءَ
كَذَّبْتُ نَفْسِي إنْ أنا قَدْ سُمْتُهُ ... بَعْدَ الإطَالَةِ فِي الثَّنَاءِ هِجاءَ
عَجَبًا يُقالُ أساءَ في مَنظُومِهِ ... خِلٌّ أنَالَ خَلِيلَهُ مَا شَاءَ
مَن جاءَ يَنْسُبُ لِي كَلامَ إسَاءَةٍ ... فَهُوَ الذِي قَدْ قالَهُ وَأَسَاءَ
نَظْمِي الذِي طَلَبَ الجوابَ ضُحًى عَلى ... جِهَةِ التَّأَنُّسِ لاَ التَّعَنُّتِ جَاءَ
هَذا وَشِعْرُكَ مَا عَلِمْتُ حَدِيقَةٌ ... تُبْدِي مَحَاسِنُهَا سَنًا وَسَنَاءَ
تُنْسِي شَمائِلُهُ الشَّمَائِلَ كُلَّمَا ... وافَتْ تَعُودُ الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ
هَيْهَاتَ لاَ تَخْفَى مَعَانِيهِ التِي ... رَقَتْ وراَقَتْ بَهْجَةً وَضِيَاءَ
لاَ تَحْفِلَنَّ بِمَن أتَى مُتَعَرِّضًا ... لِلْقَولِ لاَ يَثْنِي العِنَانَ حَيَاءَ
فَلِذِكْرِ خَصْلِكَ لاَ أزالُ مُرَدِّدًا ... وبِشُكْرِ فَضلِكَ أغْمُرُ الأنْدَاءَ
شَيَّدتُ مَبْنَى الوُدِّ فِي قَلْبِي فَلَنْ ... يخْشَى عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عَفَاءَ

-193-

وكَتَبْتُ لِلْفَقيهِ أبي عَبْدِ اللّه بْن الأكْحَل وَقَدْ
وجَّهَ إلَيَّ بشَيْءٍ منَ التِّينِ الدُّنْقَالِ عَلَى سَبيلِ المُداعَبَة
وكانَ في ذلِكَ العَهْدِ مَعَ كتّاب المَقامِ وفِي الثَّالِث
لِصَفَر عام تسْعَة وثماني مائة[280]

وصَلَتْنِي تُحْفَةٌ ... تُجْتَلَى فَوْقَ الطَّبَقْ
مِن بَنَاتِ الزَّنْجِ قَدْ ... نُظِّمَت عَلَى نَسَقْ
أُجْلِسَتْ فِيهِ عَلَى ... فُرُشٍ مِنَ الْوَرَقْ
ظُلِّلَتْ وُجوهُهَا ... بَرَيَاحِينِ الحَبَقْ
أُلْبِسَتْ أجْسَامُهَا ... حُلَلاً مِن الغَسَقْ
بِرُقُومٍ قَدْ بَدَتْ ... فِي دُجَاهَا كَالشَّفَقْ
ذَاتَ لَوْنَيْنِ كَمَا ... يُجْتَلَى حُسْنُ الحَدَقْ
بِمَحَاسِنٍ أتَتْ ... فِرَقًا بَعْدَ فِرَقْ
كُلَّمَا قَدْ رُمِقَتْ ... حسنُهَا أحْيَا الرَّمَقْ
مِن صَدِيقٍ مَن يَقُلْ ... فِيهِ ذُو الفَضْلِ صَدَقْ
عَاجِزٌ عَن شُكْرِهِ ... كُلُّ ذِي لَفْظٍ نَطَقْ
لِنَدًى أوْ لِعُلًى ... أوْ لِجَمْعِ مَا افْتَرَقْ
عَوِّذُوا مُهْدِيَهَا ... بالتِي تَتْلُو الفَلَق

---

(280) أبو عبد الله ابن الأكحل من بيت كان أهله يتولّون الخطط. انظر الاحاطة 3 : 204. أما الدنقال فهو كما يبدو من وصفه تبينٌ أسود مخطّط، وقد ورد ذكره أيضا في الروض المتون لابن غازي.

فأجابَ بأبْياتٍ حَقُّهَا الإلْغاءُ

كَتَب إلَيَّ عنْدَ الوُقوفِ عَلَيْهَا الفَقيهُ الكاتِبُ أبُو القاسِمِ

ابْن أحمد بنْ أبِي القَاسِمِ بْن قُطْبَةَ رحمَهُ الله

ما نَصُّهُ(281)

-194- قَسَمًا يا سَيِّدِي ... بالدُّجَى ومَا وَسَقْ
وبمَنْ سَوَّى الوَرَى ... كَيْفَ شَاءَ مِنْ عَلَقْ
وَبآيَاتٍ أرَى ... في جميعِ مَا خَلَقْ
مَا سِواكَ شَاعِرٌ ... كُلَّمَا جَارَى سَبَقْ
جامِعٌ مِنَ العُلَى ... كُلَّ مَعْنًى افْتَرقْ
لاَ وَلاَ كَقِطْعَةٍ ... رَاقَ مَعْنَاهَا وَرقْ
وَفَدَتْ مِن عِنْدِكُمْ ... مِثْلَ عِلْقٍ اتَّسَقْ
تَصِفُ التِّينَ وَقَدْ ... وَصَلَتْكَ فِي طَبَقْ
قَدْ حَكَتْ ألْوَانُهَا ... قِطَعًا مِنَ الغَسَقْ
بِخُطُوطٍ فَوْقَهَا ... كَبيَاضٍ وَشَفَقْ
مِنْ خَلِيلٍ قَلْبُهُ ... لكَ بالوُدِّ صَدَقْ
مُغْرَمٍ بالجُودِ فِي ... مُغْتَدَى ومُغْتَبَقْ
انْ يكُنْ أهْدَاكَ مَا ... زانَهُ نُورُ الحَبَقْ
فَلَقَدْ أهْدَيْتَهُ ... دُرَرًا عَلَى نَسَقْ
وَحُرُوفًا ابْهَجَتْ ... طَرْفَ كُلِّ مَنْ رَمَقْ

(281) أبناء قطبة متعدّدون، ترجم ابن الخطيب وغيره لبعضهم وكلهم كانوا من النابغين في الأدب، وقد نبغ أحدهم في الشعر وهو صغير، فدعاه ابن الخطيب : الصبي الشاعر، وألحق بديوان الكتّاب من أجل ذلك.
الكتيبة الكامنة : 296 والاحاطة 2 : 250 والدرر الكامنة4 : 167 ونثير فرائد الجمان : 318 وريحانة الكتاب. وراجع تراجم أعلام هذه الأسرة في المصادر المذكورة.

وفُنونَ الحسْنِ قَدْ   جُمِعتْ عَلَى فِرَقْ

يَالَهَا مِنْ قَطعَةٍ   سَحَرَت والسِّحْرُ حَقْ

دُمْتُمَا فِي عِزَّةٍ   كُلَّمَا بَرْقٌ خَفَقْ

وَالدَّياجِي عَسْعَسَتْ   وَبَدَا ضَوْءُ الفَلَقْ

وانثَنى غُصْنُ النَّقَا   بَيْنَ حُلَّةِ الوَرَقْ

فَراجَعْتُهُ لِلْحِينِ بمَا نَصُّهُ وَبتَاريخِ العَاشِرِ لِرَبيعِ الآخِرِ عَام ثمَانِيةٍ وَثمَانِمَائة

طَيْفُهَا حِينَ طَرَقْ   عَاقَنِي عنهُ الأَرَقْ -195-

بتُّ مِنْ شوْقِي لَهَا   بَيْنَ سُهْدٍ وَقَلَقْ

وغرَامٍ وَضَنًى   ولهيبٍ وَحُرَقْ

وَحَديقَةٍ بِهَا   مُتِّعَتْ مِنَّا الحَدَقْ

بنتُ فِكْرٍ جُلِيَتْ   مِثلمَا يُجْلَى الفَرَقْ

سَكَّنتْ قلبًا لَهَا   طَارَ وَجْدًا وخَفَقْ

نَقَعَتْ مَا كانَ فِي   لأعِجِ الشَّوْقِ احْتَرَقْ

أجْمَعَ الحسْنُ عَلَى   أنْ حَوتْهُ وَاتَّفَقْ

فَضَحَتْ نَوْرَ الرُّبَى   أخْجَلَتْ نُورَ الشَّفَقْ

فاحْمِرَارُهُ حَيًا   واصْفِرارُهُ حَنَقْ

دُرُّهَا نُضِّدَ مِنْ   طِرْسِهَا فَوْقَ السَّرَقْ

لَفْظُهَا وُرْقٌ شَدَتْ   بَيْنَ هَاتِيكَ الوَرَقْ

بكَ يَا ابْنَ قُطْبَةٍ   لُؤْلُؤُ الفَضْلِ اتَّسَقْ

أيُّ فَرْعٍ مِنكَ فِي   دَوْحَةِ المَجْدِ بَسَقْ

فَلِسَاني لَمْ يَزَلْ   شاكِرًا مَتَى نَطَقْ

بَحْــــرُ نَظْــــمٍ لِــــعَصًى مِــــن يَــــرَاعِكَ انفلَــــقْ
جِبْرُهَــــا يَــــرُوعُ مَــــا في السَّبَّــــاقِ مِــــن زَرَقْ
وَرَئِيسُنَــــا بِــــهِ سُوقُ نَظْمِنَــــا نَفَــــقْ
جَــــدْوَلُ النِّظَــــامِ مِــــنْ بَحْــــرِ عِلمِــــهِ دَفَــــقْ
هَدْيُــــهُ أجْلَــــى إذَا لاَحَ مِــــن نُــــور الفَلَــــقْ
وَسَحَــــابُ رِفْــــدِهِ لِلعُفَــــاةِ قَــــدْ بَــــرَقْ
دُمْتَ بَــــدرًا يُهْتَــــدَى بسَنَــــاهُ في الــــغَسَقْ

-196-

وقلْتُ مُخاطَبًا مَن حضَرتُ لَيْلَةً في إعْراسِهِ وَطَلَبَ منّي الحاضِرونَ وَصْفَهَا

يَا وَحيدَ النَدَى وقُطْبَ المَعَالِـي زَاحَـمَ الشُّهْبَ مُرتَقَـاكَ العَالِـي
لُـحْتَ كالشمْسِ بَهْجَـةً وَعَـلاَءً فاقتِـرابُ السَّنَـى وبُعْـدُ المَنَـالِ
والذِي حُزْتَ يقْصرُ الوَصْفُ عَنْهُ مِن جَميلِ الحُلاَ وَغُرِّ الخِـلاَلِ
شِيَــمٌ تَـقْصرُ الأمَاجِـدُ عَنْهَـا بحُلاَهَـا جِيـدُ المَكَـارِمِ حَـالِ
وَأوانُ الإمــلاَكِ أسْعَــدُ آتٍ بوُجــوهِ القَبُــولِ وَالإقبَــالِ
قَــدْ نَعِمْنَــا فيــهِ بَلَيْلَــةِ أُنْسٍ عَرَّفتنــا عَــوَارِفَ الإفْضَالِ
لَسْتُ أنْسَى الإحْسَانَ والحسْنَ منْهَا شَفَـعَتْ لِـي الجَمَـالَ بالإجْمَـالِ
وأفَـادَتْ سَمْعِـي وكَفِّـي غِنَــاءً وغِنًــى رَاقِنِــي ونَعِّــمَ بَــالِ
صَوْتَ شَادٍ عَلى تَرَنُّـمِ عُــودٍ يَهَـبُ السُّولَ مِنـهُ قَبْـلَ السُّؤالِ
عُــودُهُ ناطِــقٌ بغَيْــرِ لِسَانٍ بخَفِّــي الضَّمِيــرِ دونَ مَقَــالِ
نَغمَــاتٌ عَــنِ المَرينــيِّ تُــرْوَى وهْــيَ بالمَوْصِلِــيِّ ذاتُ اتِّصالِ(282)

(282) المريني نسبة إلى بني مرين، ويبدو أنه كان من أعلام الموسيقى في الأندلس والمغرب، والموصلي هو إسحاق المعروف.

وَلَكَمْ رَاقِصٍ يَرُوقُ انعِطافًا كَقَضِيبٍ فِي دَوحِهِ مَيَّالِ
طَرَبًا مَالَ عِطْفُهُ وتَثَنَّى كالرُّبَى فِي يَدِ الصَّبَا والشَّمالِ
وأَنَارَتْ لِلشَّمْعِ فيهَا نُجومٌ تُجْتَلَى عِندَ نَقْصِهَا فِي اكْتِمَالِ
كُلُّ قَلْبٍ مِنَّا بهَا فِي اشْتِغَالٍ كُلُّ جِسْمٍ مِنهَا رَهِينُ اشتِعَالِ
وكَأنَّ الذي تسَاقَطَ منهَا زَهَرُ الروْضِ بَيْنَ فَيْءِ الظِّلاَلِ
لاَ تُوَفِّي بَعْضَ الذِي رُمْتُ مِن وَصْفِ حُلاَهَا رَوِيَّتِي وَارْتِجَالِي
فاقبَلِ العُذْرَ انَّنِي مُسْتَقِلٌّ هِبَةَ النَّفْسِ عِنْدَهَا والْمَالِ
شيمَةُ الفَضلِ لمْ تَزَلْ مِنكَ تُرْجَى ولَدَيْكَ القَبُولُ رَحْبُ المَجَالِ
قدْ أنَلْتَ الجميعَ كُلَّ جميلٍ نِلتَ مَا تبتَغي مِنَ الآمَالِ

-197- **وكانتْ بَيْنِي وبَيْنَ الفَقيهِ أبي زكرّيَا يَحيَى بْن السّرّاجِ مِن أهْلِ رُنْدَةَ مُكَاتَبَاتٌ أَيَّامُ القِراءَةِ إلَى أن زَلَّتْ بِهِ قَدَمُه، وَخانَتْهُ هِمَمُه، ونَزَعَ أَيَّامَ فِتنَة الرَّئِيسِ البائِسِ الواصِلِ إلى جبَلِ الفتْح إلَيْهِ، ثمّ اسْتَقَرّ أخيرًا بفَاسٍ وَبهَا وافَتْهُ مَنِيَّتُهُ، أعَاذَنَا اللهُ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ، فمِن ذلِكَ مَا خاطَبْتُهُ بهِ فِي آخر ذِي الحِجَّةِ من عَامِ ثَمانِيةٍ، وهِيَ وكَثِير مِمَّا تقدَّم وَما يَاتِي إنْ شاءَ اللهُ مِنَ العَاطِلِ، والتَّوارِيخُ دَالَّةٌ علَى السّن فِي أَوْقاتِ نَظْمِهَا فالعُذرُ ظَاهِرٌ فِي الانحِطَاطِ عنِ الجَزالَةِ**[283]

ألاَ حَدِّثَانِي بِاللِّقَا يَا خَلِيلَيَّا وَلاَ تُوسِعَا وَعْدِي مِطَالاً .وَلاَ لَيَّا
ألَمْ تَعْلَمَا أنّي عَلَى القُرْبِ والنّوى أُحافظُ ذاكَ العَهْدَ رَعْيًا لهُ رَعْيَا
وأنّي لاَ أسْلُو وَإنْ بَعُدَ المَدَى وإنْ أكثَر الوَاشُونَ لاَ أقْبَلُ الوَشْيَا
لَئِنْ أرْشَدَ اللُّوَّامُ قَلبِي لِسَلوَةٍ فَهَيْهَاتَ إنَّ الرشْدَ أحْسِبُهُ غَيَّا
وأنَّى لقَلبِي بالتَّقَلّبِ عَنهُمُ كَمَا زَعَمَ العُذّالُ وَهْيًا لَهُمْ وَهْيَا

(283) راجع ما كتبناه في المقدّمة حول يحيى السراج هذا.

هُمُ نَصْبُ عَيْنِي كُلَّمَا بَخِلَ الحَيَا تُحَيِيهِمُ بالغَيْثِ أدْمُعُ عَيْنَيَّا
وَللّـهِ منهُـمْ نَسْمَـةٌ حَاجِريَّـةٌ لَهَا ارَجٌ مِن نحْوِهِمْ عَاطِرُ الرَّيَّا
ولمْ أنْسَ لمَّا استَشْرَفَتْ ظَبَيَاتُهَا وَقَدْ عُدتُ نِسْيًا فِي المَعَاهِدِ مَنسِيًّا
وَكَمْ مِن فُتُونٍ في فُتُورِ جُفُونِهَا ومِن أسْهُمٍ مَهْمَا رَمَتْ تُحسِنُ الرَّمْيَا
وَتُبْدِعُ إذْ تُبْدِي جَمَالَ صِفَاتِهَا فَتَسْبِي قُلُوبَ العَاشِقِينَ بها سَبْيَا
بِغُرٍّ ثَنايَا قَدْ تَنَثْنِي لِحُبِّهَا فَأَعْطَيْتُ قَلبِي دُونَ شَرْطٍ وَلا ثُنْيَا
حَمِدتُ لِدَهْرِي مَوْقِفًا جالت الصَّبَا بأرْجَائِهِ سَقْيًا لأَيَّامِهَا سَقْيَا
جَرَتْ نُشُرًا ما بَينَنَا وتسَحَّبَتْ بِرُودَ بطَاحٍ تُبدِعُ النَّشْرَ والطَّيَّا
ولكِنْ أنَا الظَّمْآنُ حينَ تَقَلَّصَتْ ظِلالٌ رَشَفْنَا وِرْدَهَا شَفَةً لَمْيَا -198-
حمَى الصَّبْرُ مِنّي جانِبًا مُتَمَنِّعًا غَزَتْهُ الظُّبَا لمَّا رأى ذلكَ الظَّبْيَا
أبَادَ دُمُوعِي يَوْمَ أبْدَى صَبَابَتِي فَبحْتُ بِسِرٍّ لم يزَل مَيِّتَ الأحْيَا
وَرُمْتُ اكتِتَامَ الحُبِ بعْدَ بِعَادِهَا ومن يرُمِ الغَايَاتِ لأَشَكَّ أنْ[يَعْيَا]
وأحْيَيْتُ لَيْلِي حِينَ حَيَّا نَسِيمُهَا وَعَزَّ مَرامُ النَّوْمِ في ذِلِكَ [ ]
فَمن لِعَلِيلٍ لَمْ يَزل مُتَعَلِّلاً بِعَرْف نسِيمٍ مِن حِمَاهَا إذا [ ]
وقفتُ بمَغنَاهَا وَفَيْضُ مَدامِعِي كمِثلِ الحَيَا اسْقِي بهَا ذلِكَ الحَيَّا
وَحَلَّيتُهُ نَظْمًا منَ الشّعْرِ رَائِقًا وَمِن أدْمُعِي نَثْرًا فأحْسِنْ بِهِ حَلْيَا
فَمَنْ لِي وجَمْرُ الشَّوْق بَيْن جَوانِحِي ومَاءُ المَآقِي قدْ طَما بَيْنَ جفْنَيَّا
إذَا جَنَّ لَيْلِي جُنَّ قَلْبِي وأنثَنِي أقَلِّبُ قَلبًا خافِقًا بَيْنَ جَنْبَيَّا
لأنّ لِيَ القلْبَ المُقَلَّبَ بالأسَى سَيَحيَا بمَا يُهْدِيهِ مِن فِكرِهِ يَحْيَى
حَبِيبٌ حَبَانِي بالرسَائِلِ دَوْحَةً تَفَيَّأتُ ظلَّ الأُنسِ فِي رَوْضِهَا فَيَّا
فأنَسَ حتَّى لَمْ يَدَعْ لِيَ وَحْشَةً وأوْرَدَ حَتَّى لَمْ يدَعْ كَبِدًا ظَمْيَا
ومِمَّا أجدَّ الوَجْدَ حُسْنُ عَقِيلَةٍ كَعَذْراءَ جاءتْ وهْيَ تَمْشِي عَلَى استِحْيَا
فِمن نُورِ مرْآهَا سَنَا «سُرَّ مَن رأى» ومِن وشيِهَا صَنْعَاءُ إن أحْسَنَتْ وَشْيَا

فأحْيَا فُؤادِي حُسْنُ مُخْجِلَةِ الضُّحَى فَقَلبِي قدِ اسْتَحْيَا وَصُبْحِي قد اسْتَحْيَى
جَلوْتُ بهَا وَجْهَ العَقيلَة وصفْهَـا يُقَصرّ عن إدْرَاكِهِ كُلُّ مَنْ أعْيَـا
فأيْنَ نُجُومُ الأُفْقِ من ذِلكَ السَّنَا إذا اجْتَلَتِ الأبصَارُ رُتْبَتَهَـا العُلْيَـا
فَيالَيْتَ هذَا القَلْبَ تُوسَى كُلُومُـهُ بزَوْرَةِ خِلٍّ أحرَزَ المجْدَ أوْ سيًّـا
وَحُبُّ أبيهِ المَاجِد العَلَمِ الرِّضَى يَدينُ بِهِ مَنْ يقصِدُ الدِّينَ والدّنْيَا
فمَـن شاءَهُ لِلعِلْـمِ أَلْفَـى إمَامَـهُ يُجَلّى لهُ في كُلِّ مُشْكِلَةٍ هدْيَـا
وَمَـنْ حَـلَّ مَثْواهُ يجْـدهُ مَثَابَـةً بهَا يَرِدُ العَافُونَ مُسْتَعْذَبَ السُّقْيَا
وأمَّا إذَا أَلْقَـى مِـنَ الذِّكْـرِ آيَـةً فَدُونَكَ مَا تَبغِيهِ من غَايَةٍ قُصْيَا
فَلِلَّهِ دُرُّ اللَّفْـظِ إن نَصَّ خُطْبَـةً وَلِلَّهِ بَحْرُ الحِفْظِ ان فَسَّرَ الوَحْيَا -199-
تَـراهُ مَـعَ الأحيَـانِ شَمْسَ هِدايَـةٍ وشَمْسُ الضّحى لِلمُجْتَلِي أَبْدَعُ الأشيَا
ألاَ يا أخِي مَن لِي بشكْرِ هَدِيَّةٍ بَعَثْتَ بهَا لاَزِلْتَ بالشُّكْرِ مَجْزِيًّا
وحَقِّكَ ما أَلبَسْتُ لِلفخْـرِ قَبْلَهَـا كَمَلْبِسِهَـا الضَّافِي شِعَـارًا وَلاَزِيًّـا
سَجِيَّةُ مَن يُنمَـى لأَكْـرَمِ مَـعْشَرٍ وَشيمَةُ مَن يُلْفَى رَضِيًّا ومَرْضِيًّـا
لكَ اليَدُ خطَّتْ في المَهَارِقِ حِكمَةً وحُكْمًـا فَمامُـورًا غَـدَوتُ وَمنْهَيًّـا
أَقُـومُ لدَيْهَـا مُطْنِبًـا في ثَنَائِهَـا مَدَى الدّهْرِ لاَ أُلْفَى عَنِ الشكْرِ مَثْنِيًّا
وأجْعَـلُ مَثْـوَى رُنْـدَةٍ مُتَوَجَّهًـا إذا شِئْتُ أمْرًا(283م) من مَرامِيَ مَقضِيًّا
وأخـطُبُ لـلآدابِ غُـرَّ عقَائِـلٍ تَفُـوقُ حُلاَهَـا بُحْتُرِيًّـا وَطَائِيًّـا
فَتَرْتَاحُ مِنّي الرُّوحُ حَتَّى كأنَّنِـي أطيـرُ لمَغْنَاهَـا بمِـلْءِ جَنَاحَيًّـا
حَنينًا لِمَنْ أهْـدَى الأمَانِيَّ كُلَّهَـا فَمَا بَقِيَتْ أُمْنِيَّةٌ لِي سِوَى اللُّقْيَا

(283م) أمرًا : كُتِبَ فوقها : حَتْمًا، أي أنها رواية، وتخيير، وذلك أنّه يقال : أمر مقضي وحتم مقضي، والاثنان في القرآن الكريم.

وَهَنَّأَتْ بَعْضَ الأَوِدَّاءِ بِبِنْتٍ وُلِدَتْ لَهُ

هَنِيئًا بِهَا طَوْعَ السَّعَادَةِ وافِدَهْ   تُرِيكَ مِنَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ عَوائِدَهْ
أَمَا حَقُّهَا واللهُ يكْلأُ مَجْدَهَا   بأن تُصْبِحَ الآمالُ طُرًّا مُسَاعِدَهْ
وأن تَغْتَدِي الشَّمْسُ التِي عَمَّ نُورُهَا   تُقِرُّ بأَوْصَافٍ لَهَا غَيْرِ واحِدَهْ
فَمِن رِفْعَةٍ فَوْقَ الثرَيَّا مَكانُهَا   ومِنْ حَسَبٍ شَادَ الكَمالُ مُعَاهِدَهْ
ومِن والِدٍ للهِ مَنْشأُ فَضْلِهِ   إذا جَدُّهُ الأَرْضَى حَمِدْنَا ووَالِدَهْ[284]
عَلَى نَسَقٍ أحْسِن بهِمْ وَبِعِقْدِهِمْ   إذَا مَا نَظَمْنَا بالثَّنَاءِ فَرائِدَهْ
فأَهْلاً بِهَا مَن عالمِ الكَوْنِ فَذةً   مُمَجَّدَةً قَدْ طَاوَلَتْ كُلَّ ماجِدَهْ
وبُشْرَى بِهَا بُشْرَى لأُمٍّ وَوَالِدٍ   خِلاَلُهُمَا فِي الدَّهْرِ بالفَضْلِ شَاهِدَهْ
وإنِّي لطَلاَّعُ الثَنَايَا بشُكْرِهِمْ   لِيَ السَّبْقُ فِي آمَادِهِ المُتَبَاعِدَهْ
ولَكِن بمَا أُثنِي وأُفْصِحُ فيهِمُ   ولَوْ أنَّنِي جَارَيْتُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَهْ -200-
وعِندِي وُدٌّ ليْسَ يَبْلَى جَدِيدُهُ   وَحَيْثُ غَدَتْ أَسْبابُهُ مُتَعاضِدَهْ
ووَاللهِ ما وفَّيتُ حَقَّ أُخُوَّةٍ   مَحَبتُهَا فِي ذاتِهِ مُتَزايِدَهْ
فجازَاكَ عَنّي يَا أخِي خَيْرَ [ما] جَزَى   إلاَهٌ غَدَتْ أَلْطافُهُ مُتَعاضِدَهْ

---

(284) لم يفصح الشاعر عن اسم صديقه هذا.

(285) وابْدَأُ عَلى جِهَةِ التَّبَرُّكِ بِقَصيدَةٍ كُنتُ نَظَمْتُهَا

في الجَنابِ النَّبويِّ الكَريمِ نَفَعَ اللهُ بالقَصْدِ وَقدْ أطَلَّ

مَوْسِمُ عام ثمَانيَةَ عَشَرَ وثمانِمائةْ

وسمَّيْتُهَا

الحَديقَةُ النَاضِرَةْ

والحَدَقَةُ النَّاظِرَةْ، وهْيَ

تهادَتْ قُبَيْلَ الصُّبحِ والركْبُ نُوَّمُ ... ونَجْمُ الدُّجى بالأُفْقِ لاَ يَتَلَوَّمُ
فَمَا الشُّهْبُ في نَهْرِ النَّهارِ وقدْ جَرتْ ... لِمَوْرِدِهَا إلاَّ القَطَا وهْيَ حُوَّمُ
تَفتَّحَ زَهْرُ الزُّهْرِ في رَوْضِ أُفْقِهَا ... فَمُدَّ لِيَجْنِيهَا مِنَ الفَجْرِ مِعْصَمُ
كأنَّ الدُّجى والفَجْرُ تحتَ ذُيولِه ... مُحَجَّلُ أطْرافِ القَوائِمِ أدْهَمُ
ولمَّا تَهاوَتْ شُهْبُهُ أوْضَحَ السُّرى ... سَنَا الفَجْرِ حَيثُ الرَّكْبُ سِرٌّ مُكَتَّمُ
يَلُوحُ وَيخْفَى تارَةً فَكأنَّهُ ... وقَدْ حَلّ صَدْرَ البيدِ ظَنٌّ مُرَجَّمُ
لَئِنْ غارَ نَجْمُ الأُفْقِ أوْ غابَ نُورُهُ ... فَقَدْ طَلَعَتْ لِلأوْجُهِ الغُرِّ أنْجُمُ
فَيا صَاحِبَيَّ نجْوَايَ هلَ لِي مُنْجِدٌ ... وَسُلْطَانُ وَجْدِي في الفُؤادِ مُحَكَّمُ
رَعَى اللّهُ قلبًا قلَّبَتْهُ يدُ النَّوَى ... لهُ بيْنَ هَاتيكَ القِبَابِ تَلَوُّمُ
يَطيرُ خُفوفًا نحْوَهَا فَيُمِيلُهُ ... هَوًى في خيَامِ الظّاعِنِينَ مُخَيِّمُ
أَيخْفَى جَوًى قدْ ضُمِّنَتْهُ جَوانِحي ... وَدَمْعُ جُفُوني عَن ضَميري مُتَرْجِمُ
كأنَّ الحِمَى لمَّا استَهَلَّتْ مدامِعي ... كَمِيٌّ علَى أعْطَافِهِ يَقطُرُ الدَّمُ -201-
فأُرْسِلُ منهُ كُلَّمَا أخْلَفَ الحَيَا ... سَحابًا يَفُوقُ الغَيْثَ والغَيْثُ مُسْجَمُ
وآثارُ وَقْعِ الدَّمْعِ في عَرَصاتِهَا ... يُوَشِّي رُبَى أطْلاَلِهَا وَيُنَمْنِمُ
وكَمْ صَادِرٍ قادَتْهُ نَغْمَةُ صَادِحٍ ... فَمَا عادَ إلاّ والخَلِيُّ مُتَيَّمُ

(285) لا أرى معنى لقوله : وأبدأ، وحقها أن تكون : وأختم، فهذه القصيدة النبوية تأتي في ختام التهاني والمدائح.

خَلِيلَيَّ إنِّي كُلَّمَا هِمْتُمَا بِهِ لأَعْجَبُ أنْ يُشْجِي الفَصِيحَيْن أعْجَمُ
وَرَكْبٍ مُفَدَّى بالنُّفُوسِ أمَالَهُمْ حَثِيثُ سُرَاهُمْ لاَ الرَّحِيقُ المُفَدَّمُ(286)
تَحمَّلَ مِن أهْلِ العَزائِمِ أُسْرَةً فمُنْهِدُ جَيْشٍ لِلغِوَارِ وَمُقْدِمُ
يَجُرُّ القَنَا مِن خلفِهِ فيُرَى لَهَا عَلَى الرَّمْلِ خَطٌّ بالحَوافِرِ مُعْجَمُ
تَلوحُ ويُخْفِيهَا مُثَارُ عَجَاجِهَا كَما انسَابَ في خُضْرِ الأبَاطِحِ أرْقَمُ
فهَلْ مُنْجِدٌ بالصَّبْرِ وَالرَّكْبُ مُنْجِدٌ كَما شاءَهُ العَزْمُ الحَثِيثُ ومُتْهِمُ
إذَا اسْتَقْبَلَ الحَادي المَطايَا مُرَجِّعًا فمَا الرَّوْضُ أوْ مَا الطَّائِرُ المتَرَنِّمُ
يُرَدِّدُ ذِكْراهُمْ سُرورًا كَأنَّهُ بذَلِكَ يَنْعَى مَن أقامَ وَيَنْعَمُ
أرى الدَّهْرَ بَيْنَ الأخْذِ والتَّرْكِ للسُّرَى يُصَرِّحُ لِي مِن بَعْدِهِمْ ويُجَمْجِمُ
ويَلقَى هَوَى نَفْسِي جُنُودَ عَزائِمي فَيَهْزأُ بِي طَوْعَ المُقامِ وَيَهْزِمُ
وإنَّ الذي ألْغَى السُّرَى وهْوَ قادِرٌ لمُغْرًى بمَا لاَ يَنْفَعُ المرْءَ مُغْرَمُ
تُقَيِّدُهُ أوْزارُهُ ولَوِ اهْتَدَى لَسَارَ كَما يَسْرِي الجَوادُ المطَهَّمُ
وتمْنَعُهُ أعْمالُهُ ولَوِ اتَّقَى مَضَى مِثْلَمَا يَمْضِي الحُسامُ المُصَمِّمُ
أحُجَّاجَ بَيْتِ اللَّهِ فُزْتمْ بِزَوْرَةٍ حباكُمْ بهَا طَوْعَ السَّعادَةِ مَوسِمُ
وقَدْ وُجِّهَتْ فِيهِ إلَى اللَّهِ أوْجُهٌ يَلُوحُ عَلَيْهَا لِلْكَرامَةِ مِيسَمُ
رَحَلْتُمْ ومَنْ خَلَّفْتُمُوهُ لِغَيِّهِ مُهَوَّنُ رِيْبِ الحَادِثاتِ مُهَوَّمُ
فَيا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ مِمَّنْ تَخَلَّفُوا وعاجُوا عَنِ القَصْدِ الحميدِ وأحْجَمُوا
أقامُوا وَقَدْ سِرتُمْ فَمَا الرَّأيُ بَعْدَكُمْ رَشيدٌ وَلاَ العَزْمُ المؤَمَّلُ مُبْرَمُ
لَقَدْ عَرَّفَتْكُمْ فَضلَهَا عَرَفاتُهُ وضَمَّكُمُ البَيْتُ العَتيقُ وَزَمْزَمُ
وألْفَيْتُمُ شَتَّى الأمَانِيِّ في مِنًى وعِنْدَ وُجُودِ المَاءِ يلغَى التَّيَمُّمُ -202-
فَبُشْرَى لِمَنْ قَدْ حَلَّ فِيهِ مُؤَمِّلاً مَواهِبَ رُحْمَاهُ وهَيْهَاتَ يُحْرَمُ
وَشَنَّ جُيُوبَ الصَّبْرِ شوْقًا إلى الذي لهُ انشَقَّ بَدْرُ الأُفقِ وَهْوَ مُتَمَّمُ

(286) يعني بالرَّكْب ركب الحاج الأندلسي، والرّحيق المفدّم: الخمر المصفّاة.

وَزَارَ فِتَـــاءٌ لِلفَنَـــاءِ بَطَيْبَـــةٍ فكَانَ لهُ فيهَا عَلَى اللَّهِ مَقْدَمُ
ومَنْ شاقَهُ حَادِي الرَّكَائِبِ كُلَّمَا تَقَدَّمَهَـــا يَحْـدُو بهَـا ويُهَيْنِـمُ
بِدارًا لِمثْوَى خيْرِ مَنْ وَطِيء الثَّرى فرَكْبُ السُّرى قَصْدَ الحِجَازِ مُيَمِّمُ
فَلَوْلاَ حُلول بَيْـنَ قَبْـرٍ ومِنْبَـرٍ لمَـا رابَ تاخِيـرٌ ورَاقَ تَقَـدُّمُ
فَللهِ مَا أهْدَاكَ مِـن أُحُـدٍ وَقـدْ تَرفَّـعَ مِنـهُ لِلْهِدَايَـةِ مَعْلَـمُ
مَشَاهِدُ قَدْ شَاهَدْتَ منهَا مَعاهَدًا يُجَـدِّدُ ذِكْـرًا عهْدُهَـا المُتقَـدِّمُ
تَراءتْ فمَا نـورُ التَّباشِيرِ خامِـدٌ وَلاَ أوْجُهُ البُشْرَى بهَا تتَجَهَّـمُ
فمَـا حلَّهَـا إلاَّ بـه مُتَـوَسِّلٌ إلَـى اللَّـهِ في أرْجائِهَـا مُتَـوَسِّمُ
وصَرَّحَ بالشكْوَى فَنُودِيَ سامِـعٌ إجابَتُـهُ حَتْـمٌ وأُمِّـلَ مُنْعِـمُ
فَرافِـعُ طَـرْفٍ دُونَهَـا مُـتَضرِّعٌ وبـاسِطُ كَـفٍّ عِنْدَهَـا مُتَظَلِّـمُ
جُـوَارُكَ يَـا خَيْـرَ البَرِيَّـةِ مأْمَـنٌ ومُعْتَصَمٌ مِنْ فَادِحِ الخَطْبِ يَعْصِمُ
ثَرًى قَدْ هَدَى لِلرُّشْدِ كُلَّ مُضَلَّلٍ وأثْرَى بِهِ طَوْعَ السَّعَادَةِ مُعْـدِمُ
مَحَـطٌّ لِأوْزَارِ العُفَـاةِ ومَرْحَـلٌ وَقَصْدٌ لِطُـلاَّبِ الـرِّضَى وَمُيَمَّـمُ
ألاَ يا رَسولَ اللّهِ دَعْوَةَ نَـازِحٍ لهُ في النَّوَى والقُرْبِ فكْرٌ مُقَسَّمُ
يـرَاكَ بمَكْنـونِ الضّميـرِ فَقَلْبُـهُ عَلَيْكَ وما حَلَّ المَنَازِلَ يَقْـدُمُ
أنا المُذْنِبُ الجَانِي وأنتَ شَفيعُهُ ومِثْلُكَ مَن يُرْجَى ومِثْلِيَ يُرْجَـمُ
بمَاذَا عَسى أثْنِي عَلى المُصْطَفَى الذِي أتَى فيهِ نَصُّ الذِّكْرِ والذِّكْرُ مُحْكَمُ
وفائـدةِ الأكْـوَانِ يـقضي ابِتداؤُهَـا بـأنَّ بـهِ الوَحْـيَ المنَـزَّلَ يُخْتَـمُ
وأهْدَى مِنَ الآياتِ كُـلَّ عجيبَـةٍ هَدَتْ لسَبيل الرّشْدِ والرُّشدُ مُبْهَمُ
تُنيـرُ فيَعْلـو الخَافِقِيـنَ مَنارُهَـا ويجْلو سَنَاهَا الخَطْبَ والخطْبُ مُظلِمُ
فَمَن ذَا يَعُدُّ الشُّهْبَ وَالعَدُّ مُعْجِزٌ ومَن ذا يرومُ البَحْرَ والبَحْرُ مُفْعَمُ -203-
كَريمٌ قَضَى حُبِّي لَهُ بعْدَمَا جَنَتْ يَدِي أنّني في جَنَّةِ الخُلْدِ مُكْـرَمُ
فمَالِيَ إذا لاَقَيْتُ رَبِّي وَسيلَـةٌ سِوَى أنَّنِي أرْجُـو وأنِّـي مُسْلِـمُ
ومَا ضاقَ عَفْوُ اللّهِ عن مُذْنِبٍ وإنْ تعَاظَمَ منْهُ الـذَّنْبُ فالعَفْوُ أعْظَـمُ

أيا رَب إنَّ العَبْدَ بالْبَابِ وَاقِفٌ ... يَخَافُ وَيَرْجُو فَهْوَ يَدْنُو ويُحْجِمُ
يُفَكِّرُ في الرُّجعَى إلى اللّهِ نادِمًا ... فَيَوْمَ التَّنَادِي لا يُفِيدُ التَّنَدُّمُ
ومُجْري جِيادٍ للبَطَالَةِ هَلْ لَهُ ... مُجِيرٌ غَدًا مِن نارِهِ وهْوَ مُجْرِمُ
ألاَ عَطْفَةٌ نحْوَ المَتَابِ لَعَلَّهَا ... تُؤكِّدُ أسْبَابَ النَّجاةِ وتُبْرِمُ
فأُصْبِحَ مِنْ قَوْمٍ أنابوا لِرَبِّهِمْ ... فأجْرَوا دَمًا في دَمْعِهِمْ حينَ أجْرَمُوا
وأُكْتَبَ مِن قوْمٍ إلَى اللّهِ أسْلَمُوا ... وُجوهَهُمْ طَوْعًا وفي الأمْرِ سَلَّمُوا
لَعَلِّيَ أحْظَى بالجِنَانِ كَرَامَةً ... وقَدْ رَدَّدَتْ هَل مِن مَزيدٍ جَهَنَّمُ
فيَا أيُّهَا المغْرُورُ إنّكَ قادِمٌ ... عَلى عمَلٍ قَدَّمْتَهُ أوْ تُقَدِّمُ
أيَا عَجَبًا لِلمَرْءِ يَفْرَحُ بالذي ... ألَمَّ مِنَ الدُّنْيَا وَلاَ يَتَألَّمُ
إذا أنتَ لمْ تُؤثِرْ هواكَ تجَلُّدًا ... فَصَبْرُكَ أقْوَى والطَّرِيقَةُ أقْوَمُ
أتَرْكَنُ لِلدنْيَا وأنتَ بِفِعْلِهَا ... خَبيرٌ لِبِيسَ المَرْءُ مَن لَيْسَ يَحْزَمُ
أتَغْتَرُّ أن أهْدَتْكَ زَهْرَةَ حُسْنِهَا ... مَتَى لَذَّ يَوْمًا شَهْدُهَا وهْوَ عَلْقَمُ
تُفيدُكَ عِلمًا بالتَّجارِبِ كُلَّمَا ... تَحُطُّ وتُعْلِي وهْيَ بالحَالِ تُعْلِمُ
تُوَلِّيكَ إن وَالَيْتَهَا خُطَّةَ الأسَى ... فَحتَّى مَتَى تَصْغِي وَلاَ تتَعَلَّمُ
إذا نَفَذَ المقدورُ أصْمِتَ كاهِنٌ ... وَرُدَّ بِهِ عمَّا ادَّعَاهُ مُنَجِّمُ
أمِنْ بَعْدِ ما لاَحَ المَشيبُ بِلمَّتِي ... صَبَاحًا هَدانِي لَيْلُهُ وهْوَ مُظْلِمُ
تَجَهَّمَ وَجْهُ الأُنسِ وَهْوَ بِمفْرَقِي ... أزاهِرُ في خُضْرِ الرُّبَى تَتَبَسَّمُ
لِعِمّتِهِ في الفَوْدِ فَضْلُ ذُؤابَةٍ ... علَى لِمَّةٍ كادَتْ بهَا تَتَلَثَّمُ
هُوَ الوَارِدُ المَرْغُوبُ عَنْهُ فكُلّمَا ... ألَمَّ بفَوْدٍ وفْدُهُ يَتَألَّمُ -204-
جوادٌ ولمْ يُسْألْ وَفِيٌّ ولمْ يَعِدْ ... مُرَدّدُ وَعْظٍ وهْوَ لا يَتَكَلَّمُ
ومِن بَعْدِ مَا مَرَّتْ ثَلاثُون حجَّةً ... وَسبْعٌ يُرامُ الأُنسُ أوْ يُتَوَهَّمُ(287)

---

(287) اعتمدنا على هذا البيت وتاريخ القصيدة في تحديد التّاريخ الذي ولد فيه الشّاعر ؛ راجع المقدّمة ؛ ومرمى الأشد هي الأربعون سنة.

وقارَبْتُ مِن مَرْمَى الأشَدِّ رَمِيَّةً تُقَرْطِسُهَا مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ أسْهُمُ
وصَوَّحَ مَرْعًى لِلشَّبِيبَةِ مُخْصِبٌ وأيُّ شَبابٍ مُونِقٍ لَيْسَ يَهْرَمُ
أُعَلِّلُ بالبُهْتانِ قلبًا مقلبًا وَأُلْزِمُ مِنهُ النفسَ ما لَيْسَ يَلْزَمُ(287م)
وأُصْغِي لأقوامٍ يُقيمُونَ ألْسُنًا تُجادِلُ في صِدْقِ المَقالِ وتَخصِمُ
بَنِي زَمنٍ سَامُوا أبَاهُمْ زَمانَةً فمَالَكَ في أفْعَالِهِمْ كَيفَ تَحْكُمُ
لقد أعرَبُوا اسْمَ المَكرُمَاتِ وبَدَّلُوا فلاَ فاعِلٌ يُجْزَى وَلاَ فِعْلَ يُجْزَمُ
وأغْتَرُّ بالدُّنْيا وان كُنتُ نِلْتُهَا وأصْبَحْتُ في أثوابِهَا أتَنَعَّمُ
وَجُدْتُ وَلاَ مَنٌّ بَمَا مَلَكَتْ يَدِي وَرَبِّي يَدْرِي ما بِهِ أنَا مُعْلِمُ
عَلَى حُبِّهِ والحُبُّ في العَفْوِ مُطْمِعٌ كمَا قال إنِّي للثَّلاثَةِ مُطْعِمُ(*)
فَلَوْ عِلِمَ العُذَّالُ كُنْهَ مَحَبَّتِي لأقصرَ عَن عَذْلِي وُشَاةٌ ولُوَّمُ
ولكِن إذا لَمْ أحْظَ يومًا بِزَوْرَةٍ يَطِيبُ بِهَا في طَيْبَةٍ لِي مُخَيَّمُ
فمَا شهُبُ العليَاءِ حَوْلِي مُنِيرَةٌ تَرُوقُ ولاَ بَحْرُ المَكَارِمِ مُفْعَمُ
ولاَ البُرْدُ مَوْشِيُّ الحَواشي مُنَمْنَمٌ وَلاَ الثوْبُ مسْدولُ المَعَاطِفِ مُعْلَمُ
ولاَ السَّيْفُ مَصْقُولُ الغِرارِ ولاَ الهُدَى رَحيبٌ لِيَرْتاحَ الجَوادُ المُسَوَّمُ
ولاَ الدِّرْعُ فَضْفَاضٌ ولاَ الرمْحُ ذابِلٌ قَدِ اطَّرَدَتْ مِنهُ الكعُوبُ مُقَوَّمُ
ولاَ الروْضُ ممْطُورُ الجَوَانِبِ مَائِدٌ مُمَنَّعُ أرْجاءِ الجِلاَلِ مُنَعَّمُ
ولاَ الظَّبْيُ مصْقُولُ الترَائِبِ إنْ ثَنَى إلى قصْدِهِ الجيدَ انثَنَى وهْوَ ضَيْغَمُ
فَمَا رابَ مِنْهُ جِيدهُ وهْوَ مُتْلَعٌ ولاَ راقَ منْهُ اللّحْظُ وهْوَ مُنَوَّمُ
لعَلِّي بهَا أحْظَى فألْحَقَ بالأُلَى ويُحْسَبُ قَصدِي حينَ أُحْسَبُ مِنْهُمُ
وأنَّى يَخيبُ القَصْدُ والأكْرَم الذي يجودُ بِمَا شاءَ العُفاةُ وَيُنْعِمُ

(287م) هذا هو متعلِّق قوله : أينَ بَعْدِ.. وَمِنْ بَعْد..

(*) إشارة إلى الآية : ويُطْعِمونَ الطّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا ويَتِيمًا وأسيرًا.

وكَيفَ وحُبّي للنَّبِيّ مُحَمَّدٍ ﷺ(*) | لهُ في حَصَاةِ القلْبِ خَطٌّ مرَسَّمُ -205-
ألا يا رسُولَ اللهِ في النفْسِ حاجَةٌ | وجاهُكَ قدْ يُرْجَى لمَا هُوَ أعْظَمُ
رَجَوْتُ وأرْجأْتُ الأمورَ تَيقُّنًا | بأنَّ قَضَاءَ اللهِ أمْرٌ مُحَتَّمُ
فَيا سَائِلاً عمَّا أُكنَّتْ جَوانِحِي | ومَا في ضَميري لَمْ يَفُهْ لِي بهِ فَمُ
سَأحْظَى بِمَا أَمَّلْتُهُ إنَّ مَدْحَهُ | بمَا نَيْلُهُ يُعْلِي المَراتِبَ يُعْلَمُ
إذَا لَمْ تُحِطْ بالسِّرِّ عِلْمًا فَعَدّعَنْ | مَلاَمِي فإنَّ اللهَ أعْلَى وَأعْلَمُ
ودَعْنِي فأمْرُ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ | لَهُ مِن وراءِ الغيْبِ سِرٌّ مُكَتَّمُ
أتَسْتَحقِرُ الدُّنْيَا وتَسْتَعْظِمُ الذِي | تُؤمِّلُهُ مِنْهَا ورَبُّكَ أكْرَمُ
وَكِلْنِي لِمدْحِ المصْطَفَى المُرسَلِ الذي | بِهِ اللّهُ يَعْفُو عن ذُنُوبِي وَيَرْحَمُ
يُخَلِّدُ فِكْرِي فيهِ كُلَّ عَجيبَةٍ | تُخَطُّ عَلَى صَفْحِ الزمَانِ وتُرْسَمُ
ويَنْزَعُ عَن قوْسِ الإجادَةِ سَهْمَهُ | عَساهُ بِحَظٍّ في الشَّفاعَةِ يُسْهَمُ
لَعَلَّ ذُنُوبًا في فُؤادِي خَلَّفَتْ | كُلُومًا يُدَاوِيهَا الكَلاَمُ المُنَظَّمُ
فكَمْ قَسِمَاتٍ لِلْهِدَايَةِ تُجْتَلَى | وكَمْ نفَحاتٍ للرِّضَى تُتَنَسَّمُ
علَيْكَ سَلاَمُ اللهِ ما يَمَّمَ الوَرَى | حِمَاكَ ومَا صَلّوْا عَليْكَ وسَلَّمُوا

(*) جرت عادة ناسخ هذا الديوان أن يكتب التصلية فوق الاسم النبوي الشريف، و لم تطاوعني يدي على حذفها هنا، وهذا يجرّني إلى الحكاية التّالية : ذكر ابن بشكوال أن الفقيه الأندلسي أبا عبد الله بن فرج كان ينشد قول حسان رضي الله عنه :
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وأجَبْتُ عَنْهُ.
هَكَذا :
هَجَوتَ مُحَمّدا ﷺ وأجبتُ عَنهُ.
فكان يقال له : ليس يتّزن هكذا، فكان يقول : أنا لا أترك الصلاة على النبي ﷺ. قال ابن بشكوال : لقد يعجبني ما كان يفعله، نفعه الله بنيته في ذلك.
تكملة ابن الأبار : 500.

وَمِمَّا حَقُّهُ أنْ يُلْحَقَ بِمَا تَقَدَّمَ من قصائِدِ
التَّهانِي اليوسُفِيَّةِ المتقدّمَةِ قَبْلَ هَذا
قَصيدَةٌ نَظَمْتُهَا في هَناءِ المَوْلَى المُنعِمِ السُّلْطَانِ
أبِي الحجاج النّاصِرِ لدينِ اللّهِ رَحْمَةُ اللهِ علَيْهِ ورضوانُهُ
وقَدْ احْتَل رِكَابُهُ بِقَصْرِ نُبْلُه خَارِج حَضرَتِهِ
آيبًا مِن وِجْهَتِه الأولَى إلَى المنكّب وَشَلوْبانِيَة
بتَاريخ اليَومِ الثّامِنِ عشَر لِربيعِ الأوَّل عام ثمانيَة
-206- عَشَر وثمانِي مائة[288]

لِمَن الرَّكائِبُ نَحْوَ رامَةَ تَرْتَمِي مِنْ بَعْدِ طُولِ تأمُّلٍ وتَلَوُّمِ
عُوجًا كأمْثالِ القِسِيّ ضَوامِرًا مهْمَا ارْتَمَيْنَ يُصِبْنَ شَاكِلَةَ الرَّمِي
يَحْمِلْنَ من أهْلِ الصَّبابَةِ أسْرَةً كلِفَتْ بِرَبْعٍ لِلغَرامِ ومَعْلَمِ
مِن كُلّ يَقْظَانِ الفُؤادِ حَديثُهُ يَنْزِعُ المَنامَ عَنِ العُيُون النُّوَّمِ
مِن كُلّ مُنفَرِدٍ بمَجْموعِ الهَوَى مُغْرًى بأشْتَاتِ المحَاسِنِ مُغْرَمِ
مُتَوَسّدٍ فَوْقَ الرّواحِلِ بالحِمَى مُتَوَسّلٍ في رَبْعِهِ مُتَوَسِّمِ
مُتأمّلٍ لِبعَادِهِ مُتَألّمِ ومُسَلّمٍ لغرامِهِ مُسْتَسْلِمِ
هُنّ الحَنايَا لاَ الحَطايَا إذْ رَمَتْ مِنْهَا إلَى الغَرضِ القَصِيّ بأسْهُمِ
ومَعاهِد الأُنْسِ التِي وَقَفَتْ بهَا لِلصَّبْرِ حَلَّتْ كُلَّ عَقْدٍ مُبْرَمِ
مَا بَالُهَا إن أُرْشِدَتْ لِسُلُوِّهَا لاَ تَنْتَهِي ولأهْلِ عُذْرَةَ تَنْتَمِي
تُزْجِي عُهُودَ الدَّمْعِ مِن أجْفانِهَا وجْدًا بذِكْرَى عَهْدِهَا المتَقَدِّمِ

(288) راجعْ ما تقدّم في شأن قصر نُبْلُه، أما وجهة يوسف الثالث إلى المنكّب فقد كانت في أول شهر ربيع الأول من عام 818 هـ وقد نظم الملك الشاعر قصيدة في هذه الوجهة (ديوانه : 112 ـ 114) وعاد من هذه الرحلة في التاريخ الذي ذكره الشاعر هنا، وقد كان هذا الملك يتردّد مثل أسلافه على المنكب للراحة والاستجمام في قصر القلعة أو لتجهيز دعاة الفتنة إلى المغرب. راجع ما كتبناه في المقدمة، وكذلك عملنا : المُنَكَّب في العهد الاسلامي.

لَمْ تُنْكِرِ الحَيَّ الحِلاَلَ وإنَّمَا ... بِهُيَامِهَا عَرَفْتُهُ بَعْدَ تَوَهُّمِ
وعَقِيلَةُ الحَيَّيْنِ تُوقِفُ رَكْبَهَا ... فالقَوْمُ بَيْنَ تَأمُّلٍ وَتألُّمِ
مَالُوا عَلَى الأقْتابِ حِينَ تأمَّلُوا ... فالرَّكْبُ بَيْنَ تَوسُّدٍ وتَوَسُّمِ
أتْبَعْتُهَا نَظَرِي غَدَاةَ تَمَنَّعَتْ ... فالطَّرْفُ بَيْنَ تَمَنُّعٍ وَتَنعُّمِ
يُذْكِي بِمُحْمَرِّ الدُّمُوعِ صَبابَتِي ... فالقَلْبُ بَيْنَ تَضَرُّجٍ وَتَضَرُّمِ
كَمْ وقْفَةٍ حَتَمتْ عَلَيْهِ بالهَوَى ... فالوَجْدُ بَيْنَ تَحتّمٍ وتَحكُّمِ
وَالشَّمْسُ تَبْدو في السَّحَابِ وتَخْتَفِي ... فالأفْقُ بَيْنَ تَغيُّبٍ وَتَغَيُّمِ
وَالطَّيْرُ تَشْدُو والحَدائِقُ تَنْثَنِي ... فالدَّوْحُ بَيْنَ تَرنُّحٍ وتَرَنُّمِ
وَالغَيْثُ يسْحَبُ ذَيْلَهُ فوْقَ الرُّبَى ... فالسُّحْبُ بَيْنَ تَجمُّعٍ وتَجَهُّمِ
والزَّهْرُ قَدْ شقَّ النَّسيمُ جُيُوبَهُ ... فالرَّوْضُ بَيْنَ تَبسُّمٍ وتَنَسُّمِ
كَثَنَاءِ يُوسُفَ الذي شَرَعَ النَّدَى ... فالجُودُ بَيْنَ مُؤَمَّلٍ ومُيَمَّمِ
مَلِكٌ إذَا تُلِيَتْ مآثِرُ مُلكِهِ ... فالدُّرُّ بَيْنَ مُنَضَّدٍ ومُنَظَّمِ -207-
يُسْتَفتَحُ النَّادِي بِذِكْرِ خِلالِهِ ... فالوَصْفُ [بَيْنَ] مُقَدَّسٍ وَمُقَدَّمِ
كَمْ حِكْمَةٍ نادَتْ سيُوفَ جِهَادِهِ ... هَذِي العِدَى قَدْ أجْهَدَتْ فَتحَكَّمِي
كَمْ همَّةٍ نحْو الكواكِبِ تَرْتَقِي ... يَوْمَ الطِّعانِ ولِلْمَواكِبِ تَرْتَمِي
بمَرُوعِ غَرْبٍ للسَّوابِقِ ينْتَهِي ... ومُثِيرِ حرْبٍ للبَوَارِقِ يَنْتَمِي
من سائِقٍ يَهْدِي العُدَاةَ إلَى الرَّدَى ... أوْ سابِقٍ فَذِّ الشِّياتِ مطَهَّمِ
فإذا استَنَارَت لِلسُّيوفِ بَوارِقٌ ... في الرَّوْعِ أجْلَتْ كلَّ خَطبٍ مُظْلِمِ
وإذا تَجَلَّتْ للأسِنَّةِ أنجُمٌ ... في النَّقْعِ أبْدَتْ كُلَّ مَعْنًى مُبْهَمِ
والحَرْبُ ان عُقِدَتْ لَهَا رَاياتُهُ ... لِلْكُفْرِ حَلَّتْ كُلَّ عَهْدٍ مُبْرَمِ
يَقضِي بأمْرٍ في المُلُوكِ مُحَكَّمِ ... يَمْضِي بِعَزْمٍ كالحُسامِ مُصَمِّمِ
ما ظُلِّلَتْ لُجَجُ السَّوابِغِ في الوَغَى ... إلاَّ بأدْواحِ القَنَا المُتَحطِّمِ
ما جُرِّدَتْ بِيضُ الظُّبَا في المُلْتَقَى ... إلاَّ لأن كُسِيَتْ بمُحْمَرِّ الدَّمِ

يا مُنجِدَ الأَمْلاَكِ بالعَزْمِ الـذِي أبـدَى السَّبِيـلَ لِمُنْجِـدٍ ولمُتْهِـمِ
هذِي العِدَى تَرْجُو نَدَى يَدِكَ التي هِيَ مَوْرِدُ الظامي وَكَنْزُ المُعْـدِمِ
لـمْ يَجْنَحُوا لِلسّلْـمِ إلاَّ بعْدَمَـا أَلْقَتْ لكَ الدُّنْيَا يَـدَ المُسْتَسْلِـمِ
كَـمْ أمَّةٍ أمَّـتْكَ بَعْـدَ خِلاَفِهَـا لِتنـالَ عَفْـوَكَ تُحْفَـةً في المَقْـدَمِ
فأَنَلتَهَا مِن حِلْمِكَ النعْمَـى التـي ظَفِرتْ بِهِنَّ يدُ المُسِيءِ المُجْرِمِ
أَمَّنْتَهَـا فالقَـوْمُ بيْـنَ مُهَـوِّنٍ لِلخَطْبِ فِـي دَعَـةٍ وبيْـنَ مُهَـوِّمِ
أَوْلَيْتَهَـا مِـن جُـودِكَ النِّعَـمَ التِـي جَلَّتْ فَلاَ عَدِمَتْ وُجودَ المُنْعِـمِ
هـذا وَيـا للـهِ وجْهَـتُكَ التِـي أعـلتْ لديـنِ اللّـهِ أشرَفَ مَعْلَـمِ
أعْمَلتَهَـا طَـوْعَ السُّعُـودِ رَكائِبًـا تَسْرِي وتَنتَقِـلُ انتِقـاَلَ الأنْجُـمِ
وحَلَلْتَ فَوْقَ البَحْرِ أمْنَعَ مَعْقِـلٍ حَيْثُ الكَواكِبُ تَرْتَقِي أَوْ تَرْتَمِي
قدْ قابَلَ الكَفُّ الـخَضيبَ كأَنَّـهُ أبَدًا يُشيـرُ لَهَـا بِكَـفٍّ مُسَلِّـمِ (289)
وأَقَمْتَ بالقَصْرِ الـذِي بنُجـودِهِ يُلْفَى الأمَـانُ لمنجِدٍ أَوْ مُتْهِـمِ (290) -208-
فَتَرى الثَّنِيَّـةَ دونَ مَظْهَـرِ أُفْقِـهِ تَلْقَـى رِيـاحَ الجَـوِّ فاغِـرَةَ الفَـمِ
ثُمَّ انتقَلْتَ لِضفَّـةِ الـوادِي الـذِي مِنْهُ تُمِـدُّ البَحْـرَ راحَـةُ مُنْعِـمِ (291)
طَارَدتَ فيهَـا كُـلَّ أطْـلَسَ شَارِدٍ مُتَهَـيِّبٍ نحْـوَ المَنِيَّـةِ مُقْـدِمِ

---

(289) الكفّ الخضيب : اسم نجم معيّن، وقد سبق شرحه، والشاعر يصف هنا ذلك «القصر المفتّح الطيقان، المحكم الاتقان» كما يقول ابن الخطيب، ويقول في تشبيهه : «كأنّه مبْردٌ واقف، أوْ عَمودٌ في يد مثاقِف، قد أخذَ من الدّهر الأمان، وتشبّهَ بصَرْحِ هامان، وأُرْهِفَت جوانبُهُ بالصّخْر المنحوت، وكادَ أنْ يصلَ بيْنَ الحوتِ والحوتِ» أي بين الحوت الذي هو السمك والحوت الذي هو برج في السماء، وقد كان القصر المذكور على شاطىء صخري عال داخل في البحر. راجع كتابنا في المنكّب.

(290) أوْلِمُتْهِمِ : كتب إلى جانبها في الأصل : وَلِمُتْهِمِ، وكأن الشاعر يقترحها قافيةً أُخْرَى.

(291) يفهم من هذا البيت أن قصر نُبْلُه كان يقع على ضفّة وادي شنيل أو جدول من جداوله، ولعلّه من أجل ذلك يدعى الموقع في الرسوم الغرناطية : منهل نُبْلُه ويبدو أنّهُ هو القصر السلطاني الذي كان يخرج إليه الغني بالله للنزهة، وفيه يقول ابن زمرك :

يَـا قَصْرَ شِنِّيـلٍ وَرَبْـعُكَ آهِـلٌ والرَّوْضُ مِنْكَ عَلَى الجَمالِ قَدِ اقْتَصَرْ
لِلّـهِ بَحْـرُكَ والصَّبَـا قَـدْ سَرَّدَتْ مِنْـهُ دُرُوعًا تَحْتَ أعْـلاَمِ الشَّجَـرْ

وقَدِ انثَنَيْتَ لِحَضْرةِ المُلْكِ التِـي ... مَا وَصفُ غُرّ خلالِهَا بِمُكَتّـمِ
وَافَيْتَهَـا فاهْنَـأ بأَسْعَـدِ وِجْهَــةٍ ... وقَدِمْتَهَـا فَاهْنـأ بأَسْعَـدِ مَقْـدَمِ
مَوْلاَيَ لاَ تُحْصَى خِلاَلُكَ في العُلَى ... إلاَّ بآيَـاتِ الكِتَـابِ المُحْكَـمِ
فإلَيْكَهَـا طَـوْعَ البَلاَغـةِ آثَـرتْ ... حُكْـمَ البِـدَارِ إلَيْكَ دونَ تَلَـوُّمِ
جَاءتْكَ مِنْ حُـرّ الكَـلاَمِ بِلُؤْلُـؤ ... مـا بَيْـنَ فَـذٍّ للنّظـامِ وَتَـوْءَمِ
فَبَقِيتَ مَا سَارَ الحَجِيجُ إلَى مِنًى ... واحْتَلَ بالبَـيْتِ العَتيـقِ وَزَمْـزمِ

ولَمَّا ظَهَرتِ العَمرَة البُرْطُقَالِيّةُ بِبَحْرِ الزُّقَاقِ وأقامَتْ أيَّامًا بَمرْسَى الجَزِيرَةِ ثمَّ كانَ بَعْدَ ذلِكَ اسْتِيلاَؤُهَا عَلى سَبْتَة أعادَهَا الله عاقَهُ رَحِمَهُ الله عنِ الخُروجِ بِنَفْسِهِ لِقَصْدِ مُدافَعَتِهَا مَرَضٌ شَديدٌ فُتِحَتْ مِن جِسْمِهِ مواضِعُ بالحَديدِ بَعْدَ أيَّامٍ كَثيرَة فَقلتُ في وسَطِ جُمَدى الثّانية من عامٍ ثَمانِية عشرَ وثمَانِمائة وَظُهورُ الأجْفانِ وعَدَدُها مائتانِ وأرْبَعَةٌ في السَّادِسِ والعِشرين لجُمَدى الأُولَى مِنْهُ[292]

بُشْرَى بمَقْدَمِهَـا الاسْلاَمُ يَبْتَهِـجُ ... بهَـا سَبيـلُ العُلَـى والعزّ يُنْتَهَـجُ
مَواهِبٌ في الوَرَى جَلتْ مَواقِعُهَـا ... فَقَـلَّ أنْ تُبـذَلَ الأرْواحُ والمُهَـجُ

---

(292) هذا نصٌّ جديد في موضوع استيلاء البرتغاليين على سبتة، والعمرة أو العمارة تطلق على المجموعة الكبيرة من الأجفان الحربية، أما الجزيرة فهي الجزيرة الخضراء؛ وثمّة نصّ آخر ورد عند ابن حجر العَسْقلاني في إنباء الغمر7 : 151 قال : «وفيها (أي في سنة 816) أخذ الفرنج سبتة، وكان السبب في ذلك أن أحمد بن أبي سالم المريني نزل عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة، فانتقل ما كان فيها من العُدَد والأسلحة والذخائر إلى غرناطة، ثم اتفقت الفتنة المتقدم ذكرها في سنة 814 بين السعيد وقريبه أبي سعيد إلى أن قتل السعيد، وأعقب ذلك الغلاء والوباءُ بمدينة فاس والغرب كلّه، فولّى السعيد على سبتة (في الأصل فاس وهو سبق قلم) رجلا سامهُمْ سوء العذاب، ثم أرسل أبو سعيد إليها رجلاً من أقاربه يقال له صالح بن صالح، فتناهى في الظلم، وفشا فيهم الموت، وبلغ ذلك الفرنج، فَعَمّروا عليهم عدّة مراكب، فحضَّ صالح أهل الجبال وأنزلهم على البلد فرجع الفرنج إلى جزيرة بين سبتة وجبل الفتح تسمى طرف القنديل فأقاموا بها، فطال الأمر على أهل الجبال، وظنّوا أن الفرنج رجعوا إلى بلادهم، وقلت على أهل الجبال الازواد فتفرقوا، فبلغ ذلك الفرنج فنازلوا أهل سبتة، فقاتلوهم فغالبوهم بالكثرة، وملكوا منهم الميناء، فخرج المسلمون بأهلهم =

لَطْفٌ مِنَ اللَّهِ قَدْ عمَّ الوُجُودَ فَمَا جَاءَتْ بأَمثالِهِ الأَعْصَارُ والحِجَجُ
فَضْلٌ مِنَ اللهِ قَدْ حُيَّتْ فَوَاضِلُهُ فَقَصُرَتْ فِي مَدَى أَوْصافِهِ الحُجَجُ -209-
لذلِكَ الدّينُ وَالدُّنْيَا قَدِ ابتَهَجَا كِلاَهُمَا راقَ مِنْهُ المَنْظَرُ البَهِجُ
واستَشْرَفَتْ أَوْجُهُ البشْرى تُرُوقُ سَنًى بالبشْرِ والفَرَحِ الآتِي بِهِ الفَرَجُ
بِحَيْثُ أُفْقُ المَعالِي رَائِقٌ بَهِجٌ بِحَيْثُ رَوْضُ المَعَانِي عاطِرٌ أَرِجُ
والدَّوْحُ مُنْعَطِفٌ وَالزَّهْرُ مُبْتَسِمٌ والغُصْنُ مُعْتَدِلٌ والنَّهْرُ مُنْعَرِجُ
الشُّهْبُ تَحْكِي يواقِيتًا مُنظَّمَةً حُمْرًا تَضَمَّنَهَا مِن لَيْلِهَا سَبَجُ
ولِلقُلُوبِ هُدُوٌّ بالأَمَانِ كَمَا بالشُّكْرِ أَلسِنَةُ القُصَّادِ تَخْتَلِجُ
ما ذاكَ إِلاَّ لِبُشْرَى صِحَّةٍ وَرَدَتْ بالنُّجحِ لِلدّينِ والدنْيَا بهَا لَهَجُ
بُعْدًا لَهُ أَلَمًا أَمْسَى يُلِمُّ بمَنْ بِهِ السَّبِيلُ لِنَصْرِ الدِّينِ مُنْتَهَجُ
أَهْلاً بمَنْ أَعْمِلَتْ فِي فَتْحِهِ يَدُهُ للهِ مِن فُرَجٍ وافَى بِهِ فَرَجُ
مَولاَيَ كُلُّ لِسانٍ شَاكِرٌ نِعَمًا جلَّتْ وكُلُّ فُؤادٍ بالمُنَى لَهِجُ
ما كانَ عبْدُكَ يَسْتَدْعِي تَصَبُّرَهُ إِلاَّ وعَن قَلبِهِ للصَّبْرِ مُنْعَرَجُ
ما كانَ عبْدكَ يستَدْنِي مَآمِلَهُ إِلاَّ تَرامَتْ بِهِ طَوْعَ الأَسَى لُجَجُ
حَتَّى غَدا البُرْءُ يَجْلُو الحَادِثاتِ كَمَا يَجْلُو ظَلاَمَ الدُّجَى مِن صُبْحِهِ البَلَجُ
وَإِنْ أَلَمَّ بمَوْلاَنَا الرِّضَى أَلَمٌ كَمْ أَزمَةٍ عِنْدَمَا تشْتَدُّ تَنفَرِجُ[293]
هذِي المَناهِلُ لاَ عَلٌّ وَلاَ ثَمَدٌ هَذِي المَناهِجُ لاَ أَمْتٌ ولاَ عِوَجُ
هَذِي الحَوَادِثُ لاَ عَيْنٌ وَلاَ أَثَرٌ هَذِي الأَحَادِيثُ لاَ ذَنْبٌ ولاَ حَرَجُ
فالـيُسْرُ مقتَبِلٌ والعُسْرُ مُنْتَقِلٌ والسِّتْرُ مُنْسَدِلٌ والدَّهْرُ مُبْتَهِجُ

= وأموالهم وما قدروا عليه، فدخل الفرنج البلد في سابع شعبان من هذه السنة، ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية، ونقلوا ما وجدوا بها من الرخام والآلات والأمتعة حتى الأنوال وتركوها قاعًا خرابًا، ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله» راجع أيضًا ما كتبناه في الموضوع في مقدمة الديوان.

(293) أخذه من مطلع المنفرجة : اشتدي أزمة تنفرجي.

فالخَلْقُ تَحْمَدُ من أولَى الجَميلِ وقدْ   سُرُّوا بنَاصِرِ دينِ اللهِ وابْتَهَجُوا
هَذا وإنّ وَليَّ الكُفْرِ أرْسَلَهَا   سُفْنًا لِنَارِ الوَغَى في مَائِهَا وَهَجُ
هذَا العَدُوُّ الذِي وافَتْ مَرَاكِبُهُ   لِلحرْبِ يَرْفَعُهَا مِن بَحْرِهَا ثَبَجُ
أقَامَ في صَدْرِ مَرْسًى لاَ حَراكَ لَهُ   كأنَّهُ الصَّدْرُ مِنْهُ ضَيِّقٌ حَرِجُ(294)

أتَى بقَوْمٍ قدِ استَهْواهُمُ أمَلٌ   يعْتادُهُمْ هَوَسٌ يَقْتادُهُمْ هَوجُ
كأنَّهُمْ كُلَّمَا هَمُّوا بمَنْزِلَةٍ   لِوَقْعِ سَيْفِ الهُدَى في هامِهِمْ هَوَجُ -210-
واليوسُفِيُّ الحُلَى أهْلاً بهِ مَلِكًا   أشِعَّةُ الصُّبحِ عَن مَرءاهُ تَنْبَلِجُ
هَذَا الجِهَادُ فَلَوْلاَ ما ألَمَّ بهِ   من التألمِ ما انحطُّوا ولاَ عَرَجُوا
فكُلُّ طَرْفٍ إلَى مَرْمَاهُ مُنْصرِفٌ   وكُلُّ طِرْفٍ إلى لُقْيَاهُ مُنزَعِجُ
كأنْ بمَوْلاَيَ قَدْ خَفَّتْ كَتَائِبُهُ   إلَى العِدَى وَصَبَاحُ العَزْمِ مُنْبَلِجُ
كأنْ بأسْيافِهِ بِيضًا مَضَارِبُهَا   حُمْرُ الحُلَى بِرقابِ الصُّفْرِ تَمتَزِجُ
كأنْ بأعْلامِهِ تَعْلُو مَعَالِمَهَا   يَسُدُّ دُونَ الأعَادِي أيَّةَ نَهَجُوا
ولِلقُلوبِ سُكُونٌ مِن مَهَابَتِهِ   ولِلحُروبِ عَلَى أعْدائِهِ رَهَجُ
وهُزَّجُ الخَيْلِ قَد غَنَّتْ صَواهِلُهَا   بحَيْثُ لاَ رَمَلٌ يُغنِي وَلاَ هَزَجُ
وَفي العَوامِلِ زُرْقٌ مِنْ أسِنَّتِهَا   لَمْ تَدْرِ أعْيُنُهَا مَا الغُنجُ وَالدَّعَجُ
مَوَاقِفٌ لَجَّتِ الحَرْبُ العَوَانُ بِهَا   وحَاكِمُ السَّيْفِ مَرْفوعٌ بهِ اللَّجَجُ
مَوَارِدٌ لاَ تَعَافُ الخَيْلُ مَشْرَعَهَا   ومَاؤُهَا بِدَمِ الأعْداءِ مُمْتَزِجُ
وَالفَتْحُ أبْهَجَتِ الدنيَا حَدائِقُهُ   فَمِن نَواسِمِهَا يُسْتَنشَقُ الأرَجُ
يا شَمْسَ هَدْيٍ بأفْقِ المَعْلُواتِ بَدَتْ   عَنْهَا غَمائِمُ نَقْعِ الحرب تَنفَرِجُ
يَا حُجَّةً قَامَتِ الدنْيَا بِصِحَّتِهَا   في طيِّهَا حُجَجُ الأمْلاَكِ تَنْدَرِجُ
أخْفَيْتَ ذِكْرَ المُلُوكِ الأكْرَمينَ وقدْ   تَخْفَى إذَا وَضَحَتْ مِنْ شَمْسِهَا السُّرُجُ
ولَمْ تَزَلْ مُظْهِرًا في كُلِّ آونَةٍ   مِنَ المَكَارِمِ مَا يُنْسِي الأُلَى دَرَجُوا

(294) المرسى المذكورة هي الجزيرة الخضراء.

فَدُمْتَ يَا مَلِكَ الاسْلاَمِ صُبْحَ هُدًى   مَعْنًى وُجُودٍ وأَمْلاَكُ الوَرَى هَمَجُ

ولمَّا اسْتَقَل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِن مَرَضِهِ
وتمَكَّنَتْ راحَتُهُ قُلْتُ في هَنائِهِ بذلِكَ
في العاشِرِ لِرجب عامَ ثمانيةَ عشَرَ وثمَانِ مِائَة

-211- أراحَتْ فُـؤادًا لديْهـا مَشُوقَـا   غَـداةَ قَضَتْ مِنْ هواهَا حُقُوقَـا
وَحَيَّتْكَ زُهْـرًا بأُفْـقِ الخُـدُورِ   وَزَهْـرًا نَضيـرًا ورَوْضًا أنيقَـا
حُلاً يَرْجِعُ الطَّرْف عنْهَا كَليـلاً   إذا لَمْ يَجِدْ لاخْتِلاَسٍ طَريقَـا
فمَا هِـي أبقَتْ لفكْـرٍ مَجَـالاً   وَلاَ تَـرَكَتْ لخَيـالٍ طُرُوقَـا
ولَمْ تَـدَعِ السّربَ إلاَّ مَرُوعًـا   ولَمْ تَتْـرُكِ القَـلْبَ إلاَّ مَشُوقَـا
يهيـمُ فُـؤادِي بتَذْكَارِهَـا   وَيمْنَعُـهُ وجْـدُهُ أن يُفيقَـا
وَقَـدْ فُـوِّقَتْ لِـلأسَى نَحْـوَهُ   سِهَامٌ فَلَمْ يُلْـفَ مِنهَـا مُفيقَـا
أعَيْنَـيَ اهْـدَيْتِ قَلْبِـي الجَـوَى   مَعًا جُرْتُمَـا في غَرامِـي فَذوقَـا
فَهَـذَا عَليـلٌ يُسيـلُ الدُّمـوع   وهـذي المَدامِعُ تُذْكِـي الْحَرِيقَـا
فَلِمْ ذَا نَهَتْ غَيْثَهَـا أنْ يَصُوبَ   ومَـا مَنَـعَتْ رَبْعَهَـا أنْ يَشُوقَـا
أبَتْ لِـيَ إلاَّ غَرامًـا وَوَجْـدًا   وجسْمًـا نَحيـلاً وقَلْبًـا خَفُوقَـا
وَعَيْنًا تحَـامَتْ بحَـار الدُّمـوعِ   وإنسَانُهَـا ظَـلّ فيـهِ غَرِيقَـا
فـأَيُّ جَـوادٍ بِمُحْمَرِّهَـا   غَـدا في مدَاهَـا جَـوادًا سَبوقَـا
يُسائِـلُ عَمَّـن ثَـوَى بالعَقيـقِ   وإنسَانُهَـا ظَـلّ فيـهِ غَريقَـا[294]
وأيُّ قُلُـوبٍ هَـوَتْ إذْ هَـوَتْ   فَخَفَّـتْ حَنينًـا وطـارَتْ خُفُوقَـا
أخـافَتْ عِـداهُ وقَـدْ أمَّـنَتْ   حِمَـاهُ وقَـدْ رَتَقَتْهَـا فُتُوقَـا

(294) هكذا ورد هذا الشطر مكررا، ولا شك أنه حصل سهو للناسخ فكتبه في محل شطر آخر.

إمَامٌ إذَا مَا تَجلّى سَنَاهُ ... يُرَى كُلُّ مَلْكٍ لَدَيْهِ صَعِيقَا
لَهُ فِي الخَلاَئِقِ آثَارُ عَدْلٍ ... تَسوءُ العَدُوّ وَتُرضِي الصَّدِيقَا
لَهُ فِي المَآثِرِ شأوٌ بَعِيدٌ ... فَمَن ذَا يُؤَمِّلُ مِنهُمْ لَحُوقَا
لَهُ فِي المَحَامِدِ آيَاتُ صِدْقٍ ... جَلَتْ بَاطِلاً ظَلّ عَنْهُ زَهُوقَا
لَهُ فِي المَكَارِمِ أخْبَارُ جُودٍ ... فَيُوسِعْنَ عَدْلاً ويُفرجْنَ ضِيقَا
كَرِيمُ الفِعَالِ صَحَابِيُّهُ ... يُرَضّي عَلِيًّا بِهِ أوْ عَتِيقَا(295)
وَيُنمَى لأنصَارِ دِينِ الهُدَى ... فَيَا نَسَبًا فِي المَعَالِي عَرِيقَا -212-
فُرُوعٌ زكَتْ مِن أصُول كِرَامٍ ... فَطَابَتْ مَحلاً وَطَالَتْ بُسُوقَا
وَفَاقَ المُلُوكَ الأُلَى فِي العُلَى ... ولَيْسَ بِبِدْعٍ لَهُمْ أن يَفُوقَا
وكَيفَ ومَازَالَ لِلمَعْلُوَاتِ ... وَبَذْلِ المَكَارِمِ صِنْوًا شَقِيقَا
وَقَامَ بأعْبَاءِ حِمْلِ الوَفَاءِ ... ومَا كَانَ مَلْكٌ سِوَاهُ مُطِيقَا
وَقَدْ جَرَّدَ اللَّهُ مِن عزْمِهِ ... لأن يَنْصُرَ الدّينَ سَيْفًا ذَلُوقَا(295م)
فَمَا كَتَبَ النَّصْرَ إلاَّ خَدِينًا ... ولاَ جَعَلَ العِزَّ إلاَّ رَفِيقَا
فأصْبَحَ لِلدّينِ كَهْفًا مَنِيعًا ... وَرُكْنًا شَدِيدًا ومبْنًى وَثِيقَا
يَسُلُّ سُيُوفًا وَيَرمِي نُصُولاً ... فَتَهْدِي نُجُومًا وَتُبْدِي بُرُوقَا
وَغَنَّى بِدَوْحِ القَنَا صَاهِلٌ ... تُرِيكَ حُلاَهُ الجَوادَ العَتِيقَا
يَخَالُ دِمَاءَ العِدَى قَهْوَةً ... يُجِيدُ صَبُوحًا بِهَا أوْ غَبُوقَا
أعدَّ لِذَلِكَ رَأيًا مُصِيبًا ... وحَزْمًا مَنِيعًا وَعَزْمًا سَبُوقَا
فأرْهَفَ مِن سَيْفِهِ النَّصْرُ غَرْبًا ... وَسَدَّدَ مِن سَهْمِهِ العِزُّ فُوقَا
فَيَا يُوسُفِيَّ الحُلَى والصِّفَاتِ ... فَعَالاً كَرِيمًا وَقَوْلاً صَدُوقَا
يَجُورُ التَّألُّمُ فِيمَنْ غَدَا ... حَلِيمًا كَرِيمًا رَحِيمًا شَفِيقَا

---

(295) علي هو ابن أبي طالب وعتيق هو أبو بكر الصدّيق.

(295م) يقترح الشاعر في القافية : ذلوقا وذليقا، وكلاهما صحيح

وكُنَّا نُراقِبُ بَدْرَ الدُّجَى | ونَلْحَظُ للهَدْيِ مِنهُ بَريقَا
وكُنَّا نُشَاهِدُ شَمْسَ الضُّحَى | تَرُوقُ جَمَالاً وتُهْدِي شُرُوقَا
فصَارَ تَعَلُّلُنَا بالأمَانِي | وطُولِ الدُّعَاءِ فَرِيقًا فَرِيقَا
فَلاَ نُرْسِلُ اللحْظَ إلاَّ تَوَارَى | وَلاَ نُمْسِكُ الدَّمْعَ إلاَّ أُرِيقَا
فَيَا نَظْرَةً عَهِدَتْ نَضْرَةً | فَلَمْ تُلْفِ في الرَّوْضِ غُصْنًا وَرِيقَا
وَيَا أُفُقًا طَالَمَا قَدْ أنَارَ | فَلَيْسَ لِشُهْبَانِهِ أن تَرُوقَا
إلَى أن تَدَارَكَ باللُّطْفِ مَنْ | يُقِيلُ العِثَارَ ويُنْجِي الغَرِيقَا
ومَنّ بِرَاحَةِ مَوْلَى الوَرَى | فأضحَى مُفِيضًا نَدَاهُ مُفِيقَا
فَمِنْ أَلَمٍ بَعْدَمَا قَدْ ألَمَّ | بعلْيَاهُ حَلَّ مَكَانًا سَحِيقَا -213-
وَمِنْ زَمَنٍ قَدْ أَتَى باسِطًا | يَدَ العُذْرِ مِنْهُ رِضًى لاَ عُقُوقَا
وقَدْ أذْنَبَ الدّهْرُ لكِنَّهُ | أبَى الحِلْمُ عَن ذَنْبِهِ أنْ يَضِيقَا
ويَا راحَةً أقبَلَتْ بالسُّرُورِ | أدَارَتْ عَلَى القَوْمِ مِنْهُ رَحِيقَا
هَنِيئًا لَنَا وَلدِينِ الهُدَى | شِفَاءً أنَالَ الأمَانِي حَقِيقَا
وإنَّ عِدَاكَ لَتُبْدِي زَفِيرًا | وتُسْمِعُ مِمَّا لدَيْهَا شَهِيقَا(296)
وَهُمْ أَثَرَ العَدْلِ عَفَّوْا فقَدْ | بَدَا رَسْمُهُ كَيْفَ شَاءُوا مَحِيقَا
فَحَاقَ بِهِمْ سَيِّءُ المَكْرِ لمَّا | غَدَوْا أهْلَهُ وارْتَضَوْا أنْ يَحِيقَا
وقَدْ فَرَّقَ السَّيْفُ مِنهُمْ جُمُوعًا | وقَدْ جمَعَ السَّيْبُ منهُمْ فُرُوقَا
أمَوْلاَيَ خُذْهَا تعِيرُ النّجُومَ | سَنًى والنَّواسِمَ تُذْكَى خَلُوقَا
فَتُبْدِي امْتِدَاحَكَ دُرًّا نَظِيمًا | وتُهْدِي ثَنَاءَكَ مِسْكًا فَتِيقَا
وإنَّ خِلاَلَكَ شُهْبٌ تَجَلَّتْ | ورَاقَتْ بأُفْقِ المَعَالِي شُرُوقَا
فَوَصْفُ حُلاَهَا إذَا رُمْتُهُ | يُقَيِّدُ مِنِّي لسَانًا طَلِيقَا
وكَمْ قَادَ لِي شَارِدَاتِ القَوافِي | فَذَلَّلْتُ مِنْهُنَّ بُزْلاً وَنُوقَا

(296) لديها، يقترح الشّاعر في محلها أيضًا : دهاها.

وَقَيَّدَهَا بَعْدَمَا قَادَهَا فأهْلاً بِهِ سَائِقًا أوْ مَسُوقَا
بَقِيتَ تُجَرِّدُ سَيْفَ اعْتِزامٍ يُرَى لِدِمَاءِ الأعَادِي مُرِيقَا
ودُمْتَ تُنيلُ المُنَى مَن غَدَا لَدَيْكَ بِنَيْلِ المَعَالِي خَلِيقَا

وفي المُوفّى ثَلاثِينَ لرَجَبٍ عَام ثَمَانيةَ عَشَر وَثمَانِ
مائَة المذكُور وُلِدَ لهُ وَلدُهُ عَبْدُ اللهِ الذي اسْتأثَرَ
الله بِهِ بَعْدَ ذلكَ بِيَسيرٍ زَمَنَ الوَبَاءِ فَقلتُ
في الهَناءِ بذلِكَ مُرْتَجِلاً مِن غيْرِ رَوِيَّةٍ(297)

214- هَنيئًا هِيَ الآمَالُ حَيَّتْ بِنُجْحهَا بَشائِرُهَا لأَحَتْ أشِعَّةُ صُبْحِهَا
وإلاَّ فَمَا بَالُ المَجَّرَةِ قد غَدَتْ تَفَتَّحُ زَهْرُ الزُّهْرِ فِي رَوْضِ جُنْحِهَا
ومَا لطُيُور اليُمْنِ قد سَنحَتْ ضُحًى وَراقَ عَلَى الأفْنَانِ تَرْدِيدُ صَدْحِهَا
ومَا لِلنَّسِيمِ اللّدْنِ يُذْكَى كأنَّهُ يُخَيِّمُ فِي بَانِ الخِيَامِ وَطَلْحِهَا
ومَا ذَاكَ إلاَّ أن تَطَلَّعَ نَيِّرٌ مَلاَمِحُهُ تَبْأَى البُدورُ بِلمْحِهَا
أنَارَتْ بِهِ الأقْطَارُ لمّا غَدا بهَا لِتأْمِيلِ أهْلِيهَا وتأمين سَرْحِهَا
فنُورُ الهُدَى لَمْ يَحتَجِبْ عِنْدَمَا بَدَا ونَارُ القِرَى لَمْ تَخْبُ مِنْ بَعْدِ قَدْحِهَا
كأنِّي بِهِ يُعْلِي مَعَالِمَ للنَّدَى تُصَرِّحُ جَدْوَاهُ بإعْلاءِ صَرْحِهَا
كأنِّي بِهِ والكَفُّ مِنْهُ غَمَامَةٌ تَجُودُ لَدَى مَنْعِ الزّمانِ بِمَنْحِهَا
كأنِّي بِهِ تَكْفِي الأعَادِيَ كَفُّهُ وَقدْ صَافَحَ الأبطَالَ مَرْهَفُ صَفْحِهَا
كأنِّي بِهِ والرومُ تَرْهَبُ بَطْشَهُ ونَارُ الوَغَى تَرْمِي بِمَشْبُوبِ لَفْحِهَا
وقدْ حلّ مِنْهَا فِي رِضَاكَ مَعَاقِلاً كَفيلٌ لَهَا الصّنْعُ الجَميلُ بفَتْحِهَا
تَدُورُ بهَا غُرُّ الجِيَادِ كأنّمَا غَدَتْ سِرْبَ أرْءامٍ تَهَادَتْ لِسَرحِهَا

(297) لقد عظم وجد يوسف الثالث بعد وفاة ولده عبد الله المذكور فرثاه بعدد من الأشعار انظر ديوانه : 86، 105، 123، 124.

فمَا زُهِيَتْ بالخَيْلِ راقَتْ صُفُوفُهَا   ولِكِنَّهَا حَسْنَاءُ بـاهَتْ بُوُشحِهَـا
وَكَمْ لَكَ مِن صَفْحٍ يُبيحُ دِمَاءَهُمْ   يُرَوّي أديمَ الأَرْضِ مُنْهَلُّ سَفْحِهَا
كأنَّ سُيُوفَ الهِنْدِ أنهَـارُ دوْحَـةٍ   تُهَيِّـأُ أرْواحُ العُـدَاةِ لِسَبْحِهَـا
ومَا نَقَعَتْ نَـارَ الحُـروبِ وإنّمَـا   جَدَاوِلُهَـا شَبَّتْ لَواعِـجَ بَرْحِهَـا
إذَا ما النّجيعُ احْمَرَّ فَوْقَ فِرندِهَا   حَكَى وَجْنَةَ العذْراءِ مِن تَحتْ رَشْحِهَا
فَمَا تَرْتَجِي إلاّ نَدَى كَفّ يُوسُفٍ   إمَامِ المُلُوكِ الأَكْرَمِينَ وَسَمْحِهَـا
فَللـهِ مِنْهَـا راحَـةٌ ناصِرِيَّـةٌ   تعَـوَّدَتِ الأَمْـلاَكُ عَـادَةَ صَفْحِهَـا
أمولاَيَ يا مَنْ [قَدْ] حَبَا اللّهُ كَفَّهُ   بأعْلَـى أسَانيـدِ النَّـدَى وأصَحِّهَـا
نَـوَاسِمُ أفكَـارِي تُذيـعُ مَدَائِحًـا   تَعَطَّرَتِ الأَرْجاءُ مِن طِيبِ نَفْحِهَا
فَهَذي قَوافِي الشِّعْرِ أعْذَبْتُ وِرْدَهَا   ومَن رامَهَا ضَنَّتْ عَلَيْهِ بِنَضْحِهَـا
رأتْ بمَغَانِي المُلْكِ إذْ سَرَحَتْ بهَا   مَغَانِيَ لاَ ياتِـي البَلِيـغُ بشَرْحِهَـا
فَصَاغَتْ مِن النظْمِ البَلِيغِ قِـلاَدَةً   ومَوْلَى الوَرَى يُصْغِي اسْتِمَاعًا لِمَدْحِهَا
وقَـدْ عَلِمَتْ مِنْهَـا القَلاَئـدُ أنّهَـا   قَلاَئِدُ حَلَّى حُسْنُهَا جيدَ فَتْحِهَا[297م]
فَهُنِّئْتَهَـا بُشْرَى تَعُـودُ بكُـلِّ مَـا   تُؤمّلُهُ الأَيَّـامُ مِـن فَـوْزِ قِدْحِهَـا

(297م) في هذا البيت تورية بكتاب «القلائد» ومؤلّفها «الفتح».

وفِي العَشْرِ الأُخر لِشَهْرِ شَعْبَانَ مِن العَامِ احْتَفَلَ
في عقِيقَةِ هَذا المَوْلودِ وإعْذَار أخَوَيْهِ وعَقْدِ
البَيْعةِ لِوَلّي عَهْدِهِ وَمُتولّي الأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أيَّدَه
الله عَلَى الخَاصّة والعَامَّة بمَا قدُمَ العَهْدُ بمِثْلِهِ
واسْتَدْعَى لِذلِك أكَابِرَ أهْلِ البلاَدِ النَّصْرِيَّةِ
وآثَرهُم برفِيعِ الثِّيَابِ وَفَاخِرِ الكُسَا ونَظَمَ خُدّامُ
بابِهِ مِن الشعَراءِ في ذلِكَ قَصائِدَ فأنشَدَتْ بِقبَّةِ
الريَّاضِ قَصيدَةً أُعْجِبَ بهَا رَحْمةُ الله
ورَضْوانُهُ عَليْهِ

سَلِ البَانَ عَنْهَا أَيْنَ بَانَتْ رِكَابُهَا ... ولِمْ رُفِعَتْ فَوْقَ المَطِيِّ قِبابُهَا[298]
وَلِمْ تَرَكَتْ مِنَّا قُلوبًا مَشُوقَةً ... يُقلِّبُهَا طَوْعَ الغَرامِ التِهَابُهَا
يُهَيِّجُهَا الحَادِي فَتُبْهِجُهَا السُّرى ... إذَا مَا انْتَحاهَا شَجْوُهَا وانتِحَابُهَا
ويُذْكِرُهَا عَرْفُ الصَّبا زَمَنَ الصبَا ... فهَلْ نَفَحَاتُ الطِّيبِ فُضّتْ عِيَابُهَا
وإنّي وإنْ كُنت الأبِيَّ قِيادُهُ ... لَيَقْتادُ قَلْبِي وُدُّهَا وَحِبَابُهَا[298•]
إذا انعَطَفَتْ مُرْتاحَةً أَوْ تَمَنَّعَتْ ... فَإِعْتَابُهَا يُرْجَى ويُخْشَى عِتابُهَا
خَلِيلَيَّ أيُّ الحَالَتَيْنِ مُريحَةٌ ... نَواهَا وَقَدْ عَزَّ اللِّقَا أوْ مَآبُهَا
إذَا لمْ تَفُزْ مِنْهَا العُيُونُ بنَظرةٍ ... فَسِيَّانِ عِنْدِي بُعْدُهَا واقتِرابُهَا -216-
وَهلْ نافِعِي بَعْدَ النَّوى قُربُ دَارِهَا ... إذَا كانَ مَسْدولاً علَيْهَا حِجابُهَا
أُمَهِّدُ بالأطْمَاعِ جانِبَ قُرْبِهَا ... وهَلْ غَيْبةٌ إلاّ ويُرْجَى إيَابُها
وقَدْ أتَّقِي في القُرْبِ حَادِثَةَ النّوى ... وهَل جَيْئَةٌ إلاَّ ويُخْشَى ذهَابُهَا
ألاَ خَلّياني والصَّبَابَةَ إنَّهَا ... كِرامُ نفوسٍ في الهَوَى لَذّ صَابُهَا

---

(298) كتب في الطرة : النّسيب.
(298•) حِبابُهَا : حُبُّهَا.

ومُـرَّا بأطْـلالِ العُـذَيْبِ فإنَّهَــا قُلوبٌ غَدا عَذْبَ الوُرُودِ عَذابُهَـا
وَقُولاَ لِمَن تَحْمِي الكُمَاةُ خِيامَهَا ومَن صحَّ لِلعُرْبِ الكِرامِ انتِسابُهَا
ومَن قَوْمُهَا قد بَانَ فِي بَذْلِهَا النَّدَى وَنَيْلُ المَعالِي طَبْعُهَا واكتِسابُهَـا
حَكَتْ فئةٌ تُنْمَى لِخِدمَةِ يُـوسُفٍ تَرفَّـعَ نَاديهَـا وَعـزَّ جَنَابُهَــا(298م)
بأنِّي عَلى تِلْكَ العُهُودِ التِي انقَضَتْ لَـدَيَّ تَسَاوَي بَدْءُهَـا واعْتِقابُهَــا
وأنِّي عَلَى حفْظِ الودَادِ وان نَأَتْ بِيَ الدَّارُ أَوْ شَطَّتْ بِسَلْمَى رِكَابُهَا
أُنَادِي طُلولاً لاَ تُجيبُ وقَدْ أَبى جَوَى القَلْبِ إلاَّ أنْ يُرَدّ جَوَابُهَا
وتخطُبُ أفْكَارِي زِيَارَةَ مَـن أَبَتْ خُطُوبُ اللّيَالِي أنْ يُـرامَ خِطَابُهَـا
كَـأنّ البِـلاَدَ النَّاصِرِيَّـةَ رامَهَــا عـدُوٌّ فراعَتْـهُ امْتِنَاعًـا صِعَابُهَـا(299)
ألاَ بـأبِي تِـلْكَ المَعاهِـدُ إنَّهَـا يُوَفَّـى بهَـا لِلآمِليـنَ طِلاَبُهَــا
فَتَنْهَلُّ سُحْبٌ لاَ تُغِبُّ سِجَالُهَـا وتَطْلُـعُ شُهْبٌ لاَ يَـروعُ غِيابُهَــا
فأنْجُمُ هَـدْيِ مـا يَبِيـنُ بأُفْقِهَـا وَحَصْبَـاءُ دُرٌّ مَـا يُقِـلُّ تُرابُهَــا
وأيُّ عُهُـودٍ لاَ تَجـودُ عِهادُهَـا وأيُّ حُظُـوظٍ لاَ تَنَـالُ رِغَابُهَــا
خِلالٌ لَهَا مِن حضرَةِ الملك الرضَى خلاَلَ لهَا الأخْطَارُ هان ارْتكَابُهَا(300)
كأنَّ مُتُونَ العِيسَ آفاقُ أنجُـمٍ تَجلَّتْ وَفِي سُحْبِ الخُدورِ احْتجَابُهَا
إذَا ما هَدَى قَصْدَ النَواظِرِ نورُها تَنَاهَى مِنَ النَّقْعِ المُثَـارِ ضَبابُهَـا
مَتَى طَلَعَتْ رَاعَ القُلوبَ اطِّلاَعُهَا وإن غَرُبَتْ رَابَ النُّفوسَ اغتِرابُهَا
فَسارَتْ وقَدْ راقَ الدُّجُنَّةَ جِنْحُهَا ومَدّتْ عَلى الأُفْقِ الجَنَاحَ عُقَابُهَـا
إلَى أن بَدَتْ حُمْرُ السّحابِ كَوَجْنَةٍ جَلَتْ خَجَلاً إذْ حُطّ عنْهَا نِقَابُهَا -217-
وشَابَتْ مِن اللّيْلِ البهيمِ مَفـارِقٌ يَروقُ مِنَ «الكَفّ الخَضيبِ» خِضَابُهَا

(298م) كتب في الطرة : تخلص أول.
(299) كتب في الطرة : تخلص ثان.
(300) كتب في الطرة : تخلص ثالث.

وإنَّ حُسامَ الفَجْرِ يُعمِلُ دونَهَا ... شَباهُ ويابَى أن يُعَادَ شَبابُهَا
وَقدْ طَلَعَتْ شمْسُ الصَّباحِ كأنَّهَا ... مُحَيًّا ابْن نَصرٍ والبُنُودُ سَحَابُهَا[301]
إمَامٌ لَهُ حِلمٌ وعِلمٌ ونَائِلٌ ... فَقُل لِعُفاةِ الجُودِ أيْنَ ذَهَابُهَا
إذَا صالَ لمْ يُجْدِ اللّيُوثَ مَصالُهَا ... وإنْ صَابَ لمْ يُغنِ الغيُوث مَصابُهَا[301م]
فَهلْ هِيَ إلاَّ رَحْمَةٌ عَمَّتِ الوَرَى ... بِحَيثُ بِحَارُ الجُودِ فَاضَ عُبَابُهَا
وهل هي إلا دَوْلَةٌ يُوسُفِيَّةٌ ... خِلافَتُهَا سِرُّ العُلَى ولُبَابُهَا
وهَلْ هِيَ إلاَّ آيَةٌ ناصِرِيَّةٌ ... تَطَلَّعَ في أفْقِ الجَلاَلِ شِهَابُهَا
وهَلْ هِيَ إلاَّ هِمَّةٌ خَزْرَجِيةٌ ... تُصافِحُ عُلْوِيَ النجُومِ هِضابُهَا
فَلِلَّهِ مِنْ أبْنَاءِ نَصْرٍ خَلائِقٌ ... إلَى الخَزْرَجِ الأرْضَيْنَ يُنْمَى نِصَابُهَا[302]
تُضيءُ بأنْوارِ الرِّسالَةِ مِنْهُمُ ... وُجُوهُ كِرامٍ أنجَبَتْهَا صِحَابُهَا
نُجومٌ ومِن نُور الوجوهِ شُعاعُهَا ... غُيوثٌ ومِن سُحْبِ الأكُفِّ انسِكابُهَا
بُدُورٌ بِآفَاقِ السُّروجِ طُلوعُهَا ... أُسُودٌ ومُلْتَفُّ الذَّوابِلِ غابُها
سُيُوفُ حُمَاةِ الدِّين عَزَّتْ رِقاقُهَا ... بِهِمْ وطُغاةُ الدِّينِ ذَلَّتْ رِقابُها
ومُنْفَرِدٍ بالعزّ أحْسبَ جُودُه ... مَقاصِدَ إنْ عُدَّتْ يَعِزُّ حِسابُهَا[303]
بكَفٍّ يَرُوقُ المُعْتَفِينَ اسْتِلاَمُهَا ... ولَكِن يَرُوعُ المُعْتَدِينَ اسْتِلاَبُهَا
رَحِيبُ مَجَالِ العَفْوِ إلاَّ عَنِ العِدَى ... فأوْطَانُهُمْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ رِحَابُهَا
بِهِ انقَادَ عَاصِيهَا وَقُدَّتْ صِعَادُهَا ... وخَابَ مُوالِيهَا وَهَانَتْ صِعَابُهَا
فكَمْ رَايَةٍ بالنّصْرِ قَدْ صَحَّ عَقْدُهَا ... وَأعْقَبَ إنْ حَلّتْ عُراهُمْ عُقَابُهَا
وَسَبْتَةُ لمَّا حَلَّهَا المُشْرِكُ الذِي ... لَهُ مِن يَدِ التوْحيدِ حَلّ اغْتِصابُهَا[304]

---

(301) كتب في الطرة : تخلص رابع.

(301م) في الأصل : اللّيوث، وهو تحريف أو سهو من الناسخ، والغُيوث جمع غيث.

(302) كتب في الطرة : ذكر بني نصر أبناء الأنصار.

(303) كتب في الطرة : ذكر السلطان رحمه الله وبعض وصفه.

(304) كتب في الطرة : ذكر سبتة أعادها الله والتحريض على غزوها.

دَعَتْكَ لِنصْرِ الدّينِ مِنهَا قَبائلٌ ... يَهونُ إذا تَرْجو عُلاَكَ مُصَابُها
فَمَا رَاعَها إلاَّ إلَيْهَا انتِهاؤُهَا ... وَقَدْ راقَ أحْزاب الضُّلاَلِ انتِهابُهَا -218-
تُقيمُ حَوالَيْهَا وتَدْعوكَ نَاصرًا ... لِيُخْشَى ثَواهَا حَيْثُ يُرْجَى ثَوابُهَا
فَمَا لَذَّ لَوْلاَ ان رجَتْكَ طَعَامُهَا ... وَلاَ ساغَ لَوْلاَ ان دَعتْك شَرابُهَا
ومَهْمَا دَعَتْ يَوْمًا سِوَاكَ مُؤَمِّلاً ... تَوانَى وكَمْ غَرَّ الظِّمَاءَ سَرابُهَا
فكَمْ مِن جُموُعٍ دُونهَا قد تَشَعَّبَتْ ... لتَحْيَا وقَدْ حَيَّا النُّفُوسَ انشِعابُهَا
لَقَدْ أقفرتْ مِن سَاكِنِيهَا دِيارُهَا ... ولَمْ يابَ للكُفْرِ اعْتِمَارًا يَبابُهَا
كأنّي بِهَا قدْ سَدّ عَزْمُكَ ثَلْمَهَا ... وفُتّحَ بالنَّصْرِ المُؤَزّرِ بَابُهَا
كَأنّي بهَا والكافِرُونَ عِصَابَةٌ ... تُشَقُّ عَصَاهَا أو يُحَلُّ عَصَابُهَا
كَأنّي بِمَنْ آوَتْهُ مِن زُعَمائِهَا ... وقَدْ بَانَ مِنْهَا زَعْمُهَا وَكِذابُهَا
وقدْ أفْرَدَتْ عَن جَمْعِهِ مَنْ أتَى بهَا ... إلَى رِحْلَةٍ مَا ان يُرَجَّى إيَابُهَا
فَما بَالُهُ يَبْغِي لَدَى صَحْبِهِ العُلَى ... وقَدْ نُضِيَتْ عَن عَاتِقَيْهِ ثيابُهَا
ثُغُورٌ بَدَتْ مِثْلَ الثغُورِ بَواسِمًا ... وقَدْ أعْذَبَتْ وِرْدَ المَنايَا عِذابُهَا
فَلِلّهِ مِنهَا حَيْثُ تَرْشُفُهَا الظُّبَا ... ثُغُورًا وما غَيْرُ النّجيعِ رُضَابُهَا
ولِمْ لاَ تُذَادُ الآنَ يا مَلِكَ الهُدَى ... بَسَيْفِكَ عَن غَابِ الأُسُودِ ذِئَابُهَا
فإن رامَ أهْلُ الكُفْرِ قصْدًا وأعْمَلُوا ... مَكَائِدَ كَفَّ البَغْيَ مِنهُمْ تَبابُهَا
سَتُنْقِذُهَا بالرَّغْمِ مِنْهُمْ وأهْلَهَا ... بِهِمْ نَشَبَتْ ظُفْرُ المَنَايَا ونابُهَا
وهَل مَلِكٌ يُرْجَى سوَاكَ لنَصْرِهَا ... وهَلْ غَيْرُ ما تَرْضَى عُلاَكَ طِلاَبُهَا
فَجَنْدْ جُنُودَ النّصرِ تَبتَدِرُ الوَغَى ... وقدْ راَعَ مِن نَارِ الحُروبِ الْتِهَابُهَا
إذَا زارَتْ في مَوْقِفِ الحرْب أُسْدُهَا ... فَلَمْ تَرْضَ إلاَّ بالنَّجيعِ غِضابُهَا
فَتُفْصِحُ بالنّصْرِ العَزيزِ صِفاحُهَا ... وتُعْرِبُ عَن نَيْلِ الأمَانِي عِرابُهَا
بِحَيثُ وُقودُ الحرْبِ رَاعَ ضِرامُهَا ... بِحَيْثُ وُفودُ العُرْبِ راقَ ضِرابُهَا
بِحَيْثُ سُيُوفُ الهِنْدِ تحْكِي جَدَاولاً ... ولمْ يَطْفُ إلاَّ بالنَّجيعِ حَبَابُهَا

بحَيثُ القَنَا الخَطّيُّ في حَوْمَةِ النّدَى ... تُجَدّلُ عُبّادَ الصَّلِيبِ صِلاَبُهَا
بحَيثُ العَوالي والعَجاجُ يَحُفُّهَا ... نُجُومٌ جَلَتْهَا في دُجَاهُ حِرابُهَا -219-
أسِنَّتُهَا نَابَتْ عَنِ الشُّهْبِ كُلَّمَا ... دَجَا لَيْلُهَا وَهْيَ الحَمِيدِ مَنابُهَا
سَتَسْقِي الأعَادِي لِلْمَنِيّةِ أكْوُسًا ... فَتَصْحُو نَشاواهَا وتَسْلُو طِرابُهَا
سَتوسعُ أيدِي المُسْلِمينَ مَغَانِمًا ... نِهَايَةُ ما تَبغِي المَعالِي نِهَابُهَا[305]
ولولاَ مُلمٌّ لِلتّألُّمِ لَمْ يَكُنْ ... لَدَى صَوْلَةِ البَازِي يَصيدُ غُرابُهَا[306]
ألاَ في سَبيلِ اللّهِ ما لِقِيتُهُ مِنْ ... تألُّمِهَا نفسٌ جزيلٌ ثَوابُهَا
فَباللّهِ في الخَطْبِ المُلِمِّ اعْتِصامُهَا ... وفِي اللّهِ طَوْعًا صَبْرُهَا واحْتِسَابُهَا
وَكَمْ سَهِرَتْ مِنَّا عُيونٌ دُمُوعُهَا ... يُقَلّبُ حَبّاتِ القُلوبِ مُذابُهَا
ونَرْفَعُ لِلّهِ الأكُفَّ ضَرَاعَةً ... فَكَمْ دَعَواتٍ لاَ يُرَدُّ مُجابُهَا
إلى أنْ أرَانَا اللُّطْفَ في ذَاتِكَ التِي ... فَدَتْهَا البَرايَا شِيبُهَا وَشَبابُهَا
لأذْنَبَتِ الأيَامُ فيمَا أتَتْ بِهِ ... وهَا هِيَ مَقْبُولٌ لَدَيْكَ مَتَابُهَا
ولِمْ لاَ وقدْ جاءَتْ بأيْمَنِ صِحَّةٍ ... يَصِحُّ بهَا عمَّا يَرِيبُ اجْتِنَابُهَا
ولِلّهِ مِنْ بُشْرَى أتَتْكَ بِوافِدٍ ... تَجلّى عَلى حُكْمِ السُّعُودِ شِهَابُهَا[307]
مَخائِلُهُ دَلَّتْ علَى مَا وراءَهَا ... وبَعدَ رَذاذِ السُّحبِ يُرْجَى انسِكابُهَا
فَلَوْ أخَذَتْ منهُ النجُومُ خِلاَلَهَا ... لمَا كانَ في نَهْرِ النَّهَارِ احْتِجابُهَا
وأبْصَرَ مَرْآهُ التّبابِعَةُ الأُلَى ... لَمَا كان بالتِّيجانِ قَبْلُ اعْتِصابُهَا
وَعُذْرًا فإنّي فيهِ وفَّيْتُ قَبْلَهَا ... مَعانِيَ راقَ السَّامِعينَ اقتضابُهَا
ولِلّهِ إعْذارٌ أتَاكَ صَنيعُهُ ... بآياتِ صُنْعٍ لَيْسَ يَخْفَى عُجابُهَا
أقَمْتَ بهِ للدّينِ أكْرَمَ سُنَّةٍ ... تَرُوقُ بلبَّاتِ المَعالِي حِقابُهَا[308]

(305) نهابها جمع نهب.
(306) كتب في الطرة : ذكر التألّم وتمكّن الراحة بعده.
(307) كتب في الطرة : ذكر المولود المتقدم ذكره.
(308) الحِقاب : ما يتعلّق به الحلي.

وأضْفَيتَ للرِّفْدِ العِمِيمِ مَلابِسًا   يَروقُ عَلى الأعْطَافِ مِنَّا انْسِحابُهَا
وأرْسلْتَ فيهِ الخَيْلَ قُودًا سَوابِغًا   يُسَكِّنُ مُرْتاعَ القُلوبِ اضْطِرابُهَا
هِيَ المُرْسَلاَتُ الغُرُّ لَوْلاَ انقِيادُهَا   لَصحَّ إلَى الرِّيحِ العَقيمِ انتِسابُهَا
طَلائِعُ شُهْبٍ قَدْ حَكَيْنَ طَوَالِعًا   مِنَ الشُّهْبِ فِي أُفْقِ العَجَاجِ ارْتِقابُهَا
فَتُفْرِجُ عَنْهَا الحَرْبُ شُهْبًا مُنيرَةً   إذا كانَ بالنَّقْعِ المُثارِ احْتِجابُهَا
وصاعِدَةٍ في الجَوّ ألْقَتْ ذُيُولَهَا   فَراقَ بآفاقِ السَّحابِ انِسحابُهَا
تحِنُّ إلَيْهَا الذّابِلاَتُ فَتَرْتَمِي   فُرُوعًا يُرِينَا الأصْلُ كَيفَ اجْتِذابُهَا
إذَا ثَبَتَتْ رَاقَ العُيُونَ ثَباتُهَا   أو انقَلَبَتْ رَابَ النُّفوسَ انقِلاَبُهَا
كأنّ طُيُورًا في ذَرَى الجَوّ حَوَّمَتْ   وثَابَتْ لأوْكَارٍ بهِنَّ وِثَابُهَا
تُقيمُ إذا لاَقَى الأمَانَ ارْتِياعُهَا   ورُبَّتَمَا عَنْهَا ثَنَاهَا ارْتِيابُهَا
إذا أخْطَأ الخَطِّيُّ يَهْدِيه خَطُّهَا   ومَا كانَ يَأبَى أنْ يُصيبَ صَوابُهَا
إذَا اعْتَمَدَتْ قَوْسُ السَّماءِ عَمُودَهَا   لِرَمْيٍ فَسَهْمُ السَّعْدِ يُدْنِيهِ قَابُهَا
ولِلّهِ مِنْ نَجْلَيْكَ شِبْلاَنِ أقْدَمَا   لِأمْرٍ حَمَى عَن مِثلِهِ الأُسْدَ غَابُهَا(309)
رُوَيْدًا فَلَوْلاَ سُنَّةٌ نَبَوِيَّةٌ   يُلَقَّى ثَوابَ الصَّابِرِينَ مُثَابُهَا
وَشيمَةُ فَضْلٍ راقَتِ القَوْمَ مِنهُمَا   فَيَرْجُو عُلاَهَا مُعْذِرٌ ويَهابُهَا(309م)
لَسُلَّتْ مِنَ البِيضِ الرِّقاقِ صِفاحُهَا   وهُزَّتْ مِنَ السُّمْرِ الطِّوالِ كِعابُهَا
عَلَى أنَّ نُورَ الشَّمْعِ يُذكيهِ قَطُّهَا   ويَنشَأُ عن بَرْيِ اليراعِ اكْتِتَابُهَا
وهَلْ قَهْوَةٌ حتّى يُزاحَ فِدَامُهَا   وهَلْ مِسْكَةٌ حَتَّى يُزالَ إهَابُهَا
ولَيسَ اقتِرابُ المَشْرفيَّةِ نافِعًا   لَدَى الحَرْبِ إلاَّ أنْ يَبِينَ قِرابُهَا
فلَمْ يُرْضِ لَوْلاَ الصَّقْلُ مِنْهَا فِرِنْدُهَا   ولَمْ يمْضِ لَولاَ الشَّحْذُ مِنْهَا ذُبابُهَا
فَهُنِّئْتَهَا بُشْرَى تَوضَّحَ بِشْرُهَا   فَأهْدَى اجْتِلاَبَ النَّيِّراتِ اجْتِلاَبُهَا

(309) كتب في الطرة : ذكر الأميرين عند الاعذار.

(309م) عُلاها : كتب فوقها : حلاها. أي أنهما قراءتان.

وبيْعَةَ عِزٍّ أحْكَمَ الصُّنْعُ عَقْدَهَا   وجاءَ بميقَاتِ السُّعُودِ كِتَابُهَا[310]

ولاَيَةُ عَهْدٍ يَصْحَبُ الفَتْحُ قَصْدَهَا   ويُفْسَحُ للنَّصْرِ العَزيزِ جَنابُهَا

دَعَوْتَ لَهَا أهْلَ البِلاَدِ فَأهْطَعَتْ   وُفُودٌ بِهَا سَبْقًا تَرامَتْ رِكَابُهَا

لِحَضْرَة مُلْكٍ أعْذَبَتْ مَشْرَعَ النَّدَى   وقَدْ شُرِعَتْ للوَارِدِينَ قِبابُهَا

أتَتْهَا شُعُوبٌ منهُمُ وَقبائِلٌ   فَغَصَّتْ بِهِمْ أعْلاَمُهَا وشِعابُهَا

تَخَيَّرْتَ للإسْلاَمِ خَيْرَ مُؤَمَّلٍ   لِبَيْعَتِهِ راقَ الُوفُودَ انتِدابُهَا

فَلِلهِ مَا أسْمَى خِلافَتَكَ التِي   تَخيرُّهَا طَوْعَ العُلَى وانتِخابُهَا -221-

وإنَّ مَرينًا أمَّلَتْكَ لِنَصْرِهَا   وقدْ جَدَّ مِنْ سُمْرِ الرّماحِ لِعابُهَا[311]

حُلُولُ الحِلاَلِ النَّاصِرِيَّةِ قصْدُهَا   وَحَمْدُ الخِلاَلِ اليوسُفِيَّةِ دأْبُهَا

كأنّي بِهَا والصّنْعُ مِنْكَ حَليفُهَا   وقَدْ ذَهَبَتْ أضْغَانُهَا وَضِبابُهَا[311م]

وقدْ نَهِلَتْ في جودِ كَفٍّ تَسَحَّبَتْ   بأفْقِ المَعالِي في نَدَاهَا سَحابُهَا

ودونَ إمَامِ الهَدْي رائقَةَ الحُلَى   تَفُوقُ خِلاَلَ الغَانِياتِ كَعابُهَا[312]

تَهادَتْ قَوافيهَا فأصْبَحَ مُهْدِيًّا   كَتائِبَ للنظْمِ البَديعِ كِتابُهَا

إذَا ارْتَابَ قَوْمٌ انَّهَا الزُّهْرُ في العُلَى   أوِ الزَّهْرُ في الأدْواحِ يُذْكَى مَلاَبُهَا[313]

تَلُوحُ فَيسْتَهْوِي النُّفوسَ ارْتياحُهَا   ويَذْهَبُ عَنْهَا شَكُّهَا وارْتيابُهَا

فهَذي التِي تُعْطِي البَلاغَة حقَّهَا   ويدْفَعُ خَطْبَ النَّاقِدينَ خِطابُهَا

منَ العُرْبِ تُسْتَحْلَى حُلاهَا وَيُجْتَلى   لُغامُ مَطايَا لفظِهَا لاَ لُغابُهَا[314]

---

(310) كتب في الطرة : ذكر أخذ البيعة وولاية العهد.

(311) كتب في الطرة : ذكر مرين وطلبها منه.

(311م) ضِباب جمع ضب، وهو هنا الغل والغيظ، ومنه قول سابق البربري :

وَلاَ تَكُ ذَا وَجْهَينِ يُبْدِي بَشَاشَةً   وَفي صَدْرِهِ ضَبٌّ مِنَ الْغِلِّ كَامِنُ

(312) كتب في الطرة : الخاتمة على عادة الشعراء.

(313) المَلاب : ضرب من العِطْر.

(314) اللّغاب : الإعياء. ولغام المطية هو الزّبَد الذي يكون على مَلاَغِمِها.

وليْسَتْ قَوافِي الشّعْرِ إلاّ رَكائِبٌ تَضِلُّ فيَهْدِيهَا مِن المَدْحِ هابُهَا

بَقيتَ ومِن كَفَّيْكَ سُحْبُ مَواهِبٍ تجودُ فَيُجْدِي الآمِلينَ انسِيابُهَا

فكَمْ دَعوَة مِنهُمْ لعُلْياكَ أُخْلِصَتْ ومَا كانَ يُلْفَى خائبًا مُستَجابُهَا

وفِي آخر صَفَر مِن عَام تِسْعَةَ عَشَر وثمَان مائَةْ
ورَدَ الخبَر عَلى الحَضرَةِ بِوَفاةِ طاغِيةِ رغُونِ
المُلَقّبِ بالإفَنْتِ عمِّ صَاحِب قَشْتالَةَ ووَصيِّه
وَهُوَ المُتغلّبُ قبْلُ عَلى مَعْقِل انتَقيْرة والصَّخْرَةِ
وغيرِهِمَا مِن حُصُونِ الغَرْبِيَّةِ أعادَهَا اللَّهُ
فَقلتُ أهَنِّئُهُ رَحمَةُ الله علَيْهِ بذَلِك(316)

هُوَ النَّصْرُ لاَ وانٍ ولاَ مُتماكِثُ رَكائِبُهُ طَوْعَ السُّعودِ حَثائِثُ

هُوَ الفَتْحُ عَزّتْ أرْضُ أنْدلسٍ بِهِ وذَلَّ المُناوِي والْعَدُوُّ المُناكِثُ -222-

هُوَ العِزُّ لاَ يَفْنَى مُرَدَّدُ ذِكْرِهِ مُخَلَّدُهُ في صَفْحَةِ الدَّهْرِ لابِثُ

هُوَ الصُّنْعُ قدْ جَلَّتْ مَواقِعُه التِي بهَا اللَّهُ للدّنيا وللدّينِ غائِثُ(317)

عَظائِمُ قَدْ جَلَّتْ فَذَلتْ لِعِزِّهَا طُغَاةٌ بُغَاةٌ للْعُهُودِ نَواكِثُ

أُصيبَ إفَنْتُ الرُّومِ فَارْتاعَ قوْمُهُ وأضْحَتْ بِطاحُ الرُّشْدِ وهْيَ أواعِثُ(318)

تَجَرَّعَ صابَ المْوْتِ لاَدَرَّ دَرُّهُ فأيْدِي المَنَايَا كَيْفَ شَاءَتْ عوابِثُ

أصابَتْهُ مِن صَرْفِ الزَّمَانِ مُصيبَةٌ بهَا المَوْتُ عاثٍ في حِمَاهُ وعَائثُ

---

(315) الهاب : الصوت الذي تحدى به الابل.

(316) رغون : أرغون ARAGON والافنت EL INFANTE وأنتقيرة ANTEQUERA والصّخرة : صخرة عبّاد ZAHARA. والغربية تطلق على ما يقع غرب غرناطة، ومقابلها : الشرقية.

(317) غائث : يقال غاث الله البلاد يغيثها، وأغاث أيضًا.

(318) أواعث : المواضع الكثيرة الوحل.

سِهَامٌ مِنَ الأَيَّامِ فِيهِ نَوافِذٌ ... [وَفِي] عُقَدِ السِّرْبِ المَرُوعِ نَوافِثُ
لَئِنْ أَمَّنَتْ مِنهُ الحَوادِثُ قَابِلاً ... عُهُودَ صُرُوفِ الدَّهْرِ فَهْيَ نَكائِثُ
وَهلْ مِثْلُهُ بَحْرَ العَظائِمِ عَابِرٌ ... لِيَنجُو وَمِنْ سَيْفِ المَنِيَّةِ عابِثُ
وَهَى رُكْنُ عُبَّادِ الصَّلِيبِ بِمَوْتِهِ ... فَها هُوَ مِن بعْدِ العُلَى مُتَقَاعِثُ(*)
تَقَدَّمَ يَقْفُو في الجَحِيمِ سَبِيلَهُ ... لِمنْتَحِلِي الإشْراكِ رَكْبٌ أشاعِثُ
فَقَدْ راقَتِ الدّنْيَا جَمالاً وبَهْجَةً ... وقدْ أخصَبَتْ مِنْهَا بطاحٌ عَثاعِثُ(*)
عَجائِبُ لاَ الأَيَّامُ أَحْدَثْنَ مِثْلَهَا ... ولاَ الدَّهْرُ عَنْهَا في القَدِيمِ يُحادِثُ
يَقول لِسانُ الدَّهْرِ والكُفْرُ صامِتٌ ... هَلُمُّوا فإِنِّي عَنْ حُلاَهَا مُحَادِثُ
سُعُودُ إمَامٍ لَمْ تَزَلْ عَزَماتُهُ ... لَدَيْهِ عَلى النَّصْرِ العَزِيزِ بَوَاعِثُ
هُمامٌ إذا طالَتْ رِماحُ جُنُودِهِ ... زَكَتْ عَنْهُ أَخْبارٌ وَطابَتْ أَحَادِثُ
أَبِيٌّ إذا جَدَّتْ سُيُوفُ جِهَادِهِ ... فَهُنَّ بِهَامِ المُعْتَدِينَ عَوابِثُ
ولِيٌّ نَدًى يَنْهَلُّ صَيِّبُ جُودِهِ ... فَينهلُّ ظَمْآنٌ وِيَطْعَمُ غَارِثُ(319)
حَليف عُلاً تَبغِي النُّجومُ تَوَصُّلاً ... لهَا وَهْيَ دُونَ القَصْدِ مِنْهَا لَوابِثُ
بِهِ يَهْتَدِي سارٍ ويَنْجَحُ مَقْصَدٌ ... ويَقفُو سَبِيلَ الرُّشْدِ فِيهِ مُبَاحِثُ
فإِنْ بَاحَثَتْ فيهِ المَعَالِي خَلاَئِفًا ... مَضَتْ فَلَهُ بالفَضْلِ تَقْضِي المَباحِثُ
تَدُل عَلَى العَلْيَاءِ مِنْهُ مَخَائِلٌ ... عَلَيْهِنَّ مِصْدَاقُ الفِراسَةِ بَاحِثُ
لِمَا عَزَّ وَهَّابٌ وبالسَّيْفِ دَافِعٌ ... وَفِي الحَرْبِ مَنّاعٌ وللجَيْشِ بَاعِثُ -223-
فَوَفَّى حُقُوقَ المَكْرُمَاتِ وَطَالَمَا ... وَفَى بعُهُودِ المَجْدِ والدَّهْرُ نَاكِثُ
ورَدَّ جُنُودَ الشّرْكِ وهْيَ عَوابِثٌ ... وَأَرْدَى أُسودَ الغَابِ وَهْيَ دَلاَهِثُ(320)
فَلا العزْمُ مفلُول ولاَ الرأيُ فَائِلُ ... ولاَ الحَزْمُ مَخْذُولُ ولاَ الخَطْبُ كَارِثُ(321)

(*) متقاعِث : مُستَأْصَل، عَثاعث : مُجْدِبة.
(319) غارث : جائع.
(320) دلاهث : الجريئة المقدمة.
(321) كارث : الشاقّ على الانسان.

حُلًى قصّرتْ عَنْهَا القَياصِرَةُ الأُلَى ... بِمَعْنَى انفِرَادٍ لَيْسَ ثانٍ وثَـالِثُ
أتَطْـلُبُ أمْـلاكَ الزَّمَـانِ مَنالَهَـا ... وَقدْ أذْعَنَتْ سَامٌ وَحامٌ وَيَـافِثُ
فَيَا ناصِرَ الاسْلاَمِ والواهِبَ الذِي ... تَـؤُمُّ ظِمَـاءٌ جُـودَهُ وغَـوارِثُ
تَهَنّأْ عَلَى حُكْـمِ السُّعُـود فإنَّـهُ ... قَديمٌ مِن الصُّنْعِ الجَميلِ وَحادِثُ
حُبيتَ بهَا بشرَى فَحلّتْ عَلى النَّوَى ... لـديْكَ وأفـواجُ السُّرور حَثَـائِثُ
كأنْ ببِلاَدِ الشّرْكِ بالسَّيْفِ قَدْ عَفَتْ ... وبَـانَتْ خَبايَـا عَنْدَهَـا وَخَبـائِثُ
وقـدْ عُمِـرَت بالمُسْلِمِينَ مَشاعِـرٌ ... ولُمَّتْ مِنَ الدّين الحَنيفِ مَشاعِثُ(322)
كأن بالـذي ألقَـى بِسَبْتَةَ رَحْلَـهُ ... وقد فَرَّقَ المِقْدارُ ما هُوَ حارِثُ(323)
سَيُفْـرِجُ عَنْهَـا والأُنُـوفُ رواغِـمٌ ... وقدْ كُفيتْ مِنهُ خُطُوبٌ كَوَارِثُ
ويَـقْصِدُ أرْضًا لاَ تُقِـلُّ ركَابَـهُ ... وكَيفَ وأسْبابُ النّجَاةِ رَثـائِثُ(324)
تُـرَدُّ جُنُـودٌ عِنْدَهَـا وَكَتَـائِبٌ ... ويُكْفَى خُطُوبٌ بَعْدَهَا وَحَـوادِثُ
ورأيٌ رَاهُ فَهْـوَ مِنْـهُ بِظِلْفِـهِ ... عَلَى حَتْفِهِ كَيفَ اقتَضَى الغَدْر بَاحِثُ
فأفْعالُهُ في النَّجْـمِ حِيـنَ يَرُومُهَـا ... حـدائِث عَهْـدٍ وَالعُهُـودُ نَكـائِثُ
كَفَى اللّهُ مَن فيهَا [عَلَيْهِ] تَطاوَلتْ ... أرَاذِلُ مِـن أحْزابِـهِ وأخَـابِثُ
إذا خَفِيَتْ في ظلْمَةِ النَّقْعِ هَامُهُمْ ... أشِعَّةُ بيضِ الهِندِ عَنْهَا بَـواحِثُ
فَتُردِيهِ أُسدٌ مِـن جُنُـودِكَ طَالَمَـا ... تَحَيَّـزَ عَنْهَـا وَهْـوَ لاَهٍ ولاَهِثُ(325)
يُؤَمِّـلُ فِعْـلاً وَهْـوَ للحَـقّ رافِضٌ ... يُحاولُ قَوْلاً وهْوَ في النّطْقِ لأفِثُ(*)
ورِثْتَ مِن الصّحْبِ الكِرَامِ مَآثِرًا ... سَبَقْتَ لهَا حَيْثُ المُلوكُ لَـوابِثُ
حُبيتَ بِهَا قِدْمًا كمَا شاءَتِ العُلَى ... وآثـارُ أهْـلِ المَعْلُـواتِ حَـدائِثُ

(322) مشاعث : الأمور المتفرقة.
(323) حارث : جامع.
(324) رثائث : خلقة.
(325) لاهث : من اللهث بمعنى العطش.
(*) لافث وألفث : أحمق.

لَئِنْ دَرَجَ الأَعْلَوْنَ أَبْنَاءُ قَيْلَةٍ ... بِحَيْثُ رِيَاضُ المَكْرُمَاتِ أَثَائِثُ[326] -224-
فَوارِثُهُم مَنْ أَنْهِدَتْ مِنْ جُنُودِهِ ... فَوارِسُ وَالبِيضُ الرِّقَاقُ فَوارِثُ[*]
إِذَا مَا قَضَى الجُودُ المُؤَمَّلُ نَحْبَهُ ... وَلِلعَهْدِ فِي التَّعْصِيبِ وَالفَرْضِ نَاكِثُ
وَلاَ طَلَبٌ إِلاَّ عَنِ المَنْحِ حَاجِزٌ ... وَلاَ سَبَبٌ إِلاَّ لَهُ المَنْعُ فَارِثُ[*]
تُؤَمِّلُكَ القُصَّادُ بَدْءًا وَعَوْدَةً ... فَلاَ وَارِدٌ إِلاَّ لِرُحْمَاكَ وَارِثُ
لِتَرْوَى بِحُكْمِ الجُودِ عَن وَاكِفِ الحَيَا ... عَنِ البَحْرِ عَن جَدْوَى يَدَيْكَ الأَحَادِثُ
وَهَبْتَ وَقَدْ أَمَّنْتَ غَائِلَةَ العِدَى ... فَلَمْ يُرْجَ مَامُول وَلَمْ يُخْشَ حَادِثُ
أَمَوْلاَيَ خُذْهَا لِلثَّنَاءِ حَدِيقَةً ... كَأَنَّ النَّسِيمَ اللَّدْنَ بِالمِسْكِ مَائِثُ[327]
وَجَدَّتْ جِيَادُ الحَمْدِ مِنْكَ فَرَاقَهَا ... مَلاَعِبُ فِي أُفْقِ العُلَى وَمَعَابِثُ
فَسَارَتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ أَخْبَارُ وَصْفِهَا ... وَفِي ضِمْنِهَا المَجْدُ المُؤَثَّلُ مَاكِثُ
وَأَهْدَتْ مِنَ الأَفْكَارِ أَبْكَارَهَا الَّتِي ... تَهَادَتْ وَلَم يَفْتَضَّهَا قَبْلُ طَامِثُ
وَحَسَّنَ فِكْرِي نَظْمَ كُلِّ عَجِيبَةٍ ... فَهَا هُوَ حَسَّانٌ وَجُودُكَ حَارِثُ[*]
قَصَرْتُ عَلَيْهَا الفِكْرَ حَتَّى تَقَاصَرَتْ ... مَثَانٍ لَدَى إِنْشَادِهَا وَمَثَالِثُ
وَلَمْ لاَ يَرُوقُ السَّامِعِينَ حَدِيثُهَا ... وَمَنْظُومُهَا فِي عُقْدَةِ السِّحْرِ نَافِثُ
وَلَمْ لاَ وَمِن جَدْوَاكَ صَوْبُ غَمَامَةٍ ... مِنَ البِشْرِ تُزْجِيهَا بُرُوقٌ حَثَاحِثُ
وَأَنتَ الذِي تُولِي المَكَارِمَ وَالنَّدَى ... وَتُقْدِمُ جَيْشَ النَّصْرِ وَالشِّرْكُ رَائِثُ[*]
فَأَقْسَمَ عِزُّ النَّصْرِ أَنَّكَ وَارِثٌ ... بِلاَدَ العِدَى طُرًّا وَمَا هُوَ حَانِثُ

(*) فوارث : قواطع، فارث : قاطع.

(326) أثائث : الملتفة المرتفعة. وأبناء قيلة هم الأنصار من الأوس والخزرج.

(327) مائث : مختلط.

(*) الإشارة إلى حسّان بن ثابت والحارث الغسّاني.

(*) رائث : مبطىء متخاذل.

ولمَّا عادَ ركابُهُ العِلِيُّ من مَالَقَة المحْروسَة
واسْتَقَل بقَصْر نُبُلَه مُتلَوِّمًا بِهِ أيَّامًا لِلراحَةِ
وَالصَّيْدِ في يَوْمِ الخميسِ الخامِسَ عشَر لِشَعْبَان
عام تسْعَة عَشَر وثمَان مائة وقدْ أمَرَ جُنْدَ حَضْرَتِهِ
بِتَلَقِّي وِلِيّ عَهْدِهِ وإيصالِهِ إلى حَمْرائه
العَلِيَّةِ وعَرَّجَ هُوَ إلى حَيْثُ ذكِرَ فقلتُ -225-

لَعمرك ما يَثْنِي الرِّكَابَ تَـرَبُّصُ ... وَشَمْسُ سُراهَا مِن دُجَى البِيد تخلُصُ
سَرَتْ وبُدُورُ الأَوْجُهِ الغُرِّ فَوْقَهَـا ... لَهَا مِن سِرار البُعْدِ لِلْقُرْبِ مَخْلَصُ
تُقُولُ وَقدْ رابَ الشُّحُوبُ وُجُوهَهَا ... هَـلِ الـذَّهَبُ الابريـزُ إلاَّ المخلَّصُ
رَحَلْنَا بهَا طَوْعَ النَّوى نَقْطَعُ الفَلاَ ... وشِرْعَتُهَـا طَـوْعَ المُقـامِ تُـرَخِّصُ
وجاءتْ لِمَعْنَى الجَمْعِ أحْرُفُ سَيْرِهَا ... ولَـيْسَ ذُنـوبٌ عِنْدَهَـا فَتُمَـحَّصُ
وَقدْ ظَنَّتِ البَيْـداءَ رَوْضًا مُفَوَّقًـا ... يُغنِّي الصَّدَى من جانِبَيْهَا فَتَرقُصُ[328]
فَيا طالِبًا في الرَّكْبِ أيْسَرَ لَحْظَةٍ ... عُمومًا ومَعنَى القصْدِ فيهَا مُخَصَّصُ
أَلَمْ يَانِ لِلشَّخْصِ الذي خفِيَ اسْمُهُ ... عَنِ الوَهْمِ أنْ يَرْعاكَ وَالركْب يشْخَصُ[329]
سَل القومَ عنْهُ والهَوَى حيْثُ أصْبَحَتْ ... جِيـادُ أمانيـهِ تَـخُبُّ وَتَقْـلُصُ[330]
تَـؤُمُّ سُرَاهَـا والصَّبَابَـةُ خَلْفَهَـا ... فَـتسْرِي بجِسْمٍ قَلْبُـهُ مُتَـرِبِّصُ
إن اسْتَيأسُوا مِن وُدِّهِ طَوْعَ بُعْدِهِ ... فَقدْ خلَصُوا مِنْهُ نَجِيًّا وأخْـلَصُوا(*)
فللِهِ كَـمْ وَجْنـاءَ خَـفَّتْ بمُثْقَـلٍ ... عَلاَ مَتْنَهَا طَاوِي الحشَا مِنْهُ أخْمَصُ[331]
عَزِيزٌ علَيْهَا أنْ تَرى أَرْبُعَ الهَوَى ... وأطْلاَلُهَا للوَحْشِ والطَّيرِ مَفْحَصُ[332]

(328) رَقْص الابل : ضرب من سيرها كالخبب.
(329) شخص الركب : سار إلى مكان بعيد.
(330) الخَبَب والقلوص : ضربان من السير.
(331) أخمص : دقيق البطن.
(332) مَفْحَص : موضع افراخ القط وغيره من الطير.
(*) هذا من قوله تعالى في سورة يوسف : «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً».

وآثارُهَــا تُخْفِــي مَواقِــعَ أدْمُـــعٍ   تُهينُ مَصُونَ الدُّرِّ مِنْهَا وَتُـرْخِص

كأنّ الذي مالتْ بِهِ سِنَةُ الكَـرَى   لَدَى أخرَيَاتِ الليْلِ في الرّحْلِ أوْقصُ(333)

كأنَّ نُجومَ الأفْقِ أزْهَـارُ دَوْحَـةٍ   عَلَى قَطْفِهَا بَاتَتْ يدُ الفَجْرِ تَحْرِصُ

كـأنّ ظَـلاَمَ اللّيْـلِ فيـهِ غَدَائـرٌ   تُلاَثُ عَلى هامِ النُّجومِ وتُعْـقَصُ

كأنّ الضُّحَى إذْ طالَ ليْلَي مُغْـرَمٌ   كَمثلِي يُرَجّى القُرْبَ والقُرْبُ مُعْوِصُ(334)

كأنّ السُّرَى لِلْمُلْتَقَى ظِلُّ داجِـرٍ   إذا طَلَعَتْ شَمْسُ الضّحَى يَتَقلَّصُ

كـأنّ تَوانيهَـا نسيبٌ وحَثُّهَـا   لِمَدْحِ الامَـامِ اليُوسُفِيّ تَخَـلُّصُ

فإنَّ سَحَابَ الأفْقِ والغَيثُ مُسْبَلٌ   لمجْموعُ جُودٍ من نَـداهُ مُلَـخَّصُ

تُؤمِّلُـهُ الأمْـلاكُ مَثْنَـى وَمَوْحَـدًا   وقدْ مَحضُوا فَضْلَ الوِدادِ وأخْلَصُوا -226-

فتُوسِعُهُـمْ طَـوْلاً خِلاَفَـتُكَ التـي   لهَا الفَضْلُ أجْلى والمَودةُ أخْـلَصُ

لقدْ لاَذَ مَن آوَى لخِدْمَةِ يوسُفٍ   بجانِب عـزٍّ لـمْ يَرُعْـهُ تَنَـقُّصُ

وَهذِي بِلاَدُ الغَرْبِ مَادَتْ بأهْلِهَا   فَباسِطُ أمْنٍ عِندَهَـا ومُقَـلِّصُ(335)

أتَرْجُـو أمانًـا مِـنْ سِواكَ وإنَّـهُ   لأبْعَدُ مِن نَيْلِ النُّجـومِ وأعْـوَصُ

ومَـن أمَّـل العُقْبَى لَـدَيْكَ فَضِدّهُ   يُرَدُّ عَلى الأعقَـابِ مِنْـهُ ويُنْـكَصُ

وَظَـنّ الـذي نـاواكَ لاَ دَرَّ دَرّهُ   بـأنَّ لذِيـذَ العَـيْشِ لاَ يَتَنَـغَّصُ

فَــلاَ أُفْـقَ إلاَّ جَــوّهُ مُتَغَيِّـمٌ   ولاَ دَوْحَ إلاّ ظِلُّــهُ مُتَقَـــلِّصُ

لأقْدَمَ حَتَّى مالَـهُ عنْكَ مَهْـرَبٌ   وأحْجَمَ حَتَّى مَالَهُ مِنْكَ مَخْـلَصُ

ومَنْـزِلِ عـزٍّ جئتَـبهُ فَخِلاَلُـــهُ   مَجالٌ لأفْرَاسِ الجِهـادِ ومَقْـنَصُ(336)

فَكـمْ قَـنَصٍ مَـدَّ الخُطَـا مُترَامِيًـا   إذا مَا رَمَى لَمْ يُخْطِهِ المُتَقَنِّصُ(337)

(333) الأوقص : القصير العنق.

(334) مُعْوِص : صعب.

(335) مادت، يقترح الشاعر أيضًا : ماجت.

(336) مقنص أي موضع قنص وصيد، وهو هنا يشير إلى قصر ثُبُله.

(337) المتقنّص : الصائد.

وكمْ جارِحٍ يَسْتَقْبِلُ الطَّيْرَ جارِحًا ... إذا وَثَبَتْ في جَوِّهَا يَتَغَمَّصُ[338]
لهُ عَوْدَة بعْدَ النّزُوعِ فإنَّهُ ... أبِيٌّ وَفِيٌّ لِلمَوَدّةِ مُخْلِصُ
يَمُدّ جَنَاحَيْ عَزْمِهِ وهْوَ مُعْجَبٌ ... بِعِطْفَيهِ شَثْنُ الكَفِّ افْتَخُ أقبَصُ[339]
لِعَيْنَيْهِ في جَوِّ السَّماءِ تَقَلُّبٌ ... بِهِ لِظِلالِ الْأمْنِ عَنْهَا تَفَلُّصُ
وَتَنْحطّ أحْيَاناً إلى الْأرْضِ يَرْتَجي ... نَجاةً فَيَثْنِيهَا الجَوادُ المُقَلَّصُ[340]
وَذُو أرْبَعٍ لاَ تَخْتَفي عَنْهُ كُلَّمَا ... يُفَتِّشُ عَنْهَا في الرَّوَابي ويَفْحَصُ
وَطِرْفٌ يَفوقُ الطَّرْفَ سَبْقًا إذَا ارتَمى ... تَرَى عَيْنَهُ قَبْلاَءَ في الرَّوْعِ تَشْخَصُ[341]
أغَرُّ بَعيدُ الخَطْوِ يُنْمَى لِلاحِقٍ ... لهُ في المَدَى جِدٌّ وجيدٌ مُنَصَّصُ[342]
يُجيلُ الامَامُ المرْتَضى منْهُ سابَقًا ... لهُ مُطْرِبٌ مِن ذِكْرِ عُلْياهُ مُرْقِصُ
فمَن مِثْلُهُ والأنْجُمُ الزُّهْرُ دونَهُ ... إذا مَا عَلاَ أفْقَ العُلَى مِنهُ أخمَصُ[343]
وإنْ عُدّ آلَ المُلْكِ صيتًا وَرِفْعَةً ... وَجُودًا يَعُمُّ المجْتَدِي ويُخَصّصُ
فإنّ وَليّ العَهْدِ أرْفَعُ مَظْهَرًا ... فَلَيْسَ عَلَى نَيْلِ العُلَى مِنْهُ أحْرصُ
هِلالٌ بأُفْقِ المُلْكِ راقَ فَنُورُه ... يَزيدُ كَمالاً والأهِلّةُ تَنْقُصُ -227-
أتى فتَلَقَّتهُ الوُفُودُ وَفَوْقَهَا ... ظِلالٌ مِن الآلآءِ لاَ تَتَقَلَّصُ
وَسُرُّوا فمَا صَفْوُ الحَياةِ مُكَدَّرٌ ... لَدَيهِمْ وَلاَ العَيْشُ الهَنِيُّ مُنَغّصُ
فَهُنّئْتَ أن وَافَيتَ حَضْرَتَكَ التي ... لدين الهُدَى فيهَا البِنَاءُ المرَصَّصُ
وهُنّئَتِ الدنيَا قُدُومًا غَدَتْ لهُ ... تُحَرِّكُ عِطْفَيْهَا سُرُورًا وتُرْعِصُ[343م]
وَدُونَ إمَامِ الهَدْي مِنْهَا قِلاَدَةً ... يَرُوقُكَ مِنْهَا الجَوْهَرُ المُتَخَلِّصُ

(338) يتغمّص : يثِب.
(339) أقبص : كبير الهامة.
(340) المُقلّص : الطويل القوائم.
(341) تشخَصُ : يرفع عينه إلى أعلى.
(342) لاحق : اسم فرس معروف، ومنصص : مرفوع.
(343) أخمص : خصر القدم.
(343م) ترعص : تهتز.

أَتَتْكَ عَلى قُرْبِ المَدَى عَرِيَّةً   لَبيدٌ بَليدٌ عَنْ حُلاَهَا وأحْوَصُ(*)
فأغْلَيْتَ مِنهَا القَدْرَ وَهْوَ مُخَفَّضٌ   وأغْلَيْتَ مِنهَا السَّوْمَ وهْوَ مُرَخَّصُ
فَلاَ زَالتِ الدنْيَا تُخَلّدُ ذِكْرَ مَا   تُجيرُ به مِنْ خَطْبِهَا وتُخَلِّصُ

وكَبا بِهِ رَحمَهُ الله فَرَسٌ ورِكَابُهُ العَلِيُّ مُقيمٌ
بوَلْجَرْ من سَفحِ جَبَل شُلَيْر في يَوْمِ السَّبْت السَّادِسِ لِجُمَدى
الثّانيَةِ عَام تسْعَة عَشر وثمَان مِائة فارْتَجَلْتُ
لِلحينِ أُهَنِّئُهُ بالسَّلاَمَة(344)

هَنيئًا لِدِينِ الهُدَى الأشْرَفِ   سَلاَمَةَ نَاصِرِهِ يُوسُفِ
هَنيئًا وبُشْرَى لِغرّ الجِيَادِ   ولِلسَّمْهَرِي ولِلمَشْرَفِي
جَرَى القَدَرُ الحَتْمُ ثمَّ انْثَنَى   وقَالَ لَهُ الصُّنْعُ مَهْلاً قِفِ
تَرامَى الجَوادُ عَلَى غَفْلَةٍ   ولَمْ تَثْنِهِ هِزَّةُ المَعْطِفِ
فَعَنْ أعْطَفِ الخَلْقِ مَا بالُهُ   تَرامَى سَريعًا ولَمْ يَعْطِفِ
ولكن لَهُ العُذْرُ فيمَا أتَى   فلَمْ يَكْبُ وَهْنًا ولَمْ يُسْرِفِ
علاَ مَتْنَهُ مِنْكَ مَوْلَى هُمَامٌ   رَءُوفٌ عَطوفٌ كَريمٌ وَفِي
لَهُ راحَةٌ بَاتَ يُرْوَى النَّدَى   عنِ البَحْرِ عَن سُحْبِهَا الوُكَّفِ
لَهُ طَلْعَةٌ لوْحَكاهَا الضُّحَى   لَمَا ظَل مِنهُ السَّنَا يَخْتَفِي -228-
وسَاجَلَهَا النّجْمُ لَمْ يَحْتَجِبْ   وأمَّلَهَا البَدْرُ لَمْ يُخْسَفِ
فَرامَ لِيَشْكُرَهَا نِعْمَةً   بغَيْرِ السُّجُودِ فَلَمْ يَكْتَفِ

(*) لبيد والأحوص شاعران معروفان.

(344) يدّل هذا الكلام على أن الشاعر جمع هذا الديوان بعد وفاة ممدوحه، وولجر : اسم قرية تقع خارج غرناطة في سفح جبل شلير، واسمها اليوم GUEJAR أمّا جبل شلير فهو جبل الثلج المشرف على غرناطة المسمّى : Sierra Nevada.

فَمـدَّ إلَـى سَجْـدَةِ الشُّكْـرِ كَفًّــا وقــدْ راعَــهُ هائِــل المَوْقِــفِ
ولكِـنْ سَلِـمْتَ فَــراقَ الوُجــودَ مَقَامٌ عَـن الجُـودِ لــمْ يَصْدِفِ
فَلِلـــهِ بُشْرَى أَتَتْ عِنْدَهَـــا فكَــانَ الزّمَـانُ بهَـا مُتْحَفِـــي[345]
لَقَـد لهجَ العَبْــدُ مِــنْ أَجْلِهَـــا ولَـوْ بَـذَلَ الرُّوحَ لَــمْ يُـنْصِفِ
ولاَزالَ رَوْضُ المُنَـــى يُجْتَنَـــى بِظِـــلِّ عنَايَـــتِكَ الأَوْرفِ
ومُتِّعتَ بالصُّنْعِ إذْ لـمْ يَكُــنْ لِمَوْعِـــدِ نَصْرِكَ بالمُخْلِـــفِ

وكَتَبَ لِي رَضِيَ اللهُ عنْهُ وأنَا بَيْنَ يَدَيْهِ بَيْتَ
شِعْرٍ عَلَى سَبِيلِ الانبِسَاطِ في الخَامِسِ والعِشرينَ لمحَرَم عَامِ
عشرينَ وَثمانِ مائة وأمَرني بالتّذْييل عَليْهِ وهُوَ

لاَ تُنكِـرُوا الشّعْـرَ عَلَـى خـدّهِ فالـوَرْدُ لاَ يَخْلـو مِـنَ الشّوْكِ[346]

فَقُلْتُ مُذَيلا ولمْ ألتَزِمْ الوَاوَ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوي

وخُضْرَةُ الزُّمُــــرُّدِ المنتَقــــى زانَتْ بَيــاضَ الــدُّرِّ في السِّلْكِ
وطَلْعَــةُ الفَجْــرِ تَـرَى نُورَهَـــا مُمْتَزِجًـــا بالظّلَـــمِ الحُـــلْكِ
والسَّيْـفُ لَـولاَ أنْ عــلاَهُ الصَّدا حينًـا لمَـا كَـفّ عَـنِ الفَـتْكِ
والــدَّمُ ان راقَ فَمُحْمَــرُّهُ تَــنْشأُ عنْــهُ دُهْمَــةُ المسْكِ
والــذَّهَبُ الابريــزُ لاَ يُجْتَلَـــى رونَقُـــهُ إلاَّ مَـــعَ السَّبْكِ
فَلتُــقصِرُوا لاَ تَطْلُبُــوا سَلْوَتِـــي عنْــهُ وَلاَ لِحُبِّـــهِ تَرْكِـــي

---

(345) يقترح الشاعر للقافية أيضًا : مسعفي.

(346) المفهوم أن البيت المذكور من نظم يوسف الثالث ولكنه لم يرد في ديوانه.

فاستَحْسَنَ ذلِكَ وقَالَ أريدُ أنْ تُوطِي عَلي
البَيْتِ المَذْكورِ وتَلتَزِمَ حَرْفَ الوَاوِ قَبْلَ حَرفِ
الرَّوِي وكأنَّ ذلِكَ مُتَّصِلٌ بِمَا تَقَدَّمَ فَقلتُ

وَمُعْلَـمُ الشـوْبِ يَـروقُ النُّهَـى ... طِـرازهُ في جَـوْدَةِ الحَـوْكِ
يابَهْجَـةَ الـحُسْنِ التِـي طَالَمَـا ... دَعَـوْكِ بالسّحْـرِ وحَلَّـوْكِ
يا لِحْيَةً عَابُـوا بهَـا مَـنْ بَـدَتْ ... في خَـدِّهِ وَقبْـلُ حَيَّـوْكِ
أحْيَيتِهِـمْ بنَظـرَةٍ عِنْدَمَـا ... تَوقّفُـوا عِشقًـا ونَـادَوْكِ
هَدَيْتِهِـمْ إلَـى سَبيـلٍ بهَـا ... أفْئِـدَةَ الـعُشَّاقِ أهْـدَوْكِ
لاَ تُنْكِـروا الشَّعْـرَ عَلى خَـدِّهِ ... فالـوَرْدُ لاَ يخْلـوا مِـن الشَّوْكِ

وفي خلاَلِ ذلكَ نَظَم أبياتًا في القافِيَةِ
ولزّمَ الياءَ قَبْلَ حَرفِ الرَّوِيّ وَهِيَ

مَن ذا يُجيـرُ الصَّبَّ ياراحَتِـي ... باللّـهِ مِـن سِحْـرٍ بعَيْنَـيْكِ
مَالِـي عَلَـى الهِجْـرانِ مِـن قُـدْرَةٍ ... مَـا لَـمْ تُراجِعِـي بِلبّـيْكِ
أحْيَـيْتُ آمالِـي بِتَذكَارِكُـمْ ... والذكْـرُ لاَ يُغْنِـي عَـنْ يلِكِ[347]

فَقُلْتُ وأمَر رَحِمهُ اللّهُ بسِياقِ آخِر لفْظَةٍ في النّظم

يَـا طَلْعَـةً رائقَـةَ المجْتَلَـى ... مَـنْ أنْـبتَ الشَّعْـرَ بخَـدَّيْكِ
أوْ جَعَـلَ الـغُصْنَ إذَا يَنْثَنِـي ... يَفْضَحُـهُ مَائِـلُ عِطْفَـيْكِ
رَضيتِ لِـي هَجـرًا وبُعْـدًا وهَـلْ ... مِـنْ عَـاشِقٍ يَـرْضَى بحالَـيْكِ

(347) لا توجد هذه الأبيات في ديوان ملك غرناطة ؛ والكلمة الأخيرة في البيت الأخير حذف منها حرف النون.

كَثُرتِ مِن صَدّي بِمِقْدَارِ مَا عِنـدِي إذًا مِـن قِلّـةِ ...ـلِكِ[348] -230-

ثم انتقلتُ لَسَقِيفَةِ الكُتُب لإقامَةِ رَسْمِ الخِدْمَةِ وإنفاذِ ما صَدَرَ عَنهُ رَحِمَهُ اللهُ مِن إمْضاءِ أوَامِرِهِ ونَواهيهِ فَوجَّهَ عِلجًا صغيرًا بالبَيْتِ وأمَر أنْ أنظِمَ تَذييلاً عَليْهِ ومَن حضَر مِن الكتَّابِ الذينَ معِي فِي الخِدمَةِ فَقالَ مَن تَحَلَّى بِنَظْمِ الشّعْر مِنهُمْ ما رُبّمَا لَمْ يَجِيءْ وفْقَ اختِيارِهِ فَقلتُ

لاَ تُنْكِروا الشّعْـرَ عَلَـى خَـدِّهِ فالـوَرْدُ لاَ يَخلُـو مِـن الشَّوْك
يَافِتْنَـةَ الـعشّاقِ لكِنهُـمْ بالأنْـفُسِ العِلْيَـةِ فَـدَّوْكِ
يـا نَظَـراتِ اللّحْـظِ مَـا أنصَفـوا لـوْ أنهُـمْ بالسّحْـرِ حَلَّـوْكِ
أهْـدَوْا لِمَغْنَـاكِ تَحِيَّاتِهِـمْ ثُـمَّ اسْتَقَلُّـوا حِيـنَ حَيَّـوْكِ
قُلُوبَهُـمْ أهْـدَوْكِ إذ لِلْهَـوَى هَدَيْتِهِـمْ سَاعَـةَ أهْـدَوْكِ
سامُوكِ نَـقْصًا فِي كَمَـالِ الحُلَـى إذْ هُـمْ بِبَـدْرِ الأفْـقِ سَمَّـوْكِ
كَمْ عاهَدُوا أنّكِ شَمْسُ الضُّحَى وَصَفْقَـةَ الأيْمَـانِ أعْطَـوْكِ
بَـرُّوا إذَا مـا أقسَمُـوا انَّـهُ حَـقٌّ ومـا حَـقَّكِ وَفَّـوْكِ
تَمَايَـلَتْ عِطْفَـاكِ زَهْـوًا فَمَـا أشُكُّ أنَّ الخَمْـرَ عَاطَـوْكِ
فَيـا نفـوسًا قَـدْ أهـاجَ الجَـوَى غَرامُهَـا بالـوَصْلِ أحيـوْكِ

وعُذْرًا فِي إثبَاتِ هَذا الهَذَر فَليسَ فيهِ ما يقَيّدُ لِمكَانِ استِعْجَالِ نَظمِهِ فِي ساعَةٍ واحدَةٍ دُونَ مُبَيّضة ولا نَظَرٍ ولاَ تنقيح فَلاَ خفَاءَ بانحَطَاطِهِ عِنِ الجزالِةِ عَلى ما يَقْتَضِيهِ نظم المقترحَات وإنمَا أُثبِتُهُ تشَوّقًا إلَيْهِ رَحِمهُ اللّهُ وتذكّرًا لِمَا أسْدَى مِن النّعْمَة ورفَعَ مِنَ الرُّتبَةِ وخَصّ بِهِ مِن المزيّة وأظْهَرَ من برّه وتَقْديمِهِ عَلى كلّ صِنفٍ تعلق بخدْمة بَابه. نضَّر اللهُ وجْهَهُ

(348) لم يكتب من الكلمة إلا آخرها، وهي واضحة.

ووجَّهَ لِي بَيْتَيْنِ لِسَقِيفَةِ الكُتُبِ
في الثاني لشَعْبان مِنْ عَامِ ثمَانِيةَ عَشرَ وثمَانِ مائَةْ

تَركْتُمُ مُهْجَتِي نَصبًا لأعيُنِكُـم   وقدْ عَمَرْتُمْ فؤادًا مُوحِشًا خَرِبَا
لَعَلَّ عيْنًا أصابَتْنَا فَلاَ نَظَرَتْ   أوْ وَاشيًا قَالَ فيمَا بَيننَا كَذِبَا[349]

وطلَبَ التَّذْييل علَى لسَانِه فارتجلتُ مِن غير تَوَقُّف[350]

مهلاً فإن سِهَامَ العَيْنِ حينَ رَمَتْ   ولمْ تُصِبْ نَالَ مِنها المُعْتَدِي وَصَبَا
بعْدًا لقائِلِ زُورٍ فَاهَ مِقْوَلُـهُ   بمَا يُؤكّدُ مِنَّا لِلرِّضَى سَبَبَا
أتَى لِيُخْفِي الرِّضَى مِنَّا فأظْهَرَ مِنْ   سِرِّ الإرادَةِ ما قدْ كانَ مُحْتَجِبَا
ألقَى أحاديثَ لَكِن لَسْتُ أسْمَعُهَا   إلاَّ لِذِكْرَى لهَا قَلبِي صَغا وَصَبا
رامَ القَطيعَةَ حيْثُ البَغْيُ شِيمَتُـهُ   لاَزالَ مِن بَغْيِهِ قَصْدًا ولاَ أرَبَا
وكَيْفَ والحِلْمُ منّي آيَةٌ طَلَعَتْ   بِمَظْهَرِ العَدْلِ تُبْدِي مِنْهُ ما احْتَجَبَا
وكيفَ والفَضْلُ منّي شيمَةٌ شَرُفَتْ   تُجيرُ مَن لمْ يَزَل لِلصِّدْقِ مُنتَسِبَا
لنَا الوَفاءُ الذِي تأبَى مَكارِمُنَا   أن تَسْتَرِدَّ مِنَ الأفْضَالِ مَا وَهَبَا
وكُلُّ أمْرٍ إذا جَلَّتْ مَواقِعُـهُ   فالصَّبْرُ باليُسْرِ تَقْضِي عِندهُ عَجَبَا
وكُلُّ مَلْكٍ إذَا فَدَّى خِلاَفَتَنَا   ما كانَ يقضِي لَهَا الحَقُّ الذي وَجَبَا
أنَا الإمَامُ الذي تُرْجَى مَكارِمُـهُ   لِلِه مِنهَا خِلاَلٌ فَاقَتِ السُّحُبَا
أنا الهُمَامُ الذِي تُخْشَى عَزائِمُـهُ   في الحَرْبِ انْ كَتَّبَ الأجْنَادَ أوْ كَتَبَا

---

(349) ورد البيتان مع بعض الأختلاف عما هنا في ديوان ملك غرناطة : 12 — 13.

(350) هذا التذييل الذي نظمه ابن فركون على لسان يوسف الثالث، ورد منسوبًا إلى هذا الملك في ديوانه : 12 — 13 مع التقديم الآتي : «كذلك ممّا نظمناه في النسيب». ويبدو أن فركون الذي جمع ديوان مخدومه تنازل عمّا نظمه على لسان مخدومه ونحَلَه إياه، وهذا يذكّرنا بما قيل عن الكاتب ابن عبد ربه ونَحْلِه بعض شعره لمخدومه الأمير الموحدي أبي الربيع سليمان.

فكَيْفَ تُخْفَرُ عِنْدِي ذِمَّةٌ ثَبَتَتْ لَـدَيَّ أَخْبارُهَـا طَبْعًـا ومُكْتَسَبَـا
لاَ دَرَّ دَرُّ امْرِئٍ يُرْدِيهِ مَذْهَبُـهُ كَلاَّ ولاَ نَـالَ قَصْدًا أَيَّةً ذَهَبَـا
واللَّهُ يَكلأُنا مِنْ عَيْنِ ذِي حَسَدٍ رَمَـى فَعَـادَ عَلَيْهِ السهْـمُ مُنقَلِبَـا
حَتَّى يبِيدَ العِـدَى طُـرًّا وَيُنْجِـزَهُ وَعْدًا كَرِيمًا لِنصْرِ الدّيـنِ مُرْتَقَبَـا -232-

وكتبتُ إليهِ رَحمَةُ الله عليْهِ فيمَا يَظْهَرُ منْهَا

أَمَــوْلاَيَ الــذي فــاقَتْ يَـــدَاهُ غَمامَ الأُفْـقِ في المِنَـنِ الجَسيمَـهْ
رواحِـلُ عبْـدِ نُعْمـاكَ اسْتَقَـلّتْ لِوِجْهَتِهَا ومَا بَـرحَتْ بـه مُقيمَـهْ
ولَـوْلاَ سُنَّــة الإِمْــلاَكِ أضْحَتْ مَنَاهِجُهَــا صَباحًــا مُسْتَقيمَـــهْ
عَلَـى أنَّ التـي ألْـقَتْ لَدَيْهَــا أَزِمَّتَهَـــا مُهَذَّبَـــةٌ وَسيمَـــهْ
ولكِنْ خِدْمَتِي شَرَفِـي وذِكْـرِي لَـدَى مَـوْلاَيَ مَوْهِبَـةٌ عَظِيمَـــهْ
ولَـوْ عُـوّضْتُ مِـن نظَـري إلَيْــهِ بعِـزّ الدَّهــرِ لاَ أَرْضَى نَعيمَـــهْ
فَـقَصْدُ العبْــدِ إنعَــامٌ بـــإِذنٍ فكَـمْ لِعُلاَكَ مِـن نعَـمٍ عمِيمَـهْ
أُحَـلُّ بـهِ لَـدَى أعْلَـى مَقَـامٍ أقِيـمُ وَظائِـفَ الخِـدَمِ الكَرِيمَـهْ

مَبْدأُ قَصيــدَة

مَا للسُّرَى دَعَتِ الرّكَابُ حَثِيثَهَا حَيْثُ الصَّبَا قَدْ نَازَعَتْكَ حَديثَهَـا
هَيمًـا إذا عـزَمَتْ فكُـلُّ مُهَنَّـدٍ ذكْـرٍ يُؤمِّـلُ مُنْجِـدًا تانيثَهَـا
تُهْدِي إِلَيْكَ مَـعَ الصَّبَاحِ تَحِيَّةً يَهْدِي شَذَا الزّهْرِ الأَنيـقِ بُعُوثَهَـا
حَيْثُ الهَوَى يُلْقِـي حَبائِلَهُ الـتِـي ما وَاصَلَتْ أَيـدِي السُّلُوِّ رَثيثَهَـا
وكَتِيبَــةُ الأَشْواقِ رَدَّ مُغيرَهَــا صَبْـرٌ أَلـمَّ بهَـا فكَـانَ مُغيثَهَـا
والصُّبْحُ قَـدْ لَقِـيَ الظَّلاَمَ بعِمَّـةٍ لَيَلُفَّهَــا مِــن فَجْـرِهِ ويَلُوثَهَــا

أهْـلاً بِهَبَّـاتِ المَـواسِمِ كُلَّمَــا سَكَبَتْ عَلى محْلِ القُلوبِ غُيُوثَهَا
إنْ حَدَّثَتْ أخْبَارَ مَن سَكَنَ الحِمَى أَلْقَتْ لَـدَيْكَ قَديمَهَـا وَحَديثَهَـا
فَكأنَّمَـا أخْبَـارُ دَوْلَـةِ يُـوسُفٍ نَسْتَقْبِـلُ اسْتِينافَهَـا وَحُدُوثَهَـا

-233- ولمَّا تُوفِّيَ أخُوهُ الأميرُ أبو الحَسَن عَلِيٌّ الذي كان لَقَبُهُ مُعِزَّ الدَّولَةِ بالحَضْرَةِ ورِكابهُ العلِيُّ بوَلْجَر، وكان تِلكَ اللَّيْلَةِ رَاحِلاً إلى الخروبَة فعرَّجَ رَحِمَهُ اللهُ إلَى الحمْراء لمُوارَاةِ شَقيقِهِ المَذْكور، وبعْدَذلِكَ خرَجْنَا في العِشاءِ الآخِرَةِ إلى قَرْيَةِ هَمَدَان ثمَّ إلَى الخُرُّوبَةِ مِن قُرَى مُلْتُماسَ بَعْدَ مَرْحَلَتَيْن، فَقُلْتُ أعَزِّيهِ ونَظَمْتُهَا عَلَى ظَهْرِ الفَرس أثناءَ الطَّرِيقِ إلى مَرحَلَة وادِي النِّيبَل مِنْ أحْواز الحمَّة، وحَقُّ هذِهِ والتي بعْدَهَا أن تُثْبَتَ في المَراثِي لِكِنْ أثبتُّهُمَا هُنَا كَوْنُ هذهِ خاطَبْتُهُ بهَا رَضيَ اللهُ عنْهُ وقدَّسَ رُوحَهُ والثَّانية نظمتُهَا عن أمْرِهِ[351]

عَزاءً فإنّ الخَطْبَ قَدْ جلَّ مَوْقِعَا وَصَبْرًا وان لَمْ يُبْقِ للصَّبْرِ موضِعَا[352]
تَـأسَّ أميـرَ المُسْلِميـنَ فإنَّـهُ ورُودُ سَبيـلٍ لـمْ يَـزَلْ مُتَوقَّعَـا

---

(351) سيذكر الشاعر فيما بعد تاريخ وفاة شقيق ملك غرناطة معز الدولة أبي الحسن علي، ولم يشر الشاعر إلى سبب وفاته، ويبدو أنه مات حتف أنفه، وقد كان لموته أبلغ الأثر في شقيقه الملك، ورثاه بعددٍ من المراثي (ديوانه : 106، 167، 170) وممّا قاله في أحدها :
كُـنْتَ دُنْيـايَ هـا أنـا حَـيْثُ قيـلَ أبـو دُلَـفْ
يلمح إلى قول
إنما الدنيـا أبـو دلـف بين باديـه ومحْـتضَرهْ
فـإذا مَـا وَلّـى أَبـو دُلَـف ولت الدنيـا على أثـرِهْ
وقد خلّف هذا الأمير ولدًا سيعتلي عرش غرناطة في ظروف عصيبة وهو السلطان أبو النّصْر سعد المستعين بالله جد آخر ملوك غرناطة.
وولجر الواردة في المقدمة تقدم ذكرها، أما الخروبة فهي Algarrobo من إقليم مالقة، وقرية همدان من قرى غرناطة واسمها اليوم Alhendin وملتماس (أو منتماس) هي Bentomiz ووادي النيبل Nivar ورد ذكره أيضًا في كتاب التبيان للأمير عبد الله الزيري.
(352) عزاءً فإن، يقترح الشاعر أيضا : عزاء فهذا.

تَعَـزَّ إمَـامَ الأَكْرَمِيـنَ فَـإنَّ في بَقَـائِكَ فِينَـا للحَـوادِثِ مُرْدَعَـا

فإنَّ عَليًّا قَدْ قَضَى اليَوْمَ نَحْبَـهُ فلمْ نَلْقَ مِثْلَ اليَوْمِ أدْهَى وأفْظَعَا

وإنَّ عَليًّـا مَـنْ عِلِمْنَـا كَمالَـهُ فَلاَ تُنْكِـرُوا أنَّـا نهيمُ تَشَيُّعَـا[353]

فَيا نَجْمَ أفْقٍ قَدْ هَوَى بِيَدِ النَّوَى ومـا كانَ إلاَّ لِلهِدايَـةِ أُطْلِعَـا

ويا غيثَ سُحْبٍ طَالَمَا جادَ بالنَّدَى فَرَوَّى جَنابًا قَدْ ذَوَى حينَ أقْلَعَا

ويَا بَدْرَ تَمٍّ ضَمّهُ التُّرْبُ مَغْرِبًـا وكأنْ لـهُ أُفْقُ المَكـارِمِ مَطْلِعَـا

وعَهْدِي بِبَدْرِ التَّمِّ يسْمُو إلَى العُلَى فمَا بالُهُ في التّربِ أصْبَحَ مُودَعَا

رَحَلْتَ فَمَـا خَلَّفْتَ إلاّ مُرَوَّعَـا مَشُوقًا مُعَنًّى مُغْرَمَ القَلْبِ موجَعَا

نـأيْتَ فمَـا ودَّعْتَ إلاَّ مُتَيَّمًـا رهيـنَ أسَاهُ مُسْتَهَامًـا مُفجَّعَـا -234-

فَيا حَسْرَةً جَلَّتْ مَواقِعُ خَطْبِهَـا ويَا عَثْرَةً ما إنْ يُقالُ لَهَا لَعـا

وانَّ مُحَيًّا لاَحَ في مَظْهَرِ العُلَى تَـوارَى فأضْحَى بالتُّـرَابِ مُقَنَّعَـا

وانَّ جَمَالَ الوَجْهِ غَيَّرَهُ البِلَـى ويا طَالَمَا أبْدَى الجَميـلَ وأبْدَعـا

لَقَدْ وَضَعُوا في التُّربِ مَن كانَ كلمَا تُجاريهِ شَمْسُ الأُفْقِ أسْنَى وأرْفَعَا

لَقَدْ كانَ صَدْرَ المَعْلُواتِ وقلْبَهَـا لِـذلِكَ ضَمَّتْـهُ الصَّفائِـحُ أضْلُعَـا

عَلِمْنَا بـأنّ الوَجْـدَ أوَّلُ وافِـدٍ غَداةَ نَوَى عنَّـا الرَّحيـلَ ووَدَّعَـا

سَأَلْنَـاهُ عَهْـدًا بالبَقـاءِ فَمَـا وَفَى ورُمْنـا جَوابًا للنّـداءِ فمَا وَعَـى

وقَفْنَا عَلى الأطْلاَلِ وَهْـيَ بَلاَقِـعٌ نُسَاجِـلُ فيهِنَّ الحَمـامَ المُرَجِّعَـا

ولاَ جِسْمَ إلا أنْ يَذوبَ صَبابَةً ولاَ قَلْبَ إلاَّ أنْ يَحِـنَّ ويَنْزَعَـا

أنَرْكَـنُ لِلسُّلْـوانِ بعْـد بعَـادِهِ ولَمْ يُبْقِ فيهِ موقِعُ الخَطْبِ مَطْمَعَا[354]

لأَفْنِي قُوَى الصّبْرِ الجَميلِ فِرَاقُـهُ ولكِنَّـهُ أبْقَـى سُهَـادًا وأدْمُعَـا

فَيا لَيْتَ شِعْرِي مَن أراهُ مُوَدِّيـا إلَيْـهِ سَلاَمِـي حيـنَ ولَّـى مُوَدِّعَـا

---

(353) يورّي بالامام علي والشيعة.

(354) موقع، يقترح الشاعر أيضًا : فادح.

دَعاهُ الرَّدَى حَتّى أجابَ نِداءَهُ   وأسْرَى بِهِ رَيْبُ المَنُونِ فأسْرَعَا
أجابَ مُنَادِيهِ غَداةَ دَعابِهِ   وكَمْ نَطَقَ الدَّاعِي فَلبَّاهُ مُسْرِعَا
تأهَّبَ للمَوْتِ الذِي جاءَ وافِدًا   ومَا هابَ انْ يَلْقَى العَوالِيَ شُرَّعَا
فكَمْ هَزّ في الحَرْبِ العَوانِ حُسامَهُ   وأرْسَلَ يقْفو إثْرَهُ الرُّمْحَ مُشْرَعَا
سَلُو عَنْهُ في الهَيْجَاء أرْضَ شُقُورة   وقدْ أصبَحَتْ مِنهَا المَعاهِدُ بَلْقَعَا
وفي جَبَلِ الفَتْحَينِ كَمْ جَدَّ عَزْمُهُ   سِباقًا إلَى دَاعِي الهُدَى وتسَرُّعَا
سَيلْقَى لدى الرَّحْمَانِ فَضْلَ جِهَادِهِ   شَفيعًا كما يُرْضِي النَّبيَّ مشَفَّعَا
فَقَدْ كانَ في العَلْيَاءِ أرْفَعَ مَظْهَرًا   وأكرَمَ آثارًا وأعْذَبَ مَشْرَعَا
إلَى أن أثارَ الدَّهْرُ كامِنَ حِقْدِهِ   فَعَمَّى حِلاَلاً مِن حِماهُ وأرْبُعَا
فَعُذْنَا بِطولِ الذّكرِ لوْ كان مُجْدِيًا   ولُذْنَا بحسْنِ الصَّبْرِ لَوْ كانَ مُقْنِعَا
لَقَدْ حسَدتْ زُهْرُ النجُومِ خِلالَهُ   فأبْدَتْ إلَى عَلْيائِهِنَّ تَطَلُّعَا -235-
رَمَتْهُ عَلَى عَمْدٍ سِهَامُ عُيُونِهَا   فمَا أخْطأتْهُ حَيْثُ لَمْ نُلْفِ مَدْفَعَا
فإنَّا إلَى اللَّهِ العَظِيمِ وإنّنَا   لَرَحْمَتِهِ نَرْجُو مَآلاً ومَرْجِعَا
لأذْنَبَتِ الأيَّامُ فيمَا أتَتْ بِهِ   ولكِنَّهَا أبْقَتْ إلَى العُذْرِ مَوْضِعَا
إذا هِيَ أبقَتْ ناصرَ الدّينِ يوسُفًا   فَقَدْ شَيَّدَتْ للدِّينِ رُكْنًا مُمَنَّعَا
فَلاَ أذْهَبَتْ صُنْعًا جَميلاً أفادَهُ   خُلُودًا ولاَ هَدَّتْ لِعُلْيَاهُ مَصْنَعَا
ولاَ صَدَعتْ للدّينِ شَملاً قَضَى بأنْ   يَقومَ بأمْرِ اللَّهِ عَنْهُ ويَصْدَعَا
ولأرَوَّعَ السِّرْبُ الذِي هُوَ آمِنٌ   ولاَبَدَّدَ الشَّمْلُ الذِي قد تَجَمَّعَا
ودامَ بمَنْ حَطَّ الرّكابَ .بِطَيِّبَةٍ   ومَن طَافَ عِندَ الحجر والرُّكنِ أوْسَعَى
ولأزالَ بالعَلْياءِ .وَالعِزِّ مُفْرَدًا   وقدْ حَازَ أشْتَاتَ المَكَارِمِ أجْمَعَا
سَألْنَا لَهُ اللَهَ البَقاءَ مُخَلّدًا   وحاشَى وَكلاّ أن يُخَيِّبَ مَن دَعَا

وأمَرني رَحمَهُ اللهُ بِنَظْمِ أبيَاتٍ لِتُكْتَبَ عَلَى تَاريخ لحْد هذَا الأمير، ثمَّ ظَهَرَ لهُ أن يُكْتَبَ غَيْرُهَا عَلَى لِسانِه، ولَمْ تُكْتَبْ هذِهِ فَقلْتُ ووَفاتُهُ لَيْلَةَ الأَحَدِ الرّابعَ عشَر لجُمدى الثَّانية مِن عامِ تسْعَة عشَر وثمَانِمائَة[355]

سَقَى الغَيْثُ يَومَ النّوَى تُرْبَهُ ... فَقَدْ كانَ يَوْمَ النَّدى تِرْبَهُ
وكانَ حُسَامًا لِحَرْبِ العِدَى ... ففَلَّتْ أكُفُّ الرَّدَى غَرْبَهُ
وكانَ غمامًا يُحَيّي الوُجودَ ... ويُحْيِي فَقَدْ مَنَعَتْ سَكْبَهُ
وكانَ سَماءً لِنورِ الهُدَى ... فَقَدْ قَلَبَتْ لِلثَّرَى قُطْبَهُ
وكانَ امانًا لمنْ أمَّهُ ... فَما بالهَا رَوَّعَتْ سِرْبَهُ
وكانَ لِقُصَّادِهِ مَوْرِدًا ... فأمْسَى وقد كَدَّرَتْ شِرْبَهُ
وكانَ لدولَةِ مَولَى المُلوكِ ... مُعِزًّا تَوَدُّ العُلَى قُرْبَهُ -236-
وكانَ تَهَابُ العِدَى بَطْشَهُ ... فَمَا لِلَّيالِي أتَتْ حَرْبَهُ
رَسَا عَلَمًا لِلْهُدَى والنَّدَى ... فأضحَى وقدْ زَلْزَلَتْ شِعْبَهُ
هَوَى نَجْمُهُ مِن سَمَاءِ العُلَى ... مُنيرًا فكَانَ الثَّرَى غَرْبَهُ
فَلَوْ أنصَفَ الأفْقُ مِنْ بَعْدِمَا ... هَوَى لَمْ يَبِتْ مُطْلِعًا شهْبَهُ
ولَوْ أنصَفَ الغَيْثُ حَيًّا حِمَى ... فَتًى لمْ يزَل مُرسِلاً سُحْبَهُ
فَيا لِضريحٍ ثَوَى عِندَهُ ... غَداة أناخَ بهِ رَكْبَهُ
هُوَ القَبْرُ ضُمِّنَ مَن لمْ يَزَلْ ... مِنَ القَصْرِ لاَ يَرْتَضِي رحْبَهُ
أبْعدَ عَلِيٍّ تَرَى الدَّهْرَ قَدْ ... زَهَا مُظْهِرًا في الوَرَى عُجْبَهُ
وفَى لِلَّيالِي فَخَانَتْ عُلاَهُ ... وأعْتَبَهَا فَارْتَضَتْ عَتْبَهُ
فَسَلْ بالحِمَى عَنْ عَلِيٍّ وقدْ ... حَماهَا لِمَا اعْتَمَدَتْ سَلْبَهُ

(355) توجد القصيدة الأخرى المشار إليها في ديوان ملك غرناطة : 169 ويفهم من قول الشاعر : «ثم ظهر له أن يكتب غيرهَا على لسانه» أن تلك القصيدة ليست من نظم يوسف الثالث ولكنها قُدِّمَتْ في ديوانه بما يلي : «وممّا أصدرناه ونظمناه ليرسم على لحد أخينا رحمه الله».

وجاءَتْ بكُلِ أبيٍّ القيَادِ ... فذَلَّلَ من عَزْمِهِ صَعْبَهُ
وأبرَأهَا إذْ شَكَتْ مُعْضِلاً ... مِن الخَطْبِ والتَمسَتْ طِبَّهُ
هُوَ المُلْكُ قَدْ نَوَّمَتْ جَفْنَهُ ... هُوَ العِزُّ قَدْ قَلَّبَتْ قَلْبَهُ
فهَاذِي الامَارَةُ تُبْدِي النَّحيبَ ... عَلَيْهِ غَداةَ قضَى نَحْبَهُ
فَمِن أعْيُنٍ فَقَدَتْ حُسْنَهُ ... ومِن أضْلُعٍ ضُمِّنَتْ حُبَّهُ
أصِنْوَ الامَامِ الهُمَامِ الذي ... إذا عَنَّ أمْرٌ كَفَى خَطْبَهُ
لَقَدْ نَهَبَتْكَ يَدُ المَوْتِ مِنْ ... حِمَى مَن تَهابُ العِدَى نَهْبَهُ
فمَا اعْتَمَدَ الصبْرُ مِن بَعْدِهَا ... سِوَى لِيُطِيعَ بهِ رَبَّهُ
سَقاكَ مِن الغيْثِ مَا قَدْ حَكَى ... ثَناؤُكَ زَهْرَ الرُّبَى غِبَّهُ
فكَمْ مَوْرِدٍ لَمْ تَزَلْ في الجِهَادِ ... تَعافُ عَلَى ظَمَإٍ شُرْبَهُ
إلَى أن تُبَلِّغَ دينَ الهُدَى ... لَدَى المُلْتَقَى في العِدَى إرْبَهُ
لَكَ اللهُ كَمْ ذا تَلَقَّيْتَهُمْ ... فأيَّدْتَ في حَرْبِهِمْ حِزبَهُ
سَلُوا جَبَل الفَتْحِ عَن فَتحِهِ ... وقَدْ أمَّلَ المُعْتَدِي غَصْبَهُ -237-
سَلُوا في شُقُورَةَ أهْلَ الجِهَادِ ... وقَدْ سَلَّ في بابِهَا عَضْبَهُ
قَضَى اللَّهُ ان نَالَ أقصَى العُلَى ... وها هُوَ ذا قَدْ قَضَى نَحْبَهُ
لِيُسْكِنَهُ جَنَّةً أُزْلِفَتْ ... وأنزَلَ في وَصْفِهَا كُتْبَهُ
فكَمْ رَحَمَاتٍ حَمتْ لَحْدَهُ ... وكَمْ حسَنَاتٍ مَحَتْ ذَنْبَهُ

وفيمَا حَقُّهُ أنْ يُلحقَ بمَا تَقدَّمَ
قَبْلُ مِنَ العِيدِيَاتِ عَلى التَّوالِي
أنشَدتُهُ رضوَانُ اللهِ عَليْهِ في عِيدِ الفِطْرِ
مِن عَامِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ وثمَانِي مائة بحَضْرتهِ العَلِيَّة

حَفَّتْ مَلائِكَةُ السَّماءِ جُنُودَا ... بِكَتائِبٍ نَشَرَتْ عَلَيْكَ بُنُودَا

تُنْهِي إِلَيْكَ بَشائِرَ الفَتْحِ التي ... تُلْقِي لَدَيْكَ لِوَاءَهَا المَعْقُودَا
وتَسُوقُ أحْزاب الضّلالِ إلَى الرَّدَى ... سَبْقًا وقَدْ سُمْتَ القُلُوبَ وَئِيدَا
وتُثِيرُ سُحُبُ النَّقْعِ مِنْ وَقْعِ الظّبَا ... فَوْقَ الدُّرُوعِ بوَارِقًا وَرُعُودَا
وتُكاثِرُ الأعْدَاءَ مِنْكَ عَزائِمٌ ... فَتُعِيدُ جَمْعَهُمُ أَقَلَّ عَدِيدَا
ورَكائِبُ الانجادِ والاتْهَامِ قَدْ ... مَلأَتْ لَدَيْكَ تَهائِمًا وَنُجُودَا
والحَرْبَ تَشْعَلُ نَارهَا حَيْث اغْتَدَتْ ... لاَ تَرْتَضِي إلاَّ عِداكَ وَقُودَا
والرَّوْعُ ان شَبَّتْ عُداتُكَ جَمرَهُ ... سَامَتْهُ أنهارُ السُّيُوفِ خُمودَا
كَحَلَ العُيونَ بإِثْمِدٍ مِنْ نَقْعِهِ ... فَكَأَنَّ عَادًا إذْ عَدَتْ وَثَمُودَا
أنِسَتْ بعِزّ النّصْرِ غُرُّ كَتائِبِ ... أضْحَى بهَا جُنْدُ العَدُوّ شَرُودَا
سَتُزِيرُهَا أرْضَ العُدَاةِ ولِلْقَنَا ... أجَمٌ وقَدْ زَأَرَتْ لَدَيْكَ أُسُودَا -238-
حَيثُ الظُّبَا قَدْ هِمْنَ في هَامِ العِدَى ... حَتّى تَرَكْنَ عَمِيدَهَا مَعْمُودَا
حَيْثُ الوِرَادُ الغُرُّ تَبتَدِرُ الوَغَى ... هِيمًا تُؤَمّلُ في النَّجِيعِ وُرُودَا
حَيْثُ القِسيُّ مَحَارِبٌ أضْحَتْ لهَا ... هَامُ الأعَادِي رُكّعًا وسُجُودَا
حَيْثُ العَزائِمُ في المَيادِينِ التي ... قَادَتْ إلَيْهِنَّ الجِيادَ القُودَا
حَيْثُ النَّدَى والحِلْمُ يُنْجزُ مَوْعِدًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَلا يُجِيزُ وَعِيدَا
حَيْثُ العُلَى واليُوسُفِيُّ يُنِيلُهَا ... جُودًا فَلاَ عَدِمَتْ لَدَيْهِ وُجُودَا
مَلِكٌ مَواقِعُ سَيْفِهِ أوْ سَيْبِهِ ... تَكْفِي عَدُوًّا أوْ تَكُفُّ حَسُودَا
جَمَعَ الفواضل والمَحَامِدَ والعُلَى ... والبَأسَ والخُلُقَ الرّضَى وَالجُودَا
وثَنَى صُدُورَ الذّابلاَتِ إلى العِدَى ... فأقَامَ مِنهَا مَا انثَنَى تَأوِيدَا
تَخْتَالُ مائِلَةَ المَعاطِفِ كلّمَا ... عَطَفَ الكَمِيُّ قَوامَهَا الأُمْلُودَا
لِلّهِ مِنْهُ عَزائِمٌ وَمَكَارِمٌ ... غَادَرْنَ أحْرَارَ المُلُوكِ عَبِيدَا
تَرْجُو مَواهِبَهُ التِي قدْ أصْبَحَتْ ... ظِلاًّ عَلَى أرْجائِهَا مَمْدُودَا
وهَّابُ مَا فَوْقَ البَسيطَةِ لَمْ يَدَعْ ... لِلْمنعِ إلاَّ العَذْلَ والتَّفْنِيدَا

سَبَّاقُ غَايَاتِ المَكَارِمِ كُلَّمَا ... جَارَى المُلُوكَ الأَكْرَمِينَ الصِّيدَا
لَمْ يَرْمِ أغْراضَ المَحامِدِ وادِعًا ... إلاّ وبَذَّ الطَّالِبَ المَجْهُودَا
نظَمَتْ حُلاَهُ المَكْرُمَاتُ فَلَمْ تَزَلْ ... دُرًّا عَلَى لَبَّاتِهَا مَنْضُودَا
نصَّتْ مَناقِبَهُ العُلَى واسْتَشْرَفَتْ ... لِمَنَالِ أدْناهَا ونَصَّتْ جِيدَا
هذِي مَآثِرُهُ تَفوقُ مَدَى العُلَى ... أبدًا صُعودًا أوْ تُفيدُ سُعُودَا
وقَبائِلٍ تَرجُو عَزائِمَكَ التِي ... قَادَتْ ملائِكَةَ السَّماءِ جُنودَا[356]
ما عارَضَتْ نَظَرًا جَميلاً يَقتَضِي ... حُكْمًا ولاَ رأيًا لدَيْكَ سَديدَا
عَدَلُوا عَنِ النَّهجِ القَويمِ وضُلِّلُوا ... لوْلاَ هُداكَ وفَارَقُوا التَّسْدِيدَا
فَبِصُبْحِ هَدْيِكَ يَهْتَدِي فَلَقُ الضُّحَى ... والفَجْرُ قَدْ فَلَقَ الظَّلاَمَ عَمودَا
ان قَلَّصَتْ عنْهَا ظِلالُ مواهِبٍ ... أنشأْتَ مِنْهَا العَارِضَ المَمْدُودَا -239-
فاصْرِفْ لهَا وجْهَ العَزيمَةِ مُنْعِمًا ... وأزِلْ ضَغائِنَ بَيْنَهَا وَحُقودَا
وأَقِمْ صَغَا الاسْلاَمِ في الوَطَنِ الذِي ... أَضْحَى يُطِيعُ مَقامَكَ المَحْمُودَا
في السِّلْمِ أوْ في الحَرْبِ مُلْكُكَ ناصرٌ ... يُرْجَى مُفيدًا أوْ يُخافُ مُبيدَا
جَنحَتْ لِسلْمِكَ أُمَّةٌ أرْسالُهَا ... أَمَّتْ جَنابًا بالعُفَاةِ مَرُودَا[357]
سَلْمٌ أنامَتْ مِن ظُبَاكَ نَواظِرًا ... أُجْهِدْنَ قَبْلُ ومَا عَرَفْنَ هُجُودَا
أهْلاً بهَا ما جُرِّدتْ في المُلْتَقَى ... إلاَّ ارْتَضَتْ هَامَ الكُماةِ غُمُودَا
لَمْ يثْنِهَا عَن قَصْدِهَا خَجَلٌ وقَدْ ... راقَتْ بِهِ وَجَناتُهَا تَوْرِيدَا
فأَرَحْتَهَا مِن جَهْدِهَا لِتُجيرَهَا ... طَوْعَ الجِهَادِ وتَبْذُلَ المَجْهودَا
فَلِذَاكَ قَدْ أيْقَظْتَ كُلَّ مُهَوِّمٍ ... لَمَّا أَنَمْتَ الصَّارِمَ المَغْمودَا
ومَنَعْتَ أندَلُسًا وقَدْ رامَ العِدَى ... انْ يُوسِعُوا جَمْعَ العِدَى تَبْدِيدَا[358]

---

(356) لعله يعني القبائلْ المغربية الموالية لمخدومه.

(357) كُتِبَ في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي : «ذكر انعقاد السلم مع ملكي قشتالَة ورَغون». ومرودا : مقصودا.

(358) كُتِبَ في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي : «ذكر رجوع العمرة (أو العمارة) البرطقالية عن جبل الفتح والبلاد الأندلسية ودخولها سبتة أعادها الله».

خاضُوا البحَارَ لهَا وعَزْمُكَ دُونَهَا   فَثناهُمُ وَحَمَى الفَلاَ والبِيدَا
قَصُرتْ خُطاهُمْ عن مَنالِ قُصورِهَا   والنَّصْرُ قَدْ مَدَّ الطِّوال المِيدَا
أقفَرْتَ من أهْلِ الضّلاَلَة أرْضَهَا   ومَلأْتَ آفاقَ السَّماءِ بُنُودَا
وَجَلَوْتَ مِن آياتِ عَزْمِكَ أنْجُمًا   فارْتَدَّ شَيْطانُ الضلاَّلِ مَرِيدَا
وثنَى عِنانَ القَصْدِ عَنْهَا بَعْدَمَا   وافَى طَرِيقًا حَادَ عنهُ طَرِيدَا
واحْتَلَّ بالوَطَنِ الذي لمْ يَتَّخِذْ   عُلْيَاكَ رُكْنًا في الخُطوبِ شَدِيدَا
سُحْقًا لِمَن لمْ يَنتصِرْ بِمُؤَيَّدٍ   لمْ يَلْوِ طَوْعَ وفَائِهِ مَوْعودَا
مالِي أرَى التّثْلِيثَ وهْوَ ضَلاَلَةٌ   يَمْحُو الهُدَى ويُكاثِرُ التَّوْحيدَا
ما لِلنّقَاد تَرُدُّ آسَادَ الشَّرَى   طَوْعًا وتَقْتَنِصُ الظِّباءَ الغِيدَا(359)
فكأنّهَا لمْ تَدْرِ أنّكَ ناصِرٌ   بالسَّيْفِ تُرْهِقُهَا لدَيْكَ صعُودَا
هذا عَدُوُّ الدّينِ حَلَّ بسَبْتَةٍ   لِيَنال شأْوًا في الضَّلاَلِ بَعيدَا(360)
ألْقَى لَدَيْهَا رَحْلَهُ إذْ لمْ يَكُنْ   عَن مَوْرِدِ الدّينِ الحَنيفِ مَذُودَا
والآنَ لمَّا ان دَعَتْكَ لِنَصْرِهَا   جَعَلَتْ مَقامَكَ عُدَّةً وَعَدِيدَا
فأخَفْتَ عُبَّادَ الصَّلِيبِ بهَا وقَدْ   صَلُبَتْ عَلَى رَيْبِ الحَوادِثِ عُودَا
قصْدًا إلَيهَا أيُّهَا المَلِكُ الرِّضَى   لِتَرَى القَنَا بصُدورِهَا مَقْصُودَا
سَتُعيدُهَا وتُنيلُ كُلَّ مُوَحّدٍ   أمْنًا وتُوسِعُ قُطْرَهَا تَمْهيدَا
لَمْ تُنْهِضِ الرَّايَاتُ رأيُكَ مُنجِدًا   إلاَّ تَقَدَّمَ هادِيًا وَرَشيدَا(361)
يَا مُنْعِمًا مازالَ جُودُ يَمينِهِ   لِحُلَى المَكارِمِ مُبْدِئًا وَمُعيدَا
ولّيْتَ عَهْدَ المُسْلِمِينَ مُحَمّدًا   فَسَلَكْتَ قَصْدًا لِلعَلاَءِ حَميدَا
وَدَعَوْتَ قَاصِيَةَ البِلاَدِ فأهْطَعَتْ   تُلْقِي لَدَى البَابِ الكَرِيمِ وُفودَا

---

(359) النّقاد : صغار الغنم.

(360) كُتب في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي :
«التحريض على جهاد من بسبتة».

(361) منجدًا، يقترح الشاعر أيضًا كلمة : ناصِرًا، وفي البيت تورية بالهادي والرشيد العباسيين.

صَدَرتْ نواهِلَ بعْدَمَا قدْ راقَها في مَنْهَلِ الرِّفْدِ العِميمِ وُرودَا
هذا وَعيدُ الفِطْرِ أسْعَدُ قادِمٍ وافَاكَ مُتخِذًا خِلالكَ عيدَا
وتَرَحَّلَ الشهْرَ الكريمُ مُؤَكِّدًا لَكَ مِن رضاهُ مواثِقًا وعُهُودَا
أرْضاهُ أنْ قامَتْ عُلاَكَ بحَقِّهِ تُبْدِي رُكُوعًا أوْ تُطيلُ سُجودَا
وأنَلْتَ هذا اليَوْمَ زائدَ مِنحَةٍ فَشأَوْتَ مَرْوانًا وطُلْتَ يَزيدَا[361م]
جَمَّعْتَ أشْرافَ الجنودِ فَحالفُوا جُودًا وجَدًّا لاَيَزالُ جَديدَا
أفْضَتْ إلَى البَابِ الكريمِ وُفودُهَا فأفَضْتَ بَحْرَ نَوالِكَ المْوْرُودَا
فَاهْنأْ بِهِ عيدًا أغرُّ مُحَجَّلاً طَوْعَ السُّعُودِ ومَوْسِمًا مَشهُودَا
وإلَيْكَهَا عَذْراءَ رائِقَةَ الحُلَى حَسْناءَ مائِلَةَ المَعَاطِفِ رُودَا
جَمَعَتْ معَانِيَ للبَلاَغَةِ كُلَّمَا نُظِمَتْ لأَن تَدَعَ الفَريدَ فَريدَا
فَجَلَوْتُهَا ولَطالَمَا قَدْ صُنْتُهَا لِلوَصْفِ مِنْكَ قَلائِدًا وعُقُودَا
ولَكُمْ هَدَتْنِي مِنْكَ غُرٌّ مَناقِبٍ إنْ رُمْتُ قَصْدًا أوْ نَظَمتُ قَصيدَا
أوْلَيْتَنِي النُّعْمَى التِي أنَا شاكِرٌ والشُّكْرُ يَضْمِنُ مِن نَداكَ مَزيدَا
لاَزِلْتَ فِي المُلْكِ العَزيزِ مُهَنَّأً فَتْحًا ونَصْرًا دائِمًا وَخُلودَا

-241- وأنشَدتُهُ بالقَصْرِ المُسَمَّى بالمُحْدَثِ مِن مالَقَةَ في عيدِ الأضْحَى مِن عامِ ثمَانيةَ عَشَرَ وثمَانِ مائة وقدِ استَدعَى فُقَهاءَهَا وَجُندَهَا وأشيَاخَهَا لإقامَة مَا جَرت بِهِ العَادَةُ في حَضْرَتِهِ مِنَ البيْعَةِ وَالإطْعَامِ واحْتَفَلَ في ذلِكَ[362]

بشرى بعيدٍ أتَى وَالنّصْرُ يَقْدُمُهُ ورائِدُ العزّ يَستَدعيهِ مَقْدَمُهُ

(361م) مروان ويزيد من الأمويين، فشأوْتَ : فسبقت، وطلْت : مطاوع طاوَلَ.
(362) تقدم ذكر القصر المحدث.

عِيدٌ يَعود بِمَا شاءتْ عُلاَكَ فَقَدْ ... سَمَـا بِعِـزِّكَ لِلْعَلْيَـاءِ مَوْسِمُـهُ
فالنّصرُ قَـدْ بَهَـرَ العَلْيَاءَ مَصْنَعُـهُ ... والصُّنْعُ قَـدْ أَبْهَـجَ الدُّنْيَا مُتَمَّمُـهُ
هذا هُوَ الفَتْحُ قدْ راقَتْ مَطالِعُهُ ... واسْتَشْرَفَتْ مِن ثَنَايَا العَزْمِ أَنْجُمُهُ
هذا هُوَ الصُّنْعُ قادَتْهُ العُلَى فَعَلاَ ... بِيُوسُفٍ مَـلِك الأَمْـلاَكِ مَعْلَمُـهُ
فانْـهَضْ يُحَيِّـيكَ أَبْهَـاهُ وأَبْهَـرُهُ ... سَنِّـى وأَوْثَقَـهُ عقْـدًا وأَحْكَمُـهُ
فالدِّيـنُ سَيْبُكَ مُجْدِيـهِ. ومُوجِـدُهُ ... والكُفْـرُ سَيْـفُكَ مُفْنِيـهِ ومُعْدِمُـهُ
حُكْمٌ يُجَدِّدُهُ القَصْدُ الحَميدُ فَمَـا ... يَبْلَى عَلى كَثْرَةِ التَّرْدَادِ مُحْكَمُـهُ
وإنّ مَالَقَـةَ الغَـرَّاءَ حَـلّ بهَـا ... مَوْلَى الخلائِـفِ والأَمْلاَكُ تَخْدُمُـهُ
لَـهُ وإنْ عَظُمُـوا قَـدْرٌ تُعَظِّمُـهُ ... وَصْفٌ تُقَـدِّسُهُ ذِكْـرٍ تُقَدِّمُـهُ
تُرْجُو نَداهُ وتَـخْشَى بأْسَهُ فـإذا ... ما جَدّ فِي عَزْمِهِ يُرْجَى تَكَرُّمُـهُ
فَيقْبُضُ السَّيفَ حَيْثُ الرِّزْق يَبْسُطُهُ ... كَبَـارِقِ السُّحْبِ يُزْجِيهَـا تَبَسُّمُـهُ
كَم مَقصَدٍ حينَ ضَنَّ الدّهْرُ جَادَ بِهِ ... فَعَـمَّتِ المُنْعِـمَ الوَهَّـابَ أنعمُـهُ
فَكُـلُّ مَـلْكٍ وان جَـلَّتْ مواهِبُـهُ ... يُمْنـاهُ كَعْبَتُـهُ رُحْمـاهُ زَمْزَمُـهُ
مَا رُدّ عـنْ أَمَـلٍ إلاّ ولاَذَ بِـهِ ... فالمَنْـحُ يوجِـدُهُ والمَنْـعُ يُعْدِمُـهُ
يَكْسُوهُ ثَوْبَ اعتِلاَءٍ غَيْرَ مُنتَهَجٍ ... حَتّى يَرُوقَ عَلَى عِطْفَيْهِ مُعْلَمُهُ
وَسَبْتَةٌ حَلّ جُنـدُ الكَافِريـن بهَـا ... فأَصْبَـحتْ وأقاصِيهَـا مُيَمَّمُـهُ
يا هَلْ يُجَدّدُ عهْدٌ في مَعَاهِدِهَا ... مَضَى حَميدًا وهَلْ يَبْلَى مُذَمَّمُهُ(363) -242-
وهَـلْ لِمَعْقِلِهَـا إنْ لـمْ تُلِـمَّ بِـهِ ... رُجْعَى وَلِلشِّرْكِ أحْزابٌ تُيَمِّمُـهُ
نادَتْكَ يا مَلِكَ الدّنيَا لِتُوضِحَ ما ... ظَـلَّ العَـدُوُّ قُبَيْلَ الفَتْـحِ يُبْهِمُـهُ
واسْتَنْشَقَتْ مِنْكَ ريحَ النصْرِ حينَ غَدَا ... مُسْتَقْبَـلُ الفَتْـحِ يُهْدِيـهِ تَنَسُّمُـهُ
هذِي أَحادِيثُهُ وافَتْكَ مِن كَـثَبٍ ... لِمَظْهَـرِ الدِّيـنِ تُعْلِيـهِ وتُعْلِمُـهُ
حيثُ القَبائِلُ تَدْعُو مِنكَ ناصِرَهَا ... وتَرْتَجِيكَ لِشَمْـلِ الدِّيـنِ تَنظِمُـهُ

(263) يجدّدُ : في الأصل، يُجَدُّ،وهو سهو من الناسخ.

لِلقُطْرِ تَفْتَحُهُ للأَمْنِ تَمْنَحُهُ … لِلعِزّ تُوفِدُهُ لِلنّصْرِ تُقدِمُهُ
لِلمُلْكِ تُنْجِدهُ لِلرِّفْدِ تُوجِبُهُ … لِلدّينِ تُوجِدُهُ لِلْكُفْرِ تُعْدِمُهُ
لِلأَجْرِ تُحْرِزهُ للوَعْدِ تُنْجِزُهُ … لِلْجَيْشِ تُنْهِدُهُ لِلرُّشْدِ تُلْهِمُهُ
كَمْ دَرَّهَا الكُفْرُ عَنْهَا حينَ تَقْصدُهَا … كالطَّيْرِ تُمْنَعُ عَذْبَ الوِرْدِ حُومُهُ(364)
وما دَجَى لَيلُ خَطْبٍ في مَعاهِدهَا … إلاّ انجَلَى بصَباحِ العَزْمِ مُظْلِمُهُ
رأيٌ تُصيبُ إذا الرَّاياتُ قَدْ نُشِرَتْ … لَدَيْكَ شاكِلَةَ الأَغْراضِ أَسْهُمُهُ
قَدْ أَقسَمَ النَّصْرُ أن يَحْتَلَّ أَرْبُعَهَا … والنَّهْبُ لاَ يَسَعُ الأَيْدِي مُقَسَّمُهُ
والبَحْرُ مِن رَهَجٍ يُبْدِي تَجَهُّمَهُ … والمَوْجُ عن ثَبَجٍ يفْتَرُّ مَبْسِمُهُ
وبارِقُ السَّيْفِ مِنْ يُمْنَى يَدَيْكَ إذَا … تَجهَّمَ الرَوْعُ يَجْلوهُ تَبَسُّمُهُ
كَمْ قائِمٍ بجَزيلِ النّصْرِ قائِمُهُ … ومُعْرِبٍ عَن جميل الصُّنْعِ أعْجَمُهُ
يَخْطُو ليَخْطُبَ في حَفْلِ العِدَى عَجبًا … ما راقَ أَسْماعَهُمْ إلاَّ مُصَمِّمُهُ
هَيْهاتَ يَشْمَخُ فيهَا بَعْدَمَا أُنِفَتْ … لِلْكُفْرِ أنفٌ وَسيْفُ النَّصْرِ يرْغِمُهُ
وهَلْ يَقودُ وَلِيَّ الكافِرينَ سِوَى … مُغْراهُ بالقَدِّ في الهَيْجاءِ مُغرَمُهُ(365)
ان ساقَ حِزْبَ العِدَى لِلحَرْبِ غادَرَهُ … نَهْبًا وقدْ راقَ في مَغْنَاهُ مَغْنَمُهُ
وكَيفَ لاَ يَرْتَضِي حُكْمَ الهَوانِ وقَدْ … هَوَى لهُ الأَسْمَرُ الخَطِّيّ يَخْصِمُهُ
دَارِكْ بهِ رَمَقَ الاسْلاِمِ فهو عَلى … شَفًا وإنَّ بهِ يُشْفَى تَأَلُّمُهُ
كَمْ عامِلٍ عَمِلتْ أَيْدِي الكُماةِ بِهِ … مَا الدّهْرُ في صُحُفِ العَلْياءِ يَرْسُمُهُ
قامَتْ عَلى سَاقِهَا الحَرْبُ العَوانُ فمَا … ثَنَتْهُ لمَّا انثَنَى فيهَا مُقَوَّمُهُ -243-
ومُرْسَلٍ قَيَّدَ الأَسْماعَ مِنْ طَرَبٍ … كأَنَّهُ طائِرٌ يُشْجِي تَرَنُّمُهُ
تحِنُّهُ القَوْسُ عِنْدَ الرَّمْيِ أَبْهَرَهَا … كأَنَّ صَدْرًا بهِ ظَنٌّ يُرَجِّمُهُ(365م)

(364) دَرَّهَا : كذا في الأصل، ولا معنى لها.

(365) بالقَدّ : بالقطع.

(365م) ومرسل : نعت لمنعوت محذوف هو السهم، والأبهر في الأصل عرق مستبطن الصلب إذا انقطع لم يبق صاحبه.

وسابِقٍ في مَجالِ الرَّوْعِ مُتَّئِدٍ   يَخْتالُ حَيْثُ العِدَى زَهْوًا مُطَهَّمُهُ
لِلْبَرْقِ في سُرْعَةٍ لِلنّارِ في لَهَبٍ   للرّيحِ في قُوَّةٍ يُعْزَى مُجَسَّمُهُ
إذا عَلاَ البَطَلُ المَرْهُوبُ صَهْوَتَهُ   فَجَمعُهُمْ ظَلَّ يَثْنيهِ تَقَدُّمُهُ
أَوْ جَرَّ مِن خَلْفِهِ الخَطِّيَّ تَحْسِبُهُ   صِلاً تَقَدَّمَهُ في القَفْرِ ضَيْغَمُهُ
نامَ العَدُوُّ ولَيْلُ الأَمْنِ يَكْنُفُهُ   بهَا وقَدْ راقَهُ فيهَا تَلَوُّمُهُ
ولَوْ تَجَلَّى صَباحُ العَزْمِ مِنْكَ إذًا   لاَسْتَيْقَظَتْ بَعْدَ هَدْءٍ منه نُوَّمُهُ
وَسَوْفَ يَكْبُو بِهِ طِرْفُ العزيمَة إذْ   يُجْرِيهِ في طَلَقِ التَّقْصِيرِ مُجْرِمُهُ
إنَّ الفِرارَ وإن سُدَّتْ مَذاهِبُهُ   يُسْلِيهِ عَن وطَنٍ بالرَّغْمِ يُسْلِمُهُ
كأنْ بِهِ قَبْلَ أنْ يَحتَلَّ حِلَّتَهَا   يَثْنِيهِ وَاهِي القُوَى عنْهَا تَوهُّمُهُ
كأنْ بمَعْقلهَا يُلْقِي مُمَنَّعُهُ   يدًا ويَرْتاحُ بالبُشْرَى مُنَعَّمُهُ
ويُظْهِرُ الدَّهْرُ ما يُمْنَايَ تَكْتُبُهُ   لِلفَتْحِ عَنْكَ وكانَ الدّهْرُ يَكتُمهُ
تَبُثُّهَا في أقاصِي الخافِقَيْنِ بمَا   تَخُطُّهُ يَدكَ العُلْيَا وتَرْسُمُهُ
فانْهَضْ وَعَزْمُكَ يَثْنِي قَصْدَ ساكنهَا   مُخَيِّمًا حَيْثُ مَغناهَا مُخَيَّمُهُ
لاَ يُضْمِرُ الدّهْرُ معْنَى الفَتْحِ عنْكَ وقدْ   تَوضَّحَ الآنَ طَوْعَ النَّصْرِ مُبْهَمُهُ
وإنَّ عبْدَكَ يُبْدِي الدُّرَّ مِن كَلِمٍ   في مَدْحِ عُلْيَاكَ أفْكارِي تُنظِّمُهُ
لَوْلاَ نَداكَ وما أَوْلَيْتَ مِن نِعَمٍ   ماراقَ مِنْهُ فُرَادَاهُ وتَوْأَمُهُ
فَخُذْ حَديقَةَ طِرْسٍ والثّناءُ بهَا   مِسْكٌ يُفَضُّ بأمْداحِي مُخَتَّمُهُ
واهْنَأْ بهِ مَوْسِمًا جَلَّتْ مَواهِبُهُ   وراقَ في أُفُقِ العَلْيَاءِ مِيسَمُهُ
لازالَ مُلْكُكَ لِلأمْلاكِ يُنْجِدُهَا   في كُلّ ما أَحْكَمَتْ عَهْدًا يُحَكِّمُهُ
ودامَ رأيُكَ لِلرَّاياتِ يَعْقِدُهَا   والنّصْرُ لا يَنْثِنِي عَنْهَا مُحَتّمُهُ -244-

وأنشَدْتُهُ بِقُبّةِ مَشْوَرِهِ مِنْ حَضْرَتِهِ
العَلِيَّةِ عَلى العَادَةِ يَوْمَ عِيدِ الفِطْرِ
عَامَ تسْعَة عَشَرَ وثَمان مائَة وقَدْ
تَحرَّكَ السُّلْطانُ أبو عَلِي مِن مراكُش لمحَارَبَةِ
أخيهِ السُّلْطان أبي سَعيد صاحِب فاسٍ
وانتصَر كِلاَهُمَا بِهِ رَحِمَهُ اللهُ ووَرَدَتْ
رُسُلُهَمَا عَلى حَضْرَتِهِ في ذلِكَ ما نَصُّهُ(366)

بعُلاَكَ صَدَّقَتِ المُلُوكُ رَجاءَهَا ... وبعَدْلِ ملكِكَ مهَّدَتْ أرْجاءَهَا
وبكَ ارْتَقَى الإسْلاَمُ أرفعَ مَظْهَر ... وبِكَ ارْتَضَتْ كلِماتُهُ إعْلاَءَهَا
ولكَ المُسَمَّى في الخِلاَفَةِ كُلّمَا ... أتَتِ المُلوكُ وعدّدتْ أسماءَهَا(367)
وإذا سَمَتْ هِمَمٌ لإدْراكِ العُلَى ... جَلَّتْ خِلاَلُكَ أن تَنالَ سَماءَهَا
تُشْفَى بكَ الأيَّامُ وهْيَ عَلَى شَفًا ... فتُزيلُ مُعْضِلَهَا وتُبْرِىءُ دَاءَهَا
وحَوادثٍ جَلَّتْ مَواقِعُ خَطْبِهَا ... بَصَباحِ عَزْمِكَ قَدْ جَلَوْتَ مَساءهَا
أوَ لَسْتَ يا مِلِكَ الهُدَى مِن أسْرَةٍ ... قَدْ أوْرَثَتْ شِيَمَ العُلَى أبْناءهَا
أخْبَارُهُمْ طابَتْ بَطَيْبَة كُلّمَا ... حَلُّوا لإفْنَاءِ العُداةِ فِناءَهَا
وكَفاهُمُ أنَّ الخِلاَفَةَ بعْدَهُمْ ... لَوْلاَ عُلاَكَ لَفارَقَتْ أكْفاءَهَا
للهِ منكَ خِلاَفَةٌ نَصْرِيَّةٌ ... تَدْعُو الخَلائِقُ أن يُطيلَ بَقاءَهَا
أوَ ما خِلاَفتُكَ الكَريمَةُ رَحْمَةٌ ... قَدْ مَدَّتِ الرُّحْمَى بهَا أفْياءهَا
أوَ ما خلاَفتُكَ العَلِيَّةُ آيَةٌ ... تُهْدِي إلى شمْسِ الضُّحَى لألآءَهَا

---

(366) لا ذكر لأخي أبي سعيد المدعو هنا بالسلطان أبي علي فيما وقفنا عليه من مصادر ؛ والمعروف من أخوته أبو فارس عبد العزيز وأبو عامر عبد الله، وقد وليا الملك قبل أبي سعيد، وتوفيا قبل هذا التاريخ. راجع جذوة الاقتباس : 417، 450.

(367) يقول إن ممدوحه هو الخليفة اسمًا ومسمّى وغيره ليس لهم من الخلافة إلاّ الاسم.

فتُعيرُ طَالِعَةَ الضُّحَى أنوَارَهَا   وتُفيدُ سَارِيَةَ الحَيا أنْواءَهَا
لكَ هِمّةٌ طَوْعَ النَّدَى وعَنِ الردَى   جَعَلَ الوفاءُ حِباءَهَا وإباءَهَا -245-
ولكَ الصّفاتُ الغُرُّ كَاثَرتِ الحَصَى   عَدَدًا فَمَنْ ذا بالِغٌ إحْصاءَهَا
ولكَ المآثِر دونَهَا الشّمْسُ التي   تَهْدِي وتُهْدِي لِلوَرَى أضْواءَهَا
ولكَ المَناقِبُ لَوْ أعارَتْ هَدْيَهَا   شُهُبُ الدُّجَى مَا فَارَقتْ عَلْياءَهَا
ولكَ الكَتائِبُ ما جَمَعْتَ لِحَادِثٍ   أعْدادَهَا إلاَّ كَفَتْ أعْداءَهَا
ولكَ العَزائِمُ كُلّمَا أمْضَيْتَهَا   في الحَرْبِ أمَّلَتِ السُّيوفُ مَضاءَهَا
ولكَ الفُتوحُ إذا طَوتْ أبْطالُهَا   أرْضَ العِدَى نَشَرَتْ عَلَيْكَ لِواءَهَا
لَكَأنْ بسَبْتَةَ والعِدَى قَدْ خلَّفُوا   مِنْهَا الدّيَارَ وعَطَّلُوا افنَاءَهَا
لكأنْ بأرْبُعِ سَبتَةٍ وجموعُهَا   فَوْضَى وقد ملأ الفِرَارُ فَضاءَهَا
هَاذِي العِدَى تَجْلُو الكَتائِبَ في مَدًى   كَتَبَتْ يَدُ الأقدارِ فيهِ جَلاَءَهَا
هاذِي رِياحُ الحَرْبِ هَبّتْ عِندَهُ   هُوجًا ولَمْ تُرْسِل عَلَيْهِ رُخَاءَهَا
وقَفَتْ وقَدْ قَضَتِ السُّيوفُ بأنّهَا   للنّهْبِ وانتَظَرَتْ لدَيْكَ قَضاءَهَا
نَضَتِ الرَّواحِلَ عندَمَا قَدْ أُنضِيَتْ   فنَأتْ وقَدْ ضَمِنَتْ لَدَيْكَ فَناءَهَا
سَيُرَى مَقامُكَ في مَقامِ جِهَادِهِ   والخَيْلُ قَدْ أبْدَتْ بهِ خُيَلاَءَهَا
حيْثُ الأسِنَّةُ أنجُمٌ مُنْقَضَّةٌ   في الحَرْبِ تَقْضِي أن تُرِيقَ دِماءَهَا
فلَرُبَّ طَعْنَةِ ذِي قَناةٍ يَلتَقِي   صَدْرُ الكُماةِ بِصَدْرِهِ نَجْلاَءَهَا
وجِيادِ سَبْقٍ أتْلَعَتْ أجْيادَهَا   وَظُبَا فَوارِسِهَا تَرُوعُ ظِباءَهَا
وَطَليعَةٍ شَنّتْ عَلَيْهِمْ غَارَةً   بَثَّ الرَّدَى بِفِنائِهِمْ شَعْواءَهَا
وَمُدَمّرٍ أعْداءهُ قَدَّ الطُّلَى   مِنهَا وقادَ إلى الرّدَى أحْياءَهَا
ما لاَحَ بَرْقًا في سَماءِ عَجاجَةٍ   الاَّ وَجَلَّى نُورُهُ ظَلْماءَهَا
ما راعَتِ البَطَلَ الكَمِيَّ مُلِمّةٌ   إلاَّ وأصْبَحَ مُفرِجًا غمّاءَهَا
فأزِرْ عَلَى حُكْمِ العَزائِمِ أرْضَهَا   أسْدًا إذا زارَتْ أُبَتْ إرْضاءَهَا

وجِيَادَ نَصْرٍ كُلَّمَا أرْسَلْتَهَا ... تَركَتْ مَيادِينَ السّبَاقِ وراءَهَا
قَدْ قَلَّبَتْ كَيفَ ارْتَضَتْهُ كُماتُها ... قَلْبَ الفَلاةِ وَضَعْضَعَتْ أحْشاءَهَا -246-
تُذْكِي العُيونَ عَلَى الأعَادِي كُلّمَا ... أطْلَعْتَ في أُفْقِ الجِهَادِ ذُكاءَهَا
تُلْوِي أعِنّتَهَا وتُرسِلُهَا وَقدْ ... رَفَعَتْ مِن النّقْعِ المُثارِ لِواءَهَا
وَصَوارِمًا تَجلُو العِدَى عَن حَيّهَا ... إذْ أحْكَمَتْ أيْدِي القُيُونِ جِلاءَهَا
فكأنّهَا أنْهَارُ دَوْحٍ أُرْسِلَتْ ... وَجَداوِلُ الأغْمادِ تُمْسِكُ ماءَهَا
فتَرى الأعَادِي كُلمَا قَدْ أوْقَدُوا ... للحرْبِ نارًا يمّمَتْ إطْفاءَهَا
ما بالُهَا تُرْدِي الكمِيَّ ولمْ يَزَلْ ... إمْضاءُ عزْمِكَ سابقًا إنْضاءَهَا
صَدَرتْ نَواهِلَ مِنْ صُدورِ عِداكَ إنْ ... أوْرَدتَ مُنهَلَّ النَّجيعِ ظِماءَهَا
وأجِزْ إليْهَا المُنْشآتِ كأنّهَا ... نُجُبٌ تُواصِلُ للنجاةِ نَجاءَهَا
تَسْرِي كأنَّ رَواحلاً قَدْ أنضيَتْ ... فَجَعَلْنَ أصْواتَ الرّياحِ حُداءَهَا
يا طالَمَا حَمِدَتْ حُلاكَ جِلالَهَا ... قِدْمًا فَصَيَّرتَ الجَوازَ جَزاءَهَا
هذا وفاسٌ ما يفُوزُ بمُلْكِهَا ... إلاَّ الذِي وَلَّيْتَهُ بيْضاءَهَا
هَذِي مَرينٌ أنتَ وجْهَةُ قَصْدِهَا ... لمَّا رَمَتْ بِخِلاَفِهَا خُلفاءَها
هذِي مَرينٌ يمّمَتْكَ لِنَصْرِهَا ... لمَّا دَعَتْ خُلَفاؤُهَا خُلَفاءَهَا
وثَنَتْ عِنانَ القَوْلِ فيكَ فَواصَلَتْ ... لِعُلَى مَقامِكَ حَمْدَهَا وثناءَهَا
إنَّ الذي وَفَّى مَقامَكَ حقَّهُ ... مَحَضَتْ لهُ طَوْعَ الوِدادِ وفاءَهَا
فَلِذاكَ نادَتْ مِنكَ ناصِرَهَا الرِّضَى ... لِتُجيبَ طَوْعَ المكْرُماتِ نِداءَهَا
ما حَقَّقَتْ مَرْجوَّها بكَ إذْ دَعَتْ ... إلاَّ شَفَتْ برَجائِهَا بُرَحاءَهَا
وقُلوبُهَا ما شَفَّهَا بَرْحُ الأسَى ... إلا وكانَ نَدَى يَدَيْكَ شِفاءَهَا
لِلّهِ كَمْ والَيْتَهُنَّ مَوَاهِبًا ... جَعَلَتْ لَهَا صِيدُ المُلوكِ وَلاءَهَا
ولَكَمْ أيَادٍ طوَّقتْ أعْناقَهَا ... قَضَتِ المَكارِمُ فيهِمُ إسْداءَهَا
ولَكَمْ ظِلالٍ لِلأمانِ تَقَلَّصَتْ ... فمَددتَ فيهَا مُنعِمًا أفْياءَهَا

فاهْنــأْ بِعــزِّ خِلاَفَــةٍ أَمْلاَكُهَــا   أَضْحَتْ عَلَى حُكْمِ الوَفاءِ وِفاءَهَا -247-
وبِنَجْلِكَ المُتَنسِّكِ الأَرْضَى الـذِي   نـالَ العُلَى وتَحَمَّـلَ اسْتِقْصاءَهَـا
بِوِلاَيَةِ العَهْدِ التِي قـدْ أُحْكِـمَتْ   كيفَ ارْتَضاهَا اليُوسُفِـيُّ وشَاءَهَـا
فِي حَضْرَةِ المُـلْكِ التّـي لِجَنابِهَـا   تُزْجِـي الـرّكابُ سِراعَهَـا وبِطاءَهَـا
حَجٌّ الُوفـودِ وحُجَّـةِ الأَمْصارِ إِذْ   قَـدْ أَوْجَـبَتْ إِلْقاءَهَـا ولِقاءَهَـا
بِمُشَيَّـــدِ عَلْياءَهَـــا ومُشَدّدٍ   أَعْضادَهَـــا ومُسَدّدٍ آراءَهَـــا
إن رامَ قُطْرٌ أنْ يُضاهِيَهَا انْثَنَـى   كالشَّمْسِ لَوْ رامَ السُّهَى إِخْفاءَهَا
دارُ السَّلاِمِ لَـو. اسْتَقَـلَّتْ هَـذِهِ   مـازارَ مَنْصُورُ الأُلَـى زَوْراءَهَـا(368)
ومُعَدُّ مِصْرٍ لَـوْ أَعَـدَّكَ مُنْعِمًـا   ما كَانَ يُخْلِفُ نِيلُهَا بَطْحاءَهَا(369)
ولِوِ اسْتَمَـدَّ الأُفْقُ جُـودَكَ آمِـلاً   ما فَارَقَتْ سُحُبُ الغَمامِ سَخاءَهَا
هَـلْ يـوسُفٌ إِلاَّ كَيُـوسُفَ عِـزَّةً   ومَحاسِنًا تُهْدِي النُّجومُ رُوَاءَهَـا(370)
تَهْدِي وتُهْدِي العِزَّ شِيمتُهُ التـي   أَبْـدَتْ سَناهَـا لِلْـوَرَى وسَناءَهَـا
مَا اسْتَقْبَلَتْ شَتَّى الوُفـودِ جَنابَـهُ   إلاَّ وَقابَـلَ بالقَبُـول هناءَهَـا
مـا يَمّـمتْ إلاَّ ظِـلاَلَ نَوالِـهِ   فأَفادَهَـا البُشْرَى غـدَاةَ أفاءَهَـا
لـمْ لاَ تُؤَمِّلُهَـا الوُفـودُ خِلاَفَـةٌ   نَصْرِيّـةٌ جُعِـلَ الوُجـودُ فداءَهَـا
فَلْيَهْنِهَـا عيـدٌ يَعـودُ بِنَصْرِهَـا   ويُعيـدُ فِي دَرَكِ الـرَّدَى أَعْداءَهَـا
وسُعـودُ أَنجُمِهَـا تَمُـدُّ شُعاعَهَـا   مِـن أُفْقِهَـا وتُفِيدُنَـا أَضْواءَهَـا
بُشْراكَ قَـدْ أَحْـرَزْتَ فِي مَيْدانِهَـا   سَبْقًـا مُعَلاَّهَـا وحُـزْتَ عَلاَءَهَـا
ولَكَ الهَناءُ بِمَقْدَمِ العِيـدِ الـذِي   أَلْقَـى أَزِمَّـةَ سَيْـرِهِ تِلْقاءَهَـا
وافَى وأَيَّامُ الصّيامِ قَدِ انـقَضَتْ   فأَتَـى بِقُـرْبٍ يَقْـتَضِي إِقصَاءَهَـا

(368) دار السلام والزوراء : بغداد، والمنصور هو أبو جعفر الخليفة العباسي مؤسس بغداد.
(369) معد مصر : هو أبو تميم معد الملقب بالمعز العبيدي، وإليه تنسب القاهرة المُعِزّية.
(370) يوسف الأول هو ممدوح الشاعر، ويوسف الثاني هو نبي الله، وهو عزيز مصر كما ذكر في القرآن الكريم وإلى هذا يلمّح الشاعر.

وَدّتْ وقدْ كَلِفتْ بِوُدّكَ لوْ ثَنَتْ ... رَكْبَ السُّرى واسْتأنَفتْ إبْقاءَهَا
مَوْلاَيَ لوْلاَ جُودُ كَفّكَ لمْ أُجدْ ... إبْـدَاعَ أمْداحِـي ولاَ إبْداءَهَــا
فإلَيْكَ وصْفًا لمْ تَلُحْ شُهُبُ الدُّجَى ... إلاَّ وبَاهَــى حُسْنَهَـا وبَهَاءَهَـا
هَـذِي المَنـاقِبُ يسْتِميـلُ سَماعُهَـا ... قوْمًــا ادارَتْ فيهِمُ صَهْبَاءَهَـــا -248-
هَذِي المدائِحُ واللُّهَى قَدْ أنطَـقَتْ ... لِتَرُوقَ في رَوْضِ النُّهَى وَرْقاءَهَـا
هَذِي الفُحُولُ الغُلْبُ دُونَ مَرامِهَا ... إنْ سابَقوا لـمْ يَسْبِقُـوا عَذْرَاءَهَـا
يُلْقَـى لَـدَيْكَ العَبْـدُ مِنْهَـا فَـذَّةً ... والمَـدْحُ مِنْكَ مُـحَسِّنٌ حَسْناءَهَـا
يَسْتَوْقِـفُ الشّعْرَى دُوَيْـنَ مَرامِهَـا ... صِيتًـا ويَسْبِـقُ وادِعًـا شُعَراءَهَـا
لَـوْلاَ نَـوالُكَ مَـا أجـادَ لِسانُــهُ ... إنْشادَهَـــا أوْ فِكْـــرُهُ إنشاءَهَـــا
فَلقدْ تَفوقُ السُّحْبَ كَفُّكَ عِندَمَا ... تُزجِي حَيَاهَا أوْ تُفيدُ حِباءَهَـا(370م)
فإلَيْكَهَـا غَـرَّاءَ رائِقَــةَ الحُلَــى ... حَيَّتْ وقدْ أبْدَتْ لَـدَيْكَ حَياءَهَـا
فَحصَتْ عنِ المعْنَى الشَّرودِ فأعْجَزَتْ ... كَيفَ اقْتَضَى إعْجابُهَـا فُصَحاءَهَـا
عَرَبِيَّــةً ارْسَلْتُ مِـــن إعرابِهَـــا ... خَيْـلاً تُقابِـلُ بالصَّهيـلِ رُغاءَهَـا
لاَزِلْتَ شَمْسًا والملـوكُ كَــواكِبٌ ... يُبْـدِى ظُهورُكَ لِلوُجـودِ خَفاءَهَـا
والخَلْقُ في دَعَةٍ وعِـزُّكَ صارِفٌ ... ما شاءَ صَرْفُ الدّهْرِ ممَّا ساءَهَا
تَدْعُو لِنصْرِكَ مَن قَضَتْ أحْكامُهُ ... كَرَمًا وَفضْلاً أنْ يُجيبَ دُعاءَهَـا

وأنشَدتُهُ في عيدِ الأضْحَى مِن عام تِسعَة عَشَرَ وثَماني مائة المذْكورِ، وَقد وَصَلَ العبَّاسُ بن غَمَراسَن ووَلَدُ اللُّبَابي مِن قِبَلِ السُّلْطان أبِي سَعيدٍ مُسْتَنصِرًا بِهِ عَلى أخيهِ أبِي عَلي المتوفَّى أثناءَ إقامَتِهمَا بالحَضْرةِ قَتيلاً بعْدَ هزيمَةِ الجَرّث عليْهِ بظاهِرِ فاسٍ، وقُبِضَ عليهِ بعْدَ ذلِكَ وَسيقَ لِمصْرعِهِ بَيْنَ يَدَيْ أخيهِ، وكانَ رَسُولهُ قد انصَرَفَ صُحْبَةَ قاضِي الجَماعَة وجازَ البحْرِ قَبْلَ ذلك بِيَسيرٍ، وهذهِ القَصيدة

(370م) عندمَا : يقترح الشاعر أيضًا : كُلّمَا

آخر ما أنشَدتُ بيْنَ يَديْهِ بلفْظِي وَتَضَمَّنَتْ وصْفَ المَيْزِ وعَرْضِ جُندِهِ قَبْلَ العيدِ ومَا تَظاهَرَ بهِ مِن السّلاحِ والخُيولِ والعُدَدِ التِي قَدُمَ العَهْدُ بِمثْلِهَا[371] -249-

تحَيّيكَ من شُهْبِ الجيادِ طَلائِعُ ... كمَا وَضَحَتْ بالأُفْقِ شُهْبٌ طَوالِعُ
تَرُوقُ عِداهَا في المَدَى أوْ تَرُوعُهَا ... مَـدارِكُ سَبْـقٍ عِنْدَهَـا ومَـدارِعُ
يَطولُ إذا اشْتَـدّ النّزالُ وُقوفُهَـا ... فَمَـا جُـثَثُ الأعْـداءِ إلاّ مَراتِـعُ
تُريقُ دَمَ الأبطالِ أيْدِي كُماتِهَـا ... فَتثنِي الهَـوادِي والنّواصِي نَـواصِعُ
ثَنَتْ عزْمَهَا نَحْوَ الجِهَادِ فَـوارِسٌ ... بهَـا لِثَنَـاءِ المَعْلُـواتِ فَـوارِعُ
إذا ما دِيَارُ الكُفْرِ جاسَتْ خِلالَهَا ... بَـدَارًا فَمعْمـورُ البِـلاَدِ بَلاَقِـعُ
وتَحْكِي ظِبَاءَ القَفْرِ فهْيَ رَوائِـدٌ ... إذا أتْلَـعَتْ أجيادَهَـا وَرَوائِـعُ
وقَدْ جَلّلَتْ أجْسَادَهَا مِن قَتَامِهَـا ... جِلاَلٌ وَمِن نسْجِ الحَديدِ بَراقِـعُ
كأنَّ سِماتِ الأوْجُهِ الغُرِّ فَوْقَهَـا ... بُـدُورٌ وآفـاقُ السُّروجِ مَطالِـعُ
تُظَلِّلُهَـا الأدْرَاعُ سُحْبًـا لِتختَفِـي ... ونُورُ الضُّحَى تَحتَ الغَمائِمِ سَاطِعُ
دُروعٌ تَـرُوقُ النّاظِريـنَ كَأنّهُـمْ ... لَدَيْهَا الظِّمَاءُ الهِيمُ وهْيَ مَشارِعُ
إذَا نازَعَتْ شَمْسُ الصَّباحِ شُعاعَهَا ... رمَتْهَـا سِهَـامٌ للغَمَـامِ نَـوازِعُ
فَتِلْكَ عيُونُ السُّحْبِ قَدْ نَظَرَتْ لَهَا ... ومِن خَشيَةٍ سالَتْ لَهُـنَّ مَدامِـعُ(*)
ومُذْ خَفَقَتْ أعْلاَمُ نَصْرِكَ أخْفَقَتْ ... مَساعٍ وخَـابَتْ لِلعَـدُوِّ مَطامِـعُ

(371) العباس بن غمراسن : لم نقف له على ذكر، والمفهوم أنه كان من رجال دولة أبي سعيد عثمان المريني، أمّا ولد اللّبابي فهو الحاجب أبو محمد عبد العزيز بن محمد اللّبابي، وهو الذي خان ملكه وفعل فعلته التي كانت سببا في تعجيل نهاية بني مرين. انظر ترجمته وأخباره في الضوء اللامع 4 : 233 ــ 234 وجذوة الاقتباس 2 : 451 وإنباء الغمر7 : 427 ووصف افريقيا : 318 وبيوتات فاس : 46 والاستقصا 4 : 94 وحُرّفت فيه كلمة اللبابي إلى الملياني، ومايزال درب اللّبابي موجودًا بفاس باسفل حومة المنية قرب زقاق الماء ؛ وقاضي الجماعة في التقديم يقصد به قاضي غرناطة، وكان ملوك بني نصر يوجهون صاحب هذه الخطة سفيرًا إلى المغرب وممّن سفر لهم القاضي النُباهي والقاضي الشريف أبو القاسم السبتي ؛ وينبغي أن يكون قاضي الجماعة في التاريخ المذكور هو الشريف أبو المعالي ولد أبي القاسم المذكور.

(*) في الأصل : لها المدامع.

فَخافٍ لَدَى حُمْرِ البُنودِ وخَائِفٌ   وخاشٍ أُذَى زُرْقِ النُّصولِ وخَاشِعُ
مَواقِفُ عَرْضٍ تُطْلِعُ السُّمرُ عِندَهَا   نُجومًا لَهَا في الدَّارِعينَ مَواقِعُ
كذلِكَ بِيضُ الهِنْدِ وَهي جَداوِلٌ   مَصارِفُهَا لِلمُعْتَدِينَ مَصارِعُ
وقَدْ حُلّيتْ عوجُ القِسِيّ فَنازِلٌ   بهَا يَبْتَغِي الحَرْبَ العَوانَ ونازِعُ
إذا حُنيَتْ فَوْقَ الرُّبَى فَأَهِلَّةٌ   لَهَا فَوْقَ أَجْرامِ السَّحابِ مَطالِعُ(372)
يُجيبُ صَهيلَ الصَّافِناتِ حَنينُهَا   فَتَرْتاحُ نَحْوَ المُلْتَقَى وتُسارِعُ
كَأنَّ انسِكَابَ الغَيْثِ وَقْعُ سِهَامِهَا   إذا ما تُوالِي رَمْيَهَا وتُتابِعُ
وقَدْ تَنثَنِي مِن غيْرِ حَربٍ كأنَّهَا   لَدَى نازِعيهَا حينَ رُدّتْ وَدائِعُ
فمَا استَرْسَلَتْ إلاّ غُيوثٌ سَواجِمٌ   وَلاَ جُرّدَتْ إلاّ بُروقٌ لَوامِعُ
ولا انعَطَفَت إلاّ غُصونٌ نَواعِمٌ   ولاَ نَطَقَتْ إلاّ حَمامٌ سَواجِعُ
ولما عرَضْتَ الجَيْشَ أعرَضَتِ العِدَى   عَن الحَرْبِ وارْتاعَتْ لِمَا هُوَ واقِعُ
لَقَدْ جَنَحَتْ للسّلْمِ طَوْعًا فَمالَهَا   تُطاوِلُ وَالدُّنْيا لَدَيْكَ تُطاوِعُ
وَقُبّتُكَ الغَرّاءُ لِلّهِ عِنْدَهَا   مَنازِهُ حُسْنٍ تجتَلَى ومَنازِعُ
طَلَعْتَ بمَرْقاهَا فكُلُّ مُمَلَّكٍ   لَدَيْهَا يُوالِي حَمْدَهُ ويُوادِعُ
فَلِلْجُنْدِ والجُرْدِ العِتاقِ أمامَهَا   مَلاَعِبُ تَسْتَهْوِي النُّهَى ومَراجِعُ(372م)
لَدَى مَلِكٍ قَدْ أصْبَحَتْ عَزَماتُهُ   تَقودُ المُلوكَ الصّيدَ وهْيَ خَواضِعُ
وَهَلْ شَرَفُ الأملاكِ إلاَّ إذا أتَتْ   تُقَبِّلُ يُمْنَاهُ بهَا وتُبايِعُ
وتخْطُبُ مِنهُ نَصْرَهَا في الذِي بِهِ   تُطالِبُهُ مِن أمْرِهَا وتُطالِعُ
لَقَدْ جُمعَتْ أجْنادُهُ وهْوَ دونَهَا   يُدافِعُ أحْزابَ العِدَى ويُمانِعُ
فَجَمْعٌ بأنْواعِ المَحاسِنِ مُفْرَدٌ   وفَرْدٌ لأشْتاتِ المكَارِمِ جامِعُ
وأنّى تُجاريهِ المُلوكُ وإنّهُ   لَيَسْبِقُ آمَادَ العُلَى وهْوَ وادِعُ

---

(372) أجرام : يقترح الشاعر أيضًا : مَرْكوم.

(372م) فَلِلْجُنْدِ : في الأصل : فَلِلْحُودِ، وهو تحريف.

قَـدِ اتَّضَحَتْ لِلْمُهْتَدِيـنَ شَعائِـرٌ ... بِهِ وَلِدِينِ اللَّهِ قَامَتْ شَرائِعُ
وأنَّـى تُدانيـهِ وقائِـمُ سَيْفِـهِ ... لهُ في العِدَى طَوْعَ الجِهَادِ الوَقائِعُ
مِنَ الخَزْرَجِ الأَرْضَيْنَ تُرْتاحُ مِنْهُمُ ... إِلَى العِزِ أقْيالٌ وتَسْمُو تَبابِعُ
تَكُفُّ خُطوبَ الدَّهْرِ حيثُ أكفُّهَا ... هَوامٍ بِمُنْهَلِّ النَّوالِ هَوامِعُ
فمَا جَدَّ إلاَّ ما انتضَتْ عَزَماتُها ... ولاَ جَادَ إلاَّ جَوْدُهَا المُتَتابِعُ
فَطامٍ بِمُلتفِّ القَتامِ وَطامِحٌ ... وهامٍ بِوَكَّافِ الغَمامِ وَهامِعُ
لَقَدْ أوْرَثُوا المَجْدَ المؤَثَّلَ ناصِرًا ... يَقومُ لِحِفْظِ الدِّينِ والدِّينُ هاجِعُ
خِلاَفَتُه العُلْيَا . وكُلُّ خَليفَةٍ ... لِعُلْيَاهُ مُنْحازٌ لِرُحْماهُ فازِعُ
فَطولِبَ وهَّابٌ وأُمِّلَ مُنعِمٌ ... وَخُوطِبَ مُرْتاحٌ ونُودِيَ سامِعُ
وبُلِّغَ مأمُولٌ وأسْعِفَ قاصِدٌ ... وأمِّنَ مُرْتاعٌ وَرُدَّ مُنازِعُ
بِعَزْمٍ لهُ مِنْ عِزَّةِ المُلْكِ سائِقٌ ... وحُكمٍ لهُ مِن سابِقِ الحِلْمِ وازِعُ -251-
وإنَّ وَلِيَّ الكُفْرِ بالفِكْرِ طالَمَا ... يُنازِلُ أحْزابَ العِدَى ويُنازِعُ
وإنَّ رِماحَ اليُوسُفِيِّ بِحَرْبِهِ ... دَوامٍ وأجْفانُ العُداةِ دَوامِعُ
هُمامٌ يُزيرُ الحَرْبَ أسْرًا زَئيرُهَا ... دَليلٌ عَلَى النَّصْرِ المؤَزَّرِ قاطِعُ
عَلَى الرَّوْعِ مِقْدامٌ وفي الوعدِ صادقٌ ... ولِلْمالِ وهَّابٌ وبالحَقِّ صادِعُ
فَجِدٌّ لِصَدْرِ الدينِ شَافٍ وشارِحٌ ... وَجودٌ لأبْوابِ المكارِمِ شارِعُ
وعَزْمٌ كما هزَّ المهنَّدَ ضاربٌ ... وَرأيٌ كَمَا قَدْ فَوَّقَ السَّهْمَ نازِعُ
فَيا مَلِكَ الدُّنْيَا بعَدلِكَ شُيِّدتْ ... مِنَ الدِّينِ أعْلاَمٌ وقامَتْ مصانِعُ
مَقامُكَ محْمودٌ وعَدْلُكَ شامِلٌ ... وَظِلُّكَ مَمدودٌ وجَهْدُكَ ذائِعُ
وحِزْبُكَ مَنْصورٌ وَعِزُّكَ قاهِرٌ ... وَجودُكَ مَبْذولٌ وحِلْمُكَ واسِعُ
وكفُّكَ بَحْرٌ والخَلاَئفُ(*) تَرْتَجِي ... نَداهَا فَطامٍ بالنَّوالِ وطَامِعُ
فَلاَ مُعْتَلٍ إلاَّ لِعِزِّكَ خاضِعٌ ... ولاَ معْتَدٍ إلاَّ لِحُكمِكَ راجِعُ

(*) كذا في الأصل، ولعلّها : والخلائق.

ولاَ مَـلَكٌ إلاّ بـنصرِكَ مُـرْسَلٌ   ولاَ مَـلِكٌ إلاّ لِمُلْـكِكَ تابِـعُ
دَعَتْكَ مُلوكُ الغَرْبِ والكُلّ مِنهُـمُ   بـأيْسَرِ حَـظٍّ مِـنْ قَبـولِكَ قانِـعُ
وقامَتْ بأعْباءِ الحُروبِ ولَمْ تَقُـمْ   رُبَـى عَزْمِهَـا إلاَّ ورأيُكَ فَـارِعُ(*)
وقَدْ أشرِبَتْ مِنْكَ القُلوبُ مَهابَـةً   فَمـا مِنهُـمُ إلاَّ مُطيـعٌ وَسَامِـعُ
لَقدْ عَزَّ مَن والَى مَقامَكَ مِنهُـمُ   فَكَـفَّ المُنـاوِي واتّقـاهُ المُنــازِعُ
فَلاَ السِّرْبُ مُرْتاعٌ ولاَ الخَطْبُ فاجِىءٌ   وَلاَ المُلْكُ مَسْلوبٌ ولاَ الدَّهْرُ فاجِعُ
أيُـذْنِبُ دَهْـرٌ أوْ يُلِـمُّ بِحَـادِثٍ   يَرُوعُ ومِنْ جَدْواكَ شافٍ وشَافِعُ
قَضَى اللّهُ أنَّ الأمْرَ كَيفَ تُريدُهُ   ولَيْسَ لِمَا قَـدْ شاءَهُ اللهُ دافِـعُ
فللـهِ يَـوْمٌ في المَـواسِمِ باهِـرٌ   أنيـقُ المحَيَّا رائِـقُ الـحُسْنِ رائِـعُ
حَلَلْتَ بِهِ الايوانَ والحَفْـلُ دونَـهُ   تَفـيضُ عَلَيْهِـم مِـن نَـداكَ يَنابِـعُ
ودارَتْ حَوالَـيْكَ الجُنـودُ كأنهَـا   كَواكِبُ سَعدٍ قَدْ جَلتْهَا المَطالِـعُ
فَلِلـهِ منهَــا حَضْرَةٌ كل وافِــدٍ   وقَدْ حَلَّهَا في جنَّةِ الخُلْدِ راتِـعُ -252-
وَهُنِّئْتَـهُ عيـدًا أقَـمتَ صَنيعَـه   وقَدْ عظُمَتْ لِلّـهِ فيـهِ صَنائِـعُ
وهاكَ التي رَقَّتْ وراقتْ مَحاسِنًا   بَدائِــهُ مِــن تِلْقائهَــا وَبدائِـعُ
لِتُلْقِي لَدَى مَوْلَى الخلائِفِ يُوسُفٍ   مِنَ القَوْلِ ما تُصْغِي إلَيْهِ المَسامِعُ
ولَوْلاَكَ ما غَيْثُ الاجَـادَةِ هامِـلٌ   لَـديّ ولاَ رَوْضُ البَلاَغَـةِ يانِـعُ
فَدامَتْ لَكَ الدنْيَا ومُلْكُكَ نـاصِرٌ   ومِـن دونِ عُلْيـاهُ مُطيـعٌ وطَائِـعُ
ولِلْقَصْدِ إسْعـافٌ وللرِّفْـدِ طـالِبٌ   ولِلوَعْــدِ انجازٌ وللسَّعْــدِ طالِــعُ
إلَى أن تَنالَ المُلْكَ غَرْبًا ومَشْرِقًا   فَيُـدْرَكُ مامُـولٌ ويَقْــرُبَ شاسِعُ
وإنّي لأرْجُـو اللّـهَ حَتّـى كأنّنـي   أرَى بِجَميلِ الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ

(*) رُبَى عَزْمِهَا : لا معنى لها، ولعلّها تحريف : رَحَى حَرْبِهَا.

وكانَ رَضيَ اللّهُ عنهُ قد اشتَدَّ بهِ المرضُ الذي قَضَى عَلَيْهِ
وهُوَ قد شَرَعَ في حَرَكَةِ تَوْجيهِ السُّلْطانِ أبي يُوسف
يَعقُوبُ أيَّدَهُ اللّهُ وتَوجَّهَ عَلى ما بِهِ من الألِمِ إِلَى المُنَكَّبِ لِيُباشِرَ
بنَفْسِهِ إجازَتهُ مِنهَا فانفَذَ اللهُ عز وَجَل حُكْمَهُ في وَفاتِهِ
بَعْدَ جَواز السُّلْطانِ بأرْبَعةِ أيّام فُجاءَةً وأصْبَحَ ميتًا يوْمَ
الأرْبعاءِ التّاسِعِ والعِشْرينَ لِرَمَضان عام تسْعَةَ عَشَر وثمانمائة
بَعْدَ أن كانَ أمَرَ بالتّأهُّبِ لإقامَة ما جَرَتْ بِهِ العَادَةُ مِن
رَسْمِ العِيدِ بالطَعامِ وغَيْرِهِ فأعْدَدتُ هَذِهِ وحَالَ ما جَرَى بِهِ
القَدَرُ دُونَ إنشَادِهَا[373]

بُشْرَى بوَعْدٍ لِنصْرِ الدينِ مرْقُوبِ ... أتَى بِهِ مُلْكُ يَعْقوبَ بْن يَعْقوبِ[374]
وَلِّيتَهُ المُلْكَ والأعْداءُ رَاغِمَةٌ ... ومُلْكُها بَيْنَ مَغْلوبٍ ومَسْلوبِ
وهَبْتَهُ العِزَّ فارْتاعَتْ لِمقْدَمِهِ ... فَمُلْكُهُ بَيْنَ مَوْهوبٍ ومَرْهوبِ
أنَلْتَهُ مِن نَدَى كَفَّيْكَ صَيِّبَةً ... تَجُودُهُ بَيْنَ تَشْريقٍ وتَغْريبِ -253-
كَثَّرتَ سَائِلَهُ إذْ جُدتَ ماحِلَهُ ... فَرَوْضُهُ بَيْنَ مَطْلولٍ وَمَطْلوبِ
شَرَعْتَ بابَ النّدى للْقاصِدين فكمْ ... مِن مُوردٍ بيْنَ مَشْرُوعٍ ومشْرُوبِ
مَكارِمٌ ردَّدَ الرُّكبانُ حيثُ سَرَوْا ... حَديثَهَا بَيْنَ إدْلاَجٍ وتأْويبِ

(373) جاءَ في الضوء اللامع 10 : 283 : «وأرسل ابنُ الأحمر يعقوبَ المريني إلى فاس فلم يتمّ له الأمر» وقد وردت هذه الجملة ضمن ترجمة من أسماه السخاوي يعقوب بن عبد الله الجاناتي الفاسي أحد الخارجين على أبي سعيد عثمان المريني، وتشتمل هذه الترجمة على فذلكة تاريخية ذُكر فيها أسماء عدد من أولاد بني مرين الذين أرسلهم الواحد تلو الآخريوسف الثالث ومَنْ خلَفه لإثارة الفتنة في المغرب ؛ أما تاريخ وفاة يوسف الثالث فقد ورد أيضًا مكتوبًا في رخامة قبره كما يلي : « قبضه الله سبحانه لِمَا أعدّ له من الكرامة، وحباهُ به من النّعيم في دار المَقامة، صبح يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لرمضان المعظّم عام عشرين وثمانمائة» انظر كتاب ل. بروفنسال : Inscriptions Arabes d'Espagne. pp. 169 - 173

(374) يحتمل أن يكون يعقوب والده أو جدّه الأعلى أي يعقوب بن عبد الحق.

يتْلُونَ مِن حَمْدِهَا ذِكْرًا مُرَدَّدُهُ ... راقَ النُّهَى بيْنَ ترتيلٍ وتَرْتيبِ
كَمْ ألسُنٍ رَدَّدَتْ من قَبْلِ وجْهَتِهِ ... حَديثَهُ بَيْنَ تَرْغيبٍ وتَرْهيبِ
تُومِي وتُفْصِحُ بالأمْرِ الذي اعتَقَدَتْ ... والسِّرُّ ما بَيْنَ مَكْتومٍ ومَكْتُوبِ
فتَهْتَدِي منهُمُ الأفْكارُ نازِعَةً ... لِقَصْدِهَا بَيْنَ تحقيقٍ وتغْليبِ
حَتّى أَزَلتَ ولِلأبصارِ تَبْصِرَةٌ ... بِمخبَرِ الصّدْقِ أخْبَارَ الأكاذيبِ
أرْسَلتَ سابقَ حَزمٍ غَيْرَ مُتَّئِدٍ ... هَزَزْتَ صارِمَ عَزْمٍ غَيْرَ مَقْرُوبِ
فَلاَ يَرُوعُ حُسامٌ غَيْرُ مُنصَلِتٍ ... وَلاَ يَرُوقُ سِنانٌ غَيْرُ مَخْضُوبِ
هَذِي مَرِينٌ وأشْياخُ القبائِلِ قَدْ ... شكَتْ بمَا نالَهَا مِن طولِ تَثْريبِ(375)
أهْدَتْ لبَابِكَ مِن أبنائِهَا زُمرًا ... قُلوبُهَا هدأتْ من بَعدِ تَقْلِيبِ
أفْعَالُ مَوْلًى غَدا كِسْرَى بمَن لهُمُ ... قَدِ انتَمَى بَيْنَ مَغلُولٍ ومَغْلُوبِ
مَن لَمْ يَقِسْ بِبَنِي نَصْرٍ مُلوكَ هُدًى ... ما نورُ شَمْسِ الحِجَى عَنْهُ بمَحْجُوبِ
كَمْ دافَعَ الخَطْبَ مِنهُمْ مِن وَلِيِّ نَدًى ... طَلْقِ المحَيَّا إلَى العَلْيَاءِ مَخْطُوبِ
إن استَقَلَّتْ بِبَذْلِ الجُودِ راحَتُهُ ... لِلْقاصِدِينَ استَقَلتْ كُلَّ مَوْهُوبِ
حَمَى الحَقيقَةَ مِنْهُ أرْوَعٌ بَطَلٌ ... راعَ العِدَى فَحِمَاهُ غَيْرُ مَقْروبِ
كَمْ معْتَدٍ بَعْدَ نَصْرِ الأوْلياءِ غَدَا ... خِيامُهُ بيْنَ تَقْويضٍ وتَطْنِيبِ
كَمْ فَعْلَةٍ آثَرُوهَا قَبْلَ أن نَطَقُوا ... ومَوْعِدٍ أنْجَزُوهُ غَيْرَ مَضْرُوبِ(376)
لاَ كالذي لَمْ يَفُهْ يَوْمًا بمَكْرُمَةٍ ... ولَمْ يعِدْ قَطُّ إلاَّ وَعْدَ عُرْقُوبِ
ولاَ كَيعْقُوبَ إذْ طالَتْ خِلاَفَتُهُ ... بِمَا اسْتَحَقَّتْهُ مِن فَرْضٍ وتَعْصيبِ(377)
أنهَجْتَهُ سُبْلَ آباءٍ لَهُ دَرَجُوا ... حَتّى استَقَلّ بأمْرٍ غَيْرِ مغْصُوبِ
هَلْ في مُلوكِ الوَرَى أسْمَى وأشْرَفُ مِنْ ... مَلْكٍ لِمَا نالَ مِنْ نعْماكَ مَنْسُوبِ -254-

---

(375) في الأصل : أشياخ القبائل، بدون الواو العاطفة.
(376) غير مضروب : يقترح الشاعر أيضًا : غير مكذوب.
(377) طالت : يقترح الشاعر أيضًا : صالت.

وهـــذِهِ نِسْبَــةٌ أغْنتْــهُ رِفْعَتُهَــــا عَن شُهْرَة اسْمٍ وإفْصاحٍ بتَلقيبِ
أرْكَبَتَــهُ البَحْــرَ قَصْدًا أن تُبلغَــهُ مِن صَهْوة المُلْكِ أسْنَى كلّ مَرْكوبِ
والرّيحُ بالسُّفْنِ قَدْ جَدّتْ كَما لَعِبَتْ أيْدِي السُّرى وسَطَ البيْداءِ بالنِّيبِ
تَعْلُو وتَنحَطّ حيْثُ الهُوجُ تمنَحُهَا قصْدَ الصَّوابِ لتَصْعيــدٍ وتَصْويبِ
كأنّهَـا الجُـرْدُ لاَ تَلـوِي أعِنّتَهَــا إلاَّ إلَـى خبَبٍ في إثْرِ تَقْـريبِ
في السِّلْمِ تَختَالُ كالخَيْلِ العِرابِ وفِي حَرْب الأعَاجِمِ تاتِـي بالأعاجِـيبِ
كأنّ خافِقَةَ الأعـلامِ مـا رُفِـعَتْ إلاّ عَلى عَلَمٍ في البحْرِ مَنصُوبِ
وكَمْ جِيادٍ إذا جالتْ نَمَيْتَ إلَى جَمْرٍ أمامَ هُبوبِ الرّيحِ مَشْبُـوبِ
جَلَبْنَ كُـلّ كَمِـيٍّ لِلْجِهَـادِ وقَــدْ أحْرَزْنَ حُسْنَ شِياتٍ غيْرَ مَجْلوب
هذا وقدْ جاءَ عيدُ الفِطرِ يَشْكُرُ مَا أوْلَيْتَ وافِدَهُ مِن فضلِ مَوْهُــوبِ
وكانَ مِن قَبْلُ شَهْرُ الصَّومِ مُلتمسًا لَـدَيْكَ رتْبَــةً تَقْريــظٍ وتقــريبِ
كَم صُمْتَ واليَوْمُ قَدْ شُبّتْ هَواجِرُهُ وقُمْتَ وَاللّيْـلُ مَسْدُولُ الجَلابِـيبِ
واللّهُ قَد ضاعَفَ الأجْرَ الجَزيلَ بِمَا ألَمَّ مِن ألَمٍ في اللَّوْحِ مَكْتُوبِ
خُذْهَا مُجَدّدَةً عَهْدَ الشّبابِ وقَـدْ أغْنَى مَديحُكَ عَنْ وَصْفٍ وتَشْبيبِ
فَمَدْحُ مَوْلاَيَ قَدْ رَاقَ النّظامُ بمَا إحْسانُهُ زَادَهُ مِـن حُسْنِ تَهْـذيبِ
كَذلِكَ الرَّوْضُ إن مَرَّ النّسيمُ بِهِ زَهَا بمَا نالَهُ من نفحَةِ الطّـيبِ
لاَزِلْتَ تسْتقبلُ العُمْرَ الجَديدَ ومَا يَمُـرُّ مِنـهُ عَطاءٌ غَيـرُ مَـحْسُوبِ

وأسْرَيْنَا بِتابُوتِهِ تِلكَ اللّيْلَة فَوصَلنا الحَضْرَة ضُحَى يَوْمِ العِيدِ، ولَمْ يَشْعُر أحَد مِن أهْلِ البَلدِ، لاشْتِغَالِهِم بصَلاةِ العيدِ، حَتّى اسْتَقَرّ الجَميعُ بالحمراء، وعِندَ ذلِك شرعْنَا في بيعَةِ وليّ العَهْدِ أيّدهُ اللّهُ ومُواراةِ المَوْلَى المُنعِمِ رَحمَةُ اللّهِ ورِضوانُهُ

عَلَيْهِ، وفي أوّل يوْمٍ أجلِسَ وليُّ عهْدِهِ بقبّة مَشوَرِهِ حيثُ جَرَتْ عادَة السَّلامِ قمتُ بَينَ يَدَيْهِ مُنشِدًا هذِهِ القَصيدَةَ في هَنائِهِ بالمُلْكِ وَرِثاءِ والِدِهِ قَدسَ اللهُ رُوحَهُ وَبرّدَ ضَريحَهُ(378)

أخْطَبٌ هَوى بالنّيِّراتِ مِنَ العُـلاَ ... وبُشْرَى بِهَا وَجْـهُ الزَّمَـانِ تَهَلّـلاَ
قَضَى نَحْبَهُ مَوْلَى المُلوكِ وأعْمَلتْ ... رَكائِبُـهُ حَتّـى المَعـادِ تَرَحُّـلاَ
وفازَ ابنُهُ الأرْضَى وحافِظُ عَهْـدِهِ ... بمَا حَازهُ من مُلْكِ آبائِهِ الأُلَـى
عَلَى صِغَرِ السّنّ اسْتَقَلَّ برُتبَـةٍ ... تَحَمَّـلَ مِـن أعْبَائِهَا مَا تَحَمَّـلاَ
لَقَدْ كانَ صُبْحُ اليَومِ أغْبَرَ داجيًا ... فَعـادَ بمَـن أبْقَـى أغَـرَّ محَجَّـلاَ
فإن غَابَ نُورُ البَدْرِ أوْ مَنَعَ الحيَا ... نَداهُ فهَذا البحْرُ والفَجْـرُ يُجْتَلَـى
وإنْ غَرُبَ النّجْمُ الذي كانَ يُهْتَدَى ... بِهِ فَمُحَيَّا الصُّبْح قَد لاَحَ مُقْبِلاَ
وإنْ صَوَّحَ المَرْعَى وخَفّ قطينُـهُ ... فهَذَا هُوَ الروْضُ الذي راقَ مُجْتَلاَ
وإنْ كانَ وادِي النِّيلِ جَفَّ معينُهُ ... فهَذا هُوَ النّيلُ الذِي يُنبتُ الكَلاَ(379)
وإنْ كان لَيْلُ الخَطْبِ مِن بعْدِهِ دَجَا ... فَقَدْ طَلَعَتْ شمسُ الهِدايَة وانجَلَى
وإن كانَ فينَا الرُّزْءُ قدْ جَلّ مَوْقِعًا ... فهَذَا الذي جَلَّى دُجَاهُ بمَا جلاَ
وإن ضَلَّتِ الأيـامُ قصْدَ سَبيلهَـا ... فخُذْ للْهُدَى مِنْهُ سبيـلاً مُـوَصّلاَ
أحَقا ثَوى تحْتَ الثّرى مَلِكُ الوَرَى ... وأوْرَدَهُ المِقْـدارُ للحَتْـفِ مَنْهَـلاَ
ومَن راقَ مِنهُ العِلمُ والحِلمُ والتُّقَى ... ومَن أسْبَغَ النُّعْمَى عَلَيْنَـا وأجْـزَلاَ
ومَن سَدَلَ السِّتْرَ الجميلَ تَـفضُّلاً ... ومَـدَّ علينَـا مِنْـهُ سِجفًـا مُظَلِّـلاَ

---

(378) هذا النص يحسم الخلاف الواقع بين المؤرّخين حول من خلف يوسف الثالث في الملك أما التكتّم على وفاته فقد كان ضروريا ليتم الاستعداد لبيعة ولده ولي عهده.

(379) يشير إلى وادي شنيل الذي كان أدباء غرناطة يعدونه كألف نيل لأن الشين في أوله ترمز إلى الألف بحساب الجمل.

إذا لَجأ الدّينُ الحَنيفُ لِنَصْرِهِ رَأى رأيَهُ كَهْفًا مَنيعًا ومَوْئِلاَ
إذا ضَعْضَعَ الأيّامَ واقِعُ حادِثٍ رَسَا عَلَمًا فَوْقَ الكَواكِبِ قَدْ عَلاَ
إذا عَزَّ خَطْبٌ أوْ تَفاقَمَ مُعْضِلٍ وَجَدْنَاهُ رُكْنًا مُسْتَقِلاّ ومَوْئِلاَ
أيُوسُفُ هَلْ مِن عَطْفَةٍ تُرْتَجى لأن يَنال بكَ الإسْلاَمُ ما كانَ أمَّلاَ(380) -256-
فإنْ لاَحَ نُورُ البَدْرِ واسْتَرسَلَ الحَيَا غَدَا كَفُّهُ أنْدَى ومَرْآهُ أجْمَلاَ
سَيَبْلُغُ في حَرْبِ العِدَى كُلّ غَايَةٍ يُرَى القَدَرُ الجَارِي بِهِ مُتَكَفِّلاَ
كأنّي بِهِ قَدْ أرْسَلَ الخَيْلَ في الوَغَى فأوْرَدَهَا بَحْرَ النّجيعِ وأنْهَلاَ
كأنّي بِهِ مَاضِي العَزيمَةِ في العِدَى إذا خَفَّتِ الخَيْلُ انثِناءً تَمَهَّلاَ
كأنّي بِهِ والبِيضُ تَخطُبُ فيهِمُ بفَصْلِ خِطابٍ حَيْث طبقْنَ مَفْصِلاَ
كأنّي بِهِ والحَرْبُ تَرفَعُ دونَهُ عَوامِلَ قَدْ أضحَى لهَا النَّصْرُ مُعْمِلاَ
تَرَى وَجْهَهُ طَلْقَ الأسِرَّةِ كُلّمَا أفَادَ العَطَايَا باسِمًا مُتَهَلّلاَ
يَخف إليْهِ الوَفْدُ في طَلَبِ النّدَى فَيَرجعُ مَمْلوءَ الحَقائِبِ مُثْقَلاَ(380م)
وجادَ لأهْلِ العِلمِ عَزَّ جَنابُهُمْ فَلاَ عَمَلٌ إلاَّ غَدا مُتَقَبَّلاَ
وجَدّد في آلِ النبيّ مَراسِمًا بهَا أحْرَزَ المجْدَ الرَّفيعَ المؤَثّلاَ
وصابَحَ أعْلاَمَ الجِهَادِ بِرِفْدِهِ فأصْبَحَ غيْثًا في البَسيطَةِ مُرْسَلاَ
وهِذِي الرِّعايَا قَدْ رَعاهَا تَلطّفًا فمَا أخْصَبَ المَرْعَى وما أبْدَعَ الكَلاَ
حَبا بالعَطايَا والكُسَا أوْلِيَاءهُ فأوْرَدَهُمْ بَحْرَ المَكارِمِ سَلْسَلاَ
وحَلُّوا بهَا النَّادِي فَمَا زَهَرُ الرُّبَى بأبْدَعِ مِنهَا في العيونِ وأجْمَلاَ
وأمْطَى مِن الغرّ الجِيادِ سَوَابِقًا... محاسِنُهَا تَسْتَوقِفُ المُتأمّلاَ
فأرْسَلَ مُرْتاحًا وأهْدَى مُجَلّيًا وأمّنَ مرْتاعًا وحَلّى مُعَطّلاَ(*)

---

(380) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقدار صفحة كاملة تركت بيضاء.

(380م) الحقائب : في الأصل الخفائف، وهو تحريف.

(*) المُرتاح : هو الخامس في ترتيب خيل السباق، والمجلّي هو الأول.

فهاهُـمْ لَدَيْـهِ شاكِريـنَ لِنعمَـةٍ   أحَلَتْهُـمُ دَوْحَ المُنَـى مُتَهَـدّلاَ
وحَيُّوا مِن المَوْلَى الامَامِ محمـدٍ   كَريمًـا حَليمًـا مُنْعِمًـا مُتَـفَضِّلاَ
أمـولاَيَ مولاَنـا أبُـوكَ أنالَنِـي   مِن العزّ ما سامَ النّجُـومَ تَنَـزُّلاَ
وأوْلَى مِن النَّعْماءِ ما كانَ عاقِدًا   عَلَيّ بـهِ عَقْـدَ الـوَلاَءِ مُسَجَّـلاَ
وجَرَّرْتُ ذَيْلَ العُجْبِ إذ كنتُ عِندَهُ   أباهِـي بأمْداحِـي جَريـرًا وأخطَـلاَ
ولوْ كانَ يُفْدَى بالنُّفوسِ وسابَقَتْ   لِتَلْقَـى المَنايَا دونَـهُ كُـنتُ أوَّلاَ
وأنتَ ابنُهُ الأرضَى ووارِثُ مُلكِهِ   سَقَيْتَ رِياضَ الفِكْرِ منّي فأخْضَلاَ -258-
وقدْ كانَ مَرْعَى النّظْمِ عِندِي مُصَوِّحًا   فَرَوَّيْتَهُ من بَعْدِمَا كانَ أمْحَـلاَ(381)
وأوْلَيتَنِي النّعْمَى التي جَلّ قَدْرُهَـا   وألْبَسْتَنِـي الأثْـوابَ رائِقَـةَ الحُـلاَ
وَطَوَّقْتَنِي طَوْقَ الحَمامِ فكيفَ لاَ   أجيدُ هَديـلاً فَـوْقَ دَوْحٍ تَهَـدَّلاَ
أوارِثَ أنْصارِ النّبِـيّ وصَحْبِـهِ   ومَن بِهِمُ الدّينُ الحَنيفُ تَجَمَّـلاَ
بمَاذا عَسَى أُثنِي عَلَى قوْمِكَ الألَى   وقـدْ ورَدَ القُـرْآنُ فيهم مـفَصَّلاَ
ولَكِنّنِـي أبْـدِي نِظامِـي قِـلاَدَةً   تُريكَ مِـن الألْفـاظِ دُرًّا مُـفصَّلاَ
فـلازلتَ مَنصُورًا رَشيـدًا مُؤَيّـدًا   عَليًّـا رَضِيًّـا واثِقًـا مُتَوَكِّـلاَ
ونَحْنُ عَبيدُ النَّاصِرِ المِلكِ الرّضَى   أبيكَ الذِي وَالَى الجَميلَ وأفْضَلاَ
وأنتَ هُوَ السّتْرُ الذي فاءَ ظِلُّـهُ   فَلاَ زالَ سِتْر اللهِ فَوقَكَ مُسْبَلاَ(382)

والشيءُ يُذْكر بالشّيء كان مَوْلاَيَ الوالِدُ أبْقاهُ الله
قَدْ سافَرَ بَعْدَ إنشَادِي هذه القَصيدة لمَوْضعِ قَضائِهِ وبالقرْبِ
من وفاةِ مَوْلودٍ تُوفّي لهُ فكتَبَ إليّ ما نصُّه :

أرِيتُ في آخِر لَيْلَةِ السَّادِس والعِشرين مِن شَوَّال عَام عِشرين وثمَان مائة، كأن ولدي

(381) عندي : يقترح الشاعر أيضا : منّي، فَرَوَّيْتَهُ : في الأصل : فروّضته، وهو تحريف.
(382) ستر الله : يقترح الشاعر أيضًا : ظل الله.

أبا العُلى المتوفَّى بالمرية، عَن غيْرِ إذْنٍ فِي سَفَر أمّه بهِ، قَدْ أمْسَكَهُ شيْخٌ بديع الصّورَة، مُثّل لِي أنهُ جَدّي قاضي الجماعَةِ رحمةُ الله عَليْهِ فدعَانِي تَفَجُّعِي وتَذكّرِي وتحَزُّنِي أن نظمتُ فِي قافِيةٍ كانَ ولدِي أبو الحسَين، أعزهُ الله وأسْعَدَهُ، قَدْ أطْلَعَنِي عَلى بَدَائِعِهَا، ولَمْ تُمَكّنّي الأيّامُ أنْ أسْتَوفيَهَا وأن أُرَدّدَ النَّظَرَ إليهَا فقلت[283]

يمِينًا بمَنْ راقَتْ سَماواتُهُ العُلاَ ... لَقَدْ زهيَتْ أقمارُهَا بأبِي العُلاَ
فمَا اليَوْمُ إلا كاسِفَ الشّمْسِ بَعْدَهُ ... ولاَ اللّيْلُ إلاَّ داجِيَ الجِنْحِ ألْيَلاَ
وأُكْفِيَتِ القَوْراءُ مِن هالَةِ الدُّجَى ... عَلَيْهِ فَلَمْ يمْكِنْهُ أنْ يتَهَلّلاَ
وذلِكَ فِي مَرْأى عُيون تَجُودُهُ ... بأجْوَدَ من صَوْبِ الغمَامِ وأنهَلاَ -259-
عَلَى الرغمِ منّي حيلَ بَيْنِي وبَيْنَهُ ... ولَمْ ألقَ إلاّ خِدْعَةً وتَحَيُّلاَ
جَفانِي أخِلاَّئِي غَداةَ وداعِهِمْ ... فلَمْ أشْهَدِ التّوديعَ إلاَّ تَخَيُّلاَ
تُريحُ العَشايا جاهِدًا وأنا الذِي ... أكابِدُ مِن خطْبِ الجَديدَيْنِ مُعْضِلاَ
فمَا الذاهِلُ الباكِي ذَهَابًا وجيئَةً ... بأذْهَبَ منّي فِي المَرامِي وأذْهَلاَ
وما مَرْبَعٌ مستَوْحِشٌ مِن أنيسِهِ ... بأوْحَشَ مِن صَدْرِي مَلاَذًا ومَوْئِلاَ
ولاَ ذَاكِرٌ مِن وَحْشٍ وَجْرَةَ مُطْفِلاً ... بأذْكَرَ منّي طِفْلِيَ الرَّائِقَ الحُلاَ
تبدّلَ مِن أوْجِ الثُرَيَّا إلى الثّرَى ... فَلِلّهِ مَدْعَاهُ عُلاً وتَنَزُّلاَ
مَلائِكَةُ السبعِ الطِّباقِ تَحُفُّهُ ... رَكائِبَ يَتْلُو آخِرُ القَوْمِ أوّلاَ
بَكَتْ أسفًا عيْنِي وأمسَيْتُ مُبْعَدًا ... بأقْربِ مَفْقودٍ من الأهْلِ مُثكَلاَ
فلَمْ تَكْلَفِ الآمالُ بَعْدَ أبي العُلَى ... بشَيْءٍ يَروقُ الناظِرَ المُتَأمِّلاَ
وأقْصَفَتِ النّكْبَاءُ قَدّ قوَامِهِ ... فأنّى لِغُصْنِ البَانِ أن يَتَمَيَّلاَ
وألحَفَنِي التهْجيرُ غَيْمَ ظَهِيرَةٍ ... فمالِي ولِلأوْداحِ أنْ تتَهَدَّلاَ
وحَقَّتْ لِيَ الأنْباءُ صدْقًا وطالَمَا ... كَلِفْتُ بتَرْجيمِ الظّنون تَعَلُّلاَ

(383) سبق للشاعر أن ذكر أن والده كان قاضيا في برجة أما زواج هذا القاضي من المرية فلأنَّ أصل أسرة ابن فركون من هذه المدينة.

ومَا أنا في الشّكْوَى بأوّلِ مَن شَكا ولاَ أنا في البَلْوَى بـأوَّلِ مُبْتَلـى
عَذيرِيَ مِنْ عَتْبِ الذِي قد صَدَقْتُهُ شُؤونَ مُصَابِـي مُجْمَـلاَ ومَـفصَّلاَ
يَـرُومُ التّهَـدِّي ثم يُلقِـي عِنَانَـــهُ ويَثْنِي انثِناءَ البَكْرِ قدْ ضَلَّ مُجْفِلاَ
وطالَ سُؤالِي بيْنَ غَيْبٍ ومَشْهَـدٍ وقدْ صَمَّ سَمْعًا أنْ يُنادَى ويُسْألاَ
وَقُطّعَتِ الأَسْبابُ فالوَصْلُ قَدْ أبى بَلاَغًا إلَـى مـا أبتِغِي وتَـــوَصُّلاَ
وغرْناطَــةٌ وضَّاحَــةُ الغُــرَرِ التــي تَباهَـى بهَـا أُفْـقُ المرِيَّـةِ مُجْـتَلى
تُمَهِّـدُ لِلزُّلْفَــى طِرافًــا مُمَــدَّدًا وتُلْقِي مِن الرُّحْمَى وفـاءً مُظَلّـلاَ
فماذا عدَا عمَّا بَدا في ابْنِيَ الذي رَأى في الفَلاَ زُهْرَ الكَواكِبِ أُفّلاَ
وأرْجـاءَ أرْجـامٍ وأسْنِمَـــةٍ سَمَتْ عَلى مَــلأٍ لاَ يَسْتَطيــعُ التّأمُّـــلاَ
فدِ اسْتَوْحَشُوا إلاَّ مِن الرحْمَةِ التِي تُعَرّفُهُـمْ طُـولَ المُقـامِ تَطَـوُّلاَ(384) -260-
فدُمْتَ إذا تُمْلِي تُجَلِّي بسابِـقٍ تَسامَـى فَسَمَّوْهُ الأغَرَّ المُحَجَّــلاَ
فَتُصْدِرُ عَنْكَ الوفْـدَ هـادٍ دليلُـهُ وتُـورِدُ بَحْـرًا لاَ تُكَـدِّرُهُ الـــدِّلاَ

وفيما حَقُّهُ انْ يَتّصِلَ بمَا تقدّمَ مِن الإخْوانِيَّاتِ :

لمَّا وُلِدَ لِي الوَلَدُ أحْمد، حَفظَهُ الله، الذي لمْ يبْقَ بقَيدِ
الحياةِ بهذا العهْدِ مِن إخْوانِهِ غيْرُهُ، ولعَلهُ يبْقَى بفَضلِ الله
ومَوْلِدُهُ ليْلَةَ السَّبْتِ السَّابِعِ لرجَب عام عشرين وثمان مائة
كَتبتُ لمَوْلانَا أبِي الحجَّاج رحمَهُ الله ساعَتَئِذٍ(385)

أمَوْلاَيَ إنَّ العبْدَ قَدْ زادَ عِنــدَهُ خَديمٌ لمَوْلاَيَ الرِّضَى المُتَمَسِّكِ(385م)

(384) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره صفحة تركت بيضاء، وقد كانت تشتمل على 23 بيتًا حسب سطور المخطوطة.

(385) سبق للشاعر أن أشار إلى ولده يوسف الذي سمّاه باسم مخدومه، راجع ص أما ولده أحمد المذكور فقد سمّاه باسم والده القاضي السالف الذكر.

(385م) المتمسك : كذا في الأصل، ولعلها : المُتَنَسِّك، وقد سبق له ان استَعْمَلَها في نعت الأمير محمّد ولي عهد يوسف الثاث. راجع ص

أَتَتْ عبْدةُ المَولَى الهمَامِ بِهِ فَمِن   كلاَ طَرَفَيْهِ صَحَّ حُكـمُ التمَــلُّكِ
بَقيتَ ومِن رُحْماكَ لِلخَلْقِ رَحْمَةٌ   تَلوذُ بِحَـجّ مِـن نَداهَـا ومَـنْسَكِ

وأعْمَلَ ركَابَهُ ثانِي يَوْمٍ مِن وِلاَدَتِهِ إلَى قَصْرِ نُبْلِه، وأنا صُحْبَتَه عَلى العَادَةِ، ثم تَشاغَلَ يَوْمَ عَقيقَتِهِ عَن تسْمِيَتِهِ بِحَادث، تَوْجيهِ الوزير أبي عبد الله القَبائِلِي إلى المغرب، فَتوهَمتُ أنَّ ذلكَ لِموجبٍ يَظْهَرُ مِن المَنْظومِ، فكَتبتُ إليْهِ هَذِهِ الأبيَات فسماهُ ووَهَبهُ ما جَرتْ بِهِ عادَتُه لِمَن تَقَدَّمَهُ مِن إخْوَتِهِ(386)

أنا عبْدُ مَوْلاَيَ الخِليفَة يُـوسُفِ   خَبَـرٌ بِـهِ رَسْمِي يَصِحُّ ويَكْتَفِـي
هـذا هُـوَ العِـزّ الّـذي أحْرَزْتُــهُ   وبِهِ رَقِيْتُ إلَـى المَحَـلّ الأشْرَفِ -262-
لَوْلاَ سَحَابٌ جاءَنِـي مِـنْ جُـودِهِ   ما كانَ رَيْبُ الحادِثَاتِ بِمـنـصِفِ
لاَ أرْتَجِــي إلاَّ نَــدَاهُ فَرِفْــدُهُ   لَـوْلاَهُ مـا كانَ الزّمـانُ بِمُسْعِـفِ
مَـوْلاَيَ إنّـيَ عَبْـدُ نِعْمَتِكَ التِـي   وكَفَتْ لَدَيْهِ فَكُلّ مُعْضِلَةٍ كُفِـي
وَلَــدِيّ مَوْلــودٌ يُرَجّــى عــادَةً   عَوّدتَهَــا لمُؤمِّــلٍ مُسْتَعْطِــفِ
وقّـعْ لعَبْـدِكَ باسْمِـهِ فالـقَصْدُ أنْ   تتَجَـدّد النُّعْمَى بِكَتْبِ الأحْـرُفِ
لا أقْتَضِي طَلَبًا سِوَى هذا الذي   هُـوَ عِزّتـي وعِنايتِـي وتَشَرُّفِــي
لأَرْتَجِي عَرَضًا فكَـمْ مِـن نعْمَـةٍ   أوْلَيْتَهَــا بتَلَطُّــفٍ وتَعَطُّــفِ
لا أبْتَغِي أرَبًا فكَم مِـن مـقصَدٍ   أسْعَفْتَ مِن قَبلِ السُّؤالِ المُعْتَفِي
ومتَى بَقيتُ ونعْمَـةُ المَوْلَـى عَلَـى   مَمْلوكِـهِ فبواحِـدٍ لاَ أكْتَفِــي

(386) هذا الذي يدعوه الشاعر بالوزير أبي عبد الله القبائلي لعلّه ولد الحاجب أحمد القبائلي الذي كانت نهايته على يد مخدومه أبي سعيد عثمان المريني. انظر بخصوص الحاجب المذكور وولده وحفيده : إنباء الغمر 4 : 258 ـــ 259 والضوء اللامع : 2 : 47 وجذوة الاقتباس 1 : 125 ـــ 126 وروضة النسرين : 38، 40، 41 والاستقصا 4 : 86 ـــ 88. ويبدو أن هذا القبائلي كان بسبب ما حصل لعائلته من صنائع يوسف الثالث المسخرين لخدمة سياسته المخرّبة. وراجع بالمُناسبة خبر سفارة عبد الرحمن ولد الحاجب القبائلي إلى محمد المستغني بالله أنجي يوسف الثالث في نثير فرائد الجمان ص 397.

لَكِــنْ بِشــانٍ بعْــدَهُ وبشــالِثٍ   لهُمَـا عَلى نسَقٍ بغيْــرِ تَوقّــفِ[387]
هـذا يَطولُ فـأيُّ مـالٍ طائِــلٍ   بصِلاَتِ عبْـدِكَ أوْ عَوائِـدِهِ يَفِـي
عُـدْ باسْمِهِ مُتَألّمًـا مِــن مَنْعِــهِ   يُشْفَى بمَا مِنـهُ مَنَـحْتَ وَيَكْتَفِـي
مــا عُــذْرُهُ إنْ عابَــهُ إخوَانُــهُ   أو فَاخَرُوا بالعُرْفِ مَن لَمْ يُعْرِفِ[388] -263-

أسَيِّـدِيَ الـذي فيــهِ أوَالِــي   ثَنائِـي مـا غَـدا يُـرْوَى الثَّنــاءُ
هَنيئًــا والهَنــاءُ لنَــا جَميعًــا   بمَولــودٍ يَحِــقُّ بــهِ الهَنـــاءُ
بأيْمَــنِ طائِــرٍ وافَــى إلَيْنَــا   مِـنَ المَـلإِ الكِـرامِ كَمـا نَشاءُ
كَـأنَّكَ بـهِ يُوالَـى الفَضْلُ مِنْـهُ   كَمَــا والَيْتَــهُ ولَكَ البَقــاءُ
ويَرْقَـى مُرْتَقـاكَ فعَـنْ قَـريبٍ   يكُـونُ لَـهُ عَلى ذَاكَ اسْتِـواءُ
تَقَــرُّ بــهِ العُيــونُ ويَرْتَجيــهِ   ذَوُو الأمَـالِ لاَ خـابَ الرَّجـاءُ
مَخايِـلُ سُؤْدُدٍ في المَهْـدِ لاَحَتْ   تأمّــلْ مــا عَلى هــذَا غِطـاءُ
لَقَـدْ كَـرُمَتْ أواصِرُهُ وطَـالَتْ   وعُـدّ فَمَـا لَهَـا بَعْـدُ انتِهـاءُ
أبُــو الحسَيْــنِ وقُــلْ كَرِيمًــا   عَلَيْـهِ المجْـدُ وقْــفٌ والعَــلاَءُ
بَقيتَ لنَـا كَمـا تَهْوَى المَعالِـي   عَظيمَ القَـدْرِ مَـا طَلَعَتْ ذُكَـاءُ
دَعَوْتُ لكَ الإلـهَ دُعـاءَ صِدقٍ   وأرْجـو أن يُجابَ لـيَ الدُّعـاءُ

سَيِّدي أبقاكُم الله، سنحَ لِلخاطِرِ ما تَرَوْنَ مِمَّا لاَ يُباع ولاَ يُبْتَاع • وإنهُ حَاشَى -264- ذِكْرِكُمْ فيهِ لَمِن سَقَطِ المَتاع • وطالَمَا عنْهُ مكَثْت • وعَهِدْتُ أن لاَ أعودَ فَنَكَثْت • حُبًّا عَلِم الله لِمَا أحْبَبْتُمْ • ولداعي المَجْدِ فيهِ أجَبْتُم • وقدْ عَجّلتُ الكُتُبَ لسَيّدي تَخفيفًا عَلَيْهِ • ثمّ غلَبَنِي الشّوْقُ فنهَضتُ نَحْو الجِنانِ إلَيْه•لتعْلَموا أنّي لمْ أضيّعْ

(387) لكن، في الأصل : لكان، وهو سهو من الناسخ.
(388) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره صفحة ونصف، ويبدو ممّا يلي أن ما كان فيهما يتعلق بتهنئات بهذا المولود.

واجبًا في جنَابِكُمُ العالي • ولأَشغلَنِي شاغل عَن قصْدِ تِلْكَ المَعَالِي • فعُرِّفْتُ أنَّ الوَقْتَ مَعْمورٌ بما شَغَّفَ الباطِنَ مِن تَضْييع الخدّام • والتّفْريطِ في حالِ قُرةِ العَيْنِ عافاهُ الله ووَقاهُ من جميع الآلآم • ولاَ بُدّ ان شاءَ الله مِنْ زيارَتِكمْ هُنالك • والسّلوكِ إلَيْكُمْ عَلَى أوْضَحِ المسَالِكِ • والله عز وجل يَصل إسْعادِكُمْ • ويَفْسَحُ في الخَيْرِ والعافِية آمَادَكمْ • والسلام عليْكُمْ ورحْمَةُ الله وبَركاتُه • مِن مُكْبِر قَدْرِكُمْ • ومُوالِي حَمْدِكُمْ وشُكْرِكُمْ • أحْمد الشريف لَطَفَ الله به[389]

فَرا جَعْتُهُ بديهَةً عَلى مَنْظومِه

بِحُـبِّكَ لِـي اعْتِـلاقٌ واعْتِـلاَءُ ... فَـدَامَ لِقَـدْرِكَ السَّامِـي العَـلاَءُ[390] -265-

(391)

وكَأَنْ بـهِ يَرْقَـى المَنابِرَ صاعِـداً ... فَتَـراهُ يَصْدَعُ كُـلَّ لَيْـلٍ يُظْلِـمُ
وكَأَنْ بِهِ والحَرْبُ تَزْجُرُ خَيْلَهَـا ... لِعُدَاتِهَـا وَهْـوَ الهُمـامُ المُقْـدِمُ
وكـأنْ بـهِ تَـعْشُو الوُفـودُ لِبَابِـهِ ... ونَوالُـهُ بَيْـنَ العُفَـاةِ مُـقَسَّمُ
يَا صَفْوَةَ الأَبْرَارِ يا شَرَفَ الوَرَى ... يَهْنِيكَ مِنْ نَجْـلِ السَّعـادَةِ مَقْـدَمُ
نَجْلٌ وقُلْ نَجْمٌ فَكَمْ مِنْ مـارِدٍ ... بِشِهابِهِ إنْ طـافَ نَحْـوَكَ يُرْجَـمُ

(389) هذه تهنئة لأبي الحسين ابن فركون بمولوده أحمد المذكور، وصاحب التهنئة كما يبدو من رقعته هو الشريف أبو العبّاس أحمد ولد أبي القاسم المعروف بالشريف السبتي والغرناطي، وقد كان زميلا وصديقا حميمًا لأبي الحسين، وبطاقة الشريف تدل على الاهتمام البالغ لأبي الحسين بشأن مولوده إذ كان يخشى أن يموت كما مات أولاده الآخرون، ومن هنا كان توبيخه للخدم على اهمالهم وانشغاله بسبب ذلك عن لقاء صاحبه.

(390) بَعْدَ هذا ورقةٌ بيضاء يبدو أنها تشتمل على مراجعة ابن فركون الّتي لم يبق إلاّ مطلعها، وربما كانت تشتمل كذلك على أول التهنئة الآتية.

(391) لم يصلنا أوّل هذه القصيدة ويبدو أنّها في تهنئة ابن فركون بمولوده المذكور.

فيِّىءْ لَهُ خَيْلَ الوَغَى فَلِمِثْلِهِ ، الخَيْلُ تُسَرَّجُ لِلْجِهادِ وتُلْجَمُ
بَشَّرْ بِهِ البِيضَ المَواضِيَ أَنَّها تُمْضِي الوَقائِعَ في الغَداةِ وتَحْكُمُ
بشِّرْ بِهِ صُفْرَ اليَراعِ بأنَّها تُغْنِي عَنِ الخَطِّيِّ فيمَا تَرْسُمُ
بَشِّرْ بِهِ الأَطْرَاسَ أنَّ جَمالَها سَيفوقُ حُسْنَ الرَّوْضِ وَهْوَ مُنَمْنَمُ
أَوَ لَيْسَ نَجْلاً لِلّذِي أفْعالُهُ في المَجْدِ والقَصْدِ المُسَدَّدِ تُجْزَمُ
عَلَمُ الكَتائِبِ والكتابَةِ والنَّدَى صَدْرُ الزَّمانِ ونورُهُ المُتَوسَّمُ
فَذٌّ رَئيسٌ مَاهِرٌ لِبَيَانِهِ حُجَجُ البَلاَغَةِ والبَيانِ تُسَلِّمُ
عَلَمٌ بأنْواعِ المَعارِفِ عَارِفٌ حَبْرٌ لأَسْرَارِ الحَقائِقِ مُلْهَمُ
صَدْرٌ بَجَمْعِ المَعْلُواتِ مُتَيَّمٌ صَبٌّ بأَصْنافِ المَكارِمِ مُغْرَمُ
مُعْدٍ عَلَى المالِ العُفاةَ فما يُرَى بفِنائِهِ وَفْقَ المَجادَةِ مُعْدِمُ
لَوْ كانَ لِلأَزْهارِ نِعْمَةُ حُسْنِهِ مَازالَ زَهْرُ الرَّوْضِ وَهْوَ مُنَعَّمُ
أَوْ كانَ لِلْبَدْرِ المُنيرِ بَهاؤُهُ مَازالَ بَدْرُ الأُفْقِ وَهْوَ مُتَمَّمُ
أَوْ كانَ لِلدَّهْرِ المُمَنَّعِ عِزُّه لَمْ يُلْفَ شَاكٍ في الوَرَى مُتَظَلِّمُ
جَمَعَ العَلاَءَ مُهَوِّناً لِسُهادِهِ ما يَقْتَنِي ذُخْرَ العَلاَءِ مُهَوِّمُ
وأَفَادَ حَتَّى لِلسِّلاحِ بَيانَهُ فالْبِيضُ تَنْثُرُ والذّوابِلُ تُبْرِمُ
إنْ هَزَّ ذابِلَهُ وخَطَّ يَراعُهُ لَمْ يُدْرَ أيٌّ بالمَقاتِلِ أعْلَمُ
مِنْ [ذِرْوَةِ] الشَّرَفِ الأصيلِ المُنْتَمَى مِنْ خَيْرِ حَيٍّ في القَبَائِلِ يُعْلَمُ
[البَيْتُ يَعْـ] ـرِفُ قَدْرَهُمْ وَسُتُورُهُ وكَذا رُبَى عَرَفاتِهِ عَرَفَتْهُمُ(392)

(392) بهذا تنتهي النسخة الوحيدة الموجودة من هذا الديوان.

الفهارس

فهرس الأعلام(*)

* يشتمل هذا الفهرس على الأعلام الواردة في الديوان والاحالات المذكورة هنا هي على صفحات المخطوط المسجلة في طرر المطبوع.

فهرس الأماكن(*)

* يشتمل هذا الفهرس على أسماء الأماكن الواردة في الديوان والاحالات المذكورة هي على صفحات المخطوط المسجلة في طرر المطبوع.

فهرس الأشعار(*)

(*) مرتب على حروف الهجا ؛ أما الاحالات فهي على صفحات المخطوط المسجلة في الطرر.

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
سَقَى	تُرْبَهُ	34	238 — 236
بُشْرَى	يَعْقُوبِ	44	255 — 253
سَلْ	وَأَقَلَّتْ	24	54 — 53
مَعَالِمَ	نَجَحَتْ	33	63 — 61
لِمَنْ أَوْجُهٌ	قَسِمَاتُها	62	102 — 99
بِحُلَى	للصَّلاةِ	02	160 — 160
مَابَالُ	أَعِنَّتَهَا	02	165 — 165
هُوَ النَّصْرُ	حَثَائِثُ	65	225 — 222
مَا لِلسُّرَى	حَدِيثَهَا	9	233
آثَارَ	في الدُّجَى	48	80 — 78
هِيَ الْعُلَى	آراجُها	08	157 — 157
بشرى	يبتهج	44	211 — 209
أَمِنْ بَارِقٍ	نَازِجِ	41	8 — 7
تَجَلَّى	الشَّرْحِ	58	69 — 66
مُحَيَّاكَ	وَمَطْمَحُ	65	93 — 90
وَمِمَّا	يَلُوحُ	17	137 — 136
مَالِي	صِحَاحْ	25	148 — 147
هَلاَّ	مُتَاحَا	16	150 — 149
يَا عَجَبَا	الضُّحَى	02	150 — 150
أَبْدَعَنِي	اقتراحِهْ	2	162 — 162
سَمْعاً	لاَ تُشْرَحُ	30	173 — 172
هَنِيئاً	صفحِهَا	28	216 — 214
أَجِلْهَا	وانْقِيَادَا	53	11 — 9
هَنِيئاً	الْمَقَاصِدَا	11	23 — 22
يَمِيناً	يُجْدِي	21	27 — 26
نَسِيمُ الصَّبَا	وَقْدُهُ	71	30 — 27
هَنِيئاً	النَّدَى	35	32 — 30

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
إِلَيْنَا	بِالْمُرَادْ	7	32 — 32
أَيَارَحْمَةَ	الْبِلاَدْ	31	34 — 32
عَسَى	ويعيدُهُ	34	35 — 34
هُوَ النَّصْرُ	قِيَادَهُ	34	48 — 47
أُذَكِّرُ	عِنْدَهُ	4	58 — 58
هَذِي الْكَوَاكِبُ	صُعُودُها	75	106 — 102
هَذِي الْخِلاَفَةُ	جِيَادُهَا	76	133 — 110
أَمَوْلاَتِي	أُعِدَّهْ	5	127 — 127
مَسْلُوكُ	وَجَدَّهْ	3	127 — 127
يَانَاصِرَ	مُؤَيِّدَا	10	128 — 127
بِيُوسُفٍ	الْمَدَى	08	158
أَنَا	لِلسَّجُودْ	02	160
طَلَعْتُ	وَالْمُغْتَدِي	02	160
يَا عَجَبَا	الْهُدَى	02	161
تُصِيبُ	الْمَدَى	02	161
أَنَا	وُرَّاده	02	163
لَوْلاَ	قُصَّادِهِ	02	163
نِظَامُكَ	فَرِيدُ	06	170
زَمَان	يعود	13	107
تَبَارَكَ	يَزْدَادُ	02	171
سَمْعاً	وَتَعْدَادُ	09	171
أَبَا الْحُسَيْنِ	الْخَلَدِ	07	173
هَلْ بِالرَّوْضِ	الفَرْدِ	21	174
أبا الحسين	الخَلَدِ	22	176 — 175
جُفُونٌ	سُهَادُهَا	30	192 — 191
هنيئا	عوائده	13	201 — 200
هَنِيئاً	وَالْبِشْرَا	40	4 — 2
هِيَ الْهَضْبَةُ	وَنَهَارُهَا	30	37 — 35

أول المطلــع	القــافية	عدد الأبيات	الصفحــات
ألآلَيْتَ شِعْرِي	أُذْكُرُ	26	43 — 41
نَاصِرَ الدِّين	شَارَهْ	21	55 — 54
هَنِيئاً	عَشَائِرُ	59	86 — 84
وَتَزْعُمُ	يَجْرِي	3	133 — 132
وَظَبْيَةٍ	والفكر	15	133 — 133
هَلِ الْأُفْقُ	الزَّهْرُ	10	153 — 152
أَنَا لِلْحُسْنِ	المنصور	05	158 — 158
زُرْقَةٌ	في نهر	02	162 — 162
أَبْدَعَ	وظَهَرْ	02	162 — 162
ألاَ حَيِّهَا	غِرًا	19	169 — 169
جود	منجز	02	163 — 162
سَلْ	أُنسَهَا	32	38 — 37
نَفَّرَتْ	كَوَانِسْ	68	72 — 69
يَا إمَاماً	لَمْسَا	10	126 — 125
لَكَ	بَاسِ	7	136 — 136
عُهُودُ	دَوَارِسْ	17	146 — 146
لعمرك	تخلص	54	227 — 226
أمِنْ بَارِقٍ	مَضَى	51	78 — 75
هَنِيئاً	الْخُطَا	62	75 — 72
أَبُعْداً	شَطَّا	11	189 — 189
فَتَاةٌ	اشْمَطَّا	14	190 — 190
بُدُورٌ	وَرُبُوعُها	31	17 — 16
بَدْرٌ بِقُبَّتِكَ	وَمُطْلِعُهُ	31	44 — 43
أنَاصِرَ	السَّمْعَا	29	53 — 51
هَذِي	طَلاَئِعُهَا	57	99 — 96
أَحْبَابَنَا	يَرْتَجِعُ	14	144 — 143
يَا مُعْجَباً	قِنَاعُ	6	151 — 151
لِلّهِ	وَأَبْدَعَهْ	8	153 — 153

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
أراحت	حقوقا	63	214 — 211
إِلَيْكَ	مُتَهَلِّلَهْ	32	2 — 1
مَا لِلرَّكَائِبِ	سُؤَالَها	108	116 — 115
لَوْ وَجَدْنَا	مَسِيلاَ	6	48 — ~~48~~ 158
أُصْبَحَ	غَلِيلاَ	30	50 — ~~48~~ 159
هَنَاءٌ	تَتَهَلَّلِ	52	61 — 59
مَوْلاَيَ	المُتَهَلِّلِ	43	82 — 80
كَوَاكِبُ	أُفُولُهَا	80	109 — ~~106~~ 220
إِنَّمَا	الآمال	6	124
مَوْلاَيَ	لَهْ	8	128
خَلِيلَيَّ	الأَهْلِ	11	149
لِلّهِ	الْعُلاَ	8	157
حَكَيْتُ	نِصَالاَ	2	161
لَئِنْ	هِلاَلاَ	2	162
خَلِيلَيَّ	مَنالا	2	164
حَلَلْتُ	بِمَعْزِلِ	8	167
حَيًّا	الْعَلِيلْ	8	178
حَدَّثْ	الرَّحِيلْ	36	179
يَا وَحِيدَ النَّدَى	الْعَالِ	20	197
أَخْطَبٌ	تَهَلَّلاَ	74	256
يَمِيناً	الْعُلاَ	52	260
هَنَاءٌ	لِلْمُتَوَسِّمِ	34	19 — 17
تَنَاؤُكَ	لِلنَّاسِمِ	23	41 — 40
هُنِّئْتَ	أَنْجُمَا	30	51 — 50
هَنِيئاً	مُقَسَّمَا	93	117 — 113
دَعِ الْمِصْبَاحَ	الْبَهِيمِ	14	139 — 139
أَمَا تُبْصِرُ	فِي عَمَى	16	142 — 142

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
وَمَا كُنْتُ	الْحِمَى	21	146 ـــ 145
لِلّهِ	رُقُومِي	06	154 ـــ 154
أَشْبَهْتُ	أَسْهُمِي	02	161
رَأْيُ	أَسْهُمِي	02	161
بِبَدَائِعِ	الْهائِمِ	02	163
وَمَجْلِسٍ	الْغَمَائِمِ	14	167 ـــ 166
تَهَادَتْ	لاَ يَتَلَوَّمُ	117	206 ـــ 201
لِمَنِ	وَتَلَوُّمِ	55	208 ـــ 2
بُشْرَى	مَقْدَمُهُ	64	240
أمولاي	الجسيمة	8	233
أَلاَ يَا مَشوقاً	بالْحُسْنَى	36	22 ـــ 21
صَرَفَ	وَسِنانَهْ	74	66 ـــ 63
أَصَوْبَ الْحَيَا	بالرَّقْمَتَيْنِ	19	140 ـــ 140
هِيَ	مَوْلاَنَا	06	154 ـــ 154
أَحْرَزْتُ	الزَّمَنِ	12	157 ـــ 156
يُوسُفُ	أَوْدَعَنِي	02	162 ـــ 162
إِنَّ الَّتِي	نَوَاهَا	44	57 ـــ 55
أَدَارُهُمْ	وَحَيَّاهَا	50	186 ـــ 182
جَادَ الْغَمَامُ	بِرَيَّاهَا	50	187
قِفَا	التحِيَّةْ	18	129 ـــ 128
فَيَا عَذُولَ	يُدَاوِيهَا	9	144 ـــ 144
أَلاَ حَدِّثَانِي	لِيَا	47	198 ـــ 196

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

الحاج محمد باحنيني : المملكة المغربية.
ليوبولد سيدار سنغور : السنغال.
هنري كيسنجر : الولايات المتحدة الأمريكية.
محمد الفاسي : المملكة المغربية.
موريس دريون : فرنسا.
عبد الله كنون : المملكة المغربية.
نيل أرمسترونغ : الولايات المتحدة الأمريكية.
عبد اللطيف ابن عبد الجليل : المملكة المغربية.
إدغارفور : فرنسا.
محمد إبراهيم الكتاني : المملكة المغربية.
إيميليو كارسيا كومير : المملكة الإسبانية.
عبد الكريم غلاب : المملكة المغربية.
أوطودو هابسبورغ : النمسا.
عبد الرحمان الفاسي : المملكة المغربية
جورج فوديل : فرنسا.
عبد الوهاب ابن منصور : المملكة المغربية.
محمد عزيز الحبابي : المملكة المغربية.
هوان كسيانغ : الصين.
محمد الحبيب ابن الخوجة : تونس.
محمد ابن شريفة : المملكة المغربية.
أحمد الأخضر غزال : المملكة المغربية.
عبد الله عمر نصيف : المملكة العربية السعودية.
عبد العزيز بنعبد الله : المملكة المغربية.
أحمد عبد السلام : الباكستان.
عبد الهادي التازي : المملكة المغربية.
فؤاد سركين : تركية.
محمد بهجة الأثري : العرق.
عبد اللطيف بربيش : المملكة المغربية.
محمد العربي الخطابي : المملكة المغربية.
برناردان كانتين : الفاتكان.
عبد المنعم القيسوني : مصر.

المهدي المنجرة : المملكة المغربية.
أحمد الضبيب : المملكة العربية السعودية.
محمد علال سيناصر : المملكة المغربية.
كونستنتان تساتسوس : اليونان.
أحمد صدقي الدجاني : فلسطين.
محمد شفيق : المملكة المغربية.
اللورد شالفونت : المملكة المتحدة ابريطانية العظمى.
محمد المكي الناصري : المملكة المغربية.
عبد اللطيف القيلالي : المملكة المغربية.
أحمد مختار أمبو : السنغال.
أبو بكر القادري : المملكة المغربية.
الحاج أحمد ابن شقرون : المملكة المغربية.
عبد الله شاكر الكرسيفي : المملكة المغربية.
جان برنار : فرنسا.
أليكس هالي : الولايات المتحدة الأمريكية.
روبير أمبركجي : فرنسا.
عز الدين العراقي : المملكة المغربية.
أليكسندر دومارانش : فرنسا.
دونالد فريدركسن : الولايات المتحدة الأمريكية.
عبد الهادي بوطالب : المملكة المغربية.
إدريس خليل : المملكة المغربية.
رجاء غارودي : فرنسا.
عباس الجراري : المملكة المغربية.
بيدرو راميرزقاسكيز : المكسيك.
الحاج أحمد أحيجو : الكامرون.
بوريس بيتروفسكي : الاتحاد السوفياتي.
محمد فاروق النبهان : المملكة المغربية.
عباس القيسي : المملكة المغربية.
عبد الله العروي : المملكة المغربية.
عبد الله الفيصل : المملكة العربية السعودية.

الأعضاء المراسلون

الفونصودي لاسيرنا : المملكة الإسبانية
روني جان دوبوي : فرنسا
ريشارد ب ستون : الولايات المتحدة الأمريكية
شارل ستوكتون : الولايات المتحدة الأمريكية

أمين السر الدائم : عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد : محمد العربي الخطابي

المدير العلمي
مصطفى القباج

مطبوعات
أكاديمية المملكة المغربية

I — سلسلة «الدورات»

* «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نوفمبر 1981.
* «الماء والتغذية وتزايد السكان، القسم الأول»، بحوث موضوع الأكاديمية، أبريل 1982.
* «الماء والتغذية وتزايد السكان، القسم الثاني»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نوفمبر 1982.
* «الامكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، بحوث موضوع دورة لأكاديمية، أبريل 1983.
* «الالتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1984.
* «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أكتوبر 1984.
* «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الأستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية» دورة أبريل 1985.
* «حلقة وصل بين الشرق والغرب : ابو حامد الغزالي وموسى بن ميمون» دورة نونبر 1985.
* «القرصنة والقانون الأممي» دورة الأكاديمية، أبريل 1986.

II — سلسلة «التراث»

* «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة، عضو الأكاديمية، الرباط 1984.
* «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، عضو الأكاديمية، مارس 1985.
* «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، عضو الأكاديمية، القسم الأول من الجزء الأول، أبريل 1986.
* «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، عضو الأكاديمية، القسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1987.

III — سلسلة «المجلة»

* «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأفتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الاثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.
* «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، فبراير 1984.
* «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثاني، فبراير 1985.
* «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثالث، نوفمبر 1986.

IV — سلسلة «الندوات»

* «فلسفة التشريع الاسلامي»، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.

أكاديمية المملكة المغربية
طريق زعير، الرباط (كلم 6,4) ص.ب 1380
الربـاط ـــ المغـرب

رقم الايداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 1987/266

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء